

المُتَشَوِّفُ

محمد حامد



obeikandi.com

نه من تنها سرايم شمس دين وشمس دين ... مي سرايد عندليب أزياغ وكبك أزكو
هسار

باسمه الوُزُق والعنادل تشدو ... لست وحدي أنوح: (شمس الدين)

جلال الدين الرومي

obeikandi.com

مفتح

بعد انقضاء قرون على لقاء شمس ملكداد التبريزي جلال الدين محمدا البلخي في قونية و حتى الآن كثيرًا ما يسأل عدد كبير من المفكرين خاصة ذوي الخبرة بمولانا الذين لديهم شوق إليه : ماذا حدث و ماذا قال شمس في محضر مولانا حتى قدر على أن يغير الأستاذ و الفقيه الغير المنازع في الروم الشرقية على نحو مفاجئ و ينقله من كرسي التدريس و البحث و الاحتجاج إلى محافل السماع و يدفعه إلى الرقص و الدوران في الأحياء و الأزقة ، بل حتى في سوق الصاغة ؟

- أية شخصية كان هذا الرجل حتى جعل وجود العقل محل تساؤل و حوّل الشيخ إلى مدّاح و إلى متحدث بليغ عن علم العشق ؟

- حول أي شيء دارت أحاديث هذين الرجلين الشاب و الشيخ في خلوة لثلاثة أشهر أمضيت في حجرة شبه مظلمة ورطبة ؟

- أياكون من الممكن من خلال الآثار الباقية ، كشف النقاط الأساسية لفكر الدرويش التبريزي و أساليبه الخاصة في العمل و السلوك و الحديث في قونية؛ تلك التي كانت موضع اهتمام مولانا ؟

- لماذا لم تتناغم نظرات جماعة من علماء قونية مع مولانا المتغير و تنسجم معه ؟
- لماذا كان مولانا في أثناء إنشاء غزلياته يتأثر و يجري الدمع من عينيه ؟
- ألا تكون شراسة ابن مولانا الأصغر و ضيق نظره وطبعه الحاقد سببا لهيم شمس على وجهه أو قتله ؟

- ألا يكون حكم بعض المفكرين و آراؤهم المصحوبة أحيانا بالأهواء و عدم الإنصاف مع مضي قرون متطابقة مع الواقع في شأن هذه القضية ؟

- هل صار النقص في الإحساس و العواطف و التشدد الفكري في محيط قونية سببا لانفجار روحي في حياة مولانا ؟

و أعتقد أن كثيرين من الباحثين أيضًا مثلهم كمثل جماعة المنتقدين منجذبون وغير مصونين من الخطأ و في رأي أنهم لم يدرسوا تمام نبوغ شمس و كلامه بعقلانية و حياد، أو نسوا ثقافة شمس و فكره في محيط اجتماعي مظلم في القرن السابع الهجري أو لم يهتموا بهما و لم يعدوا شمسًا في منزلة عارف بصير مطلع و هائم بالعشق و الحقيقة أو انطباعيا impressionist بتعبير أهل عصرنا و في مقام منقد جاد للعلماء و العارفين و المؤرخين الذين سبقوه و كان يرى نفسه شبيها بـ "بروتايوس proteus الذي يظهر في كل زمان و مكان من دون أن يتخذ لنفسه سيماء مشخصه و كان يمضي من مكان إلى آخر غير مهتم بالمنزلة و الجاه و التميز منشغلا باصطياد أصحاب الفكر النفاذ و الشكاكين الذين يفتشون وحيدين ضائعين عن حياتهم ، ليس في العلم المدرسي و ليس في قوانين العقل الجزئي ، بل في مكان آخر و يتابعون ذلك باشتياق .

و مع أن شمسًا كان يعلم أن لديه مهمة وربما رسالة خطيرة في قونية و يمكن أن يقع في شرك الخطر ، خاطر من دون مبالاة و اهتمام و لم يعط أهمية لذلك . و من خلال لقاء واحد قصير الأمد وفق إلى معرفة دقيقة للشخصية الداخلية لجلال الدين ، الذي كان يبحث عنه كمن يبحث عن العنقاء و الكيمياء . و حين اطمأن إلى رؤيته الذاتية و عرفانه ، مثلما يزعم في كتابه " المقالات " أنه شاهد آثارا من التجلي و ميلاً متعالياً إلى إدراك الحقيقة و المعرفة في كلام جلال الدين و باطنه ظهر له تمامًا أنه أسير، أو يعاني في قيد توق إلى مثال صوفي كان يفصله عن الإثبات الواقعي و لكنه استيقن أنه يستطيع في أمد قصير أن يصطاده و يوقعه في شركه . كان شمس عارفا لديه باعترافه هو ، هدف واحد . كان هدفه التغني بالعشق و تبيينه لأصحاب النظر المشتاقين ، و كان عشقًا للناس و عشقًا للموسيقا و عشقًا للعرفان . و لعلّ مولانا كان كذلك أيضًا ، و قد بقي أيضًا مدة طويلة مثل أحمد الغزالي يشكك بكل شيء و لم يكن يطلب العيانية العلمية و التجريب ، بل كان ينشد بطريق معرفة عالم الباطن أن يصل شيئًا فشيئًا إلى حيث لا يرى سوى الله . سأل شمس مولانا في الخلوة بهدوء :

عمّ تبحث ؟ - عن منزلة و منصب عال أم عن إدراك الحقيقة ؟

فيجب مولانا أستاذ دار العلم في قونية :

- عن علة خلق الكائنات ! ليس من طريق العلم ، بل . . قطع شمس فورًا كلام

مولانا و سأل :

- هل قرأت الحديث : " كنت كثيرًا مخفيًا فأحببت أن أعرف . . " على سبيل

الإخلاص ؟

- نعم ، قرأت و لكنني إلى الآن لم أظفر من شجرة المعرفة بثمرة لعلني أكون في

منعطف أول حي من أحياء معرفة النفس .

- أتعرف ثمرة المعرفة ما هي ؟ - يسكت مولانا . دعني أبين لك ، لأن لديك تعلقا وإصرارا و أملا بلقاء الحقيقة . . إن معرفة الحق و تجلي الحق يتيسران بمدد العشق . والحكمة في خلق العالم و آدم أساسها العشق . العشق في عقيدة العارفين مثل الروح من عالم الأمر؛ و بين الروح و العشق فيما أرى ارتباط معنوي و ملكوتي . . . العشق هو الذي يربط بين التراب و الأفلاك بين اللاهوت و الناسوت و البشر مزيج من اللاهوت و الناسوت .

يسكت شمس لكي يرى ماذا ترك كلامه من آثار في أستاذ جامع قونية . كان يرى في عيني مولانا وجدا مصحوبا باشتياق إلى مواصلة هذا البحث المنعش للروح . كان في عيني مولانا وجدا مصحوبا باشتياق إلى مواصلة هذا البحث المنعش للروح . كان يريد أن يدرك مفهوم العشق أكثر ، كان في انتظار استمرار كلام الأستاذ . و كأن شمسًا . اعتمادا على البعد الإيماني للعشق لم يكن يريد ، أو لم ير مصلحة في أن يزيد في إيضاح هذه الأسطورة القدسية و الروحانية في تلك اللحظات .

سأل شمس مولانا :

- أتعرف شهاب الدين السهروردي ؟ - مع أن عقله كان أقل من علمه ، كان يعتقد في مجال الاتصال بين العشق و المعرفة متأثرًا بأقوال سقراط في رسالة المأدبة و شيء من آثار أفلاطون ، أنه :

” عندما تبلغ المحبة الغاية تسمى العشق ، و العشق أخص من المحبة؛ لأن كل عشق محبة و ليس كل محبة عشقا . فالدرجة الأولى هي المعرفة ، و الدرجة الثانية هي المحبة و الدرجة الثالثة هي العشق ولا يمكن الوصول إلى عالم العشق الذي هو فوق الجميع إلا بعد اجتياز درجتَي المعرفة و المحبة ” .

و إذا كان الشبلي صاح و قال : ” ليس في جبتي إلا الله ” و كان حسين بن منصور الحلاج البيضاوي يصرخ و يقرع طبل ” أنا الحق ” فقد كان ذلك بسبب تصورهما أن البشر مرآة الحق و كنا - على الحقيقة - يعتقدان أن الحق يريد أن يرى الإلهي في البشري ، و من هذه الوجهة خلق الإنسان ليكون مرآة جماله . و ما أجمل ما قال الشيخ فريد الدين العطار في هذا المعنى :

خَلَقْنَا الْحَقَّ عَلَى صُورَتُهُ فَأَخَذَ وَصْفُنَا مِنْ وَصْفَةِ السَّبْقِ
فكل ما يظهر فيه هُوَ صُورَتُهُ مثلما تظَهَّرُ صُورَةُ الْقَمَرِ فِي مَاءِ النَّهْرِ

و إنّ للعشق تأثيرًا فعلاً و خلاقاً في مجالات حياة البشر كلها في عالم المعرفة و في الطب و في عالم الموسيقى . و عند عين القضاة ، شهيد طريق العشق أنّ العشق صفة للروح و أنّ العشق و الروح خلقا في لحظة واحدة . و إذا كان العشق خاصية للروح فمرجع ذلك أنه في الأصل صفة للذات أو صفة للحق ، و من هذه الوجهة تقول جمهرة مشايخ التصوف و العرفان " ظننت أنني أنا الذي كنت أحبه ، و عندما تأملت أدركت أنّ محبته إياي كانت . و قد قال عين القضاة في كتاب اللوائح : " إنّ كان لأحد طريق إليه فذلك بتجسس العشق ، المعشوق ملك و الروح مركب ، و العشق صاحب الركاب " و كلما ازداد الإنسان عشقاً للحقيقة و عرف خالق الكائنات على نحو أفضل وأكثر عشقاً ، ازدادت محبة الله (تعالى) إياه لأن المحبة ثمرة المعرفة و كل من لا يحبه الله لا يحبه لأنه ما عرفه تعالى . "

و بالقدرة السحرية للعشق غير شمس مولانا ، جعله مضطرباً مشتت الذهن ، توافقاً للقاء المعشوق ، لا يعرف الليل من النهار ، ولا النهار من الليل ؛ و لهذا السبب كتب مولانا بعد لقائه شمساً في كتابه " فيه ما فيه " " ما يتجه إلى الحق تعالى يكون له وجود مجازي ظلي و يمكن في هذا العالم المحدود بشعاع العشق أن يوصل إلى فضاء الحقيقة الذي لا نهاية له " .

لنعد إلى أساس القضية :

يقطع مولانا كلام شمس و يسأل : قل لي : ماذا نال من معرفة العشق أشخاص مثل الحلاج و الإمام الغزالي و سنائي و السهروردي و الشيخ العطار و عين القضاة الهمداني ؟ و إنّ كتاب " اللوائح " لعين القضاة هو كتاب في العشق . و يقول حجة الإسلام محمد الغزالي الذي كان مراد عين القضاة و معشوقه في كتاب " سوانح العشاق " : " حيناً يكون العشق جوهر منجم و روح المنجم لكي يغدو هو جوهر رائقاً و منجماً عظيماً ، و حيناً يكون شمساً في سماء الروح لكي يتلألأ أكثر ، و حيناً يكون شهاباً في هواء الروح لكي يحترق أكثر و حيناً يكون سرجاً فوق جواد الروح لكي يعتليه الروح . و يسأل مولانا شمساً : في معجم الأساطير و العرفان الإيراني كيف عرف العشق ؟ فيجيب شمس على هذا النحو :

- في معجم الخلق ، بقدر ما ترامى إلى سمعي ، اسم الملك الموكل بالعشق ميتر أو مهر ، و هو أمر يصدقه السهروردي شيخ الإشراق ، و هذا العشق موجد للارتباط بين الخلق و قوي الخير . ولاشك في أنّ العشق موجد للارتباط بين الخلق و قوي الخير . ولاشك في أنّ العشق في أساطير إيران القديمة يختلف كثيراً عن مفهوم إيروس eros إله الحب عند الإغريق . و في المعجم العرفاني في إيران القديمة جاء أنّ خلق العالم و آدم سببه العشق و الوحدة ؛ و للعشق منزلة خاصة لدى الكائنات جميعاً ، وهو أساس

الوجود . و عند شيخ هراة عبد الله الأنصاري أن "الطريق إلى الحبيب حلقة يخرج منها و يعود إليها" . و قد جئت لأوضح لك هذه الحقيقة إذا شئت أن تدرك الحقيقة أو تلمسها فابدأ بالسماع ذلك لأن بذور كثير من الحقائق تشاهد في السماع و أنا و أنت و الناس خلقنا من أجل العشق .

- كان مولانا يريد من شمس مزيد بيان لحقيقة السماع و كان شمس يقول : إن محمد الغزالي ، أبا الإمام الغزالي ، كتب في كتاب " بحر الحقيقة " قائلاً :

" إن حقيقة السماع هي الاستماع لخطاب " ألت بربكم " في يوم الميثاق ، بمعنى أن العارف في حالة الوجد و السماع يسمع صدى " ألت " و يقترب من عهد محبة الحق ، و في هذا السفر المكتنف بالأسرار ، كلما رأى العاشق في عالم التراب إشارة كالطُرة و الضفيرة و الخد و الخال و الحاجب ، تذكر المعشوق و تذكر وجوده ؛ فغاية السماع إذا تذكر المعشوق بمعنى أن السماع يحيي في وجود العاشق حالاً كان الروح قد جربها في عالم الباطن ، أي يسمع صدى عالم اللاهوت في الناسوت .

بعدئذ أضاف شمس ، و قد حملق في عيني جلال الدين المدهشتين ، قائلاً :
" أتعلم أن تجلي الحق ورؤيته يزدادان عند الرجال في أثناء السماع ففي تلك اللحظات يخرجون من عالم وجودهم .

يخرجهم السماع من العوالم الأخرى و يصلهم بالحق . . و إن كان لصاحب سماع المشرق سماع كان لصاحب سماع آخر في المغرب سماع أيضاً ، و يكون لدى كل منهما علم بحال الآخر .

و في رسالة سهسالار ذكر في هذا الشأن ما يأتي :

لم يكن مولانا يُجري السماع أبداً و عندما رأى حضرة مولانا سلطان المحبوبين مولانا شمس الحق و الدين التبريزي بعين البصيرة ، امتثل بناء على إشارة منه ، و بدأ بإجراء السماع و استمر على هذا إلى آخر عمره و جعل ذلك طريقة ورسمًا .

كتب سلطان ولد أيضاً و أيد وجهة نظر سهسالار هكذا :

كَانَ بِتَأْثِيرِ اتِّصَالِهِ بِشَمْسِ الدِّينِ مِنْ أَعْمَاقِ الْقَلْبِ

أَسْبَقُ فِي الطَّاعَةِ مِنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي

وَعَلَى امْتِدَادِ السِّنِينَ وَالْأَشْهُرِ ظَلَّ ذَلِكَ الْمَلِيكُ

مَنْشَغَلًا بِالْعُلُومِ وَالزُّهْدِ وَالِدِّينِ

وَعِنْدَمَا دَعَاهُ شَمْسُ الدِّينِ

إِلَى السَّمَاعِ الَّذِي كَانَ اخْتَارَهُ قَبْلَ مَعْرِفَتِهِ

صَارَ السَّمَاعُ لَهُ مَذْهَبًا وَاعْتِقَادًا صَحِيحًا

وَمَنْ السَّمَاعِ فَمَا فِي قَلْبِهِ مِائَةٌ بُسْتَانٍ

نعم كان شمس التبريزي رجل عشق و حقيقة ، و في الروايات أنه استطاع في مدة أقل من ثلاثة أشهر أن يصنع من الفقيه و المدرس غير المنازع في الروم الشرقية عاشقًا ثائرًا وراقصًا، و ينقله من منصب التدريس و الوعظ إلى حلقات المغنين و المنشدين و في هذا الشأن يعترف مولانا :

كَانَ الْمُصْحَفِ فِي يَدِي دَائِمًا
و فِي الْعِشْقِ أَمْسَكْتُ بِالصَّغَانَةِ¹
و فِي الْقَمِ الَّذِي كَانَ فِيهِ التَّسْبِيحِ
شُعْرٌ وَرُبَاعِيٌّ وَ نَشِيدٌ

و كانت التجليات السحرية المثيرة للاعتبار في ملامح شمس تبدو باعثة على الدهشة و مؤثرة ، ووفقا لرواية الأفلاكي قال مولانا لشمس يوما : " منذ أن عرفتك صارت هذه الكتب في نظري غثة باردة " و قد بين الأستاذ الدكتور موحد في المقدمة التي كتبها لكتاب " مقالات شمس " أن القراءة الدقيقة لأثار مولانا تطلعننا على دورتين في حياته " جاءتا على هذا النحو :

" منذ أن دخل شمس قونية إلى الزمان الذي قُطِعَ فيه بوفاته، أفنى مولانا نفسه في شمس و منذ ذلك الأوان دمج شمسًا بنفسه . و إن غزليات شمس هي انعكاس للدورة الأولى ، إذ شمس كل شيء و مولانا لا شيء ، و إن كان مولانا موجودا فقد كان كالظل وراء الشمس ، بل كخروف العيد في عيد الأضحى ، الذي يتبرك بفدائه و فنائه ، و قد وصل فناء مولانا في شمس في هذه المرحلة إلى مدى يرى فيه نفسه في شعاع خيال شمس و فكره و كل ما يقوله مولانا كان ينسبه إلى شمس:

لَأَنْبِي مَندهش من لقائك
و مثل خَيْالٍ من خيالاتك
فإن فكري و تصوُّري من أنْفاسك
كَأَنَّي أَلْفَاظُكَ و عباراتك

أما المثنوي فعاكس للدورة الثانية من حياة مولانا .

و في الأسطر السابقة قلت إنه لم يكن جلال الدين قد سمع فلسفة العشق من لسان شمس لما صار راقصا و منشدا للغزليات ، و حمله العشق على الصياح و ألقى في روعه تلقين الشعر . و إذا أراد مولانا أن يصف العشق أو يعرفه فلا بد له من أن ينظم أو يكتب ما كان قد سمعه في شأن هذه المقولة من شمس في الخلوة .

و العشق الذي تحدث عنه شمس و مولانا مرارا ليس مستمدًا من فكر الآخرين ،

خاصة أفلاطون في أثره المسَمَّى "المأدبة" بل من مقولات جديدة و بديعة و من خاصيات فكر مولانا الصافية في شأن العشق أن العشق في ذاته خلاق محيط لا يهدأ خرج من كانون نور أنوار الحقيقة و يسير إليه أيضًا . و قد جاء في الكتاب الخامس من "المثنوي" قوله:

العِشْقِ بَحْرٍ و السَّمَاءِ فَوْقَهُ زَبَدٌ

مِثْلَ زُلَيْخَا فِي هَوَى يَوْسُفَ

فاعلم أن دَوْرَانِ الْأَقْلَاقِ مِنْ مَوْجِ الْعِشْقِ

وَلَوْ لَمْ يَوْجَدْ الْعِشْقُ لِتَجْمَدِ الْعَالَمِ

و عندما يجرب كرامات العشق يتمسك بأذيال العشق ، ثم على نحو مفاجيء يدوي

في باطن وجوده هاتف أو نداء يضطره إلى أن يرفع صوته و يقول :

يَقْتَلِعُ مَخْلَبَ الْعِشْقِ مِنَ الْجُدُورِ

كُلَّ مَنْزِلٍ دَخَلَهُ ضِيَاءُ شَمْسِ الْعِشْقِ

و عِنْدَمَا رَأَى قَلْبِي بَحْرَ الْعِشْقِ عَلَى حِينِ غُرَّةٍ

و ثُبَّ مَنِي إِلَيْهِ و قَالَ : حَصَلَنِي

و عِنْدَمَا صَارَ أَمِيرَ الْحَانَةِ نَدِيمًا لِقَلْبِي

صَارَ دَمِي شَرَابًا مِنَ الْعِشْقِ و صَارَ قَلْبِي كِبَابًا

و يعترف مولانا أيضًا مثله في ذلك مثل عدد من العارفين الذين سبقوه ، بتضاد

العقل و العشق ووفقا لما يقول الدكتور خليفة عبد الحكيم : " يرى مولانا أن العقل

الجزئي الذي يعد نفسه بفخر عقلا علميا و قادرا على إيضاح الحوادث كلها حل مُعَمَّيات

العالم عندما يواجه بشهود الحياة و العشق يعجز و يكل ... و قد قرأنا في المثنوي :

الْعَقْلُ الْجُزْئِيُّ لَيْسَ عَقْلُ اسْتِنْبَاطِ

و مَا هُوَ إِلَّا قَابِلٌ لِلْفَنِّ و مَحْتَاجٌ إِلَى التَّعْلِيمِ

و يَكُونُ الْعَقْلُ الْجُزْئِيُّ مُنْكَرًا لِلْعِشْقِ

مَعَ أَنَّهُ يَظْهَرُ صَاحِبُ سِرِّ

و يصمت مولانا عن تعريف أكثر للعقل الجزئي و يأسف لعجز الكلام عن وصف

أكثر له في مقابل العشق و يمضي إلى القول :

فَمَاذَا يَكُونُ الْعِشْقُ إِذَا إِنَّهُ بَحْرٌ الْعَدَمِ

و قَدْ كَسَرَتْ الْعَقْلَ هُنَا الْقَدَمِ

و لَيْتَ الْوُجُودَ كَانَ لَدَيْهِ لِسَانٌ

لِكِي يَزِيحَ الْحَجَبَ عَنِ الْمَوْجُودَاتِ و الْأَعْيَانِ

و إن سحر العشق أقدر من العقل الجزئي على تقريب الإنسان المعتقد و المخلص
و العاشق إلى الشهود الكوني لأن العشق يزيل الحُجب :

إِذَا كَانَ سَقْفِ الْبَيْتِ حِجَابًا لجمال الشَّمْسِ فَأزل هَذَا السَّقْفِ سَرِيعًا بِمَعْوَلِ عَشِقِ
الْحَقِّ

و يعتقد مولانا أنه لا تفاوت أبدًا بين العشق الكلي و العقل الكلي من وجهة أنه لا
يمكن اعتبار هذا الشهود أو الإحساس الكوني قرينا أو مطابقا للإحساس الجسماني
النفساني و اللذة و الألم ، فالعشق ينتمي إلى مقولة أخرى ، ولا يعترف بسيماء خاصة
للمحبيب :

الصُّورَةُ لَيْسَتْ هِيَ الْمُعْشُوقِ
سَوَاءٌ أَكَانَ الْعِشْقُ دُنْيَوِيًّا أَمْ أُخْرَوِيًّا
الْعِشْقُ أُسَمِيَ مِنْ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ
وَهُوَ أَخْضَرَ وَ طَرِيٌّ مِنْ دُونَ رَبِيعٍ وَ حَرِيفٍ
و إن جيشاننا ليس من الغمِّ و السُّرُورِ
ولا يكون عَقْلُنَا رَفِيقًا لِلخيالِ وَ الوَهْمِ
إِنَّهُ حَالَةٌ أُخْرَى نَادِرَةٌ
فلا تُنْكِرُ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ جَدًّا

و يذكر مولانا أن هذا الإحساس الكوني لديه هو حقيقة الدين و عصارته . وإن
شمسًا التبريزي في رحلته الأولى التي أقام فيها مدة ستة عشر شهرًا في قونية و أضحى
مبلغًا قويًا و مندفعًا للعشق ، سلم جلال الدين مفتاحًا لكشف لغز الروح الذي
هو العشق، مفتاح يرفع به الحُجب عن أسرار ماهية الوجود و دقائق الكائنات قدر
المستطاع و الميسر . و هذا مبعث أن جلال الدين يعد الضيف التبريزي المدعو أو
الطفيلي " مفخر الأفاق " و " الروح المصور " و " بحر الرحمة " و " شمع الأفلاك
التسعة " ، و " مولى موالي الأسرار " و ينشد :

فِي لِحْظَةٍ تَخْتَلِطُ بِالثُّرَابِ وَفَاءً وَ فِي لِحْظَةٍ
تَجْتَازُ العَرْشَ وَ الفُرْشَ وَ حُدُودَ الكَوْنَيْنِ
العُقُولِ وَ العُلُومِ كُلِّهَا نُجُومِ
وَ أَنْتَ شَمْسُ الدُّنْيَا الَّتِي تَمَرَّقُ الْحَجَبِ
مَنْ أَنَا ، قَلْ ، أَنَا الْمُسْكِينُ الَّذِي أُبْقِي مَعَكَ
أَفْنِي أَنَا وَ مائة أَنَا ، فلماذا تنظرُ إِلَيَّ ؟
وَ إِنَّ النَّعْتِ الْكَامِلِ لِلْمولى شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ
تَجَاوَزَ أَوْهَامَ الْجَبْرِيِّينَ وَ القَدْرِيِّينَ

و يقول الأستاذ جلال الدين هُمائي :

”كل هذا التحرق و الذوبان الذي أحاط بأقوال مولانا و غمرها ، و يعطي لكل إنسان بقدر ذوقه و استعداداه تحرقا و وجدًا ، هو أثر من آثار عين تحرقُ العشق و المحبة و حرارتها الداخلية و ثورتها و نشاطها ، التي رسخت في أعماق روحه و لم تنفصل عنه لحظة واحدة حتى آخر عمره الذي امتد إلى نهاية نظم المثنوي .

و ليت الأستاذ أضاف : أن هذا الحال و هذا الاهتياج و هذا التحرق التي غدت أساسًا لجيشان الطبع و لإيجاد مطالب عرفانية جديدة. كانت نتاجا لبلاغة شمس التبريزي و عرفانه ، وهو الذي أمسك بيد مولانا ، و بتعريفه العشق قاده إلى معراج الحقائق ، و قال له : إن الإنسان هو مجلى اللاهوت في الناسوت ، و مظهر الربوبية في رداء البشرية ، و مكان سجود اللامكان في المكان .

و في شأن جاذبية العشق و المحبة و السير إلى المقصد الأعلى ذكر شمس التبريزي لمولانا مطالب دقيقة تذهب إلى أنه لو لم يكن العشق كونيًا لما كان الوجود ، و أن القدرة الجاذبة للعشق هي وحدها مشوقة و محرّكة إلى إنشاد الغزليات العشقية الصافية و المشاركة في جلسات السماع .

و في مجال ” المكان ” و ” اللامكان ” و ” التلوين ” و ” توجيه الساعة ” كشف شمس الحجاب عن كثير من الأسرار ، و قد نظم مولانا أقوال مراده (شمس تبريز) و توجيهاته شعراً :

عِنْدَمَا يَكُونُ فِكْرُكَ كُلُّهُ مَشْغُولًا بِأَحْوَالِ
مَحَالٍ أَنْ يَطْرَأَ عَلَى ذِهْنِكَ فِكْرَةٌ
وَ الْفِكْرَةُ تَكُونُ مَنِبْثَقَةً مِنَ الْمَاضِي وَ الْمُسْتَقْبَلِ
فَإِذَا مَا تَحَرَّرْتَ مِنْ هَذَيْنِ حَلَّتْ الْمُسْكَلَةُ
وَ التَّلْوِينَاتُ كُلُّهَا ظَهَرَتْ مِنَ السَّاعَةِ (الزَّمَانِ)
وَ قَدْ نَجَا مِنَ التَّلْوِينِ مِنْ نَجَا مِنَ الزَّمَانِ
وَ عِنْدَمَا تَتَحَرَّرُ سَاعَةً مِنْ حُكْمِ الزَّمَانِ
لَا يَبْقَى كَيْفٍ وَ تَعُدُّو نَدِيمًا لِمَنْ لَا كَيْفَ لَهُ
فَاخْرَجْ سَاعَةً مِنْ حُكْمِ الزَّمَانِ ، أَيْهَا الْقَلْبُ
لِكَيْ تَتَحَرَّرَ مِنْ ” كَيْفٍ ؟ ” وَ مِنْ ” لِمَاذَا ؟ ”
وَ لَا عِلْمَ لِلزَّمَانِ عَنِ ” اللَّازِمَانِ ”
لَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ سِوَى التَّحْيِيرِ
وَ الْإِحْسَاسِ بِالذَّاتِ مَبْعُوثِهِ تَدَكَّرَ مَا مَضَى
وَ مَاضِيكَ وَ مُسْتَقْبَلِكَ هُمَا جِجَابُكَ عَنِ اللَّهِ

و " اللامكان " الَّذِي فِيهِ نُورُ اللَّهِ

مَنْ أَيْنَ لَهُ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلُ وَالْحَالُ ؟

و ماضيه و مستقبله موجودان نِسْبَةً إِلَيْكَ ،

و الْإِثْنَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ و أَنْتَ تَخَالَهُمَا أَتْنَيْنِ

و عِنْدَمَا يَمْضِي هَذَا نِ كِلَاهِمَا إِلَى اللَّاعِقِل

يَغْدُو الْوَالِدُ و الْمُؤَلُودُ هُنَاكَ شَيْئًا وَاحِدًا

و يعتقد كثير من العلماء بمولانا خاصة العارفين و المشايخ الكبار ، أن كلام شمس و سيماءه يتجليان في المثنوي كله ، و في كثير من الغزليات العشقية الموزونة الموقعة ؛ و لكن جلال الدين لا يريد لأسباب معينة أن يذكر اسم محبوبه صريحاً . و يقول الدكتور موحد : " إن مثنوي مولانا هو على الحقيقة رواية منظومة و مشروحة لكلام الشيخ التبريزي و شرح رمزي لإنعامه و فضله . "

كان شمس أيضاً عارفاً آثار كلامه الشبيه بالسحر إذ يعترف في كتاب " مقالات شمس " قائلاً :

" من وجد طريقاً إلى صحبتي علامته أن صحبة الآخرين تغدو عنده باردة ومرة ، ولا تغدو باردة على نحو يظل فيه يصحهم ؛ بل على نحو لا تبقى له معهم صحبة . "

و قد جاء في " مناقب العارفين " للأفلاكي أن مولانا - في شأن تأثير كلام شمس الذي يقول عنه .

مَنْ جَوَاهِرَ بَحْرِ كَلَامِكَ الَّذِي لَا نَهْيَاةَ لَهُ

صَارَ الْحَجَرَ عَقِيْقًا و صَارَتِ الْأَحْوَالُ مَلِكِيَّةَ

وَأَحْوَالُ الْكَامِلِينَ الَّتِي هِيَ وَرَاءَ الْأَقْوَالِ

حَجَلَةٌ مِنْ أَلْقَى ذَلِكَ اللَّحْنَ الْأَخَاذِ فِي الْأَقْوَالِ

- ذكر أن نفسه المبارك كان نجياً للمسيح ، و في علم الكيمياء ليس له نظير ، و في الكواكب و الرياضيات و الإلهيات و الحكميات و النجوم و المنطق و الجدال ليس له مثيل ؛ لكنه عندما صاحب رجال الله أهمل كل هذه المعارف و محاسنها من نفسه .

- و كان مولانا يعد أكثر أقوال شمس من الأسرار ، و ربما لم يسمح بأن ينقل في آثاره إلا المطالب التي كانت مُجازة ؛ و شمس نفسه أيضاً كان قد قال مراراً في مجالسه : " أقول أسرار لا أقول كلاماً . "

و قد قرأنا في ديوان العشق أو الديوان الكبير ديوان شمس :

قَلَّ أَسْرَارَ هَذَا بِدِقَّةٍ مَتْنَاهِيَّةٍ و حَرْفِيًّا

يا من مزجت في البَيَانِ الحَرْفَ و اللّحْنَ

أو :

أَنْتَ دَفْتَرٌ لِكُلِّ سِرِّ يَا شَمْسَ الحَقِّ التَّبْرِيزِيَّ

يا من جَعَلْتَنَا جَمِيعًا طَرْفَةَ بَغْدَادَ

أو :

أَنْتَ مَفخَرُ تَبْرِيزَ ، يَا شَمْسِ الدِّينِ

و كَشَفُ أَسْرَارِكَ غَيْرُ جَائِزُ

و الشيخ التبريزي ، الذي امتلك تحقيقات و معارف كاملة في الأديان و العقائد و المذاهب المختلفة في عصره ، كان قد قال لمولانا في رحلته الثانية إلى قونية : إن السالك العاشق و العارف المشتاق إذا لم يصبح دخانًا مُبددًا فلن يغدو شمعة حرم الوجود و لن يستحق العروج به إلى مدارج الكمال . و شمس على الحقيقة رجل وقت ومغرم بالعشق و الموسيقى ووفقًا لاعترافه في " المقالات " كان " مُزدانًا ببراعاتٍ و مهاراتٍ و فنون كثيرة .. " و كان يرى الإنسان بعينه الرائيتين للحقيقة الكاشفتين للعلل في أوج العظمة و الجلال ، و كان يريد أن يسير مدرس دار العلم المشهور في الروم الشرقية في مسير بديع و جديد و هو طريق بدايته بالعشق إذ " الكائنات كلها إقليم العشق " و الرقص و المشاركة في السماع ، و نهايته بالغزليات الصافية الغنائية و الأناشيد الخالدة أسى من كل الفلسفات و المشارب و المنطقيات فهل جلا الكلام النافذ الساحر عند شمس ، أو الاشتراك في مجالس السماع القريحة الشعرية و العرفانية عند مولانا ، و أوصل عالم كلامه إلى مستوى يظل فيه محل عناية العشاق و الهائمين في هذه الدنيا، حتى الآن بعد انقضاء قرون و أعصار ؟

يذهب أحد الدارسين إلى القول إنه يشاهد في أشعاره كلها هالة من العشق كأنه كان سباحًا في أضواء النجوم، أو يتخذ من روح الوجود ساحة ، إذ كان يرى في كل مكان و حتى الدقائق الأخيرة من حياته وجود شمس التبريزي في أفق مشاهداته الخالقة، فيصعد سلم الفلك راقصًا . و من هذه الوجهة كأن مولانا كان دائمًا ينظر إلى أفق الحياة الأخاذ الذي لا نهاية له بأمل ورجاء لألاءٍ مشرق، فنال بقلب حي، و بمدد الكشف و الشهود ميثلاً مثيرًا للحيرة إلى عتبة العقل و المعرفة و الإيمان الراسخ.

و إذا ما سلمنا بأن جلال الدين البلخي بعد لقاء شمس أو هجرانه ، فقد شخصيته و اتحد بمراده، لا بد لنا من التسليم بأن العاشق النقي الطينة في النهاية كان يرى المحبوب في نفسه وأن الأمر كما يقول الأستاذ موحد: " إذا كان ينشد الشعر فقد كان يرى نفسه نقاشًا يبدع نقوشًا وصورًا على صحائف الورق ، فيبعث شمس الروح في قوالب تلك الصور ؛ إذ كان شمس معنى شعره ومفهومه :

أَفْرُكُ هَاتَيْنِ الْعَيْتَيْنِ مِتْسَائِلًا : أَهْوَ مَنَامٌ أَمْ خَيَالٌ ؟

وَلَا أَصَدَقُ عَجَبًا أَيُّهَا الْحَبِيبُ أَنَّ هَذَا هُوَ أَنَا !

نَعَمْ هَذَا أَنَا لَكُنَّكَ أَخْرَجْتَنِي مِنْ ذَاتِي

أَتَخَلَّقُ مِنْ بَدْرِكَ نَجِيلاً كَالْهَلَالِ

أَنْتَ نَفْحُ الصُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ أَنَا جُنَّةٌ هَامِدَةٌ

أَنْتَ رُوحُ الرَّبِيعِ الْجَدِيدِ وَ أَنَا السَّرْوِ وَ السَّوْسُنُ

قُلْتُ نِصْفَ الْمَطْلُوبِ ، فَقُلْ أَنْتَ الْبَاقِي مِنْهُ

أَنْتَ عَقْلُ الْعَقْلِ وَ أَنَا غَايَةُ فِي الْعَبَاءِ

رَسَمْتَ صُورَةً وَ نَفَخَ الرُّوحَ مِنْ شَأْنِكَ أَنْتَ

أَنْتَ رُوحُ الرُّوحِ وَ أَنَا قَالِبُ الْجِسْمِ

و ابتغاء أن يبين شمس قدرته الروحية و تأثير كلامه في قونية قال :

الشمس التي تُنير العالم كله ترى الضياء الذي يتنزل من فهي؛ فالنور يخرج من كلامي و يتلألأ تحت الحرف الأسود ! و لهذه الشمس نفسها ظهرٌ موجه إليها هي ووجه موجه إلى السماوات و ضياء الأرضين منها .

و بعد ذلك يضاعف الحديث في شأن العلاقات القوية جدا بينه و بين مولانا و يخلص إلى هذه النتيجة : " إنَّ وجه الشمس موجه إلى مولانا لأن وجه مولانا موجه للشمس " .

ولاشك في أن القراء قد انتبهوا إلى أن الشمس هنا أو في هذا الكلام هي شمس الدين و القمر هو مولانا . لأن شمسًا قال في موضع آخر من " المقالات " :

” إن مولانا هو ضوء القمر لا يصل إلا إلى القمر، وفي موضع آخر من المقالات و ابتغاء أن يحدد منزلته و منزلة جلال الدين البلخي و مقامهما الحقيقي لدي مريديه و محبيه في قونيه كتب يقول :

” إذا سُئلت : كيف عرفت مولانا فقل :

إذا سألت عن قوله فاقراً : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وإذا سألت عن فعله فاقراً : (كل يوم هو في شأن) : و إذا سألت عن صفته فصفته هي : (قل هو الله أحد) و إذا سألت عن اسمه فاقراً : (هو الله الذي لا إله إلا هو عليم الغيب و الشهادة هو الرحمن الرحيم) ، و إذا سألت عن ذاته فاقراً : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

القضايا التي كان شمس يتحدث عنها في الروم الشرقية و كيفية عمله و سلوكه حتمت أن يصمم المعاندون و يتحدوا لإخفاء صوته، و كان المخالفون المتعصبون المتشددون يقولون لابن جلال الدين الأصغر : هذا المغمور التبريزي شيطان مجسم ومبتدع ، بينما ذكر مولانا في آثاره أن فكر شمس التبريزي و آراءه مستمدة من ينبوع الدين، و أن لديه إيماناً قلبياً بالقرآن وهو مفسر للقرآن ، وإن هيام مولانا بشمس و المعارف العجيبة التي ظفر بها في تحليل الفِكر الدينية و العرفانية و التاريخية ، إضافة إلى الحكايات الأخاذة التي قصها في الخلوة يمكن العثور عليها في المثنوي و الديوان الكبير ، و إنه صحيح أن فرقا من الباحثين بعد مطالعة دقيقة لكتاب ” مقالات شمس ” زعم أن كثيراً من أقوال شمس و مواظمه و حكاياته قد ظهر ناقصاً، أو كاملاً في المثنوي ؛ لكنه لا ينبغي نسيان مهارة جلال الدين و أستاذيته و تمكنه مصحوبة بتصرفات سحرية ، أو إلهام نشأ من ذهنه الوقاد في توضيح أكثر القصص و الحكايات و هنا، و على سبيل المثال لا بد من أن أنقل شيئاً مما هو مشترك بين ” مقالات شمس و منظومات جلال الدين بقدر ما تأذن صفحات الكتاب لكي يطلع عليه القراء المحترمون :

1- جاء في ” مقالات ” شمس : كُتِبَ على شاهدة قبر: ” كان عمر هذا ساعة واحدة، الصوفي ابن الوقت ” و لنا تلك الساعة من العمر التي لقينا فيها حضرة مولانا (جلال الدين) . مقالات الجزء الثاني ، ص 40 .

و قد أنشد مولانا في الجزء الثالث من المثنوي :

الصُّوفِيُّ ابْنُ الوَقْتِ أَيُّهَا الرَّفِيقُ

و ليس قَوْلِكَ " غَدًا " من شُرُوطِ الطَّرِيقِ

2- في " المقالات " الجزء الثاني ، ص 44 نجد قوله : " قالوا لصوفي : ارفع رأسك و انظر إلى رحمة الله ، فقال : تلك الآثار أما الأزهار و الشقائق ففي الداخل . "

وقد قال مولانا في الجزء الرابع (من المثنوي) :

كَانَ صُوفِيٌّ فِي حَدِيقَةٍ وَ انْتَظَارًا لِلْكَشْفِ وَ الْمَشَاهِدَةِ وَضَعَ وَجْهَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ كَمَا هِيَ عَادَةُ الصُّوفِيَّةِ . ثُمَّ غَابَ فِي نَفْسِهِ عَلَى نَحْوِ عَمِيقٍ فَتَضَايَقَ أَحَدُ الْفُضُولِيِّينَ مِنْ هَيْئَةِ نَوْمِهِ . الْبَسَاتِينُ وَ الْخُضْرَةُ فِي ذَاتِ الرُّوحِ وَ مَا هُوَ خَارِجُ (الرُّوحِ) هِيَ صُورَتُهَا كَأَنَّهَا فِي مَاءِ جَارٍ . فَذَلِكَ هُوَ خَيَالُ الْبُسْتَانِ فِي الْمَاءِ وَهُوَ يَضْطَرِبُ وَ يَرْتَجِفُ بِسَبَبِ رِقَّةِ الْمَاءِ وَ لُطْفِهِ . وَهَنَّاكَ بَسَاتِينُ وَ ثِمَارُ فِي الْقَلْبِ وَ صُورَةٌ لُطْفِهَا مُرْتَسِمَةٌ عَلَى هَذَا الْمَاءِ وَ الطِّينِ .

3- مثلما قلنا قبل ، روى شمس الحق التبريزي لمولانا و للأصحاب قصصًا و حكايات أخاذة في مدة إقامته، عند الوعظ ، و قد جاء بعضها في أجزاء المثنوي الستة ، و من ذلك مثلا حكايات " الأمراء " التي بقيت ناقصة في الجزء السادس من المثنوي لأسباب مجهولة؛ و لكن القراء في متناولهم أن يقرؤوا هذه الحكاية الجميلة كاملة في " المقالات " . و مهما يكن فإنه في الجزء الثاني من " المقالات " زُوِيَتْ حكاية تقول إن " يهوديًا و مسيحيًا و مسلمًا جمعتهم صحبة الطريق و قد وجدوا ذهبًا في الطريق و أعدوا حلوى و قالوا : تأخر الوقت اليوم ، غدًا نأكل الحلوى و هذا قليل ، و يأكل من يرى منامًا جميلًا ...

و قد ذكر مولانا في الجزء السادس من المثنوي قوله :

إِنَّ يَهُودِيًّا وَ مُؤْمِنًا وَ مُسِيحِيًّا تَرَافَقُوا فِي سَفَرٍ

4- في الجزء الثاني من " المقالات " جاء قوله هكذا " ملأت قدحا لا أستطيع الشرب، لا أستطيع الإراقة قلبي لا يشاء أن أتحرر ، أذهب ، المقالات : الجزء الثاني ص 52 .

وقد أنشد مولانا في ديوان شمس :

لدي قَدْحٌ فِي يَدِي وَ اللهُ إِنْ لَمْ تَأْتِ فَلَنْ أَشْرَبَهُ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَنْ أُرِيقَهُ
5- في الجزء الثاني من " المقالات " جاء قوله : " لعل الشخص الذي قال هذا لم يكن لديه أي خبر عنه، ولا عن حال الفلاح الريفي ، ولا يعرف النظم ولا النثر ؛ كان سنائي و نظامي و خاقاني و العطار هم الذين لديهم نصيبٌ من هذا القول ، الجبن غذاء كلب الصيد و هل يأكل الأسد الجبن ؟ يأكل الأسد قلب الصيد كبده، لكل شخص

و قال مولانا في الديوان الكبير :
لا أَكُلُ إِلَّا الْكَبِدَ وَ الْقَلْبَ لِأَنِّي أَسَدٌ مُمَرِّقٌ لِلْكَبِدِ وَ لَسْتُ خَسِيصًا مِثْلَ كِلَابِ الصَّيْدِ
طعامي الجُبْنُ
وقد قرأنا في المقالات :

" بدا وصلك عزيزًا واحسرتاه ، إن العمر لا يفي: لا بد من دنيا مليئة بالذهب لكي أنثر
على وصلك ، عندنا الله الحي إلى متى نجعل الله ميتًا ؟
" المعنى هو الله هو عين المعنى ، الذي قلناه و عهد الله لا يفسد ، أما هو فيفسد
يكون فاسدًا " المقالات الجزء الثاني ، ص 60 .

و قد استفاد مولانا من هذا المعنى ، فأنشد في الجزء الأول من المثنوي :
قَالَ شَيْخُ الدِّينِ: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَعْنَى بَلْ إِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ بَحْرُ الْمَعَانِي! : وَإِنَّ جُمْلَةَ
أَطْبَاقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ مِثْلُ قِشٍ فَوْقَ ذَلِكَ الْبَحْرِ الرَّخَّارِ
7- وقد جاء في المقالات :

أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ عِنْدَ بَائِعِ التَّيْنِ
بَيْعُ التَّيْنِ أَهْمُهَا الْأَخُّ

" الجزء الثاني من المقالات ، ص 71 ،

و قد ضمن مولانا هذا البيت على هذا النحو:

أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ عِنْدَ بَائِعِ التَّيْنِ، أَهْمُهَا الْحَبِيبُ
بَيْعُ التَّيْنِ أَهْمُهَا الْأَخُّ الْعَزِيزُ

نَحْيًا تَمَلِّينِ وَنَمُوتُ تَمَلِّينِ أَهْمُهَا الْحَبِيبُ

وَكَذَلِكَ نُجْرِي تَمَلِّينِ إِلَى الْمُحْشَرِ أَهْمُهَا الْحَبِيبُ

من الديوان الكبير الرباعية 55

مولانا جلال الدين ونظم الشعر:

يعتقد بعض الباحثين و العلماء بمولانا أنّ إنشاد جلال الدين البلخي الشعر بدأ في
سن الأربعين ، إثر لقائه شمسًا . ووفقًا لما يذكر مولانا ما كان في ذلك الزمان في خراسان
الكبرى شيء أسوأ من إنشاد الشعر و نظمه؛ لكنه جلس وقتًا مع شمس في الخلوة و
اختبره سلطان المعشوقين الشيخ التبريزي في البلاغة و الخطابة و الدراية و الكياسة
و من المحتمل أن يكون أوصاه بأن يختبر طبعه و يقرض الشعر، مثل سنائي و العطار

نجمي سماء العرفان الإيراني اللآلاءين في الوقت نفسه الذي صار فيه الشيخ المفاتي شاعرًا بفضل العشق مثلما ابنه سلطان ولد .

و يعتقد الأستاذ بديع الزمان فُروزانفر أن "...مولانا بدأ نظم الشعر في سن الثامنة و الثلاثين تمامًا؛ و بهذا المعنى يمكن أن نقول إنَّ مولانا نابغة أي شخص نظم الشعر على حين غيرة و من دون أن يمتلك مقدمات الشعر . و العجيب أن هذا الشخص الذي لم يمتلك سابقة شعرية و لم يتدرب و يتلمذ في مدرسة الشعر و النظم نظم شعرًا كثيرًا و أجاد في هذه الأشعار الكثيرة كلها .

انطوت " شاهنامه الفردوسي ، في أكبر تقدير، على اثنين و خمسين ألف بيت، أما مولانا فقد أربى مجموع أشعاره على سبعين ألف بيت غزليات مولانا في حرف " الياء" وحده ثماني مائة غزلية ، و يعادل ذلك تقريبًا غزليات سعدي، و مثلي غزليات حافظ و قد نظم مولانا الشعر على خمسة و خمسين بحرًا شعريًا . و في اللغة الفارسية لم يستطع أي من شعرائنا أن يقدم هذا القدر من التوسع في الأوزان . و حتى الأوزان المهملة التي وجدت في الشعر القديم ثم تركت استعمالها مولانا جميعًا و نظم عليها نظمًا فاق النظم على الأوزان المستعملة .

و لكن الأستاذ جلال الدين هُمائي ذكر في الجزء الثاني من كتابه " مولوي نامه " قوله : " و لكن لا يمكن إنكار أنه بحكم قانون الفطرة لابد أن الاستعداد لهذا الفن كان موجودًا في جيلة مولانا و خليفته الذاتية وديعة إلهية وهو شيء اصطدم بشمس و تغير أحواله فأفضى إلى السكر و ضجيج جلبات العشق و الخلاصة أنني أعتقد أن القدرة الخلاقة و التمكن المدهش و الطبع الخصب لدى مولانا في فن الشعر و البراعة الساحرة في الفصاحة و اللسن . . . كانت جزءًا من الغريزة الذاتية و الخصائص الموروثة و نتاجًا للغة الفارسية الأصلية لغته الأم .

ولا ينبغي إغفال لقائه العارف التبريزي و صحبتته إياه؛ فقد كان شمس لجلال مثل شمس سطعت على غصنه المثمر ، و صارت مُفتحًا لنمائه . و قد أشار أيضًا إلى الأستاذية حيث أنشد :

تَفْتَحُ فَتَحْتُ فَتَحْتُ وَفُلُ فَتَحْتُ فَتَحْتُ

فَإِنَّ صِفَةَ الصِّفَاءِ وَالْمَوَدَّةِ مِنْ جَمَالِ السُّلْطَنَةِ

أما الأفلاكي راوية الحالات الدقيقة و اليومية لمولانا و شمس تبريز في كتاب " المناقب " فيذكر في شأن علاقة جلال الدين البلخي بنظم الشعر و المشاركة في مجالس السماع قوله :

" هكذا واصل حضرة " مولانا " متأثرًا بجاذبية سلطان الأحرار ، الهيجان و التوقُّز ، و داوم على إنشاء المثنويات و الغزليات في حالات السماع و القعود و القيام و النهوض

و الراحة، حتى إنه كان يُملي ذلك باستمرار من أول الليل حتى مطلع الفجر .
وقد استنتج المرحوم الأستاذ مسعود فرزاد الذي قدّم في موضوع أوزان غزليات
مولانا تحقيقات و بحوثاً و تمحيصات كثيرة، أن مولانا استعمل في أشعاره ما لا يقل
عن ثمانية و أربعين وزناً مختلفاً؛ و هذا العدد في مقابل واحد و عشرين وزناً عروضياً
تؤلف مجموع الأبحر الشعرية في ديوان حافظ ، يثبت أن تنوع الأوزان في ديوان مولانا
هو على الحقيقة أمرٌ باعث على الحيرة . ولا شاعر من شعراء إيران و تبعاً لذلك من
شعراء العالم يضاهي مولانا في تعدد الأوزان العروضية ولا حتى يُدانيه في ذلك أيضاً .
و من المصادفة أن مولانا نظم على بحر الرجز المثلث المطوي أي تكرر " مفتعلن " أربع
مرات في كل من الصدر و العجز ، ثمانية و خمسين غزلية؛ و يستفاد من هذا أن هذا
الوزن كان محل اهتمامه و تعلقه .

وكان شمس يعتقد أن الشعر الممتع والمؤثر ، الذي يكون موزوناً و مثيراً يؤثر في روح
السامع و قلبه و يغمره بالتفكير فوق شريط الزمان المهتز . و يذهب في أحد أقواله إلى
أنه يدفع الروح إلى الطيران في عالم الرؤى .

و في عقيدة مشايخ الطريقة أنّ " السماع " له في كل سالك عاشق تأثير مناسب
لدرجته . و يعتقد سريُّ السَّقْطِي² أنّ قلوب أهل المحبة ينتابها الطرب في أثناء السماع ،
و قلوب التائبين ينتابها الخوف ، و نار قلوب المشتاقين تأخذ في التأجج .

و إنّ عشق مولانا للكائنات و لجريان الوجود و لاتساع الوجود و للإنسان الكامل
واحدٌ من أكثر العوامل الداخلية قوة لإنشاد منظوماته . و عندما كان الهيجان و الحال
في أثناء الرقص يغيبه عن نفسه كان يصرخ و يقول :

مَا أَجْمَلُ الْعِشْقِ مَا أَجْمَلُ الْعِشْقَ الَّذِي لَنَا يَا اللَّهُ

كَمْ هُوَ جَمِيلٌ، كَمْ هُوَ لَطِيفٌ، كَمْ هُوَ رَائِعٌ يَا اللَّهُ

وَإِنَّا بِسَبَبِ مَاءِ الْحَيَاةِ هَذَا نَرْقُصُ وَنَدُورُ

لَا مِنْ الْكَفِّ وَلَا مِنَ النَّايِ وَلَا مِنَ الدَّفِّ يَا اللَّهُ

وَقَدْ جَعَلْتَ كَمَّكَ نَايَ الْجَسَدِ كُلِّهِ ثَقُوبًا

لِكَيْ يَظَلَ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي هَذَا التَّوَجُّعِ وَ الْاِهْتِجَاجِ، يَا اللَّهُ

وَمِنْ أَيْنَ لِلنَّايِ الْمَسْكِينِ أَنْ يَعْلَمَ طَرِيقَ اللَّحْنِ وَالنَّغْمِ

إِنَّ نَفْسَ النَّايِ هُوَ الْبَصِيرُ وَالْعَلِيمُ، يَا اللَّهُ

كَمْ نَحْنُ حَارُونَ كَمْ نَحْنُ حَارُونَ مِنْ هَذَا الْعِشْقِ كَالشَّمْسِ

مَا أَخْفَاهُ، مَا أَخْفَاهُ، مَا أَظْهَرَهُ، يَا اللَّهُ

2- من كبار المتصوفة. بغدادى المولد والوفاء. وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين
وشيوخهم في وقته. وهو خال الجنيد، وأستاذه. قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري. أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعا
إلا في علة الموت. طبقات الصوفية ٤٨ - ٥٥

وَمِنْ شَمْسِ الْحَقِّ تَبْرِيزِ، الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْعَيْنَانِ
حَائِرَةً وَمُضْطَرِبَةً فِي عِشْقِهَا، يَا اللَّهُ

ولا شك في أنّ مولانا في ذكره المتكرر لشمس ، سواء أكان ذلك في دائرة معارف العرفان ، " أجزاء المثنوي الستة" أم في ديوان العشق " ديوان شمس " أبرز دائماً و باشتياق مراده التبريزي أمام عينيه المحترفتين للعشق ؛ هذا المراد الذي ترك في ذهنه وروحه تأثيراً عميقاً باقياً ، على نحو اضطر فيه إنساناً كان من أعظم نوابغ الدين و متحلياً بكل صور الإدراك المعنوي إلى أن يدعو " نور ذات الله " و يقول :

مَا أَجْمَلَكَ مِنْ شَمْسٍ لَا نَهَايَةَ لَهَا حَتَّى إِنَّ ذَرَاتِكَ نَاطِقَةٌ
أَأَنْتَ نُورٌ ذَاتُ اللَّهِ؟! أَأَنْتَ اللَّهُ؟! لَا أَعْلَمُ

إِنَّ آلَافَ الْأَرْوَاحِ الْيَعْقُوبِيَّةِ تَحْتَرِّقُ كُلُّهَا مِنْ هَذَا الْحُسْنِ
فَلِمَاذَا يَا يُوسُفَ الْجِسَانَ تَظَلُّ فِي هَذَا الْجُبِّ؟! لَا أَعْلَمُ

و قد كتبت العاملة المتخصصة بمولانا النافذة النظر ، السيدة الألمانية أنيماري شيمل التي خصصت فصلا من كتابها (الشمس المنتصرة) للصور الخيالية المرتبطة ب " الشمس " في أشعار مولانا تقول : " سيكون العشق المظهر للشمس مبنياً على عشق القيم التي لا تفني ! " .

و يعتقد نيكلسون شارح المثنوي الشهير بالإنكليزية أنّ عرفان شمس و إشراقه هو المصدر لإلهام جلال الدين محمد مولانا؛ و إنه من هذا المنبع يتدفق " المثنوي " و " ديوان شمس " من مجريين منفصلين أحدهما نهر عظيم و هادئ و عميق ، و الآخر تدفق شبيهه بالسيل مفعم بالحماسة ... ففي المثنوي مزج جلال الدين العلم و الطريقة و العرفان على نحو غاية في البراعة ، محصلته ماء زلال سائغ شرابه ملائم لمذاق عطشى العشق و طريق السير و السلوك و المعتقدين و مزاجهم .

و قد كتب الأستاذ جلال الدين هُمائي في المقدمة التي أعدها لديوان شمس يقول : " إذا قسمنا الشعر الفارسي على مدرستي العقل و العشق أو الحال و القال ، فإن آخر كتاب في مدرسة العشق هو ديوان غزليات شمس نفسه ، ولا يريد هنا إلا اضطراب الجنون و ذهول الوجد و الحال و الهيجان و الحماسة ، أما سَدَاةُ الغزليات و لحمتها من أولها إلى آخرها فهو العشق و الحال و الجذب و الهيجان هي الكلمات التي في شدة الاضطراب و انقلاب الحال تخرج من دماغ متلاطم و روح مفعم بالعشق ، وقد أشارت إلى حالاته المختلفة و وجدده و فراقه و نشاطه و حزنه و أساه و سماعه ورقصه و لهذا السبب لا تروق إلا الذاهلين الذين عاشوا نماذج من هذه الأحوال .

بعض العلماء المتخصصين بمولانا يعدون المثنوي منجماً للحقائق و منبعاً غزيراً للهيجان و الحال و العرفان و يقول المرحوم الأستاذ فُروزانفر :

”إنّ مولانا عارف ثملٌ بعشق الحق غارق في أمواج نور شمس الروح وروحه، مفعم بالتفتح و السرور حتى إنه يرى مظاهر العالم جميعاً للألاءة من هذا الضياء .

فمن ذا الذي يقرأ هذه الأبيات ولا تدركه حيرة عظيمة ومن الذي يسمعها ملحنة أي مصحوبة بصوت الناي و الرباب و الدف ولا يحترق عقله وروحه :

- فأَي جميل لم يغد قبيحاً ؟ أو أي سقّف لم يغد مفرشاً (مساوياً للأرض) ؟
- إلا أصوات (الأولياء) الأعزاء في صدورهم أولئك الذين يكون نفخ الصور من صدَى أنفاسهم
- فباطنهم هو الذي سكرت منه البواطن؛ و فناؤهم هو الذي استمد وجودنا منه الوجود .
- و الولي هو كهرياء الفكر و كل صوت ، وهو لذة الإلهام و الوحي و الأسرار .

إنّ عددًا من مشاهير المحققين و منهم الأستاذ و الشاعر العالم السيد الدكتور محمد رضا شفيعي كدكني ، يعتقد أن جلال الدين محمدًا البلخي عرف في تاريخ الأدب الإيراني من طريق المثنوي أكثر منه من غيره ، و الديوان الكبير ، ديوان شمس تبريز ، لم يحظ برواج كبير في فضاء الشعر و الأدب . أما المثنوي فإنه سواء أكان ذلك في القرون المنصرمة أم في الزمان الراهن ، كان يقرؤه قُراء المثنوي الملحنون في الزوايا الصوفية . و كان نفر من الشيوخ المطلعين على الأدب يفسرونه و يوضحون معانيه . و من المحتمل أنه في حلقات التصوف و في أثناء إنشاد المثنوي كانت غزليات من ديوان شمس تقرأ أيضًا ، أو أنها في أثناء السماع و في ذروة الهيجان و الوجد كانت تصل إلى أسماع العشاق منبعثة من حناجر المغنين المجيدين . و مهما يكن ، فإن المثنوي وديوان شمس قد صدرا عن فكر مولانا الدائمة و أنظاره العرفانية العميقة الخالدة و في أجزاء المثنوي الستة يطلع العارفون و العشاق المؤمنون المعتقدون بالطريق الصوفي على علم النفس . وهنا سيتعرفون جيدًا لماذا يحتاج السالك في طريق السير و السلوك إلى ولي أو مرشد و شيخ موجه .

و قد كتب الأستاذ سُروش في مقالته الجذابة الخليقة بالقراءة في أحد أعداد صحيفة ” كمان ” تحت عنوان : ” المثنوي و الديوان الكبير فاكهتان من شجرة واحدة ” يقول :

” نجد لدى مولانا في المثنوي سلطانًا عجيبيًا ، إذ إنه في عين السُّكر يراعي الأدب ويربط بين المعنى و الصورة . و مع أن كل شيء كان يدعوه إلى تقطيع سلسلة التدبير و إتلاف اللفظ و الصورة و تشتت الكلام ، و مع أن أصول العافية و القافية قد ضاعت

منه و أسلمه جنون إلى جنون ليجعله مضطربًا و متوفّرًا و مع أنه شبع من الفضل و الذكاء و مزق برد الحياء و قلّت قدرته على الصبر و افتقد القدرة على سماع إغواء الهجران و أسلم بيت القلب للاحتراق ، (مع ذلك كله) يظل طاهر و الأنفاس الذين استوطنوا ضميره و ندماء خلوة الأّنس و عالمو أسرار قباب الغيرة يدعونه إلى كتم السر و التستر و قائل " يا جميل الستر " يأمره بالصمت ليحترف الصمت ، أو بسبب الغيرة يصدر صوتًا جاذبًا للقلوب لكي يفتن به المخاطبين و يشغلهم عن رؤية مستوري حرم الغيب ، و مولانا نفسه في الديوان الكبير مجنون كبير ، ليس إلا شعارًا و شعلة نار وهو نديم لشراب جهنم السكارى و محترق الروح الطالب للنار الذي لا يأخذ ماء الحياة بشيء .

و مختصر القول أن المثنوي الذي له ارتباط بمقالات شمس ، ينطوي على بيان لحقائق العرفان و التصوف و شرح و تفسير لرموز الآيات القرآنية و الأخبار النبوية؛ لكن مولانا كأنه كان يسعى إلى إفشاء قدر قليل من أسرار ما حدث بينه و بين شمس . أما في الديوان الكبير أو ديوان العشق فإن صياحه و ضجيجه يصم أذن الفلك و بنغمه الساحر يثير حسد كوكب الزهرة التي هي رب الطرب . و في فراق شمس يكشف أسرار عالم الباطن بمهارة و حذق و من دون تحفظ و من دون مبالاة حتى إنه لو كان الحسين ابن منصور الحلاج شهيد طريق العشق و الحقيقة حيًا لأفتى بشنقه :

إِذَا كُنْتُ أَنْتَ نَفْسِي ، أَمُّهَا الْحَبِيبُ فَأَنْظُرُ فَإِنِّي بِلَا
وَلِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ الْأَسْرَارِ عِنْدَمَا أَكُونُ عَلَى هَذَا الْوَضُوحِ
وَأَشْرُ إِلَى الْحَلَاكِ الَّذِي جَاءَ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى الْمَشْنَقَةِ
وَمِنْ قُوَّةِ أَسْرَارِي إِبْعَثْ الْحَلَاكِ حَيًّا

و بعض أشعاره العشقية ، لأنها تفيض من قلبه المليء بالألم ، تأخذ لون الدم و من هذه الوجهة يقول :

عِنْدَمَا يَقُورُ الدَّمُ أُعْطِيَهُ مِنَ الشَّعْرِ لُونًا
وَلَكَيْلًا يَغْدُو لِبَاسِي مَلَطَخًا بِالدَّمِ ، تَكُونُ أَنْتَ مُلَطَّخِي بِالدَّمِ
انظُرْ إِلَى الدَّمِ فِي نَظْمِ شِعْرِي وَلَا تَنْظُرْ إِلَى الشَّعْرِ
لَأَنَّ لِعَيْنِي وَقَلْبِي مِنْ عَشْقِهِ تَلُونُنَا بِالدَّمِ

و مولانا في " الديوان الكبير " غارق في بحر من النور ، كأنه غريب ليس من أهل هذه الدنيا و الأفلاك السبعة كلها ضاقت عليه ، وهو يعترف بأن صدره حانة قديمة :

وَمِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ يُخَاطَبُ شَمْسًا:
مِنْ كَأْسِ شَرَابِكَ يَكُونُ رَأْسِي مُضْطَرِبًا وَمِنْ رُؤْيَتِكَ يَكُونُ جَسَدِي رُوحًا
تُضَيِّقُ عَلَى الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةَ جَمِيعًا عِنْدَمَا يَدْخُلُ هُوَ فِي قَمِيصِي

مَا أَجْمَلُ شَمْسًا مَا أَجْمَلُ الْعِشْقَ

و أي إنسان ما خلا تلميذًا و مريدًا ممتازًا لشمس ، يمكن أن يدعي أنه يصنع رسنًا من أشعة النور اللألاءة . و بتعبير أحد المتخصصين بمولانا كيف يمكن التعبير عن كل هذه الجراءة و السخاء و التغافل و الاضطراب و الهيام ، مع كل هذا الضبط للنفس و

السعة و الصمت أي شخص قادر على أن يقول :

كُنْتُ زَهْرَةً صِرْتُ قَمَرًا، صِرْتُ فَلَكًا مِنْ مَتِّي طَيَّة

كُنْتُ يَوْسُفَ، وَمِنْ الْآنِ صِرْتُ أَلْدُ أَمْثَالَ يَوْسُفَ

ظَفَرَ قَلْبِي بِضِيَاءِ الرُّوحِ فَأَنْفَتَحَ قَلْبِي وَأَنْشَرَ

نَسَجَ قَلْبِي أَطْلَسَ (رِدَاءَ حَرِيرِيًّا) جَدِيدًا صِرْتُ عَدْوًا لِهَيْدِهِ الْخِرْقَةِ مَا أَحْلِي شَمْسًا مَا أَبْهَى شَمْسًا!

هذا الروحاني الكبير ، هذا الأستاذ و الفقيه غير المنازع في الروم الشرقية ماذا سمع أو أي سر كُشف له ، حتى سئم قلبه – فجأة- المدرسة و أهلها وكتب الدراسة و تغير و اضطرب و اعترف :

كَانَ الْمُصْحَفُ فِي يَدِي دَائِمًا وَفِي الْعِشْقِ أَمْسَكْتُ بِالصَّغَانَةِ

وَفِي الْقَمِ الَّذِي كَانَ فِيهِ تَسْبِيحٌ شِعْرٌ وَدُو بَيْتٍ وَرُبَاعِي

أي شخص كان قادرًا على أن يشوق جلال الدين البلخي إلى السماع ؟ سلطان ولد الابن الأكبر لمولانا ، ينشد في " مثنويه " إجابة هذا السؤال من دون لبس على هذا النحو:

كَانَ بِتَأْثِيرِ إِتِّصَالِهِ بِشَمْسِ الدِّينِ مِنْ أَعْمَاقِ الْقَلْبِ

أَكْثَرَ طَاعَةَ مِنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي

وَعَلَى إِمْتِدَادِ السِّنِينَ وَالْأَشْهُرِ ظَلُّ ذَلِكَ الْمَلِكِ

مُنْشَغِلًا بِعُلُومِ الزُّهْدِ وَالدِّينِ

وَعِنْدَمَا دَعَاهُ شَمْسُ الدِّينِ إِلَى

السَّمَاعِ الَّذِي كَانَ مُخْتَارًا عِنْدَهُ قَبْلَ مَعْرِفَتِهِ

صَارَ السَّمَاعُ لَهُ مَذْهَبًا وَاعْتِقَادًا صَحِيحًا

وَمِنْ السَّمَاعِ نَمَا فِي قَلْبِهِ مِائَةٌ بُسْتَانٍ

و جلال الدين مسرورٌ ، لأنه بلقاء الشيخ التبريزي و مجالسته ولد من جديد ، و تخطى هذا الحد ، و يعترف بأنه اقترب من محبوبه الجديد الوافد حتى كأن الاثنين لهما ذهن واحد و إدراك واحد و قد رأى الحي و وصل إلى القيوم . و لنقرأ معًا اعترافات مولانا بإخلاص :

مَا أَقْرَبُ رُوحِكَ مِنْ رُوحِي حَتَّى إِنَّ كُلَّ مَا تُفَكِّرُ فِيهِ أَعْلَمُهُ

أو :

نَحْنُ نَارَ الْعِشْقِ وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى الشَّمْعِ
وَمِثْلَ الشَّمْعِ وَصَلْنَا إِلَى الْفَرَاشَةِ الْمَطْلُومَةِ
وَقَدْ طَرْنَا، مَصْحُوبِينَ بِآيَةِ الْكُرْسِيِّ، نَحْوَ الْعَرْشِ
حَتَّى رَأَيْنَا الْحَيَّ وَوَصَلْنَا إِلَى الْقِيُومِ

أو :

وَمَاذَا أَقُولُ؟ - كُنْتُ مَيِّتًا مِنْ دُونِكَ تَمَامًا
وَقَدْ خَلَقَنِي الْحَقُّ مِنْ جَدِيدٍ مَرَّةً أُخْرَى
فَأَذِّنْ لِي بِأَنْ أَقْبَلَ يَدَكَ وَقَدَمَكَ
وَأَعْطِنِي الْعِيدِيَّةَ، فَإِنَّ هَذَا الْيَوْمَ عِيدِي

و في هذه المنظومة المثيرة للبحث يحتاج إلى مزيد تدقيق خاصة أن شمسًا التبريزي قال في " المقالات " :

" كان هذا الدُّنُّ من شراب رباني، وضع السر في الطين ليس لأحد اطلاع على هذا، وقد أصغيت إلى العالم ، فكنت أسمع هذا الدُّنُّ كُشف بسبب مولانا؛ و كل من تصل إليه فائدة من هذا يكون السبب في هذا مولانا "

و جدير بالذكر أن مولانا في نظر الأستاذ الدكتور موحد كان يرى أن شمسًا التبريزي هو " موالي الأسرار " و " سلطان المعاني " و كان يرى نفسه في مقام التسليم له و الضراعة مثل الحمل الوديع في يد الراعي و كان ينشد :

مَوْلَى مُوَالِيِ الْأَسْرَارِ طَائِرِ الْبُلْحِ الَّذِي يُعْطِي الْحُطُوتَ لِأَصْحَابِ الْحَطِّ
مُسْتَقْرُّ الرُّوحِ شَمْسُ الدِّينِ التَّبْرِيْزِيِّ لَا قَدْرَ لِلَّهِ لِرُوجِي إِنْفِصَالًا عَنْ رُوجِهِ
أو :

يَا مَنْ أَنْتَ صَوْتُ وَصَدْي لِتِلْكَ الدُّنْيَا يَا مَنْ جِئْتَ لِكِي تَدْعُونِي
كُنَّا نَنْتَظِرُ نَفْسَكَ فَارْجِعْ فَأَنْتَ رَسُولُ اللّامَكَانِ
نَحْنُ عِنْدَكَ أَمَانَةٌ شُعَيْبٍ فَاغْتَنِ بِنَا فِي الضِّيَافَةِ

ولأن مولانا جلال الدين عاشق ، و لأنه بفضل إرشادات شمس متحرر من شرك الحوادث و يسير في داخل عروق ظواهر الوجود، و كان يسبح في أنوار السيارات و المجرات ، كانت الغزليات و الأناشيد التي أثبتها في " الديوان الكبير " علامة على الضجر و القلق و الانفعال و الوله ، و مفعمة بالجدب و الإلهام ، و لها قدرة خلاقة شبيهة بالمعجزة على إثارة العواطف العشقية . و بعض أشعاره أيضًا مجلى للألم و العذاب الناشئ عن فراق سلطان المعشوقين و البعد عنه .

و إذا كانت أجزاء المثنوي الستة و الديوان الكبير بعد انقضاء القرون و الأعصار، و حتى هذا الوقت محل اهتمام أصحاب القلوب و العشاق المؤثرين لهذه الدنيا ، و تمنح

قلب القارئ و السامع لذة رؤيوية و ملكوتية ، و تُهدي سُكراً و نشاطاً ، فإنّ مردّ ذلك إلى أن جلال الدين البلخي مروج لفكر شمس تبريز المتعالية المحببة للناس ، و لعله من شعراء الصوفية المعدودين الذين عبروا عن ثورات العشق بأحلى صور الكلام، و من جهة أخرى صور شعره سيماء مقالات شمس " على نحو غاية في البراعة و الروعة .

و يقدم مولانا جلال الدين في أجزاء المثنوي الستة و في الديوان الكبير ، شمساً التبريزي في صورة منبع حياته الجديدة ، شمس الذي كان بميول محيرة و ثورة كلام وأدلة قاطعة يسخر من معظم آثار العلماء و الفلاسفة و العارفين في الزمان الماضي، و في زمانه هو و بكلامه الذي يأخذ بمجامع النفس ألقى شرارة في بَيَدَر إحساس مولانا و عاطفته انتهت بأن يرقص و يغيب عن نفسه .

فتح شمس أمام باصرتي جلال الدين النافذتين أفقاً جميلاً ، و باعثاً على الهيجان من العرفان العشقي و قطع خيط العلوم القديمة الذي كان يُثقل فكره دفعة واحدة، و علمه أن يصل إلى عالمه الباطني . و تمثل هذا في أن كان جلال الدين البلخي يوصي الوالهيين في طريق العشق بقوة : إن شئتم أن يكون لكم نصيب من مواهب الحياة وجمال الكائنات و تستحق أسماؤكم أن تثبت في دفتر الأيام مخلدة باقية على الدوام على نحو رائع فتعلموا أسرار العشق و السُكر :

أَذْهَبُ وَاعْبَسِلْ صَدْرَكَ مِنَ الْأَحْقَادِ سَبْعُ مَرَّاتٍ بِالمَاءِ مِثْلَمَا تُغَسِّلُ الصُّدُورُ
وَصِرْ عِنْدِيذٍ كَأَسَا لِشَرَابِ الْعِشْقِ صِرْ كَأَسَا.

و أنشد في المثنوي :

- اجْعَلْ نَفْسَكَ نَقِيَّةً مِنْ صِفَاتِ الْإِحْسَاسِ بِالدَّاتِ حَتَّى تَرَى ذَاتَكَ الطَّاهِرَةَ الصَّافِيَةَ.
- وَاخْرُجْ عَنِ اللَّوْنِ كَمَا يَخْرُجُ الْحَدِيدُ الْمَصْقُولُ عَنِ لَوْنِهِ، وَتَكُنْ بِالرِّيَاضَةِ مَرَأَةً لَا

صَدَأَ فِيهَا (ج 1 / 60-3459)

و يروي مولانا أن مراده التبريزي قال له : ادْخُلْ فِي ذَاتِكَ، إِبْتِغَاءً أَنْ تُشَاهِدَ حَيَاةً حَقِيقِيَّةً لَهَا سَمَاءٌ أُخْرَى وَقَمَرٌ آخَرُ:
- أَنْتَ حَتَّى الْآنَ حَقِّي فَمَاذَا رَأَيْتَ مِنْ جَمَالِكَ؟ - وَفِي وَقْتِ السِّحْرِ مِثْلَ الشَّمْسِ
ادْخُلْ بِاطْنِ ذَاتِكَ.

فالظفر بعالم العشق المثير غير ممكن من طريق الفضل و العلم و القيل و القال في المدرسة؛ و يقول العارفون و الصوفية: العشق قابل للمجيء بنفسه ، غير قابل للتعلم . و كان مولانا الذي أفنى نفسه في شمس ، ثم بعد هجرانه إياه كان يراه في نفسه يوصي أصحابه بالقول : إذا شئتم أن تطلق أجنحة أرواحكم المقيدة و تصلوا إلى تلك الناحية من الزمان و المكان فعليكم أن تتحرروا من الألوان المختلفة و تتصلوا إلى تلك الناحية من الزمان و المكان فعليكم أن تتحرروا من الألوان المختلفة و تتصلوا بالعلم

- الذي لا لون له و في هذا القصد يجب أن تنسوا حتى دقائق الحياة الماضية و الحاضرة.
- اخْرُجْ سَاعَةً مِنْ "حُكْمِ" الزَّمَانِ أَهْمَا الْقَلْبِ لِكَيْ تَتَحَرَّرَ مِنَ الْكَيْفِيَّةِ وَ الْعَلِيَّةِ .
 - وَ لَيْسَ لِلزَّمَانِ خَبْرٌ عَنِ اللَّزْمَانِ لِأَنَّهُ لَا طَرِيقٌ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ إِلَّا الْحَيْرَةُ .
 - وَ عِنْدَمَا تَخْرُجُ لِزُهْرَةٍ مِنْ "حُكْمِ" الزَّمَانِ لَا تَبْقَى هُنَاكَ "كَيْفٌ" وَ تَعْدُو مُحَرَّمًا
- "اللاكييفية"

و في تلك الحال و ذلك المقام تطوف بإخلاص ، مثل أبي يزيد³ و الشبلي و الحلاج حول كعبة الوجود و يملأ الطنين الخالد لهتافك : " ما أعظم شأني " و : " و أنا الحق ، فضاء قلبك ، و تصيح :

- أَنَا ذَلِكَ الرُّوحُ الْمُخْتَفِي مِثْلَ الرُّوحِ ، أَنَا ذَلِكَ الْقَمَرُ فِي عَالَمِ اللامكان .
- أَنَا شَمْسٌ سَمَاوَاتِ الْيَقِينِ الَّذِي نُورُ الْقَمَرِ وَضِيَاءُ الشَّمْسِ سَمَاوِي .
- أَنَا ذَلِكَ الْمَجُوسِي الَّذِي يَلِدُ مِنْهُ الْإِيمَانُ ، أَنَا الْكُفْرُ وَ لِكِنِّي الْأَمْنُ وَ الْأَمَانُ .
- أَنَا تِلْكَ التَّفَخُّةُ الَّتِي نَفَخْتُ فِي مَرِيَمَ أَنَا ذَلِكَ الرُّوحُ الَّذِي هُوَ رُوحُ لِعِيسَى .
- أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا أَحَدَ غَيْرِي هُوَ دَاخِلَ الرُّوحِ وَ خَارِجَ الْعَالَمِ .
- يَسْجُدُ لِي مَنْصُورٌ (الْحَلَاج) وَ الشَّبَلِي فِي الْمَعْنَى وَ أَنَا بَيْنَ هَذَا وَ ذَلِكَ .
- وَ قَدْ مَضَتْ آفَ الْقُرُونِ وَ أَنَا دَاخِلَ سِتُورِ الْآنَسِ وَ الرُّوحِ .
- وَإِذَا كُنْتُ أَضَعُ غِطَاءً عَلَى عَيْنِي ، فَإِنِّي ظَاهِرٌ لِأَعْيُنِ أَهْلِ الْقُلُوبِ .
- لُذْتُ بِالصَّمْتِ بِأَمْرِ شَمْسٍ تَبْرِيزِ ، ذَلِكَ لِأَنِّي لِسَانٌ فِي أَفْوَاهِ الصَّامِتِينَ .

ويقول شمس إنَّ العشق هو الأساس للمعرفة و العلم ، وإنه من قلب العاشق تطلع الشمس و يتنبأ بأنَّ العشق سيُشمل العالم كله ، و سيبلغ سير العارف في طلب الحقيقة و نيل المعرفة مرحلة يشاهد فيها الحق تعالى في مختلئ القلب بعين القلب و في النهاية يعود في سيره نحو الكمال إلى المركز الفياض الأول ، الذي هو الوجود المطلق :

إِذْ أَصِيرُ عَدَمًا وَ الْعَدَمُ كَالرُّغْنِ⁴ يَتَغَيَّرُ لِي قَائِلًا: " وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " .

3- زاهد مشهور، له أخبار كثيرة. كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر. نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها، ووفاته فيها.

في يوم الأحد الخامس من جمادى الآخرة سنة 672هـ السابع عشر من ديسمبر عند الغروب ، ودّع جلال الدّين الدنيا، ليلتحق بشمس الأزل ، لكن شعاعه ظلّ وراءه ، لم يتلاش على امتداد سبعة قرون .

obeikandi.com

اللفية الأارفة

قد فكون القرن السابع الهجرى (١٣ م) المرلفة الأكثر سحرًا، وفى الوقت نفسه الأكثر تعقفداً، فى أارى العالم الإسلامى .

فأئر وفاة النبى محمد (علفه الصلاة و السلام) سنة ١١ هـ (٦٣٢ م) بسط المسلمون حكمهم من الجزيرة العربفة على أصقاع واسعة من العالم المعروف إذ ألك: فقد اندمجت سورفة و مصر و إفران سرفعًا فى الإمبراطورفة الجديدة ، و فى سنة ٩٢هـ (٧١١ م) وصل المسلمون إلى إسبانيا، و وادى السند Indus Valley، و السعد Transoxania. و الممالفك التى أوجدتها فى النقاط المتقدمة من شرقى الإمبراطورفة و غربفها صارت أقوى و أكثر استقلالًا مع تقدم الوقت . على أن شبه الجزيرة الإفررففة استثناء من هذه القاعدة فإن استعادة النصارى التدرففة لإسبانيا قد أكملت سنة 897هـ (1492م) و قد ورث الإسبان حضارة متألفة قدر لها أن تؤثر تأفرا عمفقا فى تطور أوربا المسففة.

جاء حكام كثفرون ثم مضوا، و " العصر الذهبى لل خلفاء الراشدفن الأربعة انتهى سنة 40هـ (-661) بمقتل الإمام " على بن أبى طالب " ابن عم النبى (علفه الصلاة و السلام) و زوج ابنته . أما الأسرة اللاحقة الأموىون، الذفن نقلوا إقامتهم من دار الإسلام إلى سورفة، فقد شنوا حربوا ناجحة ووسعوا حدود الإمبراطورفة بعبدا بعبدا، رغم أن المسلم الورع لم ترضه حفاتهم الدنفوفة المترفة و اهتمهم بعدم اتباع أوامر القرآن على نحو دقق كما كان متوقعا منهم فىما أوتوا من سلطان و قدرة بوصفهم أمراء للمؤمنفن . و فى سنة 61هـ (680م) قتل الابن الأصغر للإمام على (كرم الله وجهه) الحسين مع معظم أفراد عائلته ، فى معركة كربلاء ، وهو الحدث الفاجع الذى كان سببا لتبجفل شعبى عمفق إزاءه . وقد انقسم شفعة الإمام على حالًا، وهم الذفن غدوا أساسا هذا

العشق على فرق مختلفة و حكموا أحيانا (في القرن 10هـ 4 م مثلا) أصقاعا واسعة من العالم الإسلامي ، مجتذبين الجماهير بتفسير أكثر عاطفية لبعض جوانب الإسلام ، و فئات من المثقفين أيضا من خلال دمجهم التأويلات الفلسفية و المباحث الإلهية .

في سنة 132هـ (750 م) انتزع العباسيون ، وهم أقرباء النبي عليه الصلاة و السلام من خلال عمه العباس ، الحكم و نقلوا العاصمة إلى بغداد و من هنا غدت التأثيرات الإيرانية في الثقافة الإسلامية واضحة المعالم في كل مجالات الحياة . و تعد الحقبة العباسية ذروة الحضارة و الأدب و الفن في دنيا الإسلام . و قد أعدت الترجمات من اليونانية و الهندية و الفارسية لكتب الطب و الفلسفة و الرياضيات و طور علماء المسلمين هذه العلوم و وضعت الأسس النظرية للشريعة الإسلامية و طوّرت المذاهب الفقهية الأربعة و نما التفكير الكلامي المسلح بالسلاح الجديد المتمثل في المصطلحات الفلسفية الهلينية في اتجاهات مختلفة . أما المعتزلة الذين استخدموا لأول مرة أدوات الفلسفة في الدفاع عن التوحيد الذي أتى به الإسلام في وجه تهديد فكر الأثينية الفارسية .

و التثليث المسيحي ، فقد حُظروا أخيرا ، و أما التيارات التي التزمت الإسلام القائم على الشرع ، ذات الإيمان الراسخ بأن القرآن كلام الله الأزلي غير المخلوق ، فقد أصبحت راسخة الأساس في أراضي الإسلام . و في الوقت نفسه ، مال المسلمون الأكثر تقى و ورعا إلى الزهد الصارم – في مقابل الترف المتزايد للحياة اليومية و اسم العرفان الإسلامي ” التصوّف ” مشتق من ارتدائهم أردية الصوف . و في خراسان و العراق ، و في مصر و سورية ، اجتمع ذوو الميول الزهدية في جماعات صغيرة ، ثم من هذه الحركة التي ركزت على التأمل الدائم للقرآن الكريم و الفقر و الإيمان الكامل بالله (سبحانه) انبثق التصوّف الصادق . و المثل الأعلى في العشق الكامل بالله (سبحانه) بعيدا عن أية رغبة أنانية – سواء أكان ذلك الرغبة في الجنة أم الرهبة من النار – كان مستحسنا و مستثمرا إلى أقصى نتائجه . و يُعزى إلى رابعة العدوية ، العارفة البصرية ، إدخال هذه الفكر . و منذ أوائل القرن الرابع الهجري (10 م) يجد المرء ممثلين للاتجاهات المختلفة في التصوّف : فهناك ذو النون النوبي في مصر (ت 245هـ 859 م) الذي تنتهي أدعيته الشعرية المفعمة بالحماسة إلى أرق إبداعات الأدب الصوفيّ الأصيل في الثقافة العربية ، و هناك الرجل العجيب المتفرد بايزيد البسطامي (ت 260هـ 874 م) في غربي إيران ، المعروف ب ” منهجه في الوصال من طريق نفي السوى negative way of union و تشديده على الفناء ، أي فناء الصفات البشرية في الله ؛ و نجد يحيى بن معاذ (ت 257هـ 871 م) الواعظ الذي ينتسب إلى مدينة الري الذي كان له ” لسان في الرجاء ” و العلماء

المعتدلين للمدرسة البغدادية ، وزعيمها الحارث المحاسبي (ت243هـ857م الذي استمد لقبه من تأكيده ضرورة محاسبة النفس و أخذها بالشدة : هذا النظام من علم النفس الصوفيّ الذي شكّل التدريب الروحي للصوفية المعتدلين المتأخرين يجد تعبيره الأول في كتاباته . و بين أعلام مدرسة بغداد يتراءى اسم الجُنيد (ت297هـ910م) الأكثر شهرة ، كان " شيخ هذه الجماعة " " طاوس الفقراء " و معظم السلالات الروحية للطرق الصوفيّة المتأخرة يمكن أن يعود إليه . و تبعاً للروايات فإنه هو الذي انكشف له أن مريده السابق حسين بن منصور الحلاج سيلقى نهاية فاجعة. و الحق أن الحلاج الذي يُعد الممثل الأبرز للتصوّف المبكر أُعدم بوحشية سنة 309هـ 922م. كانت الأسباب سياسية قبل كل شيء - و ليس كما يميل المرء إلى الاعتقاد و كما تؤكد الحكاية ، بسبب مقت الفقهاء لعبارته : " أنا الحق " ، أو " أنا الله " . ورغم أن الحركة الصوفيّة امتدت تقريبا فوق كل بلد إسلامي ، ظلت فِكر الحلاج حية تحت السطح و خاصة في إيران . غدت مرة أخرى واضحة المعالم في آثار العطار (ت 617هـ1220م) ، الشاعر الصوفيّ النيسابوري الذي غدا منهمكا روحيا في الحياة الصوفيّة بفضل " شهيد الحب الإلهي " البغدادي .

على أن الشعر الفارسي ، منذ بدايته الحقيقية - مثلا بدءا من القرن الرابع الهجري (10م) - تأثر بالفكر الصوفيّ كان المؤلف الأول الذي استخدم الفارسية لأدعيته الشعرية الجميلة عبد الله الأنصاري (481هـ1089م) شيخ هراة و مؤلف كتاب مهم في سيرة حياة الأولياء باللغة الفارسية . و استخدام صوفية آخرون في شرقي إيران " الرُباعي " أداة للتعبير عن تفكيرهم الصوفيّ . و مرة أخرى في المنطقة نفسها - أفغانستان الحالية - ألّف أول عمل تعليمي شامل : إذ كتب سنائي الغزنوي (ت525هـ1131م) شاعر البلاط السابق الذي تحوّل إلى التصوّف ، كتابه " حديقة الحقيقة " قريبا من سنة 514هـ1120م ، و هكذا وضع النموذج لكل المثنويات الصوفيّة التي جاءت بعدُ ، و هي أعمال تعليمية نظمت في قالب مؤلف من شطرين مقفيين بقافية واحدة ، و تتضمن قصصا كثيرة و حكايات و أمثالا من دون ترتيب ثابت لإيضاح جوانب مختلفة للحياة الصوفيّة و السلوكية . و قد تابع مثال السنائيّ فريد الدّين العطار الذي كانت ملاحظته المتعددة أكثر فنية من ملاحم سلفه . غدت مؤلفاته سريعا أثارا معتمدة في التعليم الصوفيّ و كانت تُقرأ في كل مكان يُتكلّم فيه بالفارسية .

و في هذه الأثناء قدّم التصوّف المعتدل عددا من الكتيبات شرح فيها التصوّف وفقا لمبادئ الشرع (كما هي حال السراج المتوفى سنة 378هـ988م ، و المكي المتوفى سنة 376هـ986م ، و الكلاباذي المتوفى سنة 380هـ990م ، و المُشيري المتوفى سنة

465هـ1072م، ثم ، في الهند الهَجْوِيرِيّ المتوفي قريبا من سنة 465هـ1072م). وابتدع أبو حامد الغزالي الطوسي (ت505هـ1111م) معاصر السنائيّ البحث الشامل للفكر الإسلاميّ المُشْرَب بتصوّف معتدل في مؤلفه " إحياء علوم الدّين " - الكتاب الذي لا يفتقد أهميته البالغة بشأن الورع الإسلاميّ إلى يومنا هذا.

ومهما يكن ، فإن الأخ الأصغر لأبي حامد ، أحمد الغزالي (ت 520هـ1126م) هو الذي ينبغي أن يُعدَّ واحدا من الأشياخ العظماء لنظريات العشق الصوفيّ . و العشق الصوفيّ ، الذي كان في البدء موجها فقط نحو الحق (سبحانه) من دون أي وسيط ، يبدو الآن أحيانا ممزوجا بالإعجاب بمُحيا جميل يتجلّى فيه الجمال الإلهي للصوفي العاشق : غدا التذبذب بين العشق السماوي و العشق الأرضي عندئذ مظهرا أساسيا للشعر الفارسي و الأشعار المرتبطة به . و يظهر كتاب أحمد الغزالي "السوانح " و مؤلفات مريده عين القضاة الهمداني (ت525هـ1137م) هذا التصوّف الحبي في شكل فني عال وصال العاشق و المعشوق في العشق ، و علاقة كل منهما بالآخر الشبيهة بعلاقة الوجه بالمرآة توصف بكلمات تستعصي رهاقتها و دقتها على الترجمة . و قد بلغت هذه الفِكر ذروتها في كلمات رُوْزبهان البقلي الشيرازي (ت606هـ1209م) بعد أحمد الغزالي بقرن تقريبا.

و قبل هذا بوقت طويل هوجم الصوفيّة بسبب ولعهم بالموسيقا: الصوت الجميل يمكن أن يثير في أنفسهم الوجد ، سواء أكان مضمون النص القرآن ، كلام الله ، أم غزلا دنيويا أرضيا. و كثيرا ما يباشرون حركة دورانية ابتغاء الظفر بالوجد، و منذ أواخر القرن الثالث الهجري (9م) كانت جلسات " السماع " تُعقد في كل مكان. و في هذه المجالس كان الصوفيّة الذين نالت منهم الموسيقا و الإنشاد يدورون على أنفسهم و كثيرا ما يمزقون ثيابهم ، و على هذا النحو كانت التهم توجه ليس فقط إلى الدوائر التقليدية من الصوفيّة بل إلى الفئات الأكثر اعتدالا و رزانة . و قد بلغت هذه الحركات جميعًا مرحلة النضج في القرن السادس الهجري (12م)- و ذلكم هو التاريخ الذي بدأ فيه التصوّف ، المعزز بالنظرية أيضًا، يتحول إلى حركة جماهيرية جماعية.

ظهرت الطرق الصوفيّة الأولى إلى الوجود - و لعلها كانت ثِقلا موازنا يخفف من وطأة الحركة الإسماعيلية التي كانت ، بوصفها إحدى فرق الشيعة الغالية - قد اجتذبت كثيرا من الأنصار في الأيام الأولى؛ ففي القرن الخامس الهجري (11م) خشي الفقهاء كالغزالي ، من النتائج السياسية و الروحية للنظريات الإسماعيلية فحاربوها بلا هوادة بالقلم و السيف . يضاف إلى ذلك أن العامة كانوا تواقين إلى اتصال حميي بالحق (سبحانه)

تعذر عليهم أن يظفروا به في ظاهر الدّين : وضع الفقهاء و المتكلمون كل حركة للجسد و النفس في إطار ضيق مما عاق التحليق الحر للروح في كثير من الأحيان ، و هذا ما دعا الناس من طبقات المجتمع المختلفة إلى أن يطلبوا نوعا من التنفيس لمشاعرهم في صور أكثر عاطفية من صور الدّين ، و مثل هذه الصور قدمتها الطرق الصوفيّة التي أخذت تنمو شيئا فشيئا، بدءا من سنة 514هـ120م تقريبا، في الشرق الإسلامي ثم انتشرت سريعا بعد ذلك في كل الأصقاع . و هكذا فإن الدليل الروحي ، الشيخ - الذي ظل دائما مبجلا و مطاعا لدى مريديه - عدّ في ذلك الوقت الدليل الفذ المؤتمن في السير نحو النجاة : كان " سلم السماء " كما يقول الرومي . و قد نما تأثيره في مريديه نموا كبيرا. كثير من منتسبي الطرق الصوفيّة طافوا أرجاء العالم الإسلامي؛ ووصلوا إلى أصقاع نائية كالهند و أسسوا مراكز صغيرة (دركاه) تحولت سريعا إلى بيئات حقيقية لنشر الإسلام، فاجتذبت نحو التعليم المبسط لأصول الإسلام آلاف ممن لم تجتذبهم الأشكال الفقهية الرسمية لهذا الدّين، بل وجدوا قدرا كبيرا من السعادة و الرضى بالتسليم الحبي الدافئ كما علمه و مارسه شيوخ التصوّف .

هكذا كان الوضع "الروحي" حوالي سنة 596هـ1200م.

أما في المستوى السياسي فقد تغيرت أشياء كثيرة . فالخلافة العباسية التي كانت على قدر كبير من القوة ذات يوم، فقدت كثيرا من الأراضي القريبة من التخوم . فإسبانيا استقلت سنة 314هـ926م بإعلان عبد الرحمن الثالث الأموي نفسه خليفة ، و كانت أقاليم الشرق تحت سيادة اسمية تقريبا لبغداد . و في سنة 433هـ945م تولت أسرة البويهيين الفارسية الشيعية الحكم الحقيقي في المناطق الداخلية حيث غدا الخليفة العباسي مجرد لعبة في أيديهم . و قد ظل الحاكم التركي القوي محمود الغزنوي ، الذي فتح مناطق واسعة من شمال غربي الهند بعد سنة 394هـ1004م و الذي كان بلاطه مركزا للثقافة و الشعر الفارسي ، تابعا حسن الولاء للخليفة العباسي و مدافعا عن الشرع السني . و أعقب السيادة الغزنوية في الشرق الغوريون، و في الولايات الداخلية السلاجقة، وهم عشيرة تركية أخرى دخلت ممالك الإسلام في منتصف القرن الخامس الهجري (11م) و غدا أبناؤها على نحو سريع مدافعين أشداء عن الشرع في المناطق الشرقية و الداخلية. و لعل أسماء ألب أرسلان و ملكشاه و الوزير القادر نظام الملك، نصير الغزالي تمثل ذروة ما وصلت إليه هذه الأسرة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (11م). و قد نجح جيشهم أيضا سنة 462هـ1071م في دخول شرقي الأناضول على حساب البيزنطيين؛ و رغم وجود الصليبيين الذين كثيرا ما اجتازوا الأناضول ، فإن هؤلاء السلاجقة الروم كانوا قادرين على تأسيس ملك مزدهر في تركيا، حيث

عاصمتهم قُونِيَّة، المعروفة قديماً ب Iconium. انفصلت مصر عن الخلافة العباسية سنة 358هـ/969م- بعد الفترة الوجيزة لحكم الطولونيين و الإخشيديين - و ذلك عندما دخلها الفاطميون (وهم أيضاً أسرة شيعية) ليحموها على مدى قرنين . ثم أعيدت مصر إلى قبضة العباسيين ، أو على الأقل إلى الإسلام السني ، على أيدي الأيوبيين سنة 566هـ/1171م: الأيوبيون معروفون لدى قراء الغرب بوصفهم المدافعين الأصلاء عن القضية الإسلامية إبان الحملات الصليبية، و قد عُدد سلطانهم صلاح الدين (Saladin) نموذجاً للفضيلة و الفروسية في الإسلام.

و التاريخ المتشابك جدا للإمبراطورية الإسلامية ، الذي تداخلت فيه الحركات الدّينية والسياسية وواجهت فيه كل منهما الأخرى على نحو ليس من اليسير تمييزه ، يصعب تفصيله . يكفي أن نذكر أنه جرت محاولة لإحياء الخلافة العباسية مرة أخرى حوالي سنة 597هـ/1200م وكان الذي قام بالحركة العضو الأخير الفعال حقا في الأسرة العباسية ، الناصر لدين الله . و قد سعى إلى إنشاء تنظيم للأمرء المسلمين الذين يمكن أن يتعاونوا في روح الفتوة " الفضيلة " . و هذا مطلب صوفي في المقام الأول ، اتخذه هو أساساً لتنظيم فروسيّ ، أرسل إشارته إلى جيرانه من الحكام بيد واحد من كبار الصوفيّة في عصره، أبي حفص عمر الشّهْرورديّ (ت 632هـ/1235م). كان الهدف الرئيس للخليفة الناصر دعوة المسلمين إلى الاتحاد من جديد لمواجهة قوة سطع نجمها في الأفق الشرقي أثناء حياته ، أي المغول بقيادة جنكيز خان . لكن السلوك الأخرق للخوارز مشاه ، حاكم شرقي خراسان و أجزاء من آسيا الوسطى، قدم للمغول الذريعة ، إن كانوا محتاجين لشيء من ذلك للتحرك نحو بلاد الإسلام. و غني عن الذكر كيف اجتاحت قبائلهم آسيا و أجزاء من شرقي أوروبا في القرن السابع الهجري (13 م) إذ احتلت المنطقة ما بين الحدود الشرقية لألمانيا و شاطئ بحر اليابان، مخلفة الموت و الدمار حيثما حلّت . و قد أخضعوا سريعاً إيران و البلدان المجاورة لها و وصلوا إلى قلب الأناضول مثلما كانوا قبل قد انحدروا إلى وادي السند . Indus valley و جاءت الهبة الأخيرة عندما اجتاح هولاءكو بغداد سنة 656هـ/1258م. قتل آخر رجال البيت العباسي ، وطمست كل معالم الألق السابق لمدينة بغداد . و بعد سنتين أي سنة 658هـ/1260م، نجح المماليك ، وهم أسرة من الأرقاء الأتراك نشأت توّاً في مصر، في وقف هجوم المغول في " عين جالوت " في سورية و رغم ذلك ، فإن سيادة المغول وُطّدت على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي . و قد تغير الوضع السياسي كله في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (13 م)- ناهيك عن التغيرات الاقتصادية التي حدثت إثر دمار كثير جدا من الحواضر المزدهرة و إتلاف منشآت الري في المناطق الزراعية. و رغم ذلك فإنه

نتيجة للحكم المغولي قدر لمظاهر جديدة و جذابة نسبيا للثقافة الإسلامية أن تتطور في القرون اللاحقة .

و يبدو على قدر كبير من الغرابة أن هذه المرحلة من الكارثة السياسية الفظيعة كانت في الوقت نفسه ، مرحلة لنشاط ديني وصوفي هائل . ويبدو الأمر كما لو أن الظلام المطبق على المستوى الروحي . وإن أسماء الشعراء و العلماء و الخطاطين يمكن أن تحصى، إلا أن الصوفيّة في المقام الأول هم الذين كانت لهم الغلبة في هذا القرن . وأبرز شخصية في هذا الاتجاه شخصية ابن عربي الإسباني المولد ، المعروف بالشيخ الأكبر (ت 638هـ/1240م في دمشق) و قد طوّر نظاما رصينا للمعرفة الإلهية ، تبناه معظم صوفية الإسلام الذين جاؤوا بعده . أما معاصره في مصر ، ابن الفارض (ت 632هـ/1235م) فقد أنشد أرق الاشعار في إطراء العشق الروحي الأزلي .

و بعد ذلك بقليل أقام مؤسس الطريقة الشاذلية في مصر؛ أما خليفته الثاني ابن عطاء الله (ت 709هـ/1309م) فهو مؤلف كلمات الحكمة (الحكّم العطائية) التي قدمت زاداً روحيا لآلاف الصوفيّة في غربي العالم الإسلامي . و في إيران ترك فريد الدّين العطار ، الذي توفي سنة 617هـ/1220م ، إرثا روحيا ثريا من الشعر و النثر (و من ذلك السيرة التي كتبها للأولياء و سماها " تذكرة الأولياء ") ؛ و في السنة نفسها قتل المغول نجم الدّين كُبرى ، مؤسس طريقة صوفية على قدر كبير من الإثارة في خوارزم . و قد فرّ مريده نجم الدّين داية الرازي ، على غرار كثيرين جدا من العلماء و الأولياء الآخرين و منهم أسرة جلال الدّين الرّوميّ إلى الأناضول حيث ألف كتابه الصوفيّ " مرصاد العباد " في ظل السلاجقة . أما في الهند ، فقد أدخل معين الدّين الجشتي (ت 663هـ/1265م) الطريقة الجشتية ؛ و من القائمة الطويلة لأسماء الأولياء الجشتيين في القرن السابع الهجري (13م) في الهند يمكن أن نذكر فريد الدّين غانج شاكرا (ت 670هـ/1271م) و نظام الدّين أولياء الدهلوي (ت 725هـ/1325م) و مريده المخلص و كاتب سيرته أمير حسن ثم صديقه الشاعر أمير خسرو . وأنشأ بهاء الدّين زكريا فرعا للسهروردية في مُلتان، وفي حضرته أمضى فخر الدّين العراقي ، المغني الصوفيّ ذو العشق الذي لا يُحدّ خمسا و عشرين سنة من حياته قبل عودته إلى الأناضول . وهناك وجد صدر الدّين القونوي ، شارح ابن عربي الأول في قُونية ؛ و قبل ذلك بأمد قصير توفي أوحد الدّين الكرمانى ، الشاعر الذي تغنّى بحب الكائنات البشرية الجميلة و نظم المثنوي الصوفيّ " جام جم " . كانت الأناضول حافلة بجماعات من الصوفيّة التي تعمل من أجل تغييرات اجتماعية وسياسية . و قد هاجر كثير منهم من بلدان المشرق ، فرارًا من التهديد المغولي . و من هؤلاء يمكن أن نذكر حاجي بكتاش الذي ترجع إليه الطريقة البكتاشية للدراويش

في أصل نشأتها؛ و بعد ذلك بفترة وجيزة كان الشاعر الكبير الأول للأناشيد الصوفيّة في اللغة التركية يونس أمره ، قد طوّف في أرجاء البلاد .

و يمكن القول باختصار ، إنه في كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي تقريبا وجد أولياء و شعراء و قادة صوفية كبار ، يقودون الناس في ظلام الكوارث السياسية و الاقتصادية نحو عالم لم يهدمه التغيير كاشفين لهم سر العشق القاسي و معلمين إياهم أن إرادة الله المجهولة و حبه يمكن أن يتجليا في الشدة و الابتلاء أكثر منه في السعادة و الرخاء .

كيف عرضت هذه الحياة نفسها في عالم الزمان ؟

ولد جلال الدّين في بلخ ، و هي الآن في أفغانستان. و التاريخ المقبول على نحو تقريبي هو السادس من ربيع الأول سنة 604هـ/الثلاثون من سبتمبر، سنة 1207م، رغم أن إشارة في عمله النثري " فيه ما فيه " يمكن أن تشير إلى تاريخ أسبق ، ذلك أن يذكر حِصَارُ خُوَارْزُ مشاه لسَمَرْقُنْد (604هـ/1207م) و يتكلم عليه كأنه شاهد عيان .

و لعلّ تاريخا أبكر يتفق على نحو أفضل أيضا مع عصر أبيه . كان أبوه (الذي ولد سنة 542هـ/1148م تقريبا أو بعد ذلك بقليل) متكلما إلهيا مشهورا ، وهو محمد بن الحسين بهاء الدّين ولد، الملقب ب " سلطان العلماء " . و تبعاً لابنه الأكبر ، فإن الرسول (عليه الصلاة و السلام) هو الذي منحه هذا اللقب في المنام الذي رآه علماء بلخ جميعاً في الليلة نفسها. كان بهاء الدّين صوفيا، و تبعاً لبعض المصادر فإنه ينتهي روحيا إلى مدرسة أحمد الغزالي (ت520هـ/1126م). أما إلى أي مدى أثر فيه التصوّف العشقي الرقيق كما وصفه الشيخ أحمد في كتابه السوانح ثم من خلاله في التشكيل الروحي لابنه ، فأمر يصعب البت فيه حتى الآن . وإذا صحت ملاحظة الأفلاكي بشأن حكم بهاء الدّين ولد على " النظر إلى الغلمان الحسان " بأنه " زنا روجي " فسيكون من الصعب اعتقاد نسبته إلى مدرسة الغزالي في التصوّف العشقي و يميل المرء إلى ترجيح صلوات حميمة له بنجم الدّين كبرى مؤسس الطريقة الكبروية.

و تذهب بعض الآراء إلى أن أسرة بهاء الدّين ولد من جهة أبيه قد انحدرت من (سيدنا) أبي بكر ، الخليفة الأول في الإسلام. وهذا قد يكون صحيحاً وربما لا يكون كذلك ، إذ لا شيء محددًا معروف عن الخليفة العرقية للأسرة و قد قيل أيضاً إن زوج بهاء الدّين تنتسب إلى بيت الخوارز مشاهية الذين أرسوا دعائم ملكهم في المناطق الشرقية حوالي سنة 472هـ/1080م، لكن هذه الحكاية يمكن أن ترد بوصفها تلفيقاً من المتأخرين .

انتزع الخوارزمشاه مسقط رأس جلال الدين سنة 602هـ/1206م من أيدي الغوريين؛ وقد أشار الرومي نفسه في شعره إلى سفك الدماء في الحروب التي نشبت بين الخوارزميين و الغوريين عندما حاول أن يصف كيف أغرقه الهجران في الدماء... في ذلك الوقت، كانت بلخ ما تزال واحدًا من مراكز الثقافة الإسلامية وقد لعبت المدينة القديمة دورًا مهمًا إبان المرحلة التشكيلية للتصوف الشرقي وهي موطن كثير من علماء الإسلام في القرون الهجرية الأولى. ولأنها كانت قبل مركزًا للبوذية فإن أهلها - أو جوها - يمكن أن يكونوا متأملين لبعض الفكر البوذية التي انعكست في التفكير الصوفي المبكر: ألم يكن إبراهيم بن أدهم⁵ "أمير الفقر الروحي" مواطنًا كريم المحتد من بلخ وقد قص تحوله بلغة أسطورة بوذا؟

و في زمان طفولة جلال الدين كان أحد العلماء البارزين في المدينة فخر الدين الرازي، الفيلسوف و مفسر القرآن الكريم الذي حظي بمنزلة عظيمة لدى محمد خوارز مشاه. ويُقال إنه أثار الحاكم على الصوفية و كان السبب في إغراق الصوفي مجد الدين البغدادي في نهر سيحون (Oxus) (616هـ/1219م). و بهاء الدين ولد أيضًا لم يكن فيما يبدو على وفاق معه، كما ثبت كتاباته: فإن هذا المتكلم الإلهي الورع ذا العقل الصوفي الذي "غدت شخصيته المباركة على قدر من الصرامة و ممتلئة بالورع و الخشية بسبب ضخامة تجليات الجلال الإلهي" أضمر بغضًا شديدًا للفلسفة و التناول العقلي للدين، و هذا الموقف الذي أجلي واضحًا في شعر سنائي قبل قرن ورثه جلال الدين أيضًا، و قواه أيضًا صديقه شمس الدين الذي أطلق على الرازي لقب "الملحد الأحمر" و بعد وفاة الرازي بنصف قرن لم يكن في مقدور جلال الدين الرومي إلا أن يقول في المثنوي.

إن كان العقل أن يستبين (الصراط المستقيم) في هذا البحث فسيكون فخر الرازي صاحب أسرار الدين.

و مهما يكن فإن علينا أن نستبعد تلك الحكايات التي تعزو هجرة بهاء الدين ولد بلخ إلى النفوذ المتزايدة لفخر الدين، ذلك أن الفيلسوف توفي سنة 606هـ/1210م، بينما لم يغادر بهاء الدين و أسرته بلخ إلا في سنة 616 أو 617هـ/1218، أو 1219م تقريبًا. و في ذلك التاريخ ينبغي أن يكون قد اتضح تهديد المغول الآتي من آسيا الوسطى.

5- زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز. وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. وجاءه إلى المصبصة (من أرض كيليكيا) عبد لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم وبخبر؛ أن أباه قد مات في بلخ وخلف له مالا عظيما، فأعتق العبد ووهبه الدراهم ولم يعبا بمال أبيه. وكان يلبس في الشتاء فروا لا قميص تحته ولا يتعمم في الصيف ولا يحتدي، يصوم في السفر والإقامة، وينطق بالعربية الفصحى لا يلعن. وكان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعظ أوجز سفيان في كلامه

مخافة أن يزل. البداية والنهاية ١٠: ١٣٥

وقد لعب الخوارزمشاه نفسه ، بقتل بعض تجار المغول دورًا حاسمًا في المأساة التي قُدر لها أن تتطور في السنوات اللاحقة في منطقة الشرقيين الأدنى و الأوسط كلها. و أيًا كان مبعث هجرة بهاء الدّين إلى بلد غير بلده ، فإنه هو نفسه و أسرته و مريديه (يتحدث سيمسّالار عن 300 شخص !) كانوا بعيدين عن وطهم عندما اجتاحه المغول . و لم يبقى من بلّخ سوى خرائب في سنة 617هـ 1220م ، و قد قتل آلاف الخلق .

عندما تكون في بلّخ تقدم نحو بغداد يا أبي ،

و هكذا ستكون في كل لحظة قد ابتعدت عن مَرُو وهراة

وقد مرّ الطريق بالعائلة في خراسان ؛ و تقول الحكاية إنهم زاروا فريد الدّين العطار في نيسابور؛ و إن الشاعر الصوفيّ الذي تقدمت به السن و قد أدرك قابليات جلال الدّين الفتى و قدراته، أهداه نسخة من كتابه " أسرار نامِه " . و بعدئذ أدت الأسرة فريضة الحج في مكة وربما مكثت مدة في سورية التي هي أيضًا واحدً من مراكز الحضارة الإسلامية . على أن المعلومات عن طول هذه الرحلة و البقاء في أمكنة مختلفة متناقضة ؛ و يبدو مرجحًا أكثر أن جلال الدّين مكث مدة في دمشق قاعدة الثقافة و ربما في حلب أيضًا، لأنه يذكر أنه درس على المؤرخ الشهير كمال الدّين بن العديم مؤرخ حلب . و في إحدى قصص المنوي يومئ إلى ذلك الطريق الذي فيه احتفل بعاشوراء عند باب أنطاكية في حلب – فمنذ حكم الحمدانيين في القرن الرابع الهجري (10م) رسخ المذهب الشيعي جزئيًا على الأقل في الحاضرة السورية الشمالية .

و في السنوات التي أعقبت سنة 617هـ منتصف عشرينيات القرن الثالث عشر الميلادي وصل بهاء الدّين ولد و أسرته إلى أواسط الأناضول الروم - و من هنا جاء تلقيب جلال الدّين ب " الرّومي " . و قد مكثوا مدة في لارنّدة ، و هي المعروفة الآن ب " قرمان " . و ههنا، توفيت والدّة جلال الدّين ؛ و المسجد الصغير المبني تكريمًا لها لا يزال الناس يزورونه . و العالم الفتى نفسه تزوج من جوهر خاتون و هي فتاة من سَمَرْقُنْد ، و قد ولد ابنه سلطان وُلد في لارنّدة سنة 623هـ 1226م . أما ميلاد ابنه الآخر علاء الدّين ، فتجعله بعض المصادر قبل ميلاد سلطان وُلد ، و نزل في حاجة إلى المعلومات الدقيقة . كان سلطان ولد الابن المؤثر لدى الرّومي ، و قدر له أن يغدو الشارح و كاتب السيرة الأكثر إخلاصًا لوالده ، ثم بعد تقدمه في السن الخليفة الثاني له ، وهو أخيرًا الذي أعطى الصورة الأخيرة الرسمية للطريقة المولوية .

تقع قرمان على مسافة مائة كيلو متر تقريبًا جنوب شرق قونية، عاصمة السلاجقة الروم . و إلى هذا المكان تلقى بهاء الدّين ولد دعوة من السلطان علاء الدّين كيقباز الذي جمع حوله العلماء و الصوفيّة من كل مكان في العالم . و قد تحولت الأناضول بعد استعادتها من الصليبيين إلى بلاد مزدهرة، هادئة و كانت في تاريخ ماتزال بعيدة عن

متناول غزاة المغول . و في سنتي 618-617هـ 1221-1220م بني السلطان علاء الدّين (633-616هـ 1236-1219م) الجامع الكبير على التلة القائمة في وسط قُونِيّة، قريبًا من القلعة و مطلا على السهول . و يحمل البناء الواسع البسيط طابع الفخامة الحقيقية و يتسع لأربعة آلاف مُصَلِّ تحت أعمدة كثيرة أمام محراب آية في الإتقان و منبر خشبي غاية في النقش و الزينة . كان في قُونِيّة كثير من المساجد و المدارس الرائعة ، و قد شُيد بعضها أيضًا في حياة الرّوميّ .

هذا كان المكان الذي استقر فيه بهاء الدّين ولد وأسرته حوالي سنة 627هـ 1228م و الذي بدأ فيه المتكلم الإلهي العالم فعاليات و عظه و تعليمه بنجاح كبير . و بعد سنتين فقط ، توفي في سن متقدمة (18 ربيع الثاني 628هـ 12 كانون الثاني، 1231م) و عُيّن ابنه جلال الدّين خليفة له .

و حتى ذلك التاريخ يتراءى العالم الشاب مهتما أساسا بعلوم الظاهر؛ كان مولعا بالشعر العربي ، خاصة مُشكِل شعر المتنبي (ت 354هـ 965م) و ربما يكون قد شارك في النشاطات الصوفيّة بقدر ما يسمح به "جو" العائلة و بعد أمد قصير من وفاة بهاء الدّين ولد، في أية حال ، وصل مرید سابق له إلى قُونِيّة: شرع برهان الدّين محقق التّرْمِذي ، الذي انصرف من بلخ أولا إلى بلدة تِرْمِذ ثم إلى الغرب البعيدة في تلقين جلال الدّين " العلم اللدّني "، الحكمة الملهمة و الأسرار العميقة للحياة الصوفيّة . شغل مریده بالآثار النثرية لأبيه " المعارف " التي أودعت فيها تعاليم بهاء الدّين ولد و فكره . و يقال إن برهان الدّين جعل جلال الدّين ينقطع في " خلوات " كثيرة ، و هي فترات من الانعزال و التأمل تستمر الواحدة أربعين يوما أحيانا، إلى أن بلغ درجات عالية من الإشراق و الاستنارة و الصفاء . و يقال أيضًا إن الرّوميّ أمضى بناء على نصيحة برهان الدّين وقتا طويلا في سورية للالتقاء بأساتذة التّصوّف : يحكي سِبْهَسَالار أنه رأى هناك ابن عربي (ت 638هـ 1240م) و سعد الدّين الحموي وأوحد الدّين الكرمانی و صوفيّة آخرين كثيرين من " حلقة ابن عربي " .

و من الصعب الجمع بين الروایتين . و يمكن أن نخمن أن الرّوميّ على الحقيقة أمضى بعض الوقت وإن يكن غير مديد ، في سورية ليجدد ثقافته الصوفيّة و في ذلك التاريخ قد يكون التقى شمس الدّين التبريزي للمرة الأولى من دون أن يكون عارفا، في أية حال ، منزلته و أهميته. و لعل أحد المقاطع في " المقالات " لشمس يشير إلى مثل هذا اللقاء الأول . و قد غادر برهان الدّين محقق قُونِيّة حوالي 638هـ 1240م. و طبقا للحكاية ، فقد توقع قدوم " أسد روجي عظيم " لا يستطيع أن يعيش معه في مكان واحد . وقد ذهب إلى قيصريّة حيث سأل الله (سبحانه) أن يأخذ الروح الذي ائتمنه إياه :
أُمَّهَا الْحَبِيبُ، إِقْبَلْنِي وَخُذْ رُوجِي!

أَسْكُرَنِي وَخُدْنِي مِنَ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمَا! .
في أَيِّ شَيْءٍ إِرْتَاخَ فِيهِ قَلْبِي مَعَكَ اضْرَمِ النَّارَ ،
وَابْعُدْ ذَلِكَ الْعَائِقِ!

قدم الرّوميّ إلى قيصريّة للبحث عن بقايا مكتبة أستاذه، و إلى صلته ببرهان الدّين
يومئ أحد الأبيات في غزل متأخر :
عندما يكون قيصرنا في قيصريّة -
لا تضعنا في زابلستان !

ويقع قبر برهان الدّين محقق المتواضع ، المحاط بالأزهار، في وسط المقبرة القديمة
، وفوقه يرتفع جبل إرجياس الرائع المغطى بالثلوج. ولا يزال المسلمون الأتراك من أهل
الصلاح يزورون المكان . كان برهان الدّين أستاذا صارما زاهدا، و في " مقالاته" التي
تمائل في جوانب كثيرة " مقالات " أستاذه بهاء الدّين يكتشف المرء تأثيرا قويا للسنائي
- التأثير الذي يغدو محسوسًا أيضًا في شعر جلال الدّين.
موضوع سفر الروح الذي تغنى به السّنائيّ ببلاغة فائقة ، ثم تناوله على نحو أكثر
روعة العطرّ ، يلقانا في أشعار برهان الدّين أيضًا:
للطريق نهاية ، و ليس للمنزل نهاية - لأن سير المحب ،
سير إلى الله و سير في الله .

و في سنوات التي مكث فيها الأستاذ مع الرّوميّ و في زمان وفاته ، هزت الأناضول
اضطرابات داخلية . و الحاكم السلجوقي غياث الدّين كَيْخُسرو الذي اعتلى العرش سنة
635هـ/1237م، كان ضعيفا. و قد نشأت المشكلة الكبيرة بسبب جماعة الخوارزميين
الذين تركوا بلدهم بحثا عن ملاذ من حقد المغول في شرقي الأناضول ، و قد أنزلهم
السلطان علاء الدّين في أخلاط غير بعيد عن أضرورم - الأمر الذي اجتلب المغول
إلى شرقي الأناضول سنة 630هـ/1232م، و نتيجة لذلك أعيد إنزال الخوارزميين في
قيصريّة. و بسبب إهمال خلفاء علاء الدّين لهذه الجماعة غدت مرة أخرى مصدر قلق
، فأقدمت الحكومة على سجن بعض قادتهم، الأمر الذي ضاعف الصعوبات. و قد
تعاون الخوارزميون بعض الشيء مع بعض الجماعات الميالة إلى التصدّف التي طاف
أعضاؤها في الأناضول و حاول بعضهم إدخال تغييرات اجتماعية بمهاجمة الطبقات
الحاكمة . إذ اندفع الأولياء الغرباء كالقلندرية و الحيدرية و أبدال الروم ذوي الميول
الشيعية القوية نسبيا، في البلاد واجتذبوا الطبقات الدنيا من السكان . و من بينهم
أتباع بابا إسحق الذين نجحوا في الاستيلاء على طوقات وأماسية، و قد شنق زعيمهم
سنة 638هـ/1240م. كل هذه الجماعات عملت معا دونما قصد تقريبا ، على إضعاف
قوة السلاجقة إلى الحد الذي وجد فيه المغول البلاد أخيرا فريسة سهلة : وقد استولوا

أخيراً على أرضروم سنة 639هـ1242م؛ أما سيواس التي هي أحد مراكز الثقافة في الأناضول فقد أسلمها إلى جيش المغول قاضياً؛ حفاظاً منه على حيوات الناس . أما في قيصرية التي أُغِير عليها بعد ذلك مباشرة فقد قتل سكانها من الذكور جميعاً.
يفر الناس من التتار -

و نحن نعبد خالق التتار . . .

أدرك حكام قونية أنهم كانوا عاجزين عن صد قوات المغول في ظل هذه الظروف و قد قبلوا دفع إتاوات باهظة لهم ، و فقدوا ، مقابل الأهداف العلمية ، استقلالهم السياسي توفي غياث الدين كَيْخُسرو الضعيف سنة 643هـ1245م ، خلفاً لثلاثة أبناء ، اعترف مُنْجك خان الحاكم المغولي بحكومتهم الثلاثية سنة 649هـ1251م إثر عدد من المعارك . و لم يمض إلا وقت قصير حتى قتل واحد من هؤلاء الثلاثة ، و انتهت الأحقاد الطويلة بين الأخوين الباقيين إلى حال من الفوضى آل فيها الأخ الأخير الباقي على قيد الحياة ركن الدين إلى أن يكون مجرد العوبة في يدي وزيره معين الدين برفانه.
وخلال تلك الأيام ، التي كان فيها على سلاجقة الروم أن يسلموا بسيطرة المغول كانت حياة الروميّ قد تغيرت تماماً أيضاً - كما لو أن الكارثة على الصعيد السياسي يخفف وطؤها بإشراف على الصعيد الروحي . لا تتحدث كثيراً عن نكبة التتار -
تحدث عن نافجة المسك لدي غزال التتار .

obeikandi.com

اللقاء الأول

ورغم أن النار نشرت في الدنيا دخان جيش التتار، رأى جلال الدين شمس الأزل تطلع أمامه في أواخر جمادي الثانية سنة 642هـ أواخر أكتوبر 1422 م التقى شمس الدين التبريزي "شمس تبريز" في قونية.

حَمَلْنَا خَيْالَكَ الْفُتَانَ فِي صَدْرِنَا
إِذْ جَاءَ الشَّقَقُ إِشَارَةً مِنْ شَمْسٍ

نسجت حكايات كثيرة حول هذا اللقاء الأول ، و من الصعب تقرير أي واحدة منها أقرب إلى الحقيقة – و لعلنا نقبل الرواية التي تذهب إلى أن الشيخين بدأ بمناقشة الاختلاف بين النبي محمد عليه الصلاة و السلام و بايزيد البسطامي: فمحمد رغم أنه نبي سمي نفسه "عبده" بينما قال أبو يزيد الصوفي "سبحاني" و كلا التعبيرين "عبده" و "سبحان" مستمد من الآية القرآنية نفسها التي يشار فيها إلى معراج النبي محمد عليه الصلاة و السلام سورة الإسراء الآية الأولى.

هذا الموضوع سيكون على انسجام كبير مع اهتمام كل منهما و يمكن أن يُعثر على أصداء تأملات حول هذه الكلمات في أشعار الرّومي المتأخرة . و على امتداد ستة أشهر ظل الصوفيّان متلازمين إلى الحد الذي جعل الأسرة و المريدين يتذمرون – هجر الرّوميّ دروسه ، و أصدقاءه و الناس جميعًا و غاب تماما في صحبة شمس الدين.

على مدى ستة أشهر كانا يجلسان في حجرة
صلاح الدين زركوب، يتناقشان من دون أكل
أو شرب أو أي حاجات بشرية ...

فمن ذلك الرجل الذي تولى تغيير الرّوميّ تغييرًا تامًا؟

ليس لدينا الكثير الذي نعرفه عنه . و الحكايات التي حكيت حوله تظهره شخصية قوية جدًّا و على قدر هائل من الاعتداد الروحي ، و قد طوّف في بلدان الشرق الأدنى بحثًا عن شيخ – و لم يستطع أحد من صوفية ذلك الزمان أن يكون في نجوة من نقده

اللاذع. و يذكر هو نفسه في "مقالته" أنه كان في وقت من الأوقات مريدًا لنساج سِلَالٍ في تبريز كان قد انصرف عنه أخيرًا:

كان في شيء لم يبصره شيخي. و على الحقيقة
لم يره أحد قط . لكن سيدي مولانا رآه .

التقى شمس الشيوخ الكبار في العراق و سورية . و مشهورة قصة التفائه بأوحد
الدّين الكرمانى وهو واحد من أولئك الذين "يعبدون الجمال الإلهي في الصور المخلوقة
" و من ذلك أنه رأى الجمال الإلهي متجليا في جمال شاب .

قال لشمس : أرى القمر منعكسا في إناء فيه ماء ! "
فوبخه شمس عندئذ قائلاً: « إذا لم يكن في رقبتك
دمل، فلم لا تنظر إلى السماء ؟ »

و يبدو أيضًا أنه لقي ابن عربي ، و قد كان أكثر انتقادا لمؤلفاته و موقفه – فإن
الشيخ الأكبر ذا التأملات المتصلة بالمعرفة الإلهية ، ذلك الذي تركت مؤلفاته تأثيرا
كبيرا في التصوّف المتأخر ، بدا لشمس الدّين غير ناضج و متعجرفا ؛ رأى أن سلوكه
غير منسجم مع الشرع و شبه الشيخ الأكبر بحصاة ، بينما الرّوميّ لؤلؤة ... "

هذه الشهادة كما تلحظ في "مقالته" مهمة بمقدار ما تعيننا على تحديد مبلغ تأثير
ابن عربي في الرّوميّ : رغم أن المفسر الرئيس لابن عربي صدر الدّين القونوي عاش في
قُونِيّة وكان زميلا للرّومي ؛ فإن التأثير المحتمل لتعليمه أو لموقفه الكلي في جلال الدّين
كان مرجوحا بکراهية شمس لهذه النظريات و لكل عبء نظيري – حتى روائع الأدب
الصوفيّ كانت عند شمس أقل أهمية من حديث نبوي صحيح واحد .

ليس لدينا معلومات بشأن اتصال شمس الدّين بإحدى السلاسل المقبولة للنسب
الروحي الصوفيّ و قد ذهب إلى أنه تلقى " الخرقّة " رداء الدراويش من النبي نفسه (عليه
الصلاة و السلام) و لكنها غير الخرقّة العادية التي تتمزق و تتسخ بل خرقّة الصحبة ؛
التي تجوز حجب الزمان .

و لعلنا نفترض، مجازاة ل " كلبينارلي " أنه كان على الحقيقة " قلندر " أي درويشا
جوالا دون نسبة محددة ، شديد الارتباط بجماعة الملامتية، أولئك الذين حاولوا إثارة
ازدراء الناس لهم بارتكاب أعمال جديرة بالاستهجان ظاهريا " على أن لشمس تعابير
تلائم هذه الصورة و يبدو إطرء الرّوميّ المتأخر للقلندر يشير إلى هذه المسألة .

ولكن أكثر من هذا : ادعى شمس الدّين أنه بلغ منزلة " المعشوق " . لم يعد " عاشقا
" محبا شديد التشوق (على غرار ما توجد في منازل ثلاث) بل تجاوز كل المنازل الدنيا
و بلغ أعلى منزلة ممكنة ليغدو " قطب كل المعشوقين " .

و يحكى سيهسالار أن شمسًا، في أدعيته الأولى، سأل الله سبحانه :

أليس ثمة مخلوق واحد من مصطفيك الخيار يتحمل صحبتي ؟
فوجد نفسه يسير في الطريق إلى الروم ...

وصل إلى هناك ، في سن النضج - ربما في أواخر أربعينياته، غامراً، كالشمس الحارقة، وقاهراً، كالأسد الهصور. وجده الرّوميّ في الخان، ذاك أنه اعتاد دائماً الإقامة في تلك الأماكن لأنها أكثر ملاءمة لأرباب الأسفار ، و كان يتجنب الاختلاط بالمتقفين أو المشتغلين بالمباحث الإلهية .

وفي مقدورنا أن نتخيل جيداً مبلغ الصدمة التي كان عليها أهل قونية عندما رأوا شيخهم المبجل يهمل واجباته الدّينية و الاجتماعية و ينهمك تماما في صحبة هذا الدرويش الجوال الذي لم ينغمس البتة في مجتمع قونية. و هكذا فإنه بعد مضي أشهر عديدة من العشق الصوفيّ ، شعر شمس بأن الأفضل له مغادرة قونية، خوفاً من بطانة الرّوميّ . فاختمى من المدينة .

كان الرّوميّ محطم القلب . فمن كان قبل لا يحفل بالشعر الفارسي و الموسيقا أخذ الآن يغني أشواقه و حرقه شعراً :

أين الصبر ؟ - فلو كان الصبر جبل قاف المحيط بالدنيا
لتبدد كالثلج بشمس الفراق !

لاذ بالموسيقا و الرقص الصوفيّ ، و فتش عن شمس في كل مكان - و تظل " تبريز " الكلمة السحرية :

لو كان لطينا و مائنا أجنحة كأرواحنا وقلوبنا،
لمضت إلى تبريز هذه اللحظة ، لعبرت الصحراء !
كتب رسائل إلى المعشوق لعلها لم تصل إليه ، و قد بقي عدد قليل من الرسائل الشعرية :

أرسلت مائة رسالة ، حددت مائة طريق -
فإما أنك لا تعرف الطريق ، و إما أنك لا تقرأ الرسالة !
و أخيراً جاءت الأنباء من سورية - فقد مضى شمس الدّين إلى هناك . أرسل سلطان ولد ليأتي به ، ملئت يده بالذهب و الفضة . بدأ الرمي يغني فرحا ، دمشق ، المكان الذي وجد فيه المعشوق يغدو مركز دنياه :
نحن مفتونون و هائمون و مأخوذون بدمشق ،
قدمنا أرواحنا و ربطنا قلوبنا بحب دمشق

و الحق أن شمس الدّين استجاب لرغبات حبيبه ، و عاد مع سلطان ولد إلى قونية. و تتحدث المصادر عن اللقاء بين شمس و الرّوميّ بعد الفراق - يعانق كل منهما الآخر، ولا أحد عرف من العاشق و من المعشوق ... لأن الانجذاب كان متبادلا ؛ ليس الأمر

أن جلال الدين رأى معشوقه في شخص شمس فحسب ، بل إن شمسًا وجد في جلال الدين الشيخ و الحبيب الذي ظل يبحث عنه طول حياته . و إن بيت المثنوي :
إذا كان العطاش ينشدون الماء من العالم
فإن الماء أيضًا ينشد العطاش في العالم ،
الذي يختصر كل فلسفة مولانا في العشق و الشوق يمكن أن يفسر تماما بصفته انعكاسا لهذا العشق الروحي الذي لا يحد بين الرجلين .

و ابتغاء الحفاظ على الحبيب قريبا منه ، عمد جلال الدين إلى تزويج شمس الدين إحدى الفتيات اللاتي رُبين في بيته. أحب شمس كيميا هذه حبًا عميقًا. و أعطى للزوجين حجرة صغيرة في منزل مولانا. و عندما مرّ ابن جلال الدين، المثقف علاء الدين، بذلك المكان وبخه شمس ، و طلب منه أن لا يثقل على أصدقاء والده. وأيا كانت طبيعة هذا الحادث ، فإنه قد زاد لا محالة من كراهية علاء الدين للغريب الذي أصبح صديق والده الأكثر حميمية... و لأنه مرة أخرى مرت أسابيع و أشهر و المحادثة الودية بين الأستاذين على أشدها، تعاضم مرة أخرى حسد العائلة و المريرين . توفيت كيميا في أواخر الخريف عام 645هـ/1248م، و بعد ذلك بقليل توارى شمس عن الأنظار، و لم يعد .

قصت ظروف هذا الحادث على نحو مختلف في مصادرنا – ولا يكاد سلطان ولد يعرض له ، و تقول مصادر أخر إن شمسًا مضى إلى جهة مجهولة ، عندما تنبأ به ؛ لكن الأفلاكي يؤكد أنه قتل – بالاتفاق مع ابن الرومي علاء الدين " فخر الأسانيد " ظلت هذه الرواية مشكوكا فيها حتى السنوات الأخيرة ، إذ تراءى على قدر كبير من الغرابة أن يقدم فرد من أفراد العائلة على ارتكاب جريمة كهذه. و مهما يكن من شيء ففي المستطاع إعادة تركيب المأساة التي حدثت في ليلة الخامس من شعبان سنة 645هـ الخامس من ديسمبر سنة 1247م، على الصورة الآتية تقريبا: تحادث الرومي و شمس حتى ساعة متأخرة ، عندما قرع أحدهم على الباب و طلب من شمس الخروج بشأن من الشؤون. مضى شمس و طعن ، ثم ألقي في البئر أمام المدخل الخلفي للبيت – و هي بئر لا تزال ماثلة . . أخبر سلطان ولد بالفعل ، فأسرع لإخراج الجثة من البئر و دفنها في قبر حفر سريعًا قرب المكان و قد غطي بالجص ثم بالتراب ، و بعد ذلك بني مقام شمس هناك .

وقد أكدت الحفريات الأخيرة في المقام أثناء بعض أعمال الإصلاح ، وجود قبر كبير نسبيا مغطي بالجص من العهد السلجوقي. و بفضل هذا الكشف الذي قام به محمد أوندر، مدير متحف مولانا في قونية في ذلك الوقت ، تأكدت حقيقة رواية الأفلاكي. حاولت بطانة الرومي إخفاء وفاة الحبيب عن الرومي لمدة طويلة ، ورغم ذلك يمكن

أن يستشف المرء في بعض أشعار الرّوميّ الكئيبة صدى لهذه الهزة وربما إدراكا باطنيا للحدث :

ليست هذه الأرض ترابا إنها مترع بالدماء ،
من دماء العشاق من جرح سيد الملوك ...

قال له الناس: إن شمسًا قد انصرف ربما إلى سورية – و قد مضى جلال الدّين للبحث عنه هناك .

الشخص الذي قال : " رأيت شمس الدّين !"
سأله " أين الطريق إلى السماء ؟

القصيدة تلو القصيدة كانت تنظم حول الهجر و الشوق؛ لكن شمسًا لم يُعثر عليه في سورية.

فر أهل بيتي من صبيحات يأسي ،
و بكى جاري من نواحي ...

و يقال إن الرّوميّ مضى مرة أخرى إلى سورية، مرة أخرى من دون طائل ، لكنه عاد في حال مزاجية أهدأ . وأخيرًا وجد شمسًا في نفسه ، مشعا كالقمر " . وصلت عملية التوحد التام بين العاشق و المعشوق إلى ذروتها : لم يعد جلال الدّين و شمس الدّين كينونتين منفصلتين بل كينونة واحدة على الدوام .

عندما ذهب إلى تبريز ، تحدثت مع شمس الدّين
دون حروف مئات الأحاديث في الوحدة

الإلهية

و تظهر أشعار الرّوميّ التي نتجت عن هذه التجربة كل مراتب الوجد الصوفيّ – الشوق و التوق و البحث و مرة إثر مرة أمل الوصال ، دونما حدود . كثير من الأغزال تولد من إيقاع الرقص الذي اعتاد الشيخ أن ينغمس فيه أكثر فأكثر .

لست وحدي الذي أعني: شمس الدّين، شمس الدّين -

بل يغني معي العندليب في الحدائق و الحجل في الجبال ،

.... يوم مشرق شمس الدّين و فلك دائر شمس الدّين،

كنز جوهر شمس الدّين ليل و نهار .

شمس الدّين كأس جمشيد و شمس الدّين بحر عظيم ،

شمس الدّين نفخة عيسى روح الله و شمس الدّين عذار يوسف

و كثيرًا ما يخاطب شمسًا:

في يدي دائمًا كان المصحف –

و الآن أمسكت بال " جفانه " بسبب العشق –

في فهي دائماً كانت كلمات التسبيح –
و الآن الشعر و الرباعي و الغناء ...

استحال وجوده كله إلى الشعر و الموسيقى. غدت الموسيقى التعبير الوحيد عن
مشاعره ، الموسيقى المرجعة الصدى في الكلمات الملتهبة ، تتردد في إيقاعات أناشيده.
ورغم أنه قد يكون استيقن أخيراً أن شمساً قد توفي على الصعيد الدنيوي فإنه لم
يسلم بذلك ، لأن

من قال إن: ذلك الحي السرمدى يموت ؟ ”

من قال إن: ” شمس الأمل تموت ؟ ”

ذاك عدو الشمس علا السطح

ووضع عصا على عينيه و قال : ” الشمس تموت ”

أحس أن علاء الدين كان له نصيب في المأساة ؛ و يتحدث كثير من القصص ، و
تؤكد رسائله أنه لم يعد يقيم وزناً بعد ذلك لهذا الولد . و عندما توفي علاء الدين
سنة 658هـ 1260م ، رفض الوالد حضور جنازته . و يقال إنه لم يسامحه إلا في أخرة ،
تتحدث إحدى رسائله عن إرث علاء الدين و أفراد أسرته الذين لا ينبغي أن يوضعوا في
ظروف مادية صعبة ؛ و يبدو أنه حتى بعد عقود لم يسلم أبناء الروميّ الآخرون بكون
أبناء علاء الدين جزءاً معترفاً به من أسرة مولانا.

و هناك أسئلة كثيرة عن شمس الدين التبريزي – حتى إن بعض النقاد شك في وجوده
نفسه . لكن قلنسوة الدرويش الكبيرة المحفوظة في متحف قونية ستكون علامة على
وجوده الجسدي ، حتى لو لم تعرف أحوالاً من الافتتان المشابه بين الصوفيّة المسلمين .
و مهما يكن فإن التقاء الروميّ بشمس كان فريداً ، ذلك لأنه لم يكن ذلك الهيام المؤلف
بالجمال الإلهي في مظهر شخص شاب المعروف بوصفه عامل إلهام في التصوّف ، بل
لقاء صوفيين ناضجين ذوي قوة شخصية هائلة . وقد قورن شمس بسقراط الذي
كان ، دون ترك أي شيء مكتوب ، سبب أعظم تأليف أفلاطون : و قد تجرع أيضاً كأس
الاستشهاد على يد أولئك الذين لم يفهموا ناره الروحية .

كان شمس كالشعلة التي أشعلت النار في المصباح الذي هو الروميّ . و قد وصف
ع. كلبينارلي علاقة الصوفيّين بهذه الصورة :

كَانَ مَوْلَانَا مُسَاعِدًا لِلتَّجْرِبَةِ الْمُتْلَهَةِ ، كَانَ . إِنَّ

جَارَ التَّعْبِيرِ ، مِصْبَاحًا مُطَهَّرًا مُنْظَفًا سَكَبَ فِيهِ

الرَّيْتُ وَوَضَعَ لَهُ الْفَتِيلَ . وَابْتِغَاءً إِشْعَالَ

هَذَا الْمِصْبَاحِ بَدَأَ مِنَ النَّارِ ، الْجَمْرَةِ . وَكَانَ شَمْسٌ

مُعَدًّا لِفِعْلِهِ هَذَا . وَلَكِنْ عِنْدَمَا غَدَا ضَوْؤُهُ هَذَا

الْقِنْدِيلِ الَّذِي لَا يَنْضُبُ زَيْتُهُ قَوِيًّا جِدًّا حَتَّى إِنَّهُ لَا يَرَى
شَمْسًا، تَحَوَّلَ إِلَى فَرَّاشَةٍ وَدَخَلَ الضَّوُّ مُتَخَلِّيًا عَنْ حَيَاتِهِ... .

وإذ نضع في الحسبان الطبيعة النارية لعلاقتهما والضيء الروحي الكثيف ، و الألق
الذي شمل العالم للشعر الذي انبثق من تلاقهما – القصير في منظور الزمن البشري
– تكون المقارنة مصيبة تمامًا.

ليست المحصلة أكثر من كلماتي الثلاث هذه :

احتترقت و احتترقت و احتترقت ...

و في ضياء تجربة العشق الغلاب عند جلال الدّين يبدو كل شيء في العالم الخارجي
متلاشيا و يكون الإنسان مغرى بسهولة بنسيان أن مولانا كان إنسانا أيضًا تنعكس
إنسانيته العميقة و القوية و فهمه لعالم الحس في أشعاره بوضوح تام . و يميل المرء
أيضًا إلى نسيان الخلفية التاريخية التي جلي هذا المصباح نفسه أمامها، و إلى إغفال
النشاطات الاجتماعية الكثيرة التي كان الصوفيّ منغمسًا فيها على المستوى " الدنيوي " .
و في السنوات نفسها التي ظهر فيها شمس ثم توارى، شيد واحد من أكثر الأبنية
سحرا في قونية، أي مدرسة قرطاي، التي أكمل تشييدها سنة 649هـ/1251م. و هي
تحمل اسم جلال الدّين قرطاي (ت652هـ/1254م) ولي العهد الذي ينحدر من أسرة
بيزنطية الخلفية . هذا السياسي العظيم كان صديقا حميما للرومي ، معروفا بورعه
و إخلاصه غير المألوف و من هذه الوجهة خاطبه جلال الدّين على أنه " ملكي الأخلاق
كروبي الأوصاف معدن الخير و الإنصاف " و هي خاصيات كانت حتمًا نادرة بين ساسة
دولة سلاجقة الروم المتفسخة ...

في الساعات الأولى ليوم سبت مشمس في السادس و العشرين من جمادى الثانية
عام 642هـ كان شخصان قلقان و يمشيان بتبختر يمران بسوق قونية. موجتان
عظيمتان بحران زاخران ، عالمان عجيبان و خفيان ، يمضي أحدهما نحو الآخر . في
سماء قلبي هذين الرجلين كانت تطلع شمس أخرى أضوأ و أشف من وراء السحب ، و
في الأفاق البعيدة كانت أمواج مُفعمة بالعطر بالتعاون مع النسيم قد عطرت الفضاء
مظهران للفكر ، كرتان ناريتان للعرفان الإيراني تقف إحداهما أمام الأخرى على حين
غرة في وسط سوق قونية ، كان لديهما قصداً إلى المشاكسة . شمس التبريزي الزاهد
المتشرد القلندر المجهول ذو التركيب الملكوتي من العشق و الصفاء يضرب بيده على
بغل مولانا . كأن كل إنسان و كل شيء توقف في تلك اللحظة على حين غرة.

الطوفانات و الأعاصير و البحار التزمت الصمت أيضًا . كأنّ الأرض أيضًا في تلك
الدقائق العظيمة توقفت عن الدوران . سحر مُطرب العشق ببصره النافذ مولانا،
نظراتهما النارية انعقد بعضها ببعض ، صارت العين ترجمانًا للقلوب ووصل إلى الأذن

صوت شمس الأخاذ والمهتز :

- يا عاشق التراب يا مدرس قونية ومفتيها الكبير ، قل لي : أبو يزيد أعظم أم محمد (عليه الصلاة والسلام) ؟

كأن صاعقة نزلت على روح مولانا عل نحو مفاجيء ، و في صمت عميق للروح و فضاء النبوغ أضرم شمس ، الرث الثياب المغمور ، بسؤاله شعلة في روح مدرس الروم الشرقية الكبير و قد حان أن يصمت هذا القلندر الجسور المتجبر فيما يبدو أمام أصحابه و محبيه و تلاميذه ، و لهذا أجاب :

- محمد (عليه الصلاة والسلام) رسول الله عظيم أهل الدنيا و إمام البشر أية صلة له و مقايسة بأبي يزيد ؟

و في وسط الصمت المنغص للروح الذي استبدّ بالحاضرين ، شاء شمس بجرأة أن يظهر الهيجان و الإيمان المنزوي المفعم بالعشق . صاح و بنبرة الأمر قال :

- فلماذا إذن قال النبي الأكرم : " ما عرفناك حق معرفتك " و يقول أبو يزيد : " سبحاني ، ما أعظم شأني ؟ " .

كأن هذا الرث الهيئة لديه رسالته تجعله ينشغل بمحق المقامات التي يمتلكها مفتي المدينة العظيم المقتدر ، و يجعل بكلامه كل ذرات أركان وجوده ترتجف .

انتاب مولانا اضطراب من هذا الجواب العجيب ، فلم يستطيع الاحتفاظ بتوازنه الجسمي و النفسي ، فسقط على الأرض ثملاً ذاهلاً صامتاً . سارع إليه شمس الدين و مع الابتسامات الصفراء الغاضبة للمريدين و الأصحاب ، أمسك بيد مولانا برفق و ساعده على أن ينهض من مكانه . سلّم أستاذ الجامعة في الروم الشرقية كالطفل المطيع دونما عناد . فتح عينيه ، وقام بهدوء . خاطب شمس مولانا همساً : جئت إلى هنا من جهة مرشدي و شيخي ركن الدين السجاسي و قد قال لي : في قونية محترق لابد من إضرار النار في طينته . نظر مولانا إلى شمس فسمع أنغام اشتياق قلبه من لسانه ، فهدأ روحه و جسمه و ارتاحا ، كان ثملاً من جرس الكلام الذي هو مجلى لأماله و أشواقه ورأى أنه ذرة أو ظل إلى جانب رجل رث الثياب و غير معروف و أحس لأول مرة ، وهو في مقام الأستاذ العظيم بأنه تحت شعاع إنسان جامع حدّد أمامه المصير . و كان شمس و جلال الدين يمشيان في الطريق متبخترين و يخطوان ، و كان المارة و تلاميذ مولانا ينظرون بتعجب إلى رجل مجهول رث الثياب و كان جلال الدين يسعى إلى أن يظهر نفسه كالسابق ذا وقار و حشمة؛ و لكن طنين السؤال و صلابته حتى الآن يضح في روحه كقصف الرعد .

و كان الرجل الزاهد التبريزي يحمل جلال الدين بأموج جذباته الروحية إلى حيث

يستطيع أن يتعرّف عالم العشق و الهيجان المترامي الأطراف. و أثناء عبور جلال الدين أمام حجرته توقف على نحو مفاجئ ، و أشار بيده إلى تلاميذه و مرّديه بأن ينصرفوا و عانق المجهول التبريزي، و أخذَه إلى حجرته ، ثم جلس على ركبتيه و قبّل يده . و في رواية أنهما أقاما لمدة أربعين يومًا في تلك الزاوية و لم يأذنا لأحد بدخول خلوتهما . و كان القلب الحزين لجلال الدين البلخي وجد الشفاء في الصيدلية الباعثة للحياة المتمثلة في ذلك الرّث الثياب المجهول تدريجيًا بما يشبه المعجزة، و يعترف مولانا في خلوة الضيف المجهول بالقول : أحسست بعد هذا بأنني لست شيئًا لست شيئًا لست حتى ظله . ولا شك في أن هذا الطبيب سيعالج أحزاني و آلامي و لكننا رجلان يجلسان في خلوة ممتلئين بالعشق ، و لعنا بسلطان العشق في المستقبل ننتصر على أقوى المصاعب .

على أن مولانا الذي اعتاد على أنغام شمس المهيجة في عالم الحال تدريجيًا ، ترك منصب التدريس و كرسي الوعظ و تخلي عن ضجيج عالم المعقول وودّع حياة الظاهر ثملاً بخمرة الشوق و العشق ، و استبدّ شمس في هذا اللقاء بالقلب و الروح المفعم بالفكر و الرؤى المختلفة لدى فقيه الروم الشرقية و مدرّسها الحنفي و في هذا المعراج ذي العظمة المعنوية أثبت أنه أعجوبة العشق و ملاح بحره الذي لا حدود له، و المحور الأصلي لفكره المتعالية العشق و الجمال و الكمال و الشوق و الهيجان، و نظم الشعر و السماع هذا الذي يبعد عن ساحة الوجود اليأس و القنوط . . . و إنّ للعشق تأثيرًا كبيرًا في إثارة جذباته الروحية. و قد ذكر لجلال الدين أن الأسفار البعيدة إلى المدن البعيدة قد ساعدته و أنه كانت له مع أعلام العلم و أقطاب السير و السلوك مباحثات و مجادلات و قد طوّع كثيرًا منهم من طريق اللطائف العرفانية الجديدة و الأصيلة، كان يحيط بالمعارف الإسلامية و تتوارى في بيانه قدرة عظيمة على الإقناع و يمتلك القدرة على تصوير البحث العرفاني الإنساني في سيماء العشق ولا يتعامل فقط مع المقولات العرفانية، و يرى للكائنات انعكاسًا في مرآة المحبة و العشق و قد تحرر من نفسه و ارتبط بالروح الأزلي. و قد روي أنه في أثناء سياحته في بغداد التقى الشاعر و العارف الكبير في إيران أوحد الدين الكرمانى في أحد الخوانق (الزوايا الصوفية) . و في هذا اللقاء سأله :

-في بغداد ، بأي عمل أنت مشغول ؟- فأجابه أوحد الدين . الذي لديه فكر صوفية على الفور :

أنظر إلى القمر في وسط طست الماء !

يضفي شمس على كلامه و عذوبة ساحرة و يقول :

- إذا لم يكن في قفاك دمل ، فلماذا لا تنظر إليه في السماء ؟

فهمتاج أوحد الدين الذي لديه اطلاع كامل على الرموز و الاستعارات العرفانية و يرجو و يلتمس و يقول : منذ اليوم أريد أن أكون مريدًا لك . فيجيب شمس بابتسامة : لا تقدر على صحبتنا .

إنَّ شمسًا باعتراف مولانا أستاذ و كان يجيب حتى عن الأسئلة المتصلة بزوايا الروح و القلب بصراحة و إيجاز، و لم يتأخر الوقت حتى أمسك بيده بجلال الدين كالرباب أو الأرغن ، أو كالناي يضعه بين شفثيه و يعزف عليه، و يحرق بشعل أنفاسه المحرقة جناحه وريشه أو يسقطه .

كان الساحر التبريزي - بشهادة مولانا - متبحرًا في علوم زمانه و كان يدرس لسنوات في دور العلوم في حلب و دمشق على مشاهير مثل ابن عربي ، و انهمك بالرياضيات في حجرته و في بيان حاله ذكر في كتاب " المقالات " قوله " كنت طفلًا ، كنت أرى الله (كشفًا) و كنت أشاهد الملائكة و كان لدي اطلاع على المغيبات ، و كنت أظن أن الناس جميعًا يرون مثلي، ثم عملت فيما بعد أنهم لم يكونوا يرون مثل ما أرى كان الشيخ أبو بكر ، مرشدي يمنعني من الإعلام بذلك " .

كان شمس يحترق بشعل مشاهداته و كان يُعاني ، إذا لم يستطيع أن يتلو الأنغام الجذابة لوادي الحق و الحقيقة و الإلهام في عالم الغيب على مسامح من ليسوا أهلًا لذلك . و ما أكثر الأيام و الليالي التي كان فيها في انتظار الظفر بنجي يُفشي له أن هناك عالمًا آخر ينثر النور و يخلق العشق . و في النهاية أمر بأن يفشي لمولانا أسرار صفحات الملكوت و يكشف سر جلال الأبدية بقمه و فراسته ، على نحو خفي في حجرة مولانا في قونية . و لم يكن لدى شمس تلك اللحظات الحساسة القدرة على أن يخزن الأسرار في صدره ، ، و قد حدث تبادل للحديث في أكثر المضامين العرفانية و التحولات الروحية إثارة و بلاغة؛ بل حتى في سر درب الأسد في لون المجرة في إحدى الروايات في خلوة الأربعين يومًا بين الحبيين و العاشقين المخلصين :

- إِنَّ الشَّمْسَ هِيَ دَلِيلُ الشَّمْسِ، فَإِذَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الإِهْتِدَاءِ فَلَا تُدِرْ وَجْهَكَ عَنِّي .

- وَإِنْ كَانَ الظِّلُّ يُقَدِّمُ لَكَ عَلامَةً لِهَيْدِهِ الشَّمْسِ، فَإِنَّ الشَّمْسَ الخَالِدَةَ تُلْقِي عَلَيْكَ نُورًا رُوحِيًّا .

في أحد أيام العزلة و الانزواء سأل مولانا شمسًا : ألا تبين لماذا و كيف جئت إلى قونية ؟ فقال : كان سبب سفري إلى قونية أنه في إحدى الليالي في المناجاة كنت أتضرع و أقول للمولى تعالى : أما من أحد من خاصتك يقدر على صحبتي ؟

- فبشرني ملك عالم الغيب أنه : إن شئت نديم صحبة فامض إلى قونية .

فكان أن وصلت إلى حضرتكم .

و كتب أحد كتاب التذاكر المعاصرين لمولانا قائلاً في شأن شمس : شمس في البيان و التقرب له مشرب موسى (عليه السلام) و في التجرد و العزلة له سيرة عيسي (عليه السلام) و حتى زمان مولانا لم يكن لمخلوق اطلاع على حاله ، كان دائماً في غطاء من الكرامات ، و كان يخفي شهرته على الخلق . و من هذه الوجهة كان جلال الدين يعد شمساً علاجاً للكبير و التعاضم و أسى من جالينوس .

و في أشعار مولانا و أناشيده يظهر شمس منزلة عالية يغدو شمس كعبة لمولانا و شُغلاً و ناراً و جنة . و مهما يكن فإنه يمكن القول إنّ صيحاته كانت تجذب الناس إليه من بوابة الروم إلى آفاق بلخ ، إذ كانوا يصغون على نحو أفضل إلى كلام مولانا ، الذي أتى في دنيا الأدب و العرفان بعالم جديد . فلأول مرة كان فقيه كبير ، عابد زاهد و رعبيدر وجود العشاق و يمزج كل قيم الحياة بعضها ببعض و في حال من البكاء و الأنين يصف معشوقه على هذا النحو :

أَعْلَنْتُ هَذَا الْكَلَامَ: إِنَّهُ شَمْسِيٌّ وَمَعْبُودِي شَيْخِي وَمُرِيدِي دَائِي وَدَوَائِي

و قد قال مولانا : إنه في أحد الأيام كان مالك الجبروت قد أظفرني بعوالم الملكوت و السلوك ، و عندما وصلت إلى السماء الرابعة رأيت كُرّة ذلك الفلك مظلمة ، فسألت قُطّان ذلك الحمى عن غياب الشمس ، فسمعت من القُديسين قولهم : ذهبت شمسنا لزيارة سلطان الفقراء شمس الدين التبريزي ، و عندما عدت إلى الفلك الرابع رأيت النّير الأعظم في مركزه منشغلاً بإفاضة الأنوار و إشعاع الضياء .

صار مولانا المفتن الواله يرقص في الأنوار المبهرة لعيني شمس النفاذتين ، و بسبب الافتتان بشمس انشغل كثيراً بالصلاة و الصيام ، إذ كان يصوم يومين و يفطر يوماً . و ذلك عندما كانت شمس حقيقة شمس ، كما يقول الأستاذ فروزانفر ، تسطع على مشرق روجه و صار العشق فعلاً في قلب مولانا و اختار شمساً مرشداً في الطريق ، ثم بإشارة منه دخل في السماع .

و قد انتابت الحيرة أحياء مولانا و تلاميذه و المتعلقين به بسبب الانقلاب الذي حدث في الروح الهائج لحبيهم و أستاذهم و تأثروا و كانوا يعترضون على شمس و يقولون عنه إنه غير مُبالٍ و مستهتر ، و كانوا يزعمون أن مولانا صار عابداً للشمس ، و كان لوم الناس خاصة ذوي الفكر الجاف الغلاظ القلوب يزيد قوة العشق و الولع عند مولانا . أحياناً كانت جماعة تسد الطريق أمام شمس و يقولون عنه إنه ساحر و شيطان كبير ، و لم يعودوا يعلمون أن شمساً له قلب منعقد بمحبة مولانا . و كان مولانا يغلب إلى محبيه بعجز أن لا يوجهوا الإهانة لشمس ، كان يقول إنّ شمساً مظهر عظيم لعالم الخلق ، شعاع جاء إلى قونية من ناحية أفلاك العشق .

في أحد الأيام سأل أحدهم مولانا : أي واحد من أحبائك مقامه أرفع و أسى من

ناحية الأهمية والمعنوية ؟

- فأجاب مولانا: "شمس هو الشمس وصلاح الدين زركوب قمر ، و حسام الدين نجم" و منذ ذلك اليوم نهض المتعصبون و القشريون و الحساد جهازًا نهارًا ، و في المجامع المختلفة لتقريع مولانا و إيدائه و بدؤوا العداوة و المخاصمة لشمس . قالت عنه جماعة إنه ساحر و قال عدد إنه فاجر و حينًا كانوا يرمون شمسًا بالحجر في الشوارع و الأسواق ، حتى إنه في النهاية لم يعد شمس يتحمل الإهانة و اضطر بعد مضي ستة عشر شهرًا ، على نحو مفاجئ إلى أن يترك مولانا و يخرج سريعًا من قونية أو، في أحد الأقوال ، يفر .

و في فراق شمس العشق و العرفان ، انشغل مولانا بالبكاء و النواح على امتداد الساعات و الأيام، إلا في اللحظات التي يحل فيها الظلام ، لا صاحب عنده . و أحيانًا يلجأ إلى السماع ، و في الليل كان ينظر إلى القمر و النجوم ، لعلَّ شمسًا أيضًا ينظر إليها في أصقاع بعيدة ، فيلتقي نظره بنظرات مولانا في ملتقى القمر و النجوم . كان روح مولانا في غمرة ألم اليأس ، يحس أيضًا بصفاء ملكوتي ولا شيء من الكتب و الأشعار و المدارس ، و لا أحد من الأصحاب كانت لديه جاذبية لدى مولانا . غدا كل شيء عند مولانا صامتًا و خاليًا و كان الوجود و العدم عنده سيئين ، ظل مولانا باحثًا عن مطلوبه الرؤيوي، عن أملة و عشقه . و جاء الخبر بأن شمسًا في دمشق ، فأنشأ مولانا أشعارًا عشقية و مفعمة بالحرق و الأشواق و بعث بها إلى دمشق لعلَّ شمسًا بتأثير مطالعة تلك الأشعار المحرقة يتلطف و يرق فيأتي و يجعل بيت أحزان مولانا مضيئًا و منورًا و مليئًا بالنشاط . و قد اضطرت الخواطر الباقية من الأمد القصير و السريع للمحبة و الصحبة بين مولانا و شمس ، سلطان العاشقين مولانا جلال الدين محمدًا أن ينشغل بالإنشاد و التغريد في عالم العرفان الفسيح . و كان يعرف جيدًا أكثر الأنغام تأثيرًا النغمة التي تنشد عند استحكام اليأس :

وَمَتَى يُسْعِدُ قَلْبُهُ وَأَنَا لَمْ أَحْتَرِقْ

يَا مِنْ قَلْبِي أَهْلٍ لَهُ وَ مَنْزَا؟

وَتَطَلُّ تَحْرُقُ مَنْزِلِي أَلَا فَلْتَحْرُقْ

فَمِنْ ذَلِكَ الَّذِي يَقُولُ: لَا يَجُوزُ؟

اضطرابات و طوفان

نظم مولانا في أثناء الفراق الموجه لشمس أنغامًا على وزن أغاني السماء الخالدة، أغلق الباب أمام المحبين و الأصحاب . أمسك بالقلم و أثبت على الورق شررًا محرقًا كان ينبعث من أعماق روحه في صورة كلام موزون . ومن كل كلمة لمولانا كانت تنبعث رائحة الانتظار و الأمل و الخوف و الانجذاب و العشق . و كان مولانا في غاية اليأس يقول : ليتني امتلكت القدرة على أن أجلس فوق عجلة الزمان و أطير نحو الشمس (شمس تبريز) راقصًا .

كانت اللحظات تمضي ببطء و لم يَعدُ للأيام و الليالي و حتى لبيته و حجرته و أصدقائه و أحبائه و أسرته أية جاذبية لديه . و لم يعد لطلوع الشمس و غروبها عند مولانا أي رونق و ألق . ولم يكن يحس بالبهجة و السرور عندما لم يكن مطلوبه الروحي موجودًا في قونية، هذا المطلوب الذي كان يسير معه في فضاء الخلود اللألاء في نور القمر و ضياء الشمس . كأنه قد أُسر في دوامة اليأس و الضياع المرعبة .

الملاذ الأخير لمولانا كان شمسًا . وابتغاء وصف عمق افتتانه وقوة إثارة و إهماله لنفسه يكفي أن ننظر إلى أشعاره التي نظمها في فراق مراده و قطبه و نرى جذب العشق السرمدى كاملاً في آثاره و في الحسرة المكتومة في صدره .

و قد ذكر مولانا في أيام الفراق في واحدة من غزلياته ، أنه كان مع شمس في السماء- نعم، كان زهرة في سمائه – قبلة وجهه بستانه وربيعه روحه و دنياه . و في نهاية الكلام ، كانت تصل إلى الأذن من كل كلمة من كلماته صرخة مجلجلة كالرعد .

حيث يقول :

شَيْخِي وَ مُرَادِي دَائِي وَ دَوَائِي، أَفْشَيْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، هُوَ شَمْسِي

وهنا يصمت كل شيء ، إذ أنزل مولانا أفصح الكلمات و أبلغها في أناشيده الغنائية و استطاع بمدد ذهنه المزدهر أن يوجد مستقرًا مليئًا بسحر الكلام ، وأن يقول بالأوزان شعرًا يطرب و يظهر عالمه الداخلي المضطرب شعرًا سلسًا و منسبًا و منسجمًا و مؤثرًا

، لكي يعلم الآخرون بقراءته من كان شمس و أية منزلة احتل ، بدأ طوفان ثائر لا يهدأ و كان شرر الفراق الجسور يرسل بالسهم إلى روح مولانا الحساس ؛ ذلك لأن الآلام التي كانت تنبعث من داخل أغلال العشق و الهيام كانت تخرج في صدره المملوء بالألم كلامًا ضاجًا ، و في النهاية أوصل مولانا شمسًا إلى المنزلة التي كان يتطلع إليها و عرفه للجميع . و الآن يخطر في الذهن هذا السؤال : في الأربعين يومًا التي خلا فيها شمس مع مولانا ، ماذا علم محبوبه حتى سحره و جذبه فكان يصنع الأنغام في مدح مراده و يقول عنه إنه "ربه" غير وجل من المعتصمين و متحجري الفكر في قونية ؟

و قد أجاب سلطان ولد ، ابن مولانا عن هذا السؤال على هذا النحو :

إن عشق مولانا شمسًا شبيه ببحث موسى عن الخضر ، فموسى على تحليه بمقام النبوة و الرسالة ورتبة "كليم الله" كان يبحث عن رجال الله . مولانا أيضًا على كل ما له من كمال و فضل و جلال ، كان يمضي الأيام في طلب الأكمل إلى أن ظفر بشمس الذي كان أحد مستوري قباب الغيرة فصار مريدًا و وضع رأسه على قدمه و فني دفعة واحدة في أنواره . و كانت الحال في شأن شمس أن يصور للناس صورة مولانا اللآلة و الأدبية و منزلته العلمية و بصيرته و أن يبين أي مركز في الضوء احتل في دائرة العرفان .

اقرؤوا كتاب العارف الكبير مولانا شمس الدين محمد بن ملكدا التبريزي المسّمى " مقالات شمس" فقد تحدث فيه عن مولانا بقدر ما هو متاح . ففي هذا الكتاب يوصل شمس صوته السماوي إلى أذن القارئ البَحّاث قائلًا : إن مولانا بحر في العلم و الفضل ، لكن من الكرم أن يسمع كلام المسكين (شمس) . و أنا أعلم و الجميع يعلمون بأنه في الفصاحة و الفضل مشهور . و لا أحد في العالم يشبه مولانا إلى هذه الساعة (بعد خلوة مولانا و شمس) و في الفنون كلها سواء الأصول و الفقه و المنطق و النحو يتحدث مع أربابها بقوة المعنى ، و يكون حديثه أفضل من حديثهم و أجمل و أحسن ، إن اضطر إلى ذلك و شاء قلبه و لم تمنعه الملالة .

كان شمس يرى مولانا في كليته محبة و إخلاصًا و كان يريد و يؤمل أن يجد على امتداد البسيطة إنسانًا يدمج صوته بصوته و يسمعا معًا بأذن واحدة الصدى الرمزي الذي يثبت السماوات و لدى الأرض أيضًا استعداد لتنفيذ أوامره . و يقر شمس قائلًا : كنت أنشد شخصًا من جنسي لأجعله قبة و أستقبله ، إذ مللت من نفسي و الآن إذ جعلته قبلي صار يفهم ما أقوله و يدركه .

و في اللحظات التي كان فيها شمس في محضر مولانا كان يتلقى لحظات العمر الحلوة و في كتابه " المقالات" قال جهارًا : إن لي من العمر تلك الساعة التي آتي فيها إلى جناب مولانا ."

و عندما عرف مولانا شمسًا في خلوة الأربعين يومًا معرفة دقيقة ، صار وجوده

معرضاً لاضطراب لا حدود له . ففي تلك الأيام نفسها هزَّ الخوف من الفراق والخشية من سعاية المنافقين ، هدوء منظومته الروحية .

و في أيام إقامة شمس في قونية أعد جلال الدين قرطاي ، المدرس الكبير في يوم عظيم و مهيج مجلساً كبيراً في مدرسته في قونية . و في ذلك اليوم دُعي شمس الدين لأن يحضر ذلك المجلس . ذهب شمس و جلس في نهاية المجلس قرب الباب . فسأل الناس مولانا : في هذا النوع من المجالس ، أين يكون صدر المجلس (متصدر المجلس)؟ فأجاب مولانا من دون تردد : يكون صدر العلماء في وسط الصفة و صدر العارفين في زواية البيت و صدر الصوفية في جانب الصفة و في مذهب العاشقين يكون الصدر إلى جانب الحبيب . و في اللحظة نفسها و ثب مولانا من مكانه و جلس في آخر المجلس ، إلى جانب شمس .

و في ذلك الوقت صارت النظرات أكثر بحثاً و حملقة و احمراراً ، و تحولت الهمهمات إلى اعتراضات و الاتهامات إلى شتائم . حدث طوفان و تهيأت القبضات للضرب ، قامت جماعة متعصبة و ساذجة و بلهاء من أماكنها ، واتجهت نحو شمس قصداً إلى إيذائه ، جماعة أخرى ساخطة غادرت المجلس ، على سبيل الاعتراض . فصاح مولانا كالطوفان الذي يهدر في وسط سحاب مظلم أسود و قال :

اسكتوا ، امتنعوا عن الكلام ، الزموا أماكنكم . إنّ شمس الدين هو شمسي المعنوية الروحية حيث يوجد شمس توجد الملائكة أيضاً . حيث يوجد شمس توجد آمال العارفين طائفة و يكون مشعلهم مُتقدماً ، إنّ آلاف النجوم الألاءة سارت وراء الشمس التبريزي . و كل من يريد أن يتقدم نحو محبوبي قصداً إلى إيذائه فستحرق شعلة شمس الغاضبة كليلة وجوده .

كل الأشخاص الذين كانوا قد نهضوا من أماكنهم لكي يقضوا على شمس بضرباتهم و صفعاتهم جلسوا في أماكنهم لم يكن لدى أحد قدرة على أن يعترض ، كان المجلس أمام أوامر مولانا المحكمة و النافذة التزم الصمت المطبق . أما خارج المدرسة فقد بدأ الضجيج و كان الناس يقولون بأصوات مرتفعة : سحقاً لساحر قونية و كان ذلك الساحر في عقيدة مبصري الظاهر شمسا التبريزي .

فاضطر شمس يوم الخميس الحادي و العشرين من شوال عام 643هـ أن يترك قونية بعد ستة عشر شهراً من الإقامة فيها . و على قدر ما كان الحاسدون اللؤماء مخالفين لشمس و فكره ازدادت علاقة مولانا بمراده . لم تعد التهم و الخصومات و العداوات قادرة على أن تسكت صوت مولانا المجلجل و كان من دون خوف و خشية يردد :

أَنَا عَاشِقٌ بِأَذَلِّ لِلرُّوحِ ، لَا أَتَحَامَى العِشْقَ

أَنَا تَمَلُّ مُتَرَجِّحٌ لَا أَفِرُّ مِنَ السُّكْرِ وَالْعَرَبِدَةِ
يَقُولُ أَصْحَابِي: أَلَا تَتَحَامَى الْعِشْقُ؟
أَتَحَامَى الْعِشْقَ وَلَكِنْ بِأَيِّ شَيْءٍ أَخْتَلِطُ بَعْدَ ذَلِكَ
إِذَا دَخَلُ شَمْسِ الْحَقِّ التَّبْرِيزِي الْعَرَصَاتِ
فَسَاخَلِطُ تُرَابَ بَدَايَةِ حَيَّهِ بِالْمِسْكِ

كان مولانا يقول للناس على علم : هذا الرجل العظيم في وادي العرفان ، الذي تعدونه أنتم ساحراً و محتالاً ، هو قطبي و مرادي و دواء أدوائي . و الطريف أنه في كلام شمس المثير ، يموج الحال و الجذب على نحو لم أره في آثار العارفين الآخرين .
وقد سُئل مولانا : متى تعود إلى المدرسة و المسجد ؟ فأجاب : عندما يعود مجلى أشواقي و أوج قدرتي الخلاقة إلى قونية . و قيل له : إن طلاب العلم في انتظار مجلس الدرس و العلم باشتياق ، فأجاب : قولوا لهم : إذا لم يعد شمس إلى قونية ، و لم تضأ زاوية قلبي الحزين بنور سيمائه ، فلن يكون لكلامي جاذبية و حلاوة ، و قد شدت متعة التدريس الرجال عن وجودي . و قد ندم أهل قونية على ما حصل خاصة أنهم كانوا يرون مولانا في فراق حبيبه لا قرار له ولا طمأنينة لديه و قد ذهبت جماعة منهم إلى مولانا باكين و براوية كتاب " ولدنامة " أنهم :

جاؤوا الشيخ باكين متضرعين : اعف عنا ولا تهجرنا مرة أخرى

نظل نتوب فارحمنا ورق لنا وإن فعلنا ذلك مرة أخرى فاعننا

و في النهاية و إثر التماس هؤلاء و ضراعتهم مال إلى اللطف ، فغفر لهم ذنبهم و أمر سلطان ولد ابنه الكيس ، بأن ينطلق إلى دمشق بصحبة عشرين شخصا من أصحاب شمس و محبيه حاملا رسالة شعرية .

سافر سلطان ولد بصحبة عشرين شخصا من محبي مولانا مسرعين ممتطين الجياد إلى دمشق . و مرة أخرى في الليالي كان الشمع في حجرة مولانا مشتعلا حتى الفجر ، و كان الناس يرون أن مولانا هو محيي الليل غير المنازع في قونية . كان نجم الأدب الإيراني و الثقافة الإيرانية اللألاء في الليالي يغوص في حال من نوم اليقظة تحت أنوار الشموع و يغرق في فكره . و في هدأة الليل كان كأنه في تواصل و مناجاة روحية مع شمس . و لم يكن لدى أحد الجرأة على أن يقول له : بماذا تفكر ؟

- لماذا رحل الهدوء و الراحة عن وجودك ؟

- لأن رابطة بعالم العرفان قد تركه .

كل فئات الناس في قونية دخلوا في ضجة و صخب متسائلين : ماذا حدث لمولانا ؟ و

هذا الشخص الغائب (شمس الدين التبريزي) أي شخص هو ؟

- من هو ؟

-ومن أين جاء حتى سحر مولانا ، و انشغل بنفسه. و لعلّ مولانا كان يريد بانزوائه و نفاذ صبره ، أن يفهم طبقات الناس في المدينة تكريمه شمسًا و ثناءه عليه ، و أن يدين مزاجهم العدواني و سوء ضيافتهم .

كان شمس الدين شوكة في طريق المعتصمين و السطحين ، و كان ينشر فكره بين الناس بحرية و في يوم من الأيام عُقد اجتماع كبير في خانقاه الوزير نصر الدين و حضر هذا الاجتماع جميع علماء و المشايخ و العارفين و الحكماء و الأمراء و الأعيان ، كما يذكر الأفلاكي و كان كل منهم يتحدث في أصناف العلوم و الفنون و الحكم و يقدم بحثًا عجيبيًا إلا مولانا شمس الدين الذي كان يراقب في زاوية كأنه الكنز . نهض سريعًا و صرخ فيهم : إلى متى تركبون سرّجًا من دون جواد و تركضون في ميدان الرجال ؟ - إلى متى تتوكؤون على عصي الآخرين ؟ - هذا الكلام الذي تقولونه من الحكمة و التفسير و غير ذلك هو كلام أناس ذلك الزمان ، فإنّ كل إنسان في زمانه كان جالسًا في مقام رجل ، و كان يقول معاني من واقعه ، و إذا أنتم رجال هذا العهد أين أسراركم و كلامكم ؟ - فما كان منهم إلا أن يطرقوا خجلا . و بعدئذ قال :

كان بعضهم كاتبًا للوحي و بعضهم محللاً للوحي ، فاسمعوا إلى أن تكونوا الأثنين معًا محللا للوحي و كاتبًا للوحي .

و قد تعلم مولانا هذه الجمل من شمس . و كان مشغولًا بفكره الجذابة ، و كان يسمع صوت شمس ، شمس الذي كان النور الإلهي يشع على جبينه . كان شمس ذو الصوت الواضح يقول : كن محللا للوحي و كاتبًا للوحي ، في الوقت نفسه . و قد غير هذا الكلام الحياة الفكرية لجلال الدين .

وكلما فكر مولانا في شمس و فكره ازداد حيرة و صداغًا . كان مولانا ينشد بالإرشاد شمس و توجهه أن يظفر بلب الوحي و بجوهر الحقيقة . في إحدى ليالي الفراق سمع الصدى الواضح لشمس في حجرة مولانا يردد : حبيبي مولانا . . . أنت محترق القلب و لا بد في بقية عمرك أن تكون مادحًا للعشق و المحبة . عليك بالكلام المؤثر و الغزليات الفارسية المثيرة الحلوة ، أن تحرك نهرًا من العشق و المحبة ، يجري غدًا من آسية إلى العالم . و في يوم من الأيام سيكتشف العالم عظمة روحك و سترسم أصدق التصاوير لملاح العشق الحقيقي و البحث العرفاني الإيراني في أجزاء المثنوي و ديوان شمس ، التي ستكون كالأزهار الناشرة الشذا الخالدة في بستان المشرق .

ستكون مجلى آمال العارفين و أشواقهم . و يتحول ديوانك الكبير إلى مهبط للوحي و الإلهام . و سيسمع أصحاب القلوب في القرون و الأعصار صوتك من طيات صفحات ديوانك بأذن القلب . و سيندفع جواد فكرك الجموح إلى حيث سيعجز القلم عن الكتابة و اللسان عن القول .

و في مرات كثيرة رأى أصحاب مولانا المقربون أنه كان يخرج رسالة شمس ، التي كان قد كتبها له بوصية فيها بأحد أحبته ، و يستميله إليه من طيات ديوان شعر المتنبي و يقرأ السطر الأول منها الذي يقول :

معلوم لدى مولانا أن هذا الضعيف مشغول بدعاء الخير ولا يختلط بأحد البتة . كان مولانا يقرأ كلمات مراده التبريزي و جملة بيأس و اضطراب غالباً ، و مهمهم بهمس : لعله يأتي اليوم الذي يعود فيه شمس إليّ مرة أخرى و ذلك يوم يبدد فيه النسيم الإلهي سحب الظلام و اليأس من أفق حياتي ، أنا نعم أنا مثل نحلة عاشقة عينيه ، عند روحه ، عند ذهنه ، و لن أسمح للحوادث المزعجة أن تفصله عني ، و سأغرق حتى نهاية العمر في قلب أمواج بحر عرفان شمس المائج . ألا يمكن أن يكون لدى شمس رسالة تحررني من القيود و العلاقات الأرضية ؟ و بعون من شمس أدركت معالم حقيقة الحياة الإنسانية في العشق و الهيام .

و قد أدعي شمس في أحاديثه أنه أرسل لكي يحرر ذلك العبد الرقيق الجميل (مولانا جلال الدين) الذي هو أسير بين قوم أجلاف . و من المؤسف أنهم يؤذونه . و قال مرة أخرى : في داخلي أحب العظماء كثيراً ؛ لكنني لا أظهر ذلك أظهرته مرة أو مرتين لا يعلمون حقهم . أظهرت المحبة لمولانا ، فزادت و لم تنقص .

و من اللائق هنا تقديم صورة واضحة وحية لقطبي العرفان الكبار ، مظهري الإرادة و النبيل ، اللذين كان أحدهما لسنوات مدرسا عظيما و مبلغا متمكنا و محل احترام جملة المؤمنين في الروم الشرقية . شمسًا التبريزي الذي هو عند بعضهم أسطورة و خرافة و بزعم جماعة ساحر لديه عقائد الطالبين للجاه و نظرياتهم بعد أن توفي بهاء الدين ولد (سلطان العلماء) والد جلال الدين البلخي في عام 628هـ جاء إلى قونية سيد برهان الدين محقق الترمذي الذي كان أحد تلاميذ سلطان العلماء و عارفاً كبيراً بإشارة سابقة منه أو بطريق رسالة أرسلها إليه وهو على فراش المرض فصار جلال الدين الرومي مريداً لطريقته لمدة خمسة و عشرين عاماً بناء على توصية والده و طوى مراحل السير و السلوك و الرياضيات الخاصة في تسعة أعوام ، و وصل إلى مرتبة الشيخ ووفقاً لقول ابن مولانا في كتابه " ولد نامه " :

كَانَ فِي خِدْمَتِهِ لِمُدَّةِ تِسْعَةِ أَعْوَامٍ ،

حَتَّى صَارَ مِثْلَهُ فِي الْقَالَ وَالْحَالَ

صَارَا شَخْصًا وَاحِدًا فِي الْمَعْنَى

لَأَنَّهُمَا صَارَا قَلْبًا وَاحِدًا فِي الْمَعْنَى

وَعَلَى جِبِنِ غِرَّةِ رَحْلِ سَيِّدٍ مِنْ عَالَمِ الْفَنَاءِ

وَإِنْطَلَقَ نَحْوَ قَصْرِ الْبَقَاءِ

فَبَقِيَ جَلَالَ الدِّينِ مِنْ دُونِهِ وَحِيدًا
فَتَوَجَّهَ فِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ إِلَى اللَّهِ
وَوَاصَلَ هَذِهِ الرِّيَاضَةَ مُدَّةَ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ
بِصِدْقٍ وَحُرْفَةٍ وَأَتَى وَ الْم

ظل جلال الدين البلخي بعد وفاة مراده في بحث وسعى دائم ، و كان ينفق كل شوقه و هيجانه و آماله الخفية من أجل العثور على معشوق رباني أو إنسان كامل ، و لكنه عندما لم يصل إلى نتيجة اضطر إلى أن يوجه قدرته الخلاقة في طريق تربية التلاميذ و المريرين.

أما جاذبية فكر برهان الدين محقق الترمذي مراده فكانت تستلزم أن يظل ينشد باشتياق ظهور مرشد أو شيخ روحي لكي يسلم إليه روحه ، و في النهاية و في اليوم السادس و العشرين من جمادى الآخرة من عام 642هـ لقي في خان تجار السكر في قونية درويشًا رث الثياب يقول بعض الباحثين إنه من نسل إسماعيلية قلعة الموت، و كان يبدو أنه حاد الطباع . و أحس بنوع من العشق الإلهي أو المحبة العميقة الالتهائية إزاء هذا المعشوق المعنوي أو الرباني كان هذا الشيخ الرث الثياب شمسًا التبريزي الذي كان ذا مشرب صوفي حاد ، و في نظر جلال الدين البلخي كان ذلك وجهًا ملكوتيًا. ظل يعد الثواني لأمد طويل منتظرًا لقاءه ، و منذ القديم انتقشت سيماءه في سويداء قلبه . و قد شبه سلطان ولد عشق والده هذا الرجل المحاط بالأسرار و إخلاصه له بالسفر المشهور لحضرة النبي موسى (عليه الصلاة و السلام) بصحبه الخضر (عليه السلام) . و نعلم أن الخضر عند أشياخ الطريقة مشهور بأنه أعظم دليل و مرشد في رحلة السير و السلوك .

و في الأيام الأولى للقاء قال شمس مولانا : إن مهمتك أهم من مجرد إنفاق أوقاتك في التعليم بمراحله المختلفة و تربية الشبان و مجالس الوعظ : إذ لابد من أن تتمسك بأذيال العشق مخلصًا فيه ، لكي تكشف سر الكائنات . صبَّ شمس جام حماسة العشق المفعمة بالهيجان على متعصي قونية اللؤماء ، و أعلن مبارزة المرائين الذين كانوا يبحثون عن نزواتهم و شهواتهم غير مباليين بتصفية القلوب و الدفاع عن المستضعفين و المظلومين ، و قال للصوفية و أصحاب الزوايا إنَّ زمان الانزواء و الاختلاء و اللجوء إلى الجبال كما فعل الإمام الغزالي قد انتهى ، و هذا الزمان زمان البحث عن الفكر و إدراك الحقيقية من طريق معرفة النفس .

عندما انهمك شمس في الحديث مع جلال الدين في الحجرة وجده مقيدًا بأغلال فكره و ظنونه الحاملة و أدرك أن منتهى آمال جلال الدين يُلخص في أن يزداد عدد طلبة دار العلم في قونية و عدد مريريه ، و يعترف العالم الإسلامي بأنه المتكلم القليل النظير

و غير المنازع ، و قد عرف المرحوم الدكتور قاسم غني خبير العرفان المشهور شمسًا التبريزي على هذا النحو :

” كان في السلوك و القول خشنًا جدًّا ولاذعًا ، و في الفقر و الهيجان و الحرارة و صراحة اللهجة و العلم و الكلام اللاذع... و في تحقير العلوم الصورية و الأمور الظاهرية و مخالفة عادات أهل الظاهر و رسومهم و الاطمئنان إلى قوة نفسه و جاذبيته و الموت غير الطبيعي، و أمثال ذلك يذكر بسقراط و إنه بفضل الصفات المذكورة جعل المعيا عظيمًا مثل جلال الدين الرومي تابعًا مستهماً، بل أسيرًا و إلهًا له ، حتى إن جلال الدين كان يعده مظهرًا تامًا لصفات المولى سبحانه ”.

أَنْمَجِي أَمَامَكَ حَتَّى لَا يُبْقِيَ لِي أَثْرٌ
وَمِنْ شَرَطِ الْأَدَبِ أَنْ أَعْتَرِفَ بِأَنَّكَ شَمْسِي وَرَبِّي
أَمُوتُ مِنْ عَشْقِكَ لِأَنَّكَ مَلِيكُ الْعَالَمِينَ
وَمَا دُمْتُ تَنْظُرُ إِلَيَّ فَانْتِ شَمْسِي وَرَبِّي

و في السنين التي سيطرت فيها على العالم الحروب الدينية و البؤس و الشقاء و سوء الظن و العصبية العمياء ، نهض شمس كالبطل المغوار ، وأوضح شخصيته التاريخية ورسالة طريقته ، لكي يغير بمساعدة الإيمان و التفكير الروحي و الكلام المثير الرسوم القديمة للمشارب الصوفية . و قد اعترف في كتابه ” المقالات ” قائلاً : ” لا شأن لي بالعوام ، بل يهمني الأقطاب و المرشدون كنت أعرف طبائعهم حقًا ” و مع القدرة البيانية و الفضل و الكياسة و الدراية التي عرف بها مولانا خضع لرجل علّمه ما الحياة و ما العشق ، و لماذا يكون الإنسان الحي عاشقًا ؟ و العشق منذ البدء دم و تمرد .

يقول شمس : ” لو أن أهل الربع المسكنون (أي الكرة الأرضية كلها) كانوا جميعاً في ناحية و أنا في ناحية أخرى أيًا كان مشكلهم ، لأجبتهم جميعاً ، و لن أفر من الكلام ، و لن أغير الكلام من أمر إلى أمر آخر يقدم كلامي لكل سؤال عشرة إجابات لا تكون في كتاب بذلك اللطف و بذلك العون ”

و الآن أيها القارئ العزيز يجب أن تعطي مولانا الحق في أن يقول بشجاعة للمشتاقين إليه بعد أيام الخلوة : عندما عرفت شمسًا صارت الكتب و دواوين الشعر في نظري غثة باردة . نعم إن مولانا الذي كان يبحث عن شمس الروح تحرر في النهاية بفضل أنوار شمس من أغلال الأعصار و القرون ، و استطاع في تلك الأيام القصار أن يعايش خواطر هادئة و مبهجة؛ لكن فراق شمس أحدث طوفانًا . إذ لم يكن يريد لمواده و معشوقه الذي يعرف تقلبات القلب الإنساني بطرفة عين ، أن يترك قونية بقلب متأذٍ متألم . كان مولانا في تلك اللحظات الحساسة يريد بأي ثمن أن يرى شمسًا مرة أخرى ، و كان يقصر همته على هذا الأمر مخاطبًا بحياته و حياة أسرته . كان مولانا حتى

ذلك الوقت يحس بأنه لم يعرف شمسًا حق المعرفة . أراد مولانا مثل شمس ، أن يكون مستعدًا دائمًا للرحيل . و قد قال لابنه سلطان ولد قبل أن يغادر قونية : قل لشمس الدين : قرأت آخر رسالة أرسلتها باشتياق و بزوع عرفاني ، كل الأشياء عندي بعد الآن متماثلة ، و سأسعى في المستقبل لأن لا أقول شيئًا لا يناسب مقامك . قلبي مشتاق لأن أشرب في المستقبل من عين عرفان شمس فقط ، و أسكر ، كل أملي و عشقي لديك ، فاسع أن تظفر بي . أودع سلطان ولد كل الكلمات التي قالها مولانا حافظته ليسلمها إلى شمس كما سمعها تمامًا .

و في آخر رسالة أرسلها شمس من دمشق إلى قونية كتب يقول : ينبغي أن يتجلى لي أي طريق لحياتنا معا ؟ - أهو طريق الأخوة أم الصحبة ؟ أم طريق الشيخ و المرید ؟ لا أستحسن ذلك . الأستاذ و التلميذ ؟ . أنت الآن تفضلني على نفسك ، فإن كان هناك سبب للفراق و البُعد فهو هذا . ولأنني هنا أحصل على التعليم يكون الذهاب إلى الشام رعونة ودلالا . و في النهاية لك عالم منفصل عن عالمنا و فارغ منه . و كذلك عندما تمزج أنت كتاباتي بكتابات الآخرين لا أمزج أنا كتاباتك بالكتاب المقدس . و مع أنك ادعيت الرجحان ، لم أدع أنا ذلك و عندما أقول شيئًا أكتبه لأنك تتكاسل .

و يعلم من محتوى هذه الرسالة أن شمسًا ، إبان تركه قونية لم يكن خاطره راضيًا عن مولانا . و كان يمضي في تلك الوجهة من عالم الآفاق بهداية من جبلته السماوية باحثًا عن مشتاقين آخرين ، و لعلّه بحثًا عن الشمس يسافر إلى أصقاع العالم جميعًا ، يذهب إلى مكان لا يوجد فيه تعصب و تكبر و اتهام و افتراء . كان يريد بعرفانه الإيراني ، أن ينقذ الناس الذين وقعوا في وهدة سقوط مملوء بالأسى . و على هذا النحو ، يحصل بالصبر و التأمل على مستقر في قلب الحبيب على غرار ما كان يؤمل .

obeikandi.com

العشق عند مولانا

أنتج شعر الرّوميّ تحت سلطان العشق الإلهي:

عدا العشق . عدا العشق، ليس لنا عمل آخر!

هذا العشق وهو الإسطرلاب الحقيقي لأسرار الحق، أشعله لقاءه بشمس الدّين التبريزي، لكنه يختلف عن تجارب أولئك الصوفيّة الذين رأوا الجمال الإلهي منعكسا في الشبان الجميلين. تجربته في العشق و الهجر و الوصال الروحي كانت وثابة مليئة بالقوة و النشاط ، فقد قهرته وأحرقته. ولذلك فإن كلماته حول العشق، وهي تشكل سدا شعره من الصفحة الأولى إلى الأخيرة مفعمة بالألوان و نارية.

وهو يعرف على غرار أسلافه في طريق العشق الصوفيّ، أن العشق الأرضي ليس سوى إعداد للعشق السماوي.

إنه خطوه باتجاه الكمال: يعطي الناس بناتهم الصغيرات دمي ليعلموهن واجباتهن بوصفهن أمهات المستقبل، ويعطون أولادهم سيوفا خشبية ليعودوهم على القتال و الفروسية و بالطريقة نفسها يمكن أن يربى قلب الإنسان بالعشق البشري على الطاعة الكاملة و الاستسلام لمراد الحبيب. ومهما يكن، فإن السعادة في مثل هذا العشق ستتلاشى حالا، ومن هنا فإن العشق الحقيقي ينبغي أن يوجه نحو الله الذي لا يموت هذا العشق الإلهي قد يبدأ بنشوة مفاجئة أو يتخذ شكل تطور روحي بطيء:

عِنْدَمَا تَقَعُ صِنَارَةُ الْعِشْقِ فِي حَلْقِ الْإِنْسَانِ

يَجْدِبُهُ الْحَقُّ تَعَالَى تَدْرِجِيًّا، وَهَكَذَا تَخْرُجُ مِنْهُ

تِلْكَ الصِّفَاتُ السَّيِّئَةَ وَالِدِمَاءُ الْفَاسِدَةَ الَّتِي

تَكُونُ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا.

وأخيرًا يغرق العاشق تماما في محيط العشق الإلهي و لن يفهمه أولئك الذين ما يزالون مقيدين بالخوف و الرجاء أو يفكرون بثواب الأعمال الحسنة و عقاب الأعمال السيئة.

العشق خليقة فطرية في كل شيء مخلوق:

- الذئب و الديك و الأسد تعرف ما العشق،
 - وأخس من الكلب من هو أعى عن العشق.
 - كل أجزاء العالم عاشقة،
- وكل جزء من العالم ثمل باللقاء.

هذه الحقيقة الأساسية تشرح مرة أخرى في إحدى رسائل مولانا: في الثمانية عشر ألف عالم، كل شيء محب لشيء من الأشياء، عاشق لشيء من الأشياء. وشرف كل عاشق بقدر شرف معشوقه. وكلما كان المعشوق أطف و أظرف وأشرف جوهرًا كان عاشقه أعز. لكن العشق الحقيقي في الوقت نفسه امتياز خاص بالإنسان. وهو وحده يستطيع أن يعبر عنه و يعيش به في مراحل جميعًا. ورغم أن الرومي يستخدم أحيانا لغة متأثرة بدراسات سينا و منظري التصوف بشأن ماهية العشق، يعرف أن هذه التجربة، بوصفها نتاج قوة إلهية، لا يمكن وصفها بكلمات البشر. وهو يبدأ مثنويه بتمجيد لهذا العشق:

كُلُّ مَا أَقُولُهُ فِي شَرْحِ الْعِشْقِ وَبَيَانِهِ

أَخْجَلُ مِنْهُ عِنْدَمَا آتِي إِلَى الْعِشْقِ نَفْسِهِ..

وَرَغَمَ أَنْ تَفْسِيرَ اللَّسَانِ أَكْثَرُ وَضُوحًا.

وبعد مضي أكثر من عقد، ظل يغني:

لَوْ أَنِّي تَحَدَّثْتُ فِي شَرْحِ الْعِشْقِ عَلَى الدَّوَامِ

لَمَضَتْ مِائَةٌ قِيَامَةً وَذَلِكَ الشَّرْحُ غَيْرُ تَامٍ..

لِأَنَّ لِتَأْرِخِ الْقِيَامَةِ أَحَدًا، وَأَيْنَ الْحَدُّ؟ - هُنَاكَ فِي وَصْفِ الْحَقِّ (سُبْحَانَهُ) ..

لِلْعِشْقِ خَمْسُ مِائَةِ جَنَاحٍ وَكُلُّ جَنَاحٍ

مُمْتَدٌّ مِنْ أَعْلَى الْعَرْشِ إِلَى مَا تَحْتَ الثَّرِي

و متى بلغ الإنسان حدود العشق في هذه الحياة استمر سفره في الحياة الإلهية التي يواجه فيها بمقام جديدًا دائمًا من مقامات العشق يدفعه إلى تشوق أعمق. العشق و الشوق يعتمد كل منهما على الآخر على نحو متبادل يقوى العشق كلما تجلى الجمال الإلهي في الأزلية، في أشكال جديد دائمًا.

دَائِمًا سَامِلٌ أَكْثَرُ، مِمَّا تَقْتَضِيهِ حَاجَاتُ الرِّمَانِ المَحْدُودَةِ..

دَائِمًا كُلَّمَا قَطَفْتَ الأزَاهِيرَ، أَزْهَرَ كِسَاءَ رَبِيعٍ بَهِيحٍ جَدِيدٍ..

وَعِنْدَمَا أَنْطَلِقُ مُسْرِعًا فِي السَّمَاوَاتِ سَيُطَلِّقُ الفَلَكَ الدَّوَارُ نَارًا جَدِيدَةً..

الْجَمَالَ المَطْلُوقَ وَحَدَهُ يُمَكِّنُ أَنْ يُلْهِمَ العِشْقَ الحَقِيقِيَّ الأَبَدِيَّ.

ويرى مولانا جلال الدين قوة العشق في كل مكان:

العِشْقُ بَحْرٌ وَالسَّمَاءُ فَوْقَهُ رُبْدٌ،

مَثَارًا مِثْلَ زَلِيخَا فِي هُوَى يُوْسُفَ..

فَاعْلَمْ أَنَّ دَوْرَانَ الأَفْلاكِ مِنْ مَوْجِ العِشْقِ،

وَلَوْلَا العِشْقُ لَتَجَمَّدَ العَالَمُ.

قد يفسر المرء هذه الأبيات و كثيرًا أيضًا من الأبيات المشابهة الموجودة في آثار الرومي على أنها تعبير عن القوة المغناطيسية تقربيا للعشق التي تجذب كل شيء و تعلمه وأخيرًا ترجعه إلى أصله.

لكن نظرة الرومي أقرب إلى فكرة العشق بوصفه « حب الذات » لدى الحق كما حددها أولاً في مجال التصوّف الحلاج، الذي قهرته ذات الحق الفعالة التي جعلت الخالق يقول: كنت كنتا مخفيا فأحببت أن أعرف. . « ويؤكد الرومي هذه الطبيعة الفعالة للعشق مرة إثر مرة في صور جديدة دائمًا:

العِشْقُ يَجْعَلُ الْبَحْرَ يَغْلِي كَالْقَدْرِ،

العِشْقُ يَجْعَلُ الْجَبَلَ نَاعِمًا كَالرَّمْلِ..

وَهُوَ الْقُوَّةُ الْوَحِيدَةُ الْفَاعِلَةُ فِي الْعَالَمِ:

مِنْ أَجْلِ الْعَاشِقِينَ دَارُ الْفَلَكَ،

مِنْ أَجْلِ الْعِشْقِ دَوْرَانُ قُبَّةِ الْفَلَكَ،

وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ الْخَبَازِ وَالْحَدَّادِ وَلَا مِنْ أَجْلِ الصَّيْدَانِيِّ وَالْعَطَّارِ.

العشق هو الطبيب لكل الأمراض وأفلاطون و جالينوس في شخص واحد، والسبب والغرض للوجود:

لَوْ أَنَّ هَذِهِ السَّمَاءَ لَمْ تَكُنْ عَاشِقَةً، لَمَا كَانَ لَصَدْرَهَا صَفَاءٌ..

وَلَوْ أَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَكُنْ عَاشِقَةً أَيْضًا، لَمَا كَانَ لِجَمَالِهَا أَلْقُ وَضِيَاءٌ..

وَلَوْ أَنَّ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ لَمْ يَكُونَا عَاشِقِينَ لَمَا نَمَّا مِنْ قَلْبِ كُلِّ مِنْهُمَا الْعُشْبُ.

و مثلما تحول الشمس الظلال الكئيبة و الظلام البائس إلى جمال ملون يكون العشق الكيمياء العظيمة التي تحول الحياة « العشق هو الوقوع في منجم الذهب ».

بِالْمَحَبَّةِ تَصِيرُ الْأَشْيَاءُ الْمُرَّةَ حُلُوةً

وَبِالْمَحَبَّةِ تَصِيرُ الْأَشْيَاءُ الْعَكِرَةَ صَافِيَةً،

وَبِالْمَحَبَّةِ تَصِيرُ الْأَلَامُ شِفَاءً..

بِالْمَحَبَّةِ يَصِيرُ الْمَلِكُ عَبْدًا.

كما يقول الرومي في ترنيمة العظيمة في تبجيل قوة العشق. وبعد ذلك بكثير، يواصل في النبوة نفسها:

العشق يحول الخبز الميت إلى روح،

و يجعل الروح التي كانت فانية خالدة.

وهو البيت الذي ينبغي أن يرى مرتبطا بفكر الرّوميّ حول التطور الصاعد دائماً الذي يتخلل سلسلة الوجود كلها من الجماد إلى الإنسان و الملائكة.

والفكرة نفسها تشكل الأساس لمقطع كثيراً ما يستشهد به و قد نظمه الرّوميّ في آخر حياته:

لو صار الشيطان عاشقا لاختطف كرة السبق، و لصار مثل جبريل وماتت فيه تلك الصفات الشيطانية.

ويغدو قوله (عليه الصلاة و السلام): أسلم شيطاني « واضحا هنا إذا يصير يزيد بفضله في منزلة بايزيد.

ذلك يعني أن الصفات السيئة في الإنسان المتمثلة في النفس منظورا إليها هنا وفقا للحديث النبوي في الصورة العربية القديمة للشيطان يمكن قهرها تماما و تربيتها بالعشق وحده، وليس بالمجاهدات الخالية من العشق و بالزهد الخالص. وأخيراً سيكون الإنسان سعيدا بتجربة النبي (عليه الصلاة و السلام) تضحى صفاته الشيطانية رحمانية وتفيده فقط في الطريق إلى الله.

كلما كان « الشيطان » قويا في السابق، علت مرتبته في عالم الملائكة، حالما يكون قد أسلم نفسه لسلطان العشق و حتى الأثم الكبير مثل (يزيد) يمكن بمثل هذه الكيمياء أن يتحول إلى ولي مثل يزيد. مثل هذا الإفتاء الذي يقوم به العشق للنفس التي هي الممثل الشخصي لكل شر في « العالم » و كذلك للوجود المستقل المنفصل يمكن رؤيته بمصطلحات قرآنية:

يَا كَلِيمُ الْعِشْقِ، أَحْمِلْ عَلَيَّ فِرْعَوْنَ الْوُجُودِ

أَضْرِبْ رَأْسَهُ بِعَصَا الْمَحْوِ، يَا شَبِيهَ مُوسَى ..

وَهُوَ الشَّخْنَةُ الَّتِي يُعِينُ النَّفْسَ عَلَى كَسْرِ بَابِ سِجْنِ الدُّنْيَا.

و العشق الذي يهدم حدود الهجر، هو القوة الموحدة على جهة الحقيقة: يعطي الاتحاد لمئات الآلاف من الذرات ووجوهها الموجهة في الوقت الحاضر نحو جهات مختلفة و متصارعة غالبا و نحو غايات ذاتية أنانية يوجهها العشق نحو شمس الأزل الوحيدة.

وهناك ستوحد في الرقص الصوفيّ الدوار و تعيش بعد أن تتخلص من نفوسها في وحدة اسمي، لا تميز فيما بينهما بين ورد وشوك أو هند وترك. ذاك بأن دين العشق لا يعرف تمييزاً بين الشعب الاثنتين و السبعين: إنه مختلف عن الأديان جميعاً.

ولكن كيف السبيل إلى شرح هذا العشق؟ - فحتى الأمثلة و الحكايات لا تشفي غليلاً: ألم يقل سمنون العاشق البغدادي في أوائل القرن الرابع الهجري (١٠ م):

« لا يعبر عن شيء إلا بما هو أرق منه ولا شيء

أرق من المحبة فما يعبر عنها ».

ف « القال » لا ينقل إلا ظلاً ضعيفاً من هذه التجربة، و المطلوب هو « الحال » قد يفهم العشق من سلوك العاشق عندما يحكى نبضه الذي يدق على نحو غير منتظم سر مرضه و يرد الرّوميّ على أسئلة أصدقائه المتسائلين:

سأل سائل: « ما صفة العاشق؟ »

قلت: « لا تسأل عن هذه المعاني!

عندما يدعوك، استدعوه!

يتحدى العشق أي عمل عقلي للتوضيح، فالعقل على الحقيقة « كمثل الحمار يحمل أسفاراً » (سورة الجمعة الآية ٥) كما ردد ذلك الصوفيّ و منهم الرّوميّ مع التعبير القرآني. العقل « حمار أعرج » و ليس مثل البراق المجنح الذي حمل حضرة محمد (عليه الصلاة و السلام) إلى الحضرة الإلهية ويسأل الشاعر: « هل رأى أحد قط براقاً أعرج؟ » لأن: العشق معراج إلى سطح سلطان الجمال.

على أن تقابل العشق و العقل المنطقي كان دائماً موضوعاً محبباً لدى الصوفيّ. ولا يني الرّوميّ أيضاً بعيد مقولة الاستغناء عن الاستدلال و عن المعرفة الإلهية المدرسية أيضاً حيث يهتم بالعشق.

العشق يطير إلى السماء أما العقل فيطلب من أجل تعلم العلم و السلوك الصحيح.

و يدخل الشاعر مناقشة رائعة بين العشق و العقل في أشعاره الغنائية: يقول العقل: الجهات الست هي الحدود و ليس ثمة طريق إلى الخارج ».

يقول العشق: «هناك طريق وقد مشيته مرات»

رأى العقل سوقا وبدأ يتاجر.

رأى العشق أسواقا أخرى وراء هذه السوق...

وهو يعلم: «اذبح العقل قربانا في عشق الحبيب.

والعقل ينبغي أن يصبح نحيلًا، عندما يصبح العشق سمينا. أو يرى العقل لصا
ينبغي أن يشنق عندما يصبح العشق حاكم المملكة.

ما أبعد العاقلين عن العاشقين

ما أبعد رائحة الموقد عن الصبا.

ويبدو نموذجيا أن البيت:

لم يدرس أبو حنيفة العشق،

و ليس للشافعي رواية فيه

كان منسوبا إلى مولانا.

رغم أنه على الحقيقة استنباط للسنائي ويشير الرومي إليه في المثنوي و يصف «
مدرسة العشق المحظورة على الفقهاء و الأطباء و المنجمين» تلك المدرسة التي يتعلم
المرء فيها العلم اللدني، والعلم الإلهي المباشر دون مدرسة وورق المدرسة المصنوعة من
النار التي ينبغي على التلميذ أن يجلس فيها و ينضح.

و ليس العقل سيئا في ذاته، لأنه عصا يمكن أن تعين الأعمى على أن يجد طريقة في
الظلام فماذا يصنع الأعمى بالشمعة؟ هذه هي حال من لم ير جمال الحبيب و يجعل
العقل قبلته. أو يمكن أن يشبه العقل بالفراشة و المعشوق بالشمعة.

و مثلما يعجز الطفل عن فهم «أحوال العقل» يعجز العاقلون عن فهم العشق. و
الإشارات الكثيرة إلى المجنون، وهو غائب عن نفسه تماما في عشقه القوي لليلى، تشير
إلى هذه القصد: تكف قيود العقل عن أن تعوق النفس العاشقة في تطوافها الملتهم
في صحاري العشق. والعشق غيور إنه الشعلة إلى تحرق الصورة الظاهرية، لا، بل كل

شيء ما عدا المعشوق.

إِذَا صَارَ الْبَارِدُ مُتَمَرِّدًا، فَضَعَّ الْحَطَبَ فِي النَّارِ،

أَتَشْفِقُ عَلَى الْحَطَبِ؟ . الْحَطَبُ أَحْسَنُ أُمِّ الْجَسَدِ؟ .

الْحَطَبُ صُورَةُ الْفَنَاءِ، وَالنَّارَ عِشْقُ اللَّهِ:

أَحْرِقِ الصُّورَةَ، أَيْهَا الرُّوحُ الطَّاهِرُ!

وتملأ الصورة المجازية للنار شعر الرّومي: العشق صاعقة مفاجئة تتلف كل شيء، والنفس مثل الكبريت في النار، والروح مثل الزيت لإشعالها. وأبو لهب وحده، هذا النموذج الكامل للكفر، لم يذق طعم هذه النار.

ويرى مولانا: وجهًا كالنار، وحمرة كالنار، والعشق نار، وهذه الثلاثة رائعة. والنفس وسط النيران مملوءة بالتفجيع: أين الفرار؟

وما هذا سوى مسألة بلاغية لفظية، ولأن النفس لا تريد أن تفر من هذه النار. تحس مثل إحساس إبراهيم فوق المحرق النمرود، تحولت إلى روضة ورد عنده.

ويطير العشاق كالفراشات نحو وجه المعشوق المشع كالشمعة، ويرقصون في اللهب كالسذاب البري.

ونار العشق خير من ماء الحياة نفسه، أو ماء المحيط الذي يسبح في العاشق هو النار.

وقد أضاف شعراء الفارسية المتأخرون إلى هذه الصورة المجازية إبداعات ومسرفة جدًا تشير كلها إلى النقطة الأساسية نفسها: الإنسان أن يجتاز المحيط الناري للعشق بالساق الخشبية «للعقل»؟ والعاشق الجالس وسط هذه النار كيف يصبر؟

أَضْرَمَ الْعِشْقُ النَّارَ فِي الْمَقَامِ الصَّبْرِ؛

وَقَدْ مَاتَ صَبْرِي فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا الْعِشْقُ،

مَاتَ، وَلِلْحَاضِرِينَ طُولُ الْعُمْرِ!

أو لعل جلال الدين يعني بنغم أخف: بدأت التوبة السفر بدأت التوبة السفر بقدم عرجاء، ووقع الصبر في حفرة ضيقة، ولم يبق إلا أنا وساقى، عندما ردد الرباب ترنكا ترنك.

العشق هو الشحنة الذي يضع مرجلا مملوء بنار الهجر على صدر الروح لكي يعذبه عندما ينسى للحظة واجبه في تقديم الشكر للمعشوق.

أو العشق كما ذكرنا، أسد أسود أو تمساح أو تنين أو أكل للإنسان.

وعلى الإنسان أن يجعل نفسه حلوا أمام هذا الحيوان الوحشي طالما أنه ما يزال « حامضا » وغير ناضج، فإنه صعب على الحيوان « العشق هضمه، أما الولي « فلقمة حلوة » و لذلك يلتمها العشق.

هذه الصورة الغريبة نسبيا تشير أيضاً إلى فكرة الرومي الرئيسية في أنه على الإنسان أن يصبح ليينا بتأثير محن العشق لأن:

دم كل نفس أكلها هذا الأسد

يصير حيا وخالدا.

والعشاق مثل « الدم في إناء من أجل كلاب العشق ». لأن العشق يعني:

أن تصبح دما، أن تشرب دمك.

وأن تكون مع الكلاب عند باب الوفاء.

ومن هنا لم يصنع العشق من أجل الضعفاء ، إنه صنيع الأبطال ، وحتى العالمان لا يستطيعان احتمال قوة العشق. خالبه ستقوض حتما أركان كل بيت ، مثلما كان قادرا على شق القمر وجعل الأرض ترتجف.

ويعرف مولانا أنه في العشق توقف القواعد العادية للسلوك:

أدب العشق ترك الأدب تماما.

كما يقول متابعا مقولة الجنيد المشهورة. والخنجر الحاد ينبغي أن يقطع عنق الحياء ، والتوبة لم تعد مطلوبة: هذه المنزلة البدائية كانت تنينا ذكرا ضخما ، أما عيناه

العيابتان فقد أعماهما زمرد العشق.

العشق يفني العاشق، وهكذا يمزق الحجب التي تغطي وجه المعشوق: الموت الصوفي ينتهي بالوصول.

العشق هو أن تحلق فوق السماء

وأن تمزق كل لحظة مائة حجاب

هذه هي نتيجة العشق – لكن الإنسان قد يسأل: كيف يستطيع الإنسان أن يعشق؟ - كيف يستطيع الجرأة على التوجه نحو الله الدائم سبحانه بإحساس العشق؟ الصوفيّة – مثل العارفين في أديان آخر – أحسوا أن العشق هبة إلهية، والإنسان في ضعفه لن يكون قادرًا على جبذه أو نبذه: عبر بايزيد عن حيرته في أن الحق يحب مخلوقا بأثسا مثله و يحيي بن معاذ الخطيب ذكر الله دائمًا بلطفه السابق و الحلاج تحدث عن « العناية الأزلية » لله « التي دونها ما كنت تدري ما الكتاب و ما الإيمان.

هذا العشق الذي فهمه الصوفيّة من التعبير القرآني « يحمم و يحبونه » (المائدة ٥٤) تجلى منذ اللحظة الأولى للخلق. فرعه في الأزل، وأصله في الأبد، كما يقول الزومي في ضرب من المفارقة.

بدأ هذا العشق بالخطاب الإلهي « ألسنت بربكم » (الأعراف، ١٧٢) في مهرجان الميثاق الأزلي.

هنا سلم الصوفيّة خمرة العشق، تلك الجرعة الأولى من الكأس الأبدية للسعادة و البلاء و الاشتياق التي ستسم حيواتهم حتى البعث و النشور.

لأنهم بإجابتهم « بلى » قبلوا طواعية أن يأخذوا على عاتقهم كل « البلاء » الذي سيقذفه الحق عليهم علامات على لطفه.

وفي كلمات الأنبياء، وفي ذكر الدراويش، وفي ألحان السماع، هذا الخطاب الإلهي الأزلي الذي موضوعه العشق جيء به إلى عامة الناس لعلمهم يتذكرون وعدهم السابق ويوجهون نحو الله (سبحانه) وعشقه.

هذا العشق الطاهر كان مع محمد عليه الصلاة والسلام في بدء الخلق. و من أجله وحده خلق العالم، وعندما اتخذ صورته البشرية الأرضية، صار العشق الإلهي مرة

أخرى متجليا لأتمته.

ونادراً ما يناقش الروميّ مسائل نظرية مرتبطة بالعشق. هو يعرفه على نحو واضح و يكرره في كل مكان:

لا يوجد عاشق ينشد الوصال

لا يكون معشوقه باحثاً عنه.

الطالب و المطلوب يعتمد كل منهما على الآخر، الماء ظامئ و يشتاقي إلى طالبيه بقدر ما يشتاقي الطالب إلى أن يجد الماء و يشفي غليله.

ليس للعاشقين بحث انطلاقاً من أنفسهم و مبادرتهم،

إذ لا يوجد في الدنيا باحث إلا الحق.

ينشأ العشق في الله (سبحانه) وهو قديم؛ أزلي معه. ولو استجاب الإنسان لنداء العشق، لاستطاع شيئاً فشيئاً أن يتخلق بأخلاق الله و بذلك يقترب من معشوقه، لأن الصفة الأولى للحق هي العشق، وليس الخوف. ولذلك يصل العاشق إلى السعادة الأبدية قبل في هذه الدنيا:

بُسْتَانُ الْعِشْقِ الْأَخْضَرِ الَّذِي لَا نَهَابَةَ لَهُ،

فِيهِ ثِمَارٌ كَثِيرَةٌ غَيْرَ أَلْغَمٍ وَالسَّرُورُ .

وَالْعَاشِقُ الْحَقُّ أَسْمَى مِنْ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ،

وَهُوَ أَخْضَرُ نَضْرُ دُونَ رَبِيعٍ أَوْ خَرِيفٍ.

الصلة بين العاشق و المعشوق هي الموضوع الرئيس في كل من الديوان و المثنوي.

و ما أجمل وصف الروميّ حال العاشق الذي عاد إلى بخارى ليرى حبيبه رغم أنه كان ممنوعاً من أن يفعل ذلك!

ولكن صار حسن الحبيب مدرسا للعشاق، ودفترهم ودرسهم وواجبهم المدرسي هو وجهه.

ورغم أن المعشوق الأرضي قد يكون جذابًا يتبنى الرومي حكم الشبلي ضد إنسان
تفجع لموت صديقه:

« لم تحب شخصًا يمكن أن يموت؟ »

على الإنسان أن يعانق حبيبًا لا يمكن أن يحد أو يحاط به (جناس جميل بين كنار
بمعنى « عناق » و كنار بمعنى « حد »).

ولا نهاية للثناء على المعشوق في آثار مولانا. وهو يستخدم كل التقانات التي طورها
الشعراء العرب و الشعراء الفرس، وكل المحسنات البلاغية، وكل الصور الفنية في
وصف « الواحد » الذي هو الهدف الوحيد لحياة الإنسان.

وعلى امتداد سلاسل طويلة من الأبيات يسأل:

أيها الحبيب ، السكر أحسن أم ذلك الذي يصنع السكر؟

أجمال القمر أحسن أم ذلك الذي يصنع القمر؟

و بخير الحبيب بأنه يستطيع أن يأتي بالربيع إلى قلب الشتاء بفعل جماله و يستطيع
أن يأتي بالعيد في يوم الجمعة لو أنه فقط صعد المنبر ليبين صفاته السامية. وفي
محاكاة شعر الغزل الدنيوي يمكن أن ينشد:

كُلُّ مَنْ يَرَى حَدَّكَ لَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْحَدِيقَةِ،

كُلُّ مَنْ يَعْرِفُ شَفَتَكَ لَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ الْكَأْسِ! .

أَنْظُرْ وَسَطُ طَرَّتُهُ حَدًّا كَالنَّارِ،

قُلْ: وَسَطُ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ وَجَدْتَ مَجْمَرًا!

وهو يشتاق إلى صورة المعشوق في الحلم أو يصف مشاهداته الليلية بكلمات
مفعمة بدمائه رومانسية رقيقة، يراه في شمس الصباح التي تركب بزهو خلال العالم
بينما تمشي الأرواح الكثيرة كثرة ذرات الغبار، لتصحبه في أهته.

و المعشوق قمر وراء الأفاق يتخذ مكانا لراحته (قنق) في قلب العاشق ليلية واحدة
فقط ، ولأن الليل يعد نفسه أبيض و مضيئا إبان بدر التمام يصبح العاشق، وهو الليل

المظلم نفسه، مضاء بفعل المعشوق الشبيهه بالبدر.

الحبيب هو كل شيء الصاحب و الغار، نوح و الروح، الفاتح و المفتوح ، و كل ما يمكن أن يتخيله الإنسان. وهو أب وأم، شمس و قمر، حليب و سكر.

الْبَارِحَةَ كَانَ صَنَيْي كَقَمَرِ السَّمَاءِ،

لَا لَا، فَإِنَّهُ أَضَافَ إِلَى إِشْرَاقِ الشَّمْسِ،

كَانَ وَرَاءَ نِطَاقِ خَيَالِنَا،

أَعْرِفُ أَنَّهُ كَانَ جَمِيلًا،

لَكِنِّي لَا أَعْرِفُ كَيْفَ كَانَ!

كل من يحبه و يستسلم تمامًا في عشقه يضحي الأمير المختار للزمان « خاصبك زمان و المرید الذي قبله حديثًا هو حالا » شيخ شيوخ العالم.

وحتى لو كان العاشق: ملكا: لما أمكن أن يكون أفضل من المولى المعشوق، وحتى لو كان: شهيدا « لكان عليه أن يمتص قصب السكر الحبيب. العاشق مثل الصورة فقط، وفكره صور باهتة، أما فكر الحبيب فروح حقيقي.

وجبهه الشبيهه بالبدر يعكس في القلب الذي هو كالمراة الصقيلة:

أي شيء سوى المراة المصقولة يمكن أن يهدي العاشق ليوسف؟

لأن قلبي كالماء الصافي الشفاف،

و الماء الصافي حامل المراة للقمر!

وهذا الماء لا يظفر بالضياء إلا بانعكاس القمر. ومن هنا فإن العاشق مدعو إلى أن يتابع مثال الفاخطة، التي لاتني تعيد دائمًا نداءها: كو؟

كو؟ « أين أين »؟ في سبيل أن تجد هذا الهدف الحقيقي للحياة. لأن:

أين سقف غير سقفك؟

أين اسم غير اسمك؟

أين كأس غير كأسك؟

أيهما الساقى الحلو الأداء؟

بوجود وجهك تصير المآتم مآدب، وبغياب وجهك تصير المآدب مآتم!

حتى الشوك الذي ينبت في حديقة المعشوق أحسن مائة مرة من الورود الشذية في مكان آخر، والمدينة الأكثر جمالا في الدنيا هي التي يعيش فيها الحبيب.

و السباب الذي يصل إلى العاشق من شفقي الحبيب نفيس كالياقوت، لأن « كل ربح تمر بالورد تكون طيبة ».

و يتغنى الرومى بالقدرة المعجزة للمعشوق:

تَدْخُلُ فِي عَيْنِي الْأَعْمَى، فَتُعْطِيهِ نَظْرًا،

وَتُدْخِلُ فِي فَمِ الْأَبْكَمُ، فَتَصْبِرُ لَهُ لِسَانًا،

وَتَدْخُلُ فِي الشَّيْطَانِ الْقَبِيحِ الْوَجْهَ، فَتَجْعَلُهُ يُوسُفُ جَمِيلًا،

وَتَدْخُلُ فِي صُورَةِ الذَّنْبِ فَتَصْبِرُهُ رَاعِيًا..

ألم يعد الحق بأن يكون يد الإنسان التي بها يمسك، وعينته التي بها يرى؟

ولقاء المعشوق هو « الجواب لكل الأسئلة هو الحل لكل المشكلات » .

لأنه هو الإكسير و الكيمياء التي لا يستطيع أحد أن يجدها و التي من دونها لا يمكن أن يوجد شيء. وقد يحاول العاشق ويختبر أي طريقة ممكنة للحياة و يدرس كل حكمة و يفتش في كل زاوية، ولكن لا شيء أحسن من الحبيب، لأنه أعلى و أكثر جمالا من أي شيء يمكن تخيله.

و من هنا يخاطبه الرومى:

إذا سميت القمر (اللألاء الأبيض) حبشيا (أسود)

فسيسجد أمامك.

وإذا سميت السرو (المنتصب النحيل) قوسا ، فلن يصرخ .

كل شيء لا قيمة له مقارنة بالجمال المطلق و العظمة اللذين يتمتع بهما المعشوق:
يوأقبت هذه الدنيا حصى عادية مقارنة به، و السباع و الحمير و الشمس ليست سوى
ذرة غبار. وهو على الحقيقة الربيع « و كل شيء آخر شهر دي » لأنه يخلع حياة جديدة
على كل شيء كان سجيناً في عالم المادة: المتجمد في الشتاء... ولطفه سبب الملمس
الناعم لفراء السنجاب.. و كيميائوه تحول المواد الخام للعالم إلى كنز و ترشد القافلة
التي ضلت الطريق إلى الطريق المستقيم . ومن ثم يخاطب المعشوق العاشق قائلاً:

أنت كالوادي الجاف و نحن كالغيث،

أنت كالمدينة الخربة و نحن كالمعمار .

يستطيع الحبيب أن يحول الحنظل إلى رطب حلو أو سكر، ولكنه أيضاً يحول
السكر إلى المرارة. ورغم أن وضع الإنسان في الظاهر يائس، يمكن أن يضاء بحضرة
المعشوق: أينما يظهر يوسف هذا تحول السجن المظلم الضيق (أي عالم المادة) إلى
جنة .

وقدرته المعجزة لا تحول الصفات السيئة إلى صفات أسمى فحسب؛ بل تجتث كل
شر:

عندما يقع ظلك على المفسدين المجرمين،

تتحول أجرامهم كلها خلوة وصلاة.

ثم:

إذ رأك الكافر الذي بقي على الكفر مائة عام،

سجد وصار مسلماً من لحظته.

على أن الرّوميّ، الذي وصف غصص الهجران والاشتياق على نحو انفراد فيه،
تعلم أخيراً بعد أن غادر شمس الدّين إلى الأبد أن المعشوق لا يمكن أن يفصل عنه:
إنه « أقرب من العقل » وهو يعرف أنه مثل الغبار تحركه ريح الحبيب الذي من دونه لا

يستطيع أن يتحرك و الذي يحمله إلى منازل أسى بحركته .

كيف يمكن أن يحس في نفسه أنه غائب عنه؟ إنه كالجبل يردد صدى صوت المعشوق (وهذه إيماءة إلى الإلهام الشعري الذي يوحيه إليه شمس) يتكلم بنفسه كالنابي، وتحركه يدها كالرباب. وهو قش في ناره. وفي غزل مقفي بكلمات يونانية يخاطب مولانا الحبيب في بيت أنيق:

إذا كنت في أعلى الجبل، فإنني كالرهبان أبحث عن عشقك.

وإذا كنت في قعر البحر، فإنك في ذلك البحر،

يا أغا بوسي (معشوقي).

وصورة الحبيب في الحلم تبقيه رفيقا بعد أن يكون الأحبة الآخرون قد مضوا كالأحلام رغم أنه ربما يكون من الصعب أن يجتاز الحلم أمواج الدم التي ذرفت عينا العاشق المشتاق في الليل.

واسم شمس نفسه يمكن أن يرجع شبابه في عملية سحرية من التجديد الروحي للشباب.

ومن هذا الإحساس الناعم و الحلو نظم الرومي أشعارا تبدو مثل الغزل الدنيوي الرقيق، وبايقاعات لطيفة استنبط صوراً ذات جمال عظيم ليصف دهشته أمام الحبيب و الحديث الصامت « مع العين و الحاجب »:

ذَهَبْتُ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ أَمَامَهُ تَسْتَبِدُّ بِي الْحَرَارَةُ الْمُتْرَفِعَةُ..

لَمْ يَسْأَلْنِي، بَلْ جَلَسَ صَامِتًا سَاكِئًا..

رَمَيْتُهُ بِطَرْفِي أَيَّ: اسْأَلْ:

كَيْفَ كُنْتَ الْبَارِحَةَ دُونَ وَجْهِ الشَّبِيهِ بِالْقَمَرِ؟

أَنْزَلَ حَبِيبِي نَظْرَهُ إِلَى الْأَرْضِ

يريد أن يقول « صر كالأرض متضامنا مدهوشا!.

قبلت الأرض و سجدت، أريد أن أقول « أنا كالأرض تمل و مدهوش».

و ما أروع وصفه لقوة العشق:

خاتون « الروح » قعيذة البيت، بدأت بالانطلاق من جديد من قصر الجسد كاشفة حجابها بسبب العشق... وراعي « العشق » النائم على سطح الفكر بدأ مرة أخرى، بسبب عشق القمر، يعد النجوم واحدا إثر الآخر .

ويعرف الرّوميّ أنه:

عند العاشق و اللص يكون الليل طويلا و ممتدا .

و:احتضن ليلى الليل أيها المجنون، فالليل خلوه للتوحيد و النهار شرك و تعديد .

و هذا الليل ينبغي أن يستفاد منه و أن لا يمضي بنوم الغفلة: يحسن أن لا ننام في الليل، لأنه في السر يعطي القمر قبلة كل ليلة لمن يعد النجوم .

و يلتفت أيضًا إلى المرج الأخضر الناضر الذي بعثت الروح فيه قبلة الماء:

أَنَا الْجَدُولُ وَأَنْتَ الْمَاءُ وَقِبْلَةُ الْمَاءِ

تُحَدِّثُ دَائِمًا عَلَى شَفَةِ الْجَدُولِ..

وَمِنْ قِبْلَةِ الْمَاءِ عَلَى شَفَةِ الْجَدُولِ،

تَظْهَرُ الْأَزَاهِيرُ وَالْخُضْرَةُ.

و يطلب الرّوميّ من المعشوق قبلة ليحييه بوضع روحه في فيه و تلك هي صورة تبادل الأرواح بالقبل التي عرفت على امتداد العصور: ارتبطت النفس في المفهومات الدّينية القديمة بالنفس. و من ثم يستطيع الشاعر أن يقول بسهولة:

إذا كانت القبلة بنفس،

فشراؤها فرض.

لكنه أخيرًا يقول للمعشوق الذي هو متحد معه تماما في الروح:

أعط قبلة على وجهك قل السر في أذنك،

انظر إلى جمالك، حدث نفسك عن ثنائك!

هذه أشعار الأيام السعيدة، الأيام التي جرب الرّوميّ فيها سعادة الوصال الروحي وطمأنينة النفس بعد عهود مديدة من الاحتراق و الاشتياق.

ورغم ذلك، تشغل المعاناة في العشق القسم الأكبر من شعره: الكل التام للابتلاء بوصفه الكيمياء الحقيقية للحياة وللارتقاء من خلال التضحية ينتهي جوهرها إلى هذا الفصل.

وقد يشكو جلال الدّين من أن المعشوق لم ينتبه إليه عندما جاء لزيارته أو يروي كيف أن الحبيب تركه في غضب:

مشوشا ترك البيت و تركنا أخذ حمالا و نقل متاعه،
وضع قفلا ثقيلًا على القلب، مضى بعيدا، وسلم المفتاح.

ولكن هذه هي رغبة الحبيب و ذلك بهم، لا شيء آخر. ومثلما تقتل الشمس النجوم في توهج الفجر الأحمر مثل الدم، يمكن أن يكون دم العالم كله مشروعا من أجل المعشوق .

لو أراد الموت، لصار الموت نفسه حلوا،

والشوك و المفصد يصيران نرجسا و نسرينا .

إن غنجه الظاهري وحده، تلك الصفة المثالية للمعشوق هو الذي يجعله يقول « لا أبالي »!، رغم أنه في جوهره شقوق رحيم .

يظهر رحمته المخفية في قسوة و العاشق الذي يعرف سر هذا الصنيع يستمتع بهذه المعاناة: في الليل، يغلى في نار الهجران كالقدر أما في النهار فيشرب الدم – دمه هو – كالرمل يائسا ولا يروى ، منتظرا عطشا أكثر، وليس ماء .

صرت دما يغلي في عروق العشق،

صرت دمعة في أعين عاشقيه .

وعندما يتقدم العاشق نحو هذا البحر من الدم سيجد المائدة الإلهية في ذلك الدم نفسه لأن دم القلب خمزته . و الغرق في الدم إحدى صفات العاشق الصادق . و المتيقن أن أوصاف الرّوميّ لقسوة المعشوق و آلام العاشق لا يمكن أن تضاهي الصورة المجازية الماسوشية تقريبا لدى الشعراء الفرس المتأخرين، لكن شكاياته أكثر صدقا و صميمية منها في حالات شعراء آخرين كثيرين حيث تحجرت المعاناة بسبب العشق في صنعه كلامية صرفه يمكن أن يتزيد فيها فقط لكنها لا تعمق.

العشق و المعاناة لا يمكن فصل أحدهم عن الآخر:

من قامتي المنحنية في طريق العشق، يمكن أن يصنع الإنسان جسرا فوق دموعي .
ثم، في تركيب بارع لموضوع الحديقة و السياسة السائدة آنذاك:

لن أظفر بقبلة الخوخ عندما أفر من العدم (بي بر كي)

ولن أشم المسك التتاري عندما أفر من التتار .

و على الحقيقة ، فإن جوهر العشق أن تعاني، أن تسلم ببيان العلاج أن « المكابدة هي ذات الحق (سبحانه) أما السرور فيأتي منه». عم يبحث الزاهد؟ - عن رحمتك (رحمت - بالفارسية)

عم يبحث العاشق؟ - عن بلاتك (زحمت - بالفارسية)

لأن العاشق شبيه بالنساء في مجلس زليخا اللائي وهن يحملن في يوسف قطعن أيديهن في حيرة: و سيكون المرء أقل من امرأة إن لم يضح بنفسه وينس كل المعاناة في الجمال المشع ل« ذي الجلال»

ينبغي أن يكون العاشق مثل القديس جورج (جرجيس) قتل ثم أحيي ثانية مئات المرات بفضل العشق، أو مثل إسحاق الذي ذبح امتثالا لأمر الله .

(جدير بالتنويه هنا أن إسحاق، كما في التقليد اليهودي - المسيحي، وليس إسماعيل كما في التقليد الإسلامي يذكر بوصفه الابن القربان، ولعل اسم القديس جورج في المصراع الأول هو الذي اقترح هذا الربط). و مثل هذا الموت بيد العشق حياة جديدة، على جهة الحقيقة. كنت ميتا صرت حيا، كنت باكيا صرت ضاحكا. جاءت سعادة العشق و صرت سعادة راسخة .

لأن العاشق يعرف أن المعشوق نفسه دية أولئك الذين يقتلون في عشقه ومن هنا فإن ذوبانهم الظاهري هو على الحقيقة نمو وازدياد أقوى.

وهكذا يستطيع العاشق المبتلى أن يعلن في الصحة الشديدة الابتهاج:

لم أر شراباً أحلي من هذا السم.

لا صحة أحسن من هذا المرض .

حتى إذا احترق قلبه في نار الحبيب، سيرقص العاشق في اللهب كالسذاب، ناشراً الرائحة الطيبة كالعود .

إن نار العشق المتجلية في المعشوق، ضرورة لتصفية الذهب: العاشق المخلص عندئذ يمكن أن يعد « ذهباً خالصاً » تحرق عناصره الرديئة و الداكنة في هذا الاختبار الذي يؤلف في الوقت نفسه تغذية روحية له .

لو كان العالم كله مليئاً بالأشواك،

لكان قلب العاشق روضة للأزهار على الدوام .

والمبدأ العام هو أن العشاق لا ينبغي أن يشكوا لأنهم لا يتذكرون أي أسى أو ألم طالما أنهم ينظرون إلى وجه الحبيب.

كيف تجد في قلبي العاشق غم الدنيا و الآخرة؟

و متى يقدر أمير الحاج أمام المكيين؟

و الأسى، رغم أنه دليل أثناء السفر الروحي، لا تبقى له قيمة متى بلغت القافلة هدفها، وأولئك الذين يقيمون في الحرم نفسه، لا يقيمون وزناً لمثل هذا الدليل.

ولا ينبغي أن يفكر العاشق بأعمال الطاعة التي قام بها في طريق العشق.

ويلوم الروميّ الشخص الذي يعدد كل فضائله و عباداته أمام المعشوق بقدر ما يلام من يقرأ رسالة عشق في حضرة معشوقه: العشق الحق يتطلب أن يصل إلى المحتويات و أن لا يقنع بـ « الصندوق » الصور الخارجية التي تظل الكلمات تؤدي فيها عملاً خطيراً .

ينبغي أن يبرهن العاشق على عشقه بأن يموت مبتسما مؤتمرا بأمر الحبيب، ذلك العشق هو «ترك الاختيار» .

وقد اخترع مولانا صورا لا حصر لها لوصف حال العاشق. و يتابع مولانا أمثلة النوري وصوفية بغداد الأوائل الآخرين فيشبهه العاشق بـ:

كالسحابة عندما يبكي، و كالجبل عند التحمل،

ساجدا كالماء متواضعا كتراب الطريق.

و هكذا فإن روضة الورد التي يجدها هي المعشوق .

العاشق جلي في كل مكان، شبيه بالجمل الذي اعتقد أنه غير مرئي فوق المئذنة: سلوكه يذيع سره. كل ما يقوله يحمل شذا العشق: عندما يلفظ كلمة « فقه » تتحول إلى « فقر » الفقر الروحي و عندما يقول « كفر » تحمل الكلمة رائحة « الدين » .

وحتى إن كان عليه أن يرتكب خطأ بسبب العشق، فإن هذا الخطأ خير من الأعمال الصحيحة للآخرين – بالدرجة نفسها التي يكون فيها دم الشهداء خيرا من الماء .

وعليه من ثم أن يتجنب صحبة الناس غير الموافقين لطبيعته: ألم يلق المجنون عذابا مضاعفا: من غياب ليلى، و من صحبة الغجر؟ و ليس له أن يختلط بأولئك الذين يتألمون من أجل اهتمامات دنيوية خشية أن يقع الغبار على صفاء « محو الذات » لديه .

و مثلما لا يتحدث العاشق إلا بالعشق و في العشق، يتوق إلى أن يسمع اسم المعشوق في كل مكان:

يتطلع إلى « الأطلال » آثار المنازل السابقة للمعشوق، ليتحدث إليها حول الذكريات السعيدة بالطريقة نفسها التي يخاطب فيها الشعراء العرب القدامى ديار الحبيبة التي غادرتها في مطالع قصائدهم .

أو يتمنى أن يكون جبلا ليستمتع باسم المعشوق الذي يرجعه الصدى مرات عديدة: ليس لدى الجبل إرادة وهو لا يردد إلا الاسم الشجي الرخيم .

ورغم أن العاشق قد يحاول إخفاء اسم المعشوق عن الآخرين، يظل الاسم الكنز

الأكثر نفاسة لديه، يردده دائماً، وعندما يكتبه على التراب ستغدو كل ذرة من التراب حورية .

و يقينا إن جلال الدّين لم يتحدث عن بعض الأعمال المتداولة عند الصوفيّة في زمانه، مثل التركيز على أسماء خاصة لله تعالى، لكن عشقه العميق لاسم المعشوق ينتهي أساسا إلى الضرب نفسه من التجربة. والمواظبة الدائمة على اسم المعشوق تثمر الإحساس بالقرب و أخيراً الوصال، في قلب العاشق: فاسم الحبيب يجعل الجائع يشبع و الظامئ يروى وهو الفراء وقت البرد .

وأخيراً « عندما تذكر اسمه و تضع اسمي » يكون الوصال كاملا – ذلك الوصال الذي يعبر عنه في نسبة الروميّ شعره إلى شمس الدّين.

الحبيب وحده يبحث عنه و يوجد في كل كلمة فيوسف الذي صار حسنه « قوت الروح في سنة القحط » هو محور كلمات زليخا و فكرها. ثمة مقاطع قليلة يمكن أن تقارن في حقائق علم النفس بوصف المرأة المتيمة التي تقصد بكل كلمة من كلماتها معشوقها:

أَخَفْتُ اسْمُهُ فِي الْأَسْمَاءِ وَاطَّلَعْتَ عَلَى السِّرِّ الْخُلْصَاءِ ..

فَعِنْدَمَا قَالَتْ: إِنَّ الشَّمْعَ صَارَ نَاعِمًا بِالنَّارِ عَنِّي ذَلِكَ أَنَّ مَعْشُوقِي صَارَ مُوَلَعًا بِي،

وَإِذَا قَالَتْ: أَنْظُرُوا، هَا قَدْ طَلَعَ الْقَمَرُ، أَوْ قَالَتْ: إِخْضَرَ غُصْنُ الصَّفْصَافِ،

أَوْ قَالَتْ: إِنَّ الْأُوزَاقَ تَتَرَاقِصُ بِهَجَّةٍ أَوْ قَالَتْ: إِنَّ الْبُخُورَ يَحْتَرِقُ بِسُرُورٍ....

أَوْ قَالَتْ: أَيَّ حَظٍّ مَيْمُونٌ، أَوْ قَالَتْ: أَبْسُطْنَ الْمَتَاعَ،

أَوْ قَالَتْ: جَاءَ السَّاقِي بِالمَاءِ، أَوْ قَالَتْ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ،

أَوْ قَالَتْ: صَارَتْ مَوَادُّ الطَّعَامِ قِطْعَةً وَاحِدَةً مِنْ شِدَّةِ النَّضْجِ،

أَوْ قَالَتْ: إِنَّ أَرْغَمَةَ الْخُبْزِ لَا مِلْحَ فِيهَا،

أَوْ قَالَتْ: إِنَّ الْفَلَكَ يَدُورُ فِي الْإِتِّجَاهِ الْمُعَاكِسِ،

أَوْ قَالَتْ: رَأْسِي تُوَلِّي أَوْ قَالَتْ: خَفَّ صُدَايَ فَإِذَا مَدَحَتْ عَنِّي ذَلِكَ قَرِيًّا،

وَإِذَا ذَمَّتْ عَنِّي ذَلِكَ فِرَاقًا . . وَلَوْ حَلَّطْتُ مِائَةَ أَلْفَ اسْمٍ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ لَكَانَ قَصْدُهَا وَ مَرَادُهَا يُوسُفُ.

عرف الرّوميّ من تجربته أن العاشق و المعشوق لا يمكن إلا أن يكون أحدهما مع الآخر. وحتى إذا كانا متباعدين، حتى إذا كان أحدهما في الظاهر بعيدا عن الآخر، فإن كلا منهما يعمل و يتعامل مع الآخر.

ورغم أن الشوق يجعل العاشقين ناحلين و شاحبي الوجوه، كأوراق الخريف يظهر العشق نفسه في المعشوق في شعاع متألق كالربيع . لا يمكن قطع العلاقة طوعا أو كرها يساق القش نحو الكهرمان.

وعلى الحقيقة فإن المعشوق يشواق إلى العاشق بقدر ما يشواق العاشق إليه.

عشقه سبق كل عشق آخ. و العاشق يعميه العشق، الذي هو نور الناس أمامه مثل الظلال وهو أعمى عن كل شيء إلا المعشوق الإلهي، ويقتل بسيف «لا» كما لو كان حملا معدا لأن يكون أضحية. وبعده لا يبقى سوى «إلا الله» لا شيء آخر. و العاشق الذي أدرك سر الشهادة بالإيمان هذا يقدم روحه وهو مبتسم كالوردة. وهو يعرف أن:

غدا عندما يبعث الخلق من التراب،

أنهض أنا المسكين من ترابك مضطرا !

أضاع العاشق نفسه في المعشوق، ضرب خيمته في العدم، ولا سلطان لملك الموت عليه. لم يبق منه إلا اسمه كل شيء آخر يملا بالمعشوق:

ذات صباح، قال معشوق لعاشق على سبيل الامتحان: يا فلان بن فلان.

أتحبني أكثر أم تحب نفسك، قل الحق يا ذا الكرب؟

وإذ ذاك سلم المعشوق بأن اسمه فقط هو الذي أبقى له: فكيف يمكن أن يميز في العشق ؟

العاشق و المعشوق مثل مرأتين كل منهما تحرق في الأخرى وهي صورة مؤثرة لدى الصوفيّة العشاق منذ زمان أحمد الغزالي لكن سر هذه العلاقة لا يمكن إيضاحه بالفكر العقلي الاستدلالي.

فهم يجربون توحدًا عاليًا، عشقا جامعا شاملا غير قابل للتمثيل و غير قابل للوصف، حتى جبريل (عليه السلام) سيكون داخلا دون دعوة في حميمية هذا العشق: لأن العاشق الذي صقل مرآة قلبه صقلا تاما أو الذي أنضجته البلايا المتصلة، يحس أخيرًا، ليس في صورة التعبير عن حقيقة فلسفية بل في صورة معرفة باطنية شخصية، أنه:

كل (كل الأشياء) المعشوق و العاشق ستار،

حي المعشوق، و العاشق تبار .

رسائل شعرية

وصل سلطان ولد ، ابن مولانا ، إلى دمشق ، و من دون أن يهدأ لحظة أو ينفذ غبار الطريق عن رأسه ووجهه و ثيابه ، أو ترتاح نفسه كان يبحث من مدرسة إلى مدرسة و من خانقاه إلى خانقاه آخر أكبر ؛ لكي يظفر بالملاذ الأخير لوالده . و من أجل سلامة روح مولانا و جسمه ، كان يبحث عن ضالته كأنه مرافق لرسول الريح . كان مولانا يأمر ابنه قائلاً : ابحث عن أثر شمس الحقيقة في خانقاه دمشق الكبير و انتفع بشعاعه المنعش للقلب و مر بأعتابه بهدوء و اقترب من روحه العظيم لكي تظفر بمن أحيا أباك من جديد . اجتاز سلطان ولد منطقة الطريق الضيق الذي يصل دمشق بحلب . كان صوت يصل إلى الأذن من بعيد و قد ، قلَّ بُعد المسافة تدريجيًا ، عند غروب الشمس صدى كأنه كان يتحدث مع روح الإنسان نَبَه كل محبي مولانا . كان شمس يدعو هؤلاء إليه و كان في خانقاه يتحدث إلى محبيه . كان البحث يتناول مسألة " كعبة القلب " و " كعبة الطين " (كعبة دل و كعبة كل بالفارسية) . روى قصة عن أبي يزيد و كان الخانقاه مملوءًا بالمحبين و الدراويش . قال شمس :

كان أبو يزيد يذهب إلى الحج و جرت عادته أنه في كل مدينة يدخلها يزور أولًا مشايخها ثم يكون له عمل آخر .

ذهب أبو يزيد إلى البصرة في زيارة أحد الدراويش أبا يزيد .

- قال : أذهب إلى مكة لزيارة بيت الله .

- فقال الدراويش : ماذا عندك من الزاد و المال و الغداء لقضاء حاجاتك ؟

- قال أبو يزيد : عندي مئتا درهم فقط .

- فقال الدراويش : قم و طف حولي و أعطني هذه الفضة .

نهض أبو يزيد من مكانه فورًا ، و فتح كيس الفضة و قبله و وضعه أمامه .

- قال الدراويش : ذلك البيت هو بيت الله ، و قلبي هذا أيضًا بيت الله و لكن اعلم

أن الرب الذي هو رب ذلك البيت و رب هذا البيت ، منذ أن بني ذلك البيت لم يدخله ،

و منذ أن بني هذا البيت لم يخله و لم يغادره . و البيت الصحيح هو بيت كعبة القلب فاسع لأن لا تؤذي قلبًا .

استبد صمت موحش و مخيف بفضاء الخانقاه ، فتعلقت أعين سلطان ولد و أصحابه بهذا المشهد الروحاني العظيم ، و في صمت الخانقاه بقي هؤلاء أيضًا ساكتين و مندهشين . ألقى شمس نصف نظرة إلى سلطان ولد ، فتبسم و تابع كلامه : من في هذا الخانقاه الذي يسمع صوته بأذن القلب في كعبة القلب ؟ منذ أن وجدت كنت أدرك حياة العرفان جيدًا ، بل أتحمسها العشق وحده عندي خاطرة دائمة باقية ، لا يمتلك أحد طاقة العمل التي عندي خاطرة دائمة باقية .

لا يمتلك أحد طاقة العمل التي عندي و ما أفعله لا ينبغي لمقلد أن يقتدي بعد وقد صدقوا حين قالوا : لا يجوز أن نقتدي بالعارفين .

أيها الأحبة : أيها الذين جئتم من قونية إلى هنا ووقفتم عند باب الخانقاه . كل الناس أنشدت أعينهم إلى باب الخانقاه ، لدي رفيق رائع ، لدي مؤنس رائع كان رجلًا عجيبًا إنه محيي الدين بن عربي ، أما في المتابعة فلم يكن وفق الأصول ، لم يكن لديه عين المتابعة ، هكذا كان " استفدت منه استفادة علمية وروحية كبيرة ، كان دائمًا يقول : أخطأ فلان . و بعدئذ كنت أشاهد أنه هو نفسه كان يخطئ ، و مرات كثيرة كنت أذكر له أخطاءه . محيي الدين بن عربي العارف الكبير القليل النظير يضطر إلى أن يُطرق و يقول :

أي بني أتجلد بالسوط ؟

لو كان لدي أبي يزيد علم لما قال البتة : أنا ، أنا .

الفخر الرازي أي جراءة لديه حتى قال : محمد الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول و محمد الرازي هكذا يقول ؟

و الحاصل أننا لا نعيش مع الرسول إلا بالأخوة ؛ أكون معه بطريق الأخوة ، أنتم أحبائي ، ابحثوا عن النهار في السماء و عن الظلمة في الأرض حتى تبلغوا إلى حيث تنظرون إلى الأرض و كأنها ظل مضطرب ، و ستحسون باللذة و الهيجان في العشق فقط . شربت في قونية من الينبوع الذي كنت مشتاقًا إليه خمر المحبة و العشق اللذيذ، و كنت ثملا لمدة طويلة و إذا كنت قد عشت في هذا المنفى البائس، فمبعث ذلك أنني أعيش مع عشق رجال الله و العارفين ولا يوجد بيبي و بينهم في عالم التراب فراق و هجران من أجل الله أطلقوا سراحي ، تركوا طوفان الطبيعة يحملني معه إلى

أفاق بعيدة كأوراق الخريف الصفراء فلا يبقى مني أثر .

و خلف عتبة الخانقاة القديم ، انتشر صوت البكاء في الفضاء . استسلم سلطان ولد و أصحابه للبكاء اضطراراً . صار شمس طوفاناً ، و بصوت هز أجساد مرتادي الخانقاه ، قال :

كل من أحبه أقدم له الجفاء ، فإن قبل ذلك كنت له ! نعم إن لدي قاعدة هي أن كل من أحبه أستعمل معه القهر أولاً . و هكذا أستعمل الجفاء مع الشخص الذي أحبه أنا أيضاً مثل كف اليد ، إن عرف شخص طبعي ارتاح ظاهراً و باطناً . كل من أتوجه إليه يدير وجهه عن العالم كله . و ربما أبدو متوجهاً إلى أحد ، لكنني لا أتوجه إليه حقيقية . لدي جوهر يتمثل في أن كل من أتوجه إليه يغدو غربياً عند أصحابه و أحبائه .

خمد صوت شمس السماوي . و في صمت الخانقاة . و من غرقوا في الإنصات إلى كلماته الشبيهة بالمعجزة وقفوا منجذبين و ثملين ، ليس لديهم جرأة على أن ينبسوا ببنت شفة و غادروا الخانقاة واحداً إثر آخر . و عندما وصل أحدهم إلى قرب من باب الخروج قال السلطان ولد : طلبكم شمس .

دخل سلطان ولد إلى الخانقاه ، فقبل يد شمس ، وانحنى أمامه ووضع رأسه على قدمه و قال :

مولانا إن كلامك من العُلوقِ بالقلب و النفاذ إلى الأعماق على نحو لا أقدر معه على التعبير عنه و لعل كلامك يستحق أن يصعد إلى الجناب الإلهي .

إنّ كلامك المتناغم " المنسجم المفعم باللطف و الجلال يحكي صوت السماء الزرقاء صوت العشق و الحقيقة . و هو عين الصوت الذي جذب إليه والدي مولانا و قد بقي لمدة هائماً بك و مضطرباً أغلق على نفسه الباب و لم يأذن لأحد بالدخول عليه ، وورده الذي يردده على لسانه ، شمس تبريز ، اسمكم يذكر بكلامكم المثير . يريد مرة أخرى أن يسمع عن قرب الكلام المسكّر و الجمل الموزونة الساحرة و يرى وجهك الملكوتي . يعتقد والدي أنه في الدنيا كلها ، تركيب كلام شمس التبريزي هو وحده تركيب ملكوتي و منه يستخلص المحبة و الإخلاص . كان يحس دائماً بأنه افتقد القدرة على الحياة و ذخيرة الحياة . و في أثناء التوديع قال لي : إما أن تعود بشمس التبريزي إلى قونية و إما أن تسلم الروح إلى خالق العالم .

مكث سلطان ولد قليلاً و حدق في وجه شمس فشهد قطرات الدمع تنهمر من

زوايا عينيه واحد من رفاق سلطان ولد أخرج بأمر منه ، مقداراً من الفضة و الذهب من الكيس و نثره على قدمي شمس . و في هذه الأثناء أخرج سلطان ولد من جيبه رسالة مختومة و قال لشمس تبريز : نظم والدي أربع غزليات و أرسلها إلى حضرتك . اسمح لي بأن أقرأ بضعة أسطر منها فقط . صار شمس الذي أطرق إطراق التفكير كله أذانا تسمع ، فقرأ بهاء الدين الأشعار .

وَاللّٰهِ الَّذِي كَانَ فِي الْأَزَلِ حَيًّا

وَ عَلَىٰ لَيْمًا وَقَادِرًا وَقَيِّومًا

الَّذِي أَوْقَدَ نُورَهُ شُمُوعَ الْعِشْقِ

حَتَّىٰ انْكَشَفَ مِائَةَ أَلْفِ سِرِّ

وَمِنْ حُكْمٍ وَاحِدٍ مِنْ أَحْكَامِهِ امْتِلَاءُ الْعَالَمِ

بِالْعَاشِقِ وَالْعِشْقِ وَالْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ

وَفِي طِلَاسِ شَمْسِ التَّبْرِيْزِيِّ

صَارَ كَثْرَ عَجَائِبِهِ مَكْتُومًا

إِنِّي مُنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي سَافَرْتُ فِيهَا

فُصِلْتُ عَنِ الْحَلَاوَةِ كَمَا يُفْصَلُ الشَّمْعُ (عَنِ الْعَسَلِ)

أَخْتَرْتُ كُلَّ لَيْلَةٍ كَالشَّمْعِ مُكْتُوبًا بِنَارِهِ، مَحْرُومًا مِنْ عَسَلِهِ

أَلَا فَاجْذِبِ الْعَيْنَانَ إِلَىٰ هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَغَلِّظْ مِنْ فَيْلِ الْعِشْقِ الْخُرْطُومَ

مِنْ دُونِ حُضُورِكَ لَا يَكُونُ السَّمَاعُ حَلَالًا كَالشَّيْطَانِ طَرِبَ فَرَجِمَ

جَعَلَ اللَّهُ لَيْلِي مِنْكَ صَبَاحًا وَضَاءً يَا مَنْ فِيكَ فَخْرُ الشَّامِ وَالْأَزْمَنِ وَالرُّومِ.

أوصل سلطان ولده ، و عيناه مثقلتان بالعبرات ، الرسائل المنظومة المحرقة المذيبة التي أرسلها العاشق الذي رأى الهجران إلى مسمع المعشوق الصريح الشجاع المتمرد العظيم كان الابن العزيز لمولانا ينتظر أن يجيش بحر محبة شمس ، ثم في لحظات الشوق و الهيجان و الذهول ، أن يترك دمشق متجهًا إلى قونية .

سماع مولانا

عرف مولانا في قونية أن شمسًا التبريزي في نهاية الأمر ، انجذب إلى أشعاره و سُجر بها ، و أنه تلقى رسائله الخلاية المؤثرة بسمع القبول ، فطار إلى محبوه راقصًا. فانطلق مولانا إلى الخانقاه على الفور و تحلّق حوله المحبون و المتعلقون به . و صار حضور مولانا غير المنتظر إلى الخانقاه باعثًا لبروز شائعات ، لكن هذه الشائعات و الأخبار الكاذبة لم تدم طويلًا عندما نهض مولانا من محله و صاح و خاطب الموجودين في الخانقاه .

أيها الأحبة ، اعلموا أن الرجل المكتنف بالأسرار في زعمكم شمس الحق و نور العارفين المطلق ، أعني شمسًا التبريزي تلك الشمس التي تسطع وسط الظل ، انطلق من دمشق إلى قونية و ابتغاء أن تغطوا المسافات عن نظري ، و تقصروا طريق الألم و الغم الطويل لابد من أن تعرفوني و تعرفوا تحملي الهجران جيدًا ، لابد من أن تشغلوني بالسماع ...

نهض جاهل أو فضولي من مكانه ، فقطع كلام مولانا و قال :
يقولون إنّ شمسًا التبريزي منذ شهر لبي دعوة الحق و أسلم الروح إلى خالق العالم .
أحاط بالخانقاه سكوت مُطبق .. صرخ مولانا و أنشد على الفور :

مَنْ قَالَ: إِنَّ الرُّوحَ المُثِيرُ لِلْعِشْقِ مَاتَ؟ .
أَمَاتَ جِبْرِيلُ الأُمِّينِ بِخَنْجَرٍ حَادٍ؟
ذَلِكَ الشَّخْصُ الَّذِي مَاتَ عِنَادًا كِبَائِلِسِ،
يَظُنُّ أَنَّ شَمْسَ تَبْرِيزَ مَاتَ

اسمعوا احبسوا الأنفاس في الصدور ، ففي فضاء مترامي الأطراف تصل إلى الأسماع حتى الآن أصوات شمس ، أدعية شمس تُسمع حتى الآن في هذا الخانقاه كأنغام الجنة و يجب أن تسمع هذه الأنغام بأذن الروح ، لا بأذن الحس ، ذلك لأن كلام شمس كلام الأولياء و إن أذن الحس تتلوث بسماع الترهات و التوافة ، و ليس لها مجانسة

و مشابهة و قرب من كلام الكبراء ، أنا أسمع جيداً و بتمام وجودي تلك الأصوات ، و كل من كان عاشقاً مثلي ستكون الدنيا عنده محلاً لتجلي وجه شمس وصوته ، سيرى شمساً عن قرب (عدد من الأشخاص الذين لم يصدقوا أخذوا بيتسمون و يتهامسون بالسخرية و يقولون كلاماً مزعجاً) . واصل مولانا القول :

أيها الأحبة اعلموا أنه حتى حياة الكائنات ليس لها مفهوم عندي من دون وجود شمس . و إن كل شيء في الدنيا ينشد ملاذاً و ملجأً ، و أنا أيضاً كالطفل المطيع أنشد شمساً و أبحث عنه ، فمن : قال إن هذا الحي الخالد مات ؟ من ذا الذي أعطي لنفسه الجرأة على أن يقول : إن مرادي أسلم الروح إلى خالق الأرواح ؟

مَنْ قَالَ: "إِنَّ ذَلِكَ الْحَيَّ الْخَالِدَ مَاتَ؟" مَنْ قَالَ: "إِنَّ شَمْسَ الْأَمَلِ أَفَلَتْ؟" ذَلِكَ هُوَ عَدُوٌّ لِلشَّمْسِ صَعَدَ عَلَى السَّطْحِ وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: "مَاتَتِ الشَّمْسُ" شخص آخر من محبي مولانا نهض من مكانه و قال :

يا مولانا ، إن ابني جاء البارحة من دمشق و كان قد رأى شمساً في سوق بائعي الحلوى في دمشق . . . بل لقد تحدث معه . كان شمس يقظاً و نشيطاً . قال ابني لشمس : إن مولانا لم يعد يطيق الصبر على فراقكم . كان شمس على علم بمعاناتكم من طريق إشراق الباطن أو من طريق آخر غير ذلك ، لست أدري و لهذا السبب لديه شوق شديد جداً إلى لقاءكم .

فقال مولانا بانسراح صدر : في هذا اليوم ، ابعث ولدك إلي لكي أعطيه عمامتي و لباسي تعبيراً مني عن الابتهاج بهذا الخبر السار .

في نظرات مولانا المضطربة كانت جاذبية المحبة الصميمة تموج بلطف ، و كانت هذه النظرات المشتاقة المصحوبة بالابتسامة تؤذن بأنه سيشاهد سريعاً مفاتن العالم ، أي شمساً . و منذ ذلك اليوم ، جلس مولانا للسمع و الرقص واستعاض عن لباس الفقهاء بلباس العارفين و أمر بأن يُصنع للرباب ست منازل ، مع أنه منذ عهد بعيد كان للرباب ، هذه الآلة الموسيقية المحرقة أربع منازل . ثم بعد ذلك أنشأ السماع و من الشوق انشغل بالتواجد و السماع و الرقص .

كان مولانا ينتظر باشتياق لقاء شمس و كل ما كان يُقال غير حديث العشق ؛ لم يكن يسمعه ؛ لم يكن يصغى إلى كلام و حديث غير حكاية ذلك الكثر

كانت الأنغام التي تصدر في الخانقاه في الثناء على الحبيب . و كان قبل بزوغ الفجر يأتي من الخانقاه إلى البيت ، فيستريح ساعة ثم يعود مرة أخرى إلى الخانقاه ، و كان يوصي أصحابه بأن ينشدوا و يغنوا و يرقصوا ؛ ذلك لأن الفناء و الموت في عتبة الخانقاه فلابد من اغتنام اللحظات :

غير النغمة و اعزف لحناً جديداً

فقد وصل من الفلك صوت جديد

في أحد الأيام سأل أحد المريدين مولانا في الخانقاه ما الظرف و اللطف الكامنان في نغمة الرّباب اللذان يعجز بعضهم و منهم أنا ، عن إدراكهما ؟ فأجاب مولانا :
- أما أنا فبسماع نغمات الرّباب أسمع صوت باب الجنة .

في تلك اللحظات ، كان سيد شرف الدين وهو من أتقياء قونية حاضرًا فقال لمولانا :
نحن أيضًا نسمع صوت الرّباب ، لماذا لا نتأثر كالتأثر الذي تتحدثون عنه ولا ينتابنا الشوق و التحرق مثلما ينتابكم ؟
- فقال مولانا :

- ما نسمعه نحن هو صوت انفتاح باب الجنة و ما تسمعه أنت صوت انغلاقه .
” هو الغفور ، أسمع من صوت الرّباب
صوت باب الجنة ، أسمع من صوت الرّباب
فشتان ما بين سماعي و سماعك :

أنت تسمع صوت انغلاق الباب و أنا أسمع صوت انفتاحه
مؤلف كتاب ” مناقب العارفين ” كتب في شأن صلة مولانا بالسماع و الموسيقى و الرقص يقول :

كان مولانا (خُداوندكارما – بالفارسية) منذ ابتداء أمره منشغلًا بتطبيق منهج والده مولانا بهاء الدين ولد وسيرته و سلوكه ، لكنه لم تكن له صلة بالسماع . . و عندما رأى مولانا شمس الدين بعين البصيرة عشقه ، ورأى في كل ما كان يقوله غنيمة . قال له شمس التبريزي : إن السماع يُحيى في النفوس الرؤى الملكوتية، فالألحان الربانية عندما تصل إلى الأذن مصحوبة بأنغام الناي و الرّباب تكون مثل شعلة تنزل من السماء لإنارة القلوب . و كان شمس قد أمر مولانا بأن يشغل نفسه في غيابه ، بالتفرج في البساتين و أداء السماع و الدعاء و الإنشاد . . . أوصي شمس جلال الدين في الخلوة مرات كثيرة : ” ادخل في السماع فإن الذي تنشده سيزداد في السماع ” .

و بناء على إشارة وتوصية من شمس دخل مولانا في النهاية في السماع ، و ما كان لازمًا على نحو واضح من أسرار الطبيعة رآه عيانًا . و كثيرًا ما كانت دموع مولانا المحرقة تنهل على أوتار رباب أحد الفنانين العازفين . و كان الناس يعدون هذه القطرات دموع وجد وشوق ووصال ، و كان يُقال إنّ مصدر هذه الدموع و ينبوعها هو انجذاب مولانا و ستشرق عيناه سريعًا بلقاء معشوقه الجاذب للقلب المؤثر .

كان أهل قونية يسمعون بأخبار تحرق مولانا البالغ و الغير المسبوقة في الخانقاه و صياحه الباعث لطوفان حيرته و اضطرابه . و كان المقربون منه يقولون : إنه مثلما أن

قصف الرعد مؤشّر نزول المطر ، تكون صيحات مولانا و صرخاته مبشرة بقرب زمان
الوصل . قال مولانا :

هَذِهِ الْأَنَاءُ تَنْبَعُثُ مِنَ النَّايِ وَ الرَّبَابِ تُصَفِّي رُوحِي فِي أَتُونِ الْفِرَاقِ وَالْحَارِقِ وَالْمَذِيبِ
وَتُبَشِّرُنِي بِأَنْ ضَالَّتِي فِي الْعِرْفَانِ وَمَحْبُوبِي الرُّوحَانِي أُسْتَاذُ الْعِرْفَانِ غَيْرِ الْمُنَارِعِ سَيَصِلُ
سَرِيعًا وَيُضِيئُ عَيْنِي الْعَارِقَتَيْنِ فِي الدُّمُوعِ اللَّتَيْنِ أَشْهَتَا عَيْنِي مَاءٍ مُثَمَّرٍ .

و في دمشق دخل سلطان ولد و كل أصحابه في طاعة شمس تبريز و محبته و الفضة
و الذهب اللذان أحضرا ترك قسم منهما عند شمس . و قد ضحك شمس عند مشاهدة
أكياس الذهب و الفضة و قال :

- - - لِمَاذَا يَخْدَعُنَا بِالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ؟ إِنْ طَلَبَ مَوْلَانَا كِفَايَةَ لَنَا وَكَيْفَ يُمَكِّنُ إِغْفَالَ
كَلَامِهِ وَإِشَارَتِهِ؟ إِنْ قَوْلًا وَاحِدًا لِمَوْلَانَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَاوِيَهُ عِنْدَنَا أَلْفُ دِينَارٍ. الباب الَّذِي
سُدَّ فِي وَجْهِ فُتِحَ بِإِرْشَادِهِ وَاللَّهِ إِنِّي مُقَصِّرٌ فِي تَعْرِفِ مَوْلَانَا، وَالآنَ وَأَنَا هُنَا أَعْلَمُ أَيَّ جَوْهَرٍ
قِيمٍ كَانَ مَوْلَانَا، إِنَّ عَظْمَةَ الْجَبَلِ يُمَكِّنُ تَعْرِفَهَا مِنْ بُعْدٍ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلٍ، وَلَا بُدَّ مِنْ
تَعْرِفِ مَوْلَانَا عَلَى نَحْوِ أَفْضَلٍ. إِنْ وَرَاءَ كَلَامِهِ أَشْيَاءٌ وَيَجِبُ طَلَبُ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ مِنْهُ.

و قد رسم شمس بكلامه المشوّق صورة جديدة لمولانا أمام ابنه ؛ و ذلك ابتغاء أن
يعلم أعباؤه أن شمسًا أيضًا عاشق لمولانا و أنه مضطر إلى أن يسبح في بحر عشق
مولانا . هذا ، مع أن جلال الدين كان يسمي مولانا شمسًا : " سلطان المعشوقين " .

ينهمك شمس في الحديث عن اللحظة العابرة الثابتة التي أمضاها مع مولانا . يتحدث
عن إبداعيته ، فيعد شمس مولانا نجم أمله و يقول إنه كثيرًا ما كان لي في ظلام دمشق و
صمتها مع مولانا مناجيات و أسرار ، فماذا يريد مني و قد كنت دائماً عنده أتحدث معه
و أعلم أن مولانا في هذه اللحظة منشغل في الخانقاه بالسماع و الرقص .

قلت له إن السماع فريضة أهل الحال . السماع راحة لأرواح الأحياء ، السماع لازم
لأصحاب القلوب و أهل الصفاء . السماوات السبع و الأرض و الخلق جميعاً يبدوون
بالرقص عندما يبدأ العارف بالوجد و الرقص ورقص رجال الله لطيف و خفيف و
ناعم كأنه الورق ينساب على وجه الماء في الباطن كالجبال و في الظاهر كالقش .

تقولون إنه علي أن أعود إلى قونية أنا في كل لحظة في قونية أنا و جلال الدين
نتحدث في شأن أسرارنا ، أحدنا إلى جانب الآخر . على أن أمسك بيد مولانا و أخذه معي
إلى خراسان الكبرى ، ذلك لأن أكثر أهل قونية لا يدركون معنى كلامي ولو أذنوا لي بأن
أخرج وجودي الجسماني من هنا لكنت شاكرًا .

ألقي شمس نصف نظرة على وجه سلطان ولد و قال : لا أدري لماذا روحي مضطرب
و قلبي غير مطمئن منذ اللحظة التي نويت فيها السفر . غم موجع يأكل داخلي ، لا أعلم

ماذا يريد مني مولانا ؟ - لماذا يدعوني إلى مكان يريد فيه المتعصبون و عميان القلب
الحساد أن يسفكوا دمي ؟
أنتم تدعونني إلى حيث أُقتل مع أن أساس العرفان العشقي هو الإيثار و الإخلاص
و الفناء و الشهادة . إن لقاء مولانا العارف الزاهد جاذب للروح نحو أتون العشق و
الصفاء .

obeikandi.com

في مدرسة شمس الفكرية

أسأل الله أن أمتلك القدرة على أن أختزن عصارة رسالة روعي في كلمات محدودة وأوصلها إلى أسماع المشتاقين. ووأأسفاه ، اتهمني الحساد و المراءون في بلاط قونية قائلين : إنَّ شمسًا سمم أرواح شباب مدينتهم و أجسادهم و أفقدهم الثقة بعقائدهم. و في سيرى و سياحاتى الطويلة لقيت شيوخًا و عارفين كبارًا ، لكنه ليس لأي منهم خاصيات جلال الدين ، و بما لديه من قوة علمية و روحية أضرم نارًا خالدة في قلبى . لكننى منذ اليوم الذى ذهب فيه إلى قونية واجهتني التهم و البليات . و الآن أيضًا أحس بأنه في سماء قلبى سُحب سُود و طوفان و حشى ، و أنظر بحسرة إلى مستقبلى . و في هذه الأثناء قطع أحد مرافقى سلطان ولد كلام شمس تبريز و قال :

- مولاي ما قلت إنك أخفيتته في قلبك يجعلني أتصور أن لديك خوفًا من القتل ؟
أمن الصواب أن يرضى عارف مثلك من أجل أن يبقى عدة أيام في دار الخراب هذه ، بأن يظل جلال الدين البلخي في مصيبة الفراق متأثرًا مشتت الذهن باكيًا ؟
غيرت هذه العبارة الصادقة شمسًا و حدثت ضجة ، فأراد سلطان ولد أن يتكلم و يقلل من ثورة شمس ، لكن كان كأنه يرى في وجه شمس صورة مولانا و في جسده أيضًا مثل ذلك . كان عمل مولانا أن يرسم مئات الصور و ينحت مئات التماثيل ، ثم بعد ذلك يمحو الصور و يكسر التماثيل .

شقت سبابة يد شمس اليمنى الفضاء و استقرت فوق قلبه .. و كانت هذه إشارة منه إلى أنه يوجد في صدري في فضاء قلبى ، فراغ ملاءم و محبوب لصفاء عشق مولانا و من أجل بيان المطلب تحدث شمس فقال :

كل من أحبه أقدم له الجفاء ، فإن قبل ذلك كنت له . نعم أيها الأحبة إن لي قاعدة هي أن كل من أحبه أستعمل معه القهر منذ البداية و هكذا كلما أحبت إنسانًا جفوته اعلموا أنني عاشق متفانٍ ولا أتورع عن العشق رأيت كثيرًا من العارفين و ظفرت بخدمتهم و عرفت الفرق بين الصادق و الكاذب من ناحية القول و من ناحية الحركات

. و إذا لم يكن العارف محمودًا جدًّا و مختارًا فإن قلبي لا يلتفت إليه و طائر القلب هذا لا يلتقط كل حبة .

و إنَّ نجومًا كثيرة كانت تتلألأ في سماء حياتي و هي جميعاً إما أفلتت و إما توارت وراء سحب الحياة السود . أما مولانا فهو مهبط وحيي و إلهامي . و لعل عدداً قليلا من الأفراد سواء أكان ذلك في الزمان الذي يمر في ساحة هذه الحياة أم في تلك اللحظات الصعبة التي ينبغي أن تودع استجابة للأمر الإلهي ، ضحكوا و يضحكون . دنيا عظيمة و مضيئة محصورة في داخله . لست أدري أي ينبوع محبة هذا الرجل العظيم ينبوع كل من شرب منه جرعة يرى في داخله شمسًا ساطعة محرقة تظهر في كأنونها الحقيقة المطلقة .

أتحدث عن عشق مولانا و قد أحاط هذا العشق بوجودي كله و أسلمني إلى تشتت الذهن و التحير .

أَبْهَمَ الْعِشْقُ زِدَ الْإِذْلَالَ لِأَنَّيَ فِي حَيِّهِ لِكَيْلًا يَشْتَاقَ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ يَرَانِي

إن لم أكن مزيجًا من المحبة و العشق فلماذا أكون مستخفًا و ثملا من كلام مولانا و إنشاده و أنغامه ؟ و لكنني أتلذذ أكثر بالفراق إذ أبحث في مشقاته و آلامه في حرقه و أشواقه ، عن أمالي و أمنياتي الحلوة و أغدو أكثر أملاً بالحياة .

و حتى الآن ، لم يستطع أحد في البسيطة في قونية و في دمشق و في خراسان الكبرى ، أن يدرك مبلغ فضلي و علي ، ولا أعني أن يقلدني شخص ؛ بل أن يستمع إلى كلماتي السماوية . و هنا أحس سلطان ولد بأنه يستطيع التحدث و لهذا السبب أظهر جرأة و قال :

تذكرون أنه في أحد الأيام في مدينة قونية ، بالغ و الادي المعظم في مدحكم مبالغة عظيمة و أظهر أكثر من القدر المتعارف لمقاماتكم و كراماتكم و قدراتكم ، حتى اضطرت إلى ترك مجلس الوالد و من غاية التعجب جئت إليكم و بعد أن جلست إلى جانبكم سألتكم :

يا بهاء الدين (المراد هنا سلطان ولد) ماذا سمعت حتى جئت إلى هنا مسرعًا كمن أصابتهم الصاعقة ؟

قلت : في هذه الساعة بين والدي أوصاف عظمتكم الروحية و المعنوية ، ثم شرحتها كما سمعتها . فقلتم :

و الله ، إنني لست أكثر من قطرة من بحر عظمة والدك لكن أنا فوق ما قال بألف مرة . فتعجبت من جديد ثم خرجت من حجرتك ، أسرعت إلى الوالد و قلت : إن مولانا شمس الدين التبريزي ذكر في شأن عظمتة الروحية أمورًا أبعد من أن أقدر على تصديقها .

و في الحال التي اهتم والدي بكلماتي باشتياق قال :

مدح نفسه و أظهر عظمته ، وهو فوق ما قال عن نفسه بمئة مرة .

و قبل أن يتوقف سلطان ولد عن الكلام ، تذكر شيئًا من أشعار مولانا ، فاستشعر شيئًا من القوة ، وابتغاء أن يشوق شمسًا التبريزي تلا :

أَلَا يَا نَسِيمَ السَّحْرِ، ائْتِنِي بِأَخْبَارِ شَمْسِ الدِّينِ
أَنَا صَاحِبٌ لَهُ، وَلَكِنْ أَنْتَ تَعْرِفُ أَخْبَارَهُ تَتَحَلَّى
حَلْمَةً أُذُنِ ضَمِيرِي بِقَلَائِدِ مَنْ دُرٌّ مِنْ الْقَاطِطِ شَمْسِ الدِّينِ،
السَّيْمَةُ بِالْوَحْيِ الْمُحَمَّلَةُ بِالسُّكْرِ
وَإِنَّهُ لَا إِصْلَاحَ لِخَرَابِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا
إِلَّا بِالطُّفِ شَمْسِ الدِّينِ، الَّذِي لَا نَهَايَةَ لَهُ وَقَانُونِهِ

و بعد أن سمع شمس تبريز أشعار مولانا ، همس : قلبي يحدثني عن مولاي .
اضطر سلطان ولد إلى أن يواصل الكلام و يقول :

نريد أن نأخذ الرجل العظيم الذي جعل مولانا أسيرًا لمزمار العشق من هنا إلى قونية .
نريد أن نأخذ إلى والدي واسطة الفيض الإلهي الذي اصطاده بفضل المقام العالي الذي يمتلكه و ببركة تزكيته الروح و إبداعه العرفاني ، بفضل كمال قدرته الروحية لا بفضل الصفائر السود .

هكذا يقول والدي و إن لديه اعتقادًا بأن أسهى الدقائق و اللحظات و أكثرها روحانية هو الوقت الذي قضاه إلى جانبكم ، وهو كالمسكة التي بها حاجة ماسة إلى الماء محتاج إليكم لكي يحيا و يمضي لحظات العمر .

أنتم الذين سلبتم عشق الحياة من والدي بفراقكم ، بماذا ستجيبون رب الكائنات؟
مسح شمس بيده على وجه سلطان ولد برفق و قال :

- يا ولدي ، العشق خَلَقَ ، خلاص ، تغيير و تحول . بعض الناس يظنون أن الإنسان نتاج شهوات إنسان آخر . لا ليس الأمر كذلك الإنسان هو العلة الغائبة للخلق و تاج عالم الخلق . و مع أن الإنسان بحسب ترتيب الظهور هو أخير ، هو قدرة هو عند الحق سبحانه ، وبحسب المقام ، أول . العشق هو سبب إيجاد الناس ؛ العشق

هو قدرة مِهَارٍ عالم الأبدية . و إنسان مثل مولانا ، قلبه منزل للعشق و الأمل ، لا بد أن يكون الله سبحانه في قلبه وهو يتغير على الحقيقة .

أي بني ، أنت لا تعلم أن امتحان العشق هو الفراق و ليس الوصال . و لست تعلم أن والدك منذ الساعة التي أدرك فيها معنى العشق تحت سماء قونية ، غير سريعاً أسلوب حديثه و عشق الموجودات و الكائنات و غدت الكائنات و المعجرات كلها عنده محلاً للعشق و المحبة . و ما أحس به هو أن أنوار فكره ستضيئ عالم العرفان في المستقبل القريب .

و قد صدق شمس ، فإنّ مولانا منذ اللحظة التي شاهده فيها ألقى بنفسه في بحر العشق كالغواص . و الآخرون الذين عشقوا صمتوا و لم يندسوا ببنت شفة ، أما مولانا فإنه بسبب شعلة الاشتياق التي تحرق وجوده اضطر في لحظات الشوق و الغفلة إلى أن يذكر أمورا تشير إلى أنه كان في داخله طوفان هائج .

و ابتغاء إدراك الوضع الروحي لشمس ، تبدو مطالعة الأبيات الآتية مناسبة :

مَنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ أَنَا مُنْدهِشٌ، بِعَقْلِ وَمِنْ دُونِ عَقْلِ

نَاطِقٌ صَامِتٌ، نَائِحٌ سَاكِتٌ

وَمَنْ ذَلِكَ اللَّوْنِ أَيُّ شَخْصٍ بِلَا لَوْنٍ أَنَا!

وَبِتَلِّكَ الطَّرَةَ أَيُّ مُعَلَّقٍ أَنَا! .

وَمَنْ ذَلِكَ الشَّمْعِ، أَيُّ مُضْطَرِبٍ أَنَا كَالْفَرَّاشِ، يَارَبِّ!

أَنَا دَمٌ وَحَلِيبٌ، أَنَا طِفْلٌ وَشَيْخٌ أَنَا خَادِمٌ وَأَمِيرٌ، أَنَا هَذَا وَذَلِكَ

أَنَا، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ شَمْسِ النَّائِرِ لِلسُّكْرِ وَخُطَّةِ تَبْرِيزِ

أَنَا السَّاقِي وَالنَّمْلُ، أَنَا الْمَشْهُورُ وَالْمَعْمُورُ

و يعترف مولانا قائلًا : في مدرسة عشق شمس حيت و ضحكت من جديد و في النهاية جاءت دولة العشق ، فصرت دولة ثابتة ، وقد كتب مولانا يقول : عندما وصلت إلى حضرة شمس الدين الذي كان رسولاً ملكوتيًا ، ابتسم ابتسامة صفراء كأنه كان يتسم لبنوغي و علمي و قدرتي الفكرية و قال باستبداد : لا تقرأ كتب والدك بعد الآن

و بقيت مدة لا أقرؤها مستجيباً لإشارته ، ثم قال بعد ذلك . لا تتحدث مع أحد فبقيت مدة صامتاً لا أتكلم

وفي أحد الأيام قال أحدهم لمولانا أمام شمس التبريزي : أحبك و أحب الآخرين من أجلك . فقال مولانا : إذا كان مرادك حضرة شمس التبريزي فقد أخطأت : فإن كنت تحبني من أجله فهذا أحسن ، و يزيدني سروراً.

و شمس هذا الذي عبّر عنه في الغزليات المشوقة في الديوان الكبير باسم : الدولة الخالدة وروحي و سروري و نطقي و طاعتي و سجودي و زهرة سمائي ، كان في الرياضيات و المجاهدات ماهراً و أستاذاً و مجرباً فدفع هذا الأفلاكي في كتابه " مناقب العارفين " إلى أن يكتب في سيرته و شرح حاله :

... أقام مولانا شمس الدين في مدينة حلب أربعة عشر شهراً في حجرة في إحدى المدارس و انشغل إلى الغاية بالرياضيات و المجاهدات حتى إنه لم يخرج من الحجرة ليوم واحد حتى جاء هاتف من جدار الحجرة يقول . و في النهاية ، إنّ لنفسك عليك حقاً . و نفسه كما صوّر ، لا تتحمل المجاهدة أكثر من هذا . فاضطر إلى أن يترك الانزواء و الاعتكاف متبسماً و يمضي إلى دمشق .

هذه هي الحياة العالية السماوية لعارف إيران الكبير شمس تبريز ، الذي يرعد اسمه قلب مولانا . و لأن صوته يصل من دمشق إلى أذن محبوبه و معشوقه مولانا، كانت الأصوات و الطوفانات كلها ، و قل الرعود أيضاً مصحوبة بأموج البحار تصمت و تخمد ووفقاً لما يقول مؤلف كتاب " خط سوم " (بالفارسية بمعنى " الخط الثالث ") الدكتور صاحب الزماني : " كلام شمس في عين الوضوح مهم و في عين الجذب و الخلافة شبيه بالسوط مكثف و مقتضب . وشمس محطم للأصنام و يبدو راضياً عن نفسه و معجباً بنفسه . وقد بلغ من معرفته لنفسه ، أنه حتى مدح مولانا المبالغة له لا يعدها كافية و مرة واحدة فقط في حياة شمس كلها عرفه معرفة كاملة إنسان واحد ، واحد صادق و سنيّ هو مولانا الرومي . و حتى هذه المرة الواحدة أيضاً ، لم يكن الناس قادرين على أن يبقوها من أجله . و إن صحبة سبعة و عشرين شهراً فقط مع هذا الرجل خلفت لشمس دائماً التشرّد و خطر الموت و القلق و الغضب " .

و يمكن أن يتبادر إلى ذهن القارئ هذا السؤال : ما الأشياء البارزة في شمس و كلامه فنقول : إنه كان في كلامه الصداقة و التأثيرات و الانفصالات العرفانية التي كان أكثر مفهوماتها قابلاً للإدراك و كان أحياناً يسرف في حمية الدرويش فيقول : إن وجودي هو

كيمياء لا تحتاج إلى أن تصب على النحاس ، فإنه أمامي و عندي كل شيء يتحول إلى ذهب و هكذا يكون كمال الكيمياء .

كان الحساد يرون في كلام شمس ضربًا من السحر و الشعوذة و المحال أما مولانا فلديه تعبير آخر في شأن أول لقاء له به .

ضحيج في الخانقاه

قال مولانا لأصحابه في الخانقاة: إن كثيراً من الأحبة و الأصدقاء يجدون في البحث عن أسباب عقلية لتحويل الروحي بعد لقاء شمس تبريز . و عليهم أن يعلمون أن الفكر المنطقية و العقلية لا تجيب عن كيفية تغير حالي ، بل إن أصحاب القلوب يدركون جيداً هذا التجديد الذي أصاب حياتي من جديد ، فقد ترك كلام شمس مباشرة تأثيراً يعز وصفه في روحي و قلبي . في تلك اللحظات الأولى و العظيمة للقاء ظهرت حالة مكتنفة بالأسرار ، حالة ذهبت إلى أن صاح المحراب ، كأن عالم الخلق و الكائنات وسط حدثها العجيب قد لخص كلام شمس النافذ الساحر ، كانت دقائق و أنات مقدسة . الرجل العظيم المتشرد التبريزي بحرارة حضوره و جاذبية نفسه حطّم قدرتي الفكرية و حرث في عظمته و كان تشرح ما قاله شمس في اللقاء الأول حاسماً ، حتى إن ضياء عرفانه أضاء قلبي . في عالم الوجود استقررت في بحر من الإحساس .

كانت حميته الدرويشية ، و استغناء طبعه ، و نفوذ كلامه ، قادرة على أن تحولني في أمد قصير من فقه معروف قدير إلى شخص مضطرب ثائر .

سمعت هممة في الخانقاة ، نهض أحد الأدعياء فقال : على جلال الدين أن يشرح لنا هذه الحالة على نحو صحيح و من دون إبهام ، فأجيب بأنها كانت حالة معينة و زماناً خاصاً ، و أقول بمزيد من الدقة : إنه من الصعب شرح تلك الحال و ذلك الزمان لكم شرحاً دقيقاً . و أقول مختصراً : إن هذا الشيخ الخفي بعث في قلبي فتوراً إزاء التدريس و الوعظ و العلم .

نهض شخص آخر و صاح :

- يا مولانا هل مثل هذا التعظيم و التكريم لشمس له نهاية ، الله سبحانه منتهى عظمة الوجود و الكائنات و الخلق ، و شمس ذرة من ذرات العالم من دون نهاية ؟ أمن ذرة حقيرة يكون إعراض عن منبع النور الواقعي و عن مجالس الدرس و الوعظ هذه بلاهة و عمي قلب .

نهض ثالث و قال و أعلن :

- هل اندماج عالم النور و التقوى بشمس فقط ؟ - أو أن مُرتاضًا ، أو ساحرًا ، أو مشعوذًا ، استطاع بسحر كلامه و أعماله أن يجعل مولانا تحت تأثيره الشيطاني ؟ إلى أين تذهبون ؟ - قولوا بوضوح تام و من دون تكلف ، أجدبتم أم سحرتهم ؟

علا ضجيج في الخانقاة كان يصل إلى الأسماع أصوات و اعتراضات و سباب ، و كان يُقال : إنَّ شمسًا متشرد و ساحر ، و يقول كلامًا متناقضًا ، شمس لا يستطيع أن يقاوم أصول الدين ، هاهنا قونية ، هاهنا مركز الرجال الأتقياء ...
بُهِت مولانا و كان ينظر إلى هذا المشهد بقليل من التفكير و كان يرتعد .
صاح أحدهم و قال :

- يا مولانا ، قل لماذا جاء شمس إلى هنا أساسًا ؟ ممن أتى برسالة ؟ - لماذا قابلتك بسرية و خفاء ؟ - ماذا كان مضمون رسالته ؟

لم يعد مولانا يرى السكوت جائزًا تقبض وجهه قليلًا ، كان صوته يرتجف من الانزعاج ، و قال :

- لم يكن قصد شمس من المجيء إلى قونية سوى لقائي ، و قد ذاكرني في شأن نفي الكثرة ، و الاستغراق في الوحدة و اتحاد العاقل و المعقول و الاتصال بالحق سبحانه من دون وسيط وهو يدعي أنه يجب أن ننحنوا تعظيمًا للحقيقة و أن تفهموا شيئًا من هذه الأمور ؟

- لا لا يجب أن نتحدث على نحو واضح و متدفق و سلس لا نتحدث بإبهام .

- واصل مولانا الكلام .. تقولون : لماذا وكيف وقعت تحت تأثير شمس ، تسألون عن انقلابي الروحي أثناء لقاء شمس ؟ أشرح لكم الأمر . تريدون أن أشرح لكم مسألة اللحظات الحساسة للقاء ، و لماذا نسيت ذاتيتي و تخليت عن كلية وجودي العلمي ؟ و كيف جلست كالطفل التلميذ في محضره ، و لماذا صرت متعلقًا بحلقات الرقص و السماع ؟ - لماذا رأته معيارًا لكل شيء ؟

أعترف بأنني عندما رأته شمسًا صار بحر روحي الهادئ كالطوفان ، نعم صرت منجذبًا إليه . كنا في تلك اللحظات الأولى من اللقاء من دون قصد منا ، نسير نحو اتحاد ملكوتي و مقدس . من الناحية الروحية ، امتزجتنا دخلنا في وادي مصير واحد . كان هو يرى انعكاس فكره ، و يسمع أصداء قلبه في قلبي ، خرجنا من نطاق إنسان واحد . خرجنا من الظلمات و اقتربنا من وجود مجرد من الظلمات . طرنا إلى أوج الحقائق . هل

بينكم إنسان بين كيف يكون الذهاب من المحدود إلى اللامحدود ؟ الحق أني أحسست في نفسي معنى شمس وروحه و حقيقته على نحو مفاجئ نعم أحسست كأن قلبي كان حاملاً بشمس .

سكت الموجود في الخانقاه و لم يتكلموا بشيء وواصل مولانا القول : الأوج ، سار بي إلى ناحية الكمال المطلق ، نحو معراج العشق . ليس في وسعي أن أوضح هذا التحول الفجائي أكثر من هذا ، سأبين فقط أحداثاً في حياة أشخاص واجهوا في لحظات حساسة من حياتهم تحولاً روحياً . لا بد أنكم جميعاً تعرفون أبا المجد ، محدود بن آدم سنائي ، شاعر إيران الكبير . سمعت أنه عندما أراد السلطان إبراهيم الغزنوي أن يغزو الهند مدحه سنائي و صمم على أن يذهب صباحاً قبل طلوع الشمس إلى حضرة السلطان و ينشده مدحته و إذا ذاك قال في نفسه إنه من الأفضل له أن يذهب قبل ذلك إلى الحمام و يرتدي أكثر ثيابه جِدَّة ، و هكذا فعل . و عندما مرّ بموقد الحمام سمع صوتاً ، انطلق إلى الصوت و نظر من الباب الصغير إلى الموقد فرأى رجلاً حمامياً اسمه " مجذوب " معروفاً عند الناس بلقب " ديوان لا يخور " (بالفارسية بمعنى " المجنون شارب الكأس حتى النهاية) جالساً وقد وضع أمامه الإبريق الذي كان فيه شيء من الدُرْد و ثُقَالَةِ الشراب و كيس فحم ، و في هذه الأثناء كان لا يخور يقول لموقد نار فرن الحمام الذي كان ساقيه : هات كأساً بسلامة السلطان الغزنوي الذي حتى الآن لم يدبر أمر الإسلام و المسلمين و لم ينظم أمورهم ، و يريد أن يذهب إلى الهند ليصلح حال كفار تلك البلاد . و بعد ذلك طلب كأساً أخرى و قال : ناولني بعيني سنائيك (الكاف لتصغير سنائي تحقيراً) شاعر المديح الذي لا يعلم و حتى الآن لم يتبين لماذا خلقه الله وهو دائماً يذهب وفته في نظم أشعار لا ينطوي محتواها على حقيقة . إن سألتموه الآن في هذه الدنيا : ماذا أدرخت ليوم القيامة مما يليق بجناب الحق تعالى ؟ - فماذا سيقول حتماً سيعرض قصائده .

هذا المشهد و هذا الكلام ، أثر في سنائي فما كان منه إلا أن عاد إلى بيته و صحا من خمار الغفلة و اتجه نحو العرفان و العشق حتى بلغ مرتبة صارت فيها أشعاره العرفانية كشراب الحقيقة ، محيية مفرحة و ملطفة و ساحرة .

أيها الأحبة كانت قدرة العشق السحرية قادرة على إبعاد سنائي و إياي عن الجاه و السلطان و التعليقات الظاهرية . و لعل بعضهم يقول : إن هذه هي قدرة الجنون التي تجعل الناس مجانين وأوافقهم على ذلك :

عندما رأى أبو يزيد الطريق بطلبه " المزيد " من شراب العرفان
سماه الحق تعالى : قطب العارفين .

و تحول الفضيل⁷ من قطع الطريق إلى شيخ طريق
عندما صار ملحوظ الملك في لحظة لطف

أما أية قوة وجاذبية تحوّل الأشخاص في لحظة واحدة و تغيرهم و تضعهم أمام
بؤرة النور ، فسؤال جوابه غير قابل لأن يُقال غير قابل للوصف يتلفع بغطاء سري
كتيم ، لكنه يمكن بيان أنه من بارقة ذلك النور يرشد الإنسان إلى عالم المعرفة ، و إنه
من ضياء هذا النور و قدرته كان إبراهيم الخليل (عليه الصلاة و السلام) يضع قدمه
في قلب نار التمرد و يذيب حضرة داود الحديد الملتهب بيده كالشمع .

أيها الناس اعلموا أنني أنا و شمسًا كنا قبل اللقاء مثل دائرة لها مركزان ، أما بعد
اللقاء فصرنا دائرة ليس لها أكثر من مركز . جعلني و قاره و مهابته و الانجذاب إليه ،
لأنني كنت عاجزًا من ناحية السير و السلوك محلاً للتأثر و التغير . القضاء و القدر
لديه الكثير من هذه الأمور أما أنا فقد بقيت مدة أنتظر في عالم الناسوت أن أرى من
ظواهر الملكوت إنسانًا يكون مثالاً للخضر أيضًا في السير و السلوك السير و السلوك
الروحي مثالاً لمكاشفات تظهر للإنسان العارف جاذبة للقلب مكتنفة بالإسرار و في
النهاية تسلم عنان الاختيار إلى يد القلب .

عظمة العشق الذي يوجد العرفان أنه ينتزع التّعينات و التعلقات الظاهرية من
قلب الإنسان ، فيتخلّى عن منصب التدريس و المحراب ، متحوّلًا إلى إنسان آخر . ولكن
يسأل : ما العشق ؟ العشق أساس الوجود و ظاهرة ليست جديدة و إنّ رونق العشق ،
و أعاجيب العشق عظيمة و خطيرة و أمام هذه الظاهرة لا أمتلك بيانًا لائقًا .
كان شمس التبريزي مادح العشق غير المنازع ، يقول إنّ العشق نتيجة لجذبة يثار
بها القلب و يهز .

العشق هو العنقاء التي لا اسم لها . و يقول العارفون : العشق وجود ، كشف و
شهود ، زمزمة و غناء للروح .

و قد كتب صاحب كتاب " التعرف لمذهب أهل التصوف " يقول : " العشق في ذاته
بلاء و في كل ساعة يزداد بلاؤه . و في الآخر يقتل صاحبه و قاتل المحبة أجلّ الشهداء
. أما أنا فأقول : " القلب يغدو العشق شأبًا و شجاعًا ، ولا يوجد في قلب العاشق إلا
الطهارة و التقوى و النقاء :

لِنَّ الْمَعْشُوقَ هُوَ الْكُلُّ، وَأَمَّا الْعَاشِقُ فَحِجَابٌ وَالْمَعْشُوقُ هُوَ الْحَيُّ، وَأَمَّا الْعَاشِقُ
فَمَمِيَّتٌ وَإِنَّ أَلَمَ عِشْقِكَ هُوَ الْحِبَالَةُ لِصَيْدٍ لُطْفِنَا وَتَحْتَ كُلِّ "يَارَبِّ" مِنْكَ الْكَثِيرُ مِنْ قَوْلِنَا
لَكَ: لَبَيْكَ وَقُدْرَتُنَا هِيَ حِبَالَةُ عِشْقِهِ وَهِيَ تَسْحَبُهُ مِنْ نَاصِيَتِهِ إِلَى دِيَارِ الْحَبِيبِ

7 الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي البريموي، أبو علي: شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء. كان ثقة في
الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي. ولد في سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها. ثم سكن مكة وتوفي
بها. من كلامه: « من عرف الناس استراح ». طبقات الصوفية 6 - 14

العشق يُضفي على الرشد و الكمال الروحي لطافة و طراوة ، و يجعل الفكر أكثر ظرفًا و إشراقًا.

كان إمامي و مرشدي يعتقد أنه يوجد في مدينة القلب مجنون اسمه العشق يبدو دائم الاستبداد ، و يحدث بسببه خلل كبير في مدينة القلب . نعم العشق يجعل الكائن الصغير في غاية العظمة و الضخامة ، و قد أوصل العشق شمسًا إلى هذا المقام . ردّ شمس تحية الملائكة برسالة أبدية من المطلق . و قد امتلأت هيجانًا و تأثرًا عندما سمعت كلامه كأنني وضعت داخل هالة نورانية . صرت مطلعًا على روح عظيم منزّه طاهر . كان كلامه يهز قلبي و كأنه أبصر تغيري فهمس : منشور العشق و ميثاقه ليس أحكامًا جزمية ، بل يضفي على الرؤى و العواطف هيجانًا و تأثرًا و يجلي عظمة الإنسان و الناس جميعًا سالكون لطريق العشق ، و السالك المؤمن المعتقد وديعة هذه الحياة القصيرة الأمد لا يملك إلا العشق ولا يعرف إلا العشق . العشق يُعطي للعاشق الحقيقي إجازة صعود لكي يصل إلى الكمال الحقيقي . العشق يقوي في السالكن الميل إلى عبادة الواحد .

obeikandi.com

بين ديوان شمس و المثنوي

أحد المحققين المدققين في شأن شمس الدين محمد ملك داد التبريزي : « نعلم أن حياة شمس بغلالة من الإبهام و أن علاقة مولانا بهذا الرجل الطاعن في السن إحدى أكثر الوقائع إثارة للعجب و انطواء على الأسرار ».

و لست أدري لماذا نعى هذا المحقق المحترم مثل هذا الانطباع عن صوفيين ، أو قلندين مع ما لديه من صفاء في الذهن و الأملية و ما رسمه بالكلمات علي صفحات الورق ، مع أنه لو نظر بعناية إلى لطيفة العشق الغيبية و توفر له الاطلاع الكافي على الكرامات و المعجزات التي يحققها العشق، و تأمل عرفانيًا أشعار مولانا و غزلياته و اندمج بالأمال القديمة لمولانا و تجاربه ، (لو حصل ذلك كله) لما ظلّ لغز اللقاء و العلاقة اللذين حصلا بين ذينك الصوفيين العظيمين اللذين كانا – باعتراف العلامة جلال الدين همائي – من أولياء الحق خفيا على باحث حقيقي و قد كان من كرامات شمس أن شيخ بلخ طوى بمساعدته المسافة من مقامات التبتل إلى مقام الفناء درجة درجة . و في النهاية يمكن القول إنه في شعاع آراء شمس و فكره يجئ قول مولانا جلال الدين :

أَنَا الْحَائِرُ مِنْ مُلَاقَاتِكَ

حَتَّى صِرْتُ كَخَيَالٍ مِنْ خَيَالَتِكَ

وَإِنَّ فَكْرِي وَتَصَوُّرِي مِنْ كَلَامِكَ

حَتَّى كَأَنَّ أَلْفَاظَكَ وَعِبَارَاتِكَ هِيَ أَنَا

و مع هذا التفاوت بين الرجلين لو لم يكن شمسًا موجودًا لما وجد الديوان الكبير و كتاب المثنوي ، اللذان هما أكبر الآثار الخالدة في الأدب الفارسي و أكثرها جدارة بالقراءة ، و أعظمها قيمة و قدرًا . و هذا جلال الدين في لحظات الوّله يصور وضعه النفسي في السير و السلوك بعشق و تحبب على هذا النحو :

أَفْرُكُ عَيْنِي مَتَسَائِلًا: أَهَذَا مَنَامٌ أَمْ خَيَالٌ؟! .

لَا أَصَدِّقُ، عَجَبًا أَيُّهَا الْحَيِّبُ

أَنَّ هَذَا أَنَا نَعَمَ هَذَا أَنَا وَلَكِنْ خَرَجْتُ مَنْ «أَلَانَا»

وَأَخَذَ جِسْمِي يَنْحَلُ حَتَّى صِرْتُ كَالِهَالِ،

مِنْ أَثَرِ بَدْرِكَ أَنْتَ نَفَخُ صُورَ الْقِيَامَةِ

وَأَنَا جَسَدَ مَيِّتٍ أَنْتَ رُوحَ الرَّبِّيعِ الْجَدِيدِ

وَأَنَا السُّرُورُ وَالسَّوْسَنَ قُلْتُ أَنَا نِصْفُ الْأَمْرِ فَقُلْ أَنْتَ الْبَاقِي مِنْهُ

أَنْتَ الْعَقْلُ الْمَحْضُ وَأَنَا غَيْبٌ جِدًّا

رَسَمْتُ أَنَا صُورَةَ، وَإِعْطَاءَ الرُّوحِ، وَأَنَا قَالِبُ الْجَسَدِ

و مع أن كتّاب التذاكر في عصر مولانا جلال الدين ، كالأفلاكي و سيمسالار ،

ذكروا أنه السفر الثاني لشمس إلى قونية و اختفائه بغتة انزعج جلال الدين و بكى و ناح و اضطرب حتى إن ابنه رسم بالكلمات و بمقاطع الشعر ملامح والده على هذا النحو :

وصل صوته و تحسره إلى العرش

و سمع أنيه الكبير و الصغير

انداح طوفان من الآلام و الغصص و الوّله في كلية وجود مولانا حتى اضطرب إلى أن ينشغل في جلسات السماع بإنشاد الغزليات ، أو ينهمك في حجرة مختلاه بالتضرع و الدعاء .

كأنما فراق شمس و هجرانه كان يضطره إلى أن يتعشق خياله و صورته المحفوظة في ذهنه و يكون فكره باحثا في الموجودات عن معشوقه أو – كما يذهب أحد الأقوال – كان شمس هو الذي يلقنه الشعر و يشوقه إلى مجالس السماع و يلهمه أشعارا لأنها كانت تخرج من سويداء قلبه كانت تبدو بديعة ندية مثيرة للعشق أو كما يقول الأستاذ الدكتور غلامحسين يوسفى : « . . . تصويره في الشعر نضر جميل بارع مثير للإعجاب ! » .

كان مولانا مثل فريد الدين العطار ، طلا و ندي من البحر لأنه عاص في بحر شمس و يذهب بعض الباحثين إلى أن السماع و الشعر و شمسًا جعلت مولانا ناسيا نفسه ، و جعلت وجوده و كلامه مثيرا و منشطا و مهيجا ، مثل أنين الناي . كان كانون (موقد) إلهامه نقاء العرفان و نداءه المتعالى . أما رينولد ألين نيكلسون – المترجم و المفسر الإنكليزي الشهير الذي ترجم مثنوي مولانا إلى اللغة الإنكليزية و شرحه – فيعتقد أن المثنوي و ديوان شمس يتدفقان من مجرمين متباعدين أحدهما نهر كبير و عظيم و هادئ و عميق و الآخر تيار كالسيل صاخب مجلجل و السؤال المعروف هو :

هل لقاء شمس و حال الجذب التي حصلت لمولانا بعد فراق سلطان المعشوقين هذا هما اللذان استلزما أن ينتقل مولانا إلى عالم النظم والإنشاد ؟ عن هذا السؤال يجيب المرحوم الأستاذ جلال الدين همائي على هذا النحو :

« كتب بعضهم يقول : إن مبدأ ظهور شاعرية مولانا كان عندما ظفر بلقاء شمس و قبل ذلك لم يكن ثمة أي ذكر لمرحلة شعر وشاعرية . و قد دل على ذلك أيضا ظاهر كلام « مثنوي » سلطان ولد ، حيث يقول :

صار الشيخ المفتي ، بسبب العشق شاعرا

صار ثملا مع أنه كان زاهدا

ليس من الخمرة التي هي ابنة العنب

فإن الروح النوري لا يحتسي إلا خمرة النور

أما تصديق أن مولانا ظل حتى سن التاسعة و الثلاثين خلوا من القدرة على إنتاج الشعر و أنه ابتداء من ذلك العمر أعملت شعرية لها كل هذه القوة و تمكن الطبع و الإحاطة بفنون البلاغة و أمارات الفصاحة فيبدو في الظاهر أمرا صعبا . مع أن

ظهور هذا النوع من خرق العادات هو بمدد توفيق الجذب الإلهي و تأثير كيمياء العشق المعجزة التي يستتر فيها خاصية قلب الماهيات و تسهل المشكلات و تجعل الممتنعات ممكنة ، ولا يمكن أيضًا إنكار أن العشق قد صنع من هذا الكثير و يظل يصنع . ولا يمكن وزن هذه الحقائق بميزان عقول الطائشين و ينبغي أن تسمع الكلمات بحقيقتها .

أما شيخ = بلخ الذي يقول في ديوانه بلا مبالاة :

لا تلم أيها الحبيب انظر إلى يوم القيامة

أنا موج ، كلي جيشان ولدي درر بحرك

هذا الصوفي المتيم الذي اقترن نجمة بنجم شمس = فيجيب سؤال الناس في شأن كيف تحول فقيه الروم الشرقية العالي القدر إلى شاعر منشد للغزل على هذا النحو :

كان المصحف في يدي دائمًا

أما في العشق فقد أمسكت بالصغانة

و في الفم الذي كان فيه التسبيح

شعر و دوبيت ورباعي

نعم العشق و الوله و الجذب و الهجران و التسليم و الفناء في العشق التي كانت قد امتزجت بالسماع جعلت من فقيه مشهور شاعرا منشدا للغزل و عاشقا محترفا .

و هذه المسألة – وفق قول مولانا – لا يدركها أي إنسان ، لأنه ليس في وسع غر أن يدركها حال من أنضجتهم التجارب ؛ فلا بد من إيجاز الكلام و السلام .

منظومات مولانا لا بد من أن تكون نتاج هيجان و إشتياق و جيشان العشق هو الذي هو ألقى شعلة في جسمه و روحه تمزج الكلام و الأصوات لكي يتحدث مع المحبوب من دون هذه الثلاثة . و عندما تكون هناك كالصنج يعزف الألحان المختلفة و يخاطب سلطان المعشوقين شمسًا على هذا النحو : أنت الخمرة و أنا الإبريق أنت الماء و أنا النهر

في أي مكان أنا ثمل و ساقى هو أنت ؟

أنت الأذن أنت العين و من الجميع المختار هو أنت

أنت يوسف المسروق فتعال إلى السوق

أنت ضياء النهار أنت السرور المبدد للغم

أنت القمر المنير لليل ، تعالی أيها السحاب الناثر للسكر

مولانا في أثناء إنشاده الغزل يكون كالقلم في يد شمس التبريزي و هذا العشق الصوفي كان ينبعث في نفسه مع الاستماع لكلام معشوقه . و لو لم تظهر مخطوطات كتاب « مقالات شمس » بمساعي المستشرق الألماني هلموت ريتز و الأستاذ عبد الباقي كلينبارلي، في الذخائر الخطية لمكتبات تركية اكبيرة لما علمنا من يكون شمس هذا ، حتى جعله جلال الدين البلخي ذريعة لامتحان طبعه الشعري . وهو « حقيقة يبعثر الفكر التي يعالجها ... و كلامه - كما يقول الأستاذ محمد على موحد (محقق المقالات) - مع كل ما ينطوي عليه من صور اضطراب و نقص ، يتلألاً كالألماس وسط « المقالات » و ابتغاء تقديم نموذج ، أنقل هنا جملاً قابلة للتأمل من كلامه :

« يقول كليم الله : « أرني » . و عندما علم أن ذلك خاص بأتباع محمد أخذ يطلب « اللهم اجعلني من أمة محمد » (عليه الصلاة و السلام) . كان يريد من « أرني » عين : « اجعلني من أمة محمد » . عندما رأى شعاع رجل اعتلي ذلك الجبل ، فصغر الجبل ، قال : ليس هذا من شأني ، بل : اجعلني من أمة محمد .

قالوا : الآن اذهب إلى حضرة الخضر لعدة أيام . الخضر أيضاً يقول : « اللهم ، اجعلني من أمة محمد » . هناك نور آخر يغير على موسى و الخضر . تنظر إلى عيسى فتراه في ذلك النور حيران تنتظر إلى موسى فتراه في ذلك النور حيران .

لمحمد نور طغى على الأنوار كلها . و في الآخر انظر ، هل تجد أن تلك الخلوة و ذلك الذكر من سنة محمد و متابعتة ؟ نعم كان لموسي إشارة « أربعين ليلة » .

ثم أين متابعة محمد حتى لا يقدر موسى على تحمل تمنها ، بل يقول : « اجعلني من أهدابرسرجه » .

عندما كان مولانا يسمع هذه الأمور التي يأتي ذكرها بطريقة عرفانية على لسان مراده كان يرفع الصوت و ينشد :

ما أجمل الشمس التي لا نهاية لها ، التي تتحدث عنها

أنت نور ذات الله لا أعلم

آلاف الأرواح اليعقوبية تظل تحترق من هذا الجمال

فلماذا أنت ، أي يوسف الجميلين في هذه البئر لا أعلم

و من شعاع العشق كان روح جلال الدين يغدو أكثر إشراقا و كان يتخلص من نفسه و يخاطب كانون إلهامه و إشراقه :

في كل لحظة يصل نداء العشق من اليسار و اليمين :

نحن نمضي إلى الفلك فمن لديه عزم على الفرجة و إمتاع النظر ؟

فقد كنا في الفلك كنا أصحابا و أصدقاء للملك

و من جديد نذهب جميعًا إلى عين المكان فتلك مدينتنا

نحن أسعي من الفلك و عندنا زيادة على الملك

فلماذا لا نتجاوز الأثنين ، إن منزلنا هو الكبرياء

الحظ الشاب حبيبنا و بذل المهج عملنا

و أمير ركبنا فخر الدنيا المصطفي

كان العشق عند فقيه الروم الشرقية كالمعراج إلى سقف سلطان الجمال فقد كان

الشيخ التبريزي على الحقيقة يمسك بيده و يأخذه إلى تلك الناحية

و في شأن « المقالات » التي صار جلال الدين بالاستماع إليها من لسان مراده مشتت

الذهن و متغيرا ، هناك أقوال كثيرة أرجئها إلى طبعتي الثانية للكتاب . و أختتم هذا

القسم بشيء مما كتبه الأستاذ محمد على موحد (محقق كتاب « مقالات شمس »

مقالات شمس من ناحية طلاوة الكلام في أولج الكمال و تعد من أجمل التحف

الخالدة في المثر الفارسي و أكرها خلاصة و سحرا أما من ناحية المعني فهي كثر فذ

و وثيقة موفقة و عزيزة جدا لرجل عظيم كان مولانا يسميه « مولي الأسرار » و « سلطان

المعاني » و كان يرى نفسه في مقام التسليم و الخضوع له كالحمل الوديع في يد الراعي .

و هذه الوثيقة حاملة لرسالة جعلت مولانا عارفاً من طراز خاص ، و هي . تحقيقاً
- مفتاح لفهم آثاره الشريفة وجوهر مع كل ما فيه من تكسر - يقدر بالآف الدنانير
الكاملة العيار .

فلنمض إلى غرضنا و لنحدث عن « ديوان شمس » الذي شغل لزمن طويل سالكي
طريق المعرفة في كل مشرب و مسلك خاصة طالبي اللطيفة الغيبية ، المسماة : العشق
الصرف . أولئك الذين ، مثل مولانا « سكرؤا من جام عشق شمس الدين » فهو ديوان
الجذب و الهيجان و الحال ، الذي كان يسكب الأنوار المرقصة لشمس العشق المشرقة
المتقدة على كلماته و مصاريعه .

و في أكثر غزليات « ديوان شمس » يطالعنا إما ملامح شيخ تبريز الرمزية و إما
أخبار صلاح الدين زركوب ، و إما محيا حسام الدين جلبي المحبوب . و هو - في رواية
- انعكاس لروح مولانا المضطرب و جسده المتعب من الهجر . و بناء على ذلك يمكن
قطعا القول : إن هادي جلال الدين في إنشاد الغزليات الصافية الباعثة على المحبة هو
روح العشاق الذي كان قد رسخ في روح مولانا المضطرب و كان قلبه المفعم بالعشق
تحت تصرف هذه الغزليات . الشعر في معجم مولانا ليس رقصا بالكلمات و ليس
أشباحا و خيالات بل هو تأثيرات إلهامية ، فيض خالد و ثابت للعشق العشق لكانون
الحقيقة لنور الأنوار العشق للجمال ، و أخيرا : العشق للإنسان الكامل .

و ليس شمس وحده على هذه الحال ، بل كثير من الأشخاص الذين بعد هجران
شمس لمولانا كان نور المعرفة يتلأأ في نواصمهم ، و كانوا قد نالوا من فيض رؤية الباطن
مقامات ، كانوا يطيطرون بروح مولانا الضامئ ، المعني المضطرب إلى شرفة العرش . و قد
انعكست هيجانات هذه الدقائق المؤثرة في ديوان شمس . المفهومات التي كان يحس بها
ولم يستطع أن يبوح بها للأخرين ، كانت تهمهم في السماع الخالق للروح .

و يقول أحد المتعمقين في درس مولانا :

« ديوان شمس كالبحر ، زاخر بالحركة موار بالحياة .»

« و تحت الظاهر لمعان و هدوء دنيوي مملوء بالخفقان و الحياة و الحركة .»

« ينطوي على كل ما هو مستحيل في الحياة ! »

و ابتغاء التمثيل و تقديم النموذج أخذ بيد القارئ القلب إلى مدار عشق شمس و
مولانا :

هذا هو ذلك النهر الذي يدير الفلك الأزرق

هذا هو ذلك الوجه الذي يحير القمر و الزهرة

هذا هو نوح الذي لوح المعرفة سفينته

و كل من لا يدخل إلى سفينته يغرقه بالطوفان

و كل من يرتدي خرقة منه ، يرفع خرقة الفلك

و كل من يظفر بلقمة منه ، يجعل له حكمة لقمان

و هذا الكلام ماء من بحر العشق الذي لا ضفاف له

و مادام يعطي العالم ماء يظل يجعل للأجسام أرواحا

و إذا تقدمت في طريق العاشقين بالفقر و الصدق

جعلك شمس التبريزي بالفقر و الصدق

جعلك شمس التبريزي مصاحبا للرجال

و قد حدث لأول مرة أن زين ديوان شمس في الهند بحلية الطبع . و المؤسف أن هذا
الديوان المشتمل على خمسين ألف بيت متداخل مع أشعار شعراء آخرين ، و من ذلك
أن مئتي غزلية منه لشاعر اسمه شمس المشرقي . لكن اثنين من الأساتذة المشهورين
و المدققين في درس مولانا القليلي النظير في بلادنا أي المرحومين بديع الزمان فروزانفر
و جلال الدين همائي ، نشرا دائرة معارف العشق هذه بعد مقابلة أكثر مخطوطات
الديوان الكبير ثقة و ضبطا ، و قدم كل منهما لطبعته بمقدمة مسهبة و خليقة
بالقراءة و قد جددت طباعة نشرتهما مرات حتى الآن بسبب نفاذ النسخ التي تطبع
في كل مرة و عدة أبيات منظومات مولانا الغزلية بالفارسية و العربية و الملمعات عدا
الرباعيات ٣٦٣٦٠ بيت أما رباعيات مولانا فقد نشرت بعناية المدقق المشهور في درس
مولانا المرحوم الأستاذ ألفت .

المثنوي دائرة معارف التصوف والعرفان:

المثنوي أكثر تجليات الذوق العرفاني لجلال الدين الرومي جدارة بالقراءة و امتلاء بالهيجان وقدرة على التعليم . ويبدأ الكتاب الأول منه برواية باعثة على الاعتبار لشكوي النأي من الفراق حتى نهاية الكتاب السادس ، إذ يتناول قصصا متنوعة و جديرة بالقراءة متداخلة مبنية على أساس اللطيفة الغيبية المسماة العشق الذي هو طيب لجملة علل الإنسان و دواءه للغرور و الكبر .

و عند كثير من المدققين في درس مولانا الأساس و المحور لمدرسة مولانا أسلوبا و مقصودًا هو ركيزة العشق الذي يعطي لسالكي الطريق المولودي الهيجان و الدوران و النماء و النشاط و الضياء . فيعد أن عاد جلال الدين من دمشق ، إذ شاهد شخصية شمس في نفسه ، انشغل بالسماع و الرقص إلى جانب مغني المدينة ، و لم يستغل بالمطالعة و نشر المعارف إلا في ساعات الراحة . ولهذا السبب لم يتمكن من مساعدة الطالبين و إرشادهم . و من هذه الوجهة كان يريد أن يحول أداء هذه الوظيفة إلى واحد من حبيه الذين يعتمد عليهم و أهل الورع و التقوى ، فوقع الاختيار على صلاح الدين فريدون زركوب ، الذي كان رجلا عاديا و أميا . و قد كتب الأستاذ الدكتور عبد الحسين زرين كوب في هذا الشأن قوله :

« كان صلاح الدين من مريدي سيد برهان الدين محقق و محبيه . و يقول الأفلاكي إن سيد برهان عندما كان قد قال : « أسلمت » قالي « إلى مولانا جلال الدين و « حالي » إلى الشيخ صلاح الدين ... جعل مولانا صلاح الدين خليفته . و قد جاءت هذه القضية على المريدين ، الذين كانوا يرون أن زركوب ساذج و بسيط و عامي ، ثقيلة قاسية » .

و كان كثيرون من محبي مولانا ، و حتى من أخلاصه ، يرون أن زركوب غير مؤهل لإرشاد السالكين . و قد ذكر سلطان ولد ، ابن مولانا في كتابه « ولد نامه » قوله : « كان عاميا خالصا ، و ساذجا و جاهلا ، و الحسن و السيئ عنده سيان . كان لدى مولانا إيمان راسخ بصلاح الدين و قد حدث أنه كلما ازدادا احترام مولانا إياه و إكرامه ، ازدادت عداوة الناس له . و في إجابة مولانا عن السؤال أصحابه ، الذين كانوا يقولون : « إن زركوب رجل أمي » كان يقول اقتبسنا من أقوال العارفين السابقين : « العلم هو الحجاب الأكبر » و أنشد مولانا في المثنوي :

لا يكتب أحد على ورقة مكتوبة ، البتة

ولا يغرس أحد فسيلة في موضع مغروس

فالكاتب يبحث عن ورقة غير مكتوبة

و الغارس يضع البذرة في موضع لم يبذر فيه

فكن ، أيها الأخ موضعاً لم يغرس فيه أحد

كن ورقة بيضاء لم يكتب عليها أحد شيئاً

في وقت من الأوقات زادت علاقة مولانا بصلاح الدين عن الحد ، حتى إنه في سوق الصاغة في الروم الشرقية استبد به حال فاخذ يدور أمام دكان صلاح الدين ،

فخرج صلاح الدين من دكانه صائحاً ، ثم على وقع مطارق صناعة انشغل مولانا بالسماع . و قد امتد هيجان مولانا قائلاً : ليس لدي طاقة مولانا ، ذلك أنني ضعفت من تأثير الرياضيات و المجاهدات ...

و بعد شمس كان مولانا مولعاً بصلاح الدين ، الذي أنشد باسمه واحدة و سبعين غزلية و أمر ابنه سلطان ولد بأن يتزوج من كريمة الشيخ صلاح الدين « فاطمة خاتون » و قد حصل هذا الزواج عام ٦٤٧هـ و لمدة عشرة أعوام ، ظل صلاح الدين هو الذي يتولى أمر إرشاد المريدين و أعمال الشيخ إلى أن توفاه الله عام ٦٥٧هـ و أوصى قبيل وفاته بأن لا يعمل عزاء في مراسم تشييع جنازته و أن يوارى الثرى على صوت السماع . و يذكر كتاب التذاكر المعاصرون لمولانا في هذا الشأن قولهم .

« ... قدم مولانا ، فكشف عن رأس صلاح الدين و أخذ ينعر (يصبح بخيشومه) و يتأوه و أمر بأن يبشر قارعو الطبول ، و قامت القيامة من نفير الناس و كان يتقدم الجنازة ثماني مجموعات من القوالين (المغنين) و حمل جنازة الشيخ الأصحاب الكرام و ظل مولانا يمشي حتى ضريح والده بهاء ولد وهو يدور حول نفسه و ينشد . و دفن في جوار سلطان العلماء (والد مولانا) في عام ٦٥٧ من الهجرة و أنشد مولانا في رثائه شعراء بيته الأولا قوله :

يا من هجرانك بكت الأرض و السماء

و جلس القلب وسط الدم و بكى العقل و الوح

و يقال إن مولانا وجد في جوار صلاح الدين هدهد الذي إبان فراق شمس أحاط بأساس روحه و جسده و يبدو الأمر كما يقول الأستاذ بديع الزمان فروزانفر : « تلك النار التي اشتعلت في روح مولانا بافتقاد صحبة شمس واضطربت ، انطفأت بماء لطف صلاح الدين و تسكاب فيضه » .

ثم بعد وفاة صلاح الدين بعدة سنوات ، كان لشاب ممتلئ بالهيجان و الحال و مطلع وورع – كان هذا الشاب من أبناء الأخيين أو فتيان قونية و اسمه حسام الدين حسن جلبي و كانت أسرته قد جاءت من أرمية إلى الروم الشرقية – أن يصبح خليفة لصلاح الدين زركوب بموافقة مولانا و أصحابه و المعروف أنه باقتراحه هو ورغبته ، نظم مولانا كتابه « المثنوي » . و لهذا السبب سمي مولانا حسام الدين في مقدمة المثنوي : « مفتاح خزائن العرش و أمين كنوز الفرش ، و أبا يزيد الوقت ، و جنيد الزمان » و من جهة أخرى كانوا في قونية يسمون هذا الشاب « أخي ترك » لأن آباءه و أجداده كانوا من الكبراء و المشايخ في طريقة « الفتوة » . و كان الفتيان يسمون شيخهم « أخي » .

و قد بلغ من محبة مولانا لحسام الدين ، الذي صار هو و مريدوه من جملة أصحاب مولانا و إخلاصه ، أن صار ذهنه – كما يقول الأستاذ فروزانفر – « لا يفتح عندما لا يكون جلبي موجودا و في المجلس الذي يغيب عنه جلبي كان الفتور يلم بمولانا ولا يتحدث في المعرفة »

في يوم من الأيام إذا كان حسام الدين جالسًا في محضر مراده مولانا ، خاطب مولانا قائلاً :

« كثيرًا ما انشغل أصحابنا في المجالس بقراءة أشعار سنائي و العطار » و لدي رغبة في أن يعمل حضرة مولانا – على طريقة كتاب « إلهي نامه لسنائي الغزنوي وهو المعروف ب « حديقة الحقيقة » أو كتاب « منطق الطير » لفريد الدين العطار – على نظم المطالب العرفانية شعرا .

فابتسم مولانا و أخرج من عمامته حالا ورقة تنطوي على الثمانية عشر بيتا الأولى من المثنوي و أسلمها إلى حسام لكي يقرأها و يبدو الأمر كما يقول الأستاذ زرين كوب) . . . و بعد ذلك واصل مولانا نظم المثنوي بتأثير قوة الجذب حسام الدين و كل ما كان مولانا يقوله كان حسام الدين يكتبه .

و في مقابل كتاب « حديقة الحقيقة » لسنائي الذي كان اسمه « إلهي نامه » سمي مولانا كتابه المثنوي : « حسامي نامه » (بالفارسية بمعنى « الكتاب الحسامي » أو « كتاب حسام ») و في الليالي كان حسام الدين يجلس في حجرة مولانا : يكتب و يقرأ بصوته الجميل ما كان مولانا يتلوه من نظم المثنوي و في بعض الليالي ، كان هذا البرنامج يستمر حتى الصباح و كما هيجان مولانا و توفزه قد بدأ من جديد إذ لم يكن يقر له قرار ، ل نهارا ولا ليلا . ويعتقد الأستاذ الدكتور محمد شفيعي كدكني أن « المثنوي » أشهر مثنوي في اللغة الفارسية إذ جعل مطلق عنوان « مثنوي » خاصا به . لأنه أثر عظيم يذكر إلى جانب الكتب المقدسة . وهو أيضاً من جهة البداية و النهاية و أملاك نظم خاص خارج عن كل أنظمة التصنيف و التأليف و كذا من جهة عرض المطالب و طريقة التمثيل ، ينطوي على شبه بالكتب المقدسة .

و إذا ما شئنا تقسيم منظومات جلال الدين البلخي على مدرستين : العقل و العشق أو القال و الحال ، فإننا نستطيع أن نسمي « المثنوي » كتاب القال المستطاب ، و « ديوان شمس » كتاب الحال و العشق و الهيام . و يقول الأستاذ جلال الدين همائي :

إن آخر كتاب لمدرسة العشق هو ديوان غزليات شمس ، وهو هنا لا يريد إلا العشق و الاضطراب و الجنون و الوجد و الحال و الهيجان و الضجيج و قد أحرقت حرارة شمس تجلي شمس دفعة واحدة كلية وجود مولانا ، بكل ما انطوى عليه من ادعاء العلم و العرفان و كرامة الشيخية و القطبية و الإمامة .

و إذا ما حذفنا من المثنوي الحكايات الجذابة الخليفة بالقراءة التي سمع أغلبها من شمس التبريزي ووردت في كتابه « المقالات » فإن صرح المثنوي سيكون من دون أعمدة .

و في الأصل ، المثنوي في الأدب و الثقافة الفارسيين يقال شعرا ، إذ لكل من مصراعي البيت الواحد عين القافية و يكون مجموع الأبيات متحدا من جهة الوزن .

و لناظمي المثنوي في إيران سابقة طويلة ، فإنه منذ زمان رودكي و أبو شكور البلخي كان المثنوي يستعمل في نظم حكايات الحرب و القتال و حفلات الأناج و الشراب و في التعاليم الأخلاقية و العرفانية . و قد نظمت « شاهنامه » الحكيم أبي القاسم الفردوسي و بستان سعدي الشيرازي و حديقة الحقيقة أو إلهي نامه لسنائي الغزنوي و « الخمسة المشهورة مخزن الأسرار و خسرو و شيرين و ليلى و المجنون و العرائس السبع (هفت بيكر بالفارسية) و إسكندر نامه » للنظامي الكنجوي على طريقة المثنوي .

و قد أنفق نيكلسون - المستشرق و العالم العامل الإنكليزي الأصل - ثلاثين من أعوام عمره البالغة سبعة و سبعين في تصحيح كتاب المثنوي و شرحه و التعريف به .

و تولى تقديم أكبر خدمة في تعريف جلال الدين و فكره للناس . و يعتقد أن عدد أبيات الكتب الستة المؤلفة لمثنوي مولانا ، وفقا للروايات و كذا وفقا للنسخ المخطوطة و المطبوعة الموجودة مختلف متاين و قد ذكر صاحب « كشف الظنون » أن مجموع أبيات المثنوي هو ٤٨٠٠٠ بيت و في طبعة نيكلسون بلغ ذلك ٢٥٦٣٢ بيت و جاء عدد الأبيات في الكتب الستة للمثنوي على هذا النحو :

الكتاب الأول ٤٠٠٣ بيت

الكتاب الثاني ٣٨١٠ بيت

الكتاب الثالث ٤٨١٠ بيت

لكتاب الرابع ٣٨٥٥ بيت

الكتاب الخامس ٤٢٣٨ بيت

الكتاب السادس ٤٩١٦ بيت

و قد نشر المثنوي في إيران مرارا مستقلا غالبا أو مصحوبا بتفسير و شرح و أحيانا مع كشف الأبيات . و المثنوي منظوم على بحر الرمل المسدس و قد بدأ جلال الدين نظمه عام ٦٥٧ هـ و ظل منهمكا في إكماله حتى آخر عمره .

و يعتقد بعض المدققين في درس مولانا و الباحثين الكبار ، أن هدف مولانا من نظم المثنوي هو بيان دقائق التصوف و تفسير آيات القرآن الكريم و الأحاديث النبوية .

و كذلك كان مولانا في تحريره الأجزاء الستة ناظرا إلى « مقالات شمس » .

جاء في كتاب « نفحات الأنس » لعبد الرحمن جامي : أنه عندما انتهى نظم الكتاب الأول من المثنوي توفيت زوجة حسام الدين جلبي و ظل حسام الدين لمدة سنتين مشتت الخاطر . و نتيجة لذلك تأثر مولانا أيضا و أدراكه الملل و تأخر نظم المثنوي طول هذه المدة حتى حدث في آخر الأمر أن طلب حسام الدين إلى مولانا أن يقدم على إكمال المثنوي ، فشرع في نظم الجزء الثاني عام ٦٦٢ هـ و كان يوم البدء

يوم استفتاح « منتصف رجب »

لأن المثنوي كان صيقلا للأرواح

كانت عودته يوم استفتاح

و كان مطلع تاريخ هذه التجارة و ذلك الربح

في العام الهجري ست مائة و اثنين و ستين

و يذهب الأستاذ فروزانفر إلى مصاحبة حسام الدين جلبي و مولانا امتدت

خمسة عشر عاما . و كان من تأثير هذه المصاحبة أن التعالم و الفكر و العقائد الصوفية الممتزجة بفكر جلال الدين البلخي المتعالم و عقائده ، بنيت بطريق التمثيل على خير وجه و بمطالعة المثنوي و تأمله ، يمكن الوصول إلى هذا الاستنتاج أن تصوف مولانا متبلور و متكامل ، و ربما يكون قلة العرفان و التصوف الإيراني بعد الإسلام .

و الأفلاكي في كتابه « مناقب العارفين » و في شأن المثنوي نقل عن مولانا أنه قال :

« مثنوينا معشوق معنوي لا نظير له في الجمال و الكمال و كذلك هو بستان مهياً و شجرة مهناة صنعا من أجل مستنيري القلوب و أصحاب النظر و العشاق المحترفي الأكباد ، فما أجمل ذلك الروح الذي يكون محفوظا بمشاهدة هذا الشاهد الغيبي و يغدو ملحوظا بنظر عناية رجال الله ، لكي يكتب في دفتر « نعم العبد إنه أواب » .

و قد كتب الأستاذ الدكتور ذبيح الله صفا في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ أدبيات در إيران » في شأن المثنوي ، ما يأتي :

« بتحريض حسام الدين و تشويقه و بالسعي المتواصل لمولانا في عدد من السنين في آخر عمره ظهر إلى الوجود واحد من الآثار البارزة للفكر البشري هو في الوقت نفسه من أحب هذه الآثار إلى القلب و ألفتها . كذلك عرف في زمان الشاعر بأنه أجمل المنظومات العرفانية و الحكمية و أكملها و صار منذ ذلك الوقت أنيسا للعارفين و جليسا للأنقياء الورعين » .

و قد بين مولانا في المثنوي جيدا نظرياته الرائعة في شأن السير التحولي لعالم الموجد و الفكر المتعلقة بالأضداد إذ الحياة صراع بين الأضداد و وحدة الوجود .

و أختتم هذا البحث بقول العارف و المحقق المشهور صدر الدين القونوي ، الذي هو من محبي مولانا و المتعلقين به .

« لو كان أبو يزيد و الجنيد حيين في ذلك العهد لحملا غاشية سرجة بكمال الذوق و الحب و لوضعا المنة على نفسيهما . فقد كان مضيف مائدة الفقر المحمدي و نحن نتذوق بفضل طفلية . »

حدثت وفاة مولانا في الخامس من جمادي الآخر عام ٦٧٢ هـ .

رؤية مولانا للعالم :

المثنوي واحد من أنفس الخائر الأدبية في إيران و أثر قليل النظير وهو أسمي كتاب و أجدر كتاب بالقراءة ، عند المتشوقين إلى العرفان و السالكين لوادي الطريقة فإن المادة الفكرية فيه أغني من نظيراتها في الآثار الأخرى لشعراء التصوف و هي توجد في القارئ حالاً من الاهتياج و التأثر و الوجد و الشوق . و إن أحد الروافد الأصلية لفكر جلال الدين البلخي ، القابلة للفهم و الإدراك الهجران . و في هذا الأثر خصص شاعر بلخ كانون إشراقه و إلهامه العجيب للعشق . و في نطاق فكر الوجود و الجبر و الاختيار ، سطر على صفحات الورق نتاج نبوغه الصوفي و في أسمي صورة على نحو هياً لبعضهم أن يقول : إن آثار مولانا غدت منبع إلهام كثير من الشعراء و المؤلفين على امتداد قرون بعد وفاته .

و في المثنوي يعتقد مولانا أن الصوفي المؤمن و السالك المخلص المعتقد ، لا يثب وجود الله بالعقل ، بل يحس بذلك على نحو ملموس بالقلب ، فالحكمة الصوفية حكمة ذوقية .

ولا ينبغي نسيان أن جلال الدين البلخي متألم وقد جعله ألم الهجران قليل الصب و كان يقول : إن الإنسان له مبدأ و أصل و إنه كالناي الذي أبعد عن أصله « القصباء » زمتا طويلا ، إذ أبعد و فصل عن عالمه الروحي ، و الأمل النهائي للإنسان هو أن يرجع إلى أصله . و من هذه الوجهة يرفع صوته و ينشد :

كل من يبقي بعيدا عن أصله

يبحث من جديد عن زمان وصله

و السؤال هو : الأمل النهائي المقدس و اللذيذ أي نشدان الوصل الذي لا يعني إلا طلب الأصل ، كيف ، و من أي طريق ، يغدو ممكنا و ميسرا ؟ .

أرى من المناسب هنا ، قبل أن أوضح طريق الرجوع إلى الأصل من قول مولانا أن أذكر في مجال الوصل و الواصل في آراء المشايخ و العارفين بعض النقاط :

« الواصل » في عقيدة كبار الصوفية شخص تحرر من نفسه واتصل بالحق . و بناء على ذلك الوصل هو نهاية السير إلى الله إذا أنهى السالك مراحل السلوك و تطهر من الصفات البشرية . و يقول بعضهم : الوصل أن يفني العبد عن أوصافه و يبقي بأوصاف الحق .

و طريق الوصول إلى ذلك أي إلى الحقيقة ، هو التمسك بالشرعية و العبور من الطريقة ، إذ يحصل شاهد الوصل . و مولانا في كل موضع من كتب المثنوي و بمساعدة العروة الوثقى للدين و الشريعة ، يبين تجلياته العرفانية في صورة محببة و عشقية . و في كتب المثنوي الستة كلها ، نرى رؤيته الخاصة للعالم ، لكن نراها مصحوبة بتجلاته الفكرية في فضاء الموجودات ولا محدودية الوجود و عندما يريد أن يبين العشق يتخذ سبيل أن يظهر متلففا باللطافة . يقول :

هناك في عالم الغيب عود ، هذا العشق دخان منه

وجود واحد لا لون له ، يأتي منه كل وجود

المطالب الأساسية في المثنوي التي تؤلف أساس فكره ورؤيته للعالم ، ذات تنوع عجيب و معرفة عن هيجاناته العاطفية و انفعالاته العشقية التي تتجلي على نحو واضح في غزلياته و منظوماته الغنائية .

و لمولانا في موضوع « الزمان و المكان » نظرية جميلة و ابتكارية ، لا نراها في آثار سنائي و العطار .

و قد كتب الدكتور خليفة عبد الحكيم في مقاله تحقيقية له تحت عنوان : « مولانا جلال الدين الرومي » قوله :

« يقول مولانا إنه في ساحة لا مكان نور الله لا يمكن تقسيم الزمان على ماضي و حاضر و مستقبل فالماضي و المستقبل متعلقان بالنفس الجزئية

و مفهوم الزمان في عقيدة مولانا مرتبط بالمكان ، و هي عين الفكرة التي نمت في
عصرنا من وجهة علمية ورياضية عند أنشأتين ... ففي فضاء لا مكان نور الله لا يمكن
تقسيم الزمان على ماض و حاضر و مستقبل :

اللامكان الذي فيه نور الله

من أين له الماضي و المستقبل و الحال ؟

و إن ماضيه و مستقبله يكونان نسبة إليك

و كلاهما شيء واحد ، و تظنهما أنت اثنين

و مولانا المنشد لمديح الجمال و الكمال ، لا علاقة تربطه بالغم و الحزن غير علاقة
ألم الفراق و ليس قرينا للألم ، كالشيخ فريد الدين العطار بل يقول :

هات تلك الكأس الطيبة الأنفاس

التي تقطع عنق الغم

أما الأستاذ الدكتور محمد رضا شفيعي كدكني ، الذي أدركته الحيرة من المعاني
الواسعة التي لا ضفاف لها للوجود في آثار مولانا ، فقد كتب قوله :

« يمتد فضاء تخيل مولانا و آفاق رؤيته إلى حيث الأزل و الأبد و يبدع تصويرا في
سعة الوجود و بعض تصاويره الشعرية متاز و يعرف بالناظم . »

نعم أشعار مولانا في المثنوي شبيهة ببحر خافية ضفافه ، إذ تجعل القارئ العارف
مجدوبا و مسحورا بأمواجها الصاخبة ، و هذا أيضاً من الكرامات الإلهامية للشاعر . و
في المثنوي ، الذي هو دكان الوحدة ، كل ما يشاهد خلا الله الواحد ليس إلا صنما . كان
مولانا يتخطى ميدان الوجود و يدرك أن كل صور التناقضات و التناقضات لها وظيفة و
عمل في تناغم الكل الذي لا يستطيع فهمه إلا العارفون .

و في شأن الإنسان الكامل ، أبرز مولانا نظرية خاصة في المثنوي . و عنده أن المعرفة
الكاملة للحق تعالى في الدنيا ممكنة و ميسرة . و يظهر تمودجها ، أي نموذج المعرفة
الكاملة للحق تعالى ، في الإنسان الكامل الذي كان مولانا ينشد كشفه و تعريفه . و في
الكتاب الأول من المثنوي ، قرأنا في شأن هذه المقولة :

إذا كان الله لا يظهر عيانا

فإن هؤلاء الأنبياء هم نواب الحق

لا قلت خطأ فإنك إذا ظننت

أن المنيب و النائب اثنان ، كان ذلك ظنا قبيحا ، لا حسنا

فلن يظهر لك اثنين إلا إذا كنت من عباد الصورة

فهما واحد أمام من تحرر من الصورة

إن اتحاد الحبيب بالأحباء جميل

فتمسك بقدم المعني لأن الصورة عنيدة

واصبر تلك الصورة العنيدة واجتهد (في ذلك)

لكي ترى الوجدانية تحتها كالكنز

و من جهة أخرى ، يقول كثير من المحققين الإيرانيين و الباحثين الأجانب : إن فكر الرومي ، و تصوف الرومي ، لم يكن جافا و نظريا ، بل هو تجريبي عملي و له انشغال بالقلب أكثر منه بالعقل .

و يقول جلال الدين البلخي : إنه لا يوجد تعارض بين العشق الكلي و العقل الكلي و العشق الكلي أكثر سعة من كل الأديان و المذاهب و الفلسفات .

و يعتقد مولانا أن حياة الإنسان كيميائية في حال من التغير و التحول الدائم ، و إذا ما نظرنا إلى الطبيعة بدقة شاهدنا أن الماء و الهواء و الضياء تتحول إلى الحياة النباتية .

و الحياة النباتية تتحول إلى الحياة الحيوانية ، و هذه أيضًا تغدو فكريا متعاليا . فلماذا لا يمكن الفكر أن يتحول إلى روح إلهي ؟

فإذا كنت تريد أن تشرق مثل النهار

فأحرق كيائك (المظلم) الشبيه بالليل

و اصهر وجودك في وجود راعي الوجود

كما ينصهر النحاس في الإكسیر

جلال الدين البلخي ، الذي يتحدث في كل موضع من أجزاء الثنوي عن العروة الوثقى للدين و الشريعة تفصيلا ، يعتقد أن التجلي الإلهي جريان أبدي و لم يوجد أبدا زمان عار من المعرفة الإلهية . ولا يوجد في مملكة الطبيعة و الحقيقة شيء اسمه «شر»

و من هنا ، ليس في الدنيا شر مطلق

بل يكون الشر نسبيا ، فاعلم هذا أيضاً

ولا يوجد أبدا في وقت واحد سم و سكر

لا يكونان قدما (قوة) لأحد و قيدا لآخر

فما يكون قدما لأحد يكون قيدا لآخر

يكون سما لأحد و لآخر كالسكر

فسم الحية يكون حياة لتلك الحية

و يكون نسبة إلى الإنسان موتا

و معظم القراء المدققين و المشتاقين يجدون في أشعار أجزاء المثنوي الصافية نقاطا جميلة و دقائق عرفانية باعثة على الاعتبار مصحوبة بحكايات جديرة بالقراءة و خرافات قديمة و ذات طابع ديني . و كل ذلك جاء ببيان سلس و جذاب ، و أحيانا بسخریات و ابتسامات صفراء مثيرة و يعتقد بعض شراح كتاب المثنوي الجميلة أنه في كثير من أشعار مولانا يمكن البحث عن فكرة و أشواقه و هيجاناته و أحواله و إلهاماته . و في هذا المعنى يقول الأستاذ كدكني : « إن أقاليم فكرة في سعة الوجود » مباحث تشير إلى معارف عميقة في موضوعات علم النفس ، و علم الاجتماع و المحيط الاجتماعي و الثقافة المتعالة الإنسانية و الدينية ، مما لا يمكن مشاهدته إلا قليل من الكتب و الرسائل في السنين التي سبقت حياته .

المثنوي رائعة عظيمة القدر قليلة النظير . ولا يمكن الظفر بكل هذه المعلومات و المعارف التي ينطوي عليها في كل مجموعة شعرية . المثنوي عند أكثر أصحاب النظر و أغلب المشايخ عمل عظيم قيم قليل النظير ، إذ بين فيه مولانا في القرن السابع الهجري عقائده و نظرياته و آراءه من دون اهتمام بمخالفة أهل الظاهر المتعصبين و آرائهم .

جلال الدين البلخي مخالف للإفراط و التفريط و يجد القارئ النبيه ذو القريحة الصافية ، أحيانا أن يشرح الميول الجسدية للناس من ذوي الطبائع المختلفة ببراعة و أستاذية . و في بعض المباحث يتجاوز جلال الدين البلخي مستوي المحسوسات و المظاهر . و في فضاء المعقولات و ما وراء الطبيعة يتقدم بالقارئ الفيلسوف و العارف من المعقولات الدنيا و دهاليز العقل الجزئي إلى عالم ما وراء الطبيعة حيث العظمة و الجلال كأنه يتعامل مع الكشف و الشهود و الإشراق. و يخال بعض المحيطين خبرا بمولانا أن أجزاء المثنوي الستة هي إيضاح و بيان للأبيات الثمانية عشر الأولى الذي يبدأ بهذا البيت المحبب :

استمع للنائي كيف يقص حكايته إنه يشكو آلام الفراق

فكرة عشق العودة إلى المكان الذي جاء منه الإنسان في غير المثنوي جاءت مرارا في الديوان الكبير أيضًا . و يسمي مولانا وطنه الأطلي « بستان الملكوت » و يقول :

أنا طائر بستان الملكوت ، لست من عالم التراب

و قد صنع قفص من بدني لعدة أيام

و في المقدمة التي كتبها الدكتور موحد لكتاب « مقالات شمس تبريزي » أبدي في شأن المثنوي اعتقادا خاصا :

« مثنوي على الحقيقة رواية منظومة و مشروحة لكلمات الشيخ التبريزي » و « شرح رمزي لإنعامه » امتزج بالتجارب الروحية لمولانا نفسه ، و استمد من اطلاعاته الواسعة و التصرفات السحرية لذهنه الوقاد « و ليس مصادفة أن نجد كل فكر « المقالات » في تشريح الدقائق العرفانية ، و أن نجد كثيرا من القصص ، بل كثيرا من عباراتها في المثنوي ».

من قصص المثنوي

السلطان والجارية (الحسنة):

يروى في قديم الزمان سلطانا خرج إلى البادية للصيد، فوقع بصره على جارية حسنة، فملأت قلبه بحبها حتى عشقها - خرج السلطان للاصطياد الا أن تلك الجارية الشابة اصطادت قلبه و لبه - وربما ان السلطان كان يتمتع بثروة و مكانة عظيمتين، فقد بذل الكثير من الذهب و الفضة لبلوغ مراده هذا، فاشترى تلك الجارية الشابة و جلبها إلى قصره، و لم يمض وقت طويل حتى مرضت الجارية، و بدت عليها آثار الضعف و الاصفرار، بدرجة انعكست على السلطان فضعف و نحل لحزنه و غمه عليها.

فجاء بالعديد من الأطباء المهرة الذين يعرفهم لغرض علاجها، الا ان محاولاتهم لم تسفر عن أي نتيجة تذكر - نعم عليك أن لا تغفل حينما تفرق في النعم و اعلم أنها ستزول في يوم ما، لأن كل حال يتبدل ولا تستبعد ان يحل سقمك محل صحتك - و بعد أن يأس السلطان من علاج الأطباء و تأكد من عدم جدوى مساعيمهم، توجه بسرعة إلى محراب العبادة، و شرع بالإقرار بما يكتنه في ذاته امام الله تعالى، فذرف دموعا كثيرة و تضرع إلى الله تعالى بالدعاء من أجل شفاء الجارية، فغلبه النوم و هو على هذا الحال، فرأى في منامه رجلا مسنا يبشره، و يقول له: « لقد استجيب دعاؤك، و سيتوجه اليك عما قريب حكيم و طبيب ماهر، و سيعالج جارتك ».

فلما أفاق من النوم، كانت الغبطة و السرور تملأ قلبه، فمكث ينتظر قدوم مثل هذا الطبيب الحكيم.

و لم يمض زمان طويل حتى لمح عن بعد الطبيب الحكيم فهب بنفسه لاستقباله بدلا من أن يرسل حراسه و حجابها لهذا الغرض. أجل، فقد أدرك السلطان، أن التوجه لله تعالى و بنية خالصة هو الضمان للتغلب على المعضلات، فشكر الله جل شأنه و اثنى عليه كثيرا - و بدأ يشرح للحكيم قصة مرض الجارية و كيف أن الأطباء عجزوا عن مداواتها، ثم اخذه إلى غرفة الجارية لأجل علاجها، و بعد اجراء الفحوصات الأولية

استنتج الطبيب ان مرضها ليس جسديا عارضا على الجسم، بل هو مرض نفسي، وأن داءها هو داء العشق.

سأل الطبيب الحكيم الجارية عدة أسئلة على انفراد، و كان خلال الاسئلة و الأجوبة يراقب دقات قلبها من خلال جسده لها بيده فكان يسألها عن ديارها و أقاربها و أصدقائها، و الجارية تجيب بدورها على جميع هذه الأسئلة، حتى تحدث الطبيب صدفة عن مدينة سَمَرْقَنْد، فانتبه إلى ان الجارية قد تغير نبضها الطبيعي فجأة و بدت عليها آثار الشحوب و الاصفرار، فسألها الطبيب عن شوارع و أزقة سَمَرْقَنْد و حينما دار الحديث عن زقاق « غاتفى » و ساكنيه ازدادت سرعة ضربات قلبها كثيرا، فاستنتج الطبيب من ذلك بأنها تحب صائغا سمر قنديا يسكن زقاق غاتفى» و تمكن من تشخيص داء الجارية، و قص الحكاية على السلطان، و عالجها بنفس الطريقة هذه.

انهيار العشق المجازي:

شرح الطبيب السر الذي يكمن وراء داء الجارية و تحولها للسلطان فاستفسر السلطان بدوره عن العلاج، فأجابه الطبيب قائلاً.

« عليك ببذل هذه الثروة و الأموال التي بحوزتك لغرض استقدام الصائغ السَمَرْقَنْدي إلى هنا كي أتدبر الأمر و أعالجه ».

فبذل السلطان أموالا طائلة لجلب الصائغ السَمَرْقَنْدي، فانخدع هذا بأبهة السلطان و فخامته، فمثل بين يديه، حتى أصبح صائغه الخاص و نال الكثير من الاحترام و الاجلال في حضرة السلطان حتى قال الطبيب للسلطان: « هب الجارية للصائغ وزوجه إياها! » فنفذ السلطان هذا الأمر، ووصلت الجارية إلى معشوقها فاستعادت كامل صحتها و عافيتها بعد ستة أشهر.

خلال هذه الفترة كان الطبيب يخطط لحيلة خبيثة، فقام بصنع شراب مميت و سقاه للصائغ السَمَرْقَنْدي، حتى تسمم و اصفر لونه و ضعف كثيرا، لدرجة انشغل قلبه بمرضه عن حب الجارية، و كانت الجارية قد ملت منه أيضا شيئا فشيئا.

لقد تحررت الجارية من عشقها الظاهري فاستعادت صحتها و عافيتها، كما زال هم السلطان و غمه عندما اطمأن عليها، أما الصائغ فقد دفع ثمن انخداعه ببريق الدنيا و زبرجها.

القياس المضحك للبيغاء »:

كان أحد البقالين يمتلك في دكانه بيغاءا جميلا ذا صوت حسن و كان ذلك البيغاء يقوم بحراسة الدكان و يجلب أنظار المارة بألحانه الجذابة و يقوم أيضًا بالمحافظة على حركة السوق فيها.

و في أحد الأيام حينما كان البقال ذاهبا إلى بيته، صادف أن كانت قطة في الدكان تطارد فأرا، فارتعد البيغاء من هذا المنظر و خاف و طار مضطربا يمينا و شمالا على أمل تخليص نفسه من مخالب القطة، فارتطمت أجنحته بزجاجات مليئة بزيت اللوز فسقطت و تكسرت و سال الزيت على الأرض. و عندما جاء البقال إلى الدكان و شاهد الموقوف عن كذب امتلأ غيظا فأمسك البيغاء و ضربه بالعصا على رأسه ضربا مبرحا حتى سقط ريش رأسه و أصبح أصلعا، فسكت البيغاء منذ تلك اللحظة و لم يتفوه بعدها بكلمة أبدا، و أحاط به الهم و الحزن طوال الوقت و كثيرا ما سعى البقال إلى تسليته و تطيبب خاطره على أمل حمله على الكلام ليجلب بالنتيجة أنظار الناس إلى الدكان بكلامه الساحر كالسابق الا ان البيغاء لم يحرك ساكنا و بقي صامتا.

احترار البقال كثيرا و اغتم، بل انه تصدق لوجه الله تعالى على أمل ان تكلم البيغاء و دعا الله تعالى أن يعينه على ذلك، لكن هيهات فقد ذهبت جميع مساعيه أدراج الرياح. و توالى الأيام و جو الدكان يسوده الهم و الحزن إلى أن مر من هناك في أحد الأيام رجل حائك، كان قد سقط شعر رأسه لقساوة الدهر، و ما أن وقع نظر البيغاء على رأس ذلك الرجل الأصلع حتى فتح منقاره و صاح فجأة قائلاً أيها الأصلع! هل سكبت أنت أيضًا الزيت فضربك سيدك و أصبحت أصلعا؟!!

فغرق الناس في الضحك من قياسه هذا.

نظرا إلى أن البيغاء طائر ناطق لا يتمتع بالعقل و الدراية، فقد أتى بمقارنة بين الظاهر و الباطن، و بقياس جيد حسب الظاهر و لكنه لا أساس له من الصحة.

و على هذا يؤكد المولوي شاعرنا على ان قياس الظاهر بالباطن خطأ. فمثلا ان النحل العادي يشابه نحل العسل بحسب الظاهر حيث يأكلان و يشربان من نبات واحد و ماء واحد في حين ان انتاج الأول اللدغ و السم و انتاج الثاني العسل، أو مثلا الغزال الذي ليست له فأر المسك و الغزال الحاوي على فأر المسك و كلاهما من صنف واحد، فهما يشربان من ماء النهر، لكن محصول الأول هو الفضلات و محصول الثاني هو عطر المسك و كلاهما من صنف واحد، فهما يشربان من ماء النهر، لكن محصول الأول هو الفضلات و محصول الثاني هو عطر المسك الأصلي. كما ان هناك نوعان من القصب في الحقول، و كلاهما يسقيان بماء واحد الا ان أحدهما يكون أجوفاً في حين

ان باطن الآخر مليء بالسكر « وهو الذي يطلق عليه اسم قصب السكر » إحدى العبر التي يستقيها المولوي من هذه القصة هي: ضرورة اجتناب رفاق السوء و مجالستهم و مصادقتهم، و عدم الانخداع بظواهرهم الجذاب و توهم طيب باطنهم، فهذا أيضاً قياس بالظاهر – إذا مادام ابليس بيننا فلا ينبغي أن نثق بالكل دون تمحيص.

« السلطان الأحول ».

كان في قديم الزمان سلطانا جائرا يعتنق الديانة اليهودية و يقوم بقتل المسيحيين تعصبا لدينه. و مع ان كلا من موسى (ع) نبي اليهود و عيسى (ع) نبي النصارى يرميان لهدف مقدس واحد، الا ان ذلك السلطان كان شخصا أحولا (في الواقع لا الظاهر) و كان يعتقد بأن النتيجة هي اختلاف عيسى و موسى في الهدف.

أم مثل هذا السلطان كمثل ذلك التلميذ الأحول الذي قال له استاذة ذات مرة: اذهب و أتني بتلك الزجاجة (و كانت هناك زجاجة واحدة فقط) و نظرا إلى ان ذلك التلميذ كان أحولا فقد استفسر قائلاً: « أي الزجاجتين تريد؟ » و حاول استاذة اقناعه أكثر من مرة، بعدم وجود أكثر من زجاجة واحدة، لكن هميات فقد اصر على وجود زجاجتين ظنا منه بأن استاذة يطعن فيه و يستهزئ به، و أخيراً قال له استاذة:

« إذن اذهب و اكسر إحدى الزجاجتين و اجلب الأخرى! » فذهب و كسر زجاجة واحدة كما أمره استاذة، ثم التفت إلى عدم وجود زجاجة أخرى غيرها.

احذر أيها الإنسان! من أن يجعل الغضب و الشهوة منك شخصا أحولا فيسلبك القدرة على التمييز، كما لو ان قاضيا أخذ رشوة، ترى كيف سيتمكن من التمييز بين الظالم و المظلوم؟

أجل، فالمصلحة تطغى على الحق و تسدل بمئات الحجب على القلب و تهيمن الشهوة و الغضب على الإنسان فلا يرى الحق و بالنتيجة و تنحرف روحه عن الصراط السوي.

« الوزير الماكروزرع الخلاق ».

كان للسلطان اليهودي الذي يقتل المسيحيين على قدم و ساق وزير مخادع جدا، فاقترح ذات مرة على السلطان، و قال: ان النصارى لا يعلنون عن دينهم و بالتالي يتمكنون من الخلاص من سطوة سيفك، و لذلك سأتظاهر بالمسيحية و أتغلغل بين صفوفهم، لأصبح شيئا فشيئا قدوة لهم، و بالتالي أتعرف عليهم واحدا واحدا ثم أبث

الخلاف بينهم ليدور الصراع بينهم فيضعفوا من الداخل، وعندما تهجم عليهم وهم على هذه الحال، ستمزقهم اربا بسرعة خاطفة بكل تأكيد، و لكن بشرط أن تبتز أصابعي و انفي واذاني و تعلقني على المشنقة ليتصور المسيحيون اني لاقيت كل هذا العذاب لا لذنوب سوى كومي مسيحيا، ثم اطرمني من مدينتك و... .

فوافق السلطان على اقتراح وزيره هذا وطبقه حرفيا، فذهب إلى المسيحيين متلبسا بهذه الخدعة فتلقاه المسيحيون بحرارة باعتبارها مجاهدا صابرا لاقى من صنوف العذاب فداء للمسيح (ع) فاجتمعوا حوله و توجهوا نحوه من كل حدب و صوب، فمكث بينهم على هذه الصورة مدة ست سنوات، حتى بلغ خلال هذه الفترة مرتبة عظيمة جدا، فاستغل نفوذه و قدرته هذه و المكر الذي يتميز به بززع الخلاف في قلوبهم بالتدرج فقسّمهم إلى مجاميع متعددة و عين لكل مجموعة مجاميع متعددة و عين لكل مجموعة أميرا، ثم وعد كل أمير من هؤلاء سرا، أن يصبح من بعده خليفة، فوضعهم بهذه الطريقة في خندق يواجه فيه بعضهم بعضا.

أجل، فهذه هي نتيجة الخلاف و شق وحدة الكلمة، فقد تمكن ذلك السلطان من تمزيق المسيحيين شر ممزق مستعينا بالفرقة عليهم، و لهذا يؤكد المولوي على ضرورة اخفاء الخلافات و يشبهها بالسيف الخشبي في قرابة الانيق، فما دام في قرابة فله قيمة و تأثير في النفوس، فإذا جرد عن حسامه صار لا يصلح إلا وقودا للنار.

«صنم النفس».

كان من قديم الزمان سلطان ضال يعتنق الديانة اليهودية، و يقتل المسيحيين بعد أن يعذبهم بأشد أنواع العذاب تعصبا لدينه و دفاعا عنه، و ذات مرة أمر با ضرام نار عظيمة و بوضع صنم كبير بالقرب منها، و أعلن انه سيخلي سبيل كل من يسجد لذلك الصنم من المؤمنين، الا فمصيره الالقاء في النار حتما، لقد أصبح هوى النفس لذلك السلطان صنما يعبده و غدى حيوانا مفترسا لاتباعه لهوى النفس.

« النداء المللكوتي »:

و قد بلغ ظلم هذا السلطان حدا دفعه ذات مرة حينما جيء إليه ن أمر تلك المرأة بالسجود للصنم، و عندما رفضت المرأة و لم تنفذ أمره، لأنها مؤمنة و عفيفة، أمر بالقاء طفلها في النار أمام نظرها ففزعت من هذا المنظر المرعب فرق قلبها لابنها، حتى

انها صممت على التظاهر بالسجود أمام السلطان لكنها سمعت فجأة النداء المملوكوتي لطفلها ينبعث من نفسه و يقول « أنا لم أمت يا أماه! فالحياة هنا جميلة و مليئة بالنشاط » لقد أثار هذا النداء المملوكوتي للطفل في نفوس أتباع الحق، الشوق و الهيجان بحيث دفعهم إلى الاتجاه نحو تلك النار جماعات جماعات و القاء أنفسهم فيها بدلا من السجود لذلك الصنم.

لقد افتضح السلطان الظالم و ندم على فعله.

نعم، وكيف لا يخجل ذلك السلطان و يندم؟ وهو يعلم في قرارة نفسه بعجزه عن محاربة عشاق الحياة الأبدية.

« التاجر والبيغاء »:

كان في إحدى المدن تاجر يمتلك بيغاءا جميلا حسن الصوت، و قد وضعه في قفص جميلا، و كان قد أنس به كثيرا، و في أحد الأيام عزم التاجر على السفر إلى بلاد الهند، فجمع اقاربه و أصدقائه و سألهم: « ما الهدايا التي ترغبون ان آتيكم لدى عودتي من هذا السفر؟ » فذكر كل واحد منهم ما يريد، ثم ذهب إلى بيغائه ذي اللسان العذب و قال: « و انت ماذا تريد أن أجلب لك؟ » فقال البيغاء: « إذا وصلت إلى الهند ورأيت البيغاوات تنتقل في الغابات و المروج بحرية تامة، اذكر لهم بعض حرمانني و محنتي هذه، و اخبرهم عن لساني: انتم تمرحون بهذه الحرية و أنا مثقل وراء قضبان القفص، اسألکم بالله تعالى ان تذکروني عند الصباح الباكر وسط السهول الخضراء ولا تنسوا الوفاء و المحبة ».

ذهب التاجر إلى الهند و حينما شاهد البيغاوات الحرة في قلب الطبيعة الخلابة أبلغها رسالة بيغائه، و ما أن أكمل حديثه حتى فوجئ بارتعاش أحد تلك البيغاوات و سقوطه على الأرض و انقطاع نفسه، فتأثر التاجر كثيرا لموته و ندم لتسببه في قتل هذا البيغاء الجميل، و قال في نفسه: « لعل هذا البيغاء من أقرباء بيغائي، و لذلك ارتعش لذكركه و مات ». و حينما عاد التاجر إلى وطنه وزع الهدايا على أقاربه و أصدقائه و ذهب إلى بيغائه العزيز و قص عليه الحكاية بالتفصيل، و فجأة سقط بيغاه وسط القفص و لم يعد يتنفس! فتخيل التاجر انه قد مات، فاخرجه من القفص بكل أسف. و حسرة و وضعه على الأرض، ظلنا منه بأنه قد مات، و فجأة نهض البيغاء و طار بسرعة و حلق عاليا و حط فوق غصن من أغصان الشجرة.

أدرك التاجر في تلك اللحظة أصل القضية، و استغرب من مكر البيغاوات و كيف ان بيغاه الجميل قد نجح في التخلص من سجنه بهذه الخدعة، لقد استنبط التاجر

من هذه الحادثة موعظة قيمة، وهي ضرورة عدم البقاء اسيراً رهن البدن ووجوب التحرر من وساوس النفس بشتى الوسائل و الالتفات إلى خارج البدن – مثل البيغاء بالضبط – للتحليق في فضاء الإنسانية المملوكة الرحب.

« أنين العمود الشاكي »:

كان رسول الله (ص) يجلس كعادته في مسجد المدينة على قطعة من جذع نخلة ليعظ الناس و يخطب فيهم (و سمي ذلك الجذع فيما بعد بالحانة) و حين صنع المسلمون منبراً للنبي (ص) جلس (ص)، فشرع ذلك الجذع بالآتين و النحيب بشدة، حين سمعه كل المسلمين، فدهشوا لذلك و تعجبوا و ذلك لترك النبي (ص) له. ثم أن الجذع طلب من رسول الله (ص) الرحيل إلى عالم البقاء و الخلود و عندما بشره النبي (ص) باستجابة طلبه، سكن و هدأ لتلك البشري ثم قام النبي (ص) بدفن ذلك العمود في الأرض ليحشر يوم القيامة كالبشر نظراً لحبه الشديد للنبي (ص) و يكون نخلة عالية في حديقة الجنة تدخل السرور على أهل الجنة برطبها الجني. فاسمع أيها الغافل و إياك أن تكون أقل شأنًا من العمود الخشبي.

« هدية الأعرابي »:

يروى في قديم الزمان، إنه كان رجل و امرأة يعيشان في بادية من بوادي الحجاز بفقر مدقع، حتى أنهم يقضون أيامهم بصعوبة بالغة، فيما كان أمير تلك المنطقة سخياً و كريماً. و كانت المرأة تشكو على الدوام من الفقر و الجوع، بينما كان زوجها يذكرها دائماً بالصبر و التحمل و التوكل، لكن بدون جدوى فلم تقتنع بحديث زوجها و تكرر الكلام عن الحرمان و عدم الرضا و عاد زوجها ثانية يدعوها للتحمل و القناعة قائلاً: « ان الفقر الذي ترافقه القناعة و الرضا يؤدي إلى التوجه إلى الله تعالى بصورة أكثر و أفضل... » و أخيراً استسلمت لنصائح زوجها و تأثرت بها، فتبدلت حياتهما المرة إلى حياة طيبة و جو عائلي يسوده الدفء و المحبة و الود.

و في أحد الأيام اقترحت تلك المرأة على زوجها و قالت: « كما تعلم فإن الأمير كثير العطاء انهض و اذهب إليه بهدية، لنضمن حياتنا بعطائه » فاستفسر الرجل و قال: « و هل لدينا شيء لأذهب به إلى الأمير كهدية؟! » فأجابت المرأة: « انهض و اذهب بكوز ماء المطر الذي جمعناه و قدمه بين يدي الأمير مهدياً! ».

ذهب الرجل بذلك الكوز إلى الأمير و أهداه إياه و كان الأمير قد علم بقصة صاحب الكوز عن طريق حراسه فأمر له الأمير بملء كوزه ذهباً، و الذهاب به إلى بيته محفوفاً بالاجلال و الاكرام و الخلاصة أن أمر الأمير نفذ و نال الرجل مراده بهذه الطريقة. نستخلص من هذه ان معرفتنا كالماء الذي في ذلك الكوز بالنسبة إلى سعة علم و عظمة الله تعالى، اللذان يشبهان ماء دجلة الذي لا يستقر على حال. و لو علم الأعرابي، ان ماء كوزه كان قليلاً جداً بالقياس إلى ماء دجلة لضرب ذلك الكوز بالأرض و كسره على كل حال فقد ذهب بكل تواضع بهديته الزهيدة إلى الأمير، و عاد و قد نال كل تلك السعادة.

« الملاح الماهر و النحوي المغرور »:

كان أحد الأشخاص عارفاً بعلم النحو و قواعد العربية و صادف أن صعد يوماً على ظهر إحدى السفن، و لشدة إعجابه بنفسه دفعه غروره إلى أن يسأل ملاح السفينة قائلاً: « هل درست علم النحو؟ » فأجاب الملاح « كلا » فقال النحوي: « لقد أضعت نصف عمرك » فاغتم الملاح لهذه الملامة و تأثر، فأطبق ساكتاً و لم يتفوه بكلمة قط.

وصلت السفينة سيرها، حتى ثارت زوبعة و هاج البحر و قاد الطوفان السفينة إلى دوامة عظيمة، فأوشكت على الغرق فالتفت الملاح الذي كان يجيد السباحة في تلك الأثناء إلى النحوي و سأله: « هل تجيد السباحة؟ » فأجاب النحوي « لا أبداً ». فقال الملاح: « لقد أضعت كل عمرك » عندها انتبه النحوي إلى مدى غروره الذي لا أساس له، و أدرك فادح خطأه عندما قام بلوم الملاح فانعكس الموقف هنا و تعرض بالنتيجة لملامة الملاح في موقف محرج كهذا. أجل، لقد أدرك ضرورة أن يكون محوياً لا نحوياً، أي ان أشرف العلوم هو ما يمحو عن وجود الإنسان تلك الخصال القبيحة، لئلا يغرق في بحر التكبر و الغرور.

أسد بلا ذنب »:

ذهب رجل قزويني، وكما هو معتاد عند أهل قزوين إلى دلاك مرقش يضرب الوشم على الجسم و قال له: « جئت إليك لتضرب على ظهري و بين كتفي صورة الأسد باللون الأزرق الداكن الجذاب، أما سبب اختياري لصورة الأسد فهو اني أريد أن أكون قويا يرهبني اعدائي كما يخافون الاسد، لأنني أتمتع بصفات الأسد، لذلك أريد أن ترسم تلك

الصورة على أعضائي».

شرع الدلاك بالعمل، و ما أن بدأ يؤخز بالأبرة بين منكبي القزويني، حتى صرخ متألماً و قال: « من أين بدأت يا استاذ؟ » فأجاب الأستاذ: « لقد بدأت من ذنبه » فقال ذلك البطل القزويني « اني لا أطيق تحمل ألم هذه الأبرة، أترك ذنب الأسد! فالأسد بلا ذنب يطلق عليه لفظ أسد أيضاً ».

ترك الأستاذ ذنب الأسد و شرع بعضو آخر يرسمه على جسمه، فارتفع أنين القزويني ثانية و قال: « ماذا تمثل هذه النقطة من الأسد؟ » فأجاب الأستاذ: « أذن الأسد » فشكى البطل ثانية فترك الدلاك رسم الأذن و بدأ بنقطة أخرى لرسم الوشم، فلم يتحمل الرجل القزويني ألم وخز الأبرة مرة أخرى و صاح قائلاً: « ما هذه النقطة من الأسد؟ » فأجاب الأستاذ: « بطن الأسد » فقال الرجل القزويني كعادته: « اترك هذه النقطة أيضاً فلا حاجة للبطن » تحير الأستاذ من جراء ذلك و رمى بالأبرة على الأرض و قال: أصبح هذا لم ير أحداً مثل هذا الأسد؟

نعم يا أخي، اترك لفضة (أنا، نحن) و تحمل الألم و الحرقة واصبر على وخز ابر النفس و غرورها حتى تضعف و تموت و تصبح أسداً معنويًا بمعنى الكلمة.

« اكتساب الثعلب للتجربة ».

ذات مرة أصبح كل من الأسد و الذئب و الثعلب أصدقاء، تبعه الذئب ثم الثعلب حتى توغلوا في الغابة و اصطادوا ثلاثة حيوانات، كانت عبارة عن ثور وحشي و غزال و أرنب، ثم جمعوا جثثهم في مكان واحد، فهمس الذئب في اذن و الثعلب من دون أن يأخذ بنظر الاعتبار ان الأسد هو السلطان الحيوانات و ان الانتخاب بيده، و قال له: « لا بد أن الأسد سيعطي كل ذي حق حقه مثل السلاطين العدول » لكنه غفل عن ان النقاش أو الاعتراض و الأخذ و الرد في مجلس كهذا غير لائق....

أحس الأسد بأوهامهم و أطماعهم، غلا أنه تظاهر بالسرور، فلم يبذ غضبه أمامهم، ثم قال للذئب: « قسم هذه الحيوانات التي اصطدناها فيما بيننا بالحق، نيابة عني » فما كان من الذئب الا ان تصدى للقسم بوقاحة بدل التواضع أمام الأسد بأن يقول: ما شأنني؟ فالأمر أمرك. إذ قال بكل وقاحة: « ليكن الثور الوحشي من نصيبك لأنك أكبرنا، و الغزال التي هي أوسط الثلاثة من نصيبي لأنني أوسطكم، و الأرنب للثعلب لأنهما صغيران » فغضب الأسد و قال: هل بلغت بك الجرأة إلى القول (أنا وأنت) في حضوري؟ ثم وثب على الذئب و مزقه إربا.

فلما رأى الثعلب هذا الموقف اتعظ و اكتسب منه تجربة، فحينما قال له الأسد: « الآن، أنت قم بتقسيم هذه الحيوانات! « فأجابه الثعلب بكل تواضع و من باب السياسة و التفكير: « سيدي! ليكن الثور السمين فطورا لك، و الغزال لغدائك و الأرنب لعشائك! « فسر الأسد بهذا الجواب و قال للثعلب: من أين تعلمت هذه القسمة العادلة؟ فقال: من مصير الذئب. ثم ان الأسد وهب كل ذلك الصيد للثعلب قائلاً: حيث أنك تركت ذكر نفسك، و صرت لنا بأجمعك، فنحن لك كذلك. فشكره الثعلب بدوره شكرا جزيلاً. فعلى العاقل ان يتعض بالأقوام الماضين من عاد و الفراعة كما اتعض الثعلب من مصير الذئب. و هكذا كان تقييم الثعلب للموقف (ان لم نقل مكره) و على أية حال، فإن اكتساب التجربة و تطبيقها يؤدي إلى تدليل كبير للمشاكل و حل جوهرى لها.

«اتحاد العاشق بالمعشوق»:-

ذهب أحد العشاق إلى منزل معشوقه، و طرق الباب، فقال المعشوق من خلف الباب: « من أنت؟ « فأجاب العاشق: « أنا! « فقال المعشوق: « اذهب فلا فرصة للقاء الآن، فإنك لا زلت تتحدث عن نفسك وان ال (أنا) لا زالت بين جوانحك، فلا زلت غير ناضج، و لن تنضج الا بنار الفرقة « فذهب العاشق و ذاق ألم فراق معشوقه عاما كاملا، نضج خلال هذه الفترة، ثم عاد إلى بيت معشوقه و طرق الباب. سأل المعشوق من داخل الدار: « من؟ « فأجاب العاشق: « أنت الذي يطرق الباب « فقال المعشوق: « الآن ادخل إلى المنزل، فلم نعد (أنا و أنت) بعد الآن، و لن نكون شخصين، بل نحن شخص واحد.»

و الحقيقة اننا لو تحررنا من (أنا) و عترنا على الطريق إلى بيت الحبيب المطلق، أي الله تعالى، لبلغنا كل شيء و كل مكان بالتأكيد.

بالضبط كما حذر النبي نوح (ع) قومه العاصين من التعلق بذواتهم و أنفسهم، و دعاهم إلى سلوك طريق الله تعالى، و الاتحاد ليكونوا أمة واحدة فالملك هو الله تعالى ولا وجود للأنا و ال (نحن) في ساحة قدسه.

و بناء على هذا ينبغي أن يكون الإنسان بالنسبة للآخرين « نصف ال (أنا) « والا لو تركب من ال «أنا» بأكملها و لم يفكر الا بمصالحه الشخصية لما عثر على الطريق المؤدي إلى الله تعالى، و من هنا يجب على الجميع ان يدركوا انهم لا شيء بالنسبة إلى الله تعالى.

«حوار الأطرش والمريض»:-

قال أحد الخيرين لشخص أطرش لا يسمع غير الأصوات العالية و بصعوبة بالغة:
« ان جارك و صديقك قد مرض و ضعف، فاذهب لزيارته » و كان الرجل الأطرش يعلم بضرورة عيادة هذا المريض، فقال في نفسه: « أنا لا أسمع بسهولة وهو مريض ولا يمكنه التحدث بصوت عال لضعفه، و حينئذ يستحيل سماع صوته » لذلك قال في نفسه:« عندما أذهب إليه يجب أن أبدأ بالكلام، و هو سيجيبني بدوره و تتحرك شفته، و من خلال قياس حركة شفثيه يمكنني تحديد ما يقول عندما يجيبني؟! » و لو سألته: « كيف حالك؟ » سيجيبني: « أنا بخير » فأقول: « الحمد لله » و لو سألته: « ماذا تأكل؟ » سيجيبني: « العصير أو حساء الماش » فأقول: « هنيئا » و أسأله: « من هو طبيبك؟ » فيقول: « الطبيب الفرني » فأقول: « بارك الله فيه أنه طبيب ماهر و يده يد خير » و على هذا الأساس أرد عليه.

وانطلاقا من هذا القياس جاء الرجل الأطرش إلى المريض و جلس بالقرب من سريره و سأله: « كيف حالك؟ » فأجاب المريض:« اني أموت ألما » فقال الأطرش:« الحمد لله » ثم سأله: « ماذا تأكل؟ » فأجاب المريض بغضب:« سما وزقوما » فقال الطرش:« هنيئا » ثم سأله: « من هو طبيبك؟ » فقال المريض:« عزرائيل » فقال الأطرش: « بارك الله فيه، اهنتك » فقال المريض في نفسه: « ان هذا الشخص عدولي، لأنه فرح بمرضي و ضعفي، بل وحتى بموتي، في حين أن زيارة المريض تكون عادة للاطمئنان على المريض وإراحته لا لإزعاجه».

ثم خرج الأطرش من منزل المريض و هو يتصور بأنه قد ادى واجبه على احسن وجه، و انه راعي آداب و حقوق الصداقة و الجيرة اعتمادا على قياسه ذاك وفاته أنه قد أبطل بقياسه هذا صداقة السنين العشر مع جاره المريض و انه قد قام بالمعصية بدل الطاعة. بل ان قياسه كان السبب في ضلالتة فضلا عن منعه من بلوغ الحقيقة، فمن الضروري ترك قياس الأمور على ظواهرها.

«المباراة بين فناني الروم والصين».

في قديم الزمان كان أهالي الصين و الروم يتمتعون بشهرة كبيرة في فن الرسم و النحت و التصوير، و كان كل منهما يدعي الأفضلية لفنانيه.

و في أحد الأيام جمع الأمير الفريقين و قال لهما:

«أريد أن اختبركما لأرى أيكما أكثر مهارة في فن الرسم و التصوير « فوافق كلا الفريقين على اقتراح الأمير، فأشار الأمير إلى قصرين متقابلين فدخل الفريق الصيني إلى أحدهما، و دخل الروميّ في القصر الآخر و أغلق الباب عليهم ليعرض في نهاية المطاف فن كل فريق من خلال عملهم داخل القصر بعيدا عن أنظار الفريق الآخر.

و كان الأمير قد أمر من ناحيته بتوفير احتياجاتهما، فكان الفنانون الصينيون يطلبون في كل يوم اللوازم و الاحتياجات الضرورية و الألوان المختلفة من الأمير، لكن فناني الروم لم يطلبوا شيئا من الأصباغ و اللوازم.

فرسم فنانون الصين بكل تلك الوسائل و الألوان المتعددة رسوما وصورا عديدة و جذابة على جدران القصر، و بذلوا قصارى جهودهم لظهار تلك الصور بأروع ما يكون. أما فنانون الروم فقد انكبوا من الصباح و حتى المساء على صقل و تلميع و تنظيف أحجار جدران القصر فقط، بشكل بدا فيه كل القصر كأنه مرآة، يعكس كل ما يقع على جدرانه.

جعل الصينيون من القصر معرضا للصور و الرسوم و النحوت، فيما اضفى الروميون على قصرهم شكل المرأة و صفائها.

و جاء اليوم الموعد، فاتجه الأمير و الخبراء المرافقون له نحو القصر لرؤية الأعمال الفنية لكلا الفريقين، فدخلوا أولا قصر الصينيين، حيث أخذتهم الدهشة من الرسوم و الصور الملونة الرائعة للفنانين الصينيين، فاستحسنوها كثيرا و اثنوا على جهودهم و مهارتهم.

ثم دخلوا قصر الروميين و كانت أبواب كلا القصرين مفتوحة على مصراعها و قد رفعت الستائر جانبا ففوجئ الأمير و مرافقوه في ان كل الأشكال و الرسوم التي في القصر الأول – قصر الصينيين – تبدو هنا أكثر روعة و جاذبية من اصلها، بواسطة الأحجار المصقولة كالمرآيا في قصر الروميين، أي أنه فضلا عن أن داخل القصر تم صقله كله فأصبح كالمرآة فإن كل صور القصر الآخر منعكسة فيه. فتعجبوا من روعة الفن و الجمال للفنانين الروم.

لقد فاز الفنانون الرومان في مباراة حدة الذكاء هذه، لأنهم جسدوا جمال فنهم مجردا عن التلوين و التزيين و التكلف، و عكسوا فيه كل الابداعات الأخرى في الوقت

فلا تغفل يا أخي عن صفاء القلب! القلب الذي يصقل من تراكمات الذنوب و المعاصي، يصبح كالمرآة، تنعكس فيه الحقيقة الواقعية و جميع الكمالات بدون حجاب يحجب رؤية المعشوق.

« كشف السر »:-

كان لقمان الحكيم في فترة ما عبدا عند مولى يملك ثروة و أموالا طائلة و بساتين و عددا من الغلمان أيضاً، و كان لقمان يتميز عنهم ببشرة سوداء داكنة، لكنه بالمقابل يتقدم عليهم بحسن السيرة و المعرفة.

و لأن مولاه كان يحكم حسب الظاهر، فقد رجح بقية غلمانه على لقمان فكان يرسلهم مثلاً إلى البستان لجني الثمار و جلبها اليه، بينما كان يوكل للقمان الأعمال الوضيعة كتنظيف المنزل و أمثال ذلك حتى أدى تصرفه هذا إلى ان بقية الغلمان أخذوا ينظرون إلى لقمان بعين الإحتقار و الاستصغار، بل و حتى تجرأوا على ايدائه أحيانا.

و في إحدى المرات أرسلهم سيدهم إلى البستان لجني الفاكهة، فذهبوا و اقتطفوا فاكهة متنوعة و جاءوا بها إلى البيت إلا أنهم أكلوها لغياب سيدهم.

و عندما جاء سيدهم إلى البيت و أمرهم باحضار فاكهة طازجة، ادعوا زورا و بهتاناً بأن لقمان قد اكلها، فنظروا

عرف لقمان بالفراسة، السر الكامن وراء اشمئزاز سيده منه، فذهب إليه و اقترح عليه قائلاً: «اخبّرنا يا مولاي! بأن تعطي كل واحد منا كمية كبيرة من الماء الحار لنشرها، ثم امتط صهوة جوادك و انطلق بسرعة نحو البادية، وأمرنا بالعدو خلفك بسرعة، لتكشف الحقيقة بهذه الطريقة.»

وافق السيد على هذا الاقتراح و طبقه. فركض الغلمان جميعهم وراء الحصان، فتغير الوضع الصحي لأولئك الغلمان الذين اكلوا الفاكهة بسبب الجري السريع، فتقنوا تلك الفاكهة. في حين لم يخرج من فم لقمان سوى الماء الصافي. وانكشفت الحقيقة بهذه الطريقة، وتبين للسيد ان بقية الغلمان أكلوا الفاكهة، الا لقمان فندم الغلمان و خجلوا بينما كان لقمان فمهم مرفوع الرأس.

فإذا كانت حكمة لقمان تتمكن من كشف السر، فكيف بحكمة الباري تعالى؟
فلا نغفل عن يوم القيامة الذي يتميز به الأصفياء عن الخونة، وأن الأسرار ستتكشف بالرغم من عدو رغبة الأشرار في كشفها.

« الشاب وصيد السمك ».

جلس شاب على ضفة النهر، فشاهد شخصا يصطاد سمكا من ذلك النهر فتصوره النبي سليمان (ع) وقال في نفسه: « لو كان هذا الشخص هو سليمان، فكيف جاء وحده اذن ليصطاد السمك بالرغم من كل تلك العظمة و النعمة، و الماذا تبدو عليه ملامح سليمان و هييبته؟ » و بينما كان ذلك الشاب غارقا في خياله متصورا سليمان و هو جالس على عرشه و كيف ان ذلك العفريت الذي كان يتردد على بلاط سليمان قد هرب و قتل بسيف سليمان، ثم جعله سليمان خاتما في يده، فوجئ بتجمع الناس لرؤية سليمان و من جملتهم نفس ذلك الصياد الذي تبدو عليه ملامح سليمان. و برؤية ذلك الشاب للخاتم في يد سليمان، زال تصوره بكون ذلك الصياد هو سليمان، لأنه عندما يرى سليمان نفسه جالسا على العرش، فسيزول تصوره عن كون صياد السمك هو سليمان تلقائيا.

فحينما تزول الحجب و يقف الإنسان على الوجودين الخارجي و الحقيقي للشخص المعين لا يبقى هناك مجال للتحليق في عالم الخيال، لكن الغيب و الحجب و لياقة الإنسان لبلوغ الروح الملكوتية و الاتصال بعالم الغيب، أفضل و أنسب لارتقاء إيمان الإنسان و طاعته.

فمدح السلطان في حضرته يختلف كثيرا عن إظهار التعظيم في غيابه و منزلة حرس الحدود الأوفياء الذين تفصلهم فراسخ عديدة عن السلطان، أفضل منزلة من الحراس المحيطين به.

و بناء على هذا، فإن الحراسة في مكان ناء سرا و حتى إذا لم تتجاوز مدة الحراسة اللحظات فهي أفضل مما في حضرة السلطان بمرات عديدة.

« الضرر في استجابة الدعاء ».

وضع أحد اللصوص كميناً لصياد أفاعي، بعد أن سرق إحدى أفاعيه و أخذها معه. فكان الصياد يدعو الله تعالى أن يعينه على العثور على حيته بعد اختفائها، ثم ان الأفعى لدغت ذلك اللص و قتلته في حين نجا الصياد من لدغة الأفعى.

لقد تجاوز القضاء ذلك الصياد من لدغة الأفعى لقد تجاوز القضاء ذلك الصياد، ووقع على اللص فسقط على الأرض و مات و عندما شاهد الصياد أدرك بأن الحية قد قتلته فشكر الله تعالى، لأن عدوه كان سببا في اسداء الخير له، و بعد تلك الحادثة قال: « لك الشكر يا رب، لأنك لم تستجيب دعائي! ».

و لهذا لا يستجيب الله تعالى الدعاء أحيانا لشدة لطفه، فقد يكون الدعاء و بالأعلى على الداعي.

الصوفي و خادم البيت:

كان هناك رجل صوفي طيب القلب، يتجول على حماره حول العالم، فحل في إحدى الليالي ضيفا على الدراويش (الخانقاه) في بيتهم. فربط حماره في حظيرة الحيوانات (الاصطبل) ثم توجه إلى أصدقائه، فجلسوا مع بعضهم و فتحوا دفاتر قلوبهم و ليرحلوا بأرواحهم خلال ذلك الجو المعنوي إلى ما هو اسمي من وجودهم المادي ولينقلب مجلسهم إلى حلقة يناقش خلالها المفهوم العرفاني، بعد ذلك فرشوا الخوان (مائدة الطعام) و بينما كان ذلك الصوفي مفكرا في حماره، التفت إلى الخادم و قال له: « اذهب وضع بعض التبن و الشعير أمام حماري كي يشبع »، فقال الخادم: « عجبا! منذ سنوات طوال و هذه هي مهنتي، و اعلم جيدا بوجود تقديم العلف للحيوان الذي يصل لتوه من سفر شاق ».

الصوفي: « أيها الخادم، نظرا لأن حماري مسن و ضعيف، فمن المستحسن أن تضيف شيئا من الماء إلى تبنه و شعيره ». الخادم: « عجبا! هذا ما يتعلمه الآخرون مني، أفتأتي أنت لتعلمني اياه؟! ».

الصوفي: « أيها الخادم فك سرجه و داوي جرح ظهره » الخادم: « عجبا! دع هذه الفلسفة، فقد مر بي لحد الآن آلاف الضيوف و أنا أعرف و اجبي بصورة جيدة ».

الصوفي: « أسق حماري ماء أيضا، و ليكن دافئا فهو المفضل عنده ». الخادم: « عجيب! إنني أخجل من كلامك هذا ». الصوفي: « أيها الخادم، اجعل نسبة التبن في الشعير قليلة ». الخادم: « لا داعي للنصيحة ».

الصوفي: نظف مكان الدابة (الحمار) من الأحجار و الفضلات و افرش عليه بعض التراب الجاف، ليحف لو كان رطبا ».

الخادم: « و الذي العزيز، لا تلح كثيرا، ولا تهزء بي، أنا المسكين ». الصوفي: « حك ظهر الدابة بفرشاة قوية ».

الخادم: « عجبا يا ضيقي العزيز، اخجل قليلا، فأنا أعرف كل هذا ولا أقصر في و اجبي ».

الصوفي: « لا تجعل جبله طويلا فيلتف حول أرجله و من ثم يسقط على الأرض ».

الخادم: «عجبا! لا تطل الكلام كثيرًا، فأني أكثر منك خبرة و هل يوجد عظم في الحليب يا ترى (مثل ايراني و هو يضرب كناية عن الثقة و الاعجاب بالنفس أكثر من اللازم) و هكذا كلما تحدث الصوفي أجابه الخادم الماكر ذو الكلام المعسول قائلاً: « أنا اعرف أحسن منك، ولا داعي للتوصية » لكنه في الواقع لم ينفذ ولا طلبا واحا للصوفي، بل انصرف إلى عمله، متبعًا هواه.

و بات الصوفيّ عنده تلك الليلة، فرأى خلالها احلاما مزعجة، و كأن حماره قد وقع فريسة بين مغالب الذئب، وهو نحيل و خائف و...

و عند الصباح اتجه الخادم إلى الحظيرة، فوضع سرج الحمار على ظهره، بعد أن ضربه ضربًا مبرحا ووخزه و خزا شديدا، ليبدو عند خروجه من الحظيرة قويا متهيئا للسفر، و جاء الصوفيّ إلى حماره و ربط امتعته فوق ظهره وركب الحمار متوجها إلى مقصده.

الا ان الحمار المسكين الذي كان يعاني من الجوع و العطش لم يتمكن من مواصلة المسير فسقط في الطريق، فساعدته المارة على النهوض و مواصلة المسير، فقال الصوفيّ الذي وقف على السر وراء عجز حماره و ضعفه للحاضرين: « ان دابتي المسكينة هذه ذهبت ضحية الخادم الماكر، فهي لم تحصل على الماء و التبن و الشعير للتمكن من المسير، حيث ان الخادم و عد بأن يعلفها و لم يف ».

اذا، اعتمد على نفسك يا أخي و سر بها نحو الكمال دون الاعتماد على الناس المتلونين و المخادعين، فان الناس المسيئين، مثل ذلك الخادم العذب اللسان (كالحية ناعم ملمسها، قاتل سمها) اُجانب لا ينبغي الاعتماد عليهم، و كذلك هوى النفس فإنه أجنبي أيضًا فلا تثق به، لأنه يقودك إلى وادي الغم و الحزن و الندامة.

ولا تنس أبدا أن إنسانيتك إنما هي لأجل فكرك و عقلك، لا لأجل بدنك الترابي، لكن يجب الا تتلون عين الفكر الصافية بأهواء البدن الطيني، لكيلا تنقلب زهرة الفكر شوكة.

« لماذا.. طائر الملكوت في الغم؟ ».

كان في قصر أحد السلاطين باز جميل متنعم بكل النعم و الخيرات و ذات مرة ترك القصر و اتجه نحو منزل امرأة عجوز، فوقع بصرها عليه، و اعجبت بجماله، فأمسكت به و قصت أجنحته و قلمت مغالبه، و وضعت أمامه مقدارًا من التبن حتى يأكله (بدلا من تلك الأغذية المتنوعة التي كان يتناولها في قصر السلطان).

و بقي ذلك السلطان صاحب الباز يبحث عنه طيلة الفترة التي خرج فيها من القصر

حتى عثر عليه أخيراً في منزل المرأة العجوز الحقير، وإذا بالغبار و دخان ذلك البيت قد غطى الباز الجميل و كساه بلون قاتم حزين، فتأثر قلب السلطان و تألم كثيراً و قال له: «لماذا هربت من الجنة إلى الجحيم؟ ألم تعلم ان أهل الجنة و أهل النار لا يستوون؟» هذا هو جزاء الهروب من السلطان و الذهاب إلى بيت العجوز الحقير.

فلا تغفل أيها الإنسان! فأنت نفس ذلك الباز الجميل الرفيع السيرة، و أنت طائر الجنة الملكوتي و لست من عالم التراب، فاحذر من ان تخدعك الدنيا بزخارفها فتقع بفخها بعد أن تنجذب إليها لتبتلعك! أو أن يحرمك التعلق بأصلك الترابي من العالم الملكوتي.

شرع الباز الذي ندم كثيراً بالاعتذار من السلطان و طلب منه العفو و المغفرة قائلاً: «مع ان هذه العجوز (الدنيا) قد منه العفو و المغفرة قائلاً: «مع ان هذه العجوز (الدنيا) قد قصت أجنحتي و كبلتني لكن لو أعنتني لاقتلعت الشمس و لو دافعت عني فإني سأجعل الدنيا في قبضتي، ولو أفضت علي بالطاقة و القدرة، لانتزعت الجبل من مكانه، و لو منحتني علماً لطويت كل الرايات. فأنا و الحال هذه لست بأقل من البعوضة التي هزت عرش نمرود، و لا أقل من طيور الأبايل التي دمرت فيلة العدو.»

و في النهاية قبل السلطان توبة الباز، فأعاد - الباز- المياه إلى مجاريها بتوبته تلك، و ذلك البكاء.

و المقصود بالسلطان: «الله جل شأنه.»

« الفارس المنقذ الذي لا نظير له .»

يروى ان رجلاً كان نائماً تحت ظل إحدى الأشجار، و قد فتح فاه فإذا بأفعى متجهة نحوه حتى وصلتته و ادخلت رأسها في فمه لتدخل إلى بطنه، و في تلك الأثناء صادف أن مرَّ من هناك رجل صالح ممتطياً فرسه، فشاهد الموقف عن قرب، فاتجه نحوه - النائـم- مسرعاً ليمنع دخول الحية إلى فمه، لتدخل إلى بطنه، و في تلك الأثناء صادف أن مرَّ من هناك رجل صالح ممتطياً فرسه ليمنع دخول الحية إلى فمه، لكن محاولته لم تفجح فقد دخلت الحية في فم النائـم و استقرت في بطنه.

لم يجد الفارس بُدّاً من ضرب النائـم، فانهال عليه يضربه بعصا كانت في يده، على ظهره و جميع جسمه حتى أوجعه، فاستيقظ النائـم و إذا به بين يدي فارس مغوار يحمل بيده عصا، فانتبه إلى نفسه و إذا بالدم ينزف من اعضائه، فهرع مسرعاً لشدة الخوف و هرب من ذلك الفارس، لكنه تبعه حتى توجه نحو شجرة فسقط تحتها من

شدة الخوف، وقف الفارس على رأسه و أمره بتناول تفاح تلك الشجرة التي كان قد سقط منذ فترة طويلة و تعفن فأكله الرجل خوفاً منه.

بعدها عاد الفارس يضربه بالعصا و هو يركض في البادية هرباً منه و يصيح: « اتركني، لم تضربني؟ ما هو ذنبي؟ ».

لكن الفارس ظل يضربه و يقول له: « يجب أن تركض في الصحراء » و لم يهتم لشكواه، وربما ان ذلك الفارس المخلص يريد نجاته بهذه الطريقة، فقد أخذ يصيح: « أيها الجبان! لم تضربني؟ لم تظلمني: لينتقم منك الله تعالى و... » و استمر بالركض و الفارس خلفه، حتى تقياً كل ما في بطنه من شدة التعب و من جملته تلك الحية، و عندما شاهد تلك الحية و السائل الأصفر قد خرجاً من فمه، أدرك في تلك اللحظة رأفة و شهامة ذلك الفارس الصنديد.

فوقف أمامه بكل احترام و تواضع و اعتذار منه و شكره على لطفه هذا و سماه ب « جبريل الرحمة » لأنه أنقذ حياته. كما أنه عندما شاهد تلك الحية نسي كل ذلك الضرب المبرح و الألم و الآنين و قال للفارس: « أيها الفارس الرحيم! ان تعاملك معي كتعامل صاحب الحمار مع حماره، إذ كان يطارده في البادية ليخلصه من مخالب الذئب، لكن الحمار سألك سؤالاً: « لماذا لم تخبرني من البداية بأن هناك حية في بطني و انك تضربني و تطاردني لتخرج الحية و تنقذ حياتي ». أجاب الفارس الحكيم: لو أخبرتك بذلك السر لزهقت روحك (لانفجار كيس الصفراء) بل لو وصفت لك الحية لأحاط بك الخوف القاتل.

علينا إذن الا نعتبر تعليمات الأنبياء و الأولياء مشقة و عذاباً، بل إذا أمعنا النظر إلى جوهرها سنجد انها جاءت لصالحنا، علينا تقبل نصائح العقلاء بكل ارتياح، لأن معاداتهم الظاهرية لك هي الباعث على بهجة نفسك وروحك كما ان مصادقة الحمقى تبعث على الندم و الحسرة.

« الاجتناب عن رفيق السوء »:

قال جالينوس الحكيم لأصدقائه ذات مرة: « خذوني إلى الطبيب الفلاني ليصف لي كذا دواء كي أشفى » فقال له أصدقاؤه: « أنت أستاذ و حكيم و تعلم جيداً بأن ذلك الدواء الذي تطلبه خاص بالمجانين، و أنت لست مجنوناً! » فأجابهم جالينوس: « لقد نظر اليوم إلى أحد المجانين و غمزني بعينه، كما أنه سحب رداي بقوة حتى تمزق، تعبيرا عن الصداقة الحميمة التي بيننا بنظره، و هذا دليل على وجود نقطة اشتراك بيني و بينه، و من هنا أشعر بضرورة التداوي لأن الطيور على أشكالها تقع ».

قال أحد الحكماء: « رأيت غرابا يطير مع لقلق، ثم حطا على الأرض، فتعجبت من كيفية حصول الرفقة بينهما، فاقتربت منهما فإذا بهما يعرجان، عندها أدركت انهما يلتقيان معا بالعرج.»

ذهبت إلى الحديقة فسمعت زهرة جميلة تتحدث بلسان حالها مع حشرة كبيرة – تعيش بين القاذورات – و تقول لها: « رائحتك النتنة هي السبب في ابتعادك عن الحديقة، إذ لا علاقة بين العطر و النتانة.»

فابتعد يا أخي اذن عن رفيق السوء، وانتخب لنفسك الأصدقاء الجيدين. ولو لاحظت رفيقا سيئا قد كسب ودك و صحبتك، فاعلم بوجود نقص فيك، فينبغي أن تكمل ذلك النقص و تصلح العيب ليبتعد عنك ذلك الصديق، و تيقن ان ابتعاد رفاق السوء عنك دليل على حسن سيرتك، بالضبط كما كان جمال الوردة ورائحتها الزكية هما السبب وراء ابتعاد الحشرة النتنة عنها.

« موعظة الزاهد »:

بكى أحد الزهاد كثيرا، فقال له صاحبه: لا تكثر من البكاء لئلا تؤذي عينيك و تفقد بصرك. فأجاب الزاهد: إذا لم تر عيناى جمال الحق، فعماي أفضل. و لو كانت روح المسيح مستقرة في ذات الإنسان، فسوف لن يبكي للعي الظاهري، لتمتعه بعيني القلب الذي يرى الحقائق.

و على هذا، لو كنت أمها الإنسان تملك هذه الروح السامية و تلك القابلية، فقم بتهدئتها و تربيتها لترى حقائق الوجود... أما لو دنستها بالشهوات، كما فعل فرعون مع موسى (ع) فلا فائدة في العينين الظاهرتين و الحالة هذه.

« الظمان فوق الجدار المرتفع.»

كان هناك شخص عطشان جالسا فوق جدار مرتفع يشرف على النهر، فبلغ به العطش درجة يبست معها شفتاه. لكن علو الجدار حال بينه و بين الماء، فاعتبر نفسه كالمسكة التي تقلب على ضفة النهر ولا تصل إليه و عيناها تحلقان في الماء.

صمم ذلك العطشان على إزالة المانع (الجدار) للوصول إلى الماء، من خلال ازالة الطابوق الذي يتكون منه الجدار بالتدريج و القائه في النهر، نظرا لوجود ثمرتين في هذا العمل:

الثمرة الأولى: هي ان صوت الماء العذب المنبعث من جراء اصطدام الطابوق بالماء

سيجعله يحس بنشوة للحن الماء بالضبط مثلما ان صوت اسرافيل هو السبب وراء احياء الموتى.

الثمرة الثانية: أنه سيقرب شيئا فشيئا من الماء بازالته التدريجية للطابوق باعتبار ان ازاحة الطابوق تعد بنفسها سجدات تدريجية لمقام الماء الرفيع.
أجل أيها الإنسان!! إياك و الغفلة! بل أزل الطابوق الذي يتكون منه جدار المادية الشاهق واسجد على التراب لتنال القرب الالهي رهن بازالة ذلك الجدار.
لو أردت نيل « ماء الحياة الأبدية » فاترك جدار الطين الشاهق (أي البدن الترابي) فكل من يحس بظمأ أشد فوق الجدار سيسعى أكثر في ازالة ذلك الطابوق، و العشاق الولهون سيرفعون طابوقا أكبر حجما.
إذن أيها الشاب اغتنم شبابك لازالة ذلك الحجر و المدر قبل هرمك إذ تقيد رقبتك حينها بحبل من مسد.

« العظمة في لحظة العبودية ».

أرسل أحد السلاطين كتابا إلى رجل متدين (عارف مؤمن) قال فيه اطلب ما شئت لأهبه لك. فأجاب العارف: أيها السلطان! ألا تخجل من ارسالك لي كتابا كهذا؟! عندي عبدان مطيعان، وهما أميران و حاكمان و متسلطان عليك بالكامل، و الآن تريدني أن آخذ عطايك.

قال السلطان: ومن هما هذان العبدان.

قال العارف: أحدهما « الغضب » و الآخر « الشهوة »، و عليه، فالذي يكون أسيرا للغضب و الشهوة ليس بسلطان . باعتبار أن السلطان الحقيقي يكون متمتعا بالنور المعنوي بدرجة يكون فيها مستغنيا عن نور الشمس و القمر.

كلقمان الذي كان عبدا في الظاهر لكن سيده كان يحبه أكثر من أبنائه، لأن لقمان كان متحررا من أسر الهوى و هذا الأمر جعله سيدا وهو في حالة الرق.

إذن، كان لقمان عبدا لسيده بحسب الظاهر، إلا أنه كان سيدا مالمكه في الواقع، كما أن الدنيا مليئة أيضا بمثل هذه الحوادث المعكوسة.

فطلاب الحقيقة يميزون جيدا بين الحجر و الذهب لأن الذهب المادي تكون قيمته ادنى من قيمة التبن في نظرهم، إذ أنهم إنمّا يسعون وراء الذهب المعنوي.

المسألة الأصلية والنية الحسنة:

قام أحد أقطاب العلم والعرفان ببناء دار جديدة له، فزاره استاذہ لیبارك له على داره الجديدة، فوجد منفذا صغيرا في جدار الغرفة يطل على الخارج.

فسأله: لأي شيء جعلت هذا المنفذ؟!

أجاب العارف: ليدخل النور إلى الغرفة و يضيء أرجائها.

قال الأستاذ: دخول النور إلى الغرفة يتم بنفسه بشكل طبيعي، وهذا شيء ثانوي و مسألة فرعية، اجعل نيتك في ترك ذلك المنفذ، لسماع الأذان و معرفة وقت الصلاة، ليكن هدفك على هذا الأساس و بهذه النية، فأنت الذي ينبغي عليك تشخيص الهدف، إذن انتبه إلى المسألة الأصلية!

« الجواب المحكم للمتظاهرين بالجنون: »

كان أحد الأشخاص يبحث عن رجل ذكي فطن، ليستشيرہ في أمره و يطلب منه حلا للمشكلة التي يعاني منها. فقال له رجل آخر: « لا يوجد في حينا سوى رجل ذكي واحد، متظاهر بالجنون اسمه (بهلول) وهو يمتطي قصبه، و يقول للصبية ان هذا هو حصاني، فيلهو و يلعب معهم. و ذلك المتظاهر بالجنون رجل عالم ثاقب النظر يتمتع بروح عالية، و قد غطى ذكائه بغطاء الجنون (لئلا يبنتلى بظلم الجهاز الحاكم لهارون الرشيد)، وهذا الرجل يمكنه البلوغ بالإنسان إلى الكمال في سلوكه المعنوي.

توجه الباحث نحو بهلول (راكب القصبه) فخطابه: « يا راكب القصبه! اتجه بحصانك نحوي، للحظات! » فساق بهلول حصانه باتجاهه و قال: « قل ماذا تريد بسرعة؟! فلا أستطيع الوقوف كثيرا، لأن حصاني (قصبتي) يرفس كثيرا.

اسرع و إلا أصابتك رفسات حصاني! ».

قال الباحث: « اريد ان اتزوج امرأة من هذا الحي، فما هو رأيك، و أي امرأة اختار؟! » أجابه بهلول: « ان النساء بشكل عام على ثلاثة اصناف: صنفان يبعثن على المشقة، و صنف يبعث على السرور:

- ١- المرأة التي تكون في اختيارك مطلقا.
- ٢- المرأة التي يكون نصفها في اختيارك و نصفها بعيد عنك.
- ٣- المرأة التي تكون منفصلة عنك بالكامل و كأنها لا ترتبط بك لا من قريب ولا من بعيد.»

ثم امتطى بهلول صهوة جواده (قصبته) و اتجه بسرعة نحو الصبية مبتعدا عن

ذلك المكان وهو يهتف و يصيح. فبقي الرجل الباحث حائرا، ولم يفهم السر في كلام بهلول،

فانطلق نحوه مسرعا و قال بصوت مرتفع: « يا بهلول فسر لي كلامك هذا » فرجع إليه بهلول و قال:

- ١- المرأة التي هي في كامل اختيارك، هي البنت الباكر التي تسعدك دائما.
- ٢- المرأة التي يكون نصفها في اختيارك، هي المرأة الثيب التي كان لها زوج قبلك.
- ٣- المرأة التي تكون منفصلة عنك بالكامل هي المرأة الثيب التي لها طفل من زوجها السابق. فيذكرها طفلها به لأنه أبوه.

ثم هتف بهلول قائلاً: « ابتعد عني لئلا يرفسك فرسي » و اتجه نحو الصبية ليلتفوا حوله و يلعبوا معه. فتعجب الباحث من حدة ذكاء بهلول و تدييره فتبعه و عندما أدركه سأله: « ماذا تفعل مع الأطفال بقصبتك هذه و انت بهذا الذكاء؟! قال بهلول: « هؤلاء الوحوش (أعضاء حكومة هارون الظالمة) طلبوا مني أن أكون قاضيا للمدينة، فرفضت طلبهم هذا و حينما اصروا على لعدم عثورهم على أحد بعلمي و ذكائي تظاهرت بالجنون لأتخلص من شرهم. أجل، فلو لم أظاهر بالجنون امام هؤلاء الظلمة الذين يدعونني لإعانتهم على جورهم و بغيهم، فأنا مجنون واقعي. و الذي يتأمل في هؤلاء الجلادين الظلمة ولا يتظاهر بالجنون ليخفي ما في نفسه فهو مجنون حقيقة. فالعلم هو الذي يذوب في الحقيقة، لا ذلك الذي يتخذ كحرفة لبلوغ الاطماع الحيوانية الجوفاء و علمي هو من النوع الأول الذي هو طريق السعادة، لا من النوع الثاني الذي هو سبيل التجارة، لقد بعث إنسانيتي لوجه الله تعالى، بكسب الحلال لا بكسب الشيطان ».

« الطبيب والشيخ المريض »:

ذهب شيخ مسن إلى الطبيب يشكو داءه فقال للطبيب: « أنفي يؤلمني »، فقال الطبيب: « بسبب الشيخوخة ».

الشيخ: « بصري ضعيف ».

الطبيب: « بسبب الشيخوخة أيضًا ».

الشيخ: « لا ألتذ بالطعام و الشراب ».

الطبيب: « بسبب الشيخوخة أيضًا ».

الشيخ: « لقد انحنى ظهري ».

الطبيب: « بسبب الشيخوخة ».

الشيخ: « هناك ألم في عيني ».

الطيب:» بسبب الشيخوخة».

وهنا غضب الشيخ وقال للطبيب:» أيها الأحمق الجاهل! ألم تعلم من علم الطب سوى هذه الجملة فقط».

الطيب:» هذا الغضب و نفاذ الصبر بسبب الشيخوخة أيضاً».

أجل يا أخي، فالبعض يبدو عليهم الكبر، في حين ان لهم روحا شابة غارقة في الفيض الالهي، في العالم المعنوي، كالأنبياء والأولياء والصالحين... فلا تتعجل بإصدار الأحكام المجحفة بحقهم مستندا على ظاهريهم، و تغض البصر عن سيرتهم بسبب الصورة، بل تعمق في جوف قلوبهم، واستلهم من طراوة و نشاط أرواحهم المعنوية. اجعل صفاء قلوبهم مرآة لنفسك و استطلع سرائرهم تعرف قدرهم و شأنهم.

« حديث الطفل اليتيم بالقرب من جنازة أبيه »:

بينما كان المشيعون يشيعون جنازة أحد الموتى كان ابن المتوفى واقفا على التابوت و هو يبكي ويقول:» أبي العزيز سيذهبون بك إلى حفرة مظلمة عميقة، لا بساط فيها ولا نور و... « فسمعه طفل فقير كان واقفا هناك مع أبيه، فالتفت إلى أبيه و قال له: « انهم سيذهبون بهذا التابوت إلى كوخنا يا أبت! لأن هذه الأوصاف التي ذكرها هذا الطفل تنطبق على بيتنا، إذ لا يوجد في بيتنا بساط ولا نور أو طعام أو أنية أو ماء». يا لفضاعة القبر، و أهواله و بشاعته، حتى انه أصبح حديثا يدور على ألسنة الجميع حتى الطفل اليتيم.

فلا تنس يا أخي! ولا تجعل قلبك قبرا مظلما خريا. حرر نفسك من حصار مثل هذا القلب، بل الهمة النور و الحياة بتسبيح الله تعالى، لتنجو كما نجا يوسف (ع) من ظلمة السجن و يونس (ع) من أحشاء الحوت، بالشكر و التسبيح.

« البدوي و الحكيم »:

لقي أحد الحكماء رجلا من أهل البادية كان قد وضع كيسين على ظهر البعير و هو جالس فوقهما، فسأله عن محتويات الحمل (الكيسين).

أجاب البدوي: « يوجد في أحدهما قمح و في الآخر رمل و حصى». فقال الحكيم: « و لماذا حملت الرمل و الحصى». أجاب البدوي: « ليتعادل الحمل». فقال الحكيم: « اجعل القمح نصفين، وضع كل نصف في طرف ليخف حمل البعير و تتخلص أنت أيضاً من مشقة ثقل الرمل و الحصى» فاستحسن البدوي اقتراح الحكيم و طبقه،

و طلب منه الصعود على ظهر البعير، رأفة بحاله و اعترافا منه بجميل نصيحته، و في الطريق سأل البدوي الحكيم قائلاً « لابد وانك تمتلك الكثير من البساتين و الأموال و الغلمان و... لحكمتك و علمك هذا، لكن أخبرني لماذا تتجول راجلا حافيا مع كل هذه الحكمة و الخبرة؟ » فأجاب الحكيم: « قسما بالله تعالى أني لا أمتلك حتى عشاء يومي هذا. فأنا أذهب حيثما أجد لقمة العيش عاريا حافيا. و لم أجد من حكمتي هذه سوى الهم و المشاكل ».

و عندما عرف البدوي حال الحكيم، صاح في وجهه: « اغرب عن وجهي لئلا يعديني شوؤمك هذا ».

إن الحكمة التي تبعث على الجمود و الكود و تنحصر في القول دون الفعل لا تعد حكمة بل هي نقمة. الحكمة العملية، تبعث على النشاط و الإبداع في الفكر، بالضبط كما يفعل الشلال الذي يحيي الأرض بعد موتها.

« نصيحة الجمل للفأر المغرور »

أخذ فأر بزمام بعير و سار في الطريق متبخترا. و سار الجمل بجثته العظيمة تلك خلف الفأر المعجب بنفسه. اتضح غرور الفأر هذا للجمل لكنه لم يظهر أي رد فعل بل قال في نفسه: « أيها الفأر الحقيير، ان الوقت ليس بوقت تكبر ووقاحة. اصبركي أربك بأم عينيك وضاعتك وقله شأنك » استمر الفأر و هو يطوي الطريق، أخذنا بزمام البعير حتى وصل إلى نهر صغير، فتوقف هناك، ولم يتمكن من مواصلة السير.

فقال له البعير: « لم توقفت؟ تحرك! » فأجابه الفأر: « ان هذا النهر واسع و عميق، ولو نزلت فيه لغرقت » فقال البعير: « دعني أحدد عمق الماء أولا، ثم انزل انت فيه ». فبلغ عمقه إلى ركبة البعير، فالتفت إلى الفأر و قال له: « أيها الفأر: هناك ركبة عن ركبة، فهو بالنسبة لك نملة، اما بالنسبة لي فهو ثعبان، بالنسبة لك إلى الركبة، لكنه يتجاوزني مئات الأذرع ». و هنا قال البعير للفأر: « كن حذرا و اياك و الوقاحة و التكبر! أيها الضعيف لو احببت التظاهر، ليكن مع الفئران. أين الفأر من البعير؟! » قال الفأر: « لقد تبت و لن أتكبر بعد الآن، أرجوك أن تأخذني إلى الجانب الآخر من النهر ». فرق سنامي، لأخذك إلى الضفة الأخرى. فاني أود اجتياز النهر، و يمكنني أن آخذ معي الألفا مؤلفة من أمثالك و أعبر بهم النهر ».

فإن لم تكن أميرا فكن مواطنا عاديا! و إن لم تكن ملاحا للسفينة فلا تتول قياداتها.

٣٠- التحليق اللامحدود في الفضاء الكوني »:

ذهب جمع من المريدين إلى قطعهم و اشتكوا عنده من تصرفات أحد رفاقهم و اسمه (عبد الباقي) و قالوا ان فيه ثلاث خصال قبيحة، فهو كثير الكلام و المنام و الطعام. فأمر زعيمهم باحضار عبد الباقي و عندما حضر قال له: « كن معتدلا في الحالة التي انت عليها، فقد جاء في الحديث « خير الأمور أوسطها » فكن معتدلا على الدوام و اياك و الافراط و التفريط! ». فاعتذر عبد الباقي من عدم ارتياح زعيمه منه و قال له: « الحد الأوسط أمر نسبي، فالجدول الصغير على سبيل المثال، ليس بذلك الشيء الذي يذكر بالنسبة للجمل، لكنه نهر عظيم بالنسبة للفرار، كل من يرغب في تناول أربعة أرغفة من الخبز فحده الأوسط رغيفين اثنين أو ثلاثة، و لو تجاوز حده الأوسط فسيذهب ضحية الجشع و الطمع كالبط، و الذي يرغب في عشرة أرغفة فحده الأوسط ستة و » و زبدة القول: « ان الحد الأوسط لكل شيء إنمّا يقاس بالنسبة لذلك الشيء و اعلم ان تعيين الحد الأوسط المناسب ممكن في الأمور المادية (التي لها أول و آخر). أما بالنسبة لله تعالى و لقائه الذي ليس له أول و لا آخر . أما بالنسبة لله تعالى و لقائه الذي ليس له أول و لا آخر، فلا حد أوسط له كذلك، و لا يمكن لأحد تعيين ذاته تعالى اللامتناهية و تحديدها و أما فيما يتعلق بكثرة نومي، فأنت تنظر بعينك، لكن قلبك غارق في النوم على العكس مني فقد رقدت عيني إلا ان قلبي فطن و مستيقظ، و اما بالنسبة لكثرة اكلي فان الاكثار من تناول الأطعمة اللذيذة الأطعمة اللذيذة و الجيدة يعد قليلا مهما كثر ».

إذن! لا يفوتك أخي المؤمن أن التحليق في الفضاء الملكوتي لله تعالى لا يحده حد و لا يذهب هذا التحليق عن بالك أبداً.

« الجاهل اللجوج »:

أعطى أحد النحويين مثالا « ضرب زيد عمرا » لغرض بيان حركة آخر الكلمة. (و كما هو معلوم فان كلمة زيد تعد فاعلا مرفوعا، و لفظة « عمرا » تعد مفعولا به منصوبا في الاصطلاح اللغوي).

فقال شخص أحمق لم يدرك الهدف من هذا المقال: « وبأي جرم ضرب زيد عمرا؟! فأجابه النحوي: « هذه الجملة هي مجرد مثال، و قالب للمعنى فخذ لب هذا المثال دون قشوره! و الاستشهاد بزيد و عمرو، إنما هو لغرض بيان أواخر الكلمات و ما تلحقها من العلامات، فتأمل في هذا الشيء و لا تبال بالمعنى ». لكن ذلك الجاهل الذي لم يوفق

لاستيعاب المطلب، اصر قائلاً: «ما هو ذنب عمرو حتى يضربه زيد؟» فاضطر النحوي، وقال له من باب المزاح: «لأن عمرو كان قد سرق واوا، فضربه زيد لأنه تجاوز حده، و لهذا استحق العقاب والتأديب بالنتيجة» فاقتنع الأحمق بهذا الجواب الذي لا أساس له من الصحة.

فانتبه يا أخي! و حذار أن يغطي حجاب سقم الفكر على بصيرتك فترى الحق باطلا و الباطل حقا، و يبدو لك الظالم مصلحا و المصلح الحقيقي ظلما مغربا.

« شجرة العلم »:

أشار أحد الحكماء بين جمع من أصدقائه إلى ان هناك شجرة في الهند، لو تناول أحد من ثمارها فإنه سيبقى على شبابه و لن يموت فسمع السلطان هذا الكلام و صدقه، حتى عشق تلك الشجرة و اصبح كالولهان غارقا في حمها. فأرسل رسولا إلى الهند للبحث عنها.

توجه ذلك الرسول إلى الهند و شرع بالبحث عن تلك الشجرة في الجبال و الوديان و الصحاري لسنين متوالية، و طلب من الناس أن يدلوه على محل تواجدها، لكنه لم يوفق في مهمته هذه و لم يعثر على أي أثر لها، بل كان أكثر الناس يسخرون منه و يستهزؤن به و يقولون له: «إنسان ماهر مثلك لا يبحث عما يخالف الواقع».

واستمر رسول السلطان في البحث و التنقيب لكنه لم يعثر على مثل هذه الشجرة، فصمم على العودة إلى بلده يائسا مكسور الخاطر، و في أثناء عودته وصل إلى منطقة يوجد فيها رجل عارف عالم، فتوجه إليه و عرض عليه مشكلته، و طلب منه ان يطلعه على تلك الشجرة، فضحك ذلك العارف و قال له: « المراد بهذه الشجرة شجرة العلم العالية جدا ذات الظلال الوارفة و هي نفسها نهر الحياة، الذي يستمد ماءه من المحيط الالهي اللامتناهي. لقد تصورت أيها المسكين بأنها شجرة عادية، فتركت المعنى و ذهبت وراء الخيال و الصورة فللعلم اسما شتى تارة يطلق عليه اسم الشجرة و أخرى الشمس، البحر، السحاب و... و له مئات الآلاف من الآثار و النتائج أحدهما العمر الخالد».

إذن يجب ألا نغفل عن شجرة العلم، و لننتهز الفرصة للمعنوية العلم لتبقى قلوبنا شابة فعالة على الدوام، كما أن ذكر العلماء خالد أبدا.

« الخبير ولغز العنب »:

اجتمع أربعة أشخاص من مناطق مختلفة (عربي ورومي وتركي و فارسي) في محل واحد. فأعطاهم رجل عدة دراهم لينفقوها فيما بينهم. فوقع النزاع بينهم حول كيفية صرف تلك الدراهم. فقال الفارسي: « اني احب ال (أنكور) أي العنب ». وقال العربي: « معاذ الله، إني أريد العنب »، وقال التركي: « اني أريد ال (نوزوم) أي العنب » وقال الرّومي: « إني أريد (استاقيل) أي العنب أيضًا ».

فقد أراد أربعتهم العنب و لكن بسبب عدم ادراكهم لمعاني هذه الأسماء التي تلفظوها، فقد تصوروا بأن كل واحد منهم يريد شيئاً ير الذي يريده صاحبه. وفي تلك الاثناء مر بالقرب منهم عالم مطلع على هذه اللغات الأربع، فتوجه نحوهم و علم السر في نزاعهم هذا، فقال لهم: « اعطوني تلك الدراهم، لأحقق بها امانيكم انتم الأربعة » فاشترى بها عنبا و اعطاهم اياه، فبلغ كل واحد منهم مراده و استبدل نزاعهم صلحا و اتحادا! « لذا فقد أصبح تذوقهم للعنب حلوا، و ابتهجت نفوسهم بحلاوة الصلح و الاتحاد ».

و هذا هو أسلوب الأنبياء (ع) حيث انهم يثبتون اركان الوحدة بين جميع البشر، لاطلاعهم على مختلف اللغات و الغايات. مثل النبي سليمان (ع) الذي خلق بين الحيوانات تلك الألفة و الاتحاد لمعرفة بلغاتهم حتى ان الغزال كان يسرح و يمرح إلى جانب النمر. وهو أيضًا سبيل المؤمن العارف بالله تعالى، بالضبط كما صنع رسول الله (ص) حيث حقق الوحدة و التآزر بين قبيلتي الأوس و الخزرج.

« عاقبة عدم الاصغاء للعظماء »:

التقى أحد الحكماء في الهند بمجموعة من المسافرين، فعلم أن زادهم قد نفذ، وأصبح الجوع يهددهم، فقال لهم الحكيم رافة بهم: « أصدقائي الأعزاء! أعلم أن الجوع قد أخذ منكم مأخذه، لكن لدي نصيحة أرجو قبولها! ستمرون خلال هذا الطريق بصحراء تكثر فيها صغار الفيلة الممتلئة و السمينة، و حذار ثم حذار من ان يدفع بكم الجوع إلى قتل صغار الفيلة تلك و تناول لحومها و الا فستهجم عليكم امهاتها و تمزقكم إربا. أكرر ثانية، لا ينبغي أن تلوثوا أيديكم بدماء أي واحد من صغار الفيلة تلك. احذروا من ان يتغلب عليكم الجشع و الطمع، « مثلما كان الأنبياء (ع) ينصحون الناس بهذه

النصيحة قائلين لهم: كونوا يقظين، لا تسمحوا للغرائز الحيوانية أن تسيطر عليكم.»
نعم لقد واصل المسافرون مسيرهم و كان الجوع قد أنهكهم جميعاً، و فجأة شاهدوا
أحد صغار الفيلة، فاصطادوه و اكلوه، لكن أحدهم إلترزم بنصيحة الحكيم فلم يلوث
يديه بدم ذلك الفيل الصغير، و لم يتناول شيئاً من لحمه أبداً.

و نتيجة لإفراطهم في الأكل فقد غشهم النعاس فاستلقوا على الأرض باستثناء
الشخص الذي أبي أن يأكل فقد بقي يقظاً يحرسهم و كانت رائحة لحم ذلك الفيل
الصغير تنبعث من أفواههم خلال الزفير.

و فجأة لاح من بعيد فيل عظيم رهيب، متوجها صوبهم، و كان هذا الفيل، أم الفيل
الصغير، و عندما وصل إليهم إتجه أولاً نحو ذلك الحارس، فأخذ يشم رائحة فيه، فلم
يشم رائحة لحم صغيره، كرر ذلك مرات عديدة، فلم يعثر على شيء فتركه و لم يلحق
به أي أذى ثم توجه هذا الفيل العظيم إلى اولئك النائمين، و أخذ يشم رائحة أفواههم
فاستنتج أن الرائحة التي تفوح من أفواههم هي رائحة لحم صغيره و عندما تيقن بأنهم
هم الذين اهرقوا دم وليده، أخذ يرفعهم الواحد تلو الآخر بخرطومه و يضرهم على
الأرض، حتى مزقهم شر ممزق.

ولا يخفى أن النبي (ص) كان يشم رائحة الفضيلة من اليمن إلى الشام و كان يحس
أيضاً بعفونة من ماتت قلوبهم و لم تبلغ الحق.

« ثعبان النفس »:

يروى ان أحد الأشخاص قصد المناطق الجبلية الوعرة ليصطاد بسحره و فنه أحد
الثعابين و من ثم يأخذه إلى (بغداد) كي يتفرج عليه الناس و يعطوه بعض المال. حيث
كانت مهنته اصطياد الأفاعي و الثعابين.

و حل فصل الشتاء و هو ما يزال بين الصخور و قلال الجبال إلى أن عثر و بعد مشقة
كبيرة على ثعبان عظيم في أحد الجبال، و كان عاجزاً عن الحركة لضعفه و لشدة البرد
القارص، و لكنه بالرغم من ذلك كان يبدو ضخماً الجثة كالعمود. فجاء به ذلك الصياد
إلى بغداد بعد عناء شديد، و صاح في وسط المدينة فتوجه الناس من كل حذب و صوب
إلى صفة نهر دجلة (ببغداد) واجتمعوا هناك حتى بلغ عددهم مائة ألف نفر، وهم على
أحر من الجمر لرؤية ذلك الثعبان الذي كان مطويماً في قطع من القماش و قد جمده
البرد.

استمر الناس جماعات و ازداد عدد المجتمعين هناك، و ارتفعت أشعة الشمس

شينا فشيئا، فيما بدأ الجو بالدفء و عندما سقطت أشعة الشمس على الثعبان أعادت إليه الحركة و النشاط. و فجأة شاهدوا ان الثعبان بدأ بالالتواء و الحركة فاملؤا رعبا و لاذوا بالفرار، بشكل أودي بحياة العديد منهم تحت أقدام الفارين. أما صياد الثعابين فقد شلت أعضاؤه و لم يتحرك لشدة خوفه و بدا كالشاة الهزيلة امام الذئب. فهجم عليه الثعبان و التقمه ثم ابتلعه، و التف بعد ذلك حول عمود غليظ حتى تكسرت عظام الصياد في بطن الثعبان. و ترك الناس المدينة لشدة خوفهم و اتجهوا نحو الصحارى و الأودية هربا من الثعبان. فلا تغفل يا أخي، فإن نفسك هي ذلك الثعبان الذي لو حصل على الدفاء و القدرة لقلب حياتك رأسا على عقب.

فثعبان النفس هذا كالذودة و البعوضة امام المشاكل و الصعاب. لكن هذه الذودة و البعوضة نفسها، تتحول إلى أفعى و صقر بسبب التحليق في فضاء المال و السلطان. فلا تظن أو تتوهم أن بإمكانك السيطرة على جشع النفس بالتي هي أحسن و بدون أن تقاومها بكل قوة. و هل يتمكن الإنسان الضعيف من السيطرة على النفس الحيوانية؟ ان الرجل الشجاع مثل موسى (ع) قادر على أن يدمر كل أفاعي فرعون النفسية بالعصا التي في يده (عصا التوحيد و الايمان). إذن كيف صمد موسى (ع) و تستلهم معنوياته، عندما تقاوم النفس.

« عدم اكتراث المتدين بالأمر التافهة ».

ذهب رجل إلى الحلاق و قد خالط الشيب شعر لحيته و قال له: « بما اني عثرت على زوجة جديدة، فأرجوك أن تزيل الشعر الأبيض الذي في لحيتي » فقام الحلاق بحلق كل شعر لحيته، دون ان يلتفت إلى كلامه، و وضعه امامه و قال له: « بالنظر لكثرة مشاغلي، قم انت بفصل الشعر الأبيض عن الشعر الأسود! ».

لطم شخص زيدا لطمة على قفاه فهجم عليه زيد لينتقم لنفسه، فقال الرجل لزيد: « هلا أخبرتي عن الصوت الذي علا من وراء رقبتك، هل كان صوت يدي أم صوت قفاك؟! » فقال زيد و هو واضح يده على مكان الضربة من شدة الألم: « إني متأثر من ألم الضربة، ولا مجال عندي في التفكير بغير ذلك ».

لذا فان الغفلة و اللامبالاة، تأخذان بفكرك يا أخي إلى هنا و هناك ولو كنت تتألم للدين لاختص فكرك بالحق تعالى دون التفكير بالأمر التافهة.

« المريض النفسي »:

يروى أن معلما افتتح مدرسة خاصة في قديم الزمان. فحضر عنده كثير من الأطفال. و كان حريصا جدا على الدرس لدرجة انه لم يسمح بالتعطيل أبدا، بل لم يمنحهم حتى ساعة واحدة للاستراحة، فنفذ صبر الأطفال و قالوا: ان الأستاذ لا يمرض أبدا، ولو لعدة ايام لنستريح منه بعض الشيء. فتشاوروا فيما بينهم للبحث عن مخرج. و كان أحدهم أذكي الجميع، فقال لهم: تعالوا لنتفق جميعاً، و ندخل على الأستاذ عند مجيئه، واحدا بعد الآخر و نقول له: « رافقتك السلامة، ماذا حدث كي يشحب لونك هكذا، هل أصبت بالحمى لا سمح الله تعالى؟ » و لو قلنا له هكذا كلنا، فان كلام كل واحد منا سيؤثر عليه بعض الشيء و سيزداد قلقا بذلك، و عندما سيشعر بالمرض تتعطل المدرسة، و نرتاح بعض الوقت. فوافق جميع الطلبة البالغ عددهم ثلاثين طالبا على اقتراح هذا الطفل الذكي و تعهدوا بعدم إفشاء هذا السر لأي أحد أبدا.

و في صباح اليوم التالي وقف الطلاب بشكل منتظم منتظرين الأستاذ، و عندما جاء المعلم، تقدم نحوه أحد الأطفال و قال له بعد أداء التحية و السلام: « رافقتك السلامة يا استاذ! لماذا لون وجهك شاحب؟ هل أنت مصاب بالحمى؟! ... » فقال الأستاذ: « اذهب و اجلس، صحتي جيدة » لكنه تأثر في نفسه بعض الشيء.

ثم تقدم الطفل الثاني و استفسر عن صحة استاذه مثل الأول، فازداد قلق الأستاذ بعض الشيء. ثم الطفل الثالث فالرابع فالخامس ف... كل يأتي و يتكلم مع الأستاذ كما تكلم الأول و يذكره بشحوب الوجه و الحمى و المرض. فاضطرب الأستاذ و أخذ يفكر في صحته. لقد خلفت كلمات الأطفال في الأستاذ حالة نفسية عجيبة و اقلقتة بشكل جعله يأمر بتعطيل المدرسة، فقصد منزله و اعصابه متوترة. و عندما فتح الباب قال لزوجته معترضا: « ما هذه اللامبالاة انت لم تستفسري عن أحوالي و صحتي أبدا! » فقالت له زوجته: « هذه حالة نفسية، و إلا فان صحتك جيدة جدا ». قال الأستاذ: « مازلت تناقشيني، ألا تشاهدين وجهي الشاحب! ما هو ذنبي عندما تكونين عمياء خرساء ». فقالت المرأة: « دعني أتيك بالمرأة لتنظر إلى صورتك و تتيقن من صدقي ». فقال الأستاذ: « كفي، فان رأسي تؤلمني، افرشي لي الفراش كي استريح ». و قفت المرأة قليلا فصاح: « اسرعي افرشي الفراش يا عدوتي ». ففرشت له الفراش. فاستلقى مغطيا جسمه و هو يردد ب استمرار (آه، آه).

بعد هذا، أجبر الأطفال على المجيء إلى بيت الأستاذ المريض لقراءة الدرس هناك. و بعد مضي عدة أيام شعروا بعدم الارتياح، ثم قالوا في أنفسهم: « لقد انقلب حالنا من السيء إلى الأسوء لقد أصبحنا هنا في سجن! »

فقال الطفل الذي مرة أخرى: « ارفعوا اصواتكم عند قراءة الدرس! » و ما ان رفع الأطفال أصواتهم حتى قال ذلك الطفل الذي: « اهدؤا! فاصواتنا تزيد من مرض الأستاذ و صداعه ». فزاد هذا الكلام من تصورات الأستاذ النفسية ثم قال للأطفال: « لقد صدق هذا الطفل، قوموا و غادروا هذا المكان لئلا يزداد صداعي ».

خرج الأطفال و انطلقوا مسرعين إلى بيوتهم كالحمامات التي تتحرر من القفص. و في صباح اليوم التالي، قامت امهات الأطفال بعيادة الأستاذ فإذا به ملتحفا و العرق يتصبب من وجهه و جسمه و هو يئن. فبكين و قلن للاستاذ: « متى مرضت؟ ما كنا نعلم بذلك أبدا... » فقال الأستاذ: « أنا أيضًا لم أعلم، فانشغالي بالدروس جعلني أغفل عما يجري في نفسي، و قد نبهني الأطفال على مرضي هذا. مثل نساء مصر في مجلس يوسف (ع). فقد انشغلن بالنظر إلى وجه يوسف (ع) حتى قطعن أيديهم بدلا من قطع الفاكهة و هن لا يشعرن بذلك. أو كالأبطال في سوح القتال، حيث فكرهم منصب على مواجهة العدو، حتى ان أيديهم لو تقطعت لرفعوها و حاربوا بها، دون أن يلتفتوا إلى الدماء الغزيرة التي تسيل منهم ».

أن بدن الإنسان بالنسبة لروحه، كالثياب التي تغطي جسمه، لذا لا تتعلق كثيرا بالثياب! و لا تهتم حتى لو تمزق بدنك بل اسع للتحليق بروحك عاليا، و لاتخش من أن تخرج الروح من البدن.

خلاصة القصة:

- ١- لا تستسلم للأوهام.
- ٢- لا تحبس فكرك في قفص الماديات، بل خصص جل افكارك للقضايا الأساسية المهمة.

«جزاء العابد الذي نقض عهده»:

توجه شخص عابد نحو الجبال بعيدا عن ضوضاء المدينة ليتفرغ للعبادة، فاستأنس بذكر الله تعالى ليلا و نهارا، وهو يدعو و يتضرع و كانت في ذلك الجبل عدة أشجار مثمرة كالتفاح و الرمان و الكمثرى، فضمن العباد غذاءه لمدة سنة من ثمار تلك الأشجار. و أخذ على نفسه عهدا أن لا يمد يده إلى الأشجار لجني الثمار، بل سيكتفي بالفاكهة التي تسقطها الرياح على الأرض.

و قد حافظ على عهده و نذره هذا الأسابيع و اشهر، لكنه واجه في أحد الايام امتحانا صعبا، إذ لم تهب الرياح على تلك الأشجار لمدة خمسة أيام، وهو لا يزال على

عهده مع انه يتضور جوعاً.

أخيراً نهض ووقف قرب شجرة، فشاهد عدداً من الكمثرى على أحد الأغصان، و في تلك الأثناء هبت ريح شديدة جعلت ذلك الغصن يميل عليه، و قريباً من تناول يده. فآثر الجوع فيه كثيراً و تغلب عليه الاستسلام، فنقض العهد، و قطف عدداً من الكمثرى من ذلك الغصن فبطل نذره و انتقض عهده.

نعم، ان طريق الكمال وعر ولا يخلو من الامتحان و البلاء، كما أن الغرائز الحيوانية عندما تتغلب على الإنسان تجعله مستعداً لنقض عهد الله تعالى. لقد غضب الله تعالى على العابد و استحق العقاب.

كانت هناك مجموعة من اللصوص الذين يبلغ عددهم حوالي العشرين لصاً، تقيم في نفس المنطقة الجبلية التي كان العابد يقيم فيها، و يقيم هؤلاء في بيت بعيد عن الانظار حيث يجمعون فيه كل مسروقاتهم ثم يقسمونها فيما بينهم في الوقت المناسب. و في إحدى المرات علم المسؤول عن أمن البلدة عن طريق جواسيسه بمحل إقامة اولئك اللصوص. و لم تمض فترة حتى القت شرطة المدينة القبض على اللصوص و معهم ذلك العابد، فربطت أيديهم و أرجلهم، و أخذوا يقطعون أيديهم و أرجلهم من خلاف طبقاً للقانون و خلال تلك الضجة و بينما هم يقطعون أيدي اللصوص و أرجلهم قطعوا يد ذلك العابد الذي اقتادوه مع اللصوص أيضاً. و بعد أن قطعت يده التفت إليه أحد العاملين هناك فعرفه ثم صاح: « ان هذا عابد و ليس بلص، فلماذا قطعتم يده؟... » فابلغوا الرئيس بذلك فوراً، فاسعر الرئيس إلى العابد و اعتذر منه و أسم على عدم علمه بالمرء. فقال العابد: « أنا أعلم سبب هذا الحادث. فبالرغم من يقيني أن نقض العهد غير صحيح، فقد قمت بنقض عهدي (أجل، بنفس هذه اليد المقطوعة نقضت عهدي)، لذلك أنا استحق هذا العقاب ».

لم يبذ العابد أي رد فعل سلبي، بل كان شاكرًا لله تعالى على الدوام، حتى بعد أن قطعت يده. فحياه الله سبحانه ثواب صبره و شكره، و انزل عليه المزيد من النعم. أجل، فلو أغلق الله تعالى باباً لحكمة ما، فسيفتح باباً آخر للرحمة.

« ثمرة تفكر الصائغ ».

اتجه شيخ ضعيف نحو الصائغ و قال له: « لطفاً أعطيني ميزانك لأزن به قطعة من الذهب! » فقال الصائغ: « معذرة أيها الشيخ، لا يوجد عندي غريال ». قال الشيخ: « إنمّا أردت ميزاناً » فقال الصائغ: « عفوا، لا توجد عندي مكنسة » قال الشيخ: « أرجوك لا تستهزئ فاننا أريد ميزاناً » قال الصائغ: « لقد سمعت كلامك، و لست أطرشاً أو غيبياً،

فقد تمعنت في حالك فوجدتك شيخا هرما، بدنك يرتعش بأجمعه، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، أن الذهب الذي بحوزتك ناعم و دقيق، و عندما تريد أن تزنه سيتساقط على الأرض، و عندها ستطلب مني مكنسة و من ثم غربالا. و نتيجة للتمعن في الأمر و عاقبته، أرحت بالك و خلصت نفسي منك.»

نعم، فالذي يقتصر نظره على بداية الأمر فقط فهو أعمى حقا. أما الذي يتأمل الأمر و مراحلها من بدايته إلى نهايته، و يتمعن فيه بصورة جديدة، فلن يندم أبدا.

« بعد النظر »:

تحدث بغل مع بعير و قال له: « يا صديقي! أنت لم تعثر أبدا و لم تسقط، لكني اعثر سواء كنت على اليابسة أم الأرض الرطبة، فأخبرني بالسبب لأعرف كيف ينبغي التصرف»، فأجاب البعير: « لأن بصري أقوى من بصرك و أعلى منه، كما اني أراقب الصعود و النزول أثناء سيرتي وأخطو إلى أمام طبقا لهذه النظرة. لذلك لم أعثر أبدا. فأنا أبصر عشرات الأقدام أمامي، في حين لا ترى أنت أمامك أكثر من قدمين أو ثلاثة. أنت تنظر موضع قدمك فقط دون الحفرة التي تبعد عنك بضعة أقدام.»

« العاشق الحقيقي »:

قال شخص لعاشق: لقد سافرت كثيرا و شاهدت مدنا و أماكن جميلة، فاية مدينة أفضل و أجمل؟
العاشق: تلك المدينة التي يقطنها معشوق الإنسان، فأينما حل معشوقنا فهو واسع كالصحراء، حتى لو كان ذلك المكان بقدر ثقب الأبرة، بل لو كان في قعر الحفرة فهو الجنة بالنسبة لنا، مثل يوسف (ع) الذي كان في قاع البئر.
لو كان المعشوق في الجحيم فهو الجنة، لو كان في السجن فهو الحديقة الخضراء، زبدة الكلام أنه كلما كان المعشوق في الجحيم فهو الجنة، لو كان في السجن فهو الحديقة الخضراء، زبدة الكلام أنه كلما كان المعشوق معي فأنا مسرور حتى لو كنت أعمى.

« النظرة الالهية ».

عشق شاب فتاة جميلة و هام في حبها ثمان سنوات، لكنه لم يفلح حتى بالتطلع إلى ظلالها الرقيقة سوى السماع من الآخرين عن أوصافها، لثمان سنوات، ولم يزد إلا عزمًا و تصميمًا على الوصول إليها و في إحدى الليالي المظلمة دخل ذلك الشاب أحد البساتين ممتطيا صهوة جواده هربا من انظار الحارس الليلي الذي كان يتردد هناك نظرا لمنع التجول ليلا في تلك الأيام فالتقى صدفة بمعشوقته هناك و بهذا تحطم طوق البين و نال مراده الذي دام ثمان سنوات بليلها و نهارها. فشكر الله تعالى و دعا لذلك الحارس بالموفقية في الدارين و نيل ما يتمناه لأنه كان السبب للعاشق كالعلاج من السم القاتل مع كونه مرا كالعقم الذي لا يطاق بالنسبة للآخرين (لقد أصبح الداء دواء مثل النار المستعرة التي عادت روضة غناء لابراهيم (ع).

من هذا المثال يمكننا استنتاج هذه الثمرة:

إن سم الحية الذي يعني الموت بالنسبة للإنسان، إنمّا يعني الحياة نفسها بالنسبة لنفس الحية، و... فزيد مثلا وهو شخص واحد، يعد ملاكا من قبل شخص و شيطانا من قبل آخر فهو بالنظرة الولي حسن و بالثانية قبيح.

لو أردت التطلع إلى الله تعالى فاسع للحصول على النظرة الالهية و كن مع الله تعالى ليمنحك مثل هذه النظرة، أو انظر إلى الله تعالى من خلال نظرة الموحدين الحقيقيين (كالأنبياء و الأولياء) و حينما تحصل على نظرة كهذه تعد بمثابة آية من آيات الله تعالى التي تدل على عظمته و إبداعه، و حينئذ يبدو لك المر حلوا و الصعب سهلا.

« انتقاد المعشوق لوقاحة العاشق »:

و حينما التقى العاشق بمعشوقته في القصة المتقدمة بعد ثمان سنوات. أراد تقبيلها، فنهزته بشدة ووقفت جانبا و قالت له: « كن مؤدبا ولا تهور ».

فقال العاشق الولهان: لا أحد هنا لأخجل منه، سوى الريح التي تهب هنا و هناك. فما المانع يا ترى؟

قالت الفتاة: أيها العاشق المجنون، اعلم ان هناك من يحرك الريح. فالريح انواع، فهي لبعض نعمة و لبعض نقمة. فلقوم هود المذنبين كانت صرصرًا عاتية، و لنفس هود (ع) كانت كريح الصبار رقيقة لطيفة. و هي تارة ريح الربيع و أخرى ريح الخريف الثائرة.

لقد حسبتني أيها العاشق الولهان شاة بلا راع. لا يفوتك ان العشاق يعانون من قلق

دائم لأنهم إنمّا ينظرون إلى ما يدفعهم إليه عشقهم الأعشى. انهم لا يصدقون بوجود مالك للغزلان فيقدمون على أعمال لا تحمد عقباها انطلاقا من تصوراتهم الجوفاء تلك ولا يلتفتون إلى الحقيقة الا بعد تصيب السهام قلوبهم الولهي.

فاعتذر العاشق و قال: لقد أردت اختبارك لأقف على مدى أمانتك و عفتك و عصمتك و مع اني اعرفك قبل الاختبار أيضًا، لكن ليس من رأى كمن سمع.

ردت الفتاة عذر العاشق الواهي هذا بشدة و قالت له: ان مكرك مفضوح عندي. لماذا تخرج عن الحد المعقول حينما تراني أتسامح و أتساهل؟ اتعظ بأبينا آدم (ع)، إذ أنه حينما أذنب بترك الأولى، جثا على الأرض و أبدى ندمه و قال مناجيا الله تعالى بكل تواضع و حسرة «ربنا ظلمنا انفسنا...» (الاعراف ٢٢) و لم يحلق متنقلا من غصن إلى غصن باحثا عن خدعة مصطنعة.

فالنظرة الواقعية هي السبب وراء تكامل الإنسان.

و أنت أيضًا أيها العاشق المتيم، لا تتحايل، بل كن متواضعا معترفا بواقع الأمر ولا تبحث عن الاعذار كما كان يحوكها ابليس مع الله تعالى.

« قصة المرأة المخادعة »:

بينما كانت امرأة عاهرة بصحبة رجل غريب في بيتها مستغلة خلو المنزل من زوجها الذي يغادرها صباحا و خلافا للمعتاد فقد طرقت زوجها الباب فاضطربت مع صاحبها و طفقا يبحثان عن مكان آمن يختبئان فيه، فتعلقت بكل حيلة لإخفاء هذا الشيء العظيم الذي أتت به، لكن هيمات فلا زواية ولا حفرة تغطيهما غدا البيت واضحا للعيان لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها و كأن يوم القيامة قد حلّ. فلم يكن أمامها سوى أن وضعت عباءتها على رأس ذلك الرجل الغريب ليتمكن من الخروج من البيت و حينما رآه زوجها أمام الباب، سأل باستغراب: من هذا الشخص المغطى بالعباءة أني لم أراه من قبل؟!!

الزوجة: إن هذه السيدة المحترمة من اعيان المدينة و ترغب في خطبة ابنتنا لولدها. لقد جاءت لرؤية البنت لكنها و لسوء الحظ ذهبت إلى المدرسة. أنها معجبة بنا جدا و تصر على هذه الخطبة بغض النظر عن مدى لياقة ابنتنا.

الزوج: إن حالتنا المادية المتدهورة لا تسمح لنا بالارتباط بمثل هذه العائلة المحترمة. الزوجة: لقد اخبرتها بذلك، لكنها اكدت على الجانب الأخلاقي للعائلة دون القضايا الثانوية الأخرى.

و هكذا بقي الزوج يكرر التأكيد على الفارق الطبقي بينهما، و الزوجة تبادره باهتمام هذه السيدة المحترمة بعفة الفتاة و تراوغ بالحديث عن الخصال الحميدة كالعفة و الطهارة لتبرئة ساحتها و لم تخجل من الله السميع البصير تعالى. فقد لوثت سمعتها أكثر من مرة فيما سبق و لم تكثرت لذلك لغفلة زوجها عنها، و فاتها ان كل حال يزول و انه لشمس الحقيقة أن تسطع في يوم ما.

أسماء الله تعالى إنّما هي اسماءه الحقيقية و من صفاته القديمة. فقد سمي نفسه « بصيرا» ليمنعنا اعتقادنا برؤية لنا عن ارتكاب الذنوب و سمي نفسه « سميعة» لنصون السنننا عن الكلام البذيء و سمي نفسه « عليما» لئلا تراودنا الأفكار الانحرافية.

يمكنك التعرف من خلال هذه القصة على الأشخاص الماكرين الذين يكون لحن القول و تهافت الحديث ملازمين لهم. إذ مع سقوطهم الأخلاقي نراهم يؤكدون على الأخلاق الحميدة امام الآخرين و يتظاهرون بها.

انهم لا يولون أي اهتمام يذكر بالله تعالى.

فلا يخدعنك مثل هؤلاء الافراد. ولو تمكنت من تشخيصهم و الوقوف في وجههم فلا تتردد أبدا.

« اغماء الدباغ من عطر الورد »:

بينما كان دباغ يمشي في السوق مر صدفة بين دكاكين العطارين فاغمي عليه بسبب الرائحة الزكية التي تفوح من هناك وسقط على الأرض. فاجتمع الناس حوله لمساعدته. فأخذ أحدهم يدلك صدره.

و الآخر يرش ماء الورد على وجهه غافلا عن ان العطر هو الذي اوقعه في مثل هذه الحالة التي يرثى لها.

و ثالث يفرك وجهه و يديه.

و آخر يحضر بعض الأدوية لعلاج.

و خامس يحرق البخور و يقربه من أنفه.

و سادس يتصور ان حرارة الجو قد اثرت فيه فسعى لتزج ملابسه.

و سابع يضع اذنه على صدره ليطمأن على تنفسه.

و هكذا... غفل الجميع عن السبب في اغمائه هذا. إلى أن حضر أخو ذلك الدباغ و كان رجلا ذكيا جدا فشق صفوف المجتمعين ووقف بالقرب من رأسه اخيه و معه بعض فضلات الكلب، و قال: اني اعرف أخي جيدا، انه يعمل في الأماكن القذرة النتنة من الصباح إلى المساء و قد اعتاد على مثل هذه الأماكن و لذلك اغمى عليه حينما

اجتاز سوق العطارين. دواؤه الوحيد يكمن في هذه الفضلات.
بعد ذلك خلط تلك الفضلات بصورة جيدة و قربها من أنفه، فما أن ملأت أنفه
حتى عاد إليه وعيه في تلك اللحظة.
إذن يا أخي اعلم ان البعض لا تروق لهم ارشادات الأنبياء (ع) بسبب تعودهم على
الردائل التي اصبحت جزءا من كيانهم، وانه لا بد لهم من مقاومتها لفترة ما و القضاء
عليها ليحصلوا على الارضية الصالحة لتقبل عطر الحق و اصلاح النفس.
فكما أن العطر يؤدي ذلك الدباغ، فكذلك نصائح الاولياء تؤذي الغارقين في الذنوب
التي يقاومونها.

« سؤال تافه »

قال رجل معاند لا اطلاع له بعظمة الله تعالى لعلی (ع) حينما كانا معا فوق سطح
مرتفع: هل تعتقد ان الله يحفظك؟
علي: أجل، لقد حفظنا الله تعالى منذ البداية و إلى الآن.
المنكر: إذن، ألق بنفسك من هذا السطح طبقا لاعتقادك هذا، لأتيقن بان الله
يحفظك و بان يقينك مبني على اساس متين.
فنهري الإمام على قائلاً: صه! أيها العبد الضعيف، أية قدرة تلك التي تختبر الله تعالى؟
الاختبار من شأنه تعالى اني اردت ان اختبر صبرك و لطفك؟! من ذلك الذي يجرؤ على
عمل كهذا في حق الله تعالى؟ لو انك اختبرت نفسك حقيقة ووقفت في اختبارك هذا،
لما سمحت لنفسك باختبار الآخرين لاحساسك بأن شعاعا من النور الالهي يسري في
وجودك. و هنالك تكون نظرتك صائبة و تدرك أن أمر الخلق وراءه ثواب و عقاب، إن
كل شيء يجب أن يوضع في موضعه... (لا أن يلقي الإنسان بنفسه من على السطح)،
و هل تجيز قوانين الحكمة و العقل و الوجدان مثل هذا العمل يا ترى؟!
الطريق الذي يؤدي إلى اختبار القائد، غير صحيح بلا شك. و هل من الصواب أن
توزن ذرة مقابل جبل ليحطم هبل الميزان من الأصل؟
أيها الجاحد الجاهل! اعلم أنه في تلك اللحظة التي خطر ببالك اختبار الله تعالى، قد
امتلاً ظلماً و غطته الحجب. لذ بالله تعالى ليصونك و يحفظك من مثل هذه التخيلات
الواهية و الأوهام البالية.

« الرجل أكل الطين ».

ذات مرة ذهب أحد الأشخاص الذين كانوا قد اعتادوا على تناول الطين إلى دكان عطار لشراء بعض قوالب السكر. فقال له العطار: لدي سكر جيد، لكفي أبيعته بشرط استخدام الواح الطين بدل عيارات الميزان المتعارفة. فوافق المشتري على ذلك و قال: المهم بنظري هو نوعية السكر لا كيفية الوزن بالحديد كان أم بالطين، لكنه ما لبث ان قال في نفسه فرصة سعيدة فالطين أفضل عندي حتى من الذهب (أي مثل تلك المرأة التي قالت لولد لها: لقد عثرت لك على فتاة جميلة و أن أباهما يبيع الحلوى. فقال ابنها: إذن ستكون ابنته أكثر قوة و حلاوة، و هذه مزية أخرى).

فوضع العطار قوالب السكر في كفة الميزان و الواح الطين في الكفة الأخرى، ثم ذهب ليأتي بشيء يكسر به قوالب السكر تلك فتأخر بعض الوقت، و ما إن عاد حتى فوجيء بالمشتري يلتمهم أجزاء من ألواح الطين بشراهة. لأن تناقص وزن الطين يعني تناقص السكر و بالنتيجة فقد أكل المشتري الطين و بذنا سيتحمل هو الضرر لا العطار، فقد أضر المشتري نفسه بنفسه في حقيقة الأمر.

إذن يا أخي! لا تغفل عن أن أكلك لحقوق الآخرين في هذه الدنيا أو النظر إلى أعراضهم و . . . إنما يكون على حسابك أنت ليس إلا. فلا تكتف بالظاهر فحسب. فان هبوط شخصيتك معنويًا إنمًا يتناسب مع مدى ما تعكر به صفو حياة الآخرين و العكس صحيح.

« المتلهف لماء المعرفة ».

يذكر أن شخصًا تسلق شجرة جوز و بعدما استوى فوقها أخذ يقطف الجوز ثم يلقيه في حفرة عميقة تتجمع فيها المياه تحت تلك الشجرة. فيرتفع صوت ارتطام الجوز بالماء و تتطاير قطراته هنا و هناك. لكن بالنتيجة يذهب الجوز مع الماء.

فقال له أحد العقلاء: اترك عملك هذا، فالماء يأخذ الجوز ولا يروي عطشك. فأجابته ذلك الشخص: لا علاقة لي بالجوز، فالذي يهمني أمران اثنان: أحدهما الاستماع لصوت الماء، و الآخر رؤية فقاعات الماء المتطايرة.

لا هم للعطشان معنويًا سوى الدوران حول ماء الحوض المعنوي. و هنا وجه مولوي الخطاب إلى حسام الدين و بين الهدف من تدوين مثنوي (كما جاء في المقدمة). و من جملتها قوله:

أيها الإنسان! لا تغفل، فانك عطشان لماء معرفة الكون، اسع للحصول عليه – حتى لو كان مجرد صوت الماء و فقاعاته المتطايرة فقط.

« جائزة السلطان والوعد اليوم وغدا »

نظم أحد الشعراء قصيدة في مدح سلطان زمانه و ذهب إليه ينبغي كرمه و انعامه ،
فقرأها عليه فأمر السلطان وزيره باعطائه ألف دينار من الذهب الخالص .
فقال الوزير للسلطان: هذا المبلغ القليل لا يليق بمقامك لو وهبته عشرة آلاف
دينار لكان أفضل .

فوافق السلطان و اعطاه عشرة آلاف دينار فغمره الفرح و غادر شاكرا .
بعد ذلك أراد الشاعر التعرف على الشخص الذي قام بتزكيته عند السلطان حتى
استحق كل هذه الجائزة الثمينة .

فأخبره الحواشي بان الوزير السخي كان وراء ذلك .
فنظم الشاعر قصيدة طويلة في مدح الوزير بعد أن علم بموقفه ذاك . لقد كانت
القصيدة تدور حول جائزة السلطان الثمينة في الواقع مع انها كانت تتعرض لمدح
الوزير بحسب الظاهر .

مضت على ذلك الحدث الأشهر و السنوات و اصبح الشاعر مثقلا بعبء الحياة و
شظف العيش فاضطر لنظم قصيدة أخرى في مدح السلطان و المثول بين يديه أملا في
الحصول على جائزة ثمينة كسابقها . و كالعادة أمر السلطان باعطائه ألف دينار ذهباً
بعد سماعها .

و نظرا إلى أن الوزير السابق صاحب الجود و الكرم كان قد ترك هذه الدنيا الفانية
و حل محله وزيراً آخر يحمل نفس اسمه صدفة ، لكنه على العكس منه يتميز بخشونة
الطبع و البخل الشديد . فقد قال للسلطان: ان مشاكل الدولة لا تكاد تعد و تحصى ، و
مبلغ ألف كثير بالنسبة له سأقنعه بالربع من مائة دينار (أي خمسة و عشرون دينارا
فقط) .

فقال له مساعدوه ، لقد استلم في المرة السابقة عشرة آلاف دينار ، فكيف تقنعه
بالقشر دون اللب ؟

قال الوزير الجديد: لا عليكم ، ساضيق عليه الخناق بالتسويق اليوم و غدا إلى ان
يأخذ مني حفنة تراب و كأنها وردة عطرة .

فقال السلطان للوزير: الأمر موكول اليك ، لكن ليغبطه الفرح و السرور ، فقد
مدحنا و ذكر محاسننا .

قال الوزير: اطمئن ، سأغبط مائة من أمثاله بالفرح و السرور .
و هكذا ترك الوزير ذلك الشاعر منتظرا على أحر من الجمر أسابيع بل أشهر
عديدة . حتى ضاق ذرعا و جاء إلى الوزير ذات مرة و قال: لقد نفذ صبري ، فل لم يكن

لديك ذهب، فاطردني و اشتمني على الأقل لأقطع الأمل و التردد هنا و ارتاح قليلا.
و حينئذ أعطاه الوزير خمسة و عشرون دينارا لا غيرها.
ففكر الشاعر قليلا ثم سأل باستغراب: لماذا كانت الجائزة السابقة مع عظمتها
نقدا، و هذه الجائزة مع خستها موكولة إلى الانتظار القاتل.
فأخبره مساعدوا الوزير بأن ذلك الوزير السابق قد توفي و حل محله هذا الوزير
البخيل الذي حصلوا منه على هذه الجائزة الوضيعة باعجوبة.
فسألهم الشاعر: ما اسم هذا الوزير؟
قالوا: اسمه « حسن ».

قال الشاعر: يا للعجب! هذا اسم الوزير السابق أيضاً.
أجل يا أخي! لا تخدعك الأسماء و الالقاب، فهي عاجزة عن تمثيل شخصية الآخرين
تمثيلا حقيقيا. ولا تهتم بظواهر الأشياء عن بواطنها، فربما جلس العفريت المارد مكان
سليمان (ع).

« جواب التقي للمناقق »

بينما كان أحد العرفاء غارقا في التأمل و التفكير بين أشجار الكروم. التفت إليه
فضولي و قال: كفى نوما و غفلة أيها الرجل، انهض و تأمل هذه الأشجار و طراوتها
امثالاً لأمر الله تعالى إذ يقول: « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها
إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ». فقال له العارف: ان آثار الله تعالى إنما
تسكن القلب و ليس ما يبدو من النباتات و طراوتها و جمالها إلا انعكاسا للقلب. فلو
كان قلب الإنسان مظلما لم ير من تلك الآثار أي دليل على الله تعالى، ولو كان قلبه
نيرا لبدت تلك الأعشاب و جمال الطبيعة مرآة للألطف الالهية الحاكية عن قدرته و
حكيمته تعالى.

إذن فالقلب هو منبع الجمال، لكن الغالبية العظمى من الناس انخدعوا بالظاهر
و ظلوا سائرين في غيهم. فطوبى لمن أمات البصر و أحيا البصيرة.

« مجنون ليلى راكب البعير »:

بينما كان مجنون ليلى راكبا ناقته في أحد الأيام قاصدا ديار ليلى مخلفا و ليد الناقة
في بيته، كانت ناقته تلك تتجه إلى وليدها، و هكذا كانت تسير على خلاف مراده و تستغل
لحظة غفلته و تفكيره في معشوقته لتتجه إلى الحظيرة حيث وليدها. فاستغرق الطريق

الذي لا يتعدى الثلاثة أيام فترة طويلة و أخيراً خاطب ناقته قائلاً:

هوى ناقتي خلفي و قدامي الهوى و إني وإياها لمختلفان

أجل، فالذي يتوجه إلى الله تعالى، ولا يتخلى عن ناقة البدن، سيتأخر في الطريق لا محالة ولا ينال مراده. لأن الروح إنّما تتجه نحو العرش بينما يعشق البدن التراب. إذن فعشق السلوك إلى الله تعالى لا يقل عن عشق ليلي و ليس بمقدور الكل خوضه. الرابطة الالهية إنّما تريد خلق مثل هذا العشق في مدرسة الإسلام الفاضلة. ذلك العشق الذي يعجز عنه الإنس و الجن.

« اللص و المتلبس باللباس الروحاني »:

أراد أحد المتظاهرين بالعلوم الدّينية أن يعتم بعمامة كبيرة و يدخل مجلس المحلة ليبدو للآخرين من الفضلاء.

وهكذا وضع بعضاً من قطع القماش البالية و القطن المتهرئ داخل عمامته ثم غطاها بقطعة ناصعة البياض. و لم يكن الفجر قد انبثق بعد حتى وضع عمامته على رأسه و خرج إلى المجلس فاعترضه خلال مسيرة قاطع طريق و أخذ عمامته و هرب. فصاح المعمم: أيها اللص، افتح العمامة اولاً و انظر ما بداخلها فلو رغبت فيها فهي حلال لك.

فتح السارق العمامة وهو يركض فتساقطت منها عشرات القطع من الخرق العتيقة. فضرب بالعمامة على الأرض و قال: أيتها العمامة الحقيمة لقد اشغلتنا بخداك هذا عن عملنا.

ثم التفت إلى المعمم و قال له: ألا تخجل من هذه القطع التي خدعتني بها. فقال المعمم: أجل، لقد عملت خدعة، و يمكنك أخذ العبرة من هذه الحادثة.

« دليل العشق و المحبة »:

عاد أحد الأشخاص من سفره إلى العراق بثياب رثة، فزاره أصدقاؤه و سألوه عن احواله و سفرته. فقال لهم: لقد كان سفراً ميموناً رغم شعوري بالوحدة و الغربة. فقد أهدى إلى الخليفة ثوبين كاملين بلوازمهما.

فقال أصدقاؤه: وضعك المؤلم و ثيابك البالية يكذبان إدعاءك هذا. فأجابهم: لقد تبرعت بكل ذلك للفقراء و المحتاجين و طلبت منهم الدعاء لي بطول

العمر.

الأصدقاء: حسنا، هذا فيما يتعلق بظاهرك، لكن ما بالك مفتما قلنا هكذا؟ ما سبب شحوب لون وجهك هذا؟ حيث لا شيء يدل على شوقك و بهجتك.

أجل، فأهل الصدق و الصفاء بعيدون عن اللف و الدوران و الكلام الجزاف، لأن نفوسهم إنمّا تفيض بالعشق و الإخلاص المعبرين عن الصدق و الشكر و الثناء. أنهم ليسوا من الذين يتكلمون عن الفضائل في حين تفوح منهم رائحة الرذائل.

« استشارة العاقل »:

ذهب شخص إلى رجل عاقل يستشيريه في أمر ما. فقال له العاقل: استشر غيري، فأنا عدوك. قال ذلك الشخص: اعلم إنك عدولي منذ زمن طويل. لكنك عاقل وواقعي و قد صانك عقلك النير عن الوقوع في التهلكة و الانحراف.

إن العقل كالقطة الذكية التي لا تسمح للفأرة أن تفلت بسلامة من بين مخالفيها. بل إن عقل المؤمن كالأسد الضاري يفتك بأعدائه كما يفتك الأسد بفريسته.

« البناء بعد الدمار »:

بينما كان شخص يحرق الأرض، إذ صرخ في وجهه أبله قائلاً: لماذا تحرق الأرض؟ فأجابه: لا تعترض على أيها الأبله! فالخراب هو منشأ كل الكمالات، و لا تصبح هذه الأرض حديقة مزهرة و حقلاً عامراً الا بعد خرابها و حرقها. فإن لم تفتح الجرح فلن يشفى أبداً.

و هذا الكلام يمكن تطبيقه على الأمور المعنوية أيضاً. إذ يجب التخريب اولاً ثم الشروع بالبناء الصحيح من جديد. يجب تطهير القلب اولاً من الذنوب، لتأتي بعد ذلك مرحلة الرقي و الكمال. و على هذا الأساس نجد أن موسى (ع) قال لفرعون حين اتهمه بالتخريب بان: التخريب يجعل من الشوك ورداً.

« حوار المؤمن والكافر ».

المؤمن: العالم حادث مسبق بالعدم، و كل شيء هالك الا وجهه تعالى.
المنكر: كيف توصلت إلى حدوث العالم؟ و أنت كالقطرة من المطر بالنسبة لهذا الكون.

و اني القطرة أن تعلم بتاريخ السحاب. كيف يمكن لحشرة صغيرة ان تتوصل إلى معرفة بداية الكون و نهايته؟ إنك تردد قول آبائك تقليدا لهم بلا دليل.
المؤمن: قولك باني كالقطرة من المطر و أنه لا اطلاع لي ببداية العالم و نهايته، مجرد مغالطة ليس إلا. فالنسر قد يعمر ثلاثة آلاف و خمسمائة سنة، في حين لا تعيش الحمامة الا بضع سنين. فهل عدم وقوف الحمامة على بداية النسر و نهايته لمجرد التفاوت في عمرهما؟!

لا معنى للاقتناع بالظاهر ابتداءا. فظواهر الاشياء في الكون دليل على بواطنها و بأن هناك واقعا ورائها. فالظاهر بلا باطن عبث، كالأدوية المرة التي تكمن فائدتها في باطنها. لقد أوجد الله تعالى هذا التفاوت بين الظاهر و الباطن ليقف على حقيقته أهل النظر و المعرفة.

فخلاصة القول هي أن الظواهر بأنواعها وألوانها دليل على حكمة الباطن التي نتأملها بالبصر و البصيرة. فعدم وقوفنا عليها بحواسها الظاهرية لا يدل على عدمها.

« الدنيا العجوز و الأخرة العروس »

كان للسلطان ولد جميل خلوق و كان يحبه كثيرا. و في إحدى الليالي رأى في المنام أن ابنه قد مات. فحزن لذلك كثيرا. حتى كاد الحزن أن يقتله. لكنه حينما استيقظ و علم بحياة ولده غمرته الفرحة بشكل لم يسبق له مثيل. فقال مع نفسه: يحتمل ان يكون ذلك الحزن العميق هو السبب وراء هذه الفرحة الغامرة.

لكن هذه الحادثة جعلته متشائما بعض الشيء فقال مع نفسه: لو حدث ان مات ولدي، فسيحرق سهم الحزن و الغم قلبي. فمن الأفضل أن أحتفظ له بخاطرة تذكرنى به. فالإنسان كالشمعة الضعيفة التي يحتمل انطفائها كلما هبت الريح فصمم على البحث عن فتاة لولده من عائلة صالحة زاهدة، وفعلا نجح في ذلك فغضبت زوجته لاختياره هذا معترضة على مقامه الرفيع لا يتناسب و عائلة فقيرة كهذه، و أن جعل مثل هذه الرابطة، بين هاتين العائلتين بعيد كل البعد عن الصواب.

فقال لها السلطان: نعت المرء الصالح بالمتسول ليس بصحيح. فقد بلغ ذلك الرجل منزلة الرضى و القناعة بالرياضة النفسية و الارتباط بالله تعالى، ولا ينبغي قياس مثل هذا المقام بالفقر المادي.

وأخيراً أقنع السلطان زوجته و اختار الفتاة التي كان يبحث عنها لولده. لكن بعد أن تم الزواج الأمير و الشابة اللذين يتمتعان بجمال و كمال منقطعي النظر، عشقته عجوز ساحرة و سرقت منه لبه بسحرها حتى هام في حياها و تزوجها في خاتمة المطاف، بعد أن أفرغت قلبه بالكامل من حب زوجته الشابة.

فحزن السلطان كثيراً لهذا الشيء و لازمه حزنه هذا و بعد تفكير عميق و عقيم، تضرع بالصلاة و الدعاء إلى الله تعالى لحل معضلته هذه.

و أخيراً علم ساحر ماهر بمشكلة السلطان فمثل بين يديه لحلها. و بعد أن أطلع على تدبير تلك الساحرة العجوز، انكب على إبطال سحرها.

فقال السلطان: سأبطل سحر تلك العجوز باذن تعالى. اذهب أنت عند وقت السحر إلى المقبرة حيث يوجد هناك قبر قرب الجدار، انبشه و اخرج منه الطلسم المدفون فيه! فذهب السلطان كما أمره عند السحر إلى المقبرة و فتح ذلك القبر فوجد الطلسم المخفي، و كان عبارة عن مائة عقدة في خيط من الشعر، فحلها الواحدة تلو الأخرى و بهذا بطل مفعول ذلك الطلسم و تحرر الأمير الشاب من قيود السحر تلك.

و بعد مضي سنة على هذه الحادثة. و في أحد الأيام قال السلطان لولده الأمير مازحا معه: هل تتذكر خاطرة لك مع تلك العجوز الساحرة، حبيبتك القديمة. تذكر ذلك الشؤم و كن وفيا لعروسك الشابة هذه.

فقال الأمير الشاب: اجل، لقد كنت في غاية الخطأ و الآن نجوت من الضلال و وصلت ساحل الأمان ببركة هذه العروس الشابة و أنا مسرور جدا لذلك.

إذن لا تفعل، فالموءمن لا يعشق الدنيا العجوز، بل يمزق هذه الحبال و يتجه نحو المعشوق الحقيقي اعني الله تعالى لينال دار السرور.

أخي العزيز: ان ذلك الأمير الشاب المسحور الذي يقدر على سلوك الصراط السوي هو وجودك.

و تلك العجوز الساحرة هي الدنيا التي تخدع الناس بزخرفها.

و تلك العروس الشابة هي رحمة الله تعالى الواسعة.

و ذلك الساحر الماهر، هو الدليل الذي يأخذ بيدك ليخلصك من قيود الدنيا الفانية.

إن سحر الدنيا يشغل العقل في داخل الإنسان و يضع أمامه المئات من المعضلات. و لغرض الفوز يجب حل هذه العقد تحت اشراف المرشدين الحقيقيين.

لو كان ذلك الأمير أسيرا لقيود تلك الساحرة سنة بأكملها. فأنت أسير قيود الدنيا
عمرك بأكملها. فاتبع الرسل الذين جاؤوا لانقاذك لتفلت من أسر الدنيا و قيودها.

« الالتفات إلى السبب الأهم في حديث النمل »

شاهدت نملة قلم الرسام وهو يتراقص بين انامله. فقالت لصاحبتها: إن ذلك القلم
يرسم رسوما جذابة على الورق.

قالت صاحبتها: أنامل الرسام هي الأصل، فهي التي تأتي بكل تلك الفنون من خلال
حركاتها الخاصة.

فقالت نملة ثالثة: حركة الأنامل و القلم نابعة من ساعد الرسام.

وقالت رابعة: حركة الساعد نابعة من بدن الإنسان.

و هكذا اتجهت كل نملة إلى بيان علة من العلل. إلى أن قالت نملة عاقلة: لماذا
تنظرن إلى بدن الإنسان؟ ذلك البدن الذي يفقد سيطرته على نفسه عند النوم أو
الموت. لولا العقل و الروح، لما ظهرت تلك الصور و الأشكال.

فقالت النملة الأعقل من الجميع: لولا مشيئته الله تعالى لكان العقل و الروح
كالجماد لا حول و لا قوة لهما. فلو سلب الله تعالى عن عنايته الربانية عنهما، لضل
نفس ذلك العقل النشيط في وادي البلاهة و التيه.

« النحيل الأبله »

كان أحد الكلاب مشرفا على الموت و صاحبه يبكي و يلطم فوق رأسه لهول تلك
الفاجعة. و بجانبه كيس ملي بالخبز.

فسأله شخص عن سبب بكائه.

صاحب الكلب: كلبى يلفظ أنفاسه الأخيرة. أنه أسد ضار و ليس بكلب. لقد كان
يصطاد لي بالنهار و يحرسني بالليل.

السائل: ما سبب إشرافه على الموت؟ هل به جرح أو مرض؟

صاحب الكلب: كلا، ليس به شيء مما ذكرت، داؤه الجوع لا غير.

السائل: لم لا تعطيه قطعة خبز و تحول دون موته؟

صاحب الكلب: لا أتمكن من إعطاء الخبز بلا مقابل بعكس دموعي فهي مجانية.

فالتفت ذلك السائل إليه و قال له باحتقار: عليك اللعنة، يا من تفضل قطعة

الخبز على دموع عينيك، لقد أضعت نفسك كأبليس و لم تصلح الا للتراب، طوبى لمن

يعرف ذاته و مقامه.

« الطاووس الحر »:

شاهد رجل حكيم طاووسا في الصحراء ينتف ريشة واجنحته. فقال له: لم تنتف ريشك الجميل هذا؟

كيف يرق قلبك لرمي هذا الريش الرائع جانبا؟ هل تعلم ان حفظة القرآن يضعون ريشك بين دفتي القرآن لجماله؟ اترك هذا العمل. فبقاء ريشك مع قلبك النابض بالحياة غنيمة. مثلما أن وجود الطعام مع عدم الإسراف فلاح، لا أن لا تسرف لانعدام الطعام.

تأثر الطاووس كثيرا و من أعماقه لكلام الرجل الحكيم و ارتفع نياحه حتى أبكى كل من حضر هناك، بل قد رق قلب الحكيم له أيضا و ندم لكونه السبب وراء ازعاج هذا الطاووس الجميل. و بعد أن فرغ الطاووس من البكاء التفت إلى الحكيم و قال:

لقد غدا هذا الريش الملون خطرا يهدد بقائي. فالصياد يكمن لي هنا و هناك، و الرماة يجعلونني هدفا لبنادقهم و يحاصرونني من كل مكان، و كل ذلك بسبب هذا الريش ليس إلا. و نظرا لنفاد صبري على تحمل هذا العذاب فقد قررت أن أبدو قبيح المنظر و بلا ريش ليتركونني و شأني، المهم هو الحياة. فالبدن يزول لكن الحياة باقية. هذا الريش هو السبب وراء تكبري و غروري، و نفس هذا الأعجاب بالنفس قد تسبب بجلب مئات من الويلات لي.

ان الجمال سبب لهلاك البسطاء، و لا قيمة لجمال ينسي صاحبة مرتبة الكمال. فلا أهمية لجرح البدن، لكن جرح الروح هو الذي يلقي بصاحبه في الهاوية. ما أفضل أن أكون بلا ريش حتى ييأس اعدائي!

الريش الجميل مهم بالنسبة لي لقضاء حياة حلوة. لكن الأهم عندي هو العقل و سلامة الحواس، لماذا اطيع غيري لأجل جمال تافه. أجل فأنا مستعد لنتف ريشي - منبع غروري - من أساسه لأبقى حيا.

« طلب خوارز مشاه العجيب من اهالي سبزوار »

(إن سلالة خوارز مشاه هي التي حكمت ايران بعد سلالة السلاجقة، و دام حكمها من سنة (٧٠٩-٥٤٥) للهجرة الشريفة. و من سلاطين هذه الأسرة المعروفين السلطان محمد خوارز مشاه الذي فتح غالبية المدن الإيرانية).

حينما دخل السلطان محمد مدينة سبزوار، نشر جنوده الرعب في قلوب الاهالي حتى استسلموا و طلبوا منه الامان و قالوا له: نحن على استعداد لدفع الضرائب و لو كانت باهضة و في أي فصل تشاء.

فقال لهم السلطان محمد: لن تسلموا من سطوة سيفي إلا إذا جئتموني بشخص اسمه « أبو بكر » (علما أن أهالي سبزوار كلهم شيعة).

فجاء أهالي سبزوار بأكياس الذهب إلى السلطان و طلبوا منه غض الطرف عن طلبه هذا، أي الاتيان بالشخص المذكور، لا استحالة العثور على هذا الاسم وسط أهالي سبزوار، بالضبط كاستحالة العثور على جذع يابس وسط المياه؛ لكن السلطان أصر على طلبه هذا و لم يتراجع عنه.

فاضطر الهالي للبحث عنه هنا و هناك و بعد ثلاثة أيام من التفتيش المتواصل و المضني عثروا على شخص اسمه « أبو بكر » يسكن في زاوية خربة و قد أشرف على الموت لضعفه و مرضه.

فقالوا له: انهض تعالى معنا إلى السلطان لتنقذ المدينة بأسرها من الهلاك بعملك هذا.

فقال لهم أبو بكر: لو تمكنت من المسير، لذهبت إلى مدينة أصدقائي و لما بقيت هنا، فاضطروا لوضعه على خشبة كالتابوت و توجهوا به إلى السلطان.

« أساس العشق »

توجه عاشق إلى معشوقه و ذكر له كل الخدمات و التضحيات التي أسداها و تحملها في سبيل العشق الذي يجمعهما. و من جملة ما ذكر قال: لقد تعرضت لسهام و أسنة الرماح و بذلت الاموال و الممتلكات و فقدت القدرة و المكانة و ذقت الحرمان و الخيبة و قتلني الأرق و السهر. و تحملت التشريد و الضياع و... و هكذا مضى العاشق بالتعرض لما لقيه في سبيل معشوقه، لكن لا بقصد المنة عليه بل لتشهد تلك المواقف على صدقه و اخلاصه.

و بعد حديث طويل قال العاشق: دعنا من الماضي. قل لي الآن ماذا يجب علي أن أفعل؟

فلو أشرت علي بدخول النار كابراهيم (ع) لاقتمتها. أو أردت أن يسيل دمي مثل يحيى، أو أن أسكن جوف الحوت مثل يونس، أو أن ابتلى بظلمة الجب مثل يوسف، أو أن أعود معدما لا أملك شيئا مثل عيسى أو... لقلت لبيك بكل لهفة و شوق.

فقال له المعشوق: صحيح أنك تحملت كل هذه الصعاب و التضحيات في سبيل

العشق. لكن اصغ إلى جيدا:

لقد أدبت فرع الأمور و غفلت عن لها و أساسها.

سأل العاشق: ما هو ذلك الأصل و الأساس؟!

قال المعشوق: اصل العشق يكمن في الذوبان في المعشوق و الموت في سبيله. و هذا الذوبان هو نفس الوجود و ذلك الموت هو ذات الحياة التي تضفي الخلود على الحياة أبد الدهر.

فحينما سمع العاشق هذا الكلام، شهق شهقة رقيقة و تلفظ أنفاسه الأخيرة.

« أمانة اياز و صدقه »

السلطان محمود الغزنوي الابن الاكبر للسبكتكين، هو ثالث سلطان من سلاطين السلالة الغزنوية و اقواهم. اعتلى العرش سنة (٣٨٧) للهجرة النبوية الشريفة، و استولى سنة (٤٠١) على خوارزم، و تقدم بجيوشه نحو الهند اثنتي عشر مرة. توفي في الثالث من ربيع الآخر سنة (٤٢١هـ) عن عمر يناهز إحدى و خمسين سنة بعد فترة حكم دامت ثلاثا و ثلاثين عاما (راجع قاموس معين ج٦ ص١٩٢٧).

و كان للسلطان محمود غلام يدعى « ايازا » و كان هذا الغلام قد حظي بمكانة خاصة في قلب السلطان محمود حتى أصبح كالمحبوب الذي لا يمكن فراقه، و ذلك لصدقه و ذكائه. و فيما يلي قصة الغلام اياز:

كان اياز هذا قد احتفظ بثيابه و حدائه التي تعود لأيام فقره و حاجته في حجرة أقفل بابها. و كان يتردد عليها كل ليلة لوحده فيتأملها و يخاطب نفسه قائلاً: هذا هو لباسك و هذاؤك فتأملهما جيدا ولا يعزتك منصبك الذي تتقلده الآن.

لكن منزلة اياز المرموقة هذه عند السلطان لم ترض أهل الحسد و النفاق، فذهبوا إلى السلطان و أخبروه بأن ايازا يخفي الذهب و الفضة و جرة مليئة بالمجوهرات في حجرة خاصة لا يسمح لأحد بدخولها.

فتعجب السلطان مما يخفيه هذا الغلام عنه. فأمر أحد القادة بالتوجه إلى حجرة اياز و جلب ما فيها. لكن السلطان على ما يبدو كان على علم بالموضوع و يعلم بان ايازا لا تغيره الأيام، غير انه أراد أن يسخر من هؤلاء النمامين و يوقفهم على قبيح فعلهم.

انه لسر عجيب، فلقد كان اياز يمعن النظر في ثوبه و حدائه ليتعظ و يتجنب الغرور الذي ربما يراوده بالضبط مثل الإنسان الذي يتأمل في بداية خلقته التي هي عبارة عن نطفة نتنة ليطرد عن نفسه العجب و التكبر و الغرور.

توجه ذلك القائد بصحبة ثلاثين جنديا في منتصف الليل إلى حجرة اياز و فتشوها،
و حينما لم يعثروا على شيء سوى ثوب و حذاء باليين، قال لابد أن ايازا قد اخفى
الذهب تحت الأرض و أراد أن يخدعنا بهذا الثوب و الحذاء. فانهاالوا على أرض الغرفة
بالمعاول و فتشوا حتى شقوق الجدران.

لكن ذهبت كل مساعيم إدراج الرياح، بل قد شهد كل شيء على صدق اياز حتى
الباب و الجدران و الأرض و عادوا بخفي حنين يرهقهم الخجل و اليأس و القلق من
مواجهة السلطان و كيفية الاعتذار منه. حتى حضروا عند السلطان طالبين منه
العفو الصفح.

فقال لهم السلطان: البت في عفوكم أو معاقبتكم يعود إلى اياز، ولا علاقة لي بالأمر
أبدا، لأنكم قمتم باتهامه و الوشاية به.

ثم أحضر السلطان اياز و عهد إليه بالمسألة و قال له: لا شك في صدقك و صفائك،
و قد أحس أهل الحسد بالخجل و الندامة لسوء ظنهم بك و سعيهم للإيقاع بك.
فقال اياز: ايها السلطان، لقد أحسنت إلى كثيرًا والا فلياقتي لا تتعدى ذلك الثوب
و الحذاء الباليين. (أجل، فمن يتذكر نقاط ضعفه لا يأخذه الغرور أبدا) و قد قال
النبي (ص) : « من عرف نفسه فقد عرف ربه ».

و توالى الأيام و الليالي و اياز يؤجل النظر في قضيتهم يوما بعد آخر. إلى أن أكد له
السلطان ضرورة التعجيل في هذا الأمر و البت فيه.

فقال اياز: ايها السلطان، الأمر أمرك، ولا دور لنا مع وجودك. ياليتني نسيت الثوب
و الحذاء على أن أواجه موقفا كهذا.

فقال السلطان محمود: أخبرني بالسر وراء علاقتك الوثيقة هذه بالثوب و الحذاء؟!
و يظهر جواب اياز من نفس كلام السلطان إلا وهو أن اياز كان يسعى لكسر جموح
النفس و التحرر من قيود الجمال الظاهري، بتأمله في ماضية المؤلم.

« جواب العاشق المحكم لمعترضيه »

قام بعض المغفلين بملامة مجنون ليلى و قالوا له: ما كل هذا العشق الذي نزل بك
بالنسبة إلى ليلى.

فأجابهم: إن منظر ليلى الذي ترونه هو كالجرة التي يسكب فيها الله تعالى شرابا طيبا
فاتذوقه بحلاوته فيما يبدو لكم كالخل. إنكم ترون الجرة ثم تقولون أن هناك جرارا
أجمل منها، لكنني أرى ذلك الشراب الطهور الذي تحويه الجرة، إنكم غافلون عن أمر
الله تعالى الذي يفيض أكثر من إفاضة واحدة من منبع واحد.

« الزاهد الجريء »:

كان في زمن عيسى (ع) أمير قد طلب من غلامه التوجه إلى مكان معين ليأتي له بكوز خمر. فذهب الغلام إلى ذلك المكان ورجع وهو يحتضن الكوز بين يديه متوجهاً إلى الأمير. فصادفه اثناء عودته زاهد، فشرع بتعداد مضار الخمر وحذره من عاقبة مثل هذه الأمور طبقاً للوظيفة الإلهية بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال له: مع أن شرب الخمر عمل قبيح في نفسه فإنه يتسبب في زوال العقل أيضاً. لكن الغلام لم يأبه بكلام الزاهد وواصل طريقه، فغضب الزاهد و ضرب الكوز بحجارة فكسره فأربق الخمر، فهرع الغلام إلى الأمير و قص عليه الحكاية و ما ان سمع الأمير الحكاية حتى جن جنونه و قال لغلامه: خذني إلى بيت الزاهد لأحطم رأسه بالهراوة. وأخيراً وصل الأمير المغرور إلى بيت الزاهد و أثار هناك ضجة كبيرة، فسمع الزاهد صوت الأمير و علم بالأمر و قال في نفسه: المرأة تعكس القبائح. و الذي يأمر بالمعروف و ينهي عن المنكر ينبغي أن يكون في نفس الوقت كالمرأة الصلبة و الواضحة التي تعكس القبائح ولا ينتابه الخوف من أحد أبداً.

« جزاء تهور أمبراطور مصر »

في قديم الزمان كان يحكم مصر امبراطور متكبر خمار يبحث عن الملذات. و في يوم ما اخبره أحد عيونه بأن أمير الموصل (قسم من العراق الحالي) يمتلك جارية فائقة الجمال فريدة في حسنها و دلالتها، و عرض عليه صورتها التي كان قد خطها على ورقة. فلما رأى الامبراطور تلك الصورة سحره جمالها ففقد صوابه حتى سقط الكأس من يده لشدة تأثره، فاستدعى أحد قاداته الشجعان حالا و أرسله على رأس جيش عظيم إلى ولاية الموصل ليأتيه بتلك الجارية و خوله بتدمير الموصل إذا أبى أميرها تسليمها إليه. توجه القائد نحو الموصل و حاصرها من كافة الجهات و وضع على كل مرتفع منجنيقا، ثم شرع باطلاق السهام و الحجارة لمدة أسبوع كامل حتى دمر العديد من المنازل وأوقع الكثير من الضحايا حتى اضطر أميرها إلى إرسال رسول إلى القائد ليخبره باستعداده لتلبية كل طلباته بشرط التوقف عن القصف و اراقة الدماء. فقال القائد لرسول الأمير: نحن لا نريد منكم شيئاً سوى صاحبة هذه الصورة و أراه صورة تلك الجارية.

فلبئى الأمير طلبه و ارسل الجارية إلى القائد بكل سرور. و حينما رأى القائد الجارية و جالها الفاتن غلبت عليه شهوته و اذهبت عن باله

انه جندي من جنود الامبراطور وان خيانتة تكلفه رقبته، بل انه نسي معنى الخوف في تلك اللحظة. و ما أن خلاها ليواقعها حتى ارتفع صياح الجنود من كل جهة. فخرج من الخيمة فإذا بالجنود مذعورين و الخيول تعبت بالحظيرة و الخيام رأسا على عقب و هي تشرق و تغرب. فعلم أن أسدا قد حمل عليهم من الغابة القريبة منهم. فهجم على الأسد و فتك به ثم عاد إلى خيمة الجارية و كأن شيئا لم يحدث. و بعد أن نال مراده من الجارية وهدأت نار شهوته، أحس بالحسرة و الندامة و تيقن بأن الامبراطور سيقنتله لو علم بخيانتة هذه. فأخذ على الجارية ايمانا مغلظة بالأ تخبير الامبراطور بالأمر.

بعد ذلك توجه بجنوده و معه الجارية إلى بلاده و حينما وصلها أخذ الجارية إلى الامبراطور و قدم له تقريرا عن سفرته تلك.

و ما أن وقع نظر الامبراطور على الجارية حتى سرقت منه قلبه و لبه فأخذها إلى إحدى الغرف و حينما خلاها على السرير ليواقعها هاله صوت خشخشة الفئران التي كانت تعبت تحت السرير ظنا منه بأن هناك حية ما. فغرقت الجارية في الضحك حتى احتمل الامبراطور بوجود سر وراء ضحكها المتواصلة تلك، فوعدها با عتاقها لو قالت الحقيقة و بضرب عنقها في غير تلك الصورة.

فقصت الجارية الحكاية بكاملها على الامبراطور و كيف ان قائده قد خانه، و انه لم يرتبك من مواجهة أسد ضار؛ بل تقدم إليه و فتك به، في حين ان فرائصك قد ارتعدت لصوت الفئران تحت السرير.

و هنا التفت الامبراطور إلى سوء عمله و قال في نفسه:

لو لم تغتصب جارية الغير لم يطمع أحد في اغتصاب جارتك أيضاً. هذا هو جزاء عملي الشنيع.

أي أن من يتعرض لسمعة الآخرين فهو في الحقيقة إنمّا يعرض سمعته للطعن. و لهذا عفا الامبراطور عن القائد و أمر الجارية بالأ تخبيره باطلاعها على خيانتة تلك. جاء في الروايات عن الإمام على: ان الله تعالى أوحى إلى موسى (ع): لا تزن لئلا تتسبب في اقدام نساءك على الزنا. من خان امرأة مسلمة فقد خان زوجته، و اعلم بأنك كما تدين تدان

كما قال (ع): عفوا نساء الناس تعف نساؤكم.

« عقل ثلاثين شخصا في رأس واحد »

كان السلطان محمود الغزنوي يعطي ايازا حقوقا تعادل راتب ثلاثين أميراً لشدة حبه له.

فاستاء القادة ورجال الدولة من هذا الوضع و دفعهم الحسد للذهاب إلى السلطان و الاعتراض فقالوا: لا يمتلك ايازا ثلاثين عقلاً ليستحق ثلاثين راتباً. فأراد السلطان أن يوقفهم على السر وراء حبه لا اياز و يثبت لهم لياقته للثلاثين راتباً تلك.

فذهب ذات مرة برفقة ثلاثين أميراً من أولئك المعترضين إلى الصحراء و شاهد عن بعد قافلة تسير باتجاه ما.

ففرق السلطان بينهم، ثم قال لأحدهم: اذهب و اسأل تلك القافلة عن مقدمها. ففرق السلطان بينهم، ثم قال لأحدهم: اذهب و اسأل تلك القافلة عن مقدمها. فذهب الأمير و استفسر ثم عاد و قال: من الري.

فسأله السلطان: و أين مقصدها؟

فاعتذر الأمير لأنه لم يسأل هذا السؤال.

فأجازه السلطان بالانصراف و أحضر أميراً ثانياً و قال له: سل عن مقصدها.

فسأل الأمير ثم رجع و قال: اليمن.

فسأله السلطان: أعرفت بضاعتها؟

فاعتذر الأمير كصاحبه إذ لم يسأل هذا السؤال أيضاً. فرخصه السلطان و طلب ثالثاً و قال له: اسأل عن بضاعتها.

فاستفسر ثم عاد و قال: أو ان مصنوعة في الري.

فسأل السلطان عن يوم خروجها من الري؟

فاعتذر هذا أيضاً من السلطان.

فصرفه السلطان كالعادة و طلب اميراً رابعاً ليسأل عن يوم حركتها.

و هكذا ارسل السلطان ثلاثين اميراً إلى تلك القافلة كل يسأل سؤالاً واحداً و يرجع بجواب واحد لا غير.

بعد ذلك التفت السلطان اليهم و قال: لقد اخترت ايازا ذات مرة و طلبت منه الاستفسار عن مقدم إحدى القوافل التي صادفتنا. فذهب و سأل كل تلك الاسئلة من دون أية إشارة مني إليها لا من قريب ولا من بعيد و قد حصل على كل الأجوبة بذهاب وإياب واحد فقط.

و على هذا، فمنحي له ثلاثين راتباً إنمّا هو بسبب لياقته التي تحل ما يستعصي على

« الحريص البائس »

كان لرجل خروف قوي و قد وضع في عنقه حبل و أمسك بطرفه و أخذ يجره خلفه. فجاء لص و قطع الحبل وأخذ الخروف. و عندما التفت الرجل إلى ذلك أخذ بالبحث عن اللص هنا و هناك حتى وصل إلى بئر فإذا به يجد اللص هناك. فتوجه إليه لينتزع منه خروفه.

فلما رآه اللص شرع بالصياح و النياح و بادره وهو بعد لم يتفوه بكلمة واحدة و قال: لقد سقطت محفظة نقودي الحاوية على مبلغ خمسمائة درهم ذهباً في البئر. فلو نزلت إلى البئر واعدتها الي لو هبتك خمس ذلك المبلغ (مائة درهم) ففكر صاحب الخروف مع نفسه و أخذ يضرب الأخماس بالأسداس و قال: إن قيمة الخروف لا تتجاوز العشرة دراهم في حين انني سأحصل على مائة درهم لو جئت بالمحفظة.

فصرفه حرصه عن الخروف، فخلع ملابسه و نزل إلى البئر للبحث عن المحفظة. و في هذه الأثناء أخذ اللص ملابسه بصحبة خروفه و هرب. بعد ذلك خرج من البئر بخفي حنين و قد انهكه البحث و التنقيب فلم يجد ملابسه و علم أن اللص قد أخذها معه و هنا وقف على الحقيقة عارياً حائراً و ادرك الوبال الذي يجره الحرص و الطمع على صاحبه حتى يذهب به بعيداً و يغرقه في الأوهام و يشوه سيرته الحميدة بصفته الشنيعة تلك. نعم، هذه هي نتيجة الشح و الطمع التي تسلب الإنسان القدرة على التشخيص و توقعه في التهلكة.

« قابلية العاشق »

ألهب نار الفرقة قلب أحد العشاق لفراق حبيبه سنين طويلة. حتى رآه المعشوق ذات مرة و قال له: تعال الليلة إلى الغرفة المعينة لتتناول معاً الغداء الذي طبخته. ففرح العاشق كثيراً لهذه البشري السارة و قدم قرباناً لله تعالى ووزع الكثير من النقود على هذا و ذلك.

و في الليل ذهب إلى تلك الغرفة و اتكأ منتظراً قدوم معشوقه. لكن المعشوق تأخر بعض الشيء فاخذ النعاس و نام على تلك الحالة.

و بعد منتصف الليل جاء المعشوق فإذا بعاشقه غارقا في النوم. فقص قليلا من كم ثوبه ووضع عددا من الجوز في جيبه و خرج، كناية عن انك ايها العاشق لازلت طفلا صغيرا لا يناسبك الا اللهو و اللعب بدلا من العشق و المعشوق.

و بعد ساعة استيقظ العاشق من النوم ورأى كم ثوبه و الجوز الذي في جيبه، فعرف من خلالهما مراد معشوقه.

إن دل هذا على شيء فإنما يدل على العشق المجازي، فلا تتوهم واعلم أن العاشق الحقيقي لله تعالى ينبغي ألا يلهيه الأكل و النوم عن العشق و الارتباط به تعالى. و هذا يحصل عندما يتخلى عن الارتباط بالدنيا و الركون إليها، و يجسد عشقه لله تعالى بشكل عملي بدل السعي وراء ملذات الدنيا الزائلة.

« وصية الأب الفطن و حكم القاضي »

كان لرجل حكيم ثلاثة أبناء قد جهد في تربيتهم تربية حسنة، و بالمقابل كانوا يكون له احتراماً خاصاً و يسعون لإرضائه دائماً.

و حينما أشرف الأب على الموت أوصاهم بهذه الوصية: كل ما املك و اموالي تعود لضعف اولادي و اقلهم حيلة و نشاطاً!

و بعد موته ذهب ورثته الثلاثة إلى القاضي و اطعوه عليها لتطبيق الوصية بالكامل. فقال لهم القاضي: ليخبرني كل واحد منكم بسبب كسله كما هو يعتقد. لأتمكن من تشخيص الأكثر منكم كسلاً و أحكم بانتقال الإرث إليه.

(لا يخفى أن اللسان هو بمثابة مفتاح القلب إذ أن الإنسان يزيل بكلامه ذلك الحجاب المسدول على القلب و يطلع الآخرين على سريره. و لذلك قيل: المرء مخبوء تحت طي لسانه. فمثلاً حينما ينوي أحداً شراء كوز يضرب بيده على ذلك الكوز ليحكم من خلال الصوت الصادر منه بانه سليم أو لا. سألوا حكيماً: ما هي علامتك لتعرف الإنسان؟ أجاب: بأول كلمة تصدر منه ولو لم يتكلم فسأبقى الح عليه حتى أسحب منه الحقيقة من حيث لا يدري)

و بعد أن تكلم كل واحد بعض الوقت حكم القاضي لصالح الثالث على أنه أكسبهم و أجدرهم بالإرث.

لقد استنتج القاضي من خلال حوارهم معهم أنهم كسالى جميعاً في أمور الدنيا و عدم لياقتهم و جدارتهم لأمر الآخرة، وكون ثالثهم أضعفهم دنيوباً و أقواهم أخروباً و أن أبوه قد أوصى له لا محالة باعتبار أن العرفاء في الدارين يسلمون أمورهم لخالفهم

أي بالرغم من سعيهم و نشاطهم يسلمون أمورهم لخالقهم أي بالرغم من سعيهم و نشاطهم الدؤوب فأنهم لا يرون للاستقلال أي معنى أبدا. بل يعتقدون بأن إرادة الله تعالى و مشيئته حاکمتان على كل شيء في كل زمان و مكان.

obeikandi.com

نحن عدم

مولانا الذي كانت قوته الذهنية المتأثرة بذكرى أيام خلواته مع شمس قد أخذت في العناد و الطغيان ، قال مخاطبا السامعين :

تسألون أيضًا عن تلك اللحظات المسكرة المشوقة ؟ بعض الأسرار لا يمكن كشفه للجميع ، أي لمن ليسوا أهلاً لذلك . تريدون أن تعرفوا ما هو في سويداء قلبي . لكنني أعلم أن إفشاء الأسرار للأشخاص الذين ليس لفهمهم و إدراكهم الاستعداد لقبول أسرار عالم الخلق ، عبث لا طائل من ورائه . قال علي (كرم الله وجهه) : " و الله " لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه ، بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة " فلا تنكروا الاسرار .

إن شمسًا التبريزي بفكره المضيئة العميقة الخارقة للأسباب يفشي لي الأسرار التي أحاطت بي و بكم كالهالة التي تحيط بالقمر و قد بينها على خير وجه و ليس في مقدوري أن أبين بالكلمات العظمة و اللطف اللذين يتجلي بهما فكر شمس الذي هو ثقافة إنسانية و عرفانية عالية . و لبيان ذلك ، لابد من إيجاد أبجدية و كلمات أو ثقافة جديدة و ما يعتلج في صدري لا أستطيع ولا يجوز أن أصرح به .

أحبائي الأعزاء لا تهموني بأنني عابد للشمس ولا تكفروني . ليتني كنت أستطيع أن ألقى في قلوبكم البارقة و الإشراق اللذين أنارا ذهني ، و استلزم ذلك إنارة ظلمات جسدي وروحي . فعندئذ نشاهدون و تدركون قدرة العشق السحرية جيدًا . يساعدهم العشق أصحاب القلوب على فهم أسرار الكائنات .

قال لي شمس في الخلوة : اسمع انظر إلى عظمة الروح شاهد حركة الإنسان ، و استمع إلى الرسالة العرفانية للعشق .

و قال شمس : لو أن شركة أصابت إصبع إنسان من تركستان إلى الشام لكان ألمه ووجعه ألبي ووجعي . ولو أن قدم إنسان من بلاد الترك إلى الشام اصطدمت بحجر لتمنيت أن يكون الأذي الذي ألم به قد ألم بي . و لو حزن قلب لكان هذا القلب لي .

تحدث مفكرنا الكبير ، المدقق في أسرار الخلق عن جوهر ذات الإنسان و عن العشق . . أحتاج إلى لغة بسعة الفلك لكي أشرح لكم مبادئه الإنسانية ، إنه شمس في وسط الظل . وهو يعتقد أن المؤمن الذي يحترق في أتون العشق و يغدو رمادا ، هو من صنف الشهداء و لأنه استشهد في وادي العشق ، لاشك في أنه طريق العشق هو مكان قتل الشهداء و تر مشهد الأنبياء و مثل هذا العشق ذلك لأن طريق العشق هو مكان قتل الشهداء و مشهد الأنبياء و مثل هذا العشق ، ذلك لأن طريق العشق هو مكان قتل الشهداء و مشهد الأنبياء و مثل هذا العشق طريق إلى الضياء حركة نحو الحسن و الجمال و الحقيقة . . جاذب نحو الوحدة و الفناء .

علمني شمس أن أحترف الصبر أمام إزعاجات الحساد و المدعين المتعصبين في قونية و اعتراضاتهم و سبابهم و أن ألزم الصمت . ما أجمل ما كان يقول . أولئك الذين يعادون أحياء الحق ، يظنون أنهم سيئون إليهم و هذا غلط و الصحيح أنهم يحسنون إليهم أيظنون أنهم يكرهون إليهم أنفسهم ؟ - لا ، البتة ، ذلك لأن أحياء الحق هؤلاء متجرعو الغم في العالم و هذا يزيد فيهم المحبة و الانشغال .

و يسمى مثل هذا مشرب البذل و الإيثار . وهو كلام يصقل روح السامع و قلبه و يزينهما و يتحول إلى نوع من العبادة و يشير إلى أن دافع العشق هو الذي أملى أسباب الارتقاء الداخلي عند شمس . ولا يمكن تعليم درس العشق برسائل الفلسفة و علم الكلام و المنطق ، لأن العشق ليس له أبجدية و كل سعي إلى بيان العشق و أيضًاحه و تفسيره لا طائل من ورائه .

متى يمضي العقل في طريق اليأس ؟

العشق هو الذي يتقدم مسرعا إلى تلك الناحية

فالعشق هو الذي لا يبالي لا العقل

العقل ينشد ما يستفيد منه

تعلمون أنني قبل لقاء شمس كنت عاشقا للدفتر ، كنت أجلس متصدرا الأدباء . و عندما رأيت جبين الساقى سكرت و كسرت الأقلام . و الآن أقوم بالخدمة ، أسعى و أجتهد في سوق أحبائي ، أو أحياء المعرفة إلى الجمال و الكمال ، و الحال المتصلة بجمال الكشف و الوجد و الإشراق . و هذا يقينا بمساعدة ربة العشق ، لأن العشق فضيلة صحة في العمل ، أساس لغني الباطن ، منبع كل ضروب الجمال و الكمال العشق وجدت جوهر الحياة و إكسير الحياة في العشق .

رسم شمس أمامي عالما جديدا . أدركت في محضر شمس جيدا معني الزمان و المكان الحقيقيين ، جعلت جسمي وروحي في إمرة القلب ، لكي ينفذا كل ما يأمر به القلب ، الذي هو تحت بناء العشق . وابتغاء أن تطلعوا على عالم الروح و الجسد أجعل قضية

مستمدة من كتاب لمحيي الدين بن عربي ، الذي كان أستاذاً عنواناً للحديث فقد كتب محيي الدين في إيضاح عالم الجسد و الروح قوله :

الدنيا جسد من دون روح و الإنسان هو روح هذا الجسد ، الإنسان هو العلة الحقيقية و الغائية للخلق . البشر هم المقصود الحقيقي من الخلق و بذر عالم الوجود فمن جهة الوجود الإنسان هو الموجود الأول وهو مقدم على الجميع و في ترتيب الظهور هو آخر ظاهرة في عالم الوجود . و قلب الإنسان محل التجليات الإلهية و بتعبير آخر ظاهرة في عالم الوجود و قلب الإنسان محل التجليات الإلهية و بتعبير آخر : القلب مختلي جناب الحق تعالى . جعل الحق تعالى الدنيا كمرآة صديئة و لا بد من صقل هذه المرآة فمن صار الإنسان صفاء لمرآة الوجود و روحاً لجسد العالم .

جعل الحق تعالى الإنسان القصد الحقيقي للخلق و سماه خليفته في الأرض و أودع صدره قلباً هو في العظمة أوسع من الرحمة و أعرض من السماوات . هذا القلب هو بيت الله سبحانه .

أيها الناس اعلّموا أن الله تعالى قال : لا تسعني الأرض ولا السما و لكن يسعني قلب المؤمن .

يا أُل قونية اعلّموا أنني و شمساً التبريزي نؤمن بالله تعالى و كان أجدادنا جميعاً من علماء الدين الإسلامي في إيران الكبير ، فلا تكسروا قلوبنا المؤمنين بالسخرية و الملامة و الاستهزاء .

اعلموا أن قلوبنا منزل العشق ، و العشق عصارة الدين و لب لبابه و كل من لديه مثل هذا الاعتقاد الراسخ لديه يقينا إيمان بالله سبحانه و بالإنسانية بالمعنى الحقيقي للكلمة .

- ما نطق العاشق بشيء إلا انطلقت رائحة العشق من فيه في محله العشق -
-ولو نطق بالكفر لكان لكفره رائحة الدين ولو تكلم بالشك لصار شكاً يقينا ووفقاً لقول الجنيد : العشق أن يملكك الله عز وجل عن نفسك و يحييك به .

دخل مولانا للحظات في إغماضة مريحة ، ثم فتح عينيه و قال : أي عالم العشق الأبدي و السرمد ، ها قد نجيتني بمساعدة شمس الطيار من الظلمات و الآن حين أن تنجي أيضاً بعض متعصي قونية و أجلافيها .

أيها الناس لا تربطوا قلوبكم بالخلق فتتعبوا ، اربطوا قلوبكم بالعشق لكي تتحرروا . سكت مولانا قليلاً في هذا الوقت ، فتمهض رجل من مكانه و قال :

- يا مولانا أخبرنا : أ بالرياضة و المجاهدة و الخلوة يمكن تعرف أسرار العشق السماوي ؟

تبسم مولانا وواصل القول : منذ سنوات طلب مني والدي سلطان ولد ، أن يدخل في الخلوة ، فقلت له إنه ليس للمسلمين خلوة و في ديننا هذا العمل بدعة؛ و لكنه كان في شرائع الرسل السابقين ، وكل مجاهداتنا من أجل راحة الأبناء و الأصحاب ، ولا يحتاج إلى خلوة . شمس الدين التبريزي مخالف للرياضيات و الخلوات . و أسرار العشق ليست شيئاً ينال في الخلوة أبداً ، لابد من أن يجد الإنسان مدرسة و يتلمذ على أستاذ . العشق تحرر من التعينات و الرسوم . و إنه بممارسة الوثبات الروحية . و الإحساس بأنه لابد من تعرف أسرار الوجود ، يمكن الإمساك بمفتاح العشق و نحن نأتي من العدم و نرجع إلى ناحية العدم المجيء و الذهاب :

- في كل لحظة ، يارب تتبعها قافلة ، تسير من العدم إلى الوجود .

- و في كل لحظة تعود هذه القوافل مسرعة من الوجود إلى العدم .

من وجهة نظر العرفان و التصوف العشقي ، عشق جمال الموجودات يدل على فقدان ثنائية ال " أنا " و ال " أنت " . اعلموا أن الأشياء كلها تتمازج في وحدة الكل .

يتخلص العشاق من الشخصية الفردية لأنهم يشاهدون العالم كله في أنفسهم في تلك اللحظات التي يصل فيها الإنسان إلى كمال العشق تتلاشى الاضطرابات و المخاوف من الحياة و شمس التبريزي ممثل لنوع من العشق و المحبة و عندما جاء من ديار بعيدة إلى هنا أتى لأرباب العشق الإلهي بهدية . و إن أعظم أحداث حياتي هو لقائي التاريخي بمجلي العشق أي بشمس تبريز . وهو مظهر تجلي الجلال و الجمال الإلهي و لست أدري لماذا أسميه و أنتم تعرفونه جيداً ؟ نحن جميعاً خلفاء الله في الأرض ، و شاهد الأسرار الإلهية للحق تعالى ، التي تتجاوز التقدير . انظر إلى ما في جيبك لكي ترى أي نصيب لك منه . كان شمس موجوداً بين الرب و المربوب و كان يقول و يؤكد أنه عرف الحق تعالى بمساعدة بارزي العشق سريعاً . و المؤسف أن أهل قونية لم يقبلوه و لم يتلقوا كلامه بسمع القبول :

- أيتها الصبا ، ائتيني بوصف لخد شمس الدين و خاله

- أحضري العنبر و مسك الختن من الصين إلى أرض الروم

- و ما الرأس حتى أقدمه فداء لقدم شمس الدين ؟

- اذكري اسم شمس الدين ، لكي أجعل الروح نثاراً عليه

- و قد سكرنا من رائحة شمس الدين و نمضي

- نحن سكارى من كأس شمس الدين ، فيا أيها الساقى لا تأت بالشراب
- شمس الدين كأس جمشيد و شمس الدين بحر عظيم
- و شمس الدين نفس المسيح و شمس الدين عذار يوسف
- شمس الدين جوهر المنجم ، و شمس الدين هو الليل و النهار

يسعى شمس من أعماق قلبه لأن يقدم للعشق و الموسيقى ، التي هي من مظاهر الفن الإنساني و لها تأثير خلاق ، مجالي حافة بالجلال و العظمة . وهو يلخص أهدافه الخفية و الإنسانية بصفاء و حميمية و محبة و إخلاص ، و يقدمها إلى الآخرين . و في هذا اليوم اخترت من أقواله و فكره و أماله نقاطا لها في ذهنه و في عواطفه و كذلك في عمله وسلوكه وضح أكبر ، و هذا ما أنشدته في شأن العشاق الحقيقيين :

طاب عيشكم في كل زمان أيها العشاق
و جعل الله لكم هذه الدنيا منجما للسكر ، أيها العشاق
و قد بدا بحر العشق هذا بحر غريبا معلقا ،
فلا هو تحت ، ولا هو فوق ، ولا هو في الوسط ، أيها العشاق
ووصل صياح سرور العاشقين إلى العرش
و تجاوزت هذه القافلة العرش و الفرش أيها العشاق .

obeikandi.com

عالم الغيب

كان مولانا يريد ، قبل مجئ شمس ثانية أن يعرفه لأهل قونية على النحو بالألم كان لانقا بمقامه ، بأنه ليس فقط عالما عالي القدر و جليلا ، بل هو عارف بصير بالألم خبير بالوجع . و قد اشتعل في هذه المدينة مصباحا سيضيء لسنين عقول أصحاب القلوب بمادته الجديدة و ينيرها . و يبدو رجلا شجاعا و في البحث و الجدل غير هباب ولا ينال منه التعب . كان مولانا يؤمل أن يستطيع تغيير أحكام طبقات الناس في شأن جبلة رجل حساس و سريع التأذي و بيان الأسس التي ينبغي أن يبني عليها التقويم و من أجل ذلك واصل مولانا كلامه :

قدم شمس من أجل تفتح العشق الحقيقي في وجودي في طينتي ، ما يشبه أن يكون معجزة . و أستطيع أن أبين لكم آثار هذا العشق أزال بطرفة عين اليأس و القنوط الذي أكل روحي و جسدي كالجذام ، العشق أوضح لي بتجربة جلال الذات الأبدية و جالها . عرفت أنه يحفظ جاذبية الأرض و الكائنات . و عندما هاجمت أمواج العشق وجودي جاشت جواهر المعرفة التي هي هبة الله تعالى للبشرية في قلبي كالحجر الذي ينشق في الجبل فيتفجر منه الماء الصافي العذب الزلال . و عندئذ تغيرت هويتي ووجودي و تحولت ظلمات باطني إلى شمس ساطعة ، فكنت أسمع صوت الطبيعة الذي هو أكثر الأصوات إثارة للبهيجان و احس على نحو رائع و سهل بأنني كنت أسمع صدى تأوهات قلبي و أمنياته و أماله و كنت غارقا بسماع صدي محبوبي .

يكون للعاشقين خمرة هي دماء قلوبهم

و تكون أعينهم على الطريق و المنزل

و لكي يصير الإنسان عاشقا ، لا بد له من متابعة رجل تقي يتمتع بانبساط وذوق متفنن و متفكر عارف مثل شمس تبريز . و بمساعدة الإنسان الكامل و توجيهه ، لا بد للروح من أن يتقدم بفعالياته في عالم ما وراء الطبيعة . و عندئذ يتحول جسد الإنسان إلى دار ضيافة و ترشيح من عقله فِكر جديدة تطري الجسم و الروح :

- كن مضيفاً مهتلاً الوجه كالخليل (عليه السلام)

ولا تغلق الباب ، وقف منتظراً في الطريق

- فكل ما يأتي من عالم الغيب

هو ضيف في قلبك فأكرم مئواه

- هيا ولا تقل : بقي كلا علي

فإنه سيظير سريعاً عائداً إلى العدم

العشق يجمع حوله كل عباد الله ، من الأديان و المذاهب و المشارب المختلفة ، كما يجتمع الفراش حول الضوء ، و يوجد بينهم ألفة و محبة لا انتهاء لهما .

يقول فريد الدين العطار إن إبراهيم بن أدهم كان أميراً في بلاد بلخ و كان تحت ولايته عالم مترامي الأطراف و كان يتولى حراسته دائماً أربعون فتي نشطاً يمتشقون سيوفاً مجردة من الأغماء و يحملون دبابيس من الذهب ، إلى جانب عرشه و في إحدى الليالي كان مستغرقاً في نوم عميق في فراشه الوثير ، و في منتصف الليل سمع صوتاً فنهض من الفراش فرأى أن سقف البيت أو القصر الذي هو فيه يهتز . فأخذ يفكر . فسمع وقع قدم ، و تبين أن شخصاً مجهولاً يتخطى فوق سطح البيت أو القصر ، فسأل :

- من أنت ؟ و ماذا تعمل فوق سطح منزل إبراهيم ؟ - فسمع إجابات من هذا النوع :

- أنا من معرفك .. نعم يا إبراهيم ، أنا من معارفك . لست غريباً و لست لصاً أيضاً ، فقدت جملي على هذا السطح ، جئت أبحث عن ضالتي .

غضب إبراهيم ، و في ابتسامة صفراء صاح :

- يا غبي يا جاهل ، يا مجنون ، تبحث عن جمل ضائع ، و أكثر من ذلك فوق سطح بيت إبراهيم ؟

المجهول وهو يقهقه ، و قد كسرت قهقهته صمت الليل المدهش ، و اصل القول من دون خوف :

- و أنت أيضاً كيف تطلب الله في الثياب الجميلة و أردية الحرير و الفراش الوثير ؟ و من هذا البيان المؤثر المحرك القاطع ، فكر إبراهيم قليلاً ، و اضطربت نار في قلبه ، و دفع عينه الأوهام و الخيالات و الظنون التي لا أساس لها ، و حتى الفجر ، لم

يستطع أن يهدأ من الخجل و من وخز الضمير ، فاضطر إلى الذهاب إلى ديوان الملك مفكرا حزينا .

و على حين غرة دخل من الباب رجل ذو مهابة و صلابة . لم يكن لدي الحراس القدرة على منعه من الدخول . تقدم حتى وصل إلى جانب إبراهيم بن أدهم ، فسأله إبراهيم وفي قلبه روع و خشية :

- من أنت ؟ و ماذا تريد مني ؟

- أريد أن أقيم في هذا الرباط .

- ليس هذا المكان رباطا ، بل هذا قصري ، القصر العظيم الجليل لإبراهيم بن أدهم .

- هذا القصر العظيم لمن كان قبل أن يصبح لك ؟

- كان لأبي .

- قبل أبيك لمن كان ؟

- كان لوالدي .

- وقبل ذلك ؟

- كان لفلان .

- إذا أصحاب المكان السابقون أين هم ؟ - إلى أين ذهبوا ؟

- ماتوا جميعاً و دعوا الدنيا .

- و مع ذلك يا إبراهيم ، لا تقبل أن يكون هاهنا رباط قديم . يأتي شخص و يذهب آخر و يمضي متحسرا ، و آخر يغدو مالكا للقصر . الشيء الذي لا يمضي ولا يفني إنما هو العشق و الإيمان : قال هذا ، و توارى عن الأنظار .

- من سماع قول الرجل المجهول ، أحس إبراهيم بهيجان و غليان في نفسه لم يكن له بهما عهد : هل جاء هذا المجهول لكي يكشف أسرار قلبه المملئ بالأمل ؟ تغير إبراهيم و أحس على حين غرة بأن قلبه بتأثير أنوار العشق صار مشرقا بالحقيقة :

- كل أجزاء الدنيا من ذلك الحكم السابق صارت أزواجا كل عاشق لزوجه .

- و الإنسان و الحيوان و النبات و الجماد كلها مرادات عاشقة لمن لا مراد له .
- و الذئب و الدب و الأسد تعرف ما العشق ، و من هو فارغ من العشق هو أقل من الكلب .
- و لو أن العشق لم يكن موجودا متى كان الوجود موجودا ، و متى تحول الخبز إلى وجودك و متى صرت موجودا ؟

و دع إبراهيم بن أدهم كل ظواهر الدنيا ، و توجه نحو حياة العشق الجميلة الجذابة و اعتراف بأنه لا شيء أكثر حقيقة من العشق ، و بأن أجمل مجالي العشق موجود في الجمال ، و عذع المحاسن متوارية في الوجود و في الطبيعة و في الكائنات. و قد كان إبراهيم يحس بأن نور الحق يشع على قلبه و عليه أن يودع تعلقات الدنيا و مظاهرها الخادعة .

هذا الانجذاب الباطني ، من كان يقدر على أن يعلمني إياه و يبينه لي غير شمس ؟ من كان قادرا على أن يقول لي إن الحياة ذاتها مثيرة للعشق ، و على الإنسان في الحياة أن يعشق محبوبًا أو معشوقًا ، و أن ينشد من أجله و يرقص و يغني و يترنم لكي يغرق تماما في المحبة و الإخلاص و الإيثار .

أسألوني : ما الفضيلة ؟ - أقول : هي العشق . و بهذا المعني ، إذا اعتبرني أهل قونية ، أنا العاشق ، كافرا فقد داسوا بأقدامهم على الفضيلة و الإنسانية . وإذا قالوا عن شمس الدين إنه ساحر فقد نفوا العشق و الجمال و الوجود في ذات المعرفة و دنيا علم المعنوية ، فأني أناسي لا ذوق لهم هم ؟!

أيها الأحبة ، ينزل العشق في القلب بمئة دلال و غنج متبخترا ، و مهدوء ، يجعل لحظات الحياة لألاءة ، غنية جميلة ، صافية . فهل يمكن جعل شمس الدين ، المداح للعشق و المحبة ساحرا ؟ هل يمكن التفريط بشخصية قوية كهذه بسهولة ؟ أما أنا فقد أخليت دار القلب زمنا طويلا من المحبة الظاهرية فكنت أفكر في شمس الدين ، وهو في أوج الكمال . كل من يحيا بعشق شمس سيبقي دائما حيا . شمس داع مؤمن معتقد بخالق الكائنات وهو يعلم الراغبين و الطالبين المصادر الأبدية للسعادة و المحبة .

شمس شفقي ، شمس فلقي ، شمس انعكس لأصداء قلبي شمس مجرة آمالي شمس تصوير للمحاسن ، إنه صوت الحقيقية الموزون و طنين العشق في الأرض . شمس أيضًا يحبني لهذب عينيه و قد قال مرات كثيرة إن لي في الدنيا كلها محبوبا واحدا هو جلال الدين البلخي . نعم قال مرارا :

نحن شخصان التقيا على نحو عجيب و قليل جدا أن يلتقي شخصان مثلنا .

واضحان جدا ، و لم يكن الأولياء واضحين و محجوبان جدا . إنه من بركات مولانا
أن يسمع مني أي إنسان كلمة . مولانا قمر ، و أنا شمس .
و قد قال لي :

من أجلك أنت عدت من حلب .

في يوم من الأيام قال شمس لابني سلطان ولد :

أنت لا تعلم أن هذا وقد أشار إلى نفسه ، دن من شراب رباني ، ختم بالطين ، وليس

لأحد اطلاع عليه . أنصت إلى العالم فكنت أسمع :

هذا الدُّن بسبب مولانا فتح . وكل من انتفع من هذا ، كان سبب انتفاعه مولانا .

obeikandi.com

العشق أساس الوجود

سمع صوت الأذان من مؤذنة جامع قونية الكبير ، و كان صدى الكلام الإلهي يتنزل من الفضاء اللامحدود نحو الأرض ، و يحيط بخانقاه المولويين ، كان صوتا جذابا أحمده صوت مولانا النافذ و قد امتلأ الفضاء بالدعاء . تقرر أن يجتمع الناس في عصر اليوم التالي في الخانقاه لسماع كان المهتمون بمولانا يتابعون بنظرات مشتاقة طريق ذهاب مرادهم . . . وهم لا يريدون الابتعاد عن مولانا حتى للحظة واحدة .

في عصر اليوم التالي عطل سوق قونية ، و اندفع ذوو القلوب المشتاقة المتحرقة إلى الخانقاه . و عندما وصل مولانا إلى الخانقاه كان كل شيء قد دخل في هدوء و صمت ، و كان وجه مولانا يبدو أكثر امتلاء بالجلال و الصفاء و كأن وراء هذه السماء ألف كانون نور متقد . كان صوت مولانا و كلام مولانا ورنين صوته اللطيف المؤثر تموج بالمحبة و الإخلاص ، كأن الناس مرة أخرى كانوا يسمعون الترانيم الإلهية .

كا متواريا في نظرات مولانا النافذة عالم من الأسرار . و كان يريد أن يعرض على الناس فكره الخالدة بمساعدة الكلمات و الجمل الأخاذة و لهذا السبب ابتداء كلامه بالقول :

ذلك العاشق الثمل الأُمبالي
الذي لم يخل من العشق لحظة
كان يطوف دائماً في ناحية العشق
سجادته على كتفه و سبحته في يده
العشق حياة خالدة

لا أخلى الله الحياة من العشق !

أتذكر أن شمساً قال : إن العشاق يطلبون الموت و الفناء كما يطلب الشاعر القافية ، و المريض الشفاء و المحبوس الخلاص و الأطفال يوم الجمعة . و كل عشاق مدرسة العرفان يرون المعشوق في كل شيء ينظرون إليه ، لأنهم ينظرون بنور العشق و

يعتقد العارفون و العشاق أن قوة العشق التي توجد في الإنسان حالة جذب و انجذاب عظيمة وقوية ، حتى إنها تستطيع أن تؤثر في الجمادات . و نعرض هنا سؤالاً ، فاستمعوا بدقة ثم أجبوا عن سؤالِي .

السؤال هو : هل منكم أحد يدرك بالأيضاحات التي قدمتها حتى الآن معني عالم العشق الشامل و الجميل ؟

- نهض عدد من الأشخاص و قال كل منهم بصوت مرتفع أنا ، أنا ، أنا ...
- أنتم أنتم لم تدركوا الولة و الهيام و الهيجان ؟
- لا ، لا ، لا .

تابع مولانا كلامه من دون انزعاج و مهدوء فقال :

قال الشيخ عبد الله الأنصاري إن الحق تعالى شاء أن يظهر صنعه ، فخلق الدنيا . شاء أن يظهر ذاته ، فخلق آدم . شاء أن يوجد نقاط ارتكاز للموجودات و الكائنات فأظهر العشق .

و كتب معاذ الرازي لأبي يزيد البسطامي :
أنا ثمل من شراب العشق حتى إنني
لو شربت جرعة واحدة فوق هذا لفنيت
فقال أبو يزيد في إجابته منشدا :

لو نظرت إلى وجهك ألف مرة لتمنيت رؤيته مرة أخرى
و سألوا الحلاج : على أي مذهب أنت ؟ - فأجاب على مذهب العشق .
و يقول فخر الدين العراقي : أراد سلطان العشق أن يضرب سرادقا في الصحراء ،
ففتح باب الخزائن ، و نثر الكنز على العالم .

يعزف العشق على آتته في خفاء

فأين العاشق الذي يسمع الصوت ؟

و العالم كله صدى لنعتمته

فمن سمع مثل هذا الصدي المديد ؟

و هنا ، مرة أخرى تذكرت قول شمس العشق و المعرفة الذي قاله لي مرات و نحن في الخلوة :

حدث الناس على قدر أفهامهم و لن لهم على قدر صفائهم و انسجامهم . أما أنا فلا شأن لي في الدنيا و في قونية خاصة ، بالعوام لم أت من أجل العوام : أم أختبر هؤلاء الأشخاص الذين يعدون أنفسهم مدرسين و معلمين بحق أوأخذ الغلاط القلوب

المعطلين المرآئين لا المرآيين المحبين .

أتكلم ابتغاء أن يسمع خواص المجلس و المرآؤون في قونية العشق العرفاني يطفئ لهيب الأهواء و الغرائز . العشق العرفاني جمرة عندما تقع في قلب العاشق تحرق كل ما تجده في القلب حتى إنه يمحو صورة المعشوق من حجيرة القلب .

حُكي أنه في شيراز ، مدينة العشق و دار العرفان و أرض الصفاء و الحسان وجد واعظ ثمل من شراب الشوق الأزلي و كان يعتلي المنبر ، فيسمع الحاضرين ببيانه الحار البليغ مزيجاً من أنغام العشق الملكوتية . و قد حدث من دون قصد أن حضر في مجلس وعظه أغلب مخلصي عالم التوحيد و فرسان عرصه العشق و التجريد . و في أحد الأيام أخذ الواعظ يتلو على الناس آيات المعرفة و العشق ببيان أكثر إثارة مما كان عليه الأمر في الجلسات السابقة ، فأدخل تيار كلامه الصارخ الجميع في حال من الوجد فما كان إلا أن نهض عارف من المجلس و قال : أريد أن أعرف أين منزل العشاق ؟

قال هذا و كان الواعظ مما ناله من الشوق يدفع سيل كلامه المهيج في الثناء على العشق و المحبة ، كالإعصار الصاخب و على حين غرة ، نهض من بين المجموع رجل مديد القامة نحيل و بعينين مغرورقتين بالدمع و لحن حزين خاطب الواعظ قائلاً :

- أيها الوالد روجي فداؤك عندي حمار صغير ، صبور و متحمل و نشط وهو عندي منذ وقت و كان لي صاحباً و أنيساً و مؤنساً و كنا معاً ليلاً و نهاراً و كنا شريكين في السراء و الضراء نعم أنا مكار ، حرفتي تأجير الحمير و في هذا اليوم أخذته إلى السوق ، فسرقه الشطار بالاحتتيال . أتمني أن تسألوا الناس : إن كانوا رأوا حماراً أسود فليعيده إلى فوراً . و سأشكر لكم و لمن يجده صنيعيكما .

ابتسم الواعظ ابتسامة صفراء . و طلب المستمعون أن يؤدب المكارى ، قائلين : إنه ليس هذا وقت ذكر هذا المطلوب . أما الواعظ العارف فقال للمكارى :

اجلس ولا تنبس ببنت شفة . لا تتكلم واهداً . أمل أن يظهر حمارك حالاً . فكر الواعظ لحظة ثم ألقى نظرة نافذة على المستمعين كانت نظراته إلى الوجوه مضطربة حائرة و في النهاية استعاد وعيه وواصل القول :

- أيها الناس أيها الشبان و الشيخوخ الذين اجتمعتم هنا أيها الوارثون للألام و المسرات قبل أن يبسط الموت أجنحته الموحشة فوق رؤوسكم كالمظلة قولوا لي : أيوجد أحد بينكم لا يسلم بمملكة العشق الأبدية ؟ - أيوجد أحد لم يضيئ شعاع العشق اللطيف المحبب صدره المتألم في هذه الدنيا ؟ حدثت همهمة لا سابق لها في الخانقاه و كان المستمعون ينظر كل منهم في وجه الآخر ثم في اللحظات صمت مؤلم نهض رجل لا رواء له و قبيح المظر و قال أنا .

- فسأل الواعظ : أنت لا تعرف شيئاً عن العشق ؟- لم تشغل بالعشق قلباً ؟- لا تؤمن بالعشق ؟ لم تعشق ؟

- نعم لم أربط بالعشق قلباً . ولا أعرف ما العشق و لم أعشق أيضاً .

فصاح الواعظ بغضب و صخب و أخرج صرخه من أعماق قلبه رج صداها قناديل المسجد و أنشد :

صاح قائلاً : يا صاحب الحمار

هيا وجدت حمارك فهات الزمام

أيمكن أن لا يعرف الإنسان العشق ؟- أنا هنا أتحدث عن معشوق و محبوب خالد سترجع إليه في النهاية . . نعم في الأبدية . الإنسان العاشق يرى في مرآة الأبدية الشفافة مظاهر الوجود جيداً ولا يوجد في قلب العاشق سوى المعشوق . مصدر مظاهر الوجود جميعاً هو العشق و قلب العاشق خلو من الكبير و التباهي و التفاخر و سعته قادرة علي استيعاب الدنيا و بناء على هذا الأصل كان أبو يزيد البسطامي يزعم و يقول في شأن سعة قلبه : لو أن العرش و ما فيه مر في زاوية القلب العاشق لما كان للعارف علم به . و ما ذلك إلا لأن السباحة في بحر " نفي الذات " أبرز خواص العشق ووجه امتيازته و للعشق رأس عنيد مع العقل و يمشي فوق قمة الجبر و الاختيار بشجاعة و يد التقديس و الإخلاص تفرع باب العرش و تسمع الصوت الإلهي بكلية الوجود و فردانية القلب لا تطمئن إلا بوحدانية الحق سبحانه كل صاحب قلب يعرف شمساً و يطلع على مناجاة خلود شمس العشق و أنا و شمس من أبطال عالم العشق و يوجد في مقام عباد الله تعالى في العشق و الفتون أبطال عظماء لا يرون نهاية العشق عدماً و موتاً . ووفقاً لقول أبي يزيد البسطامي : العشق قبول للموت من طريق الشهادة و لذلك أنا و شمس عاشق و معشوق تتخطى بمدد قدرة العشق السحرية النيران و المهالك و الانتقادات و التقريرات لكي نحدد للمدعين حقيقة مفهوم العشق بمعناه المطلق .

اسطرلاب الأسرار

وردنا الحمى المغناطيسي للعشق باشتياق ، و أنا من محلة الوحدة و الهيجان و العرفان هذه في هذا الوقت أرى عبور قافلة شمس الجليلة العظيمة في الأزفة الضيقة لأطراف قونية ، و من هنا أحس أيضًا في نظراته المضطربة بلوعة الفراق و الهجر نظراته المضطربة تتحدث عن إعصار من الحادثات ، أو تبين أنه سينأي عني و عن قونية سريعًا . نظراته مثقلة بالحسرات و الآهات . لست أدري مرة أخرى ، أية داهية و أية ولقعة خطيرة ستحدث له في قونية . تذكروا أن جلال الدين اليوم قال : إن سيما شمس العشق و نظراته المشتة تلوح من بعيد إلى طوفان وداعه ورحيله النهائي عن قونية ، وإن سحابا أرجوانيا يتحرك فوق ركبان القافلة .

و في هذه اللحظات علي أن أعترف لكم يا أهل قونية ، بأنني نادم على دعوتي شمسًا بإصرار منكم و إلحاح إلى المجيء إلى هنا ذلك لأن قلبي يحدثني عن وقوع طوفان هائل و فاجعة و حادث دام . يأتي شمس ممتطيا جوادا لكنه غارق في الفكر . ليته يكون في جمعكم أيها الحاضرون قلب يفهم لغة روحي و يسمع صوت قلبي و يبين لي . لماذا تبدو نظرات شمس نظرات شخص محتضر ؟ هو بفيض الشمس العالية كوكب عرفان و كأس مظهرة للعالم و تراب طريق ! وهو مشوق و محركي لقول الشعر . هو الذي غيرني بكلامه و أشعني . هذه الشعلة المحرقة هي للروح شعلة العشق للحياة و للبشرية و للكائنات .

إخوتي الأعزاء ، إن شمسًا عارف حر ، و في السير و السلوك قطع مدارج و مقامات هو يوم القيامة المفاجئ و الرحمة التي لا نهاية لها، فإذا كنتُ أنا ثملا أو صاحيا فإنني في ذكراه . نعم أنا متحير مندهش من لقائه .

وقف أحد الحاضرين فقال :

- إن أهل قونية يقولون لمولانا إنهم يستقبلون ضيفه الكبير بسرور ورضا خاطر، و نحن نكرم قدوم شمس من أجل سرور مولانا . و مطلبنا أن لا تسمح لليأس

و القنوط أن ينفذ إلى وجودك . لاشك في أنه لن يكون هناك شيء مزعج . ما دام شمس في قونية سيعيش باحترام و إكرام و إجلال . و متي ذهب من هنا ترك قونية مصحوبا بذكريات طيبة ورجاؤنا هو أن لا تكون منشغل البال .

- سأل آخر : كيف يكون في مساطعك أن ترى من هنا قافلة شمس من هذه المسألة البعيدة ؟ - كيف يكون ممكنا أن ترى وجهه المشوش المجهد هكذا من بعيد؟ هل هناك اعتقاد و تصديق بذلك ؟ هل يسمح مولانا لكتلة خيال مهمم و زائف أن تغزو وجوده أو تشك بإكرام أهل قونية للضيف مقدا ؟ . نقول : إننا سنحسن ضيافة شمس . وإن أهل قونية لديهم حاجات روحية معنوية إلى نجل سلطان العلماء فقيه المدينة الكبير ، و يرغبون في أن يستمر مجلس درس مولانا و بحثه و إرشاده من دون تأخير ينتظرون مشتاقين عودتكم إلى مجالس الدرس المفعمة بالفيوضات .

فما كان من مولانا ، الذي بدا في حال من الإجهاد و الكآبة و كانت الكلمات تخرج بصعوبة من بين شفثيه ، و كان يسمع الأصداء المناسبة لأهاته التي كانت تنبعث من قلبه المتألم إلا أن يواصل القول :

الإنسان الذي يتحدث عن العشق و أسرار العشق بقلب مفعم بالشوق ، هنا ليس غارقا في حلم كاذب يقينا ، بل يتحدث بوجود تام و صحو كامل و يعلم أن حوادث دامية ستقع في قونية . لم أشأ أن أصور من عندي ملامح غير التي ترونها . لكنني يجب أن أتحدث من أجل تلك الجماعة من الناس الذين جلسوا هنا ، و يعتقدون أنني نجي لخيالي و أنسج من الخيال كما يقال و عاشق لفكرى . أنا شاهين محلق في لحظة واحدة و بمساعدة شمس التبريزي و إرشاده طرت من صفة الطريقة إلى فيه الحقيقية و كلامي معراج للحقائق و نغم سماوي منعش للروح و أسطرلاب لأسرار الحق . فقد أمسك بيدي و حلق بي إلى مكان أستطيع فيه أن أدرك أعلى درجات الروحانية و من هنا أرى في الضياء الباهت لسقف هذا الخانقاه الغروب الدموي لشمس الحقيقية في قونية . و مع كل الإزعاجات و الصعوبات التي رأيتها في الحياة أباهي و أفاخر الآن بأن قلبي المنكسر مهبط الأنوار الإلهية محط الجلبة السماوية :

هذا الكلام سلم إلى السماء

و كل من يدخل من هذا الباب يصل إلى

و يأتي منه لحن لسقف الفلك

فيكون دورانه دائما من ذلك الهواء

إن قلبي يسمع بوضوح و من دون أية ذرة من نقصان الثقة صدى الفراق المشؤوم . أيها الناس تستطيعون جميعا أن تطلعوا على الأسرار التي أحاطت بالبيعة كالهالة

التي تحيط بالقمر . الناس جميعاً قادرون على أن يسمعوا الأنغام السماوية. الكلام السماوي هو تركيب موزون و ملكوتي للعشق . هناك نشيد مقدس أسمعه أنا جيداً . ومن أجل سماع هذا الصوت المشوق لابد للإنسان في الحياة من أن يودع الحياة قبل خمسة أيام من وصول نداء الموت فيظفر بولادة ثانية و تحول جديد و أن يتخلص من الجسم و الروح كما يقول الحكيم سنائي :

لا تجعل منزلك في الجسم

لأن هذا دون و ذلك عال

وضع قدمك خارج هذين الاثنتين

لا تكن هنا ولا تكن هنالك

و قد قال الإمام على إمام الأحرار عليه السلام : قبل أن تموتوا ، تحرروا من قيد الجسم بالموت الاختياري ، أنا أيضاً قلت لشمس : يا مولاي قبل أن يأمرني الموت بالتسليم ودعت الحياة و تعلقاتها ، ودعت الحياة ومواهبها و لهذا أستطيع أن أسمع صوت الحقيقة اللطيف المملوء بالجلال . آخرون أيضاً سمعوا و اطلعوا على حوادث المستقبل . أحد هؤلاء أبو يزيد البسطامي . فقد أخبر أبو يزيد عن حال الشيخ الخرقاني قبل أن يأتي إلى الوجود . فإنه في يوم من الأيام كان أبو يزيد يسير مع مرديه نحو الصحراء فوقف على حين غرة للحظة في أحد الأماكن و بدا كأن رائحة طيبة و و في صمت الطبيعة و الفضاء المفعم بالعطر كأن صوتاً كان يتحدث مع روح أبي يزيد . كان أبو يزيد في ذلك المكان ، أي في أطراف خرفان القريبة من مدينة الري ، يتحدث عن مولود على الشأن . كان عطر كائن أو وجود متوار في ذلك الوقت وراء ستار الأسرار ، يسكر أبا يزيد ، كأن الطبيعة مدت بساطاً من الرائحة الطيبة فوق الصحراء فما كان من الشوق و الجذب و الإشراق و الشهود في مستراد ريح الصبا إلا أن تفقد أبا يزيد وعيه . و عندما ظهرت آثار السكر على أبي يزيد سأل أحد المريدين :

ثم سأله : عن هذه الأحوال الطيبة

الخارجة على حسابات الحواس الخمس و الجهات الست

إذ يغدو وجهك تارة أحمر ، و تارة أصفر ، و تارة أبيض

أية أحوال هذه وأية بشائر و ذخائر ؟

أجاب أبو يزيد البسطامي ، الذي هو إمام أهل الحال و الشيخ الكامل : إن رائحة مسكرة تصل إلى مشامي تشبه تلك اللحظات القدسية العصبية على الوصف قال النبي (عليه الصلاة و السلام) : إن ريح الصبا تحمل إلى مشامي نفساً رحمانياً أخاذاً من ناحية اليمن :

إن عبير رامين يهب من روح " ويس "

ورائحة الرحمن تهب أيضاً من " أويس " و قد هب من " أويس " و من " قرن " أرح عجيب جعل النبي ثملاً شديداً الانتشاء و الطرب

و في المستقبل القريب جدا ، بعد وفاتي ، سيمشي في هذه الأرض رجل يضع على رأسه تاج العرفان و في الأعوام التي ستأتي سيكون الإمام و المرشد و الأسوة الحسنة للخلق: اسمه أبو الحسن الخرقاني . و قد سجل المريدون خبر ولادة أبي الحسن الخرقاني و اسمه و لعل هؤلاء لم يصدقوا أن البسطامي قادر على أن يخبر عن ما جريات مستقبل بعيد نسبيا و لهذا السبب أثبتوا في أذهانهم الأمور التي ذكرها الشيخ بشيء من الإكراه أو بطء التصديق . و لأنه لا أمل عندهم بحياتهم الآتية ، كانوا يحكون هذا الخبر المحير لذوي قرياهم و أصدقائهم . و مثلما أنكم اليوم لا تصدقون خبر وصول قافلة شمس ، الذي أراه أنا واضحا من بعيد ، كان أصحاب البسطامي هكذا أيضاً . ومهما يكن فإن مريدي البسطامي كانوا يريدون أن يعرفوا من هذا الذي هو ذو نفس كنفس المسيح الذي سيأتي إلى ساحة الوجود في أطراف مدينة الري و يترك تأثيرا بالغا في الحياة الروحية للناس . حتى إن البسطامي في ذلك اليوم التاريخي تحدث مفصلا عن لون بشرة وجه أبي الحسن الخرقاني و قامته و عينيه . عدد من خلاء البسطامي الذين كانوا حسني الاعتقاد به ، كانوا يعلمون أن أبا يزيد لا يتحدث بتأثير الحال و التفنن و أنه لو لم يجد الزمان و المكان و المجلس المهيأ و المناسب لما أمكن أن يتحدث عن أسرار شيء . و عندما يتحتم إيصال أمر أو مطلب إلى أسماع الناس أو الإعلام برسالة لن يصمت و سيذيع الأسرار بلا مبالاة حتى مع مخالفة أكثرية الحاضرين .

عرض أبو يزيد تصوير أبي الحسن الخرقاني و بشر بمقدمة بمساعدة الكلام . و في لحظات الشوق و الهيجان تبك كان الناس يعتقدون أن واحدا من كرويبي العالم الأعلى سيمثل أمام اعينهم . و كانوا يسألون الله (سبحانه) أن يمد في أعمارهم لكي يروا ولادة أبي الحسن الخرقاني وفق الأوصاف التي ذكرها أبو اليزيد كان أبو يزيد مبشرا بأن الخرقاني سيكون مجلي لكل الأشواق و الهيجانات و ضروب المحبة البشرية و مضت السنون و مضى أبو يزيد البسطامي شمس العرفان التي لا تغرب إلى خالق الكائنات و لبي نداء الحق . ثم بعد وفاة أبي يزيد جاء إلى الدنيا مظهر عظيم للعشق و الرجاء اسمه أبو الحسن و ولد من أم و مرة أخرى وقع ضياء جبين الساقى في الكأس ثم بعد كل تلك السنين بعد وفاة أبي يزيد جاء أبو الحسن ،

و جاءت كل طباعة الطيبة على غرار ما كان ذلك الملك قد ذكر .

و قد غرق الناس في حيرة و سئل هذا السؤال في كل مكان : من أين لأبي يزيد يعلم ؟ - كان أحدهم يقول : إن أبا يزيد بشر بمولود جديد من طريق علم النجوم . و اعتقد

فريق بأن هذه النبوءة مبنية على العالم الباطني لشيخ بسطام الذي لديه قدرة على الإبداع و ما كان يمر في خاطره الطاهر كان يبرزه للعيان مثل مصور ماهر . كان يريدو الخرقاني يرجون بجزع و نفاذ للصبر ، أن يكونوا في صميم الحداث . و قد كان هذا فراجت سوق الشائعات المختلفة و كان يجري الحديث عن الملائكة و الجان . و كان أن تجاوزت جماعة حدود الموضوعات المنطقية كأنها لم تطلع على عظمة عالم الباطن كما يجب و لهذا السبب كانت تقر بعجزها و سطحيتها و مسكنتها في كشف هذا المعني .

obeikandi.com

تجليات العشق

أحد المنتقدين و المتشدقين قال لأصحابه : كشفت التنبؤ بالأسرار ذا الطابع السحري و شأن الخرقاني أفلا تعلمون أن الأسطرلاب يكشف أسرار المستقبل ، حتى مظاهر المجتمع الإنساني ، بدقة و ضبط بتذوق الحقيقة ؟ و اعتقدت جماعة أن أبا يزيد رأى في المنام وجه أبي الحسن الخرقاني . وقد ردَّ جلال الدين ، مولانا على ردود الأفعال العاطفية للناس على القدرة العرفانية المذهلة لأبي يزيد على هذا النحو :

ليس نجوما ولا رملا ولا مناما

بل هو "وحي الحق" و الله أعلم بالصواب

و ابتغاء التعمية على العامة في البيان

قال الصوفية عنه : إنه "وحي الجنان"

ولد أبو الحسن على الصفات و الخلائق نفسها التي تنبأ بها أبو يزيد . فمنذ طفولته الأولى كانت له شخصية غير عادية ، إذ كان ينزوي عن أصدقائه و ينصرف إلى الدرس و الوعظ و المسجد و المحراب ، و كان لديه اشتياق قوي إلى سماع العارفين يشرحون حقيقة الحياة و في صغر أبي الحسن قيل له : إن أبا يزيد قال في شأنك كذا و كذا

و بين صفاتك في حياته على نحو رائع ، إذ قال :

إن أبا الحسن هو مريدي و أمتي

و سيأخذ الدرس كل صباح عند تربتي

كانت نبوءة شيخ بسطام صحيحة فقد كان أبو الحسن يمضي كل صباح لزيارة تربة أبي يزيد و يجلس لمدة ساعة قرب قبره ، و يستملي كتاب قلبه حتى ينجلي له السر الإلهي في الأفلاك و تنكشف الأسرار الغامضة الحاكمة في هذا العالم كان شعورا خفيا كان يتحدث إلى أبي الحسن مبينا له أن شعاع الآفاق اللانهائية للإيمان و الإخلاص و المعرفة الباطنية عند أبي يزيد هو الذي يرفع النقاب عن وجه أسرار المجرات و يحول ظلمة ليل حياته بكوانين النور إلى نهار متجل .

كان أبو الحسن يجلس كل يوم بجانب قبر مراده الملحن و يتحدث مشكلاته ثم بعد إزالة المشكل يترك المكان مسرور القلب . و في يوم بارد من أيام الشتاء كان الثلج فيه قد غطى وجه الأرض بغلالة بيضاء مضي أبو الحسن جريا على دابه اليومي مسرعا إلى المقبرة فرأى الثلج قد غطي أبي يزيد البسطامي و لم يبق ثمة موضع للجلوس و السكنينة و الحديث الصوفي الصافي . و في تلك اللحظات أحس أبو الحسن كأن شعلة الهيجان العرفاني قد انطفأت في صدره عقب عاصفة الثلج هذه فهم بأن يرجع إلى المنزل فإذا صوت يتناهي إلى سمعه و كأن جملة ذرات وجوده قد صارت سمعا و إذا الصدي يقول :

إذا كان العالم ثلجا ، فلا تشح بوجهك عني

ألا فلتأت إلى هذه الناحية أسرع إلى لحي أنا مثل فريد الدين العطار على أن أعترف بأنني و شمسًا لم نظفر بهذه الحال بالقبل و القال ، لم نكسبها بالحرب و القتال . بل جعلنا قلبينا محلا للإيمان و العقيدة و الإخلاص . كنا ننشد الكمالات . و في هذه السبيل قبلنا و تحملنا الآلام و الصعوبات برضا ، و كنا ننشد الكمالات . و في هذه السبيل قبلنا محلا للإيمان و العقيدة و الإخلاص . كنا ننشد الكمالات و في هذه السبيل قبلنا و تحملنا الآلام و الصعوبات برضا و كنا نوّمن بأن الإنسان من دون ألم و مشقة ، شبيه بالجمادات :

من ليس لديه قلب مسرور بألمك
لا سره الله إذ لم يكن من رجالك !
فأعطني ذرة من دائك يا دوائي
لأنه من دون دائك يموت روحي
و حتى في أثناء تلاطم أمواج الإزعاجات كنا منشغلين بالتضرع و إنشاد ألحان التوحيد و الشكر التي تخلب الألباب .

و لذلك يكون النبع الثر للوصول إلى الحقيقة عين الهيجانات الخاصة للعشق و المحبة وفق شهاب الدين السهروردي شيخ الإشراق الذي قال في مؤلفه " رسالة في حقيقة العشق " لا " لا يأذن العشق لكل إنسان بالوصول إليه ولا يأوي إلى كل مكان ولا يتجه إلى كل عين يظهر العشق نفسه حيناً في ملامح شهوانية خالصة وحيناً في صورة خرق روحاني للعادة و في الحال الثانية يوصل إلى ما يعد غير ممكن فيظهر القبيح جميلاً و المنحط متعالياً و يطرد كل إنسان إلا المعشوق وعن معرفة الذات " .

العشق من التجليات الإلهية وهو أساس الوجود و هيجان الحياة السمرمية و صانع العمران و أساسه و يدفع الناس إلى القرب و الصفاء و الصميمة و الوحدة .
اعلموا يا أهل قونية أن الأمر هكذا :
مع أن سكر العشق قد خربني

ظل أساس وجودي عامرا من هذا الخراب العشق مثير للمحبة و الصفاء و الصميمة و النمو . و إنسان عاشق على غرار شمس لن يكون تحفة معجونة من قوي مختلفة و متفاوتة أو متضادة . الإنسان العاشق يطوي طريق الصلح و الصفاء و يكون مداحا للعظمة الإلهية و هو يفتخر بمسقط رأسه و بأصدقائه و بنبيه و بإيمانه . رياض الطبيعة و بسايتها ضاجة بألحان قمري العشق .

و يعيش شمس حالا من السعي و الكفاح المتواصلين لإخماد طغيان النفس و الهوي عند الناس و تأمين الرفاه الروحي لهم و تعديل لذاتهم و ضروب استمتاعهم يسعي دائما لتأمين الحاجات الروحية و المعنوية عند الناس .

و تعلمون أنكم جميعا أو أهل البسيطة المنشغلين في شؤون الحياة ، تطلبون دائما ما يبلي شهواتكم و رغباتكم و لذائذكم . و يقول شمس إن الحق تعالى لم يخلق الإنسان من أجل طلب اللذة و الاستفادة من مواهب الطبيعة و إن الفلسفة الجميلة العظيمة وراء خلق الإنسان هي أن يكون أعظم خليفة لله تعالى على وجه الأرض و أن يتعرفه بتسام وجوده فإن معرفة الذات الإلهية أعظم عبادة و طاعة .

إن شمسًا هو عنقاء جبل قاف العشق التي تكون عنقاء العقل الجزئي أمامها ضئيلة الشأن جدا إنه موجه من بحر اللامكان ظهرت من خوفها هيجانات و تأوهات و طوفانات و قد تحدثت في هذا المكان مرات كثيرة عن القدرة الباطنية العظيمة لشمس و لكن كل تلك الأسرار التي أعلمها عنه صدقوا أنني لست قادرا على إفشائها ، لأنني لا أمتلك الجرأة على التحدث عن كل فكرة و عواطفه و خاصياته ، و أخشي من أنه بسبب هذه الأسرار ستضطرم شعلة جامحة في فضاء هذا الخانقاه و تحرق كما هو موجود في هذه الخانقاه :

عندما تستطيع الوصول إلى البحر

لماذا يكون عليك أن تسارع إلى قطرة ندي ؟

و من يعلم كيف يتحدث مع الشمس بالأسرار

متي يستطيع أن يبقى مع ذرة !؟

إن شمسًا في ميدان مبارزة النفس و قتالها رجل تام العيار و قد دفعني دفعا نحو كشف أسرار الدنيا .

و شمس بنظرة الباطن و بقوة قلبه الذي أضيئ بأنوار القدس يرى حقائق الأشياء جيدا مثلما تشهد النفس صورة الأشياء بمساعدة عين الظاهر . و الغاية القصوى للخلق إدراك هذه القوى الخفية . وأنا أيضا في حياتي كلها و منذ الصغر كنت أبحث عنه لكي تسوقني الدنيا الجميلة لحال شمس إلى حد ما نحو كشف أسرار العالم .

و علي هاهنا أن أتحدث عن القدرة الساحرة للعشق و أتكلم على هذا اللاعب المثير في ميدان قلب الإنسان وروحه و قد تذكرت هنا بيان الشيخ شهاب الدين السهروردي الذي يقدم في أثره "رسالة في حقيقة العشق" هذا السؤال الذي يسأل فيه العشق .

من أين تجئ و إلى أين سيذهب و لماذا سميت بهذا الاسم ؟

- فأجاب العشق : أنا من بيت المقدس و من محله الروح . . عملي السياحة أنا صوفي غير محروم و في كل لحظة أتوجه إلى ناحية و في كل يوم أكون في منزل و في كل ليلة أقيم في مكان و هذا الشعار أو هذا الرسم أي عادة إثارة الفتنة في المدينة .

واجتذاب المحبوبة ، لباس خيط على قامة شمس ، وهو يعلم الدلال و الغنج العشقيين جيدا و قد تحمل في هذا الطريق رياضيات و مجاهدات .

أي أهل قونية هو الذي اختطف مني الهدوء و الطمأنينة و لكنني طيب النفس بذلك مسرور به و الدنيا التي أعدها شمس لي هي دنيا لونها قوس قزح بألوانه الخلابه . إنه طائرهما سعادتني الطائر الذي أطار يد التقدير فوق رأسي و بشعاع طائر السعادة هذا و تحت ظل جناحيه الذهبيين أفاخر بنفسي .

في يوم من الأيام ، رأى السلطان محمود (الغزنوي) في الصحراء طائر "هما" محلقا ، فقال لجنوده تابعوه ، كونوا خلفه ، تعقبوه ، لعل ظل الإقبال و السعادة يقع عليكم .

جري الجميع من اليسار و اليمين و حدثت همهمة و اضطرب الجند أما إياز فلم ير بين الجند المضطربين الذين كانوا يجرون و عندئذ سأل السلطان محمود :

- ليس إيازي بينهم . لماذا لم يذهب معهم لكي يقع ظل طائر الهما فوق رأسه ؟

- نظر السلطان إلى زاوية فرأى إياز قد جلس تحت ظل جواده ، فسأل :- ماذا تفعل هناك لماذا لم تنطلق وراء طائر الهما ؟ فأجاب إياز :

- طائر هماي هو أنت و ظل هماي . أأطلب ظلًا أجمل من ظلك ؟ و أترك القلب في رهن محبة طائر ؟ ! حاشي أن أتركك و أتبع ذلك الطائر . هذا غير ممكن عندي . فما كان من محمود إلا أن عانق إياز فاختلط ظلّه بظلّه . هذا الظل الذي لا يصل ظل آلاف طيور الهما إلى ظلّه .

ليتني أنا أيضًا أستطيع في يوم من الأيام الامتزاج بظل شمس و أطيّر بمدد منه إلي الأوج ، نحو الأفلاك .

قال لي شمس : لو ذهبت إلى العرش لما كانت هناك فائدة و إن ذهبت إلى ما فوق العرش لما كانت هناك فائدة و إن ذهبت إلى ما فوق العرش ، وإلى ما تحت سبع طبقات ، فليس ثمة فائدة ، ينبغي أن يفتح باب القلب .

أسعى لأظفر بمستقر في القلب و قلب ليس خزينة لأحد ، بل هو خزينة للحق و نقطة فرجار الوجود .

و في هذه اللحظات و من أجل أن يستريح مولانا للحظة و بإشارة من معين الدين يروانه الوزير الكبير في بلاط سلاجقة الروم الشرقية أمسك أحد الحاضرين بالرياب و أخذ في العزف . و هكذا انساب صوت الرياب الشجي إلى أذن مولانا . و مثل ظمآن يصل إلى عين الماء الزلال بعد ساعات من السير في الطريق ، سكنت مولانا و بدت على سيمائه أمارات الراحة الواضحة ، و همس :

- تضرع العشاق يصل إلى الأسماع .

كان لحن الرياب وحده الذي يقدر على أن يوقف الكلام على لسان مولانا ، كان مولانا يعتقد أن صوت الناي و الرياب مصدر للذات روحية لا حدود لها ، أنه نداء يصل البشر بعالم الغيب . التأثير الذي يتركه صوت الرياب في السامعين أقوى من سكر الخمر الذي يستبد بالنفس . و ابتغاء أن يثير المطرب مولانا و يزيد وجده غنى وقرأ .

لَيْسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرِيبٌ مِثْلَ شَمْسٍ
شَمْسُ الرُّوحِ الْبَاقِي الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَمْسٌ
وَالشَّمْسُ فِي الْخَارِجِ مَعَ أَهْلِا فَرِيدَةً فِدَّةً
يُمْكِنُ تَصَوُّرُ مَثِيلٍ لَهَا
أَمَّا شَمْسُ الرُّوحِ الَّتِي حَرَجَتْ مِنَ الْأَثِيرِ
فَلَيْسَ لَهَا فِي الدِّهْنِ وَلَا فِي الْخَارِجِ نَظِيرٌ

و بتأثير جاذبية ذلك الصوت و اللحن و سماع اسم " شمس " اضطرب مولانا و اهتمت نفسه اهتياجا عظيما و كأنما استوعب سحر شمس و جاذبيته بكل ذرات وجوده و جملة حواسه . كان مولانا يعد أجمل الغزليات و الرباعيات و الأشعار تلك التي تكون مؤثرة و بليغة و طنانة تطير به كالقش من الأرض نحو الأفلاك ولا شك أن مثل هذه الأناشيد ينبغي أن تسمع مصحوبة باسم " شمس " .

obeikandi.com

من شمس؟

أعلم الآن أنكم تفكرون في شأن : من شمس هذا ؟ أما أنا فأعتقد أنه أكثر النجوم تألقا في سماء العرفان و الثقافة في إيران ؟

كل من آمن بالله ، و يؤمن برسوله الأكرم (صلي الله عليه وسلم ، أعتقد أنه يمر من خلال شلال نور لا ينتهي . و إن رسولنا الأكرم بفكره و تصوراته المتعالية ، كان يحل بكلامه الشبيه بالمعجزات و المملوء بالجواهر و الدرر مشكلات لا حل لها شغلت أذهان الفلاسفة و العلماء في العالم . و ليس هناك مسألة بعيدة عن صفحة ذهنه للألاءة و أفخر بأنني ربيت في مدرسة محمد و كان أجدادي جميعاً من علماء الدين . على الناس أن يكونوا مطيعين لله عز وجل من دون ادعاء و مرءاة . و في هذا الزمان المضطرب الذي يسمع فيه صدى سنائك خيل المغول في شطر من آسية ، لن يوفق منهج محبة الإنسان و الأخوة الإنسانية .

لابد من العمل علي تخفيف ضروب القلق الروحي عند الناس . و العرفان هذا الدواء العظيم للألام يقدم السكينة و الراحة للناس في طوفانات الحياة . و على أهل قونية أن يكونوا شاكرين ، لأن شمساً التبريزي بقوله و فعله و سلوكه يأتي إلى هنا بنهر من العشق و الصفاء و الإخلاص و الأخوة و الإنسانية على سبيل الهدية التي يأتي بها المسافر ، و هذا النهر سيتصل في المستقبل ببحار أرواح المشتاقين و ستغمر أمواجه الدنيا كلها . و قد تمثل الأساس الذي اقترحه شمس علي و علي أصحابي ، في العشق و الصفاء . و قد قال شمس مرارا : إنه قبل كل شيء على الإنسان أن يكون مؤمنا ، و أن يعرف الله جيدا بكلية وجوده الله الذي هو نور مطلق ، الذي هو غاية الحياة و القانون الأزلي و الأبدى للوجود .

مخاطبو مولانا ، ممثلو المحفل الروحاني في قونية الأشخاص الثلاثة جميعاً ، اعترفوا و قالوا : نحن أيضاً نعرف الله و نؤمن به ، و هذه الأشياء لم يأت بها شمس كالحداة من أصقاع بعيدة إلى قونية على سبيل الهدية . و إن وجود أماكن العبادة و

الطاعة المختلفة و الكثيرة في هذه الحاضرة يدل على أن الناس هنا أناس يعبدون الله تعالى انبرى أحدهم فأضاف إلى كلامه :

- نحن دائماً نحس بالله تعالى قريباً منا ، في قلوبنا ، نحن في مدرسة الإسلام ، أحطنا بطرق معرفة الله ، معرفة الله لا تحتاج إلى برامج مختلفة ، و مراسم كالدوران و السماع . العبادة سهلة و ميسرة و بسيطة . نحن نؤمن بعين الإحساس الذي سميتموه أنتم الإحساس العرفاني . و هذا الإحساس يتجلي لنا أيضاً إبان أداء العبادات و الطاعات . نحن مؤمنون و معتقدون بالله العظيم ، و نرى أن القلب محل ظهور الأنوار الإلهية هذا التعبد العشقي يتخلل ذرات وجود المؤمنين بالله تعالى ، الهائمين به . و كل مؤمن يحس في داخله في أثناء العبادة بأصداء النداء الأبدي ، فأذن لنا بالقول إن هذا النداء ليس خاصاً بالسالكين و العارفين فقط .

- و نقول : أن هذا المتشرد التبريزي لم يقل كلاماً جديداً . وإن مولانا هو الذي نسي كل التحصيلات و كل المعارف و العلوم و انجذب إليه بقوة و سحر به . و من المحتمل أن شمساً ، بما أوتي من قدرة سحرية استبد بذهن مولانا الذي كان كنزاً قيماً . و لهذا السبب كان مولانا يحس بأن كل كلام و كل مؤمن معتقد يطير نحو الوجود المطلق بمساعدة روحه خمس مرات في الليل و النهار ، يسجد له و يسبح بحمده .

- و من أجل الاتصال بالنور الخالد الأبدي أو نور الأنوار ، نعلم نحن ما الأصول التي علينا مراعاتها . أنتم و شمس و جماعة من محبيكم اخترتم السماع و الدوران أما نحن فقد أثرنا العبادة و الطاعة . و اعلموا في المستقبل أيضاً أننا سننزه وجودنا من الأعمال و الأفعال الإضافية التي هي هدية شمس و نتبرأ منها .

ونقول أيضاً : إن أفراد المجتمع الإنساني هم على الحقيقة أعضاء و أجزاء في حياة واحدة و نعد أنفسنا جميعاً شعاعاً من ذاته (سبحانه) و من ناحية المعنى و الدين ، ليست قونية فقيرة فيستطيع ساحر تبريزي اسمه شمس أن يأتي إليها بكلام جديد و يروج لعبادة الشمس .

أوضحت قهقهة ضاحجة من مولانا ألمه الحقيقي من المعاندين و الحاسدين ، إذ ذكر ادعاء من دون أساس و دليل منطقي ، في شيء من الضحك و السخرية . فقد كان مولانا يرى أن جماعة فضلة متعصبة متشددة تعده مجذوبا و مسحورا . كل ما يفكرون فيه يقولون دونما تعمق و تحقق . و قد بلغ من جسارتهم و جرأتهم أنهم يعرفون أنفسهم بأنهم عارفون مطلعون على الأسرار فغضب مونا و تساءل بحدة .

- من يتجرأ و يجيز لنفسه في حضوري أن يذكر شمساً مفخر تبريز ، بأقبح كلام ؟ فإذا كنتم قد جنتم إلى هنا من أجل كشف الحقيقة فعليكم أن تسعوا إلى أن تحددوا جيذا موضعكم في الكلام . و مهما يكن من أمركم فإنكم ضيوفي و يجب أن

تعلموا أن شمسًا مقتداي و مرادي .

و إذا كنتم مأجورين لأجل مزيد من المجادلة و المغالطة و الاتهام مقابل أموال طائلة فعليكم أن تعلموا أنني لا أسمح بأن يذكر بسوء عشاق الحقيقة الذين يتجلى نبوغهم الصوفي على نحو رائع في أقوالهم و أفعالهم فهؤلاء أنتم و هذه أكياس المال التي يضعها السدج تحت تصرفكم . و ليس لي معكم نقاش و جدال فالكلام على شمس ليس عملا لكا عامي قليل العلم طائش عديم التجزئة مأجور .

إذا تقدمت في طريق العاشقين بالفقر و الصدق

جعلك شمس التبريزي نجيا للرجال

أنتم و أحبواكم رأتم شمسًا في الظلمة . وأنا أقول : قطع الله لسان من يعد شمسًا ساحرا و عابدا للشمس .

كان شمس يقول : على الإنسان أن يسعى لجعل نار العشق و المحبة التي أودعها الحق في صدور الناس أكثر اتقادا واضطراما . كان شمس إنسانا جامعا إنسانا جامعا ، إنسانا عارفا ، كان رجلا كاملا ، كان يتحدث عن الماضي و المستقبل و أبرز أفقا عظيما في الإشراق ، و كان عارفا الأشياء كلها :

أما الكاملون فيسمعون اسمك يتردد على البعد

فيشرعون في الغوص إلى أعماق كيائك

بل إنهم قبل ميلادك بسنوات

ربما يكونون قد رأوك في أحوال كثيرة

يعرف كل منهم حالك تماما شعرة شعرة

لأنهم ممتلئون بأسرار الهوية

صمت مولانا و طفرت قطرات عرق فوق وجنتيه و كانت يداه و شفاته ترتجف و تغير لون وجهه على نحو جعل ممثلي المحفل الروحاني في قونيه يخلجون من أنهم لم يراعوا الأدب في المحاجة و الجدل .

أحد الثلاثة و قد كان من جهة العلم و العقل متقدما على الأثنين الآخرين وابتغاء تهدئة مولانا روحيا و جسميا قال .

- إن إدراك الحقائق المرة التي يتفوه بها مولانا صعب قليلا على صاحبي فلعلهما لا يعلمان ماذا يقول مولانا و عمن يتحدث و ماذا يريد و إن أعباءنا في الدين في حال من العذاب الشديد من كون أستاذ عالم لا نظير له ابتعد عن جميعهم و تنحي عن جمهورهم و كون صفا أو جهة مضادة لهم . ذلك لأن أهل قونية يعدون مولانا أعظم سند معنوي لهم . وإن افتقاد هذا السند العظيم استلزم إيجاد فراغ في أسس البناء الاجتماعي هاهنا . فكيف يتحمل الناس هذا الفراغ المعنوي الروحي ؟ إن روح مولانا

المتمردة المتقد هو الذي يأذن لنا ، و يعطينا القدرة على أن نتكلم ، وألا فنحن نمال و ليس لدينا القدرة على التحدث عن أدب مولانا و فضله و علمه . و قد صرنا حائرين و ذاهلين في مفترق طرق الحياة و قد شغلنا جميعاً بقوة هذا السؤال : أي شيء ذلك الذي فصل مولانا عن جملة الناس في هذه الحاضرة ؟ أي فرق فاحش بين الحقيقة التي تنشدونها و تطلبونها و الحقيقة التي ينبغي الوصول إليها ؟!

هل هذه الحقيقة تقع في دائرة العلم أو أنها فوق الفضل و العلم ؟ هل هي خارجة عن عالمنا المحسوس ؟ - من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة هل يمكن الحصول على مساعدة من الأستدلال و العلم و المعرفة ؟ هل تأذنون لنا أن نرى نحن أيضاً الدنيا بالعين نفسها التي تشاهدها بها ؟ هل صحيح أنكم تريدون بمساعدة شمس التبريزي أن تغيروا عالم اعتقاداتنا وفاقا لا اعتقاداتكم ؟

لماذا ينبغي أن يظهر بيننا ، نحن المؤمنين اختلاف و نفاق ؟ نحن نؤمن بما وراء الطبيعة إيماناً راسخاً . أعتقد أن مولانا ، العميق التفكير و المتقي و العادل يقر بإيماننا الراسخ ، لكنه على أن أعترف بأننا نجعل العشق في ذلك المعني الظريف و الدقيق و المتعالى الذي تقولون به . نحن لا نؤمن بالعشق ، الذي تعدونه أنتم معجزاً إلى درجة أن نسمع أنه يقال إنكم ستجتازون المجرات بمدد هذا الطائر القوي الجناح .

نحن ندرس و نحقق المباحث العلمية و الذهنية و العاطفية بمساعدة العقل و نحب الأنسانية و الأمور التي تدفع المجتمع نحو الصفاء و السعادة نتمسك بالمحبة و نثني على الله سبحانه بكلية وجودنا و نتصور أنه بمساعدة هذه الفضائل الإنسانية نستطيع أن نقتلع المعضلات الجسمية و الروحية من أساسها .

هذا البيان المحبب و المنطقي هدأ روع مولانا قليلاً ، فتبسم و عاد من جديد إلى الذوق و الشوق و الحديث . فما كان من ممثل المحفل الروحاني في قونية الذي كان مطلعاً على الوضع الروحي لمولانا ، إلا أن ينشد بيتاً من أشعار مولانا بقصد التخفيف على هذا الأستاذ و العارف الكبير على هذا النحو :

نحن مثل الناي و الأنغام التي فينا منك

نحن كالجبل و الصدي الذي فينا منك

أستعاد مولانا هدوءه و غاص في نفسه قليلاً و كأن تحت الظاهر الهادي عالماً مائجاً مملوءاً بالحي و الألم و الاضطراب ، ضجة بحر متلاطم الأمواج مفعم بالهيجان طافح بالثورة و الوجد وراء هذا الروح الذي يبدو هادئاً موج و تلاطم تخبر عن عشق و وجد و هيجان .

الإنسان الكامل

إن روح كل عاشق مخلص ، مثل شمس تبريزي ، صانع و خلاق ، و ترتبط ساحة تفكيره المتعالى بفضاء الوجود و المجالات العاطفية . و العشاق الأصفياء المخلصون للحقيقة يحسون بمحبة الحق و معرفته في أعماق أرواحهم و في روح العالم و يرون أن الدنيا مملوءة بجمال الله و جلاله و صفاته و عظمته . و بناء على هذا الأصل ، تكون لحظات حياتهم كلها في حال الطاعة و هو من المواهب التي جعلتها الطبيعة في متناول أيديهم ، و إذا هم قالوا إننا عاشقون للأفلاك و الكائنات و الكواكب أو قلب عالم الإمكان ، فإنهم لم يقولوا باطلا و عبثا .

و العاشق هو عاشق الحقيقة و عاشق الوجود ، هو عاشق لله ، بعبارة أخرى و لهذا السبب يكون مستعدا في كل وقت لأن يتخلي عن هذا الروح المستعار أو هذا اللباس العرضي الذي هو ليس له ، وهو حجاب يمنع مشاهدة الذات الإلهية و ذلك إذا كان قد وصل إلى فضاء العشق الذي لا ضفاف له و الرحمة التي لا نهاية لها ، و أضرم النار في غاب الفكر .

و في بيانات مولانا و تصريحاته ، توارت القدرة لهذا الإمام العاشق المتفجر . و كل كلمة من كلماته كانت تنزل على رؤوس المخالفين بقدرة الصاعقة . و كان ممثلي المحفل الروحاني في قونية قد أفاقوا من نومهم و تحرروا من خدر القرون و استعادوا وعيهم و الحيرة التي كانت قد ارتسمت على أوجه هؤلاء دفعت مولانا إلى أن يصور الوجه الملكوتي للإنسان العاشق أو الإنسان الكامل الذي له في كل دور تجل خاص و سيماء متفردة بهذا الشرح لمخاطبته الذين سلبت منهم القدرة على التحدث . ذلك لأنه منذ وقت بعيد ظل شوق لقاء الإنسان الكامل أحد أهم أسس كلام جلال الدين البلخي ورسالته :

مَا التَّدْبِيرُ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ،

لَا أَعْرِفُ نَفْسِي؟.

لَسْتُ مَسِيحِيًّا وَلَا يَهُودِيًّا

لَسْتُ مَجُوسِيَا، وَلَا مُسْلِمًا (قشريا)
لَسْتُ مِنَ التُّرَابِ وَلَا مِنَ الْمَاءِ
وَلَسْتُ مِنَ الرِّيحِ وَلَا مِنَ النَّارِ
لَسْتُ مِنَ الْعَرْشِ، وَلَا مِنَ الْفُرْشِ
لَسْتُ مِنَ الْكَوْنِ وَلَسْتُ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْضِ
لَسْتُ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَسْتُ مِنَ الْعَقْبِي
لَسْتُ مِنَ الْجَنَّةِ وَلَسْتُ مِنَ النَّارِ
لَسْتُ مِنْ أَدَمَ وَلَا مِنْ حَوَاءَ
لَسْتُ مِنَ الْفَرْدُوسِ وَلَا مِنَ الرُّضْوَانِ
مَكَانِي هُوَ اللَّامِكَانِ
وَعَلَامَتِي هِيَ الْإِنْعَادُ الْعَلَامَةِ
فَلَا جَسَدَ لِي وَلَا رُوحَ،
بَلْ أَنَا مِنْ رُوحِ الْمُعْشُوقِ

لعل اكتشاف إنسان كامل و تعرفه يكون أحد أكثر الظواهر إثارة للضجة وأعظم
الأمال في حياة الإنسان المؤمن . والإنسان الكامل الذي عبر عنه أيضًا ب " الإنسان
الراسخ " يقتلع جذر المستقبل و الماضي و ي
حرق نفسه كالسمندر في نار الخلوص .

اعلموا أن شمسًا من العشاق الذين يعرفون أسرار التقدير و لهذا السبب و ابتغاء
الظفر بصييد ، طوي الطريق من بادية إلى أخرى من تبريز إلى الشام ، ووصل إلى قونيه
لكي يعمل على تطهيري الروحي . و قد أرشدني في طريق السير و السلوك بعرفان و
احتراق قلب على نحو أحس فيه اليوم بأن الحياة عندي من دونه قصة تافهة و غصة
في غاية الألم . ولولاه ربما لا يكون لتجلي حقيقة العشق و الحياة هذا عندي معني و
مفهوم .

- لماذا ؟ - هذا الكلام غير منطقي وهو لم يعطكم الحياة حتى تكون من دونه بلا
مفهوم . هذا خلاف أصل البحث عن الحقيقة و الإخلاص للحقيقة .

(جمل قالها أحد ممثلي المحفل الروحاني في مخاطبة مولانا و قطع كلام مولانا) .
- كلامي كله ، وأدلتني كلها و أشعاري جميعًا ، مبنية على أن شمسًا أعادني إلى
ساحة الحياة من جديد أو أعطاني ولادة جديدة . علمني كيف أفكر في هدوء و سكون
روحي في غمرة حركة الحياة ، و كيف أبحث عن شيء داخل الاضطراب المستمر الذي
لا يتوقف لدوران الكائنات . و قد ذكر لي أن الله تعالى خلق القلوب قبل الأجساد ، وأن

قلب كل عارف كل باحث مخلص ينشد كشف أسرار الطبيعة .
علمني المبادئ الأساسية للحياة وأوضح لي كيف أجعل الفلك تحت قدمي و من وراء
الفلك أسمع صوت السماع . كان دائماً يقول : أخرج من حياة الحيوان لكي تتجلي فيك
الصفات الإلهية و عندئذ سترى أنك و معشوقك لستما اثنين ، بل أنتم كيان واحد .
و قد أخذ بيدي من حد التراب إلى البشرية ، حيث آلاف المنازل مدينة مدينة و حيث
التجليات المختلفة .

قال : قد فنيت فيك

حتى إنني ملئت منك من الرأس إلى القدم

وليس على من وجودي إلا الاسم

و ليس في وجودي شيء غير الأسم يا طيب الاسم

و أعتبر وجود شمس محلا لتجلي النبوغ العرفاني للإنسان الإيراني في أسمي منزلة
و قد أرشدني تحرق شمس و هيجانه في تحليل العشق إلى عالم آخر . و تعلمت أساس
الخلق مع معارف الوجود في مدرسة شمس المملوءة بالفيض . و أعلم الآن أنني ذرة
في عالم لا نهاية له من حقيقة واحدة . و قد كسبت هذه النظرات و الخبرات جميعاً
بمساعدة العشق . و الحقيقة أن عشقي شمساً المتحرر هو عشقي لإنسان ، إنسان
سام و متعال .

و في يوم من الأيام قال شمس : عندما تكون عاشقا مخلثا تقف نجوم السماء في
محراب عبادتك لكي تشاهدك . و أحس الآن أن النجوم معلقة على الإيوان الملوكوتي
للرجل العارف للرجل الحر الكامل و الإنسان الراسخ ليلا و نهارا و مستمعة إلى لحنه
العشقي .

نظر مولانا إلى المخاطبين مشاهدا الحيرة التي ارتسمت على وجوههم ، فتذكر
حكاية من كتاب " كشف المحجوب " للهجويري في شأن العشق ، ثم واصل كلامه : كان
عبد الله بن المبارك المروزي من ذوي الوقار و الحشمة ، و كان عالما ومطلعا على جميع
أحوال الطريقة و الشريعة و في زمانه كان إمام الجماعة غير المنازع . وقد لقي كثيراً
من المشايخ و اختزن من ذلك خبرة و تجربة . مرة واحدة في حياته تاب و حصل ذلك
عندما كان في شبابه قد أحب فتاة حسناء . ففي إحدى الليالي نهض من بين أصحابه و
اصطحب واحدا منهم ووقف عند أسفل حائط بيت المعشوقة إلى أن اعتلت المعشوقة
سطح البيت و بقي الأثنان حتى الفجر ينظر كل منهما إلى الآخر .

و عندما سمع عبد الله أذان الصلاة ظن أنه أذان صلاة العشاء . و عندما طلع
الفجر علم أنه كان طوال الليل غارقا في جنال المعشوقة الفتانة و حسنهما فخلج من
ذلك أيما خلج وقال في نفسه : لتخلج يا بن المبارك وقفت الليل كله على قدميك

مستجيباً لهوي نفسك و لم تحس بالانزعاج و إذا ما قرأ إمام في صلاة سورة طويلة غضبت؟! فأين ذهب معني أن تكون مؤمناً؟ و عندئذ تاب و انشغل بالعلم و طلبه ، حتى بلغ به الأمر أنه وقت من الأوقات كانت والدته في البستان ورأته نائماً و قد أخذت حية عظيمة فرع ريحان بفيها و صارت تذب به الذباب عن وجهه .

وقد سئل عبد الله بن المبارك : ماذا رأيت من العجائب في الدنيا ؟ فقال : رأيت راهباً أنحلت المجاهدة جسمه و من خشية الله احدودب ظهره . سألته : أيها الراهب ، ما الطريق الموصل إلى الله تعالى ؟ - فقال : إذا عرفته علمت الطريق إليه أيضاً . و قد علمني شمس كيف أستطيع بمدد الدين و العشق و العلم التي جاء أحدها من القلب و الآخر من الروح و الثالث من العقل أن أسير في الطريق الذهبي للحياة ابتغاء قدر أكبر من الإدراك و المعرفة مهتدياً بنجم العشق للألاء .

علمني شمس أن كل ما كنت قرأته و سمعته حتى لحظات لقائه علي أن ألقيه جانبا أجلسني على جناح كبرياء العشق و طار بي نحو المعشوق الأزلي و البدي و إذا ذاك علمت أن الروح العاشق خلاق وأن الشوق الإنساني الحارق يجب أن يكون في طريق العشق الإلهي و ليس في محبة محبوب أرضي . و حالا مثل عبد الله بن المبارك المروزي تبت . و في الثناء على العشق لم أعد أعرف رأساً من قدم . و أسعي لأن أدعو الناس جميعاً إلى مائدة العشق الإلهي و أقول للمخلوق و الإنسان : حانت ساعة الصبر و التحمل و لهذا السبب أبشركم وأهل قونية وأعلن أنه بمدد العشق الروح العلوي يمكن الإنسان أن يصعد على درجات سلم الحقيقة درجة درجة و يغدو إنساناً كاملاً و يصل إلي جناب الحق تعالى .

يظل الروح في العالم السمائي

يصيح : " يا ليت قومي يعلمون "

أي خبر للروح الآمن عن الجسد

سواء كان روضة و في كومة قمامة ،

و هذا الجسد الترابي غليظ و مظلم

فاصله لأنه يتقبل الصقل .

بحر العشق الذي لا تبدوله ضفاف

تذكر جلال الدين البلخي من جديد شمسًا ، شمسًا الذي اختطف منه العقل و القلب شمسًا الذي كان أمام أنواره المعنوية يطوف كالفراشة ، دائرًا حول نفسه وراقصًا ، شمسًا الذي كان عيارًا خالصًا في عالم المعرفة و حول جلال الدين ، المدرس الكبير في دار العلم في قونية ، على نحو يكون له في شعاع لطيفة العشق الغيبية تعلق بالنظر الدقيق و العميق للظفر بالأسرار و يدعو إليه :

أيها العاشقون أيها العاشقون أنا مجنون فأين السلسلة ؟

واصل جلال الدين كلامه على هذا النحو :

أيها الأحبة اعلّموا أن العشق حال و أمانة أهداها الله تعالى لأعظم مخلوقاته الإنسان إنه مقام عال يحصل عليه بالإلهام و الإشراف معرفة هي غير تلك المعرفة التي يظفر بها من طريق كسب العلم و الحكمة . و ابتغاء نيلها ، يجب التحرر من النفس و الفناء . العشق بعيد عن " نحن " و " أنا " و عن التعصب و العناد . العاشق حتى في مختلاه نضر غض مشرق ، ليس سيئ الظن ولا يفكر بالسوء ، ولا ينوي السوء و يبحث عن عظمة الإنسان في وحدة البشر ، ولدي الناس من حقيقة العشق آثار في داخلهم . و أنا و شمس نعتقد بأن هذه الآثار يجب أن تكشف بمساعدة الراسخين و بإرشاد الكاملين لكي تتجلى . إن عالم تفكير شمس ممتاز و مخاطبة ليس جلال الدين فحسب ، بل كل السالكين المؤمنين و المؤثرين العاشقين . و قد نظمت على لسان حال شمس هكذا :

اجلس في عيني يا من أنت أسمي مني ،

لكي أتلمي القمر ، فإنك أضوأ من القمر

و أدخل البستان لكي يذيب الحياء ورده

لأنك أجمل من مائة بستان وروض ورد و أكثر نضارة

ولاشك في أن المعرفة الألهية و معرفة أساس الكائنات ، يمكن الحصول عليهما بمساعدة مفتاح العشق . و علينا أن نظهر أنفسنا من الريب و الرياء و من أوصافنا

الذميمة ابتغاء أن " نرى ذاتنا الطاهرة الصافية ". فإذا ما تحررت من اللون و ارتبطت ب " اللألون" فستغدو عاشقا مخلصا . العشق هو الذي يعطي العارف القدرة على أن يقبل . فكيف صارت الجبال مطيعة و منقادة لحضرة داود عليه السلام ؟ و الريح العنيدة لماذا صارت منقادة و مطيعة لسليمان ، و حملت سريره من مكان إلى مكان و من واد إلى واد آخر ؟ أو في أي مقام كان حضرة موسى عليه السلام حتى أمره الله تعالى بأن يضرب بعصاه البحر لكي ينجو بنو إسرائيل ؟ يغدو العشق موجبا لأن يستطيع الإنسان الإحاطة بالعلوم المتعالية من دون كتاب و أستاذ :

تغدو الريح حمالة لسليمان

و يغدو البحر خبيرا بالكلام مع موسى

و يغدو القمر رائيا للإشارة مع أحمد

و تغدو النار نسرينا على إبراهيم

حين يوجد العشق ندرك الجمال . و إذا شئتم أن أقول جملة أو كلاما تحصلون منهما علي تعريف علمي جامع في شأن العشق فعليكم أن تعلموا أن مثل هذا الحديث أو الكلام غير موجود ، و بياني غير قادر على أن يبين مثل هذا التعريف ببساطة و العشق ليس محسوسا و معلوما و مشهودا بل هو ظاهرة تؤثر في آلات الإدراك هذه جميعاً . ولا يستطيع العقل أن يصفه ما يصفه هو العشق فقط . نعم العشق يشرح العشق و يبينه تفصيلا :

تصير عقلا ، فتعرف العقل على التمام

و تصير عشقا ، فتري العشق و ما فيه من جمال

عندما يدخل العشق من باب القلب

يلقي العقل بضاعته خارجا

لكن شارح العشق هو شمس التبريزي الذي يستطيع أن يقدم للعارفين و أصحاب القلوب شرحا للعشق على نحو رائع . و في تناول شمس أن يكون مثلا للأحوال العرفانية للناس . شمس هذا قادر على الإيضاح التام الدقيق للوحدة التي لا تنفصم عراها بين البشر و بين الصفات الإلهية و بيان كيف تفني شخصية الإنسان في الذات المطلقة . شمس قادر على أن يتحدث بأجمل الكلام عن عوالم العدم و الوجود و الحقائق الخفية للأشياء . و يعلم شمس أن كل المخلوقات الجامدة التي لا روح فيها هي صاحبة فهم و إدراك بالقوة . و يعزف شمس اللحن الأساسي للعالم بمساعدة اللغة على نحو رائع . شمس يقوي الذات المفكرة في وجود العارف و يعتقد أن الفكر اللأمحسوس صانع مبدع ، و في مقدوره أن يصنع كتبا و رسائل و موسوعات و دواوين و في النهاية الناس . و يعلم أيضاً فلسفة خلق الناس : من أين جئنا ؟ - و إلى أين نذهب؟

- و في أي مكان قلنا: " بلى "

و أنتم تريدون بهاتين العينين أن تعرفوا سر عظمة الإنسان و جلال الكائنات ، كان أبو يزيد البسطامي يري أن الإنسان لا يعد في العارفين حتى تصير كل شعرة فيه عينا ينظر بها . كان وجود شمس كله أعينا و بتلك الأعين تحرر من ضيق العالم تحرر من العيب و طلب الشهرة . كل شيء نظر إليه رأى فيه عشقا يسعي شمس لكي يدلنا ، أنا و أصحابي على الطريق الذي يوصلنا إلى دائرة الجاذبية و ربما أشار و قال :

نحن من الأفق الأعلى ، و إلى الأفق الأعلى نمضي

نحن من البحر ، و إلى البحر نمضي

نحن من ذلك المكان و لسنا من هذا المكان

نحن من اللامكان و نمضي إلى اللامكان

و " لا إله " تطلب " إلا الله "

و نحن مثل " لا " نمضي إلى " الأعلى "

(و قوله تعالى :) " قل تعالوا " دليل على جذب الحق

و نحن نمضي إلى جذب الحق تعالى

نحن سفينة نوح في طوفان الروح

و يقينا نمضي منقادين سسلمين

وإن كوكبنا ليس في فلك القمر

ولاشك في أننا سنمضي إلى ما فوق الثريا

إن الطريق لنيل المجال المغناطيسي للجاذبية هو العبادة . و قد قال شمس : إنه

علينا أن ننفذ أمر القرآن الذي قال : " و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون ")

الذاريات /56) على النحو اللائق . و قد تحدث شمس كثيرا عن معبد العرفان و هو

يرى أن معبد الرجل الكريم القلب الطاهر الخالي من الأغيار . و عندما تصقلون قلوبكم

ستحسون بعظمة الحق و جلاله بوضوح . تدوي الأصداء المهيجة في سويداء القلب و

تقول للإنسان : ادخل من هذا الباب إلى الجناب الإلهي ، لكي تظفر بما تريد .

نحن ملك لله سبحانه و على الحقيقة نرجع إليه . سألت شمسًا مرة :

- أوجد طريق أقرب إلى الحق من الصلاة ؟ فأجاب :

- الصلاة نفسها . الصلاة للصلاة أول و آخر . روح الصلاة ليست هذه الصورة

الأكرم (عليه الصلاة و السلام) : كل صلاة ليس فيها حضور داخلى لله سبحانه ناقصة

. و كل صلاة للرسول كانت معراجا جديدا .

و في أثناء العبادة كان روح الرسول (عليه الصلاة و السلام) في صلاة و قلبه في

تضرع ورأسه في طيران و نفسه في ذوبان .

كان شمس يقول : أمام الحق في أثناء العبادة يجب التكلم كما تكلم أئمة الدين : و كان يقول : إن الوجود مبني على عبادة الناس . وإذا كانت النجوم تتلألأ في السماوات و إذا كانت الشمس و القمر يبدران بأنوارهما حتى الآن الظلمات ، فسبب ذلك هو عبادة المؤمنين و المعتقدين و العارفين الذين يعبدون الله سبحانه بحضور قلب . و قد قال شمس : المؤمنون و العارفون و عشاق الباري تعالى ، هم دائماً في حضور الحق و النور الإلهي متجل بمراتب مختلفة في أرواحهم .

شمس إنسان كامل و قد آمن بأن العارف الحقيقي يصل إلى المحل المقصود في السير و السلوك . و كان يرى أن بداية الطريقة الطلب و العشق وانتهاءها الثبات في دائرة مغناطيس العشق . و كان يؤكد أن حقيقة الوجود تكون في وجود أو ظهور الإنسان الكامل . و إذا وصل الإنسان إلى مقام القرب أعلن مثل الخرقاني : عندما وضعت قدمي على الدرجة الأولى من السلم وصلت إلى الحقيقة . أتصور الآن أنني قريب من المقصود و لعلكم تستطيعون أن تحصلوا على الحقائق من كلامي . نحن و أنتم كلنا في السير و السلوك فإنه :

سير العارف في كل لحظة يكون إلى عرش المليك
و سير الزاهد في كل شهر طريق يوم واحد
و مع أن للزاهد رزقا عجبيا متى كان يومه بخمسين ألفا؟
و قدر كل يوم من عمر العارف خمسون ألف سنة من سني الدنيا
العارف لا يخلط إيمانه و اعتقاده بالاستدلالات الفلسفية الممتزجة بالشك ، و يرى الحقائق بمساعدة القلب أو عين القلب .

و نحن بمساعدة بازي العشق الدليل المطمئن للناس ، نترك العقائد و الفكر الضالة للماديين في مستودع التاريخ و نبطل كلام الفلاسفة الماديين . الإنسان في الأزل خلق عاشقا . و قد أعطي الحق تعالى القلب للإنسان لكي يسير بمساعدته في فضاء لا نهاية له . الإنسان هو العالم الأصغر و محل أعظم تجليات " المطلق " :

إن للعشق خمس مائة جناح
و كل جناح يمتد من فوق العرش إلى طباق الثري
و الزهاد ينطلقون على أقدامهم خائفين
و العشاق أسرع طيرانا من البرق و الهواء

و نحن نعبد الله (عز وجل) بمحبة و عشق و فضيلة الإنسان في العشق . و إن أعظم خدمة أسداها شمس لي ، ولأحبائي ، هو أنه رسم لنا خطأ بين عالم الظاهر و عالم الباطن و بين لنا العالمين كليهما تماما و قال : لكي يدرك الإنسان عالم الباطن عليه أن يغدو عاشقا و أنتم ممثلي المحفل الروحاني في قونيه سمعتم يقينا باسم الحسن

البصري حتي الآن ؟ فأجابوا : نعرفه .

ذكر الحسن البصري أن الحق تعالى قال : متي وقف عبدي نفسه لعبادتي و طاعتي أدركه السرور و البهجة سريعاً من تلك الحال و استبد به الوجد ، و أنا أيضاً أحببته و أحبني : عشقني و عشقته و نحن حللنا لغز الأبدية بمساعدة العشق :

لست أنا وحدي الثمل من عشقك

فمن ذا الذي قل أنت نجا من هذه الخمرة ؟

و منذ ذلك اليوم الذي كنت تناولت فيه هذه الكأس

كنت نديما لمدمني خمرة " أأست " .

العشق هو عصارة الحياة وهو ابتداؤها و انتهاؤها و الدافع الحقيقي للعشق مرتبط بكلية الوجود وهو حركة و تحول و قصد إلى الجمال الذي كان ابن سينا يعده نظير الكمال . و كل محاولة لإيضاح العشق لا طائل من ورائها و ما يستطيع أن يوضح سر العشق جيدا إنما هو أئين الناي ونواحه الموسيقا :

فإذا كان تفسير اللسان ينير السبيل (لمعرفة الحقيقة)

فإن كان تفسير اللسان ينير السبيل (لمعرفة الحقيقة)

فإن العشق من دون اللسان أفصح من أي بيان

إن الناي نديم لكل من فرقة الدهر عن حبيب

و إن أنغامه قد مزقت ما يغشي أبصارنا من حجب

أو :

إن مطرب العشق يتغني بهذا وقت السماع :

العبودية قيد ، و السيادة صداع

العارفون و منهم شمس ، يعتقدون أن اولئك الذين لا يعرفون العشق أو لا يدركونه و أنفسهم غير مهذبة و غير مؤدبة حالهم كحال البحر المالح و هؤلاء يجب أن يسلموا إلى شيخ أو مرشد لألاء الضمير أي شخص كالبحر العذب لكي يغير ملوحة أرواحهم إلى حلاوة و عذوبة بإرشاده و تربيته الصحيحة القويمة ثم صمت مولانا صمت البحر .

obeikandi.com

منزلة شمس العلمية

كأن اللذة العميقة و الاستساغة الشديدة أفقدت هؤلاء وعيهم و استلبت منهم عقولهم و قد فهم مولانا أن ضحك الضيوف و الكلمات التي قالوها علامة على عدم إيمانهم بفكره . فهؤلاء لم يصدقوا الكلام البليغ لمولانا و كانت قلوبهم تريد بإبتساماتهم الساخرة أن يجعلوا أستاذ دار العلم في قونية مشتت الذهن و مضطربا . كان مولانا ينظر إلى هذا المشهد العجيب و كان يحدث نفسه و يقول إنه لا ينبغي أن يصبح ألعوبة لهؤلاء يجب إذابة هؤلاء الوقحين بكلام الحقيقة كما يذاب الثلج أمام الشمس . ولهذا السبب بدأ خطابه لهؤلاء الضيف منفرا و باعثا على الدهشة و بشيء من الغضب واصل كلامه . فإنني أقول :

كل من انكشفت له أسرار العشق

غاب عن الوجود دفعة واحدة ، لأنه انمحي في المعشوق

إذا وصل طلب السالك المؤمن إلى حده النهائي ، وصل إلى مطلوبه و معشوقه .

كان ممثلو المحفل الروحاني يهزون رؤوسهم مبتسمين و قد عرف جلال الدين من الابتسامات الساخرة لهؤلاء الحاقدين أنهم غير مباليين و مترددين بلا رحمة و أدرك أن قراءة الوعظ لا تجدي نفعا مع أصحاب القلوب السود . و لهذا السبب ، صرخ بصوت كالرعد القاصف و قال : أيها الكلام صر كالسيل الهادر لكي يعلم ممثلو المحفل الروحاني في قونية الموجودون هنا ، ماذا يجيش في صدري إزاء سماع هزتهم و رؤية ابتساماتهم الساخرة و أية غصص أتجرع من هذه المماحكات الوقحة ، ولا أقول شاكيا إنكم تسخرون من كلامي .

مرة أخرى ، أتذكر أن شمسًا الذي يخفق قلبي من أجله كان كثيرًا ما يقول للمنافقين : " أسر ممن يشتمني و أتألم ممن يثني على لأن الثناء و المدح يكون مطلوبًا عندما لا يكون بعده إنكار ثم إن المنافق أسوأ من الكافر أما سمعتم : " إن المنتفعين في الدرك الأسفل من النار و لن تجد لهم نصيرا " (النساء : 145) أحد الممثلين قال معترضًا :

- يا مولانا ، ما نريده هو أن نتحدث عن نفسك و أن لا تذكر اسم ذلك الساحر التبريزي على لسانك لا تعرض كلام ذلك الساحر الجوال ذلك الصنم العيار على سبيل الدليل و السند . إن كلام شمس المتشرد ينطوي على جانب تخيلي و فضفاض أما كلامكم فمتقن و منطو على جانب نفسي . و أنتم حتى الآن توردون أقوي الأدلة لتبرير ادعاءاتكم . و قد بسطت شمس الحقيقة الآن أنوار و ظلالا كثيرة حولكم . . . و نعتقد نحن الآن أن شمس الدراية و الكياسة تشع من الأفق الأعلى على دقائق عمركم و لحظاته و الله سبحانه خلق العقل الذي أنا و أنتم نخضع لأوامره القاطعة . و من المناسب أن تنسوا شمسًا التبريزي الذي يشبه كلامه ذرات الغبار التي في أيام الخريف تملأ أفاق قونية ثم بعد ذلك تسوقها رياح الخريف إلى الصحاري القصية المترامية الأطراف . و اعلموا و سلموا بأنه ظاهرة ناقصة الخلقة و القبح و الفساد يموج في قوله و فعله . أسلموه ليد الطبيعة ، فإنه لا يستحق المحبة و الإغزاز ولا يستحق العناية . وإذا لم أخطئ ، فإن الشيطان قد أرسله إلى هنا لإضلال الناس و إغوائهم جاء ليعيد مواسي أهل قونية العظيم أي شخصكم الكريم عنا .

عرت رعدة خفيفة جسم مولانا . و كأنه في تلك اللحظات المزلزلة ، لم يكن يصل إلى أذن مولانا من الأرض و السماء مما كان يشاهده هناك من أشياء إلا النواح و الألم و الانتقاد

إن سري غير بعيد عن نواحي

لكن العين و الأذن ليس لهما ذلك النور

كانت هذه الأسئلة تتلجلج في صدر مولانا :

- أوجب أن يكون الرياء و التظاهر و التوافق و الاختلاق و التشدد رافعة رأسها وقوية في الأرض و في قونية خاصة ؟ أو أن يبسط الشر و السوء أجنحته السوداء فوق البسيطة ؟ أوجب أن يصبح شمس التبريزي مقهورا و منكوبا و مكروءا بأيدي الناس ؟ - ألا يستحق شمس أن يكون ذا إسهام في تكون شخصية مولانا الجديدة ؟ -

عندما كان مولانا حائرا و مشتتا في دهاليز الحياة المظلمة المجهولة و أسرارها ، من خلصه من ذلك ؟ - ما العامل الذي أوجب أن يعرف زوايا جسمه و روحه المظلمة تحت أنوار العشق الروحانية و الملكوتية و القوية ؟ - هل يمكن نسيان الأيام و الليالي التي كان فيها العاشق و المعشوق (شمس مولانا) منشغلين بالتحقيق و البحث في شأن أسرار الخلق بإحساس مقدس و سرعة ممتعة في فضاء العشق ؟

أثمرت ضروب الانتقاد و الاتهام و التأنيب و الاستجواب مصحوبة بسخرية ممثلي المحفل الروحاني في قونية عند مولانا غرابة و تعجبا مع نفور و تكره . فسكت مولانا و كان في صمت موحش عقب كلام يوجد ثورة في أرض حياة مخاطبيه القاحلة جعلته

عظمة وجود شمس و قدرته الروحية خاصة متوقفا في الزمان، كان كل شيء قد توقف

كيف يستطيع مولانا أن يقول لمن أكل الحسد قلوبهم : إت شمسًا التبريزي نجم
وضاء يري في شعاع أنواره الأغوار المظلمة و المجهولة لحياته بوضوح ؟ و عند مولانا لا
خبر ولا أمر أهم و أكثر إزعاجا من أن لا يفهم أناس وأهل قونية خاصة المنزلة العلمية
و العرفانية لشمس على نحو رائع ولائق .

تلك التهم العظيمة أحدثت في كيان مولانا هزة عظيمة . و قد شاهد ممثلو المحفل
الروحاني في قونية بوضوح الغم و الحزن الموجه على محيا مولانا .

و كان مولانا في خضم موحش لفاجعة و قد لفت هذه الفاجعة مدينة قونية بكل
محاسنها . و من هناك شاع في دور العلم في البلدان الإسلامية أن مولانا صار عاشقا
لشمس الشيخ ، شمس التبريزي الساحر . عناصر أخر فعالة في شخصية جلال الدين
تحولت إلى تجليات عاطفية لشمس الشيطان (في نظرهم) . كان مولانا في ذلك المجلس
يحس بأن جسده يذوب تدريجيا أمام تلك التهم جميعًا . فقد حمل هؤلاء على أعظم
شخصية عرفانية لديه . كان مولانا يري أمامه أفرادا في غاية القسوة و الفظاظة ،
يستعملون الحرب الكلامية في القضاء على المقترحات التي هي مقدسة عنده . نعم ،
يستعملونها لإقنائه و إفناء شمس . فأية فائدة تجبني من هذا الحوار الذي كان يأخذ
صورة محاكمة أو جلسة استجواب ؟ فإذا لم تقدم الردود على هذه الإيرادات و الشبه
و التهم ، فإن القيم المرادة تغدو مدانة على الظاهر . وسيقول هؤلاء ، لقد انتصرنا
و أطرق مولانا في ميدان البحث رأس التسليم . و كان تسليم مولانا هزيمة للمدرسة
العرفانية العشقية مدرسة الإشراق و الإلهام . أخذ موج الكلام المتدرج المضطرب
الضاج يتدفق من كلية وجود مولانا نحو شفتيه و كأن شمس وجه شمس قد طلعت
أمامه . كان التفكير في شمس يجعل مولانا في خضم كل مستحيل كان نور الحقيقة
يشع على وجوده . و في النهاية كان مولانا يري نفسه في أتون مكاشفته . وأي كلام آخر
سيخرج كالرعد ، و كضربات المطرقة من بين شفتيه . و كان التسليم و الصمت موتا و
عدما . و لهذا السبب نظر مولانا نظرة متفحصة إلى المدعين و الحاسدين نظرة هزت
أعماق قلوبهم وأوصلت دوي كلامه إلى أذان المخاطبين .

- رسولنا الأكرم نبينا العلي القدر (عليه الصلاة و السلام) قال أيها المسلم ، إذا
رأيت الناس منشغلا بعضهم بالبحث عن عيب بعضهم الآخر فانشغل أنت بالبحث عن
عيوب نفسك . عندما ترى الناس منشغلين بأمور الدنيا الخادعة انشغل أنت بعمل
القلب و إن شمائل شمس تذهب معي حيث أذهب كالظل . خلع شمس علي في هذه
الدنيا الزائلة خلعة القرب و الشرف و المنزلة . و مهما عبتموه عندي فلن يزيد ذلك

عندي إلا عظمة و جلالا .

- كان شمس يريد أن يغير معالم الدنيا و أن يكون منهج العشق حاكما في كل مكان فأى قلب ذاك الذي يسمع بيان شمس و لا يتحول إلى موقد للحيرة ؟ فقد جاء من أجل العشق و الصفاء و الإخلاص و هو يقول : جوهر الوجود العشق . و أحكي لكم هنا عن مشهد ساحر و مسكر ، و قد شرح هذه الواقعة الشيخ عبد الله الأنصاري في تفسيره الكبير الخالد فأنظروا أية عظمة و أية كيفية أعطي العشق لأبي يزيد عندما يقول شمس : العشق معجزة إلهية لا يقول عبثا و باطلا . و عندما يقول : إن العارفين هم مظهر للعشق ، لا يقول كذبا ، فإن أبا يزيد كان بمساعدة شاهين العشق الإلهي يجتاز أقطار السماوات و يغرق في أنوار القمر الفضية . كان يرى الفضاء ملوئا من صمت العشق . و كانت مناجاة أبي يزيد تنزلت شرف العرش و كان يستمع إلى الالحن الملكويتية للمحبوب بأشتياق و تلهف . هكذا يعترف أبو يزيد :

في إحدى الليالي كنت في مناجاة من أية زاوية قلت في نفسي : وأسفاه بلاط بهذه العظمة و لكنه خال .

سمعت نداء من الغيب : يا أبا يزيد أتحسبه خاليا ؟ رفع الحجاب عن أذنك .

أرهف السمع لكي تسمع نواح المتحرقين و المتألمين : في هذه الأثناء فتحت على زوايا العالم الأربع و من كل زاوية سمعت نواحا ، من كل زاوية سمعت حرقا و تضرعا ، من كل جهة سمعت ألما و توجعا . أمام ذلك رأيت نفسي عدما ، مثل قطرة في بحر أو ذرة في الهواء . أطلقت لسان الحسرة و الحيرة و قلت : إلهي في بحر شوقك غارقون كثيرون و في بادية محبتك متحIRON كثيرون و في عتبة جلالك قتلي كثيرون و في مقام وصالك مفتونون كثيرون ليس لطالب هدوء ، ولا لقاصد وصول .

أيها السادة الحياة في دنيا من هذا النوع طافحة بالمحبة الصفاء و الخلود في فضاء العشق الذي يسوق الإنسان إلى العروج الروحي ، ليسا لذيين ؟ ألا تحبون أن تكونوا في زمرة عشاق العالم الخالدين؟

يؤمل شمس أن يرفعني أنا وأنتم المؤدبين خاصة ، إلى الأفاق الملكويتية . و العشق طريق سلوكي و معراج فكري ، لا صلة له بالعقل الجزئي يتجاوز الممالك . البشر مستحقون للمحبة ، ولا بد للإنسان لكي يعرف نفسه من أن يتمسك بالعشق . و الإمام الرابع عند الشيعة قال " إلهي اجعلنا في زمرة من ضربت أشجار العشق و المحبة جذورها في قلوبهم و اضطربت نار محبتك في جنبات أفئدتهم " .

اعلموا أنه في العالم الفسيح في قلب كل مؤمن كل موحد كل عابد لله ، جنة يسمونها " العرفان " و في الآخرة جنة يسمونها " جنة رضوان " و كل من لديه اليوم " جنة عرفان " سيحظي يوم القيامة في " فردوس الرضوان " :

أيتها السيد ألا تري بوم القيامة هذا
أيتها السيد ألا تري هذا الجميل القد و القامة
جدار البيت و بابه نائران و مجنونان
و أنا فوق الجدار من أجل الدليل و العلامة
اقمر الذي لا يدركه النحول في الدوران أبدا
مزقت شمس جماله الظلام
أيتها السيد الطاهر الذيل ، أنت المجنون أم أنا ؟
اشرب كأسا معي ، و دع الملامة
عاشقون كثيرون ، قبلك كانوا يبحثون عن العظمة و الكرامة
و عندما رأوا محيا الساقى باعوا العظمة و الكرامة
ما شمس بشيطان ، ولا بمتشرد ولا بساحر . وهو ممسك بزمام تفكيره و أمنيات
نفسه و راض بقضاء الله ، و يرى أن التهمة و الألم و الأذى و المحبة في سبيل العشق
متشابهة و متساوية ولا يستبد به البتة الشيطان المدنس بالغضب و الحرص و حب
الرياسة و الزعامة فهو خير محض و يرى أن جوهر الإنسان هو المحبة القوية للناس و
يواجه الصعوبات ولا يخاف :

صار قهره كله رحمة ، صار سمه كله شرابا حلوا
صار سحابة نائرا للسكر جعله الله كذلك أبدا
يا شمس الحق التبريزي ، من كثرة ما امتزجت بي
صارت تبريز عين خراسان جعلها الله كذلك أبدا
و من " أسلم شيطاني ، صارت نفسك ربانية
أسلم إبليس جعله الله كذلك أبدا
اصمت فإنتي ثمل و قد قيد أحدهم يدي
و تشتت ذهني جعله الله كذلك أبدا

و في تلك اللحظات كانت تجليات ظهور العشق و سماء عشق التبريزي في غاية من
العظمة و القوة جعلت الضيوف شيئا فشيئا يشعرون بأنهم عدم أمام شمس الحق
و الحقيقة . كأنهم تحت تأثير سحر الكلمات صاروا صرعي الضياء الطافح بالحقائق ،
إحساس مهم استبد بوجودهم : كيف استطاعوا أن يقيسوا إحساسهم المشتت و
المضطرب بالمقام الرفيع لشمس ، الذي كان جلال الدين محمد مثنيا عليه ؟ لعلمهم في
تلك اللحظات كانوا يرون أنفسهم أو حججهم تافهين ضئيلي القدر ، فأى دافع حملهم
على التواضع في محضر أعظم فقيه في قونية ؟ هل يجب عليهم أن يحنوا رأى التسليم
للكلام الحكيم و العرفاني لمولانا ؟ أولئك لم يكونوا من طراز شمس ، و لم يكونوا

قادرين على تأييد عظمته الروحية و الأخلاقية و الإقرار بها . و إذا كانوا لم يذكروا ذلك بألسنتهم فقد كانوا يدركون بقلوبهم جيدا العواطف الرقيقة لمولانا التي نشأت من مراده (شمس التبريزي) و كانت تعطيه حياة و أملا جديدين . كان أولئك خاضعين لضغط ميولهم المختلفة . أحس مولانا أن ضيوفه مضطربون و متألّمون . و لم يعد يشاهد الابتسامات الساخرة على شفاهم ، انتهت الابتسامات الساخرة ، قرأ مولانا في وجوههم أنهم غيروا رؤيتهم وهو ينظرون باشتياق مفرط اكتساب فيض أكثر و معارف أجد و أنضر من حكيم اسمه شمس .

تجارب شمس العرفانية

شمس رند و قلندر ، و قد ظل لوقت طويل متوجها نحو أتون الحقيقية و مركزها ، و لم يهتم بفكر الماضين ، و حتى مؤلفات والدي لم يبال بها و كان يقول على كل إنسان أن يكون في ذاته ينبوعا موادا للعلم و الضياء و يربط قطرات الفكر ببحر الكمال الذي لا ينتهي ولا يجف .

لم يقدم شمس نفسه للناس في قوله و في فعله في صورة رجل غير عادي ولم يقل إنه من صاحب كلام جدير بأن يسمع و أن يأمل و أنقل لكم شيئا من لحنه الثمل و على الإنسان في النهاية أن يقدم نفسه على نحو يبين صلته و علاقاته عندما يكون قد فهم العالم . شمس الذي أدرك جاذبية الحقيقة بكلية وجوده ابتغاء أن يعرف شمسًا الحقيقي قال في إجابة أحد أسئلتي :

- اعلم يا مولانا أن ذلك الخطاط كتب ثلاثة أنواع من الخط: أحدها يقرؤه هو وحده لا غير ، و أحدها يقرؤه هو ، و يقرؤه غيره أيضًا ، و أحدها لا يقرؤه هو ، ولا يقرؤه غيره ، وذلك الخط الثالث هو أنا .

كان شمس دويا عشقيا نزل من السماء إلى أرض قونية وأنا كلما سمعت اسمه انهلت الدموع الحارة من عيني من فرط الانفعال أو الوجد الذي ينتابني . فقد كان عديم النظر في علم الكيمياء و في النجوم و الرياضيات و الإلهيات و الحكميات و المنطق ، أرى أنه لا مثيل له . و لكن عندما وصل شمس إلى الرجال الذين هم محل اهتمامه و حادتهم ، أثبت الجميع في صحيفة "العدم" وأهملمهم تجرد واختار عالم التفريد و التوحيد . كان شمس يبحث عن هيجان عشق نفسه وراء معلوماته و معارفه و هناك أو في ذلك الوادي ، كان يجد الطمأنينة و كان روحه يظفر باللذة و الطراوة الجديدة و كثيرًا ما قال لي شمس : إنه في صغره كان ينشد تعرف الحق و الحقيقة و لم يكن يهدأ و يستريح حتى يفهم جيدا كنه الموضوع الذي يفكر فيه . و قد بين شمس أنه

ليس مقلدا و قال في هذا الشأن :

” رأيت كثيرا من الدراويش الأعزاء و جلست إليهم و عرفت الفرق بين الصادق و الكاذب منهم من جهة القول و من جهة الحركات ولا ينزل قلبي إلا حيث يكون المكان مستحسنا و مختارا و هذا الطائر لا يلتقط كل حبة ”

واعتقد أنه لا بد من قبول دعوة شمس قبولا تاما ، و لا بد من التوجه إلى مآدبة العشق بهداية نجم كلامه الوضاء . و عندئذ ستنجون من ثقل حمل الهوس و الهوي . و أنتم ممثلي المحفل الروحاني في قونيه تخالفون هذا الرجل العظيم و تعترضون عليه من دون أن تطلعوا علي حياته . مع أنه اعترف و قالي لي :

” في البدء ما كنت البتة أجلس مع طلاب العلم و الأساتذة و كنت دائما مع الدراويش و كنت أقول : هؤلاء غرباء عن معرفة عالم الدراويش و الآن إذ عرفت جيدا أساس ادعاء هؤلاء الدراويش الدروشة ، و أين هم من حقيقة الدروشة زادت عندي الرغبة في مجالسة الفقهاء على الرغبة في لقاء الدراويش المدعين ، الذين كنت رأيتم لأن الفقهاء باختصار عانوا الآلام في طريق العلم أما هؤلاء فماذا عانوا ؟ و إذا كان هؤلاء الدراويش ينفجون فقط بالقول : إننا دراويش فيجب أن يسأل : من أين لهم هذه الدروشة ؟ - لماذا لا أرى ذلك : و في نهاية : الدروشة إمارة و إمامة ” .

كان شمس يريد بكلامه أن يدفع الناس إلى تعرف البيان الصحيح من الكاذب و كان يري أن الكذاب مطرود و يريد لبني آدم الأبرياء أن لا يصبحوا منشغلين باللهو و محبين للشيطان و ماديين و منافقين .

و تحدث شمس عت افتخاره بعجزه و حرمانه و تواضعه أمام عالم الخلق ، الذي لا نهاية له في مقال على هذا النحو :

قالت جماعة : كونوا جميعا في حال مراقبة وضعوا رؤوسكم على ركبكم لبعض الوقت : ثم بعد مدة رفع أحدهم رأسه و قال : رايت من هنا إلى أوج العرش و الكرسي و قال آخره مر نظري بالعرش و الكرسي أيضاً و أنظر من الفضاء في عالم الخلاء واحد آخر ادعي قائلاً : أرى حتى ظهر الثور و الحوت أما أنا ففي ذلك الجمع اعترفت بأنني لا أرى سوى عجزي .

وهذا تواضع رجل عظيم كان يطلب الافتخار في معابد الحق و الحقيقة و يريد أن يتحكم في عالم يسوده الاضطراب و القلق و الحرص و الطمع و المراءاة و الدناءة و يوجد هدوءا مبهجا و يزيل الشيطان الشر و الإجرام و الألم . و كان ينظم الأشعار الحماسية لكي يهجم على فكر الإنسان و يقول له : أطلب الله في كل مكان و تخلص من منغصاتك بالاستعانة بالمسلي العظيم . و طبيعي أن كل روح لديه نافذة نحو عالم ما وراء الطبيعة . و يريد شمس أن يفتح النوافذ الموجودة في أرواح البشر و أن يوضح

هذا القانون العظيم : دائماً يكون الحق تعالى أقرب إلى الناس . و لست أعلم ما إذا كان السادة الممثلون العظام للمحفل الروحاني في قونيه قد فهموا بيان شمس و كلامه حتى الآن . لأن شمساً كان يعتقد أن الإشارة السريعة و اللمحة الدالة تكفي و كان لا يحب الكلام الزائد عن الحد .

الحديث هو إغلاق لتلك الكوة

و عين إظهار الكلام هو إخفاؤه

و أخشى إن أنا صمت من أن تلك الشمس

تمزق الحجاب من ناحية أخرى

فاصدح كالبلابل مغردا على وجه الوردة

لكي تشغلهم برائحة الوردة

وأمام تلك الشمس الشديدة الضياء

يكون كل دليل – على الحقيقة – قاطع طريق

كان شمس يقول : إن الإنسان ينبغي أن يصل إلى التقوي الحقيقية عندما يتحدث

البارئ تعالى . و حدث مرة أن كان سلطان ولد (ابن مولانا) جالسا في حجرتي فسأل

شمساً : في أية مدرسة من مدارس دمشق حصل العلم أكثر ؟

فأشار شمس بكفي يديه كليهما إلى بدنه و أجاب : مدرستنا هي هذه ، هذه الجدران

الأربعة من اللحم . و مدرسها عظيم ولا أقول من هو لكنني أعلم أن معبده القلب ”

حدثني قلبي عن ربي ، ثم أضاف قائلاً :

هل تتصورون بماذا ينصحنا بعض الوعاظ الغير المتعظين ؟ لا ينصحوننا بغير

الخوف ، و عدم الاعتقاد و التفكير البعيد و الاضطراب و عدم الثبات . هل تتصورون

ماذا يعلمنا بعض الفلاسفة ؟ لا يعلموننا غير السفسطة و الثثرة . فما ميراث هؤلاء

غير كلام مضطرب مظلّم . و ما الفلسفة غير الثثرة و الكلام الفارغ . ما ميراث بعض

العلوم الرسمية غير التسويق و المتاجرة ؟ - و ما التعلم غير طلب الجاه . و نشدان

الشهرة غير رسم هالة عظيمة حول النفس ؟

ثم بعد ذلك نظر إلى شمس و قال : أردت مرارا أن أختم على لساني بخاتم الصمت ،

و على قلبي بخاتم النسيان و لكن عندما رأيت مولانا نسيت هذا العهد غير دار بذلك .

و في قونيه حدث مرة أن دخلت دار التقدير (منزلة مولانا) فقلت لفقيه قونيه الكبير:

ألدريك شيء من علمك الأبدي لكي يعلمني طريق الحياة و السير في الكائنات ؟ سكت (

مولانا) فاضطرت أن أنقله خطوة خطوة إلى المملكة الواسعة لعالم العشق و عندئذ

علم أنه توجد دنيا أخرى ، اسمها دنيا العشق و في دنيا العشق هذه سماء أخرى و قمر

آخر .

أيها السادة أنا و شمس مطربا عالم العشق و بعين الهدوء الروحي الذي حباننا إياه
العشق ننظر إلى الدنيا و إلى أهل الدنيا ، و نعقد قلوبنا على محبة الناس . إن الشرارة
الأولى التي أضاءت هذه الدنيا المظلمة في بدء وجود الوجود كان مصدرها العشق . و
أساس الأمر أن الوجود عشق ، وعد الحق تعالى للوب العشاق كانوا متقدما و مجلي
للحقائق السرمدية . و عندما فهمت سر العشق بمعونة شمس ، تغير كل شيء في
وجودي . و كان شمس يقول : العشق يرفع الإنسان إلى مقام الكروبيين . و عندئذ
تذكرت أشعار سعدي المحيية المسكرة :

لا تصبر الفراشة عن النور وإن هي قصدت النور أحرقتها
كل إنسان أسير لشيء يحبه وأصحاب العقول نظرهم إلى العشق
نحن احياء بذكري الحبيب و الآخرون يحيون بنفخ الصور
نحن سكارى شراب العشق الصافي و لسنا ظماء للسلسبيل و الكافور
لا يمكن اعتبار شمس إنسانا كاملا أما في التعلق النهائي بالعشق فإنه يعد حياته
للمرة الثانية معجزة للعشق و هذا الإعجاز يصل إلى منزلة الاستحالة . وهو لم يظفر
بمقامه الروحي المعنوي من طريق الرياضة و المجاهدة و التضرع . أما في سيره و سلوكه
التعبدى و العشقي فإنه يفني أحيانا عن نفسه و يغرق في بحر العشق الذي لا حدود
له :

كل شيء هالك إلا وجهه
فإن لم تكن في وجهه فلا تطلب وجودا
وكل من فني في وجهنا
لا يكون جزاءه " كل شيء هالك "
فإنه أصبح ضمن " إلا " و تجاوز " لا " ،
و كل من كان ضمن " إلا " فإنه لا يفني
ليست ماهية شمس غير مفهومة فهو قد تخلي عن تفرده المحدود و ظفر بفضل
فنائه الظاهر بشعور عرفاني جديد قوي جدا . فتعالوا قبل ذهابه أو قبل مجئ أجله ،
افهموا عظمتة الروحية و اعرفوا معنى العشق معرفة تامة ، و اعتقدوا أن كل شيء في
الدنيا هو على أفضل وجه و في درجة الكمال . و قد شرح لي شمس الكائنات ، في نفسه
و بعيدا عن الحواس الظاهرية و كنت قد أدركت أن كل العلوم و الكتب التي درستها
في دور العلم لم تكن كافية و مقتنعة في تقديم إجابات لأسئلتى . كان شمس بمهارته
و تحرقه و عاطفته و خبراته العرفانية و سيره و سلوكه هو الذي أثبت لي أن العشق
يحرك الموجودات و يديرها .
العشق هو الأساس و المبعث للتضرع و المحبة والرقص و الإنشاد هي مجال

للاشتياق و الآمال عند شمس . ما قاله لي شمس في شأن العشق و العاشق و المعشوق ،
لم أجده في كتاب حتى الآن وهو يقول : العشق يتجلى :
- في ذات المعشوق في صورة التحرر و الاستغناء ،
- و عند العاشق في شكل تواضع و تذلل و ألم و عنت .

و ما يربط أحدهما بالآخر هو من مقولة الأسرار . لم يكن شمس موافقا لعلوم
الظاهرة ، و كان يقول : " التعلم حجاب عظيم و الناس ينزلون فيه نزولهم في بئر " .
كان يخالف كثيرًا من الحكماء و الفلاسفة و العارفين . ولا يقبل حتى أفلاطون و الفخر
الرازي و الجيد و أبا يزيد . فنجده مثلاً يسخر من الفخر الرازي الذي هو محل احترام
الخاصة و العامة و على هذا النحو يدعي أن " جماعة قالت و هي ترتعد خوفاً : إن في
المدينة أفعى تأكل العالم كله بلقمة واحدة و ليس لأحد القدرة على مقابلتها . تشجعت
و تقدمت و كان هناك باب حديد وزنه خمس مائة من ، وقد وضع عليه قفل . و هناك
ثعبان له سبعة رؤوس وراء ذلك الباب فحذار لا تدر حول ذلك الباب فتحركت عندي
الغيرة و الحمية ضربت القفل و كسرت الباب أيضاً ودخلت . رأيت دودة ففركتها تحت
قدمي وقتلتها :

و الآن كيف يكون كلامه كله على هذه الدودة ؟ كل الكتب و التصانيف مملوءة من
هذه الدودة . مقصود شمس من الدودة الفخر الرازي ، الذي كان من أهل الفلسفة
و كان للخوار مشاه لقاء له و في هذا اللقاء قال له : " ... دخلت كذا و كذا و في دقائق
الأصول نقضت كتب الأولين و الآخرين جميعاً . منذ عهد أفلاطون حتى الآن ، كل
تصنيف ذي قيمة هو أمامي ملامح كل منها محددة عندي . و كتاب الأولين نقضته
أيضاً ... أهل زماني فضحتهم ورأيت محصول كل منهم لأن الفليسوف يقول : أنا أقول
ما هو معقول أما من العقل الرياني فلا رائحة عنده .

obeikandi.com

لماذا جاء شمس إلى قونية ؟

سكت مولانا و ألقى نصف نظرة على الوجود المشوشة المضطربة لممتلي المحفل الروحاني في قونية ، و قد بدأ أنهم قد انجذبوا إلى كلامه ، لكن أحدهم – و قد كان ينظر إلى مولانا بحقد – كان حتى اللحظة يشك في حياة شمس و معرفته و ماهيته الإنسانية و لهذا السبب سأل مولانا :

- في النهاية ليس معلوما على وجه الصحة : لماذا توجه شمس التبريزي من بين كل هذه الحواصر و المراكز العلمية إلى قونية ؟ حتى هذه اللحظة غير معلوم لماذا لم يسافر من دمشق إلى بغداد ، أو إلى دور العلم الأخر في العالم الإسلامي ؟ أهو صاحب رسالة ؟ - من الذي أمره بأن يأتي إلى هنا و يفسد المنظومة الروحية عند مولانا ؟ هذه المدينة الفاضلة التي يريد بناءها أي نتاج تخيلاته و فكره أو أنها مبنية على أصول و قواعد دينية . لماذا نجد مولانا بدلا من يزداد انشغاله بنا ، يتحدث عن آراء شمس وفكره ؟

- أجب مولانا على هذا النحو :

- - اسمحوالي بأن أجيب عن سؤالكم على لسان شمس نفسه . فإنه في إحدى الليالي في خلوة شمس عرضت أسئلة في هذا المجال ، فأجاب :

- إن هدي في الأساس من هذا اللقاء هو معرفة الإنسان و تعرف حالات القلب . كنت أطلب شخصا من جنسي أجعله قبلة و أتوجه إليه . فقالوا لي : إن عليك أن تحرر عبدا لطيفا في مدينة قونية من قيود القيل و القال . و عندما علمت أنه كان يعيش بين أفراد تتحكم بهم الاضطرابات و القلاقل و ضروب القلق ، ألم بي الأسى ، لأن مولانا يؤدي و يهان في الوقت الذي كنت أعلم أن مولانا مبدع و من أهل المعنى . فجئت لأجدد و اصنع مولانا من جديد .

- و تأسيسا على ذلك ، تعدون شمسا التبريزي من الأوتاد ؟ - أهو من الأولياء ؟

أنتم أيضًا تقبلونه في هذا المقام ؟

- أين شمس الدين التبريزي من حديث الأولياء ؟ - لديه أي ادعاء لذلك و أنا أيضًا في هذا الشأن لا يحق لي أن أقول شيئًا . أما في الخلوة فقال لي :
في يوم من الأيام و إبان مناجاة ، قلت لحضرة الحق تعالى : أ يوجد مخلوق من خاصتك يستطيع أن يتحمل صحبتي ؟ - و في الحال وصلت إشارة من عالم الغيب : إذا أردت نظير صحبة فيمم شطر الروم ... فجئت إلى هنا .
- أيمكن مولانا أن يقول لنا : قبل لحظات مجيء شمس في أيوضع روحي و أخلاقي كان مولانا ؟

- في هذا الشأن ، على أن أذكر كلاما لأبي سعيد بن أبي الخير ، ذلك لأنني كنت في وضع شبيه بوضعه إذ كان يقول :

” حينما أكون كالملائكة طاعة كاملة و حينما أكون كالحيوان حياة كلها نوم و أكل و حينما أكون كالهائم شهوة كاملة سبحان الله أي تشئت هذا ؟ ”

- هل عالج شمس قلقكم و اضطرابكم الروحي و ألمكم الجسدي ؟
- نعم فعل شمس ذلك ، هداني شمس إلى حياة رمزية و عظيمة في العرفان و الأستاذية . و في عقيدته أساس التصوف وأصله هو أصالة الباطن التي كنت غافلا عنها زمننا طويلا . عالج شمس هذا الاضطراب و بعد أن كنت ذابلا في عالم التفرقة الذي ينطوي على ملايين الذرات أي ذرات الكائنات أعطاني أهلية جديدة و فهمًا جديدًا وهوية جديدة . و تعلمون أن دليل سفينة وجود الإنسان هو الاعتقاد و عندما يوجد الدليل و تأخذ الرياح السفينة إلى مكان مخيف لا تغرق السفينة يقينا . و عندما لا يوجد دليل سيتغير وجود الإنسان . كنت أسعى دائمًا باعتقاد كبير وراسخ لأن ألقى شمسًا و أفهم كما ينبغي شخصيته و كلامه و أقدر على إظهاره بجرأة و إذا كان علماء الظاهر مطلعين على أخبار الرسول (عليه الصلاة و السلام) فلاشك في أن مولانا شمس الدين مطلع على أسرار الرسول ، و أما أنا - جلال الدين البلخي - فأنا إن قبلتم مظهر أنوار الرسول .

- و لكن ما رأى شمس فيكم ؟ - كيف فهمكم ؟ نحن نرى أن شمسًا مجنون و ساحر فكيف من الوجهة الروحية و العلمية يتفق معكم - و أنت الفقيه الكبير في قونية - اتفاقا كاملا ؟ أنتم تتحدثون من العقل وهو يهذي و يهذر من العشق . و في اعتقادنا أن العشق خاصية للمجانين فهم الذين في الليالي يتغزلون بأنوار القمر .

- هذا الطراز من التفكير إزاء شمس غير لائق بأهل العلم و الفضل ، بل من شأن المتعصبين و عبي القلوب . في يوم من الأيام قال شمس العرفان - أعني مرادي العظيم شمسًا التبريزي - لوالدي :

- و الله إني عاجز عن معرفة مولانا جلال الدين . و ليس في هذه الكلمة نفاق و في كل يوم اعلم عن حاله و أفعاله شيئاً هو ذو أهمية عندي من النواحي جميعاً . و كان يؤكد لا بني القول : افهموا أباكم جيداً لكيلا تندموا فيما بعد .

- أيمكن مولانا أن يقول لنا ما الأشياء الجديدة التي علمه إياها شمس الدين التبريزي ؟

- نعم أذكرها لكم قدر الأمكان و بقدر ما تستطيعون إدراكها . قال لي شمس الدين التبريزي إن في الطبيعة أسراراً خفية لا يمكن فهمها بالمنطق و الفلسفة و الرياضيات و الكيمياء . هذه الأسرار وراء العلوم . و الكمل و العارفون هو وحدهم الذين سيطلعون على هذه الأسرار فأسرار الطبيعة ر يمكن تعليمها لكل غير ناضج

- على شفته قفل و في قلبه أسرار

- و الشفة صامتة ، و القلب مفعم بالأصوات

- فالعارفون الذين احتسوا من جام الحق

عرفوا الأسرار و أسدلوا عليها الأستار

و كل من علموه أسرار الحق

ختموا على فيه و خاطوه (على ما فيه)

ذكر شمس دلالات جديدة في تفسير آيات القرآن المجيد خاصة في شأن الآية 156 من سورة البقرة: "... و بشر الصبرين الذين إذا أصبتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون " و الآيتين 165 و 166 من سورة الصافات: " و إنا لنحن الصافون و إنا لنحن المسبحون " و قدم أقوالاً مفيدة و مؤثر في شأن الغيب و آثار الغيب ، الذي تخرج منه الموجودات كلها و كانت هذه جميعاً مثيرة عندي و خليقة بالسماع .

يري شمس في الإنسان مصنعا عظيماً لمعرفة الكائنات و الملكوت . و يقول : إن روح الإنسان الكامل خلاق و الإنسان بعد الصقل و التخلية يغدو محل تجل للنور الإلهي و عندئذ يمشي الإنسان على وجه الأرض و يستجيب الحق لدعائه من أعلى الأفلاك شمس شاهد على انحطاط الأفراد في عصره شمس مشاهد لاضطراب الناس الظالمين في الدنيا شمس مخالف لإجراء الرياضيات و الخلوات و العزلات و الانزواء و الإعنات و احتمال الآلام و الابتعاد عن الناس . و يتحدث شمس بسبب ما لديه من صفاء و عشق ، عن العيش المشترك و التأخي . و يعتقد شمس أن الناس يقبلون على التحصيل العلمي لكي يتولوا رياضة المدرسة أو يجلسوا في صدور المجالس أو يظفروا بالسمعة و الشهرة في حين أن هدف الحياة هو معرفة الناس و تعرف الكائنات . و لهذا السبب كان شمس ينشد الظفر بسالكين لطريقة لكي يخلص الناس من الظلمة و من عبادة النفس و من التظاهر و الرياء و التعصب يطلب شمس مذهب العشق و المحبة

. شمس يقول لي و لكم :

فإذا تخللت المحبة و المعرفة الإلهية أعماق أرواحنا استطعنا عندئذ أن نفتخر بأننا نحيا كل لحظات الحياة في العبادة و الابهال و التضرع شمس سباح منشغل بالسباحة في داخل روحه و يعد أعظم عدو للإنسان الهوي و عبادة النفس الهيمية .

وأهم قانون عنده : اكبح جماح النفس العابدة لهواها .

و إذ كنت ، بعد نبلي درجة الاجتهاد أبحث عن العشاق الإلهيين و أتعرفهم ، لم أر على امتداد حياتي ، لا في خراسان الكبرى ولا في الشام رجلا في فضل شمس . فهو رجل عميق العلم لا يعرف الكلل و عابد حقيقي . و شمائل شمس ، معشوق العرفاني ، تصحبي في كل مكان فتعالوا ، يا ممثلي المحفل الروحاني في قونية ، و شاركونا في تأسيس مدرسة العشق في قونية لأنه :

لَوْ أَنَّ رُوحَ الْعَاشِقِ تَحَدَّثَ لِأُضْرِمَ النَّارَ فِي هَذَا الْعَالَمِ
وَلَجَعَلَ هَذَا الْعَالَمَ الَّذِي لَا أَصِلُ لَهُ كَالدَّرَاتِ عَالِيَةَ سَافِلُهُ
وَلَعَدَا الْعَالَمَ كُلَّهُ بَحْرًا وَ لَعَدَا الْبَحْرَ عَدَمًا مِنَ الْهَيْبَةِ
وَمَا بَقِيَ أَدَمٌ وَلَا الْإِنْسَانِيَّةَ لَوْ ضَرَبَ نَفْسَهُ بِأَدَمٍ
وَمَا بَقِيَ قَوْسٌ وَلَا فُرْحٌ وَلَا خَمْرَةٌ وَلَا قَدَحٌ
وَمَا بَقِيَ إِبْتِهَاجٌ وَلَا فَرَحٌ وَلَا جُرْحٌ يُدَاوِي بِالْمَرْهَمِ

و عندما رأى شمس جلال الدين محمدا ، أعني رأني أنا ابن بهاء الدين ولد وعرف أنني كنت على امتداد سنين ضياء عرش الطريقة و الشريعة و أتولى تدريس أربع مائة طالب علم ، أحسن فهم فكري فصار عاشقا لي و مولعا بي و محبا لحديثي إلى الحد الذي أستطيع فيه أن أقول :

هو كعبتي ، هو معبدي ، هو ناري ، هو جنتي

هو مؤنس زماني ، هو شمسي هو معشوق العظيم .

و في اعتقادي أن شمسا عارف واصل من أهل المكاشفة عاشق .

شمس في حومة قونية

-أيمكن مولانا أن يقول لنا : ماذا يرى الإنسان العاشق ، وماذا يسمع ، غير الذي نراه نحن ونسمعه ؟ - ما الأشياء التي يعلمها شمس من عالم العشق ؟ - لماذا يعد العشق مصدرا لا حدود له لقدرات الدنيا ؟ - ما مصدر دروب إلهامه ؟ - إن كان صاحب مكاشفات، لماذا لم يذكرها حتى الآن ؟ .

-اعلمو أن له تأثيرا كبيرا في تاريخ الفكر العرفانية وفي إنماء الفكر ، وربما يكون أحد الشيوخ الذين هم المؤسسون و الأمة لمدرسة العشق الصوفي، في الزمان الحاضر وسواء أعجبكم ما أقول أو لم يعجبكم ، شمس يعرف ربه أفضل من معرفة أكثر أهل قونية، ويعبده سبحانه ويطيعة . ولديه قدرة حتى أن يؤثر في الطبيعة إذا شاء ، بإرادته الحديدية ، ولكنه يتضايق من طلب الجاه . وقد تعلم كل شيء من كانون العشق الازلي . والعاشق الحقيقي كالرافعة، في صدوره بفضل نقطة ارتكازه، الإيمان، أن يزيل المشكلات، كالعش.

-يا مولانا، إننا نرى شمسًا شبيها بمعاقر الخمر ، الذي في أوج سكره يظهر العشق لخيالاته وأوهامه. الكأس الأولى أعطته الخيالات الواهية بعدها لذة وبهجة، والكأس الثانية حملته علي السكر والحذر، والكأس الثالثة دفعته إلي تلفيق ما يفكر فيه . والخلاصة أن هذا السكر دفعه إلي التصريح بأمور لا فائدة فيها وإلي الثناء علي نفسه. فهو أثير هيجاناته الحسية والعاطفية. وربما يعد هذه الأمور نفسها من العشق، ويزعم أنها المصدر الذي لا حدود له للقدرات الخفية ، ومنشأ ضروب الإلهام. وابتغاء سماع صوت شمس الجذاب، لابد أن يكون لدينا ضمير صاف ومضيء. فلكي نسمع الجاذبية المثيرة لكلامه بكليه وجودنا، لا تكفي حياة التعبد و المحبة. ولا بد للإنسان أن يتحسس الحق سبحانه ويتعرفه في داخل كينونته ووجوده. ويقدم شمس تمثيلا للإنسان الكامل في أفضل صورة له، او يبدو لي كذلك. وكل أنسان عرف العشق بكلية وجوده، ستحل أغاز الخلق والحياة عنده تدريجيا، وعلى نحو رائع.

-تقدم تعريفا لشمس ، وقد أحتطه بهالة من الأسرار. وتعد مثل هذا الرجل المصاب بالجنون والأوهام أعظم قدرة علي وجه الأرض، وتعبر في شأنه عن غلو غير منطقي، وشعري. وهو حتي الآن، غير قادر علي أن يتوقف وجوده وروحه عن السير نحو الانحراف و الابتداع، فإلي أي شيء يصل الطبيعة . شمس قاس وفظ في كلامه، ويقول كلاما يغدو ذريعة لدي المخالفين لك ، ومن ذلك ما يقوله في شأن السماء، حيث يعد فيه السماء فريضة علي أهل الحال. لديه ادعاءات عريضة هي من الشطحيات كما يقول الصوفية.

- معرفة شمس عصابة علي الأشخاص الذين لم يطلعو علي تجلياته العظيمة. أما معرفة الانسان فقد أوضحها شمس جيدا. وما أنقله عنه ليس من أجل معرفته، يقينا، فهو علم آخر . وقد قال شمس للأفراد الذين لديهم اشتياق إلى لقاء المعبود الأزلي: لا أقول صر مثل الله، لا أقول كفرا، وإن أقسام الناميات والحيوانات والجامدات، ولطافة جو الفلك، هذه جميعًا موجودة في الإنسان، وما هو موجود في الإنسان غير موجود في هذه. وكبرى حقائق العالم هي هذه. فما أجمل الإنسان الذي يعدل الأقاليم السبعة والوجود كله. إن كل من عرف شمسًا معرفة صحيحة عرف الحقيقة. إن حديث شمس حديث آخر. ولا يجب فهمه في هالة من الأسرار. لا يمكن إدراكه بمفتاح العقل الجزئي، فالعقل في هذا الطريق عاجز وذليل . وابتغاء إدراك عالمه والوصل إلي عتبته، ابتعدو عن كل قدر من التعصب، وعندئذ تصبحون أقرب إلى حرمة الملكوتي. تريدون بعنادكم وجدالكم أن ترضوا نزوعكم إلي طلب الجاه والشهرة؛ أي أنتم عبيد نفسكم. ونحن بكبح جماح النفس، والصراع معها، اجتزنا هذه المرحلة الصعبة:

علي أن أوصل الفرار مادام في عرق ينبض

ومتي كان الفرار من النفس سهلا؟

فلا أمان، لا في الهند ولا في الختن،

لمن تكون نفسه خصمه وعدوه

وحتى الآن، حرم الحجاب الظلماني لعبادة النفس من شهود الحقائق.

-هل بني شمس العبادة والطاعة علي أساس الإحساس القلبي.

-في هذا الأمر ، لدي شمس مطالب أيضًا، فلا بد من الذهاب إلي خلوة شمس، وفهم أسرار كلماته. وأعلم أنه في جزء من مسائل الحياة، يكون العقل عاجزا تلك الأشياء التي يدركها القلب. ومنها العشق. والتضاد الأساسي بيني وبينكم هو عين الذي أقوله:

إن الذئب والدب و الأسد تعلم العشق

وأقل من الكلب ذلك الذي هو عم عن العشق

وأنتم تنكرون العشق؛ ولهذا السبب بدئت الحرب والعناد، وأغضبتم المحفل

الروحاني في قونية تاق توقا شديدا إلي القضاء علي شمس.

- وكذلك اسم شمس التبريزي انطبع في أذهاننا في صورة المجرم الكبير.

- أما أنا فأرى أنه أكثر الناس براءة علي وجه البسيطة، وأشاهد في قدة السالب

للقلب الجمال الخالد للعشق، أعده ملهي ومرادي.

- أنتم اندمجتم في شخصية معشوقكم شمس، نعم تغيرتم تغيرا تاما، أليس كذلك؟

- وبهذا التغير في شخصيتي، فتحت في وجهي أبواب السماء، وعرفت الله تعالى كما

ينبغي، وكما يليق، وتعلمون أنتم أن معرفة الحق تعالى ليست سهلة، وشمس هو الذي

أمسك بيدي، وحول القفص الترابي عندي إلي عتبة مقدسة ونورانية.

- في عقيدتكم وعقيدة شمس، ما الكمال في الدين؟

- القول بالحق، والعمل بالصدق، والاستقامة في السلوك.

- فماذا لا تعملون بدين أجدادكم؟

-نحن نقول إننا نؤدي مطالب دين أجدادنا برضا و حضور قلب . أنتم تؤدون

العبادات طمعا بالثواب و دخول الجنة بينما أنا و شمس نؤدي العبادات و الطاعات

عشقا للحق و الحقيقة . و قد آن أن تنقذوا أنفسكم من بحر التعصب المردي هذا ، و

تنظروا إلى المسائل و المشكلات بدوق عرفاني ، لكي تحل لديكم ألغاز الحياة و معمياتها

بيسر .

في هذه الأثناء اندفع شاب صغير مسرعا إلى مولانا فسلم و قبل يد مولانا و أخبره

قائلاً : إني لقيت موكب شمس التبريزي على بعد ثمانية عشر فرسخا من قونية ورأت

سلطان ولد (ابن مولانا) و قال لي : إذا ذهبت إلى قونية فأبلغ مولانا سلامنا و قل له :

إن اللقاءات ستجدد سريعاً .

يرتد مولانا لحظة ، ثم يسود صمت مقدس و بغتة ترتجف يدا مولانا و تنهمر

قطرات الدمع من عينيه و بصوت مرتجف يسأل :

- أنت ... أنت شاهدت شمسًا التبريزي ؟

- نعم يا مولانا ، شاهدت شمسًا ، و كان يبدو شاحب الوجه قليلا ، و متعبا و

نحيلا .

- نهض مولانا من مكانه و رفع العمامة عن رأسه و خلع عنه رداءه و ألقى أمام

الشاب عددا من الدنانير التي كانت في جيبه ، مع رداءه و حذائه ، و قال له : هذه هبة

لك ، مالك ما أجمل أن رايت شمسًا قبلي . و عندما كان الشاب ينظر إلى هذا المشهد

قال :

- لا ، لا ، يا مولانا ، آخذ النقود فقط ، أما اللباس فهو لكم . فقال مولانا : لو

أنني امتلكت كنوز الدنيا ، لأعطيتك إياها ، هذه جميعًا لك فخذها و انصرف .

- كان ممثلو المحفل الروحاني في قونيه أمام رجل قدم ألبسته ، التي يظهر بها أمام الناس بشارة لوصول شمس إلى ضاحية قونيه ، لشاب صغير . كانوا أمام رجل هو صاحب أكثر القلوب حرارة و محبة في الدنيا .
انبرى أحدهم للكلام و قال :

- أية لذة و متعة لكم بهذا العمل البعيد عن العقل ؟
- ضحك مولانا من هذا السؤال ، و قال : إن العاشق لا يبالي بأمر الدنيا وذهنه خال من كل ما يتعلق بالمظاهر الخارجية و أنا إلى الآن لم أر أحدا جديرا بأن يعتمد عليه بدلا من شمس في قونية فقد أضاء دنياي المعتمة المظلمة و كل ما أملكه يجب أن أجعله نثارا على قدميه . و هذه العطايا هي أعظم اللذات الروحية و الجسيمة عندي .
- ألا تعتقدون أنه ، بما لديه من شعوذة و سحر ، سيطر على فكركم و تصوراتكم ؟

- ليس في وسع الطلاسم و الأسحار البتة أن تهدي ذهننا مضطربا مشوشا ، وأن تجيب عن الأسئلة و المشكلات الروحية عند الناس . ألا تعلمون بأن إنفاق المال في سبيل الدين وفقا للشرع هو صنيع المؤمنين ، وأن بذل الأرواح في مشاهدة جلال المعشوق و جماله علي سبيل الحقيقة و العلم هو صنيع العارفين . وعندنا نحن ، تلاميذ مدرسة التوحيد عند شمس التبريزي ، بذل الروح و المال و الجسم في طريق المعبود و المحبوب الحقيقي هو كمال البذل .

- أعلم أنكم تنظرون إلى هذا الإيثار و إلى بذل اللباس و العمامة من جانبي ، بعين السخرية لأنكم حتى الآن لم تطلعوا على أسرار المحبة الحقيقية و السرمدية . و هذه هي عين المحبة و هي القدرة التي لا حدود لها للصفاء . هذه هي أصل المحبة . للقلب محبة كالشراب و كل قلب خال من ذلك هو خرب . إن أدعية شبيهة بالسحر أتت لي بشمس مرة أخرى ، ولن أسلم وجوده لا للدنيا و لا للأخرة . ولاحظوا أنه من بركات العشق أيضا أنني تخليت عن العقل و الذكاء و العلم في هذا الطريق و انتظمت في حلقة شراب خمرة وادي العشق .

- إن شمسًا هو مجرة المحبة و الوفاء و الشمس التي لا تغرب الموحدة للإلهامات العرفانية اللذيذة . هو مجلي المحبة و آية من آيات الحقيقة . و في يوم من الأيام و في بيته جري البحث في شأن عظمة الإنسان و قدرته على الإبداع و الخلق فذكر أموراً نظمت عصارتها على هذا النحو :

أنت على أوج ليس له زوال ، أنت في داخلك ذو جمال
أنت ملك لذي الجلال ، أنت من شعاع الحق المتعالى
انفصل عمن لا أصول لهم ، ولا تسمع خداع الغيلان

لأنك من أصل شريف ، لأنك من مقام عال
أنت حتى الآن غير ظاهر ، فماذا رأيت من جمالك ؟
و في السحر ، تطلع من داخلك كما تطلع الشمس
أنت مختف و أسفاه قمر تحت السحاب
فمزق حجاب الجسد ، لأنك بدر ، و لقاؤك فتان .

ولأنني صرت عاشقا لشمس وهائما به ، و تحملته بمحبة و تعلق اندهش كثيرا .
شمس المضطرب الفوضوي العنيد صعب منذ طفولته الأقوياء و شيوخ الظاهر
المرائين وهو متواضع و مهمل لنفسه إلى حد أنه لا يثق بنفسه .
في يوم من الأيام قال في أثناء المناقشة :

” إن وراء مشايخ الظاهر هؤلاء المشهورين بين الناس و ينتقل ذكرهم فوق المنابر
و في المجالس و المحافل عبادا محجوبين أكمل من هؤلاء المشهورين . و هناك مطلوب
بعضهم عرفه و يظن مولانا أنه أنا ، أما اعتقادي فليس هو هذا . فإذا لم أكن مطلوبا
بعضهم عرفه و يظن مولانا أنه أنا ، أما اعتقادي فليس هو هذا . فإذا لم أكن مطلوبا
فأنا طالب و القصد أن الطالب يظهر من وسط المطلوب . و هذا ما جعلته السيماء
الحقيقية للسفر :

لو أن العالم أسر طائر ” الهما“ ، لبحث العاشق عن ظله ،
لأنه ثمل بعشق ذلك الطائر الطيب السمعة
واتحدث أنا عن شمس الدين التبريزي ، الملازم للعشق
يا إلهي ، لماذا يكون الملك في سفر متواصل .

obeikandi.com

ابن عربي وشمس

أحد ممثلي المحفل الروحاني عندما رأى جلال الدين محمدا مبتهجا منشرح الصدر بسبب عودة محبوبة ، الذي يقول إنه ينور مخدعه قال : إن العمر لا يسمح بأن تكون كذلك و تتمسك في حضورنا بالإيثار ، الذي هو ليس فقط غير لازم ، بل يبدو مصحوبا بشيء من الرياء . إن محبتكم و إخلاصكم لشمس التبريزي لا تنسجم وسنكم و أنتم رب أسرة محترمة ، بعيدة في قونية عن كل الملوثات و النقائص . لست أدري أنقل إليكم أحباؤكم الأقاويل و الشائعات التي تتداول في شأنكم بين الناس في المدينة في موضوع علاقتكم بشمس ؟ هل تعلمون أن الناس صاروا يعتقدون شيئا فشيئا بأن مشاركتكم في مجالس السماع ، التي نشأت عن تشويق شمس ، تشير إلى أنكم قد تخليتم عن كل الاعتقادات و القيم و التقاليد التي هي محترمة عندنا ؟ لا أقول إنهم يعدونكم كافرا ، بل يعتقدون أنكم قد مضيتم في مسلك جديد .

- أنتم و أهل قونية لا تعرفوني ولا تعرفون أسرتي جيدا . فهل تعلمون أساسا ، لماذا جئنا إلى قونية ؟ - أتى بنا إلى هنا ظلم السلطان محمد خوارزمشاه وجوره بسبب حادثة سيئة لجأنا إلى هنا . عندما ألقى مجد الدين البغدادي العارف الكبير من دون ذكر السبب في نهر جيحون بأمر الخوارزمشاه خرج والذي بصحبة أسرته من بلخ . و قد شيعنا الناس بأعين مثقلة بالدموع إلى مسافة فراسخ كثيرة خارج المدينة ، كان الدمع ينهل من العين ، و القلوب مملوءة بالحقد ، الحقد على مجموعة أفراد كانوا قد هيوؤوا الأسباب لهجرة رجل عظيم . كان البلخيون يقولون إنه بذهاب سلطان العلماء (والد مولانا) ستخرج السلامة و السعادة و الخير و البركة تدريجيا من سماء بلخ و ستخرب المزارع و أنا في صحبة والدي و عدد من الفقهاء ، الكبار العالي القدر في خراسان ، تركنا بلخ . ثلاث مائة جمل كانت تحمل الكتب و الأموال و الأمتعة . كان والدي بقامته الرشيقة يتقدم القافلة راكبا جملا ، و كان إلى جانبه أربعون عالما من علماء بلخ أيضًا و على امتداد الطريق تواصلت النقاشات العلمية و العرفانية . و كلما كنا نبتعد عن بلخ

كان جيش المغول السفاك للدماء يقترب من حواضر الإسلام . وصلنا إلى نيسابور ، و في تلك الأثناء كنت طفلا ، و قد زرنا الشيخ فريد الدين العطار ، و أهداني كتابه " أسرار نامه " (بالفارسية بمعنى " كتاب الأسرار ") و بسرور قال لوالدي :

- سريعا ، سيضرم ابنك هذا النار في محترقي العالم .
فكر والدي للحظة و كانت نظراته إلى وجهي مضطربة . و عندما غادرنا محضر الشيخ العطار ، سألت والدي : ماذا يقول هذا الرجل الصيدلاني (العطار) ؟ . صمت والدي للحظة ثم قال :

ليس هو صيدلانيا فحسب هو أيضا من سكان وادي الطريقة ، و من الذين تربوا على مجد الدين البغدادي ، طبيب الخوارزمشاه الذي قيل في شأنه :

طاف العطار مدن العشق السبع
و نحن حتى الآن ، عند منعطف إحدى حاراته نعم أيها الأحياء ، أنا ووالدي الكبير تركنا في تلك الأيام رجلا ذا روح عظيم .
وهنا أدعي أن نور منصور (الحلاج) تجلي بعد خمسين و مائة عام في روح فريد الدين العطار . صار مربيا له .

- من منصور (الذي تتحدث عنه) ؟
- هو شهيد طريق الحق ، الحسين بن منصور الحلاج ، العارف الشهير في إيران ، صاحب " الطواسين " . ولأنكم تعرفون العطار جيدا ، لا بد لي من أن أقرأ لكم وأترجم أبياتا من أشعاره :

انزع القلب من الروح ، لكي يؤذن لك بالدخول ،
و تعطي ملك العالمين بأهة واحدة .
ولو أنك بقيت تحترق حتى السحر كل ليلة كالشمع
لأعطيت تحفة من النقد الذي يعطي في السحر
ولو أنك صرت سائلا يقف عند عتبة بابه
لأعطيت في كل لحظة ملك مائة ملك .
و من دون علم الفقر ، الطريق مظلم
ولو أعطيت ألف وجه للألاء كالقمر .

تركنا نيسابور ، ثم وصلنا إلى بغداد ، و على ضفاف نهر دجلة سد حرس المدينة الطريق على القافلة و سألوا : من تكونون ؟

- و من أي مكان تفدون ؟

- و لمن القافلة ؟

أخرج والدي رأسه من خبائه فوق الجمل ، وإذ كان ينظر إلى الحرس بنظراته النافذة بمحبة أجاب :

- جئنا من اللامكان و نذهب إلى اللامكان من الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .
طلب الحرس أن يأمر بتوقف القافلة و أن يذهبوا هم إلى الخليفة و يعرضوا على الخليفة وصفا لمجيء الضيوف الجدد ، و الكلام العجيب الذي سمعوه من والدي .
تعجب الخليفة من صلابة إجابة والدي وقوتها و على الفور دعا الشيخ شهاب الدين السهروردي إلى الحضور إلى القافلة و طلب بيان ما جري عند ضفة دجلة . أدرك السهروردي بفراسسته أن عارفا كبيرا جاء من بلخ إلى بغداد . و على الفور ، خرج من دار الخلافة و بصحبة جمع من علماء بغداد المحترمين تقدم لاستقبالنا في ذلك المكان ثم أخذتنا جماعة من المستقبليين إلى عاصمة الرشيد محاطين بالإعزاز و الاحترام و الترحيب مكثنا هناك ثلاثة أيام حيث أرسل الخليفة ثلاثة آلاف دينار لوالدي يرسم الدعاء له .
رفض والدي أخذ كيس النقود ، ثم بعد ثلاثة أيام غادرنا بغداد و يممنا شطر بيت الله الحرام . و في أثناء الطواف بالكعبة تغير حالي : أشرقت عيناى بالنور الإلهي و صار قلبي محلا للإخلاص و الصفاء . ثم بعد زيارة الأماكن المباركة و عند مغادرة مكة المكرمة سمعت أن مدي بخاري و سمرقند و بلخ و غزته و نيسابور و همذان و الري تحولت إلي رماد في حملة عسكر جنكيزخان . قطعنا المسافة إلى بلاد الشام . و في دمشق وصلت إلى والدي رسالة من السلطان علاء الدين كيقباد ، بوساطة رسول خاص . دعا السلطان سلطان العلماء (والد مولانا) بإلحاح إلى قونية . قال لي والدي: أي بني من أجلك أنت نحن مضطرون إلى الذهاب إلى قونية . بعد ذلك فهمت القصد مما قاله والدي . وفي آخر الأمر جئنا إلى هنا ، و أنتم و المحفل الروحاني في قونية تعلمون أن استقبال سلطان الروم الشرقية لموكب والدي لم يكن له نظير في تاريخ قونية ، حتى إنه في مراسم هذا الاحتفال شارك علماء الدين و طلاب العلوم الدينية في قونية بمحبة و اشتياق و إخلاص . تعرفون جيدا أن كل الهدايا و التحف و الأعطيات التي أتى بها إلينا أهل قونية ، على سبيل الإكرام و زرعها والدي على الفقراء و المساكين . و قد أقمنا في مدرسة ألتونبا توفي والدي عندما لم تكن سني تتجاوز الخامسة و العشرين . غادر هذه الدنيا ففقدت بفقده أعظم مرب و مرشد و راع و مدرس . ولاشك في أنه لو لم يعاجله الأجل لعدة أعوام لما احتجت إلى شمس التبريزي ، فليتني عشت إلى جانبه لعدد أكبر من الأعوام و حللت مشكلات حياتي بتوجيهه و إرشاده . كان لديه (مما علمه ربه سبحانه) كشوف مما يتصل بعالم الغيب العظيم . كانت الأشواق تضطرم في صدره . و ما دام حيا كنت أحس بأن الشيطان غير قادر على تخلل وجودي إن قصتنا قصة حياتنا ، ظلت حتى الآن ناقصة لأن والدي - كالشمس عند الغروب - تواري في غيابه

جب الموت . كنت أحس بأن دنيا قلبي من دون أبي خلو من كل شيء . كانت الدنيا تبدو لي شبيهة بأضغاث أحلام ، كلها عبث و باطل . و مع الوقت كانت فكر و عقائد مختلفة تهاجمني . ضروب الاضطراب و القلق في عالمي الداخلي ، نفذت إلى أعماق وجودي . لم أكن أريد أن أكون ألعوبة بيد كلام الآخرين وحديثهم . كنت أريد أن أبسط جناحي كالطائر الملوكوتي ، فأطير من أعالي قونية إلى أعالي الأفلاك . و ليت والدي فتح امامي كتيب العشق أيضًا و علمني ألغناء السير في الاكوان ، كيف أقدر على أن أجيب عن الأسئلة التي تؤرق داخلي . كنت أحس بذائقتي ، بعد وفاة والدي ، بطعم حنظل الوحدة القارص المملوء بالمشكلات المؤلمة . كنت ألجا إلى ماض عندما كان أفق المستقبل يبدو مظلمًا و كنت مكرما لفكر الماضي الحلوة عندما كنت أسمع ترانيم الحياة الحلوة المثيرة للخيال ، من الوالد الذي كان قد حبانني ذوق الحياة و ذوق التفكير و فن المناقشة الوالد الذي كان محييا لقلبي الميت كأنه المسيح اعتقدت أكثر بقابليات روح الإنسان و قدراته التي لا حد لها ولا تقدر بثمن ، و أمنت بأنه في كل عصر لابد من ولي ، و بأن الطريق لنيل مقام الولاية مفتوح أمام الناس المؤمنين الموحددين المخلصين . يقال إن جماعة هنا سمت شمسًا "مفسد الفكر" . و شمس من تلاميذ مدرسة محبي الدين بن عربي ، فقد درس في جامع دمشق وإحاطته بالفكر العرفانية عند ابن عربي الذي فصله في كتابه " الفصوص " . و قد ذكر شمس قول ابن عربي : الدنيا قالب و بتعبير آخر : الهدف و المقصود الأصلي للخلق هو الإنسان و سر صيروته الذي سجدت له الملائكة و كونه أشرف الموجودات داخل في هذا نفسه و قد أضاف شمس إلى آراء الشيخ محبي الدين أن الإنسان يمتلك في داخله عالما و قلبا هو مختلي العشق و الإنسان العاشق يبحث عن الإنسان الكامل . و قد نظمت بيان شمس شعرا على هذا النحو :

الأرواح في أصلها كنفس عيسى

و لكنها (بعد حلولها في الأجساد) يكون نفسها جرحا تارة و مرهما أخرى ولو أرتفع

حجاب (الأجساد) عن الأرواح

لكان كلام كل روح كنفس المسيح

فالإنسان في صورته فرع من فروع هذا الكون

لكن اعلم أنه في صفته أصل هذه الدنيا

فظاهرة تستطيع بعوضة أن تجعله يدور

أما باطنه فمحيط بالأفلاك السبعة

و عندما كان شمس يصل إلى مبحث العشق ، كان يحتاج حتى إنه ينسى نفسه و

يحجم عن الكلام و قد أثبت لي تفسير العشق تجلي نبوغه العرفاني . و هذا هو الذي

أؤمن به :

قل لهور القصور أخرجن الأثاث و المتاع من الجنة
وضعن سرير الملك فسيصل شمسي
وقد أحيا عيسى الميت ورأى فناء النفس
وأنت حي خالد يا شمسي و يا محبوبي

obeikandi.com

أنا وشمس

الصداقة و الصفاء اللذان وجدا في مجد الدين البغدادي ووالدي ، لم أشاهدتهما إلا في نفر قليل من المشايخ . كان من بركة أنفاس والدي أن أدركت أنه من أجل وصول إلى حي المحبوب لابد من أملاك الحرق و الألام . انطوت جمهرة سير العارفين و شيوخ الطريقة ما قرأته منها و ما سمعته من والدي ، على جدّة و طراوة و جمال وروعة في نفسي و كانت مسلية جدا . كنت أجمع أقوالهم أو أحفظها عن ظهر قلب غير أن هذا الكلام لم يطفء لظي قلبي كما ينبغي . عجز هؤلاء عن أن يرووا ظمأ روعي ، الذي كان توأما للهجران و لفراق والدي . كان لدي تعلق كبير بإدراك أسرار كلامهم ولم أستطع أن أفهم جيدا حقيقة ما يعنيه كلامهم . وأثني على الشيخ العطار لأنه قال قولا جميلا :

- لست أعلم كلاما أسى من كلام المشايخ و أرى أن كلامهم أجمل كلام . أنا أيضاً أعد الكلام العرفاني ماء فراتا يزيل ظمأ الروح و القلب عند مشتاق الطريقة و عاشق العرفان .

- و ما أكثر ما قال لي والدي : إن العلم أسى الفضائل التي يتحلّى بها الإنسان، لكنه لا يمكن كشف الحقائق بمدد العلم . و الحياة بحر متلاطم وزخار، و من أجل عبور طوفانات الحياة الرعبة لابد من ركوب سفينة العشق والمحبة . والعلم الحقيقي هو علم العشق و العلوم النقلية و العقلية هي فكر الإنسان ، أما العشق فعلم إلهامي و إشرافي . و قبل أن يطلع العلماء على حقائق ما وراء الطبيعة و ينشغلوا بها كانوا يعرضون كل نوع من العقائد و الفكر على محكمة العقل و العلم و هو غير كاف للعيش و الحياة إذ ليس في وسع العلم أن يجعل أرواحنا قوية ووجودنا مملوءا بالنشاط و لهذا السبب كنت أبحث عن طريق سلوكي و معراج فكري . كنت أريد أن أشق حجاب الظلمات و المهلمات و أتجاوز مملكة العقل و أجد طريقي إلى مدار العشق لكنني كلما نظرت إلى من حولي لم أظفر بأحد يكون إماما لي و مرشدا .

- و بغته طلع شمس في سماء حياتي . و في اللحظات التي أغدو فيها يائسا قليلا،

كان العجز عن إدراك الحقائق يرمي بي في وادي اليأس ، و في تلك اللحظات تذكرت قول باعث الحياة الحقيقية رسول الإسلام الذي قال : لا تأسوا من رحمة الله ، فإنه لا ييأس من رحمة الله إلا الكافرون .

اعلموا أنني وصلت إلى شمس التبريزي من طريق الإيمان بالله ، القدرة العظيمة للإيمان بالوجود ، الإيمان بالله مع القدرة الموجودة في داخلي أوجبتنا أن أفهم شمسًا و أجذبه بكلية وجودي بمشاهدة شمس ولدت من جديد في هذه الدنيا . كنت ميتا فعشت من جديد و هذه الحياة من جديد هي عندي سعادة الخلود . و قد قال عيسى المسيح : الإنسان الذي لا يولد من جديد لا يدخل ملكوت السماء :

إذا لم تمت صار نزع الروح طويلا
فانطفئ في الصباح ، يا شمع طراز
و مادامت أنجمنا لم تختف
اعلم أن شمس الدنيا مختفية
فصر قيامة إذا ، ثم انظر إلى القيامة
و هذا هو الشرط لرؤية كل شيء

قال لي شمس : اعلم وكن على دراية من أن حالا من العشق شمل الكائنات كلها ، و هذا العشق أداة لدفع الإنسان وسوقه إلى الحق . و العشق في الأصل ، هدف غائي و جنون بالحضرة الإلهية . علمني شمس أن الغاية من المجيء إلى هذه الدنيا هي مزاولة العشق وفعلة العشق إكسير وداء للأمراض الأخلاقية و النفسية التي تصيب البشر . العشق يحرق كل الصفات الذميمة من الوجود كله و يحيلها رامادا . حال العشق كحال الماء الزلال من نهر الكوثر يغسل الخصال البشرية المذمومة كلها ويبرئ منها . العشق طيب لكل الآلام ودواء للكبير و الغرور و التعالي و العجب في الوجود .

العشق يرتفع بالجسم الطيني من الحضيض إلى قمم الأفلاك واضطر جبل الطور في الرقص و الارتجاج و الاندكاك مع ما له من عظمة و جلال و حجارة عظيمة و قمم سامقة وراسخة، ذلك الروح الذي أحيا جبل الطور وأعطاه روحا إنما هو العشق .

العشق مختف في الأنغام و اللحان
فإن أفشيت السر خربت العالم
و ما يقوله النأي في هذين الأمرين
لو قلته أنا لخرب العالم
ولو لم يكن من أجل عشق الطاهر
متي أعطيت الوجود للأفلاك ؟

و لأن شمسًا كان قد درس فلسفة يونان عبر قول سقراط في العشق على هذا النحو:

العشق حركة باتجاه الجمال الأكمل بقصد مشاهدة ذلك في أجمل ملامحة ذلك لأن الروح قبل اتصاله بالمادة و بعالم الحس كان قد رآه في تلك الصورة . العشق قنطرة أو جسرين ذلك العالم وهذا العالم . و في النهاية ، العشق شوق إلى الخلود و نشدان له .

و قد نقل شمس التبريزي عن الشيخ عبد الله الأنصاري قوله : إن شمائل المعشوق كالظل ، تصحب العاشق حيث يمم و عشاق الحق تعالى أحياء دائماً ، خالدون مخلدون في هذه الأرض .

يرى شمس أن ملاك وجود الإنسان وهويته ، إنما هو العشق وقد تجاوز هو هذه المرحلة معتقدا أن الإنسان يستطيع أن يعيش الحياة بمعناها الحقيقي ، أو يعدها جزءاً من حياته الحقيقية منذ اللحظة التي يعرف ماهية العشق . و أنا أيضاً منذ أن حددت مسير حياتي بوساطة العشق ، بمساعدة شمس التبريزي فهمت معني الضياء و عرفت طبيعة الحياة . و هكذا العشق ثورة في الحياة و الثورة في الحياة عندي قصة تافهة و غص مملوءة بالصداع ، أما الآن فأرى الحياة الدنيا محلاً لتجلي المسرات و اللذات الخالدة . وإذا كان ديموقريطس قال : لا يوجد في الفضاء على جهة الحقيقية شيء غير الجزء الذي لا يتجزأ فأنا أقول : حقيقة الأجزاء التي لا تتجزأ و كينونتها ، من العشق ولولا العشق لما بقيت وسط هذه الذرات الوجودية شمس وضاء . و نحن نطلب نور الله في الذرات كلها ، و نرى وجهه أينما ولينا وجوهنا . و هذه القدرة على الإبصار ، وهو النظر المنقب الباحث أعطانا إياهما العشق .

أيها السادة ، اعلموا أن العلم و التجربة يدلاننا فقط على ما هو موجود ، لكن الحقيقة هي أنه لا يحصل على الحقائق الكلية بطريق العلم و التجربة . و مع علمي الواسع لم أستطيع أن أتمكن من إدراك أصغر سر موجود حتى جاءت دولة العشق و حملتني إلى حيث إنني يوم وفاته و يوم بعثه . نور العشق يحيط بالعاشق من اليسار و اليمين و من أعلى و من أسفل كالهالة التي تحيط بالقمر . و هذا النور نفسه يتلألأ فوق رأسي كأنه تاج مرصع و على عنقي كأنه طوق من الذهب . يدفع العشق إلى أن يمتلك كل إنسان شمساً من المحبة في قلبه ، لكي تتضح لهم الأسرار الخفية ، و ينكشف لهم سر الكائنات . وإذا لم تكن مرآة القلب غمازة ، و لم تكن قادرة على أن تعكس هذا النور المقدس ، فلا بد من السعي لإزالة النقائص :

أتعلم لماذا لم تكن مرأتك غمازة ؟

لأن الصدا لم يزل عن وجهها

فامض ، وأزل عن وجهها الصداً

و بعد ذلك أدرك ذلك النور

شمس هو الذي أوجد الترابط بيني و بين العشق . أفهمني لماذا ، عندما وصل ذلك الإمام الهمام إلى مزار شهداء المعركة وقف : هذا مزار العاشقين : فلماذا ، و كيف ، يسمع العاشق بأذن القلب صوت العشاق المثير يداعب الأذن ؟

عندما يكون الإنسان عاشقاً لا تكون لديه عقد نفسية ولا تكون مدركاته الذهنية مضطربة ولا يري الناس قبيحين ، و يعد كل العابدين لله (سبحانه) و المحبيين له إخوة و متساوين و يدوس الأساس المادي بقدم الإيمان و الاعتقاد و يرى أن عطايا الطبيعة مسخرة لأهل الإيمان و العشق ، ولا يتمني انطفاء سراج الآخرين و موقد حياتهم ولا يقيم منزلة فوق أطلال كوخ مؤمن . لا يصعد على سلم " أنا " و " نحن " و يتماسك أمام شدائد الحياة و ضرائها و يعلم أن الله سبحانه يفاجر و يباهي بالعشاق المؤمنين .

سأل أحدهم جلال الدين البلخي : هل صحيح أن شمساً من نسل كيا بزرك أميد ، إمام الفرقة الإسماعيلية و ترك الآن المذهب الإسماعيلي ؟

- هو مسلم تلقى تعليمه الأولى في تبريز و سلك طريقة التصوف عند بابا كمال الجندي ، و كان يؤمن مستلزمات عيشه من طريق نسج السلال . و فيما بعد يمم شطر دمشق و فيها أكمل محصوله من العرفان الذوقي و العلمي على الشيخ محيي الدين ابن عربي و شيوخ آخرين من أساتذة العرفان و شمس متبحر في الفلسفة و الإلهيات و علم النجوم ، وهو يرى أن الدنيا أساس للعشق ، وأن العقل و القانون قياساً إلى العشق ظاهرتان ثانويتان ولا شيء في الكائنات يبقو محمياً من سلطان العشق و تأثيره ، و أعتقد أنه ليس مرتبطاً بالإسماعيليين ولا بالفرق المختلفة و عنده في شأن ماهية الوجود و وحده الوجود آراء جديدة مستمدة من فكر ابن عربي .

وفي كلام شمس إشارات كثيرة إلى العلم الإلهي و التوصل إلى الله و الحياة الروحية ونوه بشوق الوصول إلى ساحة العشق و دعا المشتاقين بخضوع إلى طريقته أنا منشغل تماماً بفكر شمس التبريزي الخالصة و أسألكم أن تأتوا و تعنوا بكلامه ، و إذ ذاك ستقرون بأن هذا المثني على مذهب العرفان و العشق بعد أن يجذبكم إلى كل نواحي بحثه و يؤثر فيكم ، يبين تفكيره و هدفه النهائي الذي ينطوي على جدة ولدنة في يوم من الأيام قال للمشتاقين إليه من أهل قونية : حتى الآن ليس لدينا الأهلية للكلام ، فليتنا نمتلك أهلية الاستماع . و لا بد من كمال الكلام و كمال الاستماع . على القلوب ختم و على الألسنة ، ختم ، وعلى الأذان ختم . القليل يشع ، فإذا شكر الإنسان زاد الله سبحانه محصوله . و الشكر مثل أن تقول بلسان الحال : أرنا الأشياء كما هي ، فيأتي الجواب " لئن شكرتم لأزيدنكم " (إبراهيم/ الآية 7) .

شمس ذو قدرة روحية خارقة للعادة

استقبل ممثلو المحفل الروحاني في الروم الشرقية ، الذين كانوا محل إكرام في بلاط السلاجقة ، كلام مولانا جلال الدين الباعث على التساؤل بشيء من الانزعاج و الغضب و لم يقدرُوا على أن يظلموا أكثر من هذا مستمعين غير مباليين و صامتين . واحد منهم وهو الذي كان يظن أن صمت المجموعة راجع إلى تأييدهم رأى مولانا ، قال مولانا :

- في تصوركم ، ألا يوجد شخص آخر هاهنا ، أي في قونية ، يتحلى بالصفات التي قلموها ؟

- في قونية لست ادري . ربما يكون ذلك ؟!

- أليس هذا مجنوناً غراً ساذجاً ؟- هذا الذي تشرحونه من قول شمس خلاصته نظريات مصفاة لحكماء من مرحلة ما قبل أرسطو (ت322ق . م) مزجت بفكر يونانية عندما أخضعت فوكيا أقصى مدينة في شمالي أيوني ، بأيدي الجيوش الإيرانية لجأت جماعة من سكان تلك الديار إلى مدينة إيليا في سواحل جنوبي إيطاليا ، و جاء إلى الدنيا في تلك المدينة واحد من أعظم فلاسفة اليونان وأشهرهم ، وهو بارمنيدس الذي أسس مذهب ما وراء الطبيعة في الفلسفة . بارمنيدس الذي رسخ في الفلسفة فكرة " ما وراء الطبيعة " نحن في فلسفته بإصرار و إلحاح لافت للنظر كل ظواهر الأشياء و بحث عن الأسس و الأصول التي توصل الإنسان إلى حقيقة واحدة هي وراء هذه الظواهر . وقد سعى بارمنيدس بقوة مع إيمانه بالوحدة لأن يقوي صفاء القلب في مقابل الكثرة أو الثنوية الفيثاغورية . الحقيقة التي كان بارمنيدس يلهث وراءها كانت أصلاً واحداً كلياً بإمامة العشق الذي هو الحاكم و كان يذيع فكرة على الأكوان في موازاة علم الإنسان و حتى الإنجيل يعد العشق متحداً بالمعرفة و هكذا لم يأت شمس بشيء جديد فقد ذكر آخرون قبلة فكرة العشق الكوني و تعارضه مع العقل الكلي و فصلوا القول فيها .

- لا تخطئوا ، نحن لا شأن لنا بالفلسفة في ذلك الزمان أي عام 513 قبل الميلاد كانت مذهباً في البرهان الوجودي بمعرفة العالم أو الكون و كانت ممتزجة بنزعة مادية و شكئية . و لعل فلاسفة ذلك العصر لم يدرسوا العشق على نحو مستقل و نحن أي

شمس وأنا....

- أنتم تدعون ادعاء عظيما في شأن شمس و في شأنكم و ليس في طاقة العمل أن يفهم جيدا تلك الادعاءات التي صغتموها بالكلام . و في التحقيق في موضوع الإنسان أو علم الإنسان يتبين أن أثنأ هي موطن ولادة هذه الفلسفة و أن سقراط هو مؤسسها . و يعد أولئك الفلاسفة العقل أساس الحقيقة .

- مثل أن الجدال بدئ بالفكر ، و أنا و أنتم نتجادل بفكرنا . بينما أنا و شمس لسنا من أصحاب البدع ولا نريد الترويج و الشرح لفكر فلاسفة اليونان ، أنا وشمس ندافع عن عظمة الإنسان و لدينا رغبة في تعليم الناس علم الكون أو العالم و في النهاية تقول إن العشق في ذاته خلاق و مبدع .

- تزعمون أنكم مطلعون على كثير من أسرار العالم ؟

- بمساعدة شمس ، تخليت عن العلوم و المعارف التي قرأتموها في الكتب ، و كلما كنت إلى جانبه ازددت عظمة و كمالا . و بعد معاشرته و مذاكرته عرفت طريق الوصول إلى الحقيقة .

- غلفتم شمسًا بهالة سحرية ، فإذا أمكن فاخرجوا من إطار شمس و تذاكروا معنا باسم مولانا الكبير ابن سلطان العلماء و مع كل النبوغ الذي تنسبونه إليه ، و مع قدرته العرفانية لم يعرض فكرا جديدة

- من غير الممكن عودتي إلى ما كنت عليه قبل في حياتي ، إلى الوضع الذي كان لي سابقًا إذ كيف أستطيع أن اتخلى عن المنطق الجذاب عند شمس ؟ أما في شأن فكرة فإن الإنجاز العظيم لشمس هو تخليص العرفان من اللامبالاة و التسليم و تقديم التصوف الباحث العشقي .

- لا أفهم مقصودكم .

- في السابق وقفت أمام خلاء عظيم من اللامبالاة في حياة الروح ، التي كانت تبدو متوقفة ولا فعالة ، أما بعد لقاء شمس الذي علمني التفكير الصحيح فقد وقفت أمامي دنيا مشرقة و بحث لا يتوقف . فكيف أخرج من هذه الدنيا النورانية ، و أدخل دنيا سجت فيها الكتب و الآراء المختلفة ذهني الفعال و نبوغي ؟ ما تعلمته في مدرسة شمس أعطاني هو نفسه صفاء و بساطة عظيمين إذ عرفت ماهية الإنسان وجوهه معرفة جيدة . فهو يقول :

نحن من الأعلى و نذهب إلى الأعلى

نحن من البحر و نذهب إلى البحر

- الشيء الذي بقي عندي من دون حل بعد ساعات من البحث هو : كيف خرجتم عن مسير التفكير الصحيح الذي كان ، قدر الإمكان ، طريقا يقينيا لحياتكم

وجذبتكم نحو شمس ؟ آراء شمس ليس في مقدورها أن توضح جيدا ما كتب في دفتر الصنع الإلهي و قد حدثتمونا أنتم مرارا قبل لقاء شمس عن الوجود المطلق و المعرفة و الواقعية في الأمور التي كانت كلها معتمدة على فكركم الصافية و الصادقة . أما الآن فإن التصورات و المفهومات التي تمتلكونها عن العالم كأنها تغيرت فقد صرتم لعبة لميول شمس كأنكم أطفال . جعلتكم آراء شمس في موضع مناسب لأن تحرروا من هذه المعمعة و من مصيدتكم . هيجانه التغزلي و التخيلي شبيه بالخرافة و الاسطورة . هذا النحو من التفكير في شأن شخص ، معروف أنه لا أحد من العلماء يقبل فكرة وآراءه، يستلزم أنكم تختارون دائما العزلة في محدوديتكم الفكرية و الفردية ، ولأمد طويل ، انفصلتم عن الحقيقة و التعرض لشعاع عمل شمس إضاعة للاختيار و الاعتقاد و حرية التفكير و الاستدلال و نسيان للميل اللاواعي إلى المراتب الفطرية العليا .

أجاب مولانا :

- عندما يضاء القلب بالعشق لا تكون الحاجة إلى الاستدلال أمرا لائقا . اعلموا أنه في عالم شمس لا يوجد ضيق في النظر و الأنزواء و العزلة و البطالة لا معنى لها . و في شعاع عمل شمس ، الإنسانية و الإيمان و المحبة لها مقام لائق . و ما يأمر به شمس هو أنه لا بد من مشاهدة الوجه الفتان المحبوب المضيء لحقائق الحياة . وكل إنسان يستطيع ، بمعونة الشعور الباطن ، أن يلتقي بأناس خارقين للعادة بعيدين عن الحرص و ادخار المال والعجب . وشمس زاهد عميق ، وفاضل ، ومادح للحقيقة الخالدة . وكنتم دائما مستغرقا في جلال شمس وآراءه الخاصة ، وسأكون كذلك . هو إنسان متفرد ، موجود ، يجب معرفته معرفة جيدة ، إنسان تنبعت آراؤه من أعماق قلبه . وتستطيعون أن تعرفوا شمسًا عندما تسمعون كلامه علي نحو دقيق ، وتشاهدون قلقه وتوقه إلي الوصول إلي الحقيقة . أنتم ترون ظاهر شمس ، وتسمعون أصوات كلامه ، أما أنا فأرى عمقه وجده :

لا غريب في هذه الدنيا مثل الشمس

وشمس الروح باقية ، لا أمس لها

والشمس في الخارج مع أنها فريدة فذة

ويمكن أن يتصور [الإنسان] مثيلا لها

أما شمس الروح التي أوجدت الاثير

فليس لها في الذهن ، ولا في العالم الخارجي ، نظير

شمس واجد من أبرز شخصيات العرفان الإيراني ، إذ يتحدث في روحانية الإنسان .

وبتأثير تلقياته الروحانية العظيمة ، تغير مسير تفكيره . ويعتقد شمس أن الإنسان ،

عندما يغدو قلبه مقرا للعشق والمحبة ، ويستطيع أن يقترب من الكمال وإدراك الحقائق .

نحن جننا إلي الدنيا لكي نستفيد من الواقع، ودينانا مركز للاتصال بالحقائق الخالدة. والآنسان، لأنه يمتلك روحا ملكوتيا، يستطيع أن يكشف الأسرار التي أحاطت به كالهالة، ويندفع نحو معارف أوسع للواقع. ويقول شمس: إن التجارب الحسية والمناهج الاستدلالية غير قادرة علي أن تصور أماننا المعنى الصحيح للواقع والحقائق. ولا بد من دخول عالم باطن بمدد العشق والذوق:

جعل الله الأفلاك التسعة عبيدا للعاشقين
وجعل دولة هؤلاء العاشقين ثابتة راسخة
وإلي يوم القيامة، جعل الله ساقى العشق الباقي
يأتي إلينا والكأس علي راحته
وأبقي الله بلبل القلب إلي الأبد ثملا
وأبقي بغاء الروح ماضيا للسكر

وأنتم والمحفل الروحاني في قونية، مع اطلاعكم علي ما حباني الله من علم وقدره ذهنية وإيمان، كيف تأذنون لأنفسكم أن تقولوا: لقد وقع جلال الدين تحت تأثير أوهام شخص ساحر ماهر؟ إن أفضل لكم أن تسألوا هذا السؤال: كيف تحول جلال الدين إلى عارف ثائر .

رجوع شمس

في منتصف الربيع من عام 644 الهجري، كانت قونية في انتظار مجيء عارف جريء في عروقه دم المحاربين والأبطال الإيرانيين، عارف لم يكن يمتلك بيتاً أو كوخاً، ولم يكن يقيم في مدينة أو قرية إلا فترة صغيرة، حال في ذلك حال الطيور المهاجرة. وفي كل مكان كان يصل إليه، كان يحدث بلغة الشوق والجذب التي كانت مصاحبة للبحث العرفاني العشقي، كأنه عاشق يوصل بهيجان وسكر تركيباً ملكوتياً من صدي روحه وقلبه في قوس قزح كتاب ((المقالات)) إلى أذان المشتاقين، وكلمن كان يسمع كلامه كان هدوؤه يتحول إلى هيجان وثورة، وكان يري الطبيعة أكثر سحراً وفتنة، أو ينشغل بالتأمل والتفكير في معرفة الذات، وشمس، في عمره كله، لم يتوان لحظة عن السعي إلى إرشاد اليائسين، وكان يبشرهم قائلاً: إذا ما اكتشفت علمكم الداخلي فستدر كون سريعاً أن صوتاً متناغماً للحقيقة يتحدث مع قلوبكم وأرواحكم،

هذا الرجل الرحالة المتشرد كان يأتي إلى قونية راكباً جواداً، محاطاً بهالة من الوقار، وكان يبدو غير قابل للكلل والتعب. كان يريد- من دون أن يزيل غبار الطريق عن وجهه ولباسه- أن يمضي للقاء محبوبه، وأن يحتضنه كالروح الجميل. وبهذا الأمل أخذت كل اللذات المعنوية، وكل الشوق والتأثرات في صميم كيانه، في الهيجان والرقص.

أما مولانا فكأنه، بتأثير الأشواق والأمال، كان يسمع سنابك جواد شمس من بعيد. كان قد انقضي علي طلوع الشمس ثلاث ساعات، عندما كانت شمس أخرى تعود من سماء دمشق الحاملة إلى قونية، مولانا الذي كان يري في شمس متجلي للعشق، وكانونا متقدماً له، لم يعد يعرف رأسه من قدمه، وكان قد أعد ساعديه المدللين لكي يحتضن مطلوبه الحقيقي، الذي كان يعده شعلة أو نورا سماوياً، ويصنع إلى جانبه الأنغام، ويسمع صوته الأخاذ باشتياق وتحنن، ألم يعترف مولانا، في ديوانه الغنائي [ديوان شمس تبريز]، بأن كلام شمس المبهج للقلب فصيح ولطيف ومدلل للروح ومنعش للقلب، ومع أنه بقي بعيداً عن قونية لأشهر بقي كلامه في ذهن مولانا حياً؟ . كان جلال الدين يحس

بشيء من الفخر لظفره بمثل هذا المحبوب والمراد، عدد كبير، من طبقات مختلفة من الناس، كانوا حول مولانا، وكانت جماعة من المستقبلين، الذين كانوا في انتظار شمس، يعدون اللحظات مهتاجين متأثرين. كان مولانا يسمع الناس وهم يصيحون: شمس، مرحبا وأهلا. تواصل صياح الناس المتأثرين، وقد جاء هؤلاء لكي يبلغوا شمسًا ثناء أهالي قونية وتكريمهم ومحبتهم الخالصة.

عاد شمس ليضيء بشعاع محبته الموافق للقلب صدر مولانا المعني، ويبين له سر العرفان العشقي، علي النحو المطلوب. قلوب أولئك الذين كانوا واقفين في انتظار مجيء شمس عند باب المدينة، أو خارج المدينة، غرقت في بحار الشوق للقاء، وكان المستقبلون يحسون في داخلهم بهيجان رمزي ومهم وممتع. وارتدى الناس أحسن لباسهم، وتحولت قونية إلي قطعة من السرور والحبور. حتي النساء والاطفال، كانوا يرون بين المستقبلين. ذلك المبشر بالسرور والحبور ومعرفة الإنسان، عاد من جديد إلي قونية. عاد إلي مدينة كان [254] أهل السوء والمتعصبون فيها، قبل، يرمونه بالحجارة. وقد أظهر شمس، فعليا، أنه مستحق لأحراز هذا الاستقبال. ففي هذا الفراق والغياب القصير الأمد، أدرك أهل قونية عظمتة الروحية. وكانت الصورة التي ارتسمت له في قلوب محبيه وقلوبهم صورة عارف متخل عن الدنيا، عارف كانت عبارة كلامه أن كل إنسان متألم، عليه- من أجل مداواة آلامه الروحية- أن يتوجه نحو فضاءات سماوية لا باب لها ولا صورة، إلي المكان الذي ظهرت منه شعلة الأمل والوجود. كان أهل قونية في انتظار العارف الذي ترك مولانا علي حين غرة، ونشأ عن هجرانه جرح لا يندمل في قلب جلال الدين وروحه، وكان لديهم أمل بأن يعيد هذا الطبيب الرحيم السكينة الروحية لمدرس قونية الكبير. نعم، كانوا في انتظار مجلي الأمل والرجاء عند مولانا:

شيئا فشيئا يصل جميع السكارى

شيئا فشيئا يصل عشاق الشراب

الملاطفون للقلوب يأتون متبخرين في الطريق

والورديو العذار يصلون من روضة الورد

شيئا فشيئا، من دنيا الوجود والعدم هذه

ذهب الفانون، ويصل السكارى

وإن أرواح الطاهرين، مثل شعاع الشمس

تصل من ذلك الأفق الأعلى إلي البستان

كان شمس يقترب من باب قونية وقد عرق وجهه، وانهدج جسده، الطواف المتجول المتشرد- أو كما يقوا الخالفون له: شمس الساح، شمس الطواف- كان عازما هذه

المرة علي أن يضع روح مولانا وقلبه في اختبار قوي، وبمحبتته يليقيه في أتون يظل طول حياته يحرقه في نار الاشتياق، مثل طائر الفينيقي، ويجعله رمادا لكي يمدح في شعره بعظمة واقتدار معرفة الإنسان والعشق. لدي شمس هذه المرة مهمة تتمثل في أن يحرق شخصية مولانا في سلسلة من التجارب القاسية، ويوجد له شخصية أخرى. كان لدي شمس مهمة أن يختبر أمانة مولانا، وحلمه وصداقته، وإيمانه الذي لا يتزعزع بالعشق، فيطلب منه أم الخبائث [الخمرة] وحسنا، ومولانا أيضًا يملأ إبريقا ويحضره له. كان لدي شمس مهمة أن يصنع مولانا من جديد، وبقفزة مفاجئة يدفعه نحو بؤرة النور. كان علي شمس أن يقرأ آخر رسالة وكلام علي مسمع مولانا؛
لكي يقول مرة أخرى:

أنا أبكم في منام، والخلق كلهم صم

أنا عاجز عن الكلام، والخلق عاجزون عن الاستماع

على شمس أن يعرض على مولانا البشارة التي في داخله، أو- كما يقول هو نفسه- أكثر الإلهامات والإشراقات تأثيرا، أن يدندن في أذنه: لا تغتم أيها الغالي؛ فأنا المغتم من أجلك، وأنا المحرم لسالكي الطريق، والنجي لمساكني العرش؛ لكيلا يدعي أحد آخر ادعاء سلطان المعشوقين: أوجد أحد من خاصتك يستطيع تحمل صحبتي؟ كان شمس يريد أن يجفف آخر قطرة من دردري خمرة "نحن" و "أنا" في وجود مولانا، وأن يحمل روحه علي أجنحة العرفان الذهبية، ويطير به نحو آلاف مشعات النور.

مولانا وحده، في قونية، يستطيع أن يتحمل قول شمس وفعله. وعلي شمس في آخر مهماته في قونية أن يفض الختم عن القلب واللسان أيضًا، وأن يقول لمولانا ما ينبغي أن يقال؛ لكي يزيل عن قلبه صبدأ الظلمة والكبر وطلب الجاه، ويصنع الأنغام والمنظومات في الثناء علي العشق والمعشوق والاستغناء.

ولأن شمس لديه أهلية القول، لا بد من أن يتحدث عن الأسرار عند شخص يمتلك أهلية الاستماع، وأن يرفع الأستار عن وجه الأسرار. شمس كاسر للتقاليد، باحث ينشد أن يضع سويداء القلب أمام حبيبه الصممي. وهو نفسه يقول: إن القلب الضعيف (شمس التبريزي) لا ينزل في أي مكان، وهذا الطائر لا يلتقط كل حبة، بل يطلب موسيا جميلا ومؤنسا رائعا. رأى شمس مولانا رجلا عجيبا. كان لدي شمس مهمة في هذا اللقاء الأخير، هي أن يعرف نفسه لمولانا علي حقيقته؛ لكي يدرك رسالته جيدا، ويؤديها علي نحو دقيق. قال شمس لمولانا مرة:

-إن لي زماما لا يجرؤ أحد، أيا كان، على الإمساك به إلا محمدا رسول الله. وهو أيضًا يممسك بزمامي بتقدير وحساب؛ عنما أكون محتدا وقاسيا، أي عندما تدخل عزة الدرويش رأسي، لا يممسك بزمامي البتة.

ويعتقد شمس أن الناس ستدرك معانيه جيدا بعد مضي ألف عام. ويعد نفسه إنسانا كاملا، ويرى أن مولانا في المستقبل مضطر، كالقطرة، أن يقف أمام أمواج بحر شبيهة بالجبال. وهو يقدم نفسه جهارا علي أنه كيميائي، ويدعي قائلًا: إن وجودي كيمياء لا يحتاج إلي صب النحاس. ومع هذا كله، شمس في الطريق لتكميل معارفه والبحث عن هدفه، هائم علي وجهه بحثا عن صاحب يقول له رسالته الأخيرة، لهذا السبب كان عنده أمل بأن يرجع مرة أخرى إلي جلال الدين لعله يستطيع أن يقتلع غرسة محبته من وجده، أو يظل حتي آخر عمره أسير محبته أو داخل دائرته.

شمس، هذا الرجل الذي - في رواية جلال الدين البلخي- لا يخشي أعاصير البحار و رعدھا، لديه غم ثقيل مطبق علي قلبه، وهو يصف نفسه علي هذا النحو: أ تكون حالة قلب أكث تشتتا من هذه الحالة؟

أو تكون حادثا أكثر فوضي من هذه الحادثة؟

وفي العالم من رأى مبتلي

هائما علي وجهه في الزمان أكثر حيرتا من هذا؟

شمس مكلف، في آخر رحلة له، بأن ينهي حيرته و اضطرابه وتشتت ذهنه، هذا المنادي للإنسانية الداعي إليها، الذي كان يرى أن معظم المسرات والمباهج في احتقار الشهوات ولذائد النفس، كان يقلل من شأن أبي يزيد البسطامي والحسين بن منصور الحلاج قائلًا: إنه لو كان عند أبي يزيد البسطامي علم لما قال: "أنا"، ولو كان عند الحلاج علم بالحقيقة لما قال: "أنا الحق". وتأسيسا علي ذلك، علي مولانا أن يعد نفسه لأنه يتخلى عما سمعه وقرأه في شأن أبي الحسن الخرقاني ومشايخ العرفان الآخرين؛ ذلك لأن شمسًا سيبتل كل أقوال هؤلاء وأفعالهم. وهو يعد كل هذه الكلمات، و كل هذه الأقوال المنسوبة لأشياخ العرفان. غلافا، و يقول: إن كل هذه الستور و الحجب التي أحاطت بالإنسان هي أغلفة و السماوات السبع غلاف له، و كرة الأرض غلاف له أيضًا. و ما دامت المعرفة نفسها حجابًا فكل شيء حجاب. و على شمس في رجوعه إلى قونية، يمزق الحجب و الأغلفة بقوة الكلام و الشهود. يقول شمس إن أغلب خاصة الله تعالى هم أولئك الذين خفيت كراماتهم لا يتضح لكل إنسان كيف هم مختفون.

مولانا يجب أن يكون مستعدا لكي يعرف الكرامات و يعرف جيدا رجال الله الذين هم في حجاب الأسرار. هذه المرة يأتي شمس إلى قونية بادعاءات عجيبة، فهو يعرف لغة الطبيعة، و يريد أن يعلم مولانا هذه اللغة. هذه المرة يجب أن يغير عالم الفكر و العلم و المعارف عند مولانا ذلك لأن التعلم في عقيدة شمس حجاب عظيم كل معارف مولانا يجب بمدد كلام شمس المثير للعواطف، أن تغدو ضحية شعل نار متأججة لكي ينمو من رمادها المروي بالكيمياء السماوية و ببيان شمس، أزاهير معطرة و ملونة

جديدة و يقبح شمس جملة الحكماء و الفلاسفة و يقول : إذا كانت معاني أفلاطون و الرازي و شهاب الدين جديرة بالإدراك و الفهم من خلال التعليم و البحث ، فإن تراب العالم بالضرورة لأبي يزيد و الجنيد .

و سيتلو شمس التبريزي في أذن مولانا :

خَدَ مَلِكُ الْعَالَمِينَ، فَإِنِّي مَالِكُ الْمَلِكُ
وَتَعَالَى إِلَى حَفْلِ الطَّرَبِ وَ الْأَنَسِ فَقَدْ أُعْمِدْنَا السُّيُوفَ
إِنَّ الْأَفَّ الدَّرَاتِ بِفَضْلِ هَذَا الْقُطْبِ، صَارَتْ شُمُوسًا
وَمَا أَكْثَرُ قِرَاضَاتِ الْقَلْبِ الَّتِي جَعَلْنَاهَا غَمَدًا؟
نُعْطِيكَ جَنَاحًا لِكَيْ تَطِيرَ إِلَى الْفَلَكِ كَالسَّهْمِ
إِذَا جَعَلْنَا الْجِسْمَ الْمُسْكِينُ قَوْسًا مِنْ أَلْغَمِ
وَإِنْ كُنْتَ شَيْطَانًا فَنَحْنُ نَجْعَلُ الشَّيْطَانَ مُلْكًا
وَإِنْ كُنْتَ ذَنْبًا، فَقَدْ جَعَلْنَا الذَّنْبُ رَاعِيًا
وَمَعَ أَنَّكَ طَائِرٌ ضَعِيفٌ، أَطْلُبُ غُصْنًا مُرْتَفِعًا
عَلَى شَجَرَةِ السَّعَادَةِ تِلْكَ، حَيْثُ جُعِلْنَا عُشًّا
وَمَعَ أَنَّ السَّمَاءَ سَقْفَ مَرْفُوعٍ، لَا تُفَسِّرُ
وَلِمَاذَا تَعْتَمُّ مِنَ الْإِرْتِفَاعِ وَقَدْ أَعْدَدْنَا سُلَّمًا؟

مبارز عنيد ، عارف متفوق على مشايخ زمان جلال الدين البلخي ، الذي كان دائمًا ينشد أن يصل إلى منبع فياض مفيض للروح و الحياة يقترب من مدينة قونية . و أنهى هذا البحث برأى شمس التبريزي ووجهة نظر في جلال الدين البلخي : إن سألوك : كيف عرفت مولانا ؟ - فقل أتسأل عن قوله ؟ قوله هو : " إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون " و إذا سألت عن فعله فهو : " كل يوم هو في شأن " و إذا سألت عن صفته فهي : " قل هو الله أحد " .

obeikandi.com

معنى الكمال المطلق

شمس هو المغني و الخادم المخلص للكمال المطلق ، و الخير المطلق . صار الجمال المطلق و العشق المطلق متأملاً لعقول الناس و بصائرهم . و ليس لمولانا الجرأة على أن يتلفظ و يتحدث . كانت لحظات الموج هي التي توصل إلى الأذان أعذب الأصدا . وإذا مزج مولانا الإخلاص و الصفاء العرفانيين و أخفى الكلام المنطوي على الشفقة العميقة و العشق الشارب في أعماق النفس قال :

- مرحبا بك يا شمس مرحبا بك أحس مرة أخرى بأني ، بتأثير حرارة شمس وجودك و جاذبية كلامك أوصل حياتي المثيرة . كانت صيحة الترحيب بشمس التبريزي ، قد هزت حتى جسد مولانا المنهمك و جسد مراده (شمسًا) . و هذه الأصوات التي تترامي إلى الأسماع من حناجر عشاق شمس أيضًا ، جعلت مولانا أكثر سكرًا فقد أضاء شعاع الشمس كل ناحية . كان النور ينتثر من الفضاء . أدرك الناس عظمة الحقيقة و تجليها في ذلك اليوم على نحو رائع . أحد محبي مولانا صرخ :

- " اعرفوا الله بالله " . و نعر آخر :

" المؤمن ينظر بنور الله " .

هذه الأصوات و الكلمات المحببة ، التي تفيض من القلوب ، كانت أنشودة مقدسة أعادت شمسًا إلى وعيه " فتمتم :

- ما أجمل الإنسان الذي يعدل الأقاليم السبعة و الوجود كله ! و بغتت استولي على مولانا هيجان عجيب فمضي مسرعًا نحو شمس ، لكن قدميه لم تكن لديهما القدرة على أن تحملاه و لهذا السبب وقع مولانا على الأرض فانحنى الناس الخائفون على وجهه ، عينا مولانا نصف مفتوحتين و شفثاه تنفرجان و لسانه أخذ يتحرك فيقول بمحبة :

- شمس ، شمس ، شمس التبريزي ! كان لطف الله و أنجذاب الإنسان في تلك الدقائق ، اختصر في هذه الكلمات الأربع .

كان المستقبلون يساعدون و يرقبون مولانا بانتباه شمس الذي كان قد حوصر وسط أمواج أهل قونية ينزل عن جواده . في هذه اللحظات ينجس الكلام و ينظر العاشق و المعشوق أحدهما إلى الآخر مبتسما ، لعل القدرة المهمة للعشق تنتقل كلامهما القلبي على نحو سحري .

كان الناس يهللون و ينثرون النقل و سكر النبات و الورد ، سرورا بمقدم شمس ، و كانت الدموع ترتجف في مقلتي شمس . نعم دمع الشوق .

كان لقونية في تلك اللحظات جلال و عظمة من ضرب آخر ، كانت مملوءة بالهيجان و السرور . و في وسط ضجيج الناس و صياحهم كان مولانا و شمس بتمشيان . و الأمر كما يقول شاعر غربي : إن مصورا ناري القلم وحده الذي يقدر على أن يصور هذا المشهد بسحر الفنان في مكان واحد .

توقف شمس أمام شريط الزمان المهتز فتذكر الماضي فعادت الفكر المرة الموجودة في أعماق وجوده . تذكر الأيام و الليالي التي كان يعيشها في قونية بقسوة و مرارة . الفكر المؤلمة الآتية من الماضي أوجدت في جهته تقبضات و تجاعيد ، و اضطراب توازن قدميه . في رحلته الأولى إلى قونية ... في ذلك الوقت ، كان قد وجد على قارعة طريقه ثلاثة دراهم فقال في نفسه . قوفرت تكاليف الإقامة في زمان الفقر و الاستغناء و في ذلك الوقت كان الدرهم الواحد يعادل عشرين و مائة وحدة نقدية أصغر . و كان رغيف الخبز يشتري بوحدة نقدية واحدة من هذه الوحدات . و كان شمس في كل ليلة يأكل نصف رغيف و يتصدق بنصف آخر على مسكين أو بئس .

تذكر الأيام و الليالي التي نزل فيها في خان بائعي السكر في قونية و استأجر مجرة و في تلك الأيام كان يضع على باب حجرته قفلاً كبيراً و كان يضع المفتاح المربوط بزواية منديل صغير قيم على كتفه لكي يتخيل الناس أنه تاجر كبير ، بينما لا يوجد في حجرة شمس على الحقيقة سوى حصير قديم و إبريق مكسور و وسادة من أجر خام حتى أنه ظل لخمسة عشر يوماً بلياليها يفطر على أرغفة خبز يابسة مثرودة بالماء .

- ذكريات الماضي واحدة إثر الأخرى ، كانت تمر أمام باصرتي شمس الحادتي النظر . . في الأيام التي كان قد وصل فيها من قيصرية إلى آق سراي أقام في المسجد وحدث مرة بعد صلاة العشاء أن قال له مؤذن المسجد : اترك المسجد فوراً و اذهب إلي مكان آخر للإقامة ، فقال شمس لمؤذن المسجد بترج :

- أنا رجل غريب فاسمح لي بالبقاء أنا لا أطمع بشيء دعني أرتح هنا لليلة واحدة فأمسك المؤذن بتلابيب شمس و أخرجه من المسجد . لم يقل شمس شيئاً ، و لم يقاوم و ترك المكان ، انهلت الدموع من عيني شمس بغتة . لا يترك الغم و الغصة ، في أية صورة من الصور ، قلب شمس مع أن قلبه كان يريد أن يستريح :

- قلت : لماذا صار الدمع عندك أحمر كالدّم ؟
- كيف سألت ؟ - أصدّقك القول كيف صار ؟
- قلبي يصب دمعاً كالدم بسبب عشقك
و عندما فاض هذا الدمع خرج من رأسي
و لأول مرة قال مولانا لشمس بلهجة امرأة :
- لا ينبغي لك أن تفكر بالماضي ، خاصة بالزمان المر المنتهي ، لأن كل شيء في
هذه اللحظات العظيمة ، يصفى و ينقى من أجلنا نحن الاثنين :
- قال : انظر إلى ، واملأ قلبك بالسرور
لا تنظر إلى نفسك أبداً ، أي محبي
كان مولانا و شمس يتمشيان أحدهما إلى جانب الأخرى بتؤدة مسرورين . نسي
الصوفي المتجرد ، شمس الطيار ، الماضي مستجيباً لأمر مولانا . كان الناس يمشون
مسرعين كالظل وراء هذين الشخصين اللذين يعد أحدهما زينة المحراب و الآخر سراج
الخانقاه .
- سأل شمس مولانا : كيف أمضيت الليلة الماضية ؟
- نمت منتصف الليل ، ثم بعد ساعة نهضت من فراشي لكي أنشغل بالمطالعة .
تناولت ديوان المتنبي و أخذت بالقراءة . و مر أخرى ذهبت للنوم . رأيت في المنام
أنني في مدرسة مع جماعة من العلماء ، و أنني منشغل ببحث عظيم و بغتة رأيتكم
أمسكتكم بلحية المتنبي و جئتم به إلى وسألتموني بانزعاج :
- تقرأ ديوان هذا الرجل ؟ - تطالع كلام هذا الرجل الصغير ؟ - كان المتنبي رجلاً
نحيلاً و كان يتضرع و يتوسل : أنقذني من يد شمس الدين التبريزي وألق هذا الكتاب
الذي هو من أثاري في النهر وانس كل ما قرأت لكي أرتاح أنا على الدوام من عتاب شمس
و خطابه .
- ارتسمت ابتسامة على شفتي شمس و سكت و أطرق مفكراً .
- سأل مولانا شمساً :
- في دمشق بم اشتغلت ؟
- قضيت في الرياضة و المجاهدة في حجرة في احدي المدارس ، أربعة عشر شهراً .
- و كيف عزفت عن الرياضة ؟
- في أحد الأيام و أنا في حجرتي ، ترامي إلى سمعي : إن لنفسك أيضاً حقاً عليك .
فورا تركت الرياضة و الانزواء و جئت إلى سوق دمشق و انضممت إلى مجلس .
- سكت شمس للحظة ثم قال لمولانا : لم تسأل عن سلطان ولد ، ابنك ؟ نسيت
محبة ابنك الحنون و بعده عنك بسبب لقائي ... ؟

- إن الاشتياق للقائك اضطرني إلى أن أنسي كل الذين يعرفونني وأعرفهم ، حتى سلطان ولد . بعدئذ عانقه مولانا ، وقبل وجهه الشاحب ، ثم وقف و بصوت مرتجف طلب إلى ابنه أن يحضر و قال :

- أي بني في حياتي كلها لم أكن مسرورا و طيب الخاطر في يوم بمقدار ما أنا عليه في هذا اليوم . و هذا السرور و الابتهاج أتيت به أنت هدية المسافر (أرمان - بالفارسية) لي . ملأت قلب والدك الشيخ بالاهتياج و التوثب ، فقد أرجعت إلى قونية العارف الذي تجلت فيه صفات الإنسان الكامل و كنت لمدة طويلة أنوح و أبكي لفراقه أعلم أنك متعب جدرا ، لكنك تعلم أن الألم في طريق العشق كثر ، ما حييت لن أنسي تفانيك و إيثارك ، فرد سلطان ولد الذي كان متعبا و منهكا :

- لمدة شهر على التمام كنت أتقدم راجلا في موكب شمس و في هذه المدة مرضت عدة مرات ، و لكنني بجسدي الذي استبدت به الحمي واصلت الطريق و الرحلة ابتغاء أن أنفذ أمر جنابك على ما يرام .

- بقية الرفاق كيف حالهم ؟

- كلهم عادوا سالمين وحدي أنا احتراما لشمس لم أمتط جوادا طوال الطريق ، و كنت أتقدم في الطريق ماشيا على قدمي ، أنا أيضا مثلكم مريد لشمس . شمس على الحقيقة عالم آخر و إنسان نادر و جميل ، و إنسان منهم ، و قد أدركت قدره و منزلته إن هذه الرحلة جيدا .

من سماع هذا الكلام ، ارتسم تفتح محبب على أسارير وجه مولانا و بدا كأن ذرات كيانه كانت تتوثب و تلتهم ، مما يجده في نفسه من وجد و سرور و نشاط .

اعتقاد سلطان ولد ، إيمانه الحار جدا بمولانا شمس الدين التبريزي ، جعل مولانا جلال الدين أكثر أملا بمستقبل الإنسان و العرفان . فسأل سلطان ولد :

- كيف وجدت شمسًا في هذه الرحلة ؟

- علمني شمس أنه في جيلة الإنسان بحران متواريان : أحدهما بحر السر و الآخر بحر القلب من بحر السر تخرج لأئ المشاهدة و المعاينة ، و من بحر القلب يخرج مرجان المكاشفة . أي أبته إن مولانا شمسًا ، بنيران الاشتياق التي أحرقتكم و جعلتكم رمادًا ، ألقاني في أتون المحبة ، مثل سمكة رمي بها في اليابسة . قال لي شمس : كل اعتقاد حرك نفسك وهز طبعك احتفظ به و أضاف قائلاً :

- أنظر إلى العالم كله بنور العاشق . علمني شمس أيضًا أنه على وجه البسيطة أعداد هائلة " من الجن و الأنس لهم قلوب لا يفقهون بها و لهم أعين لا يبصرون بها و لهم اذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل " سبيل من الأنعام ، لأنهم ليسوا عاشقين أو محبين . العشق و الإنسان العاشق ، منبع غزيرة لأكثر الإلهامات بركة . و

هذا مبعث أني مثلكم ، بايعت شمسًا و سأظل دائمًا مريداً مخلصاً له . شمس ملتزم بالإيمان و الاعتقاد الصحيح إلى حد الإخلاص التام و مجتمع في وجوده كل صفات الإنسان الكامل .

أي أبتاه أعلم أن تلك الصورة الكاملة للمعشوق الإلهي الذي كنت تبحث عنه على امتداد سنين هو نفسه – على الحقيقة – الذي كشفته أنت جيداً :

مِنَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، شَمْسَ الدِّينِ، ظَفِرَتْ بِكَأْسٍ
وَفِي دَاخِلِ كَأْسِهِ وَجَدْتُ شَمْسًا
وَعِنْدَمَا عَثَرْتُ دَاخِلَ طَرْتُهُ عَلَى مَا يُدْهِشُ الْقَلْبَ
دَخَلْتُ فِي الْمَلِكِ فَوَجَدْتُ عَنَبْرًا
فَأَنْظُرُ وَسَطَ طَرْتُهُ إِلَى وَجْهِ مُشْرِقِ كَالنَّارِ
فَقَدْ وَجَدْتُ وَسَطَ الْمَلِكِ وَالْعَنَبْرُ مَجْمَرًا
وَعِنْدَمَا نَظَرْتُ، كَانَ رَأْسِي مَمْلُوءً مِنْ عِشْقِهِ
إِذَا وَجَدْتُ حَارِجَ الْعَالَمِينَ كَلِمَتَهُمَا مَنظَرًا أَخَاذَا

في منتصف الطريق ، قلت لشمس الدين التبريزي العارف المتجرد . عندما حدث في الماضي أن اعترض الطريق أهل قونية على محيئكم ، و أخذوا ينالون منكم و يكثرون من القيل و القال ، لم يكن ذلك إلا لأنهم غير مطلعين على سر العشق و الفكر العرفانية من ناحية المعارضين لكم ، هناك متهورون و حاسدون أسلموا زمام أمورهم لعدد من المتشدددين العميان القلوب . و المؤسف أنهم كانوا يرون العرفان العشقي ضرباً من الاضطراب الأخلاقي و نشدان اللذة و البهجة . عند أصحاب هذه الرؤية صلة الإنسان بإنسان آخر أمر غير واقعي . كان ذلك عندهم شيئاً محيراً و يحمل معني مختلفاً . أما أكثر محبي والدي ، فكانوا عارفين أن العشق انجذاب و حركة نحو المجهولات . الأشخاص الذين كانوا على علم بالاستعدادات التي لا تقدر بثمن لروح الإنسان ، تقبلوا العشق بقبول حسن بكلية وجودهم ، لأن العشق وحده من بين أحلام الحياة يظل شفافاً وخالداً .

obeikandi.com

شمس المضي لقلبي

كان شمس في نظر جلال الدين البلخي عالما محسنا و عارفا بارزًا و ممتازًا جذب إليه، كما يقول المخالفون و الحاسدون مولانا و سحره ، كالجواهر اللألاء ، وكان في السير و السلوك جديرا بكل ثناء و يفيض كلامه بالنشاط و الهيجان و الإثارة . كان مولانا يقضي لحظاته وأوقاته الجميلة في قونية إلى جانب شمس ، الذي يعودته غرق في الأشواق و كان يحس في نفسه بهيجان عجيب . كان كل صباح و كل مساء عنده مولدا لأسرار جديدة ، يجب أن يكشف الستار عن وجهها شمس الجواب للأفاق . لم يكن ثمة طريق للفكر البعيدة في مختلي مولانا ، و كل الأغلال التي قيدت بها التقاليد القديمة يدي مولانا وقدميه كانت تفك واحدا إثر الآخر بمدد شمس بيسر و سهولة . جعل شمس شعاع حياة مولانا أكثر إشراقا و ظهرت عند مولانا الإبداعية الفنية و الهيجان العرفاني وإن سرور مولانا و توثبه و امتلاءه بالفتح و الإشراق مبعثها مجئ دولة العشق و في تصور المؤلف أن شمسًا التبريزي نفسه كان يرى نفسه غالبا غارقا في أمواج نور شمس مولانا الذي صار أساسا لجذبه و نرى هذا السكر واضحا في كثير من مظلوماته الغنائية :

كنت ميتا ، صرت حيا ، كنت باكيا ، صرت ضاحكا

جاءت دولة العشق و صرت أنا دولة راسخة

و قد وصف شمس عظمة هذه اللحظات المقدسة في كتابه " مقالات شمس " على

هذا النحو :

كتب على شاهدة قبر :

" عمر هذا كان ساعة واحدة " و إن لي من العمر هذه الساعة التي جلسنا فيها مع

حضرة مولانا في زاوية خلوة . في هذه الساعة هو في العالم القطب . كم أنا مسرور

بصحبتك التي أعطتني هذه المحبة .

الله يعطيك قلبي هذا . ما ذلك العالم ، و ما هذا العالم عندي ؟ - و ما قعر الأرض ،

و ما أعلى السماء عندي ؟ كل مكان يصلح إلى جانبك .

تعهد شمس بأنه مادام حيا ، فسيحيا بعشق مولانا ويموت بعشقه .

ونريد نحن ، بمساعدة الكتابات التي بقيت لنا من القرون والأعصار الخالية ، أن نبسط الجناحين ونطير نحو مختلي شمس و مولانا ونرى : ماذا حدث هناك ؟ - و ما النكات التي كانا يتحادثان فيها ؟ - ولماذا صار مولانا المتفضل ، و المتكلم مسحورا بكلام شمس الأفاقتي ؟ - ولماذا تتجلى أمامه في أكثر أناشيده الغنائية سيماء شمس ؟
وقد تصرمت القرون و بقيت حكايات للقرون الآتية . حكايات مولانا و شمس يجب التماسا في كلامهما و في أشعار مولانا و في كتاب " فيه ما فيه " لمولانا و في " مقالات شمس " و ليس في كتب التذاكر و السير .

يقول مولانا : إنني في أيام الخلوة الجميلة أمام شمس ، كنت أحس بأن روح هذا الأفاق ذو ماهية نارية ، كنت أحس بجاذبية و سحر في نظراته . و لست أدري لماذا في تلك اللحظات كان يخطر في فكري أن الفراق سيفصل أحدنا عن الآخر سريعاً ؟ لست أدري لماذا كنت أنظر لدقائق نظرات متحسرة إلى المشهد البديع الذي كنا نراه ؟
يروى مؤلف كتاب " مناقب العارفين " عن حرم مولانا كرا خاتون ما يأتي : في أحد الأيام في صميم الشتاء كان مولانا جالسا مع حضرة شمس التبريزي في المختلي و كان مولانا متكئا على ركة شمس الدين ، وكنتم أنا قد وضعت أذنا واعية على شق في المختلي باتجاههما ، لكي أسمع : ما الأسرار التي يذيعانها و ما الذي يجري بينهما . أشار حضرة مولانا لجناب شمس الدين :

- نقيم الصلاة فتأمم بنا .

- قال شمس :

- في وجودك ، لا إمامة لأحد .

و في النهاية قام مولانا من مكانه و تأمم .

إن نقل قصة جميلة لعاشق و معشوق مثل شمس و مولانا ووصف فراق ذينك الاثنين ووصالهما ليس عملا ميسرا . يجب أن تقرأ قصة المتألمين خلصة و العاشق يجب أن يؤثر فيه ألم العشق و التحرق عند المتألمين . و من ذا الذي في مقدوره أن يصف صفاء سماء مجالس شمس و مولانا ، جيدا ؟ أو يصف بمساعدة كلام مناظر سحري محافل خلوتهما ؟

انظروا ، كيف يرى شمس الذي هو موجد حياة جديدة لمولانا في مرآة روحه فكره الباطنية . فاسمعوا دوي صوت شمس الأخاذ إذ قال :

- إن قولوا واحدا لمولانا يعدل عندي ألف دينار ، لأن الباب الذي كان مغلقا يفتح بسببه و الله ، إنني في معرفة مولانا مقصر . لا نفاق ولا تكلف ولا تأويل في قولي :

- إني في معرفة مولانا مقصر .

في كل يوم أعلم شيئاً جديداً عن حاله و أفعاله ، لم يكن معلوماً عندي قبل .
بعد ذلك خاطب شمس متيبي مولانا قائلاً :

- اعرّفوا مولانا جيداً لكيلا تدهشوا بعد ذلك .

عين الصورة و الكلام الجميل الذي يقوله ، ما دمت لم ترضوا به ، لأن خلف هذا الكلام شيئاً ، اطلبوه من مولانا .

شمس التبريزي قوس قزح سماء العرفان ، له الحق في أن يقول مثل هذا أمام مطرب عالم الحقيقة و ناظم مديحة لأن جلال الدين مولانا أنشد في كتاب " المثنوي " الجميل :

تلك الكلمة التي أخفيها عن آدم

أقولها لك ، يا من أنت جملة اسرار العالم

تلك الكلمة التي لم ينطق بها المسيح

و لم يذكرها الحق غيرة عليها ، إلا لنا

و يعترف شمس بأن الأوقات التي قضاها بقرب مولانا كانت فيها ذرات وجوده كلها في حال احتياج و تأثر من فرط السرور و الابتهاج . و كان مولانا يعد زمان لقائه شمساً زمان احتياجه ووليه و اضطرابه . و في تلك الأيام ، كان شمس يجلس عند باب المختلي و يجعل مولانا في داخل الحجر و كلما شاء أحد أن يلقي مولانا كان يقول له : ماذا حضرت و ماذا تعطي مقابلاً لكي أظهره لك ؟

كان شمس يريد أن يكون مولانا له وحده لأنه كان يعلم القصد من لقاء جماعة من أهل قونيه مولانا و أنا الدوافع إلى ذلك إنما هي أن يدفعوه من جديد بالكلام إلى الدرس و البحث و القيل و القال .

و كان شمس قد قال لمولانا مرارا :

امح الأوراق إذا كنت شريكاً لنا في الدرس

لأن درس العشق لا يتسع له الدفتر

و كان شمس أيضاً مخالفاً للجلوس في الخلوة و الانزواء ، و لهذا السبب عقد عدد من الأشخاص الذين كانوا لسنوات يسلكون طريق الرياضة و الاختلاء العزم على أن يطرده من قونية ذلك لأن شمساً كان ينشد العشق و النشاط لا الانزواء و الاختلاء و الرياضة . كان العشق و الحب هو الأسلوب الذي دافع عنه شمس ، و كان يريد أن يشيع تلك الأمانة التي كان قد أتى بها هدية مسافر (أرمغان - بالفارسية) من خراسان العظمي معه ، بين أفراد الناس . كانت مقاومة المرائين ، و معاركة الأنزواء في الخلوة و المتعصبين ، و مواد المتعشقين و المحبين ، الأسلوب الذي في هذه المرة يتحدث عنه

شمس جهارا و من دون أن يخشي عاقبته ، في كل مكان و في المحافل جميعاً . و ليس من دون سبب أن كان مولانا يصيح و يقول لمخالفني شمس :

- ليس شمس عالما أكبر فقط ، بل حقيقة ذلك .

- كان فضاء قونية بعد مجيء شمس ممتزجا بالتهم و الشكاوي و السخريات اللاذعة و الاعتراضات و القيل و القال و كانت الصيحات و الأصوات المرعبة تصل إلى الأسماع . و قد زاد تعظيم مولانا شمساً و إكرامه إياه الذي لا حدود له ، اضطرام نار الحسد و الحقد بين أصحاب النوايا السيئة . و لم يكن شمس نفسه غير مبال أمام هذه الأحداث ، و كان يقول : لا بد من اللطف و لا بد من القهر و شمس جامع لهذين .

- و عندما سأل ابن مولانا الأصغر ، علاء الدين أباه في شيء من الغضب :

- كيف تتبع بشراً متشرداً مجنوناً ليس لديه توازن روحي ؟

أجاب مولانا :

- اعلم بني ، أن شمساً شيخ كامل . الإنسان الذي يقول : بعضهم كاتب للوحي و بعضهم محل للوحي ، فاجتهد لكي تكون محلاً للوحي و كاتباً للوحي لا يمكن أن يكون مجنوناً بل هو رجل عظيم :

لو أن رأس كل شعرة مني غداً لساناً

لما تهيأ لي وصف لطف شمس في بيان

مرحباً ، أي شمس المضيء لقلبي

يا من ضياؤك نار تحرق غمي و حزني

كان مولانا ليلاً و نهاراً بسبب الوجد و الاهتياج الذي أدركه من رجوع شمس ينشد الأشعار ، أو يدور حول نفسه أو يجلس مع مراده في خلوة . وكان من نتيجة تأثر مولانا الشديد في السماع أن صار عدد من محبيه من أصحاب الفضل و الذوق كالقاضي شمس الدين المارديني و سراج الدين الأرموي مجذوبين إليه ، وأخذوا يدورون حول شمس كالفراشات . و قد أثارت رغبة أصحاب مولانا بالسماع و الطرب غضب عدد كبير من رجال محافل قونية . كان سلطان ولد على علم من أن قونية ستشهد حدثاً دمويًا ، إذ كان الظمأ إلى الانتقام من شمس و أحباء شمس توجب نيرانه في كل مكان حتى في دور العبادة . و غمرت أمواج الحقد و العداوة كل موضع . أما شمس و مولانا فكانا مأخوذين بالسماع من دون انشغال بأي شيء آخر ، حتى كان روحهما كان ينشدان أن يتحررا من ضيق قفصي جسديهما و يبسطا جناحيهما إلى القدر الأقصى .

و عندما وصل شمس و مولانا إلى الكمال أهملتا عناد المرئيين و كراهيتهم . ومن وجهة ما ، شمس محب للإنسان و من المؤسف أن يعيش في محيط مظلم و متعصب ، فقد كان قلبه يتوق إلى أن يكون بين الناس و يتحدث إلى الناس و يبث حديث القلب

من دون إقامة وزن لمقتضيات الزمان و المكان . لكن البائسين المنحطين لم يكونوا يأذنون بذلك ، و هذا ما اعترف به في قونيه و قاله . لا أستطيع أن أقول الحقيقة إذا بدأت بقول الحقيقة فأخرجوني ولو أكملت قول الحقيقة لأخرجوني دفعة واحدة من المدينة كلها . كان على أن أذهب إلى الجبال و الصحاري ، لو أنني بدأت بقول الحقيقة و المؤسف أن هذا يستمر . على القلوب أقفال ، و على الألسنة أقفال و على الأذان أقفال . أهل هذا الربع المسكون كل إشكال يقولونه يجدون له إجابة . جواب في جواب ، و قيد في قيد ، و شرح في شرح . كلامي يقدم لكل سؤال عشرة أجوبة ليست مسطورة في كتاب البتة بذلك اللطف و بذلك الطعم ، مثلما يقول مولانا : منذ أن تعرفتك صارت هذه الكتب في نظري من دون طعم .

يعتقد شمس أنه يوجد في وجود البشر إحساس عاطفي مصدره العشق الذي لا يتناهي ، عندما يتجلي تبدأ حياة جديدة لتعرف حقائق الوجود و الكائنات و فئات الناس لكي يعرف الإنسان العدو و يعرف الصديق :

لكي تعرف الصديق من العدو

لا بد لك من حياة جديدة

و الأعداء الذين ظاهراً أصدقاء كثيرون

و لا بد من صديق مواس

كان مقصود شمس بهذه " الحياة الجديدة " اكتشاف جلال الدين البلخي ، إلى حد أنه يقول : " المقصود من وجود العالم التقاء حبيين يتوجه كل منهما ناحية الآخر من أجل الله سبحانه بعيداً عن الأهواء " . و جلال الدين البلخي على غرار شمس ، انقاد للتصوف العشقي باشتياق و قبل أهدافه . و قد نبه شمس جلال الدين على أن الاعتقاد و العشق يشجعان و يبديدان المخاوف قائلاً له : كل اعتقاد نشطك وقواك حافظ عليه و كل اعتقاد جعلك بارداً فاتراً ابتعد عنه ، ذلك لأن المطرب الذي ليس عاشقاً و الناتج الذي ليس متألماً يفتران الآخرين و يذهبان بنشاطهم و حيويتهم .

و كان مولانا يعتقد أنه في يوم من الأيام سينفذ تصوف العشق في أقطار القلوب و الأرواح عند بني الدنيا . لكنه ما كان راضياً عن أهل قونيه . و روي الأفلاكي أنه قال يوماً : " وأسفاه ، إن أهل قونية يملون سماعنا المملوء بالماء و الرونق و الإشراق .

و الوزير و الأمير يطعنون ، وهم غير راضين بمباهجنا و ملاذنا هذه و في آخر الأمر ، يكون أهل الأزمان الآتية محبين للسمع ، و أرباباً متعة و سرور و يحيط العشق بالعالم كله و يغدو الناس كافة عاشقين لكلامنا .

و كانت شجاعة العشق هذه هي التي اضطرت جلال الدين مثل الإمام أحمد الغزالي إلى أن يهب ثروته و ذخيرته للمساكين .

و مع كل إثثار جلال الدين و بذله كان الحقد و البغض و العناد و إثارة الفتن و المشاكسة و العداوة لشمس تزداد يوما إثر يوم ، و كانت رائحة الدم و القتل تشتم في فضاء قونية . كان جلال الدين مسرورا كثيرا بشمس ، و في رواية الأفلاكي أنه قال في هذا المعنى :

غسلت قلبي من العلوم فظفرت بالمعرفة

و تخلّيت عن ظلمة الوجود فظفرت بالضيء

كنت عاشقا للدفر كالعطار ، كنت أجلس متصدرا مجلس الأدباء و عندما شاهدت جبين الساقى ، سكرت و كسرت الأقلام . و في معمعة مبارزة الحاسدين لشمس في شأن السماع قال مولانا :

إذا كنت منكرا لسماع العاشقين

حشرت يوم القيامة مع الكلاب

وإذا صرت غلاما لشمس التبريزي

فصح : " الحمد لك يا مستعان "

فشمس التبريزي يفتح طريق الشرق

إذا صرت صامتا و عالما للأسرار

يقول الدكتور صاحب الزماني في كتابه " الخط الثالث " (بالفارسية : خط سوم) : الشعر و الموسيقى و السماع في تصوف العشق وسيلة لا هدف ، وسيلة لتلطيف العواطف ، و سبب لتقليل الخشونة و الغلظة و القسوة و معالجة للهجران و مداواة للوحدة . و ما قاله جلال الدين البلخي أفعله في غاية الطاعة ، أسعي و أصرخ لعلي أستطيع أن أوصل أصحابي إلى الجمال و الكمال و الحال .

و يعتقد أ. د. شفيعي كدكني أن أغلب غزليات مولانا ممثل مدهش و موفق للحظات حياته . الشعر عنده تجربة و هذه التجارب مهما تنزعت في الموسيقى و اللغة و التصوير تتمتع بوحدة لأبد من تسميتها وحدة الحال .

ولأن كل غزلية نتاج جيشان صدره اللاواعي ولأن أغلبها ظهر بتأثير الموسيقى و الوجد و الهيجان و السماع كانت وحدة الحال هذه أكثر وضوحا . و في أحلك أدوار تاريخ الصراعات و النزاعات العقدية كان جلال الدين يعد السماع شافيا و إكسيرا للألم البشر و أوجاعهم العميقة ، إذ أنشد :

يا الله أعط المطربين عسلا

و من أجل الضرب و العزف ، أعطهم أيديا من حديد

ولأنهم وقفوا الأيدي و الأقدام للعشق

أعطهم أيضا أيدينا و أقداما حقيقية

و لأنهم ملؤوا آذاننا من الرسالة
 أعطهم مائة عين تبصر حظ الملوك
 ينوحون في العشق نواح الحمام
 فأعطهم من أطفالك برجا حصينا
 و لأنهم أطربوا العقول بمدحك و شكرك
 أعطهم أيضاً شكرا و استحسانا
 وقد سقوا الأكباد من الأنغام
 فاسقهم أنت أيضاً من الكوثر ماء معيناً
 و في غزليات ديوان شمس يكون الإنسان و شمس محل ثناء باعتبار أن الإنسان
 قد وافق في " يوم ألتست " على حمل الأمانة . و في عقيدة العارفين أن الأمانة التي أبت
 السماوات أن يحملنها هي العشق . و عند شهاب الدين السهروردي نكات جميلة و
 مؤثرة و جذابة في شأن العقل و العشق . أنقلها فيا يأتي :

العشق عمل كيميائي يوجب تغير مذاق تراب المعشوق ، ثم ببركة ذلك تبرز كل
 الإمكانيات المتجاوزة لطاقة البشر عند العاشقين كلياً ، حتى إن المعشوق يغدو في
 النهاية كالملك متجلى لأنوار الحق . و للعقل سير في عالم البقاء و له صفة الماء و حيثما
 حل ظهرت الخضرة و الحسن و الرونق . و العقل و العشق أحدهما ضد للأخر ، ولا
 يتحدان و حيثما ألتقت شعلة نار العشق شعاعاً تجمد العقل ، و اشتغلت المطبعة . و
 قد أنشد مولانا :

إِنَّ عَشِقَ الْمُطَلَّقِ يَتَحَقَّقُ مِنَ الْعَيْبِ
 وَهَذَا النَّقَاشُ وَالْجِدَالُ كُلُّهُ يَصْنَعُهُ حَبِيبٌ لَا نَظِيرَ لَهُ
 فَإِنْ شِئْتَ سِمَةً عِشْقًا، وَإِنْ شِئْتَ عَدَمًا، وَإِنْ شِئْتَ وُجُودًا
 لَكِنَّهُ يَصْنَعُ الْأَسَاطِيرَ بِسِحْرِهِ
 وَلَوْ حَلَى وُجُودَهُ لِشُهُودِهِ
 لَفُتِنَ نَفْسَهُ بِجَمَالِهِ وَسَحَرَهُ
 وَقَدْ جَلَى الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ مَعَا أَمَامِ الخَلْقِ
 وَهُوَ يُسَمِّمُهُمَا فِي الظَّاهِرِ لَيْلِي وَالْمَجْنُونُ
 وَيَاقُوتِهِ المَمْتَرِجِ بِالرُّوحِ، يَخْلُقُ مِائَةَ رُوحٍ بِنَفْخَةٍ وَاحِدَةٍ
 وَغَمَزَتِهِ السَّافِكَةَ لِلدِّمَاءِ، تُجْرِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِائَةَ دَمٍ

نعم ، مثلما يقول العارف ، العشق هو براق السالكين و مركب السائرين و كل ما
 يدخره العقل في خمسين عاما يحرقه العشق في لحظة واحدة فيطهر العاشق و يصفيه
 و قد كان شمس التبريزي مداحاً للعشق الحقيقي و محترفاً بأتون العشق و قدم مولانا

لأهل الدنيا أيضًا في زمرة محترقي نار العشق .

obeikandi.com

آخر لقاء

تعد أخرى ليالي اللقاء بين مولانا و شمس ، وأخرى لحظاته في محضر مولانا أكثر الدقائق و اللحظات غما في حياة شمس . و في تلك اللحظات ، كان يجب أن تغدو لذة الكلام و المجالسة و المؤانسة التي هي لوازم عشق مسكر ضحية في معبد إلهة العرفان ، لكي يرتاح المخالفون المنحطون في قونية مؤقتا . مأجورون حاقدون أشداء جبارون في ظلمة الليل ، تسللوا إلى محل الإقامة مولانا و شمس . كان هؤلاء يريدون أن ينفذوا خطتهم الشيطانية في تلك الليلة المصيرية ، بكل ثمن ممكن . وقد غطي الوجه الجهنمي لهؤلاء نقاب الأنانية وحب الجاه و العصبية الناري . وفي النهاية أمر ذوو الصفات الشيطانية أن يصمت صوت العشق المعشوق و يقتل شمس . صارت هذه الجماعة التي تخبط خبط عشواء مطيعة للرسوم و الأعراف و العادات الشائعة في الزمان و المكان و لهذا السبب رأت أن تسدد ضربة منكرة لجسده ، و تقطع القدم المقدم للشيخ التبريزي إربا إربا .

كان شمس من دون مبالاة و بخلوص نية يواصل بكلماته مخاطبة حبيبه :

- يعلم مولانا أن الحقيقة خالدة باقية و أنا منذ زمن بعيد أدركت الحقيقة جيدا و بكلية وجودي ثم جعلتكم تلمسونها على خفائها و كنت أظنكم ممن يحبونها و يشتاقون إليها . و لهذا السبب أمسكت بيدك لنذهب إليها معا ، و في النهاية نتحسس ذاتها في كل ذرات الكائنات . تذكر اللحظات التي قدمت فيها مرتجفا خائفا إلى عالم العرفان العشقي . و قد استدعي جمال تلك اللحظات العظيمة ، و جاذبيتها ، أنك كنت ترتجف من فرط الذوق و الوجد و الشوق أما اليوم فإنك كالطود الراسخ تواجه الحادثات . أريد في المستقبل ألا يحطم ألم الغم و الفراق قلبك و وجودك ، وإرادتك خاصة ، ذلك بأني أونس أن لحظات الفراق قلبك و وجودك وإرادتك خاصة ذلك بأني أونس أن لحظات الفراق و الهجران المؤلمة قد أنت ففكر بالعشق ، واضبط أعصابك و إحساساتك . إنك تعلم أن البعد و مرور الزمان منهكان للعاشق و المعشوق و يتركان

أثرا في أعماق الروح و القلب . عليك أن تسلم بأن العشق يعني الهجران يعني البعد و الناي و الأصل أن طعم العشق حزن و ألم و هجران .

يعلم مولانا أنه مادام شمس موجودا هناك عشق ، و مادام العشق موجودا فإن مولانا أمام باصرتي يتلأأ مثل كوكب الزهرة . سيظل نبض قلبي على الدوام يتردد نغما محببا في فضاء وجودي ، وذلكم أيضاً صدى الاسم الشريف لجلال الدين مولانا . و مع أنني في الظاهر ، لن أراكم مرة أخرى سيكون روحي و قلبي فوق شريط الزمان المرتجف في اختياركم . كلما شئت ، في آناء الليل و أطراف النهار سأكون أمامك ، سأقف عيانا و مشاهدة يقينا ستسمع صوتي المتألم المتهدج إذ قول ملتصقا :

- يا مولانا ، أسعف العاشقين تذكرني .

يعلم مولانا أنني كنت أعيش في قونية معظم الليالي و الأيام في وحدة و خلوة مع مولانا و كنت أنشد في هذه الخلوة الصوفية الشبيهة ببيت نار العشق أن أسلمك ميراث العرفان الإيراني و كانه الكثر القيم ابتغاء أن تهديه بوساطة أشعارك العرفانية المؤثرة إلى قلوب أناس المستقبل على أهل الدنيا أن يعلموا أن العصر عصر معرفة و الزمان زمان علم الإنسان أو معرفة الإنسان نفسه . و إذالم يعرف الإنسان نفسه فلن يعرف الله تعالى . أهل الأعمار الآتية سيدركون من طريق مولانا أن شمساً رند و قد كان من الرنود المحرقين للعالم و يجب أن أقيم بمعايير العشق وقيم العشق لا بمعايير العقل و قيمه .

على مولانا أن يعلم أن الشيخ أوحده الدين الكرمانى أخذني معه في بغداد إلى السماع و أكرم و فادتي ، ثم اصطحبني إلى خلوته و في يوم قال لي :

- ما الرأى في أن تكون معنا ؟

- قلت : شريطة أن تجلس هكذا جهارا ، و من دون رياء و تظاهر أمام المريدين تشرب الخمرة و أنا لا أشرب .

- قال : و لماذا لا تشرب أنت ؟

- قلت : لكي تكون أنت فاسقا حسن الحظ و أكون أنا فاسقا سيئ الحظ .

قال : لا أقدر .

قلت بعد ذلك كلمة ، فانزعج و وضع يده على جبهته ثلاث مرات ثم بعد ذلك اليوم قال أوحده الدين لأصحابه : شمس أعجوبة الزمان .

يعلم مولانا جيدا بأن جماعة في قونية منهم علاء الدين ابنك ، قالوا : إن شمساً مجنون و مخبل و جاهل . و مع كل ما أنا عليه من جنون هزمت كثيراً من العقالين . و مع جهلي وضعت العالمين تحت إبطي . كان في قلبي بشارة كأنني كنت أطيّر لست فوق الأرض حتى وصلت إليكم و ذكرت لكم البشارة و الآن سأطيّر مسرعا في آفاق بعيدة .

بعلم مولانا أنني سهل مثل راحة الكف إذ عرف إنسان طبعي استراح ظاهرا و باطنا . لكنني أسف لأن المرائين في قونية لم يستطيعوا أن يفهموني . لمولانا جمال أخاذ ولي جمال ، ولي قبح أيضاً . وكان مولانا قد رأى جمالي . و في هذه المرة لا أجمال و أفعل القبيح ابتغاء أن يرى الجميع جمالي و قبحي .

كان مولانا هادئا و صامتا ، هدوءا يشبه الهدوء الذي يسبق الطوفان البحر كان خافضا رأسه و يسمع كلام محبوبه بعناية . واصل شمس القول :

- أنا حزين من أن (الناس أهل قونية) الذي يعادونني يحسبون أنهم يسيئون إلى ليس الأمر كذلك ، هذا غلط إنهم يحسنون إلى و يزيدون محبتي لهم . و هذا سر أنني لم أرد حتى هذه اللحظة مع كل هذه التهم و الشماتات و الإيذاءات أن أترك ثري قونية الخصب الشبيه بالعنبر .

على مولانا أن يعلم أن قدرة شمس مع ترك تراب قونية لا تنتقص و سيزداد التعلق بمولانا يوما بعد يوم مثلما يغدو هيجان جلال الدين و ضجيج روحه الذي لا يسكن غازيا لأقطار العالم .

يعلم مولانا أنني مطلع جيدا على كل العلوم الدنيا الفعلية و صاحب نظر و من بين كل العلوم التي تدرس في دور العلم أنا أستاذ لعلم لا يعلم في أي مكان في الدنيا أنا أستاذ العشق و عاشق ممارس و أفخر بمعرفة دقائقه و جماله . و عندما عشقت كنت أحصل على كل شيء على كل المرادات باشتياق كثير . رأيت الدنيا في بحر متلاطم كان صوت واضح بالقدرة السحرية للطبيعة يقول لي :

- هناك حياة في قلب هذا البحر سألت عن اسم البحر فقيل : هو بحر العشق و العارف العاشق يستطيع أن يجد حضوره في مملكة العشق و يحس بصوت تسبيح الوجود في ذرات العالم . وأقسم أنني في المستقبل سأختار زاوية في دمشق أو في بقعة أخرى في العالم و أغلق في وأصمت لا أقول شيئا لأن رسالتي مرة أخرى د وصت لي النهاية و مولانا هو الذي ينبغي أن يكون المدافع عن العرفان العشقي ، و المفسر لمعرفة النفس و علم الإنسان فوق وجه البسيطة . لا شيء بعد الآن يثبت في قلبي و يضطرنني إلى التأوه فبعد الآن ، مولانا هو الذي ينبغي أن يحتضن الناي الحزين و يحرك الأرواح و الاجساد بصوت الناي المحرق نحو الرقص و الدوران . يتحدث عن الهجران و البعد و يبين أمواج جذباته الروحية من طريق كتاب الناي و الرقص .

- على مولانا أن يعلم أن هذه الليلة هي ليلة الوداع ، هذه الليلة ينير القمر بعشق أكثر هذه الليلة كل براعم بساتين العشق الجميلة ستفتح و البلابل فوق كل أشجار رياض الورد ستزقزق و ستقول لأناس الغد الآتي إن العرفان الإيراني سيبقي خالدا و ستبقي أيضاً إيران التي هي قاعدة العرفان الكبيرة ما أضاءت الشمس في السماء و تلاًلأ

القمر و النجوم كالحجر الأصم الراسخ مخلدة في الكائنات .

وإذا كنت في هذه الليلة أتحدث وحدي فما ذلك إلا لأن لدي هيجانا و نشاطا من عشق مولانا فأنا من ذلك في حى و ألم . ومثل المتنبئين أقر بأن العرفان الإيراني بعد ألف سنة سيعم كل جهات الرض كأنوار شمس الذهبية و يضئ ظلمات باطن الإنسان . و إن اسعي مولانا و شمس سيتخطيان الأودية و المدائن و الحدود و يقولان لأهل الأرض : إن عصر عشاق المادة سينتهي لأن المادية و عشق المدة ليس بهما أسس و دعائم في مجتمع أصحاب النظر و العلماء و محبي الله . على مولانا أن يعلم أنني في قابل الأيام ، أجم اللسان لكي أسمع صوت القلب على نحو أفضل :

أدير ظهري إلى الروح ووجهي إلى القلب

و كل ما قاله قلبي أنفذه كما هو

و علي مولانا أن يعلم أنه ليس من دأبي أن أدون الأمور ، لأنني لا أكتب شيئا و بناء على هذا سيبقي من أثاري رسائل أو كتابات قليلة . و في عهدة مولانا أن يحتفظ بأثار مدونة له، و هذا أمر مني لك : عليك بكلامك و بأشعارك ، أن تحرر الناس الذين يخافون الحياة و سمومها . . . و يدري مولانا جلال الدين يقينا أنني لا أخشي القتل فأني خشية للبط من الطوفان . أحس في داخلي باشتياق عشقي إلى الرجوع إلى بستان الملكوت و من فرط المحبة أعد الثواني أما وجودي إلى جانبكم فيعطيني أملا و هيجانا كأني حتى الآن يجب أن أتمتع بمضامين العرفان العشقي الواسعة التي لا ضفاف لها ، و كالمراة كنت متقطفا للخيال من جمالك و أكون الآن و سأكون في المستقبل .

كان المخالفون و الخصوم اللؤماء الذين كانوا ينتقلون في ظلمة الليل كاللصوص متسلحين بخناجر حادة وسامة يقتربون من منزل مولانا . كان أحدهم يقول بصوت مرتفع : سأغرز رأس الخنجر في قلب شمس . و أعلن آخر بتفاخر سأفصل رأسه عن بدنه بالسكين و سأتفرج بسرور على رقص شمس و هيجانه وهو يتخبط في دمه ، أي في أثناء خروج روحه و سأدوس عليه قصدا إلى إماتته . و قال ثالث : بعدد الأيام التي أقامها شمس في قونية سأغرز رأس الخنجر في جسده و في عينيه و في قلبه ، ثم بعد ذلك ولأول مرة في حياتي سأشرب الخمر و أرقص فوق جسده في هذه الليلة سيتخلص أهل قونية من مبتدع جثم وجوده كالكابوس فوق أجساد البلهاء .

رُبَاعِيَّات جَلال الدّين الرّوميّ

ذَلِك الَّذِي يُغَمَّر حَرَمِي السَّرِيّ
الَّذِي ابْتَنَيْتَهُ، مَنْ يَحْرُمُنِي النَّوْمُ ،
مَنْ يَسْحَبُنِي وَيَلْقِينِي أَرْضًا،
طَيْفُهُ هُوَ النَّشْوَةُ الَّتِي أَنْطِقُ بِهَا.

الْقَلْبُ سَالِكٌ . الْمَعْرِفَةُ تَلِينُ :
الْجِسْمُ لَيْسَ مُنْقَرِدًا كَجَيْفَةٍ،
لَكِنَّهُ غَرِيبٌ كَحَبَّةِ مِلْحٍ
لَا تَزَالُ عَلَى طَرْفِ الْجَبَلِ .

النُّورُ الَّذِي تَطَلَّعُهُ لَمْ يَأْتِ مِنْ مِيضَاءَةٍ .
لَمْ تَنْشَأْ قِسْمَاتِكَ مِنْ مِيّ .
لَا تُحَاوِلِ الْإِخْتِبَاءَ بِدَاخِلِ غَضَبِ
الْجَلَاءِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْتَبِي .

طَوَالَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ ، لَحْنٌ ،
نَيَّرَ ، هَادئٌ
غِنَاءٌ مِرْمَارٌ .
لَوْ حَبَا ، نَدْوِي .

النُّومَ هَذَا الْعَامَ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ
رُبَّمَا اللَّيْلُ أَيْضًا يَكْفُفُ عَنِ الْبَحْثِ عَنَّا
حِينَ نَكُونُ عَلَى مِثْلِ هَذَا ،
مَحْجُوبِينَ ، مَا عَدَا فِي الْفَجْرِ .

يُمْتَدُّ هَذَا اللَّيْلُ حَتَّى الْأَبَدِ ،
وَكَأَنَّهُ نَارٌ فِي بَاطِنِ الرَّفِيقِ تَتَّقِدُ .
أَعْرِفُ صَادِقًا أَنَّ هَذَا هُوَ الْهِنَاءُ .
غَافِلًا أَنَّهُ الْأَمْسَى ، وَافْتِقَارَ الْجِرَاءَةِ .

مَنَاخِلُ هِيَ الْأَيَّامُ كَيْ تَصْفِي الرُّوحَ ،
تُكْشِفُ النَّجِسَ ، وَكَذَا
تَبَيَّنَ النُّورُ لثَلَاثَةَ يَوْمٍ
هَاءَهُمْ إِلَى الْكُونِ .

خَرَجَ جَوَادٌ مِنْ مَكَانٍ غَيْرٍ مَعْرُوفٍ
حَمَلْنَا حَيْثُ ذُقْنَا هُنَا الْعِشْقَ
وَ حَتَّى لَمْ نَعُدْ نَحْيَا كَذَلِكَ . هَذَا الطَّعْمُ ،
خَمْرَةٌ ، نَسْتَقِيهِ عَلَى الدَّوَامِ .

بَاكِراً، كَيْ أَسْتَعِدَّ ،
حَلَلْتُ أَرْبِطَةَ السَّاقِ .
الْيَوْمَ ، طَيْبِكَ عِرْفَانَ
عَلَى الرِّيحِ يَنْبُت .

هَذِهِ الْهَيْبَاتِ مِنَ الرَّفِيقِ ، كِسَاءِ
مَنْ الْجِلْدِ وَالْعُرُوقِ ، مُعَلِّمِ بَاطِنِي ،
أُرْتَدِيهَا فَأَصْبَحَ طَرِيقَةَ
وَالشَّيْخِ الْقُطْبِ مُجَاوِرِ .

لَا رَفِيقَ سِوَى الْعِشْقِ .
طَرِيقِ ، دُونَ بَدَأٍ أَوْ نِهَآيَةٍ .
يَدْعُو الرِّفِيقَ هُنَاكَ :
مَا الَّذِي يَمُهَلِكُ حِينَ تَكُونُ الْحَيَاةُ مَحْفُوفَةً بِالْمُخَاطَرِ !

أَدَّعَيْتِ أَنِّي أَثْب
لَأُرَى مَا لَوْ أَمْكَنَ أَنْ أَحْيَا هُنَاكَ .
ذَاتَ يَوْمٍ عَلَيَّ حَقًّا الْوُصُولُ هُنَاكَ ،
وَالْإِلَّا فَإِنَّ الْعَدَمَ سَيُخَلْفُ حَتَّى أَصِلَ .

هَآ هُنَا رَجُلٌ مَهِيْبُ
يَعْرِضُ كَاسًا مِنَ الْحَمْرَةِ ، إِنْ
تَجَلَّى الْقُوَّةُ
فَوْقِي ، كَمَا أَمِلُ ، لَيْسَ لِي !

دَعِ الْعَاشِقَ حَزِينًا ، اِبْلَه ،
ذَاهِلًا. الْعَاقِلُ
سَوْفَ يَبْلَى الْحَوَادِثَ وَ هِيَ تَمْضِي لِأَسْوَأِ
فَدَعِ الْعَاشِقَ فِي كَوْنِهِ .

سُلُوكِ نَبِيٍّ وَ مَظْهَرِهِ ،
أَرُومَتِنَا الْبَاطِنِيَّةِ ، هَذِهِ الْخِصَالُ
لَا مَرَأَةٌ لَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِنَا ،
رَغِمَ أُمَّهَا تَخْتَبِي مِمَّا نُصَيِّرُ عَلَيْهِ .

لَوْ أَنَّ رُوحًا لَدَيْكَ ، احْتَسِبَهَا ،
أَنْخَ لَهَا أَنْ تَعُودَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ،
مَنْ حَيْثُ جِئْنَا. الْآنَ ، آلَافَ مِنَ الْكَلِمَاتِ ،
وَ نَأْبَى أَنْ نُنْصَرِفَ .

لَوْ رَغِبْتَ الْحَيَاةَ ، أَهْجُرُ ضِفَافَكَ ،
كَمَثَلِ جَدُولٍ وَضَبَّعٍ يُبَاشِرُ نَهْرَ " أَمَادَارِيو " بِعَرَضِ فَرَايَسِخَ ،
أَوْ كَأَنْعَامٍ تَزْحَجُ حَوْلَ الرَّحَى
لَتَطُوقَ عَلَيَّ الدُّنَى حِينَ غُرَّةِ .

هَلِ الْحَيَاةُ لَتَفْنِي؟ يَهَبُ اللَّهُ أُخْرَى.
مَجْدُ الْمُطْلَقِ . وَ سَلَّمَ بِالْمُقَيَّدِ .
الْعِشْقُ نَبَعٌ . فَانْغَمِرِ .
كَلَّ قَطْرَةَ تَنْفِصِلَ ، عُمَرُ مُسْتَجِدَّ .

حُسِبْتَ أَنِّي حَكَمْتُ نَفْسِي ،
فَتَأْسَيْتَ عَلَيَّ زَمَانَ قَدْ مَضَى .
أَخِذًا فِي اعْتِبَارِي ، شَيْنًا وَحِيدًا أَعْلَمَهُ
لَسْتُ أَذْرِي مَنْ أَنَا .

هَذَا فُتَاتِ الْقُوتِ لَا يُؤَكَّلُ ،
وَلَا كِسْرَةَ الْحِكْمَةِ هَذِهِ تَكْتَشِفُ بِالنَّظَرِ .
ثُمَّ لَبَّ اللَّبِّ فِي كُلِّ امْرِي
حَتَّى أَنْ جِبْرِيلَ لَا يَعْرِفُ بِالسَّعْيِ لِلْمَعْرِفَةِ .

قِرَاءَةَ الْأَسْفَارِ تَرْوِقُ لَكَ آخِرَ الْعُمُرِ .
لَا تَحْزَنْ لَوْ رَأَيْتَ الصِّغَارَ يَسْتَبِقُونَكَ .
وَلَا تَعْجَلْ . هَلْ أَنْتَ فِي رَهَقٍ تَنْجَهَزُ لِلزَّوْحِ ؟
خَلَّ يَدَيْكَ لِلْأَلْحَانِي .

تَتَلَكَّأُ بَعْضَ اللَّيَالِي حَتَّى الشَّفَقِ ،
كَيْمَا يُؤَدِّنُ الْقَمَرَ لِلشَّمْسِ أَحْيَانًا .
فَكُنْ مِثْلَ قَادُوسٍ مَتَرَعٍ جَرَّ دُرُوبَ الظَّلَامِ
مَنْ بِأَرِهِ ، ثُمَّ يَصْعَدُهَا إِلَى التُّورِ .

أَمْحِ اللَّيْلَةَ مَا هُوَ بَاقٍ .
رَقَدْنَا فِي لَيْلَةٍ سَالِقَةٍ نَصِيحٍ إِلَى قِصَّتِكَ الْوَحِيدَةِ ،
أَنْ كُنْتَ عَاشِقًا . نَرُقُدُ مِنْ حَوْلِكَ ،
مَصْعُوقِينَ كَأَنَّنا الْمُوتَى .

لا كاسات خَمْرُ هُنَا، لَكِنْ خَمْرًا تَدُور .
لا دُخَانَ ، بَلْ لَهَب .
اسْمَعُوا الْأَصْوَاتَ خَافِقَةً ،
بِمَا تَنْخِرُ بِهِ الْأَنْعَام .

لا نروم المدام كَيَّ نسكر،
لا الألات و قَصَفَ الْغِنَاءِ حَتَّى نُنْتَهِيَ مجاذيب.
لا منشدین، لا مرشدين، لا شدو،
بَلْ نَثَبَ حَوْلَ بَعْضِ جامحين تَمَامَ الْجَمُوح .

لا حُبَّ أَفْضَلَ مَن حُبَّ بِدُونِ حَبِيب ،
لَيْسَ أَصْلَحَ مَن عَمَلَ صَالِحَ دُونَ غَايَةِ .
لَوْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَتَخَلَّى عَنِ السُّوءِ وَ الْحِدْقِ فِيهِ ،
فَتِلْكَ هِيَ الْخُدْعَةُ الْمَاكِرَةُ!

يُمْكِنُ لِي أَنْ أَنْقَسِمَ عَنْ أَيِّ وَاحِدٍ ،
عَدَا مَن يَحْتَوِينِي ضَمِينَهُ .
أَيِّ وَاحِدٍ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَهَبَ الْعَطَايَا .
خَصَّ لِي أَحَدًا مَا نِعَا .

رَمَزَ أَجْناسنا فَلَكَ نُوح ،
سَفِينَةَ تَسْتَوِي عَلَى الْجُودِيِّ .
نَبْتَةَ تَطْفِرُ عَمِيقًا بِمَرَكِزِ تِلْكَ الْمِيَاهِ .
لَيْسَ لَهَا مَن مَوْقِعَ أَوْ نَمَطِ .

مَا لِهَذَا النَّهَارِ بِشَمْسِينَ فِي السَّمَاءِ ؟
لَيْسَ كَمِثْلِهِ نَهَارٌ ،
صَوْتٌ مَهِيْبٌ يَرْفُّ إِلَى الْكَوْكَبِ :
هَارِكُمْ ، الْآنَ ، كَيْنُونَاتٌ مَفْتُونَةٌ !

كَاسُ الْمَدَامَةِ فِي يَدَيَّ ، أُرْتَبِي ،
أَشْبَبَ عَلَى قَدَمِي مَشْدُوها مَن جَدِيدٍ ، وَ خَبْلَانِ ،
ثُمَّ أَخْمَدِي فِي تَدَاعٍ ، لَيْسَ بَعْدَ هَذِهِ الْمُنْزَلَةِ ،
بَلْ هُنَا ، لَا أزال ، أَقِفُ ، الْقَوِيَّ الرَّصِينِ .

يَأْتِي الرَّفِيقُ مُصَفِّقًا ، وَهُوَ فِي أَنْ
جَلِيٍّ وَقَاتِمٍ ، دُونَ غَايَاتِ بِلَا خَشْيَةٍ .
أَنَا أَشْبَهَهُ أَنَا
وَاحِدَنَا يُشْبِهُ الْآخَرَ .

الرَّفِيقُ يَهْلُ عَلَى جَسَدِي
بَاحِثًا عَن مَرَكَزِهِ ، حِينَ يَعْجِزُ
أَنْ يَجِدَهُ ، يَسْتَلُّ نَصْلًا
نَافِذًا فِي أَيِّ مَوْقِعٍ .

مَا لِهَذَا اللَّيْلِ دُونَ نُخُومٍ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَهْمَهَا .
لَيْسَ لَيْلًا بَلْ زَفَافٌ ،
رُؤُوجَانِ فِي مَخْدَعٍ يَخْفَتَانِ عَلَى انْسِجَامِ بِالْكَلِمَاتِ ذَاتِهَا .
تُدْلِي الْعَتَمَةُ سِتْرًا وَاضِحًا نَحْوَ ذَلِكَ .

هَذَا اللَّيْلَ مَا هِيَ اللَّيْلُ ،
طَالِبٌ وَ الطَّلَبُ يَعُوزُ
سَمَاحَةً وَ عَطِيَّةً ، تَلَا شَيْءٌ
جِيئَةً وَ ذُهُوبًا : مَعَ اللَّهِ !

لَيْلٌ مَفْعَمٌ بِكَلَامٍ مُوجِعٍ ،
أَشْرَ كَوَامِي عَائِقٍ : كَلَّ شَيْءٌ
عَلَيْكَ أَنْ تَرْتَكِبُهُ بَعِشْقٍ أَوْ بِدُونِ .
هَذَا اللَّيْلُ يُفْنِي ، وَ مَنْ تَمَّ مَا نَرْتَكِبُ بَعْدَهُ .

أَطُوفُ إِلَى مَرْقَدِكَ اللَّيْلَةَ ،
أَدُورُ أَدُورَ وَ حَتَّى الصَّبَّاحِ
نَسِيمٌ مِّنْ هَوَاءٍ يَبُوحُ ، الْآنَ ،
وَ يَعْرِضُ رَفِيقِي عَلَى مِثْلِ طَاسٍ جُمُجَمَةٍ لِغَيْرِ مُسَيِّئٍ .

مُمْتَلِئِي بِكَ ،
جَلْدًا ، دَمًا ، وَ عِظَامًا ، وَ عَقْلًا وَ زُورًا .
لَا مَكَانَ لِنَقْصِ رَجَاءٍ ، أَوْ لِلرَّجَاءِ .
لَيْسَ بِهَذَا الْوُجُودِ إِلَّاكَ .

لَا تَغْفُلِي عَنِ الْعِزْقِ ، وَ بِالْهَيْكَلِ اعْتَرِّي ،
فَالْجِسْمُ لَهُ دُرُوبٌ بَاطِنِيَّةٌ ، الْحَوَاسُّ الْخَمْسُ .
تَنْصَدِعُ ، وَ الرَّفِيقُ مُنْكَشِفٌ .
أَفْلِقِي الرَّفِيقَ ، تَحِلِّي بِهِ كَلًّا - أَحَدٌ .

وَاصِلَ التَّجْوَالِ رَغِمَ أَنَّهُ لَا مَكَانَ لِكَيْ نَصِلَ .
لَا تَجْرِبَ أَنْ تَرُومَ مَرَامِي الْأُبْعَادِ .
لَيْسَ هَذَا لِأَدَمِيٍّ . فَارْحَلْ إِلَى بَاطِنِكَ ،
وَلَا تَمَلْ لِطَرِيقِ الْخَوْفِ يَجْرِيكَ تَمْضِي عَلَيْهِ .

إِذْرِعْ إِلَى الْبَيْتِ .
تَقَلُّبُ كَأَرْضِ سَيَّارَةٍ أَوْ قَمَرٍ ،
مَدَارُهُمَا كَمَا يَهْوِيَانِ .
أَيُّمَا جُوبَانٍ نَابِعٍ عَنِ مَحْوَرِ .

تَبَسَّمَ الْوَرْدَةَ مِنْ طَوْلِ تَحْدِيقِي ،
أَنْشِدَاهِي دَوَامًا لَمَّا تَعْنِيهِ وَرِدَّةٌ ،
وَمَنْ يَمْلِكُ الْوَرْدَةَ ،
أَيًّا مِثْلَ ذَلِكَ يُضْمِرُ .

يَدَانِ ، عَيْنَانِ ، قَدَمَانِ ، لَا بَدَّ أَنْ ذَلِكَ خَيْرٌ ،
بَلْ إِنَّهُ لَا شِقَاقَ مَا بَيْنَ الرَّفِيقِ وَ عَشَقِكَ .
أَيُّ أَنْشَعَابِ هُنَاكَ يُسَنَّ فُرُوقًا لَا تَفِي
كَ " يَهُودِي " ، " مَسِيحِي " ، وَ " مُسْلِمِ " .

أَرَاكَ تُبْرِنِي .
لَا أَرَاكَ ، أَحْسَنَ بِالْجُدْرَانِ مُنْطَبِقَةَ .
فَلَا أَبْتَعِي لِلسَّوَى
غَيْبَةَ مِثْلَ هَنَدِي .

مَا الَّذِي يَجْعَلُكَ حَيًّا بَدُونِي؟
كَيْفَ يُمَكِّنُكَ الشِّكَايَةُ؟
كَيْفَ أَنْتَ تَدْرِي بِدَاتِكَ؟
كَيْفَ تُبْصِرُ؟

ضَالَّ عِنْدَ مَنْ لَا يَرْوَمُ الْعِنَايَةَ ،
جَسَسْتُ الْأَلَمَ ، رَغِمَ أَنَّهُ مُحْتَفَى بِهِ
مَنْ قُبِلَ الْأَخْرَ طَالَبِنِي بِكَلِيَّتِي . وَ لَوْ أَلَيَّ
الآن ، كَبَاتِلِ أُمْسَكَتَهُ ، فَالطَّلَبَ عَزِيز .

يَخْتَبِي عِشْقِي عَلَى الدَّرْبِ حَيْثُ يَسِيرُ لِصِّ الْعِشْقِ
فَيَقْبِضُ عَلَيْهِ بِأَسْنَانِي مِنَ الشَّعْرِ
مَنْ أَنْتَ؟ لِصِّ الْعِشْقِ يَسْتَخْبِرُ ، بَيْنَنَا كُنْتَ
أَفْتَحَ فِيَّ لِأَبُوحِ ، تَقَلَّتْ إِلَى الْبَادِيَةِ .

أَنْعَمْتُ فِكْرِي فِيكَ ثُمَّ رَمَيْتُ
بِكَاسِ الْمَدَامِ تُجَاهَ الْجِدَارِ .
الآن مَا أَنَا سَكْرَانٌ أَوْ فِي إِفَاقَةٍ ،
أَتَبُّ لِأَعْلَى وَ أَدْنَى ، فَكُلِّي مَخْبِلِ .

عَيُونِنَا مَا تَرَكَ ،
لَكِنْ عُدْرَانُنَا : فَالْعُيُونُ تَرَى مُظْهِرًا ،
لَا حَقِيقَةَ ، وَلَوْ أَنَّ لَطِيفَةَ هَذِهِ الْمُنْزَلَةِ
تُرْجَى دَوَامًا .

بَعْدَ أَنْ تَمْضِي مَعِي لَيْلًا بِطُولِهِ ،
تَسْأَلُنِي كَيْفَ أَحْيَا هُنَا مِنْ دُونِ أَنْ تُوجَدَ .
خَزْيَانُ ، كَأَنَّ سَمَكَةَ مَسْعُورَةَ تَتَنَفَّسُ
رَمَلًا ظَامِنًا . بَاحِ الْبُكَاءِ عَلَيْكَ : لَكِنَّكَ اخْتَرْتِ .

إِنْ تَلَّمَا هُنَاكَ مَا بَيْنَ صَوْتِ وَ الْوُجُودِ ،
طَرِيقًا حَيْثُ تَدْفُقُ الْأَنْبَاءُ .
يُنْفَتِحُ الثُّلَمُ فِي سَكِينَةٍ مُنْضَبِطَةٍ .
بِكَلَامِ طَائِفٍ ، يَنْطَبِقُ .

يَخْتَمِرُ النَّهَارُ . الْعُيُونُ تَخْضَلُ بِغَمَامٍ .
الشَّجَرُ يَرْجِفُهُ رِيحٌ فَيَضْحَكُ ، كَأَنَّ جَلْبَةَ أَطْفَالٍ لَعُوبًا
تَقَعُ ، بِسَبَبِ مَنْ امْهَاتُ تَذْمُرُنَ
وَأَبَاءُ يَبْسُطُونَ يَدًا لِلتَّلْمَسِ .

لَقَدْ بَحْتُ بِكَيْنُونَتِكَ . أَنَا هُوَ أَنَا .
أَفْعَالِكَ فِي رَأْسِي ، رَأْسِي هُنَا فِي يَدِي
بِشَيْءٍ يَدُورُ لِلْبَاطِنِ . دُونَ نَعْتِ أَنَا
فَلِمَاذَا الطَّوَّافِ بِشَكْلِ الْكَمَالِ .

لَمْ كَلِّ هَذَا الْأَسَى وَ الشُّحُوبِ ؟
لَا تَنْظُرْ عَلَيَّ .
كَمَثَلِ وَجْهِ عَاكِسِ نُورِ آخَرَ ،
الْقَمَرِ نَبَعِ الْأَلَمِ .

أَيْنَهُ مَنْ يَرَاكَ وَلَا يَضْحَكَ بِصُخْبِ ،
أَوْ يَرْتَبِي سَاكِنًا ، أَوْ يَنْفَجِرُ كَالْحَطِيمِ ،
فَهُوَ الْعَدَمُ لَيْسَ أَكْثَرَ مِنْ مَلَاطٍ
وَ حَجَرٍ ، فِي مَسْجِنِهِ .

ادْرَجْ عَلَى الْأَرْضِ عَارِي الْقَدَمَيْنِ وَ أَذْهَلْهَا بِالِدَوَارِ ،
فَإِي حُبْلَى بِالْمَرْحِ وَ الْبِرَاعِمِ .
رَبِيعُ مِصْطَخِبٍ يَرْتَبِي نَحْوَ النُّجُومِ .
وَ الْقَمَرُ يُنْشِدُهُ مِمَّا يَدُورُ .

كُلُّهَا لَكَ ، سَمَاءُ اللَّيْلِ أَعْلَى الْقَمَرِ ،
فَامْتَحِنِ السَّيْرَ عَلَى أَرْضٍ رَطِيبَةٍ .
الْمُنْشِدُونَ مَهِيْمُونَ فِي أَفْدَسِ الْحَانَاتِ ،
السَّهَرُ حَتَّى الشَّفَقِ . وَجَرَبَ أَلَا تَنَامُ .

مُنْعَطَفٌ بِأَطْنَبِي بِنَا
يَجْعَلُ الْكُونَ يَدُوحُ .
رَأْسُهُ غَيْرَ مُدْرِكَةَ لِلْقَدَمِ ، وَلَا الْقَدَمَ لِلرَّأْسِ .
لَا أَحَدَ مَبَالٍ . كَلَّ إِلَى الدَّوْرَانِ .

هَذَا الْعَزْمُ يَأْتِي الْحَبَّ كَيْ يَرْتَاحَ فِي ،
كَائِنَاتٍ عِدَّةٍ فِي كَائِنٍ مُتَوَحِّدٍ .
بِحَبَّةِ قَمْحٍ وَاحِدَةٍ أَلْفِ حُزْمَةٍ أَكْدَاسًا .
فِي سَمِّ الْحَيَّاطِ ، لَيْلِ دَوَارٍ بِالنُّجُومِ .

بسألة: ريم في مُوازاة كُومة اسودّ .
بُنيان صمّد فَوْق صخر أديم ، و يصمّد ،
هل تظنّ بحبيّ سوف يتقوض
إلى الأرض، عندهما تتخلى؟

من جديد ، أنا من دوني ذاتي .
نجوت، لكيّ هنا قد رجعت على بحر ، القدّمان في الريح
رأساً على عقب ، كوليّ حين يفتح عينيه بعد الصلّاة :
الخلوة ، السّمّاط ، وُجوه رفيقة .

أصبح ، لو تمكّن منك الوفاء .
الوحدانيّة مع الرفيق تعني أنّه لا تكون بمن تكون ،
تكون محلّ السكينة : منزلة : رؤيّة
و اللّغة حشاها الشهود .

لا تسدّ نصحاً كريماً إليّ .
لقد دُقت من شرّ الحادّيات .
و احتجزتني في مكان غير معرّوف ، مُصَفِّداً مكموماً،
ليس لها أن تعقل ما حُرّت من عشق جديد .

في مسلخ العشق ، يُقتلون الأفضّل فحسب ،
لا الواهين ولا الشاين .
فلا تُولي الأذبار من مئّته هكذا .
من لم يمّت بالعشق فهو جيّفة .

لَيْسَتْ الْكَيْنُونَةَ فِيمَا تَبْدُو عَلَيْهِ ،
وَلَا عَدَمَ الْكَيْنُونَةَ .
وُجُودَ الْعَالِمِ
مَا يَكُونُ فِي الْعَالِمِ .

عِنْدَمَا يَنْبَسِطُ عَشْقُكَ إِلَى اللَّبِّ ،
عِرَامَةُ الْأَرْضِ وَ غَارَاتِ تَبَزَّرَ عَلَى الْهَوَاءِ .
يَصِيرُ الْكُونُ رُوحِيَا ، وَاحِدًا وَبَسِيطًا ،
الْعِشْقُ زَاجُ الرُّوحِ .

مَنْ رَأَى مَرَّةً مِثْلَ هَذِي النَّدَامَى ؟
دِنَانٌ تَنْحَطُّمُ فَالْأَرْضِ مَنْتَقَعَةً
وَكَذَا السَّقِيفَةَ قَدْ رَصَعَتْ بِالنُّجُومِ .
فَتَعَجَّبَ ، الْكَاسُ مَرَعَةً فِي يَمِينِي .

لَا عَاقِلٌ مُنْكَرٌ لِرُجُودِكَ ،
لَكِنْ أَيُّ امْرِئٍ لَا يُسَلِّمُ بِذَلِكَ فِي التَّوِ .
لَيْسَ مَكَانًا مَالًا تَكُونُ بِهِ ،
وَلَا حَتَّى مَكَانًا عِنْدَمَا يَشْهَدُونَكَ .

ذَاتَ يَوْمٍ تَخْلِينِي مَنِ ذَاتِي كَلْبِيَّةً ،
فَأَسْتَطِيعُ مَالًا تَسْتَطِيعُهُ الْمَلَائِكَةُ .
إِنْ هَدَبِكَ سَوْفَ يُنْظَمُ فَوْقَ حَدْيِي
الْقَصِيدِ الَّتِي لَيْسَتْ بِمَقْدُورِ أَحَدٍ

في داخل الماء ، ساقية تدور .
نجم يلف مع القمر .
على بحر هذا الليل نحيًا ذاهلين ،
ما هذه الأنوار ؟

عليّ نبع الندى ، أحد يشذب في قصبة ،
لتبدو نايًا. ترشف القصبَة الروح كالراح ،
ترشف أكثر ، كي تتمرس. الآن ، سكرى ،
فتُسرّع في أنغام علوية رائقة .

في البدء غنيت ثم تلوث القصيد ،
فأسهرت المجاورين .
الآن عاصفة أشد ، و أكثر طمأنينة .
عندما النار تصطلي ، يتلاشى الدخان .

حين تقيد ، أنعتق .
لو توبخ ، أحتفي .
نصلك المشقوق عشيق .
أنيك أغنية .

أنصت إلى الأطياف داخل القصائد .
دعها لتأخذك حيث تريد .
اتبع تلك الإشارات الباطنية ،
ولا تخلف مقدمة منطوية .

يَخْشَى السُّكَارَى الْعَسَسَ ،
لَكِنَّ الْعَسَسَ سُّكَارَى بِأَكْثَرِ مِمَّا يَنْبَغِي .
أُنَاسٌ هَذِهِ الْبَلَدَةَ مَشْغُوفُونَ بِهِمْ
وَكُنْهُمْ أَحْجَارٌ شَطْرُنَجٍ مُمَيَّرَةٌ .

يَرْجِعُ اللَّيْلُ حَيْثُ أَتَى .
كَلِمَةٌ عَائِدٌ أَحْيَانًا .
يَا لَيْلُ ، عِنْدَ وُصُولِكَ ،
إِحْكُ لَهُمْ كُمْ أَحْبُكَ .

يَعْدُو اللَّيْلُ فَيَنْعَسُ النَّاسُ مِثْلَ السَّمَكِ
فِي مِيَاهِ سُودٍ . بَعْدَهُ نَهَارٌ .
بَعْضُ النَّاسِ تَلْقُطُ آلَاتِهَا .
يُصْبِحُ الْأَخْرُونَ الصَّنِيعَ ذَاتَهُ .

فِي دَاخِلِنَا يَصْدَحُ صَوْتُ
بِأَبْيَاتٍ مِّنْ "خُسْرُو" بِمَقْطَعٍ مِّنْ "شِيرِينَ" .
صَوْتُ هَادِيٍّ يَسْتَثِيرُنَا .
وَ أَحْيَانًا كَلِمَاتٌ مُثِيرَةٌ تَجْعَلُنَا هَادِيِّينَ .

تَنْشُرُ رِيحُ الصُّبْحِ فَوْحَهَا النَّضِيرَ .
لَا بُدَّ نَهْضَ كَيْ نَنْشِقَهُ ،
تِلْكَ الرِّيحُ تَجْعَلُنَا نَعِيشَ .
فَتَنْسَمُ ، قُبْلَ أَنْ تَنْقُضِي .

جِسْمِي صَغِيرٌ حَتَّى أَنْ تَرَاهُ بِجَهْدٍ .
كَيْفَ يُمَكِّنُ لِهَذَا الْحَبِّ الْكَبِيرِ أَنْ يُوجَدَ بِي ؟
أَنْظُرْ إِلَى عَيْنَيْكَ . صَغِيرَتَانِ ،
وَيُمْكِنُهُمَا أَنْ يَبْصُرَا أَشْيَاءَ هَائِلَةً .

أَيْنَ هِيَ الْقَدَمُ الْجَدِيدَةُ بِالتَّزُّهُ فِي حَدِيقَةٍ ،
أَوِ الْعَيْنُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ التَّطَلُّعَ فِي الشَّجَرِ ؟
أَرْنِي رَجُلًا عَازِمًا
أَنْ يَنْقُذَ فِي النَّارِ .

تَتَكَلَّمُ فَأَبْدَأُ الضَّحِكَ .
حَيْفَ تَسْتَعِيدُ الْحَيَاةَ .
إِنِّي أَحَاوِلُ أَنْ أَتَحَدَّثَ الْيَوْمَ مِنْ دُونِ تَأْتَاةٍ ،
رَغِمَ أُنِّي فِي الْخُسْرَانِ وَ أَهْرَفِ .

لَا أَحَدٌ قَانِطٌ مِنْكَ .
يَنْشُرُ النُّورَ مَنْ يَتَلَقَّى نُورًا .
لَيْسَ لِلْأَسْرَارِ أَنْ تَدَاعَ
مِمَّنْ يُؤْتَمَنُ .

مَنْ قَائِلٌ إِنْ كَيْنُونَةَ السَّرْمَدِيِّ لَا تُوجَدُ ؟
مَنْ قَائِلٌ إِنْ شَمْسًا قَدْ انْطَفَتْ ؟
ذَلِكَ يَصْعَدُ إِلَى السَّطْحِ ، فَيُحَكِّمُ غَلْقَ عَيْنَيْهِ ،
ثُمَّ يَقُولُ : لَسْتُ أَرَى .

حِينَ نَحْسُ فَاهِكْ مُطْلَقًا، وَرَحِيمًا،
وَي كَأَنَّهُ قَمَرٌ فِي السَّمَاءِ ،
حِينَ تُحْسِنُ بِتِلْكَ الرَّحَابَةَ مِّنْ بَاطِنُكَ،
سَوْفَ تَجِدُ " شَمْسُ تَبْرِيزِ " كَذَلِكَ .

يَأْقُوتَةَ بِمِذَاقِ لَدِيدِ ،
مَشْرُوبَةَ نُورِ حَمْرَةَ . يُمَكِّنُنِي أَنْ أَبُوحَ
بِاسْمِ هَذِهِ الْكَرْمَةِ ، لَكِنْ لَمْ ؟
فَأَنَا خَادِمُ حَافِظِ الْأَسْرَارِ .

مُوثِقِينَ بِحُزْمِ ، سِلْسِلَةَ أُخْرَى طَوْقَتَنَا.
قَدْ خَسَرْنَا، لَكِنْ كَارِثَةٌ هُنَا.
قِيدَتْنَا فِي جَدَائِلِ شَعْرِكَ، نَشْعُرُ
بِحَبْلِ حَوْلِ رَقَبَتِنَا.

مَنْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَا يَرَى تَقْرِيْبًا
مَنْ قُبُلَ الَّذِينَ يَدُونَ . رَجُلٌ أَوْ امْرَأَةٌ
يَتَعَرَّفُ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَبْدَأُ رِحْلَتَهُ . السَّيَّوَى
يَتَقَوْلُونَ بِأَنَّهُ ، أَوْ أَنَّهَا ، خَاسِرٌ لَوْلَانَهُ.

أَرْغَبُ فِي مُنْشِدٍ لَا يُغَادِرُ رَفِيقَهُ .
لَوْ أَنَّهُ يَتَمَكَّنُ ، ثُمَّ يَطَّلُ عَلَى دَوَامِ الْعِشْقِ ،
صَارَ الْغَالِبُ ، أَوْ لَا يَكُونُ .
فَهَبْنَا مَنْشِدِينَ عَلَى مِثْلِ هَذَا .

الشَّمْسُ حُبٌّ ، و الْحَبِيبُ ،
ذَرَّةٌ مِّنْ غُبَارِ تَدُورِ حَوْلِ الشَّمْسِ .
رِيحَ الرَّبِيعِ هَفْهَافَةٌ كَيَّ تَرْتَجِّحُ
أَيُّ غُصْنٍ غَيْرِ ذَاوِ .

لَا تَدْعُ حَلْقِكَ يَضِيقُ
بِمَخَافَةِ اللَّهِ . تَرشِفُ أَنْفَاسَنَا
طَوَالَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ . قُبُلُ الْمَوْتِ
أَغْلَقَ قَمِيكَ .

لَوْ تَخَلَّيْتُ عَنِ عَقْلِ ،
لَأَمَكَّنِي تَسْطِيرُ مِائَةِ رِوَايَةِ لَكَ .
لَيْسَ مِّنْ سَائِلٍ مِّثْلِ دَمْعَةٍ
هَمَّتْ مِّنْ مُقَلَّةِ لِحَبِيبِ .

أَجَلَ مَنِ يُحَاوِلُونَ
الْخَلَاصَ بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ أَيِّمَا رُقُودِ ،
يَخْلُونُ فِي الدَّاتِ
جَاعِلِينَ هُنَاكَ كَيْنُونَةَ الصَّفَاءِ فَحَسَبِ .

يَعْلَمُ اللَّهُ ، وَ لَيْسَ أَنَا ،
مِمَّ أَضْحَكَ .
سُؤْيَقَةُ الرَّهْرَةِ
تَنْدَفِعُ عِنْدَمَا الْهَوَاءُ يَنْدَفِعُ .

تَوَصَّلْتُ إِلَى قِطْعَةٍ مِّنْ حَشَبٍ . فَاسْتَحَالَتْ إِلَى عَوْدٍ .
ارْتَبَكْتَ دَنَاءَةً . فَانْتَهَيْتَ إِلَى مَا يُفِيدُ . أَقُولُ
لَيْسَ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتْرَحَلَ خَلَّلَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ .
ثُمَّ أُولَى وَجْهِي ، فَتَحْصُلْ أَشْيَاءَ قَرِيدَةٍ .

مَا مَن سَمَّكَ كَثِيرٍ فِي غَدِيرِ رَشِيقٍ ،
لَيْسَ مَن مَاءٍ عَمِيمٍ كَيْ يَعِيشَ بِهِ سَمَّكَ .
انمحاء المَكَانِ ضَبِيلِ عَلَى الْعُشَّاقِ ،
لَيْسَ لِلْعُشَّاقِ أَنْ يَرَوْا الْكَثِيرَ بِهَذِهِ الدُّنْيَا

بِدْرَةِ الْمُجْدُوبِ فِي أَيِّ مَكَانٍ عَلَى الْأَرْضِ مَطْمُورَةٌ
تَفِيءُ هَذَا الْحَصَادِ الَّذِي غَرَسَنَاهُ .
لَحْنُ قَصَبَةِ نَائِي نَسْمَعُهُ بِكُلِّ نَاحِيَةٍ
سَارِيًّا فِي الرِّيحِ كَمَثَلِ بُرْهَانَ عَلَى مَا عَشَقْنَاهُ

أَقُولُ ، هَاتِيهَا الصَّهْبَاءُ صَرَفًا لِتَجْعَلَنِي كَالخَلِيعِ الْهَيْتِكِ .
تَقُولُ ، عَاصِفَةٌ هُنَاكَ تَحِينُ !
وَأَنَا أَقُولُ ، دَعْنَا إِذْنَ نَحْتَسِي ،
ثُمَّ نَجْلِسُ هَا هُنَا مِثْلَ أَزْلَامِ نُرَاقِبِ .

إِقْتِيدِ كُلَّ الْمُرْسَلِينَ
لِكَيْ يَلْبِثُوا فِي رُقْفَةِ الْعُشَّاقِ .
نَسْتَدْفِي مِّنَ النَّارِ ، لِكَيْتَمَّهَا النَّارُ
تَنْقُضِي فِي طَيُوفِ الرَّمَادِ .

عُرِسَتْ وَرَدَا، لِكِنَّهُ مَن دُونِكَ اسْتَحَالَ شَوْكًَا.
رَقَدَتْ بَيْضًا لِطَاوُوسٍ . فَخَوَى ثَعَابِينَ .
عَزَقَتْ عَلَى قِيثَارَةٍ، فَسَدَّتِ الْأَلْحَانَ .
ارْتَقَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّامِنَةِ . فَكَانَتْ سُفْلِي جَهَنَّمَ .

أَقُولُ مَا فِي خَاطِرِي لِأَبْدِ أَنْ أَفْعَلُهُ . تَقُولُ مِتِّ .
أَقُولُ إِنْ زَيْتٍ قَنَدِيلِي قَدْ صَارَ مَاءً . تَقُولُ مِتِّ .
أَقُولُ إِنِّي كَفَرَاشَةَ أَحْتَرِقُ
إِلَى شَمْعَةٍ وَجْهِكَ . فَتَقُولُ مِتِّ .

عَيْنَانِ . تَقُولُ عَرَضُهُمَا لِلنَّظَرِ .
كَبِدٍ . تَقُولُ أُدْرَةِ فِي عَمَلٍ .
أَنُوهُ بُلْبُ الْقَلْبِ . تَسْتَخْبِرُ مَاذَا هُنَاكَ ؟
حُبِّ مَصُونٍ إِلَيْكَ . - خَلِّهِ لَكَ .

تَجْرِبُ الْأَسْرَارَ أَنْ تَطَّرِقَ آذَانَنَا . لَا تَجِلِّ دُونَهَا .
لَا تُخَيِّ وَجْهِكَ . لَا تَدْعُنَا
دُونَ أَنْعَامٍ أَوْ مُدَامٍ . لَا تَدْعُنَا
نَسْتَرُوحُ نَفْسًا وَ لَوْ مَرَّةً دُونَ أَنْ نَكُونَ حَيْثُ تَكُونُ .

تَحِيرُنَا كَمَا هِيَ عَادَةُ الْعُشَّاقِ .
تَجُولُ عَوْدَةً وَ حُرُوجًا مَا بَيْنَ الْارْتِبَاكَاتِ ،
فِي غَيْرِ كُلْفَةٍ ، لَكِنْ أَيِّ امْرِيٍّ يَتَلَمَسُ أَنْ يَتَّبِعُكَ
سَيَكُونُ حَيْرَانَ .

كَلَّ يَوْمَ، هَذَا الْأَلَمِ . إِمَّا أَنْتَ مُسْتَعْنِ .
أَوْ أَنَّكَ لَا تَدْرِي الْحَبَّ .
أَدُونَ حِكَايَةَ حَيِّي .
تَشْهَدُ الْمُكْتُوبَ ، لَكِنَّكَ لَا تَقْرُؤُهُ .

طُلُوعِ الشَّمْسِ يَهَبُ شَمِيمِ خَمْرٍ صَافٍ .
لَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ ثَمَلٍ .
فَأَصْحِ إِلَى بَوَّاحِ قَيْثَارَةٍ دُونَمَا أَوْتَارٍ .
وَقِفْ لِتُرَاقِبِ مَنْ فَوْقَ هَذَا الْحَرِيقِ .

تَسْعَى لِتَقْتَرِبَ ، رَغِمَ أَنَّكَ لَمْ تَبْتَعِدِ .
يَنْسَابُ مَاءً ، وَ الْعَدِيرِ يَطْلُ مَبْتَرِدَا .
أَنْتَ حَافِظَةٌ مِنَ الْمِسْكِ . نَحْنُ الْأَرْجِ .
هَلْ اعْتَزَلِ الْمِسْكَ فِي مَرَّةٍ طَيِّبَةٍ ؟

هامسا بِالْفَجْرِ :
" لَا تَكْتُمُ عَنِّي مَا أَنْتَ الْعَلِيمُ بِهِ "
جَوَابَ : عَلَيْكَ أَنْ تَعِيَ بَعْضَ حَاجَاتِ
وَلَكِنْ لَا تُبَحِّ . وَاسْكُنِ .

رَأَيْتُكَ مَا بَيْنَ جَمْعِ فِي لَيْلَةٍ سَالِفَةٍ ،
وَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ ضِمْتِكَ بِإِنْشِرَاحٍ إِلَى أَضْلَعِي ،
فَأَدْنَيْتَ مِنْ شَفَقَتِي إِلَى وَجَنَّتِكَ ،
رَاعِمًا أَنِّي أَتَكَلَّمُ فِي خَاصَّةٍ .

لَوْ أَنِّي أَحْتَجِزُكَ قَرِيبًا عَلَى مِثْلِ عَوْدٍ
فَيُمْكِنُ أَنْ نَتَشَكَّى مِنْ غَرَامٍ .
تَفْضُلُ لَوْ كُنْتُ تَرْمِي بِأَحْجَارٍ عَلَى مِرْآةٍ ؟
أَنَا مِرَاتُكَ ، هَذِي هِيَ الْأَحْجَارُ .

مَنْ لَا يَتَشَعَّشَعُ لِرُؤْيَاكَ
فَارْغٌ وَ مُخَدَّرٌ مِثْلَ طَبْلَةٍ خَزَنْتَ بَعِيدًا .
مَنْ لَا يُنْتَعَمُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَ كَلِمَاتِ الْمُرْسَلِينَ
يَمَكُثُ فَضْلِهِ عَنِ هَؤُلَاءِ .

نَشْرُ امْرُؤٍ جِنَاحِينَا . جَعَلَ امْرُؤُ
السَّامِ وَ الضَّرَّ يَنْزُويَانِ .
امْرُؤُ أَفْعِمِ الطَّاسَ بِمَحَاذَاتِنَا :
نَتَذُوقُ الْمَجَالِي فَحَسْبُ .

دَاخِلَ الْحِكْمَةِ ، انْدِفَاقَ لَامِعٍ ، قُوَّةَ مَحْلُولَةٍ .
دَاخِلَ الْعِشْقِ ، رَفِيقٍ .
وَاحِدَ مَصْدَرِ النَّامُوسِ ، وَ الْأَخْرَمَاءِ قِرَاحٍ .
فَاخْرُجْ إِلَى التَّجَلِّيَّاتِ حَيْثُمَا لَا بَدَّ أَنْ تَخْرُجَ .

مَدَدَ الْعَالِمِ الْمَسِيحِ ،
وَ كَلَّ قَصْدَ كَذَلِكَ . لَا مَكَانَ هُنَاكَ
لِأَجْلِ الرِّثَاءِ . لَمْ تُدْمِنْ شَرَابًا لِأَدْعَا لَا سَتَشْفَاءُ
بَيْنَنَا الْمَاءُ الْعَذْبُ مَطْرُوحٌ أَي نَاحِيَةٍ ؟

ذَاتِي حَزُونٌ غَالِبًا سَكْرِي، وَ فِظْلَةٌ.
غَرَامِي: لَطِيفُ الْحَسِّ، حَائِرٌ، وَرْهُوقٌ.
حُذِرِ سَلَاتِ رَجَاءٍ مِّنْ أَحَدٍ إِلَىٰ آخَرَ،
جَوَابٌ وَ مِّنْ نَّمُ رَدِّ مُقَابِلٍ .

لَنْ أَفْتِشَ عَن مَّكَانٍ آخَرَ كَيْ أَحْيَا بِهِ ،
لَمْ أُعِدِّ خَجْلَانٍ مِّنْ كَيْفٍ أُعْشِقُ . عَيْنَايَ تَنْفَتْحَانِ .
أَنْتَ مَوْجُودٌ بِكُلِّ مَكَانٍ : غَسُولُ الْعَيْنِ : طَبٌّ ،
لِتَمْدِيدِ الْبَصَرِ وَ لِقُدْرَةِ الدَّوْرَانِ .

يَبْحُرُ الْحَبَّ قَادِمًا وَ أَنَا أَصِيحُ .
يَفْعُدُ الْحَبَّ جَارِي كَمَدِّ غَيْرٍ مُّتَوَلِّ لِدَاتِهِ .
الْحَبُّ يُطْرَحُ الْأَلَاتِ ، وَ يَنْضُو عَنْهُ أَرْذِيَّةُ الْحَرِيرِ .
تَجْرَدْنَا سَوِيًّا يَبْدُلْنِي تَمَامًا .

أَفْتَتَانِ كَثِيرٍ لَدَىٰ بَابِكَ ،
كَلَّ الْعِنَايَةَ تَرْبِحَ تِلْكَ الطَّرِيقِ .
فَتَدَكَّرَ ، رَغِمَ أَبِي قَدْ أَرْتَكَبْتَ أَفْعَالَ سُوءٍ ،
بِأَنَّيَ لَا أَرَىٰ الْعَالِمَ بِرُمَّتِهِ فَوْقَ وَجْهِكَ .

الرَّاحُ قَدْ حُرِّمَتْ عِنْدَ هَذَا الْمَكَانِ
فَبِي تَمَثَّلَ حَيَاةَ لِكَيْنُونَةَ الْخَفِيِّ .
أَمَلًا بِذَلِكَ وَاعْفَ عَنِ الْعَاقِبَاتِ .
لَا بَدَأَ هُنَاكَ أَوْ انْتَهَاءً .

أَسْمَعُكَ فَأَكُونُ بِكُلِّ كَائِنَةٍ ، نَعْمَ مُنْبَسِط .
لَقَدْ رُبِّبْتَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ .
تُمَلِّكُنِي الْآنَ ، لِكِنَّهِ فِي مَرَّةٍ قَادِمَةٍ
تَسْتَرِدُنِي إِلَى الْكَيْنُونَةِ .

بِرِّقٍ ، شُهُودِكَ
مَنْ أَرْضٍ مُقَابِلِ سَمَاءٍ .
لَا أَحَدٌ يَدْرِي بِمَا سَيَصِيرُ مِنِّي ،
حِينَ تَأْسِرُنِي خَاطِفًا .

الرِّيحَ مَا أَنْتَ تَنْطِقُ بِهِ .
طَائِرِ اللَّيْلِ سَكْرَانَ مَنْ مَقَطَعَ اسْمُكَ ،
مَرَّةً تَلُو مَرَّةً ، مِثْلَ تَخْطِيطِ لِحُورَةٍ .
نُقِشْتَ بِاحْتِرَاسٍ فِي الْفَرَاغِ الطَّوِيلِ مَنْ بَاطِنِي .

صَدَاحِ طَائِرٍ ، رِيحٍ ،
صَفْحَةِ الْمَاءِ .
كُلِّ زُهْرَةٍ ، تَتَذَكَّرُ الْأَرِيحَ :
أَعْلَمُ بِأَنَّكَ دَانَ .

أَحَبَّ هَذِهِ الْعَطِيَّةِ مَنْ حَيَاتِي إِلَيْكَ ،
أَوْ لِأَيِّ امْرِيٍّ يَتَعَرَّفُ آخَرَ يَعْرِفُكَ ،
أَنَا الْمَمْسُوكُ بِهِ فِي شَعْرِكَ الْمَلْفُوفِ ،
بِبَاطِنِ عَيْنِي فَاتِنِكَ الْكَشْمِيرِي .

مكبوحا على مثل هذا،
كَيِّ أَقْتَصِدُ فِي الْحَلِيبِ ،
لَا مَشِيئَةَ ، إِنْ غَمَامًا يَطْعَمُ الْحَلِيبِ ،
وَلَسْتُ بِرَاضٍ .

لَأَنِّي قَدْ غَبْتُ عَنْكَ ،
أَدْرِي فَقَطْ كَيْفَ أَبْكِي .
كَمَثَلِ شَمْعَةٍ ، بَدِيدِهَا مَا أَكُونُ .
كَمَثَلِ قَيْثَارَةٍ ، أَي صَوْتِ أَهْيُوه نَعْمُ .

أَفْصَى مَا أَعُوزُهُ
أَنْ أُنْبَجِسَ خَارِجًا مِنْ هَذِهِ الْهَيْئَةِ ،
ثُمَّ أَجْلِسَ بَعِيدًا عَنِ تِلْكَمُ الْوَثْبَةِ .
لَقَدْ عِشْتُ طَوِيلًا حَيْثُ يُمَكِّنُ أَنْ أَصَادُ .

جَدْلَانِ ، لَيْسَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يُصَادِفُ .
مَسْتَدْفِي لَيْسَ مِنْ حَمَامٍ حَارٍّ أَوْ حُمَّيْ .
خَفِيفٌ ، أُشِيرُ
لِصْفَرٍ عَلَى كِفَّةِ الْمِيزَانِ .

أَحْتَرِقُ مَعَ نِيرَانِ تَائِقَةٍ ،
أَرْغَبُ فِي نَوْمٍ وَرَأْسِي عَلَى عُنْتَبَةِ بَابِكَ ،
حَيَاتِي تَسْتَوِي عَلَى هَذَا الْمَقَامِ ، فَقَطْ
لِكِي أَكُونُ فِي حَضْرَتِكَ .

أَشْرَعَ لِخَلْقٍ ، تَصِيرُ إِلَى خَالِقِ
لَا تَنْتَظِرُ عِنْدَ حَدِّ .
فِي هَذَا الْمَطْبَخِ الْعَامِرِ بِالطَّعَامِ الطَّرِيِّ ،
لَمْ تَجْلِسِ قَانِعًا بِالسُّطَلِ مَنْ مَاءِ دَفْنِي ؟

أَنْتَصِبُ ، وَ الْوَاحِدِ الَّذِي أَنَا
يَسْتَحِيلُ إِلَى مِائَةِ مِيَّ .
يَقُولُونَ إِنِّي أَطُوفُ حَوْلِكَ .
هَرَاءَ . أَطُوفُ حَوْلِي .

لَيْسَ لِي أَنْ أَفْضَ أَسْرَارِي .
مَا مِنْ مِفْتَاحِ عِنْدِي لِهَذَا الْبَابِ .
إِنْ حَاجَةٌ تَقِيمَنِي فَرَحًا ،
و لَيْسَ لِي أَنْ أَبُوحَ مَا هِيَ .

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ،
سِبَاقَ لِلنَّشِيدِ :
الْمُشْتَرَى ، الْقَمَرِ ، وَ أَنَا
الرِّفَاقِ الَّذِينَ فَتَّشْتِ عَنْهُمْ !

مَعَ الْخَمْرِ الَّتِي تَنْسَاحُ هَذِي اللَّيْلَةَ
وَ آلَاتِ الْعَرْفِ تُنْشَدُ فِيمَا بَيْتَهُمَا ،
شَيْ وَحِيدَ حَرَامٍ ،
شَيْ وَحِيدٍ : النَّوْمِ .

حِينَ الْوَجْدِ يَتَقَدُّ
وَلَوْ أَنَّ الْيَاقُوتَ فِي الْمَعْمَعَانِ، نَرَحِبُ بِحَزْنِكَ، لَكِنَّ
أَنْتَ لَا تَهْتَبُ الْفُتُوحَ أَوْ الْعِيَابَ ،
أَوْ السَّامَ النَّاعِسَ .

قَمَرٌ كَامِلٌ. يَقِظُ فِي سَكِينَةٍ ،
أَنْتَ تَنْظُرُ عَلَيْنَا مِنَ السَّطْحِ فِي زَوَايَا،
تَذَكَّرُ أَنَّ الْوَقْتَ مَا حَانَ
بَعْدَ لَيْلَتِنَا ، أَوْ لِلتَّسَاقِي.

عَطِيتِنَا رِسَالَاتٍ حُبِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ
مَنْ أَجَلَ خَاطِرِهِمْ يَتَوَجَّبُ أَلَّا نَنَامَ .
أَرِيحُ شَعْرَكَ مُنْتَشِرًا بِالدُّرُوبِ
يَعْجَبُ الْعَطَّارِينَ هَذَا التَّبَارِي.

أَعْتَابَ تَحْتَ أَقْدَامِ تَعْتَصِرُهَا
تَدُورُ عَلَى أَيِّ نَحْوٍ يَدُورُونَ حَوْلَكَ فِيهَا.
أَنْتَ تَسْتَخْبِرُ لِمَاذَا طَوَّافِي حَوْلَكَ ؟
لَيْسَ حَوْلَكَ، طَوَّافِي حَوْلَ ذَاتِي .

اجْتَزَيْتِ، قُلُوبًا وَقَالِبًا،
لَا قَمَرَ ، لَا أَرْضَ أَوْ سَمَاءَ .
لَا تَتَلَنِّي كَأَسِ مَدَامَةَ أُخْرَى. أَمَلِيهَا فِي فَيْي.
لَقَدْ تَاهَ مِنِّي طَرِيقُ فَيْي.

طوردت أَرْضًا، و بَعْدَ المطارد.
دُونَمَا عَمَلٍ ، بَعْدَ أَعْمَلٍ بِانْتِظَامٍ .
بَعَيْتُكَ رَأْسِي ؟ يَارْفِيقُ ،
هاكها هِبَةَ مَيِّ .

الْحَقَّ مَا هُوَ أَنْتَ وَ عِشْقِي
إِلَيْكَ . تَسْمُو فِي الرِّيحِ ، لَا تَبَيِّنُ ،
تَرْتَقِي هَذِي الْحَقِيقَةَ قُبَّةً .
أَنَا نَجْمَةُ الْعَيْوُقِ !

أَتَيْتَ لِأَقْعِي أَمَامَكَ
كَمَا كُنْتُ أَرْغَبُ عِنْدَ مَذْبَحِ .
كَلَّ وَعَدَّ هَيَّأْتَهُ سَلْمًا
حَالَ رُؤْيَتِكَ قَطَعْتَهُ .

لَا تَدْخُلْ إِلَيْنَا دُونَ أَنْ تَجْلِبِ الْأَلْحَانَ .
نَحْنُ فِي صَخَبٍ عَلَى طَبَلٍ وَ نَائِي ،
وَ الْمُدَاوِمَةَ لَا تَسْتَقِي مَن كُرُومِ ،
فِي مَكَانٍ لَسْتُ تَحْدِسُ مَا هُوَ .

جذلان مَن غَبَّرَ مَا سَبَبِ ،
أَوْدَّ أَشْهَدَ مَا خَلْفَ هَذَا الْوُجُودِ .
يَنْكَشِفُ فَاهُكَ ، لِتَضْحَكَ .
فَأَسْتَرَعِي مَن قَصْدَ ذَلِكَ الْكُشْفِ .

طَلَمَا كَانَ بِي ذِكْرِي، أَعُوْزُكَ.
فَقَدْ أَقَمْتُ شَاهِدَةً لِهَذَا الْغَرَامِ .
جَرَى لِي حِلْمُ اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ ، وَ الْآنَ قَدْ رَاحَ .
كَلَّ مَا أَدْرِيهِ أَنِّي صَحَوْتُ عَلَى هَذَا مَرَّةً ثَانِيَةً .

منسحبين بيروزك،
نَجْتَمِعُ مِثْلَ شَعْرِ تَشَعَّثَ ،
حَتَّى جَاءَتِ الْأَزْوَاحُ كَيْ تُدْعِنَ ،
كِنَّا مَوْتَى. وَ الْآنَ رُدَّتْ إِلَيْنَا الْحَيَاةَ .

عِمَامَتِي، كَسَوْتِي، رَأْسِي، ثَلَاثَةَ
لِقَاءِ أَقَلِّ مَنْ دِرْهَمِ .
نَفْسِي، اسْمِي لَا يَذْكُرَانِ
لِقَاءِ أَقَلِّ مَنْ عَدَمِ .

فِي اللَّيْلِ تَأْتِي هُنَا خُفْيَةً ،
وَ مَنْ تُمْ أَرْغَبُ إِلَّا تَلْتَبِرِي الْعَتَمَةَ .
لَكِنْ يَبُوحُ اللَّيْلُ ، أَنْظُرْ : أَنْتِ تُقْبِضُ عَلَى الشَّمْسِ .
فَتَوَلَّ أَنْتِ رِعَايَةَ النَّهَارِ !

السِّرَّ الَّذِي أَفْشَيْتِ، أَفْشَهُ ثَانِيًا.
لَوْ أَنَّكَ تَأْتِي، سَوْفَ أَشْرَعَ فِي الدُّمُوعِ .
وَ مَنْ تُمْ سَوْفَ تَبُوحُ : السُّكُوتِ ، وَاسْتُرِقَّ السَّمْعُ تَوًّا.
لَسَوْفَ أَفْشِيهِ مِرَارًا.

كُنْتُ الْوَجِيدَ ، فَجَلَبْتُكَ كَيْ تَغْنِي .
كُنْتُ سَاكِنًا ، فَجَعَلْتُكَ تَحْكِي الْحِكَايَا الطُّوَالَ .
لَا أَحَدَ دُرِّيَّ أَيْنَ كُنْتُ ،
لَكِنِ الْآنَ يُدْرِكُونِ .

كُنْتُ أَحْيَا عَلَى حَرْفِ
الْخَيْلِ ، أَهْوَى لَوْ أَدْرِي الْأَسْبَابَ ،
أَطْرَقَ عَلَى بَابِ . فَيَفْتَحُ .
صَرْتُ أَدَقَّ عَلَيْهِ مَنْ بَاطِنِهِ !

لَا عَشِيقَ بِي مَن دُونَ كِينُونْتِكَ ،
لَا رَشَفَ أَنْفَاسِ . حُسِبَتْ يَوْمًا
بِمَاكَانِي هَجَرَ هَذَا الْوَجْدِ ، ثُمَّ أَنْعَمْتَ حِسْبَانِي ،
لَكِنِّي لِأَمِّ أَدَمَ بِشْرِيَا .

نَحْنُ بَحْرُ اللَّيْلِ يَفْعَمُهُ
لَأَلَاتِ التُّورِ . نَحْنُ الْمُدَى
مَا بَيْنَ سَمَكَةِ وَالْقَمَرِ ،
حِينَ نَجْلِسُ سَوِيًّا هُنَا .

حَشِينَا فِي مَرَّةٍ مَن وَصَلَ وَصَلَ ، وَ أُخْرَى
مَن وَصَلَ فَصَلَ : أَنْتَ وَ أَنَا ، مَن وَلِعَ بِمُجَرَّدِ
أَنْتَ وَ مُجَرَّدِ أَنَا ، لِأَبَدِ أَنْ نَحْيَا
بَوْتِيرَةَ أَنَا مَا سَمِعْنَا قَطُّ عَنْ هَذِي الضَّمَائِرِ .

دافعان راسخان: وَاجِد،
أَنْ أَحْتَسِي زَمَنًا طَوِيلًا وَأَفْرَطَ ،
الْآخَرَ ،
أَنْ لَا أَفِيقَ عَلَيَّ بَاكِرٍ فِي التَّو.

الْخَمْرُ الَّتِي نَحْتَسِيهَا هِيَ دُمْنَا دُونَ رَبِّبِ .
أَجْسَادِنَا تَتَخَمَّرُ دَاخِلَ هَذِي الدِّانِ .
إِنَّا نَهَبُ مِنْ أَجَلِ كَأْسٍ يَهْدَا .
تَهَبُ عُقُولُنَا مِنْ أَجَلِ رَشْفَةٍ .

خَمْرٌ لِيكِي يَشْتَدُّ عَشِيقُ ،
نَارٌ لِيكِي تَتَبَدَّدُ ، نَجْلِبُ كُلًّا ،
لَيْسَ كَمَثَلِ تَصَاوِيرٍ مِنْ حَقِيقَةِ جِلْمِ ،
بَلْ لَيْلٌ مَلِيلٌ نَخْلُدُ فِيهِ حَتَّى الْفَجْرِ .

فِي تَحَكُّمِ نَاجِزٍ ، تَحَكُّمِ دُعِي ،
بِسِلَانِ جَلِيلٍ ، نَحْنُ دَجَالِينِ .
أَوْ رَبِّمَّا كَمُجَرَّدِ شَعْرٍ كَبُشٍ يَمْسُدُهُ يَدُ الْفَنَانِ .
لَيْسَ مِنْ ظَنِّ لَدَيْنَا مَا نَكُونُ .

نَحْنُ نَسْتَرُ مِنْ يَغْتَسِلِ .
نَحْنُ نَزْهُو بِجُودِنَا .
نَحْنُ نَحْدَقُ فِي بَحْرِ الْمُطْلَقِ ، الْمُتَأَلِّمِ .
نَحْنُ نَنْهَارُ .

أَنْتِ مَبْتَرِدٌ، تَرْتَقِبِ مِنَّةً .
مَا تَفْعَلُهُ يَرْتَدُّ بِشَكْلِهِ ثَابِتًا .
اللَّهُ رَحْمَنٌ ، لَكِنَّكَ إِنْ زُرِعْتَ الشَّعِيرُ ،
فَلَا تَنْتَظِرُ مَنْ حَصَادِهِ قَمْحًا .

أَهِيمٌ عَلَى سَهْلٍ مُقْفِرٍ ، حَرَجٌ
عِنْدَ عِلَامَةٍ مَهْجُورَةٍ هَا هُنَا كُنْتُ .
أَعْتُرُ عَلَى جَسَدٍ مَخْذُولٍ ،
رَأْسٌ انْفَصَلَتْ .

خَمْرَةٌ وَعَيْنِيدٌ ، أَحَدٌ قَدِيمٌ وَآخِرٌ مُسْتَحَدَّثٌ .
أَبَدٌ فَلَنْ نَجِدَ الْكِفَايَةَ .
أَنْ لَا نَكُونَ هُنَا وَنَكُونَ هُنَا كَلِيَّةٌ ،
الْمَزَجُ غَيْرٌ لِاذَعٍ . مَذَاقِنَا مَعًا .

مرتقد في مثل هذا الوجود .
غَيْرٌ رَاغِبٌ بَعْدَ فِي مُطْعِمٍ أَوْ شَرَابٍ ،
أَطْفُو طَلِيْقًا
كَأَنَّ جِيْفَةَ فِي الْمُحِيْطِ .

لَا تُسَلِّمَنِي إِلَى رُفَقَائِي السَّالِفِينَ .
مَا مِنْ رَفِيْقٍ إِلَّاكَ . فِي دَاخِلِكَ
أَرْتَا حَ مِنْ عَوَزٍ . فَلَا تَدْعُنِي
إِلَى إِيْتِيَّةٍ مِنْ جَدِيدٍ .

تَنْبَسِطِ كَيْ تَطَالَ الْقَمَرَ بَعْيُونَكَ ،
وَمَنْ تُمْ الزَّهْرَةَ . شَيْدَ مَكَانًا كَيْ تَعِيشَ
بِتَلْكُمْ الْأَبْعَادَ . حَمَى يَتَفَكُّكَ مِنْ رَكْلَةٍ وَاحِدَةٍ ،
عَجَّلَ وَ فَكَّكَ .

فِي فَيْنَةَ مَنْظُورَ ، فِي فَيْنَةَ لَا ، فِي فَيْنَةَ
مَسِيحِي وَرَعَ ، فِي فَيْنَةَ يَهُودِي صَمُودَ .
بَعْدَ عَشَقْنَا الْبَاطِنِيَّ يَلِيْقُ بِكُلِّ امْرِي ،
كَلَّ مَا نَفَعَلُهُ أَنْ نَتَشَكَّلَ هَذِي الضُّرُوبَ يَوْمِيًّا .

صَلَّاحَ أَعْمَالِي أَنْ أَبْلَغَ مِثْلَ هَذَا الْحَبِّ
كَالسَّلْوَانِ إِلَى التَّائِقِينَ إِلَيْكَ ،
أَسْأَلُكَ حَيْثُمَا قَدْ طُفَّتْ
وَ أَحَدَقَ فِي نَجَسٍ قَدْ أَلَّحَ .

المباحث الإلهية عند جلال الدين الرومي

” وإن من شيء إلا يسبح بحمده ”

الله و إبداعه:

لو أن الأبحر السبعة صارت كلها مدادا،

لما كان ثمة توقع لانتهاء (كلمات الله)

و لو أن البساتين و الغابات صارت كلها أقلاما،

لما كان ثمة نقص من هذه الكلمات أبدا.

كل ذلك المداد و كل تلك الأقلام ستفنى،

أما هذا الكلام الذي لا عدد له فباق.

هكذا تصدح حنجرة الرومي، متصرفا في قول قرآني (الكهف 901) بشأن عظمة الله و كلماته المبدعة التي لا يمكن أن توصف الوصف الدقيق.

و تتخلل عمله كله الأبيات التي تسبح بحمد الله، الذي لا يستطيع أحد أن يحصي ثناء عليه، و الحقيقة أن المرء يمكن أن يقول دون مبالغة إن شعر الرومي ليس سوى محاولة للحديث عن عظمة الله كما تتجلى في المظاهر المختلفة للحياة. الله كما تجلى لمولانا هو الحي القيوم، و ليس علة أولى ، أو مبدأ أول أوجد العالم في وقت من الأوقات و الآن يصرفه وفقا لبرامج معدة من قبل، إنه الله الذي أراد أن يعرف فأظهر ذاته من كنزه الأزلي. إنه الكنز غير المتناهي و بكلمته المبدعة ينشأ كل شيء و

يمكن تعرفه بالملاحظة الدقيقة لآثاره في الكون إذ كل أثر منها يحمل شهادة قاطعة على إبداعه و قدرته و لطفه.

كنت كنتزا مخفيا فأحبت أن اعرف،

من أجل أرواح المشتاقين، رغم النفس الساخرة.

الحديث القدسي المشهور الذي سمع فيه الحق يشهد بأنه أحب أن يعرف، يعني أن كثر الحكمة الأزلية أراد أن يرى و يدرك: كمال المحبة و الرحمة الإلهية ينبغي أن يظهر رغم أن الله (سبحانه) لا يعتمد على الإدراك البشري. لكن كل شيء يشترك إلى الظهور العالم يحاول إظهار علمه، و العاشق يحاول إظهار عشقه، إلخ و من ثم فالله، كثر الرحمة الخفية، اشتاق أيضًا إلى إظهار رحمته هذه لأولئك الذين يقبلون الهداية. العالم الحادث مرآة يمكن أن يشبه وجهها شعريا

بالسما و ظهرها بالأرض و جماله الأزلي منعكس انعكاسا غير كامل في هذه المرآة التي ينبغي أن تقود العين المتأملة إلى الجمال و الجلال الأزليين و السرمديين.

الله (سبحانه) أقرب إلى الإنسان من حبل وريده (سورة ق 61) و قد وضع آيات دالة في الآفاق و في الأنفس (فصلت 35) – و هذه كانت دائما أوصافا قرآنية محببة إلى الله يمكن أن يجد فيها صوفية الإسلام الأسس لنظرتهم إلى العالم. و الصحيح أن الرّومي رأى آيات الله في كل مكان. و مهما يكن من شيء، فإنه يستخدم قليلا نسبيا قولاً قرآنياً آخر أضحى في آخره نقطة صميمية في المباحث الإلهية عند الصوفيّة، وهو قوله تعالى: فأينما تولوا فثم وجه الله ” (البقرة 901) – الآية التي أسلمت نفسها ببسر لما يسمي تأويل الإسلام تأويلا قائما على وحدة الوجود citsiehtnap. و عند الرّومي أن الله يظهر في المقام الأول في مظاهر ذاته (سبحانه) كالقوي و القدير و الرحيم، كما جاء وصفه على نحو غاية في الروعة في آية الكرسي (البقرة 652). يفعل الله ما يشاء (إبراهيم 72) و يمكن أن يغير أحوال الإنسان كل لحظة إذا شاء. ولا يكمل الرّومي من تكرار ذكر بدائع خلق الله، نتائج مشيئته و قدرته اللتين لا تهدأان و تذكر أشعاره القاريء أحيانا بالترانيم الأخاذة أو بتلك المقاطع القرآنية التي يوصف فيها الخالق و المعين و الحكم العدل في صور متقدمة. وهو الذي يضع و يرفع كل شيء و دون أسباب ثانوية يحيل النار إلى شيطان و التراب إلى آدم.

إبداع الله الذي لا يحتاج فيه إلى وسيط هو الموضوع المحبب عند الرّومي:
القرآن كله في قطع الأسباب.

أي يشهد بخلق الله الأشياء من عدم، و دون وسيط. وهذا الخلق من عدم noitaerc
olihin xe أساس المباحث الألهية في الإسلام و الرّومي مؤمن إيماناً يقينياً بهذه النظرة.
و الأسباب الثانوية ليست سوى حجب، ورغم ذلك فهي ضرورية – و هي من ثم دليل
على الحكمة الإلهية أيضاً – لأنه ليس كل شخص مأذونا له في مشغل الحق. خلق الله
السموات و الأرض – لكن هذا البيان يعني عند الرّومي نوعاً من التخصيص فقط،

لأنه خلق الأشياء كلها على العموم و يقينا فإن كل

الكؤوس تنزلق على سطح ماء القدرة الكلية

و المشيئة الإلهية و لكنه من غير الأدب أن يضاف إليه (سبحانه) شيء خسيس مثل:
” يا خالق السرقين

والضراط و الفساء. لا يقول المرء

إلا ” يا خالق السموات ” و يا خالق العقول! ”

و هكذا فإن لهذا التخصيص مغزاه و أهميته، فرغم أن البيان عام فإن تخصيص
شيء من الأشياء يدل على اصطفاء ذلك الشيء..

و السماء و الأرض إنما تفردان لأنهما أفضل جزء في خلقه (سبحانه) و الاعتراف
بأنه هو الذي ” علم القرآن ” (الرحمن 2) مساو لشهادة أنه هو الذي علم الإنسان كل
علم ممكن، على أن صفوة هذا العلم و خياره هو علم ” كلام الله ”.

العالم كله مخلوق من أجل الله، وهو واسع ورحب (النساء 79) و كل ورقة على
الأشجار، و كل طائر على الأغصان يسبح بعظمة الله و ينطق بآيات الشكر له إذ يتولى
إطعامه.

في كل مكان في الجهات الست آيات دالة على لطفه، الذرات كلها جنده الذي يعمل له
– سمها النار أو الماء أو الريح أو الأرض أو الطير أو الحشرات – و من ثم لا يحدث شيء

إلا بإرادته: النار لا تحرق إلا بإذنه، ومن هنا لا داعي لأن يخاف الإنسان دخولها من أجل الله (و هي الفكرة المستمدة من قصة إبراهيم في القرآن، الذي تحولت النار من أجله " بردا و سلاما " (الأنبياء 96) و التي كثيرا ما تذكر في سير الأولياء عند الصوفية بدءا من القرن الرابع الهجري (101م) عندما أمدها البحث الإلهي عند الأشاعرة بأساسها النظري).

و هكذا فإنه إذا عشق الإنسان صنع الله بصبر و شكر فإنه يكون موحدا صادقا، لأنه لا يرى في العالم سوى تعبير و تجل للقوة المبدعة لله (سبحانه) (و ذلك كان حجاج الغزالي و جدله أيضا) أما إذا أحب الخلق من أجل الخلق لا من أجل الخالق فإنه يغدو كافرا عابدا للأوثان – و من هذه الوجهة كثيرا ما تصور " الدنيا " بأنها شيء شاغل للإنسان عن الله.

انظر إلى الساقى لا إلى الثمل!

انظر إلى يوسف، لا إلى اليد (المجروحة)!

لا أحد أبدا سيفهم الطريقة المعجزة التي خلق فيها الله (سبحانه) الأشياء و يظل يخلقها: رغم أن الإنسان مخلوق من تراب لا يبقى مشدودا إلى التراب ولا يماثل الجان النار التي هي أصله ولا الطائر بمادته. الأصلية لا يمكن شرحها بالاستنتاج المنطقي، إنها دون كيف " و تبرز الحكمة الأزلية لله (سبحانه) يعرف الرب ما هو مطلوب في كل لحظة و أن: لو لم تكن الأرض في حاجة إلى الشمس و القمر و النجوم لما أوجدها من العدم. ولو شاء ورأى ضرورة ذلك، لحول الماء إلى نار و النار إلى رياض مزهرة، في مقدوره أن يجعل الجبال تطير كالعن المنفوش (المعارج 9 القارعة 5) و في مقدوره أن يحول علقة الدم في نافجة الغزال إلى مسك شذي.

من الشوك عينه انظر الأزهار العجيبة،

و من الحجر عينه انظر كثر قارون

فاللطف موجود إلى الأبد و منه ألف مفتاح

مخبأة بين الكاف و سفينة النون.

الرحمة الإلهية المخفية وراء حرفي الخطاب المبدع "كن" لا نهاية لها و تظل تحدث أشياء و أحداثا أكثر روعة.

فالله في خلق دائم من " خزانة العدم " يحدث أنواعا مختلفة من المخلوقات تبعا لضرورات الزمان و المكان. كل شيء له موضعه الثابت في نظام الكون و مقيد بحدوده التي يستحيل تجاوزها: فالسّمك ينتهي إلى الماء و الحيوان إلى التراب – و ذلك قيد موضوع لهما لا تفيد معه أية حيلة أو محاولة للتغيير. الإنسان وحده، المخلوق على نحو غريب بمزيج من الملاك و الحيوان، ممزق بين الحدين الأقصىين لوجوده، إلا إذا هجر تماما عالم المادة و وصل إلى عالم الروح. و كل ما يحدث إنما يجيء وفقا للحكمة الإلهية: سواء أكان ذلك دوران الأفلاك، أم تسكاب الغيث من الغيمة التي لا حياة فيها – لأنه أني لها أن تعرف كيف تتصرف إن لم يلمهما الله (سبحانه) أداء واجباتها في المحافظة على التدبير الإلهي العظيم، كما أوحى إلى النحل أن تتخذ بيوتها (النحل 86).

الله خلق الأشياء على مراتب و درجات خاصة ترتقي شيئا فشيئا من الجماد إلى الإنسان. و اجتماع عنصرين من رتبة دنيا يمكن أن يحدث شيئا أعلى – و من ثم فإن الحجر و الحديد ينتميان إلى عالم الجماد، لكن تعاونهما ينتج النار التي هي أسمى من الاثنين. لأن كل ما تحت السماء أم (و مادة أولية أيضا) سواء أكان جمادا أم حيوانا أم نباتا، غير عارفة آم و ولادة الأم الأخرى و مشتقاتها: لكن هدف الجميع هو إحداث شيء أسمى و أكثر بقاء.

و المستيقن منه أن الله أوجد العالم من العدم بالكلمة الوحيدة:

"كن" و قد خلقه و شكله في ستة أيام، و لكن "يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون" و ارتقاء المخلوقات إلى كمالها يأخذ وقتا طويلا – مثلما أن تطور النطفة إلى طفل حي يحتاج إلى تسعة أشهر قبل أن يولد. الله قادر على أن يتم الخلق في لحظة، لكنه أثار نموها بطيئا و ثابتا – ألا يحتاج الإنسان إلى أربعين سنة حتى يصل إلى نضجه الروحي؟ الله " كل يوم هو في شأن " (الرحمن 92) و يسير كل لحظة جيوشا جديدة من أصلاب العدم إلى العناصر الأولى و من أرحام النساء إلى الأرض، ثم أيضا من التراب إلى السماء. لا يهدأ في هذه الحركة المبدعة – لا تأخذه سنة ولا نوم " (البقرة 652) و المؤمن ينبغي أن يتبع مثاله (سبحانه) فيعمل بصبر و دون توقف. و كمال الطبيعة و الإنسان لا يمكن الظفر به إلا بعد عهد مديدة من الزمان عندما تخضع المادة و الروح بصبر و تحمل لعملية " التحول الكيميائي " المؤلم أو " الاختمار " قبل الوصول إلى الحدود القصوى لطاقتهم

الفطرية. و كثيرا ما عبر السَّنائيّ و العطار عن فكرة أنه لا بد من مرور قرون عديدة و التضحية بملايين من صور الوجود الأدنى، لكي تستطيع زهرة كاملة واحدة أن تتفتح في الحديقة أو لكي يظهر إنسان كامل واحد نبي من بين جموع البشر غير المصقولين الذين لا يزالون مرتبطين بعالم المادة. و مثلما أن معجزة القوة المبدعة لله تغدو مرئية في جمال الوردة الفضة التي كانت قصد الحديقة و غايتها لا تكتسب الإنسانية قيمتها الكاملة إلا بالولي المكمل الذي يجلي النور المبدع للحق (سبحانه) بوجوده الكامل.

” و لله خزائن السموات و الأرض و لكن المنافقين لا يفقهون ” (المنافقون 7)

هو الذي يحول الحجارة إلى ياقوت وهو الذي يعطي للسماء الدوارة الصفاء و يهب الماء و التراب القدرة على إخراج النباتات من الظلمة. خلق الأم و الثدي و اللبن. و له ما يعرف الإنسان و ما لا يعرف. الحجارة و الخشب مطيعة له، و يمكن أن تغدو حية إذا أمرها بذلك على غرار ما يمكن أن يشاهد في معجزات الأنبياء. الأوراق تتلقى زادها (أوراقها) منه و المرضعات يزودن باللبن من لطفه الشامل و ” يعطي الأرزاق أرزاقها ”. و من هنا على الإنسان أن يظل مدركا أن الله وحده هو الذي يعطيه ما يحتاج إليه:

أعطي (الأمير) قلنسوة و أعطيت رأسا مفعما بالعقل، أعطى قباء، و أعطيت قامة وقدًا!

و ذلك هو السبب الذي يجعل الإنسان مدعوا لتسليم شؤونه ل ” مكر ” الله، لأن تدابيره الضئيلة لا معنى لها عندما يظهر الله بوصفه ” خير الماكرين ” (آل عمران 45، الأنفال 03)

ولا يتردد الرّوميّ في العودة إلى النحوي الشهير سيبويه (ت 351هـ 077م تقريبا) في تحديده لمعنى كلمة الله، لأن شرحه يبدو يظهر أعماق الحقائق بشأن الله (سبحانه).

قال سيبويه: إن معنى ” الله ” هو:

أنهم يولّهون في الحوائج إليه.

قال: ألّهنا في حوائجنا إليك،

و التمسناها (ف) وجدناها لديك.

ثم يشرح عرض هذا العالم في مقطع ترنيبي تقريبا:

مئات الآلاف من العقلاء وقت الضيق،

يئنون جميعا أمام ذلك الديان الفرد.

بل، كل الأسماك في الأمواج، و كل الطيور في الأعالي،

الفيل و الذئب و أسد الصيد أيضًا،

الأفعى العظيمة و النملة و الحية أيضًا،

بل التراب و الهواء و الماء و كل ذرة

تحصل على أقواتها منه في الشتاء و الربيع معا.

و هذه السماء تتوسل إليه كل لحظة: " لا تهملني،"

يا حق، لحظة واحدة.

و هذه الأرض تقول " ثبتني، يا من

جعلتني راكبا فوق الماء!"

.....

كل نبي يأتي منه ببراءة ليقول لنا: استعينوا

بالصبر و الصلاة (البقرة 351).

هيا، اطلبوا منه (سبحانه) لا من أي واحد غيره: اطلب الماء

في اليم لا تطلبه في الجدول الجاف.

و إذا طلبت من آخر " فإنه هو الذي يعطيك،

هو الذي يضع أيضًا السخاء على كف ميله...

الله (سبحانه) هو المبدع العظيم من دون آلة و أعضاء، المصور العظيم الذي يقدم حيناً صورته لكائن شيطاني و حيناً آخر صورة لإنسان و يصور حيناً السرور و حيناً الغم. لكن هذا التفاعل الدائم لما يبدو لعيني الإنسان مظاهر و ألواناً إيجابية و سلبية هو وحده الذي يمكن أن ينتج حياة واقعية: رغم أن الألم و السرور يبدوان في ظاهر الأمر متناقضين، فإنهما في الباطن يعملان لتحقيق هدف واحد لا يعلمه إلا الله.

و فكرة الرّوميّ المؤثرة هي أن الأشياء لا يمكن أن تعرف إلا بأضدادها – إذا تذوق الطائر الماء العذب أدرك الطعم المالح لما جدوله الأصلي.

و التجليات الثنائية للحق (سبحانه) تنكشف في كل شيء على الأرض: فهو الرحيم و القهار له جمال وراء كل أنواع الجمال و جلال يتجاوز كل أنواع الجلال (اخترع تاريخ الدّين الغربي في القرن العشرين ربط الأسرار الجمالية و الجلالية للحق (سبحانه) للاقتراب من صفات الله). له لطف و قهر و بهاتين الصفتين يتجلى في عالمه – التلاقي التام للأضداد murotisoppo aitnedicnioc الكمال موجود فقط في الأعماق التي يتعذر الوصول إليها من الذات الإلهية.

ألا يسمى الله الخافض و الرافع، و الذي يرفع (الناس و الأشياء)؟ ودون هاتين الصفتين المتناقضتين لا يمكن أن يأتي شيء إلى الوجود – الأرض ينبغي أن تكون مخفوضة و السماء مرفوعة لكي يمكن أن توجد الحياة. الأسماء الإلهية نفسها تعمل معاً أيضاً في تغيير الليل و النهار تغيير الأسي القشرة الخارجية تبدو هذه الحالات في صراع دائم بعضها مع بعضها الآخر. اللطف و القهر الإلهيان مثل نسيم الصبا و الوباء: الأول يزيل القش و الثاني يزيل الحديد أي إنهما كالكهرمان و المغناطيس. كل شيء مرئي و ملموس يوارى خلفه صفة أخرى – وراء كل عدم تتوارى إمكانية الوجود، الحديد و الفولاذ رغم أنهما يبدوان معتمين و باهتين قادران على إحداث النار من داخلهما لإنارة العالم. ثم ألا تقول الحكاية إن ماء الحياة موجود فقط في أكثر الأودية ظلاماً في نهاية المطاف؟

في عالم الحقيقة كل شيء يظل غير مميز، أما في عالم الأشكال فإن الانفصال و الاتصال ممكنان و من هنا يأتي السلوك المتناقض ظاهرياً لكل الأشياء المخلوقة. و ينبغي على العين – عين الباطن التي نورت بالنور الإلهي – أن تتعرف المظهر الداخلي

للأشياء: لأن الإنسان عادة يرى حركة عجلة الماء فقط، لكنه لا يرى الماء الذي يسبب دورانها. إن رفرفة الأسد المرسوم على العلم تبين من أين تأتي الريح و البرج الغباري علامة للزوبعة التي تظل غير مرئية. و يؤثر الروميّ تشبيه الأحداث الخارجية بالغبار الذي تحركه يد الريح و هي صورة مستمدة على نحو ميسر من مشاهد الحياة اليومية في ريف وسط الأناضول المغبر الأرجاء. لكنه يتحدث أيضًا عن الزيد الذي يشاهد على سطح الماء بينما تظل أعماق البحر في عالم الخفاء.

الأرواح أمام وجهه خيال،

و الدنيا غبار في حافز فرسه،

و من غبار نعل فرسه نبتت

مروج و مروج من الخدود الفتانة.

المظاهر الخارجية – الصور، العطور و الأصوات – تدفع الإنسان بيسر إلى إساءة فهم الأفعال الإلهية: لكن الله في كماله المطلق لا يمكن إدراكه دون الغبار، أي دون الغبار، أي دون حجاب المخلوقات، و هذه أيضًا ينبغي أن تظهر بالأضداد – فبضد النور فقط يدرك الإنسان النور

أما إيمان الروميّ بحكمة الله و رحمته و قدرته فليس له حدود، إنه الإيمان بأن

لا ورقة تسقط من شجرة دون قضاء و حكم من ذلك السلطان القادر ولا لقمة تدخل الفم دون إذنه.

و هو يعمل دائمًا بطريقة سنثبت، أخيرًا، أنها مفيدة لمخلوقاته حتى لو بدت لأول وهلة في صورة الخسران:

يسلب نصف روح و يعطي مائة روح،

يهب ماليس في وسع أحد أن يتخيله.

ما أكثر ما يضلل الوهم و مخادعة الأشكال و المظاهر الخارجية الإنسان فلا يدرك إلا في أخرة حكمة تعامل الحق معه بطريقة قاسية في ظاهر الأمر:

ما أكثر العداوات التي كانت عوناً!

و ما أكثر الخراب الذي كان عمارة!

و من هنا فإن المؤمن الصادق يمكن أن يردد قول الإمام علي (كرم الله وجهه):

عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم و حل العقود

و نقض الهمم.

و يرى الإنسان باندهاش تام أن الريح الباردة " الصرصر " التي أتت على قوم عاد عملت خادماً و حاملاً لسليمان مثلما أن السم مناسب للحية وهو جزء من قوتها في حين أن هذا السم نفسه موت للأخرين و النيل الذي تحول دماً لدى الأقباط أنقذ بني إسرائيل أحد الناس يمكن أن يقول عن زيد إنه زنديق مستحق للموت، بينما يراه شخص آخر سنيا صديقاً أو حتى ولياً نحيراً – لا يحمل مظهران

من مظاهر الحياة المعنى نفسه لدى أناس مختلفين.

و الإنسان وهو " بين إصبعين من أصابع الرحمن " يجرب هذه التعبيرات المتغيرة عن القدرة الإلهية في كل لحظة – إدخال النفس إلى الرثتين و إخراجها منهما ينتهي انتماء قويا إلى أساسيات الحياة مثلما يتعاقب " القبض " مع " البسط " أو الأسى مع السرور. مظاهر الذكورة و الأنوثة في الأشياء أو الطاقة الإيجابية و السلبية، تعمل معا في نسج القناع المرئي للإدارة الإلهية غير المعاينة ذلك القناع الذي تحته يحتجب الحق (سبحانه) و به يجلي صفاته، لكن المظاهر المتشعبة للوجود ستفضي، في النهاية إلى كمال الله.

هذا اليقين جعل الرومي يؤمن بأنه ليس ثمّة شر مطلق:

أينما وجد الداء مضى إليه الدواء،

و أينما وجد العسر، مضى إليه اليسر.

الحسن و القبيح كلاهما من الحق (سبحانه) رغم أنهما مخلوقان لأغراض مختلفة. لأنه تعالى جده لا يعمل شيئاً دون غاية – هل صنع صانع جرار قط جره من أجلها هي،

لا من أجل حمل الماء؟ أو

هل حدث قط أن كتب خطاط خطأ جميلا من أجل الخط نفسه، و ليس من أجل القراءة؟

الحق (سبحانه) كالمصور الذي يصور الأشياء الجميلة و القبيحة معا، مظهرا يده الصناعات في كمالهما، و هكذا تأخذ الصورة طبيعتها الدقيقة و المرادة. ذلك لأنه حتى الصورة القبيحة تثبت قوته المبدعة و الفنان الحق لا يصور صورة دون قصد: سواء أكان ذلك تسليية الصغار أم تذكير الناس بالأحبة الراحلين (و هي فكرة غير مستساغة كثيرا في المحيط الإسلامي و لعلها من نتاج جيران الروميين البيزنطيين). و هكذا فإن الشاعر يؤكد:

أعشق قهره و لطفه -

و العجيب أنني اعشق هذين النقيضين!

و حتى حين يبدو الحق يمحق شيئا فإنه يفعل ذلك بقصد الإتيان بشيء أحسن منه: و هذا الجانب من عمل الحق (سبحانه) تكشفه في القرآن الكريم الأفعال الغريبة و التخريبية في ظاهرها التي يقوم به الخضر (عليه السلام) نموذج الولاية و الصلاح (قارن بسورة الكهف 38-56).

ألم ينسخ بعض آي القرآن ليأتي مكائها بخير منها، مذهبا العشب و جالبا الورد بدلا منه؟ و هذه الفكرة - فكرة الهدم من أجل التجديد الإفناء من أجل الإبقاء الخسران من أجل الربح - تشكل حجر الزاوية لفكر الروميين بشأن ارتقاء العالم كله.

و لذلك فإن سلوك الحق (سبحانه) مع الخلق يوصف أيضا في الصورة المجازية القرآنية من خلال تشبيه التاجر:

الله يشتري جسد الإنسان وجوده الخارجي و إذا ما باع الإنسان كل ما لديه لله سبحانه طواعية، فإنه يكافأ ربحا روحيا عجابا:

يقول الحق تعالى: اشتريتمكم أنتم، وأوقاتكم، و أنفسكم

و أموالكم، و حيواتكم، فلو أنفقت علي و أعطيتموني

ياها، لكان ثمنها جنة الخلد، قيمتك عندي هي

هذه. لو بعت نفسك لجهنم، لظلمت

نفسك، مثل ذلك الرجل الذي دق خنجرا

قيمته مائة دينار في الجدار، و علق عليه جرة أو قرعة

قهر الله و لطفه كلاهما يساعدان في استكمال العالم – و في قلب قهره يخفي اللطف
كالعقيق الثمين في قلب التراب. قهر الله يمكن في حالات كثيرة أن يكون أكثر نفعاً من
لطف المخلوقات أو موادتها لأنه (سبحانه) يعلم ما هو خير من أجل النماء الروحي
للإنسان و أخيراً

يحول اليسار الجهة غير الميمونة إلى اليمين، الجهة الميمونة القهر و اللطف الجلال
و الجمال لاغني عنها لإظهار عظمة الله و قد عالج مولانا هذه الفكرة علاجاً مفصلاً مرات
عديدة في آثاره النظرية أيضاً:

كان عند أحد الملوك في دولته سجن و مشنقة، و خلع للتشريف و أموال و أملاك و
حاشية و مادب و سرور و طبول و أعلام. أما عند الملك فهذه الأشياء جميعاً جيدة. و
مثلاً أن خلع التشريف لاغني عنها لكامل ملكه، فإن المشنقة و القتل و السجن لاغني
عنها لكامل ملكه. يرفع الملك أحدهم على المشنقة، فيسئله في مكان عال و في مرأى
عدد كبير من الخلق. في مقدور الملك أيضاً أن يعلقه في الداخل بعيداً عن أعين الناس
بمسمار منخفض لكنه لا بد من أن يرى الناس ليعتبروا، لا بد من أن يكون تنفيذ حكم
الملك و امتثال أمره ظاهراً. و أخيراً ليس كل المشانق من خشب. فالمنصب و الرفعة و
حظوظ الدنيا هي أيضاً مشنقة عالية جداً. عندما يريد الحق تعالى تأديب إنسان فإنه
يعطيه مرتبة عالية في الدنيا و ملكاً عظيماً، مثل فرعون و النمرود و أمثالهما...

لاشك في أن الله (سبحانه) يأمر بالخير و الشر، لكنه لا يرضى إلا بالخير – على غرار
الطبيب الذي يحتاج إلى مرض الإنسان ابتغاء أن يثبت مهاراته أو الخباز الذي يحتاج
إلى الجياع ليضعهم: و يظل الحق سبحانه مريداً أن يكون كل إنسان خيراً، و معافياً،
و شعبان. و يمد الرّوميّ هذه الفكرة إلى نتيجة غير بعيدة كثيراً عن بعض المفهومات

المسيحية: "يريد الحق المذنبين ليربهم رحمته" – وهذا أيضاً، جزء من سر الكنز الإلهي الذي أراد أن يعرف. و حتى أولئك الذين يتألمون في النار، يحمده لئلا كل شيء خلق ليحمد الله، و لئلا الكفار وقت رخائهم لا يذكرون،

و لئلا القصد من خلقهم هو أن يذكروا الله،

يذهبون إلى جهنم لكي يذكروه (تعالى).

كل شيء ينبغي أن يشهد على عظمة الحق، الشر و الخير و الألم و السرور ليست سوى وسائل لتوجيه الإنسان نحو واجبه و نحو هدف حياته الذي هو العبادة المتصلة لله كما جاء في القرآن: " و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون " (الداريات 65).

ذلك مبعث أن الرّوميّ يمجد قدرة الله في أبيات جديدة دائماً في ترانيم رائعة في قصة الصوفيّ الفقير:

ذلك الذي يجعل الورد و الشجر ناراً

قادر أيضاً على أن يجعل النار برداً و سلاماً

ذلك الذي يخرج الورد من قلب الأشواك

قادراً أيضاً على أن يجعل الشتاء ربيعاً

ذلك الذي به يتحرر كل سرو (يظل دائماً الخضرة)

قادر على أن يجعل الألم سروراً

ذلك الذي به يغدو كل معدوم موجوداً

ماذا يضيره لو أبقاه دائماً؟

عندما يشاء، يغدو الغم نفسه سروراً، و تغدو الأغلال حرية.

و يعرف الرّوميّ أن الملائكة كنوز أو مناجم للرحمة و اللطف الإلهيين، أما الشياطين فمناجم لقهر الحق، و يؤمن إيماناً قويا بالحديث القدسي: "سبقت رحمتي غضبي "

و أخيراً فإن فريق الملائكة هو الذي سيكسب النزال ورغم ذلك ينبغي أن يكون هناك بعض الناس أيضاً لإشباع جهنم و إلا فإنه لن يكون لها أي معني و ذلك ما لا يمكن تصوره. و لعل الإنسان عاجز عن فهم هذه الحركات المتناقضة للحكمة و القدرة للحكمة و القدرة الإلهيتين و يترك حائراً يائساً بينهما. وهو يعرف أنه لا مفر من هذا اللبس المحير – ليست هناك راحة أزلية إلا في خلوة الحق و في رؤية المعشوق الإلهي تتألف الأضداد و تتلاقى. و الحديث النبوي:

” أرني الأشياء كما هي ” هو دعاء النفس الإنسانية المشدوهة و اليائسة أمام المظاهر الخارجية المتغيرة للحياة التائقة إلى رؤية، أكثر سموا و صفاء قد تدنو بها من فهم تدابير الحق.

جزء من مخلوقات الله الملائكة الذين يتردد ذكرهم في كثير من قصص المثنوي في أشعار و مقاطع نثرية: إسرافيل، ملك النشور، يربط بين الفينة و الأخرى بالولي الكامل أو بالمعشوق، الذي يرجع الإنسان من سجن القبر، أي ينقذه من عالم المادة و يحييه في عالم الألق الروحي.

قصة عزرائيل، ملك الموت. تسرد بتفاصيل كثيرة رائعة متساوقة مع الاعتقادات الشعبية. أما جبريل الذي كثيراً ما يذكر بوصفه الملك الحامل للرسالات الذي نزل بالوحي إلى النبي فيمكن أن يغدو رمزاً للعق، الذي يحرم من أعلى منازل القرب من الحق (سبحانه) الذي كان امتياز النبي. و ثمة ميكائيل الذي يوزع الأقوات على المخلوقات و يتولى رعاية حاجات الناس. حشد هائل من الملائكة مستغرقون في عبادة و صلاة دائمتين، جن و قوى شيطانية تنتهي إلى جملة الخلق بقدر الرتب العليا للملائكة – لكل منهم وظيفته في الكون التي تتمثل في إظهار القدرة المبدعة للحق و الثناء عليه من خلال أعماله.

ثمة مقاطع في المثنوي و ” فيه ما فيه ” تشير إلى العقل الكلي بوصفه القوة التي تعمل وراء تعدد الظواهر و في مقاطع كهذه يستخدم الرومي لغة طورها صوفية القرن الذي عاش فيه. و مهما يكن من شيء فإن استخدامه هذه المصطلحات ليس مطرداً تماماً و النظام المدروس المتقن غير موجود في شعره. و يتراءى أنه كان منشغلاً بهذه التأملات في ستينيات القرن السابع الهجري (31م) فأدخل في شعره مصطلحات كانت أساساً غير منسجمة كثيراً مع شعوره، بل راقته إلى حد ما أولئك الذين تشربوا التنظيم الصارم الذي أحدثه ابن عربي و طوره مواطن الرومي و زميله صدر الدين القونوي. لكن هذه

المسائل تظل في حاجة إلى الدرس المفصل.

و في الجملة فإن مولانا تحدث قليلا نسبيا عن المسائل تظل في حاجة إلى الدرس المفصل.

و في الجملة فإن مولانا تحدث قليلا نسبيا عن المسائل و المباحث الإلهية أو عن الذات الإلهية. كان منشغلا في المقام الأول بالحق بوصفه الخالق الذي لا تتوقف سلسلة عمله المدهش. ألم يحذر النبي المؤمنين: " لا تفكروا في ذات الله بل تفكروا في صفاته؟" و صفاته يمكن أن تكتشف جيدا و هي تعمل في المظاهر المختلفة للخلق و هكذا فإن كل واحد يسعى إلى أن يجد طريقة من خلالها:

و الخلاصة أن خالق الفكرة ألطف من الفكرة، مثلا هذا البناء الذي بنى منزلا ألطف من هذا المنزل لأن ذلك الرجل البناء قادر على صنع مئات من الأعمال الخرى و التصاميم الأخرى مثل هذا البناء و غيره و كل منها مختلف عن الآخر. ورغم ذلك فالبناء ألطف من البناء و أعز. لكن ذلك اللطف لا يبدو للعيان إلا بوساطة منزل و عمل يظهر في عالم الحس حتى يظهر لطفه الجمال.

يرفض الروميّ التجسيم msihpromoporhtna الذي عبر عنه بعض الفقهاء في وصف الله (سبحانه) و يلوم أولئك الذين ينسبون إلى الحق يدا و قدما بمعناها لدى الإنسان و هذا شيء جدير باللوم كتسمية أحد الرجال "فاطمة" فما هو تشريف للمرأة معيب للرجل ورغم أن الأيدي و الأقدام تشريف لبني الإنسان، لا تليق بالموجود الإلهي.

مثلما يكون شخص لك أبا و لغيرك ابنا

أو أبا -

هكذا الحال في أسماء الله فإن لها في تعددها نسبيا:

فالحق في عين الكافر قاهر، و في أعيننا رحمان.

و ماذا يمكن أن يقال عن الحق؟

هو الأول، هو الآخر، هو الباطن، هو الظاهر -.

و الأسماء الإلهية التي شكلت معينا للإلهام أو التأمل لعدد كبير من الصوفيّة في عصر الرّوميّ تفهم عنده بمعنى أخلاقي: الحق (سبحانه) سمي نفسه " البصير" ليمنع الإنسان من الذنب، أو " السميع" لكي لا يفتح الإنسان فاه بكلام معيب و منفر، إلخ، لكن هذه الأسماء جميعا ليست سوى مشتقات، أما الصفات التي تحددها هذه الأسماء فقديمة و أزلية في الحق. على أن معالجة مولانا للأسماء الإلهية شبيهة بمعنى ما بمناقشة الغزالي لهذه الأسماء في " المقصد الأقصى ". و هي تعمل في الإنسان في شكل نماذج و في شكل تحذير و تنبيه، و هكذا فإنه عندما يريد الإنسان أن يجتنب غضب الله وهو أصعب شيء يمكن تصوره عليه أن يتخلص أولا من غضبه هو لأن الإنسان مدعوا إلى أن " يخلق نفسه بأخلاق الله ". و يمكن تعرف صفات الحق من خلال أسمائه و من خلال الصفات المتضادة التي تتكشف في عالم الخلق، أما ذاته سبحانه فخفية، لأنه لا ضد له يمكن به تعرفه في ذاته (سبحانه).

و ما يمكن ان يقال عن الحق (سبحانه) هو أنه أحد – لم يلد و لم يولد، كما يعيد الرّوميّ مع كلمات سورة الإخلاص. لأنه خالق كل شيء والد و مولود – و المخلوقات محدثة " مخلوقة في الزمان " و لذلك فإنها خاضعة للفساد أما الحق فلا يتأثر بأي تغيير. الماضي و الآتي لا ينطبقان على حضرته.

كان العطار هو الذي ابتدع قصة الحوال الذي رأى قمرين و لم يستطع ان يتصور أن ثمة قمرا واحدا فقط – وهو المثل الذي استغله الرّوميّ لإظهار المرض الروحي لدى أولئك الذين لا يستطيعون أن يروا أن الله واحد، و ليس اثنين أو ثلاثة.

لو انك قلت لأحول إن القمر واحد، لقال لك:

" هما قمران، فالشك يحيط بوحدة القمر! "

إن حرفي " الكاف " و " النون " كن، كلمة الخلق، مثل خيط ملون بلونين، مثل خيط مجدول لإخراج الأشياء من هاوية العدم إلى صعيد الوجود، لكنهما يخفيان حقيقة الوحدة الإلهية. و متى تحقق الإنسان من وحدة الله سبحانه، و أذعن لما يسميه الرّوميّ مع التعبير القرآني " صبغة الله " (البقرة 831) التي بفضلها تغدو أجزاء الثوب الملونة بألوان مختلفة لونا واحدا، عرف أن " الطالب " و " المطلوب " غير منفصلين.

الكفر و الإيمان كلاهما بواباه،

إنهما القش الذي يخفي الماء العميق الصافي – كرة التي فصلها السنائي في واحدة من ترنيمة العظيمة للحق سبحانه في بداية " حديقة الحقيقة ". و على الإنسان أن يقطع طريقا طويلا و صعبا لكي يتعرف هذه الوحدة الإلهية وراء التفاعل الملون للأضداد الذي قد يفضي به شيئا فشيئا إلى الحقيقة. و التحقيق الوجودي الصحيح للاعتقاد بالوحدة الإلهية يستلزم فناء الإنسان:

ما حقيقة توحيد الله؟ - أن يحرق الإنسان نفسه أمام الواحد. و مهما حاول العاشق أو الباحث في الإلهيات أن يصف الله (سبحانه) أو على نحو أصح يحدده، فليس في مقدورهما " وصف خال من ذلك الجمال. و يعرف الناس أن كل شيء يرجع إليه، و أن " يد الله فوق أيديهم " (الفتح 10) و أنه منه تأخذ السحب ماءها و إليه تعود السيول.

ولا شك في أن هذا ليس بيانا فلسفيا بل إيمانا راسخا بمطلقية الله بوصفه الخالق الذي خلع على العدم رداء تشریف الوجود و سيأمر العالم بالانتهاء و العودة إلى العدم متى قرر ضرورة ذلك. و إن تقديم أي تحديد له، في أية حال، أمر مستحيل:

كل ما تفكر فيه قابل للفناء، أما ذلك الذي لا يدخل في الفكر فهو الله.

اسمه يفر من النطق و مهما تصور الإنسان بشأنه فإنه مختلف، يشرق حينما كالقمر في السماء و يومض حينما كانعكاس القمر في حوض الماء بلحظة واحدة يضع " طرف لطفه " في يد الإنسان و بعدئذ يغدو غير مرئي " كسهم ينطلق من القوس " كما يغني الرومي في واحد من أجمل أغزاله. و ليس ثمة مكان يمكن أن يوجد فيه – ليس حتى في " اللامكان "، ال " مكان الذي وراء الأمكنة " خارج الزمان و المكان. لكن الن هناك مكانا واحدا يستطيع الإنسان أن يأمل أن يجد فيه الله. ألم يخبر الحق نفسه (سبحانه) النبي في حديث قدسي:

" لا تسعني أرضي ولا سمائي و يسعني

قلب عبدي المؤمن "؟

فالقلب المنكسر في عبودية دائمة للحق، المهشم تحت ضربات الابتلاء، شبيه بالخرائب التي تحتوي أنفس الكنوز – و ذلك كنز " الله " الذي أراد أن يعرف. و بإدراك الإنسان تفاهته و فقره المطلق يجد " الكنز " أقرب إليه من حبل وريده، وفقا للحديث: " إذا عرف نفسه

النقطة الرئيسة في رؤية الرّوميّ للخلق هي مسألة الخلق من العدم *ex nihilo* – الله أوجد كل شيء من "عدم". وفي حالات نادرة فقط يذهب إلى أن "العدم" لا يقبل "الوجود" – لكن ربطا كهذا لا يحدث، بقدر ما أستطيع أن أفهم إلا بمعنى أخلاقي، أي أنك عندما تزرع الحنظل لا يمكن أن تتوقع أن ينمو قصب السكر منه. و لم يكيل الرّوميّ من تكرار القول إن الخالق الإلهي و المعشوق قد أحدث الإنسان و كل شيء من العدم:

ألم يكن "أنا" و "نحن" عدما منحه الله بلطفه

رداء شرف "انا" و "نحن"؟.

العدم مثل صندوق تطلب منه المخلوقات و (لعلنا نتذكر حكاية العطار حول لاعب الدمى و صندوقه الذي يأخذ منه دماه ثم يلقيها فيه، كما هو مذكور في "اشترنامه"):

مئات الآلاف من الطيور تطير على نحو رائع من العدم

مئات الآلاف من السهام تنطلق من تلك القوس الواحدة!

لولا المعشوق الإلهي لكان الإنسان عدما، أو حتى أقل من هذا، لأن العدم قابل لأن يتحول إلى وجود – أما دون المعشوق فإن الإنسان غير قابل للوجود البتة.

المعشوق يولد الإنسان من عدم يجلسه على العرش،

يعطيه مرأه.

من هذا العدم تنبثق آلاف العوالم و ليس في وسع قطرة واحدة أن تتوارى و تخفي نفسها في العدم عندما يخاطبها الحق و يدعوها إلى الوجود. و كل ورقة و كل شجرة خضراء في الربيع تغدو، لدى جلال الدين، رسولا من العدم، ذلك لأنها تشير إلى قدرة الحق على خلق أشياء رائعة من العدم.

العدم هو الخزانة و المنجم الذي منه يصنع الحق، بوصفه المبدع، كل شيء يطلع الفرع دون أصل و سند و هذا مبعث أن كل أحد ينشد العدم بوصفه شرطا قبليا

للوجود.

فقد ربطت وجودنا بالعدم المطلق

وربطت مرادنا بشرط التخلي عن المراد.

العدم هو البقعة الخفية التي أخفاها الحق تحت حجاب الوجود، إنه البحر الذي لا يرى منه سوى الزبد، أو الريح التي لا تدرك إلا من خلال حركة الغبار المثار. العدم هو سليمان و المخلوقات كالنمل أمامه. وقد أكد القرآن أن الله " يخرج الحي من الميت " (الانعام 59 إلخ) و ذلك يعني، بلغة علمية أنه يحدث الوجود من العدم. يتلو الحق رقي على العدم- المسكين الذي لا عين له ولا أذن - فيحوّله إلى موجودات، ليعيدها برقية أخرى إلى العدد الثاني. مئات الآلاف من الأشياء الخفية تنتظر في ذلك العدم أن تطلع بفعل الرحمة الإلهية و أن تخرج في رقص ثمل على جرس الكلمة الإلهية، و أن تنمو أزاهير و حسناوات، لأنه

أظهر للعدم لذة الوجود.

في العدم يختفي العشق و اللطف و القدرة و الرؤية و حركاته المثارة تجعل صور الوجود تظهر كالأموج أو تجعل مائة مطحنة تدور موكب تخرج من العدم يوما بعد يوم و هكذا فإن التجليين المتضادين - الوجود و العدم - يكونان مرئيين دائما. ولا يعرف الإنسان ما إذا كانت التجليات المستدعاة من العدم المهم ستكون خيرا أو شرا نسبة إلى ما يخلق - فقد تكون سكرًا لدي أحدهم، لكنها سم لدى الآخر. و لكن حتى لو خرج ألف عالم من العدم، لن تكون أكثر من خال في خده.

صحاري العدم مملوءة بالأشواق - و صوره القافلة تذكر مرة أخرى عند نهاية حيا الرّوميّ. كل جيوش تفكير القلب

راية واحدة من جند العدم.

و الحق يعلم كل هذه الأشكال التي لا تزال مخفية في العدم و في طوقه (سبحانه) أن يستدعيها في اللحظة التي تكون فيها مطلوبة:

حتى تعلم أن في العدم شمسًا،

و ذلك الذي هو شمس هنا، يغدو هناك مثل السها.

و مهما يكن فإن العاشق يجرب العدم على نحو مختلف: يشعر بأنه معدوم تماما دون قوة العشق التي تجعله موجودا حقا:

يا أمير الحسن، أضحك العين،

و اخلع الوجود على حفنة العدم!

و صورة العدم بوصفه صندوقاً منجماً أو بحراً يمكن أن تفضي بسهولة إلى استنتاج أن الخلق يكمن في إعطاء شكل لكيونات موجودة سابقا على الأقل في العلم الإلهي. - فهو أيضاً المنزلة النهائية و نهاية كل شيء و في حالات كثيرة يؤثر المرء ان يستبدل بالعدم مصطلح " الفناء " و لكن في حالات أخرى يبدو العدم يفضي إلى ما هو أعمق. و مثلما يعيد لاعب الدمي في " أشرتري نامه " للعطار الدمى إلى صندوق الوحدة، عبر الرّوميّ أحيانا عن الإحساس بأن العدم هو ليج الحياة الإلهية، الذي هو وراء كل شيء يمكن تصوره حتى وراء " الحق الموحى به " قد ندعوه غيب الغيوب sutidnocsba sued أو العدم المطلق، او العالم الكائن وراء كل شيء و الذي فيه تولد الأضداد مرة أخرى معا.

إن استطعت فقط أن تعرف ما هو أمامك،

فإن كل وجود يغدو عدما!

و لذلك فإن " صحراء العدم " تكون مساوية " لحديقة إرم " تلك الحدائق الساحرة الموصوفة في القرآن. و ليس ثمة نهاية للأشعار التي تتحدث، بإيقاعات راقصة غالبا، عن جمال العدم - كهذه الأبيات: عندما صرت فانيا فيك، و أصبحت ذلك الذي تعرفه، أمسكت بكأس العدم فعبيت خمرتها كأسا كاسا...

هذه اللحظة، كل لحظة، أعطني خمرة العدم،

و منذ أن دخلت في العدم، لا أعرف البيت من السقف.

و عندما يتزايد عدمك تسجد النفس أمامك مائة سجود،

يا من ألف وجود عبيد أمام عدمك.

أصعد موجة من العدم، لكي تأخذني بعيدا -

كم سأذهب خطوه خطوه على شاطئ البحر؟

قال الروميّ مرة إن العدم كالشرق، أما النهاية (الأجل) فكالغرب، و الإنسان يتجول بين الاثنين نحو سماء أخرى أعلى. و يمكن أن نسمي هذه " السماء الأخرى " ال " عدم المطلق " المحطة الأخيرة للإنسان على طريقة خلال الدنيا:

ثبت عينيك على العدم و انظر العجب -

أية آمال مدهشة في اليأس!

و هذا العدم المطلق هو الذي يعادل تقريبا بالذات الإلهية في الأبيات الشهيرة حول السلسلة الصاعدة للوجود:

إذ أصبح عدما، و العدم كالأرغنون يتغني لي قائلا:

" و إنا إليه راجعون " (البقرة 156).

و هذا العدم:

بحر، و نحن الأسماك، و الوجود كالشبكة

و متى يعرف طعم البحر كل من وقع في شباكه؟

و في العدم، تنتقل قافلة الأنفس لترعى كل ليلة على الطريق الخفي الذي يربطها بالله، إنه المكان الذي يذهب إليه الأولياء و العشاق - يرون حلما دون أن يناموا، ويدخلون العدم دون باب. في هذا العدم " ينصب العشاق خيامهم " متحدين اتحادا تاما دون تمييز، ذلك لأنه منجم الروح المصفي.

و ههنا في طريق الصمت المطبق، يستطيع الإنسان أن يصير معدوما، غائبا عن نفسه و في صمته يتحول تماما إلى " حمد و ثناء " و في العدم كل العقد و التعقيدات تحل. و يتغني الروميّ بجمال هذه الحال:

شكرا لذلك العدم الذي اختطف وجودنا،

ومن عشق ذلك العدم جاء عالم الروح إلى الوجود.

و حيثما حل العدم تضاءل الوجود،

فطوبى للعدم الذي عندما جاء زاد بسببه الوجود!

لسنوات اختطفت الوجود من العدم،

و بنظرة واحدة اختطف العدم مني ذلك كله.

خلصني من نفسي و مما هو أمامي و من النفس التي تفكر بالموت، خلصني من الخوف و الرجاء خلصني من الريح و من الكينونة.

إن جبل الوجود كالقش أمام ربح العدم،

و أي جبل لم يختطفه العدم كالقش؟

و لعنا نرى في الصورة المجازية المفصلة للعدم لدى الرّوميّ – التي هي على الحقيقة أحد التعبيرات الرئيسة في عمله الشعري الكامل – صدى لنظرية الجنيد، المعرفة جيدا لدي جمهرة الصوفيّة، التي تذهب إلى أن الإنسان ينبغي أن يغدو في النهاية مثلما كان قبل أن يوجد. و أحد أبيات الرّوميّ تصرف في قول مأثور شهير للجنيد:

صر عدما عدما من الأنا لأنه

لا جناية أسوأ من وجودك.

ولأن العدم كان حال الأشياء عندما خاطبها الحق بعبارة: "ألست بربكم؟" (الأعراف 172) فإن هدف الصوفيّ هو العودة مرة أخرى إلى هذا العدم، إلى العدم غير المميز الذي منه وثب كل شيء موجود في طواعية مبتهجة للأمر الإلهي.

لكن ثمة شيئا أسمي و أكثر شمولاً حتى من العدم، و ذلك هو العشق:

فإن أذن العدم في يده و الوجود و العدم يعتمدان عليه.

و قد وصف الرّوميّ العالم في صور مختلفة. ولا شك في أنه تجل للقدره المبدعه للحق، و جسر يقود الإنسان مرة أخرى إلى الله، حتى على الرغم من أنه لا يستطيع إلا أن ترى التناقض الظاهري للعالم رغم نظره إلى تجلياته بعين الإيمان. العالم ميدان للصراع و المغالبة و فيه

تصارع الذرة الذرة الأخرى، كما يصارع الإيمان الكفر،

و القوى النابذه للذرات المختلفة تهدد تناغمه إذا ما نسيت اعتمادها المطلق على الله و حاولت أن تعتمد فقط على قوتها الخادعة. أحيانا يرى الرّوميّ العالم كله مجمدا، منتظرا شمس الروح لتبعث فيه الحركة من جديد و الصور المتعددة المرتبطة بالمظهر الشتوي - الغربان، و الزاغ و الثلج و الظلمة - تنتهي إلى هذه الصورة من العالم الحادث. حتى إن مولانا يعبر أحيانا عن الكره الصوفيّ القديم للدينا، التي وصفت بأنها جيفة أو دمنة لا تزار إلا عند الضرورة و أولئك الذين يلزمونها أو يتشبثون بها أدنى مرتبة من الكلاب. مثل هذا الوصف للعالم الحادث قابل للتطبيق في أية حال فقط بقدر ما يعده ذوو التفكير المادي قيما في ذاته، و ينسون أن الحق أتى به إلى الوجود لتجلية قدرته سبحانه. و ابتغاء توجيه أمثال هؤلاء الناس نحو الخلفية الروحية للخلق، يقف الرّوميّ بقوة عند الصورة المجازية القديمة للزهد التي تظهر نفسها في المقام الأول في تشبيهاته الحيوانية. (الفصل الثاني 40).

و ثمة أيضا مقطع شهير في المثنوي يذهب فيه إلى أن العالم هو الشكل الخارجي للعقل الكلي "عقل كل" الذي هو الأب لكل من يخاطب بالكلمة الإلهية "قل"! لكن هذا الوصف متماسك قليلا مثل الصور المجازية الأخرى للعالم لدى الرّوميّ.

و الشاعر أيضا قد يفسر العالم بوصفه حلما. و ههنا لديه قرار نبوي - كان الحديث المؤثر عند الصوفيّة "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" و حديثا آخر يذهب إلى أن الدنيا "كحلم النائم". ألا يختفي هذا العالم عندما يغمض الإنسان عينيه أو يمضي إلى النوم عندما يؤخذ إلى عوالم أخرى وراء عالم الإدراك الحسي؟

العالم عدم، و نحن عدم، خيال و نوم، و نحن مرتبكون -

و إذا كان للنائم أن يعرف "أنا نائم" - فأى

الحياة على الحقيقة كالتطواف في المنام و عندما يعتقد الإنسان أن الويلات و البليات مؤلمة حقيقة، يكون مخطئاً - إنها ذات حظ ضئيل من الحقيقة كالألم الذي يلقاه الإنسان في منام سيئ هذه " الأحلام " ليست سوى اشتقاق من المصدر الأصلي للحياة، ليست شيئاً مستقلاً، و على الرغم من ذلك فإنها علامات تشير إلى حقيقة أعمق. و من هنا يتحدث الرومي عن " النوم الثاني " الذي يعمل فيه الإنسان، لكنه واقعي إلى الحد الذي يحذر فيه الإنسان من أن يتصور أن هذه التي تسمى أحلاماً، أي أفعاله و عواطفه على الأرض لا قيمة لها: إنها على الأصح أمارات لحقيقة روحية خفية و أى شيء " حلم " به الإنسان هنا سيغدو ظاهراً على صباح الأزل، عندما يعبر الحق رؤي البشر و أحلامهم و يكشف مغزاها.

مضى الليل و حديثنا لم يصل إلى نهاية،

كما يقول مولانا مع الجمع القديم الذي يعاد كثيراً بين " الحديث " و " النوم " و الذي غدا واضحاً جداً في الشعر الصوفي المتأخر. و استمتع شعراء التصوف المتأخرون بنظرية " الدنيا حلم " بوصفها عزاء إزاء آلام الحياة. أما من وجهة أولى فإن مثل هذه الفكر تدفعهم إلى عدم المبالاة و التسوية بين الأمور، و أما من وجهة أخرى فقد تبعث فيهم إبان النوازل و الكوارث شيئاً من الأمل، أمل يتمثل في أنهم لم يكونوا إلا في حلم مروع لا حقيقة له. و مهما يكن من شيء، فحتى فكره أن العالم يمكن أن يشبه بحلم يحولها الرومي إلى شيء إيجابي: لأن يقظة الإنسان على الصباح المشرق عندما يسطع عليه الأزل ستكون موافقة لأحلامه: من رأى حديقة ورد في حلمه الدنيوي سيستيقظ في تلك الحديقة نفسها.

الأنبياء و الأولياء فقط قادرون على كشف الطبيعة الحقيقية لهذه الأحلام على الأرض كما قال نبي الإسلام (عليه الصلاة و السلام) تنام عيناى و لا ينام قلبي. وهم يعرفون أنه حتى الأحلام يوجهها الحق، و ينظرون من خلال حجابهم إلى الحقيقة، مدركين خالق الأحلام و النوم الذي سيدعوهم صباح يوم الحساب. و قصة حلم الفيل أنه رأى الهند تنتمي إلى هذه الصورة المجازية: في غمرة نوم الغفلة الذي يذكركم بوطنهم المفقود و المنسي منذ زمن بعيد ثم، بعد أن يقطعوا خيوط عالم المادة ينطلقون في رحلة البحث عن هذا البلد بلد الحق الذي هو وراء الحلم و اليقظة.

ولكن مهما أثبتت أشعار الرّوميّ بشأن العالم فإنه يرجع من أي استطراد ممكن إلى فكرته الرئيسية في أن العالم قيم بوصفه مكانا للتجلي الإلهي:

اعلم أن العالم مثل طور سيناء و نحن طلاب مثل موسى، و في كل لحظة يأتي تجل فيشق الجبل.

قطعة تغدو خضراء و قطعة تغدو عميرا

و قطعة تغدو جوهرا، و قطعة تغدو ياقوت و عنبرا..

و الإنسان في هذا العالم معتمد اعتمادا تاما على إرادة الحق:

لو جعلني كأسا، لصرت كأسا،

و لو جعلني خنجرا، لصرت خنجرا

لو جعلني ينبوعا، لأعطيت ماء،

و لو جعلني نارا، لأعطيت كدسا،

و لو جعلني سهما لا ندفعت في الجسم.

لو جعلني ثعبانا لنزرت السم

و لو جعلني حبيبا، لخدمت.

على الإنسان أن يعترف أن الله مصدر كل شيء و أنه دون كلمته سبحانه لن يكون كل ما يملكه الإنسان – و ينطبق هذا ليس على افسان فقط بل على جملة الخلق – هبة الحق و علامة على قدرته المبدعة، غريبة على غرار ما يمكن أن تبدو تجلياته و تظاهراته لعين المنكر. أما أرباب القلوب المنورة، الذين ينظرون وراء قشرة الصور المادية فيرون الترتيبات الحكيمة للأحداث و إذ يكونون مستغرقين في الحق فإنهم يفهمون مراده (سبحانه). و كل الصور المجازية المختلفة و التشبيهات و السلاسل الطويلة من التعبيرات المكرورة و الأدعية و التوسلات و التمجيدات و المعالجات الفلسفية لمشكلة "كيف نصف الحق" – هذه جميعا – يمكن أن تلخص لدى جلال الدين في هذا البيت الواثق:

لو أغلق أمامك كل الطرق و الممرات،
لأظهر لك طريقا خفيا لا يعرفه أحد.

ولقد كرمنا بني آدم.....

الإنسان وموقعه في آثار الرومي:

أحوال الإنسان كحال قوم أخذوا ريش الملاك و ربطوه

بذيل حمار، لعل الحمار من شعاع

الملاك و عشرته يصبح ملاكا.

هكذا يصف الروميّ الوضع الغريب للإنسان – فالإنسان هو الشخصية الرئيسة في خلق الله، نائب الحق على هذه الأرض و رغم ذلك، هو المخلوق الأكثر عرضه للخطر. و لا يني جلال الدين يذكر الإنسان بمتزلته الأصلية العالية، كما يؤكد ذلك الكثير من الآيات القرآنية.

فقد كنا في الفلك رفقاء للملك.

فانذهب إلى هناك مرة أخرى كلنا، فتلك مدينتنا.

خلق الإنسان كما يقول الروميّ في صورة أسطورية من الرشفة الاولى من الخمرة الإلهية التي سقطت في التراب، أما جبريل كبير الملائكة فقد خلق من تلك الرشفة التي سقطت في السماء.

ألم يخاطب الحق الإنسان بكلمة " كرمنا" و لقد كرمنا بني آدم (الإسراء 70)؟ " كرمنا " هذه مثل التاج للإنسان مثلما أن الكلمة الإلهية " أعطيناك " إنا أعطيناك الكوثر " (الكوثر 1) قلاذته. أو إن العشق يمكن أن يرى بوصفه رداء التشريف مجموعا مع قلاذة " كرمنا" – أعني أن الإنسان وحده بين خلق الله جميعا قادر على أن يعشق

العشق الصادق. و قد غدا، بهذا التشريف المضاعف، الجوهر الحقيقي للخلق الذي ليست السماء قياسا إليه سوى عرض خارجي،

لأن السماء لم تسمع مثل هذا الخطاب الإلهي. و يقينا فإن الحق عرض " الأمانة " على السماء و الأرض الإلهي. و يقينا فإن الحق عرض " الأمانة " على السماء و الأرض، لكن الإنسان وحده تحملها (الأحزاب 27):

صرت حمالا لتلك الأمانة التي لم تقبلها السماء،

اعتمادا على عون سيأتي من لطفك.

لأنه:

رغم أن السماء و الأرض تؤديان كثيرا من الأعمال المدهشة، لم يقل الحق: " و لقد كرمتنا السماء و الأرض ". و قد وضع الحق تعالى ثمنا عظيما للإنسان: أيمن لأحد أن يستخدم السيف الهندي النفيس سكين جزار، أو الخنجر المجوهر مسمارا لتعليق قرعة مكسرة؟

و قد غدا الإنسان بهذه الأمانة – سواء أفسرت بأنها العشق، أم حرية الإرادة – الجزء الأكثر نفاسة و قيمة من الخلق، و الذي لا ينبغي أن يساء إليه، ذلك أن الحق سيشتري نفسه، أخيرا، ليأتي بها إلى أسمى القمم الروحية.

أعظم هدية و هبها الله للإنسان أنه " علمه الأسماء " (البقرة 31) – و كثيرا ما أشار الرّوميّ إلى هذا الفعل الرائع من أفعال الرحمة الذي أعطى للإنسان المنزلة العليا في الكون، و جعله " أمير علم الأسماء " (كما يقول في تركيب عربي تركي غريب) و هكذا كان في حوزته آلاف العلوم في كل عرق. و الأسماء التي علمه إيها الحق أولا لم تكن الأسماء الخارجية " في لباس العين و اللام " أي لباس الأحرف المكتوبة و المنطوقة بل تلك التي ليست مغطاة بغطاء الأحرف الخارجية، فقد كانت الحكمة التي كانت على اللوح المحفوظ و هكذا غدا الإنسان حقا أسمى من الملائكة. حتى من أولئك الذين يحملون عرش ربك.

فإن معرفة اسم الشيء تعني امتلاك القدرة عليه، و التصرف فيه: و هكذا فإن

الحق يجعله الإنسان قادرا على دعوة كل شيء باسمه، إنما جعله الحاكم الحقيقي للأرض و ما فيها. و على الرغم من ذلك فإن الإنسان بعج هبوطه لا يعرف إلا جزءا من الأسماء - و السر الخفي وراءها لا يعرفه إلا الله: سمي موسى عوده المعجز باسم "عصا" لكن الحق عرف أن اسمه " ثعبان" و عمر رغم أنه سمي لدي مواطنيه عابد الصنم، سمي " مؤمنا" من قبل في الأزل. ورغم كون آدم عارفا سر الأسماء، فإن الإنسان في حاله الراهنة يستطيع تسمية الأجزاء المرئية للشيء فقط، و بقدر ما يمكن أن تكشف الأسماء الطبيعة الصحيحة للشخص، يمكنها أن تفيد أيضًا في ستر السر و إخفائه: قصة زليخا التي عنت بالآف الأسماء ذاتا واحدة فقط، أي معشوقها يوسف مثال رائع للخاصية الساترة للأسماء التي يصنعها الإنسان.

اختير الإنسان بسبب صلته الخاصة بالحق عندما كانت إنسانية المستقبل ما تزال مخفية في صلب آدم الذي لما يخلق، بالخطاب الإلهي: " أأست بربكم؟ " كما يقدر القرآن (الأعراف 172). أجيال المستقبل أجابت " بلى، شهدنا " و منذ ذلك اليوم - يوم الميثاق الأول - نمت و عاشت تحت سلطان هذا الخطاب الإلهي. و هذه الآية القرآنية التي أولها الشعراء و الصوفيّة وتصرفوا فيها على نحو شعري حالم بوصفها " مادبة أأست " شكلت حجر الزواية في المباحث الإلهية الصوفيّة على الأقل منذ أيام الجنيد (ت 892هـ 019م). و ليس عجيبا أن الرّوميّ لجأ دائما إلى قصة هذا الميثاق، الذي يظهر بجلاء تام أن الكلمة الأولى قالها الحق، مخاطبا الإنسان و من ثم مؤسسا مرة و إلى الأبد حاكميته على حياة الإنسان، الإنسان الذي يقدر أن يتكلم فقط، أو على الأصح يجب إن جعله الحق قادرا على ذلك. و " أأست الإلهي و الجواب الإنساني " بلى " يمثلان ختم القلب و لذلك فإن هذا العضو مشدود دائما إلى الإقرار بقدره الحق و حبه اللذين لا حدود لهما. و تتخيل مشدود دائما إلى الإقرار بقدره الحق و حبه اللذين لا حدود لهما. و تتخيل قلوب البشر نملة من كأس " أأست " من خمرة الأزل إنها كما يقول الرّوميّ مرة، ثملة في طريق أعمال الطاعة. الوجود الكامل للإنسان معلق بين هذه البداية للتاريخ - أو على الأصح ماوراء التاريخ - و نهاية الزمان، يوم الحساب: و لذلك فإن الشعراء و الصوفيّة يتحدثون عن اليوم الواحد لحياة الإنسان بين أمس " يوم أأست " و غد النشور وفقا للفكرة القرآنية في أن يوم الحساب عند كل كائن بشري هو الغد الحقيقي.

من رأى سعادة الأزل،

لا يخشى عاقبة الأبد.

و الشراب الذي تذوقه الإنسان في ذلك اليوم سيساعده على التمييز بين الخير و الشر - و مثل موسى الذي ميز لبن أمه من بين كل الأظآر، سيميز الإنسان ما هو خير له. هذا الخطاب الإلهي الأول يقود الإنسان إلى حياة واعية و مسؤولة لكنه يقوده أيضًا، إذا ما فهمه فهما صحيحا، إلى الفناء. لأن هدف الصوفي كما عبر عنه الجنيد، أن يغدو معدوما مثلما كان يوم الميثاق - و نهايته (في العدم) هي العودة إلى بدايته (في العدم).

و ذلك مبعث أن نور وجه الحبيب يذكر الرّوميّ ب " عهد ألتست " لأنه (الحبيب) هو الذي يقود الباحث إلى الحال النهائية للوصال. تعني " ألتست " اللحظة التي لا تزال الوحدة فيها تسود - و من هذه الوحدة تنبثق النفوس كالسيول و لكن بمجرد أن يسمع الخطاب مرة أخرى ينتهي طريق السيول إلى البحر:

جاء موج ألتست فتحطمت سفينة القالب،

و عندما تحطمت السفينة، حان وقت الوصال و اللقاء.

و قد استنبط الصوفيّة جناسا رائعا من الإجابة البشرية عن الخطاب الإلهي: كلمة " بلى " أولت بمعني " بلاء ".

لحظة نكون شراب البلاء في طريق العشق القديم،

و لحظة أخرى نكون القائلين " بلى " في مناجاة " ألتست ".

قال هو: " ألتست " و قلت أنت: " بلى "،

فما شكر " بلى "؟ - الخضوع ل " البلاء ".

و هذا البلاء يراد منه أن يكون محكا للإنسان: ففقط إذا كانت إجابته الأولى مخلصه، سيكون قادرا على تحمل البلاء ممتنا و كلما كانت مرتبته في المأدبة الإلهية عالية، عظم مقدار المعاناة التي يكون عليه أن يتحملها: و ذلك هو السبب في أن الأنبياء يعانون أعظم البلاء. و يرى الرّوميّ معشوقه " شمس " بين الأوائل الذين كانوا أقرب، إن جاز التعبير إلى النبع الإلهي.

و مهما يكن من شيء، فإن " ألتست " هذه ليست عملا فريدا - ذاك أن الحق يعيدها

كل لحظة لأن العالم يخلق من جديد كل لحظة حسب اعتقاد الأشاعرة، ورغم أن الجواهر والأعراض لا تجيب بـ "بلى" صراحة،

التي هي ميزة للإنسان وحده فإن ظهورها نفسه من العدم شهادته على إجابتها الإيجابية للخطاب الإلهي "كن!".

لكن الإنسان نسي قسمه الأول حالا، رغم كل المنن التي من بها الحق على آدم الذي عجن لمدة أربعين يوما بيدي القدير، و كان "عين النور القديم" وهذا سبب أن تجاوزه الأول - خطوته في المتع الحسية - عد صعبا جدا، و مؤلما جدا - مثل شعرة في العين. هبوطه من الجنة كان بسبب اختلاطه بالحية بحرية تامة - وهو تحذير لكل إنسان يختلط برفقاء غير لائقين و سيئين يجعلونه متعلقا بالمادة و يعرضون مساعيه للخطر.

و الطريق إلى الوطن لا يمكن الوصول إليه إلا بالنواح الدائم - "فمن أجل البكاء هبط آدم إلى الأرض، و ينبغي أن يكون نموذجا للتقي الذي سيحاول بتوبته الدائمة، أن يجد طريق العودة إلى الفردوس المفقود إلى المكان الذي منه نفوا. بكى آدم لمدة ثلاث مائة سنة ليظفر من جديد برضى الحق مطمئنا إلى الوعد الإلهي "لا تقنطوا" (الزمر 35) - وروضة الورد وحيدة في قلب الشتاء تتابع مثاله ولا تقنط.

و الإنسان الذي وقع في إसार العناصر الأربعة يعد هذا العالم سجنه: بقيت في حبس الدنيا من أجل الإصلاح،

فلم الحبس و لم أنا؟ مال من سقرت؟

الإنسان في حياته الحاضرة يمكن أن تشبه بالشرارة الكامنة في الحديد، فهو "مقيد بالنوم و الطعام" و تظل نفسه غير مرئية إذا لم تترك سجنها المظلم. و الشرارة تغدي أولا بالقطن و بمجرد أن تطلقها يد الشيخ، فإن نار النفس تمتد إلى السموات فيكون مرة أخرى أسمي من الملائكة و كثيرا ما تأمل الرومي على غرار معظم الصوفيّة، الحال الثنائية للإنسان: بفضل التكريم الإلهي "كرمنا" صار "نصف الناس" نحل غسل و نصفهم الآخر حيات "كل ما يأكله المؤمنون - سواء أكان ماديا أم روحيا - سيتحول إلى مادة واهبة للحياة أما الآخرون فينتجون بكل عمل سما مميتا لأنفسهم و للآخرين.

تخلص الملاك بالعلم و تخلصت الهيمة بالجهل،

و ظل ابن الإنسان متنازعا بين الاثنين.

يكون الإنسان أحيانا كالشمس ثم كالمحيط المملوء باللاليء الذي يحمل في داخله ألق السماء لكنه ظاهريا وضيع كالتراب. و في صورة استخدمها في الأزمنة المتأخرة كثير من شعراء الفرس و هي معروفة لدى القراء الإنكليز بفضل " صلوات " لجون دن (John D. snoitoveD يقول الرّوميّ:

الإنسان كتاب عظيم، مكتوب فيه كل الأشياء،

لكن الحجب و الظلمات لا تأذن له بأن يقرأ

ذلك العلم دون نفسه. و الحجب و الظلمات هي هذه الانشغالات المختلفة و التدبيرات و الرغائب الدنيوية المتنوعة....

لكن الإنسان ينسى عادة المنزلة العالية التي حباه الحق إياها، لا يعرف نفسه و يبيع نفسه رخيصة: كان أطللس فخط نفسه على دلق (خرقة). و يوضح الرّوميّ هذه الحقيقة المحزنة بالقصة المضحكة

للرجل الذي أسرع إلى أحد البيوت بحثا عن ملجأ لأن الصيادين في الخارج كانوا يصطادون الحمير. و كان على صاحب المنزل أن يقنعه بأنه لم يكن حمارا أبدا و ليس له أن يخشى الصيادين، بل هو " عيسى " الذي مكانه في السماء الرابعة و ليس في الإصطبل. و يظهر هذا كيف أن الإنسان يبحث عن مكانه في إصطبل عالم المادة هذا. بدلا من أن يمضي إلى ملاذه السماوي.

و يقينا " ليس كل مخلوق له وجه إنسان كائنا إنسانيا " كما يؤكد الرّوميّ موافقا في ذلك رأى السنائيّ. الناس مختلفون تماما – ألم يشههم النبي (عليه السلام) بالمعادن ذات المحتويات المختلفة؟

- إنهم يختلفون اختلاف أحرف الألفباء مطلوبة كلها من أجل إحداث كتابة و نص معقول، أو إن الشاعر قد يرى الأجسام مثل أباريق تصب فيها الأثرية الحلوة و المرة من الصفات الخلقية و هذا مبعث اختلافات البشر التي ينبغي أن يظن ألها الباحث.

لم يكون الإنسان مهملاً كثيراً لمنزلته العالية؟ - و كل شيء خلق من أجله، كما يشهد على ذلك القرآن:

لا عجب إذا سجد الملك أمام آدم، فإنه من أجل التراب جعل الفلك سقاء و غلاما.

و من أجله خلقت البحار و الجبال و النمر و الأسود خائفة منه كأنها الفئران و التماسيح يرتجف و جلا، و العفاريث تخفي نفسها عنه. أعداؤه المخفيون كثيرون لكنه إذا عمل بحذر فسيكون محصنا يقينا. و يخال الرومي أن الحيوانات منحطة في المنزلة بقدر عصيانها له.

و مهما يكن من شيء، فإنه عند الحق وحده تغدو هذه المنزلة الرفيعة للإنسان ملموسة أيضاً و طالما أنه يستمد نوره من الحق فإنه يظل الكائن الذي سجدت الملائكة أمامه. و في يدي الحق فقط يكون شبيهاً بعصا موسى أو برقية المسيح التي تبعث الحياة، قادرا على القيام بمعجزات

كابتلاع العالم المحدث كله، كما لفقت حية موسى حيات السحرة.

ولو تذكر الإنسان فقط أن الله خلقه " في أحسن تقويم " (التين4) بل وفقاً لحديث مشهور في صورته (سبحانه) إذ نفخ فيه من روحه (سورة ص 27 ومواضع أخرى) مزوداً بهذه الخاصيات لغدا (الإنسان) أسطرلاب الصفات الإلهية السامية عاكساً الصفات الإلهية كما يعكس الماء القمر، إذ تنفذ عليه أعمال القدرة الكلية و تغدو مرئية و يقدم قرص هذا الأسطرلاب دائماً أنباء عن عظمة الحق، شرط أن يعرف الإنسان كيف يقرأ و يفسر حاله و موقفه. و آدم في صورته الخارجية قد يسمى عالماً أصغر msocorcim أما في معناه الباطن فإنه "عالم أكبر msocorcama <

وجود الآمي إذ يقول الحق " و لقد كرمنا بني آدم -"

أسطرلاب الحق. و عندما يجعل الحق تعالى الإنسان عالماً به و عارفاً له، فإنه يرى بأسطرلاب وجوده تجلي الحق و جماله الذي لا يوصف لحظة لحظة و لمحة لمحة و أن ذلك الجمال لا يغيب عن مرآته.

أو قد يشبه الرومي مادة الإنسان بالراية -

يجعل (الحق) أولا الرأية ترفرف في الهواء و بعد ذلك يرسل الجيوش إلى قاعدة تلك الرأية من كل طرف يعلمه الحق وحده من العقل و الفهم و الغيظ و الغضب و الحلم و الكرم و الخوف و الرجاء، و أحوال لا تنتهي وصفات لا حد لها. و من ينظر من بعيد لا يرى سوى الرأية أما من يعاين عن قرب اليد فإنه يعرف الجواهر و الحقائق الكامنة فيها.

المشكلة الرئيسة أن أفراد قليلين فقط يحاولون إعادة بناء منزلتهم العالية السابقة، أو حتى يكونون منتمين إليها. و معظم شراح الرّوميّ استمدوا هذه الفكر حول المنزلة العالية للإنسان إلى أصله، ترقى الإنسان الكامل و تطوره بوصفه هدفا للخلق. لكنه يكفي إرجاع هذه الفكر إلى القرآن، إذ توجد الجمل التي تتحدث عن الوظيفة الثنائية للإنسان – خليفة الله في الأرض و المخلوق الغافل و الضال و المذنب – جنبا إلى جنب محيطة تقريبا بكل امكانيات السلوك الإنساني. صور الحق (سبحانه) الإنسان بأنه أسمى تجل لصفاته في خلقه و لأنه في كماله غاية هذا الخلق فإن كل شيء يتحرك نحوه، توافقا إلى " الإنسان " كل شيء من الجماد إلى الإنسان يطمح قاصدا أو غير قاصد إلى منزلة الإنسان الحق (مرد أو، كما يقول الصوفيّة الأتراك إلا) مقابلا للمخنت في لغة الصوفيّة خاصة في أشعار الرّوميّ: يظل الخصي مشدودا إلى متع الدنيا، ولا يركز على الطريق الروحي حصرا، لا يستسلم تماما للمحبة الإلهية.

حرفة أن أكون إنسانا تعلمتها من الحق،

أن أكون بطل العشق و حبيب أحمد (محمد).

مثل هذا " الإنسان " الذي طور كل صفاته السامية إلى أقصى قدر ممكن في الخدمة الدائمة للحق، نادرا ما يوجد في الدنيا و ذلك هو الذي جعل الرّوميّ يعيد كلمته بحثا عن الإنسان في مراحل عمله كلها: في القصائد الغنائية (ديوان شمس تبريزي) و في المثنوي في موضعين يحكي الرّوميّ قصة الرجل الذي كان يطوف حول المدينة و بيده مصباح باحثا عن الإنسان الحق (و هي القصة التي ترجع إلى ديوجينز) – لأنه بين أولئك السوقة الذين هم " كالأنعام بل هم أضل " (الأعراف 179) يستحيل تقريبا العثور على الإنسان. و أن يؤول المرء مثل هذه الآيات بالبحث عن المؤمن الصادق أو بالبحث عن " الإنسان الكامل " بالمعنى الإصطلاحي، إسلاما تاما لإدارة الحق و يعمل بمشيئته (سبحانه) متقدما جماعته على الطريق الروحي اللاحب كالمنازة التي تطفح بالنور الإلهي. و في هذا الشأن لابد من أن يتذكر المرء أن المصطلح التقني " الإنسان الكامل "، المحبب

جدا إلى الصوفيّة من مدرسة ابن عربي، لا يأتي ذكره هكذا في أعمال الرّوميّ.

و على الإنسان الكامل حقا يمكن أن ينطبق الحديث الذي يقول: " من عرف نفسه فقد عرف ربه " و يفسر هذا الحديث عادة بوصفه إشارة إلى المعرفة الروحية الباطنية: معرفة الإنسان أعمق أعماق نفسه تعني أن يكتشف أنها متوحدة مع الحق. و مهما يكن فإنه عند الرّوميّ يبرز مظهر آخر للتجربة الصوفيّة، كما يروي في قصة أياز، الذي كان كل صباح يتأمل ثيابه البالية القديمة ابتغاء أن يتذكر كيف كان بئسا معدما في الأصل و أن يدرك أن كل شيء قد أعطاه إياه الحق بكرمه و فضله الذي لا حدود له. و هكذا فإن الحديث عند الرّوميّ يعبر نسبيا عن شعور الفقير الكامل أمام الغني الأزلي و ليس اتحادا ماديا.

و إحدي المشكلات في خلق الإنسان هي صلته بالشيطان، إبليس الذي أبى أن يسجد لآدم (البقرة 43 ومواضع أخر) و كانت النتيجة أن لعنه الله. و آدم و إبليس، كما يقول الرّوميّ في صورة شعرية، مثل رايتين في الكون، إحداهما بيضاء و الأخرى سوداء: الإنسان، كما تجلى على نحو أكثر كمالا في شخص النبي محمد " كنز " رحمة الحق، أما الشيطان فكنز غضب الحق. و قد طور التصوّف المبكر نظريات غريبة

و مؤثرة: يمثل (الشيطان) في صورة العاشق العظيم الذي لم يرد عباده شيء غير الله و لذلك رفض السجود مطيعا لإرادة الإلهية، رغم عصيانه المر الإلهي. و لعل واحدا من أروع أغزال السنائيّ " شكوى الشيطان حظه المحزن.

و في الجملة فإن وجهة نظر الرّوميّ متفقة مع فقهاء المسلمين حول الشيطان، مبدأ العصيان أكثر من اتفاقها مع التأمّلات المحلقة بعيدا لدى الحلاج و أحمد الغزالي حول الوظيفة الفذة لإبليس بوصفه الموحد الحق الوحيد في العالم – الذي كان تقريبا " أكثر توحيدا من الحق نفسه ".

(سبحانه). و يرى الرّوميّ الشيطان تجليا للذنوب العظيمة من الكبر و الغرور: فقد لعنه الله لأنه قال: " أنا خير منه " و على النحو نفسه، فإن هبوط آدم إنما كان بسبب غروره و رغائبه الجسدية و استجابته لمطالب الفرج و البطن. و توصف أعمال الشيطان الهدامة في تاريخ البشرية على نحو مثير و يتهمه مولانا بأنه أول من استخدم القياس في اعتداده النار التي خلق منها أفضل من الطين الذي شكل منه آدم. و هكذا فإن إبليس يمكن أن يعد مبدأ للعقل " ذي العين الواحدة " ل " عدم العشق " لم ير

سوى الصورة الخارجية الترابية لأدام، و جعل الشرارة الإلهية المتوارية فيه مستخدما منهجا محظورا للمقارنة. و أخيراً يبلغ حديث الرّوميّ عن الشيطان ذروته في البيت:

الذكاء (زيركي) من إبليس، و العشق من آدم – وهو البيت الذي يشكل في زماننا محور فلسفة إقبال في الإنسانية. و يعتقد إقبال، متابعا في ذلك الرّوميّ، أن العقل دون عشق هو المرض الشيطاني للعالم، المرض الذي لا يسبب سقوط الإنسان فحسب بل إتلاف كل شيء جميل أيضاً. إن عين العقل لا يمكن أن تدرك الجمال الحقيقي المتواري وراء الصورة الخارجية، مثلما أخفيت النفخة الإلهية وراء شكل آدم و ينبغي على " المجنون" الإنسان الذي أصابه الجنون بسبب الهيام أن يرى جمال ليلي الفريد وراء الشكل الذي يبدو جامدا تماما عند أولئك الذين ليس لديهم حب و غلب عليهم العقل و من ثم ليسوا من البشر.

المخلوق الوحيد الذي يستطيع الشيطان أن يخفي فيه خدعة و كثيرا ما يستخدمه في إضلال الرجل، هو المرأة. لم يكن الاتجاه الصوفيّ التقليدي إيجابيا جدا إزاء المرأة – ليس أكثر كثيرا من المسيحية في القرون الوسطى رغم أن إعزاز النبي ل – " الجنس الجميل " و الدور المهم لنساء بيته، خاصة ابنته للنساء. سلم للنساء بمرتبة الولاية، كما كان يسلم بطاقتهم الروحية، و إن يكن ذلك على مضض أحيانا. و تعد رابعة العدوية المثل الأول الشهيرة للمرأة المسلمة في مرتبة الولاية، لكن الرّوميّ، المخلص لتقليد العصور الوسطى، يجعل أحد أبطاله يتهد:

أولا و أخيراً كان هبوطي بسبب المرأة!

كيد النساء عظيم و هن يجعلن النفس تهبط إلى عالم الوجود الجسدي بإغراء الرجل بالاتصال الجنسي. و لأن الصفة الهيمية تغلب على المرأة، فإنها تأتي بالأشياء إلى العالم المادي أي الحيواني. ألم يكن أول دم على الأرض، دم هابيل، سفك من أجل النساء؟

و يتفق الرّوميّ مع الحديث النبوي في أن الرجل ينبغي أن يستشير النساء و بعدئذ يعمل عكس نصيحتهم لأن النساء يمتلكن عقلا أقل من الرجال حتى حلم المرأة أقل صحة من حلم الرجل. ولا يستطيع المرأة أن تفهم الأسرار التي ينبغي أن يتعلمها الرجل:

ماذا يفعل عبد الصورة بنطاق (كمر) عشق الحق؟

و ماذا تفعل الأنثى المسكينة بالترس و الدبوس و السنان؟

المرأة امتحان للرجل، كما أكد الرومي في مقطع طويل من "فيه ما فيه" حيث يصف طريقا جيدا يوصل إلى الله:

ما ذلك الطريق؟ - طلب المرأة حتى يتحمل جور النساء و يسمع محالتهن و يقسون عليه و يهدبنه " و إنك لعلی خلق عظیم " و بتحمل جور النساء و الصبر عليه تكون كأنك تذهب نجاستك بهن. يغدو خلقك حسنا بسبب التحمل و يغدو خلقهن سيئا بسبب الاستبداد و التعدي. و عندما تكون قد تحققت من هذا، طهر نفسك. اعلم أنهم كقطعة القماش، تنظف بهن أوساخك و تغدو نظيفا.

و المثل الموضح لهذه الحقيقة العامة هو قصة امرأة الخرقاني السيئة في المثنوي، القصة التي يمكن أن توجد أشباهها على نطاق واسع في سير الصوفيّة. إلى أي مدي ينبغي أن نعد هذه الكلمات رأيا لجلال الدين، أمر غير محدد وزواجه مرتين لا يبدو غير موفق، و الرسائل الرقيقة التي كتبها إلى زوجته ابته تظهر مشاعره بقدر ما تظهرها الرسائل الأخرى الموجهة إلى السيدات الشريفات المحتد في قونية اللائي عملن من أجل الصوفيّة و قدن حياة دينية نموذجية... كذلك فإن الرومي لا يتردد في أن يرى النفس، النفس الشهوانية، في الصورة القديمة لا امرأة عنيدة و يستخدم لغة غاية في الفجاجة في تصوير " الدنيا " في صورة عجوز شمطاء قبيحة تلون وجهها البشع لتغوي أكبر قدر ممكن من الرجال، حتى إنها لا تتورع عن تمزيق القرآن المزخرف على نحو رائع لتمحو زخارفه الذهبية و الملونة فوق تجاعيدها.....

ورغم ذلك، و على نحو مفاجئ يتكلم مولانا بمزاج مختلف: ألم يقل النبي إن النساء كثيرا ما يغلبن العاقل؟ ومن هذا الحديث الحاسم المداعب إلى حد ما يطور الشاعر و صفا للنساء اللائي يقدمن الرقة، و المحبة، و هما من الصفات الإنسانية المتميزة، أما الرجل، الذي يمتلكه الغضب و الشهوة، فليده قدر من الصفات الحيوانية أكبر من تلك المرأة الحنون اللطيفة. و يقرر:

إنها شعاع الحق، و ليست ذلك المعشوق (الأرضي):

إنها خالقة و يمكن أن تقول إنها ليست مخلوقة.

و هذا تأويل مدهش لوظيفة النساء اللائي يعكسن رحمة الخالق على نحو رائع جدا

و يكن هن أنفسهم على نحو ما، خالقات عندما يلدن طفلا يعتنين به كما يعتني الحق (سبحانه) بمخلوقاته.. ونحن في غني عن ربط هذا الثناء الذي خلعه الرومي على النساء بالنظريات الصوفيّة الشطحية بشأن مهمة الأنثى في الحياة الروحية كما وصفها ابن عربي – قد يكون جلال الدين اخذ مثاله من الحياة اليومية لأسرته و مواطنيه في قُونية.

الرتبة الإلهية في " كرمنا" و الجملة القرآنية بشأن الأمانة الإلهية، التي يستطيع الإنسان وحده أن يحملها، تشكلان لدى الرومي نقطة البدء لتعاليمه حول الاختيار و الجبر. و ظلت هذه المشكلة تحير علماء الكلام المسلمين من البدايات الأولى للخوض في المباحث الإلهية. و عند مولانا، لم تكن هذه المشكلة نظرية، ذلك أنه لم يكن مهتما بالتأملات الصرفة، كان لها تأثير في الحياة العملية و من هنا كانت على قدر من الأهمية لدي الجماعة المسلمة.

و ثمة أبيات يومئ فيها على نحو هازل إلى خلافات مدارس الفكر في الإسلام، كالجبري المدافع عن الجبر المطلق، و القدري الذي يؤمن بالإرادة الحرة:

كمال وصف مولانا شمس تبريزي

وراء تناول أوهام الجبري و القدري.

و يوازن أيضاً بين المسلم السني و القدري – و كل منهما له طرائقه الخاصة في عبادة الله:

هذا (الجبري) يقول " إن ذلك (السني) ضال وضائع، غافلا عن حاله (الحقيقية) وعن أمر "قم".

و ذلك (السني) يقول " أي خبر و علم لدي هذا؟"

أوقع الله الحرب بينهما بقضائه.

أو يقول في مكان آخر على سبيل الكناية:

في أغزالي الجبر و القدر، فدع عنك هذين

لأنه لا ينشأ عن هذا البحث سوى الإثارة و الشر!

و يقدم تحديد أعمق لهذين التيارين في مقطع آخر حيث يوازن الرومي بين الأنبياء (الذين يمثلون هنا، كما هي الحال في مواطن كثيرة جدا، المؤمن الكامل) و الكفار:

الأنبياء في عمل الدنيا جبريون،

و الكفار في عمل الآخرة جبريون،

و عند الأنبياء عمل الآخرة اختيار،

و عند الجاهلين عمل الدنيا اختيار

و يعمل المؤمنون الصادقون وفق ما سماه الكتاب المتأخرون " الجبر المحمود"، أي في تطابق تام مع أحكام الله و مراد الله أما الكفار فيتخيلون أنهم قادرون على أن يعملوا خلافا لهذه الأحكام و يتبعوا شهواتهم و أوهامهم، منكبين آلية الشر التي تفوص بهم أعمق فأعمق في بحر الإثم و العصيان نتيجة لما يزعمون من " حرية إرادتهم".

و يعول مولانا كثيرا على وعود القرآن في أن الخير و الشر لا بد من أن يثمر، حتى لو كانا بقدر حبة من خردل، و يعود مرارا إلى الوعد الإلهي في أن أعمال الخير مثل الحبات التي تنبت كل منها سبع سنابل.

انظر وجه الإيمان في مرآة الأعمال!

أو كما يعبر عنه في مكان آخر " في زجاجة الأعمال":

ما في القلب، ينبغي أن يتجلى في شكل أعمال حسنة و آثار مفيدة و هذه في أية حال لا يمكن تحقيقها إلا إذا امتلك المرء قدرا محددا من الإرادة الحرة. و يستطيع الجمل أن يرفض الإذعان لعصا سائقة، و الكلب الذي تلقي عليه حجرا يثار و يهجم عليك، ليس لأن الحيوان يكره العصا أو الحجر، بل لأنه يعرف قدرة الإنسان على أن يعمل بهذه الطريقة أو تلك. و بوصفه عالم نفس من الطراز الممتاز، يشرح الرومي رد فعل الإنسان إزاء مفهوم الاختيار: ندما يحب شيئا يقول إن اختياره الحر هو أن يفعل، أما عندما يكره شيئا هو ملزم بأن يفعله، فإنه يرى فيه إجبار الله غير السار. لكن الإنسان على الحقيقة مثل جمل يوضع عليه سرج " الاختيار" و في دعائه يسأل الشاعر الحق (تعالى) أن يستخدم هذا السرج على النحو الصحيح. ولو لم يكن ثمة اختيار، لما

استطاع الإنسان أن يغضب على أعدائه و أن يصبر بأسنانه عليهم.

نفر محدود من شعراء العرفان أكدوا، على نحو أكثر إصرار من مولانا عدم تطابق الإيمان الصادق مع الاستسلام لقدرة أعمر قدر به كل شيء منذ الأزل. واحدة من اجمل قصصه في هذا الشأن هي قصة الرجل الذي تسلق شجرة و أكل من فواكه الله التي أعطاها. "رد البستاني على نحو ذكي: ضربه ضربا مؤلما " بعضا الله " حتى اضطر الرجل إلى أن يعترف بأن التجاوز كان بسبب إرادته هو، و ليس بأمر الله، و تاب من نظراته الجبرية. و على النحو نفسه، ليس في مقدور الإنسان أن يدعي أن كفره اختاره الله و قضاه له: إنه اختياره هو، ذلك بأن الكفر دون المشاركة الفعالة من جانب الإنسان تناقض.

و يرفض الزوميّ الإيمان بالحديث الذي كثيرا ما يستشهد به " جف القلم بما هو كائن " بمعنى أنه لا تغيير ممكن في مصير الإنسان و أن كل ما كتب على اللوح المحفوظ لم يعد موضوعا للتغيير. ووفقا لما يقول الزوميّ وهو مما يكشف عن عقله العلمي، يعني هذا الحديث على الوجه الأصح ان القوانين التي يصدرها الحق ثابتة: فقد أمر الحق على نحو حاسم و نهائي بأن أفعال الخير التي يقوم بها المؤمن لن تضيع سدى و لكن لم يأمر بأن تكون أعمال الخير و أعمال الشر على قدر واحد من القيمة لأن ذلك سيفضي إلى نتائج خطيرة: فالتوكل السلبي المطلق على الله كما شاع في القرون الأولى للتدين الإسلامي و التسليم بكل شيء بوصفه أمرا إلهيا غير قابل للتغيير ثبت أنه هدام تماما على الأقل في أجزاء من تصوّف ما بعد القرن السابع الهجري (31م).

آمن مولانا بالعمل و الحديث النبوي " الدنيا مزرعة الآخرة " أحد شواهد المحببة. و قد علم مريداه:

إذا أسأت فقد أسأت لنفسك، فكيف يصل جفاؤك إليه (الله)؟ كل عمل للإنسان يحمل الثمر للإنسان نفسه، سواء أكان ذلك في هذه الدنيا، أم في العالم الذي سيأتي:

- ستكشف يد الربيع سر الشتاء بما غرس فيه من بصل و كرات و خس

- فذلك خضر نضر مشرق من نوع " نحن المتقون "

- و ذلك الآخر كالبنفسج ناكس الرأس.

و تعير الصورة المجازية للبستان نفسها تماما لتفسير للحديث النبوي في تغييرات
جديدة دائما:

إذا ما زرع الإنسان حنظلا فلن ينمو منه قصب السكر أبدا.

أو:

فالبس إذا مما تنسجه طوال العام،

و كل مما تزرعه طوال العام.

أعمال الإنسان التي تصدر عنه هو نفسه، مثل أطفاله الذين يمسكون بطرف رداءه
ليلحقوا به، وهو مسؤول عن هذه الأعمال مثلما هو مسؤول عن عقبه و ذريته.

-سواء أكان في الأرض قصب السكر أو القصب،

فإن ترجمان كل أرض نبتها.

- أما في تربة القلب، التي نبتها الفكر،

فإن الأفكار و الأعمال تصوغ مستقبل الإنسان. ألم يذكر النبي نفسه (عليه الصلاة
و السلام) الناس قائلا: " ما أسعد ذلك الذي رحل عن هذه الدنيا، و بقي منه الفعل
الطيب. و يفصل الرومي هذه الفكرة في رسائله:

إقبال الدنيا مثل زوبعة تهب قوية عاتية، فتطير حفنة من التراب و التبن في الهواء
فترفعها إلى أعلى ثم تنزلها، فيعود

التراب و التبن إلى موضعه.. فما أسعد ذلك الذي في هذه الزوبعة ينقي قمح الأعمال
الصالحة من هوى النفس لكي يغدو معدا لطاحون الأجل...

ما بذر في شتاء هذه الحياة سيجني في حصاد الأزل، و يأتي الموت للإنسان بثمار
ما قد زرعه. و يتابع الرومي سنائي، الذي يعتقد أن كل عمل، بل كل فكرة مطمورة
في القلب، سيغدو صورة مرئية يوم الحساب، مثلما تغدو فكرة المهندس مرئية في
مخطط البيت، أو مثل نبتة تنمو من بذرة مطمورة في التربة. و سيلقي الموت الإنسان

على غرار المرت التي تظهر الوجه إما جميلا و غما قبيحا، تبعا لأعمال الإنسان الحسنة أو السيئة – جميلا أمام الترك، قبيحا أمام الزنج. و مهما يكن من أمر، فإن مولانا نادرا ما يمضي إلى الحد الذي يصل إليه السّنائيّ و العطار، اللذان يريان الناس الذين استجابوا لطبيعتهم الهيمية قد تحولوا أخيرا إلى خنازير و حيوانات آخر نجسة. و يوضح الفكرة نفسها بصورة أكثر شعرية تذكر القارئ بالفكرة الزردشتية للعدراء التي تقابل الميت عند جسر جينوت فتعكس ثانياة أعماله الحسنة أو السيئة:

أخلاقك الحسنة تجرى أمامك بعد الوفاة،

مثل سيدات وضيئات الوجوه تتبختر هذه الصفات،

و عندما تتحرر من الجسد سترى الحوريات مصطفات

”مسلمات مؤمنات قانتات تائبات“

دون عدد ستجري خلانقك أمام جنازتك،

صبرك: ”النازعات“ و شكرك ”و الناشطات“

في اللحد ستغدو صفات الصفاء تلك مؤنسك،

ستتعلق بك كالبنين و البنات،

سترتدي حلا سايغة من لحمة نسيج طاعتك و سداها...

لأنه منذ يوم الميثاق توجه حياه الإنسان كلها نحو الغد الإلهي، يوم الحساب. و قد يتوقع المرء أن الرّوميّ، بوصفه صوفيا، لن يكون شديد الاهتمام بالموت و البعث و ضروب الجزاء الدنيوي الآخر ورغم ذلك يوضح شعره على نحو لاليس فيه أنه يؤمن بالنار و الجنة بوصفهما حقيقة كما حددت ذلك عقيدة الإسلام. وهو يقينا ينظر إليهما بوصفهما حالتين تنتجهما أفعال الإنسان و أفكاره أكثر من كونهما مكانين،

وهو يؤمن بأن نور المؤمن قادر على إطفاء نار جهنم ذاك لأن نار جهنم مخلوقة محدثة أما المؤمن الحق فيوجد من النور الإلهي غير المخلوق.

ومهما يكن من أمر، فإن أوصاف الموت و الرؤى المثيرة ليوم الحساب في "الديوان" تنتهي يقينا إلى أشعار مولانا الأكثر تأثيرا، و المنظومة الكاملة للإيمان بالأخرويات كما وصفت في القرآن ماثلة لديه، و زلزلة الأرض التي ستظهر كل ماهو مخفي فيها . تفيده بوصفها صورة مدهشة للحظة التي لا تفتح فيها القبور فحسب بل القلوب أيضا، إذ يعرض كام اهو مستور فيها للعيان. و ذلك مبعث أنه لا يكل من حض أحبته و مريديه على أن يكدحوا من أجل الجنة، و أن يعملوا وفق أحكام الحق و أن يستعدوا في شتاء هذه الحياة لربيع الأزل، أو أن يثقوا إبان الكروب الليلية في هذه الدنيا بفجر الأزل الذي سيبدد العتمة و يعي الخفافيش.

ورغم هذا الإيمان الراسخ بجزاء كل عمل، يعرف الرّومي أن الحق لن يحكم على الإنسان تبعا لأعماله، بل تبعا لنواياه الحسنة، و أنه يعطي من جوده الذي لا ينفد ليس تبعا لطاقة الإنسان الاستيعابية و قدرته على الأخذ، بل يمنح الإنسان القدرة على أخذ جوده، ثم يحول هذا الجدول إلى عمل مفيد. الترابط بين الإنسان و الحق يحدد على نحو رائع: الاختيار سعي لشكر الله على إحسانه. و لذلك فإن حديث "جف القلم" في نظر الرّومي، ليس دعوة إلى الكسل و السلبية بل هو على العكس دافع إلى أن يكدح الإنسان و إلى أن يعمل بإخلاص تام على نحو تغدو فيه عبادة الإنسان عند العتبة الإلهية أكثر نقاء و أكثر فعالية. و بقول "إن شاء الله" " يدفع الإنسان إلى عمل أكثر و أفضل.

و طبيعي أن تكون الإرادة الحرة و الاختيار الحر محدودين بالقابليات و القدرات الفطرية للمخلوق: لن يخاطب أحد حجرا فيطلب منه أن يقترب و لن يطلب أحد من الإنسان أن يطير أو يطلب من الأعمى أن ينظر إلى أحد من الناس. أيضرب المعلم الولد إذا كان غير قادر على معرفة أن يختار إحدي إمكانيتين؟ - وهو يقينا لن يعامل حجرا لا يحس مثل تلك المعاملة!، ثم:

يضرب الثور إذا لم يحمل النير،

و لم يحقر ثور البتة لأنه لا يطير.

و قد اعطى الحق الإنسان قدراته ابتغاء أن يستخدمها في المقاصد الحسنة و ينمها على نحو صحيح و ملائم، و كل نوع يمنح اختيارا محددًا يستطيع أن يستخدمه في عمله في الأشياء التي تحت سيطرته (كما يعمل النجار في الخشب و صانع الأقفال

في الحديد، إلخ). لكن كلا منهم يرتقي تدريجيا إلى الإرادة الإلهية العليا. و هكذا فإن الإنسان سيبلغ دائما مستويات أعلى في مجال الاقتراب من الصفات الإلهية و خاصة من الإرادة الإلهية. و إذا ما أثبت الإنسان أنه شاكر في كل خطوة، فإن الحق يقابل هذا الشكر بمنح الإنسان مواهب جديدة ويقوي فيض الرحمة الإلهية سعي الإنسان لبلوغ الجنة، كل منهما يعضد الآخر، و كلما جد الإنسان لبلوغ هدفه السامي كان مؤيدا معانا: و هكذا يطبق الروميّ حديث " النوافل " الشهير الذي يعد الله فيه:

عندما يقترب شبرا، تقدمت ذراعا، و إذا أتى ماشيا أتيت جاريا، ثم أصبح اليد التي بها يمسك، و العين التي بها يرى و الأذن التي بها يسمع.... و بالمبالغة الدائمة للقوى الدنيا و بالتخلص من الأخلاق الذميمة، يستطيع الإنسان أن يصل إلى الفناء في الإرادة الإلهية، و الفناء أساسا مفهوم أخلاقي. و عندما يصفى الإنسان بالعشق يعمل إذ ذاك في تطابق مع الإرادة الإلهية، مثل النبي (عليه الصلاة و السلام) في معركة بدر عندما نزلت الآية القرآني " و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمى ". و هذا هو الجبر المحمود، اختيار الأولياء و جبرهم، أولئك الذين يعيشون مثل اللآلئ في المحار، في محيط الحياة الإلهية و تحركهم حركات هذا المحيط. و أخيرا بعد أن يتخلى الإنسان عن نفسه، سيشرب من كأس الحق التي تجعله دون نفس و دون إرادة. و أي شيء يفعله، بعد أ يكون ثملا بهذه الخمرة يأتي متناغما مع القانون الإلهي حيث يجرب جبرا أسمى.

ولا ينبغي أن ينسى أنه في هذا الطريق يكون الاتصال الحميمي مع المؤمنين الآخرين عوننا عظيما: يشهد الحديث أن " المؤمن مرآة المؤمن " و يفهم المؤمنون الصادقون من سلوك أصحابهم و أفعالهم انعكاس أحاسيسهم و أعمالهم. و عندما يرى الصوفيّ عيبا في جاره، يكون عليه أن يصحح هذا العيب في أخلاقه هو. و هكذا فإن مرآة قلبه ستغدو أكثر جلاء و طهارة و يقربه الصقل الدائم من الحق (سبحانه). ذلك لأنه ينبغي أن يعرف أن كل كلمة و كل فعل مثل صدى يردده جبل هذه الدنيا، ولا شيء ضائع.

و بقدر ما يستطيع الإنسان أن يفهم من الملاحظات المبعثرة في شعر الروميّ و نثره يتبين له أنه آمن إيمانا راسخا بنظرية الأشاعرة بشأن الخلق الجديد المستمر.

يخلق الحق تعالى الإنسان من جديد كل لحظة

و يبعث في باطنه شيئا آخر جديدا تماما.

و مهما يكن فإن مولانا على جهة العموم، لا يركن إلى الأسس النظرية لوجود الإنسان بل يحاول أن يصف ارتباط الأجزاء المختلفة للإنسان بعضها ببعض في صورة مجازية شعرية. و في المقطع الأول من المثنوي، الذي يمكن أن يعد نوعاً من المدخل العام إلى فكره، يقول شعراً بشأن ارتباط الجسم و الروح:

ليس الجسم بمستور عن الروح ولا الروح بمستور عن الجسم،

لكنه لم يؤذن لأحد بأن يرى الروح.

ليس الجسم بمستور عن الروح ولا الروح بمستور عن الجسم، لكنه منهما معتمد على الآخر، كالقشرة و البذرة و مهما تكن ضالة القيمة التي تكون عليها القشرة دون البذرة، فإنه يستحيل على البذرة غير المحمية بالقشرة أن تظل حية و تثمر: لا يمكن تصور روح دون جسم في عالمنا المادي.

و يصف الروميّ الجسد، وفقاً للتقليد القديم، بوصفه مؤلفاً من العناصر الأربعة و من ثم فهو قابل للبلبلى و الفساد مثل أي مركب من هذه العناصر. الولي الكامل فقط أرفع من الهواء و التراب و النار و الماء، ذلك لأنه يعيش قبل أن يأتي إلى هنا في عالم الروح. و في جناس جذاب يشير إلى الاثنتين و السبعين "ملة" التي تشكل وفقاً للحديث، جسد الإسلام يوضح الروميّ فكرة أنه في جسد الإنسان اثنتان و سبعون "علة"

(علة بدلا من ملة) سببها عمل العناصر الأربعة التي تظهر نفسها في الأجزاء المختلفة من الجسم. فالوجه الشاحب المصفر ينشأ عن حركة زائدة جدا للصفراء و الوجه الأحمر يعني دوماً و فيرا، و الوجه الأبيض يعني بلغماً غزيراً، و الوجه الأسود يعني غلبة السوداء (المنحوليا)، و هي علامات ذات قيمة سطحية لدى الناس العاديين لكنها على الحقيقة تشير إلى الجوهر الباطني "في جمال كامل مثل أمير تركي. الجسم قشر، و من يهتم به يشبه الطفل الذي يلعب بالجوز و اللوز دون أن يهتم بلبهما الحلو. هذا القشر قابل للفساد - و ذلك مبعث أن المظهر الخارجي للعاشق يحترق بالمعشوق. و إن كان للمظهر الخارجي أي معنى أعمق، فإن النبي و أبا جهل، عدوه اللدود، سيكونان متماثلين، لأن الاثنتين كانا عربيين و من العشيبة نفسها. هذا الجسد و قوى الروح متصارعة: عين الرأس (سر - بالفارسية) تقتتل مع عين القلب الباطني (سر) كما يقول الروميّ في أحد الجناسات. و يمكن أن يشبه الجسد بمصباح ذي ست فتائل، أي الحواس: و في هذه الحال فإن الروح هو النور الذي يضيئه. أو قد يشبه الجسد أيضاً بكوز يصب فيه ماء

الروح لكن المحتويات تتنوع:

كوز ذلك الجسد مملوء بماء الحياة،

كوز هذا الجسد مملوء بسم الممات.

وقد يرى الشاعر الجسم أيضاً في صورة جبل يقيد قدم الروح، شادا إياه دائما إلى الأرض بينما يتوق الروح إلى الطيران باتجاه السماء: وهذا هو حل القصة الممتدة حول الفأرة التي وقعت في حب ضفدع فحاولت أن تربط معشوقها بقدمها فكانت النتيجة أن هلك الاثنان. الجسم أيضاً مثل زورق سيحطم بمجرد أن يحرر الإنسان نفسه من اناه التي تمسك به مثل المرساة حتى تأتي موجة العشق الإلهي فتطوح به بعيدا.

حتى إن الرومي يغدو أحيانا أكثر سلبية في وصف الجسم وضعفه - فهو نكد مشاكس كرأس حمار في بستان وهو وقود جهنم و على المرید أن يجهد في إذلاله لكيلا يغدو "حمالا للحطب" مثل امرأة أبي لهب في التنزيل القراني (المسد4). و لو أطلق الإنسان العنان تماما للجسد، لجره يقينا إلى جهنم وليس إلى "سدرة المنتهي" في الجنة. وإرواء هذه الشجرة أو الأجمة، "الجسد" استبداد صرف و ظلم مطلق، وعلى المؤمن بدلا من ذلك أن يروي روحه التي ستقوده إلى سدرة الجنة. لأنه مهما حاول الإنسان فسيظل الجسد دائما مثل الكلب و لن يقدر ان يكون مثل الأسد أي الروح.

و مهما يكن من شيء، فإن هذا الحكم السلبي المطلق ليس القاعدة

في أشعار الرومي إذ يرى الجسد مثل خرقة صوفي مملوءة بالرقع، و الروح مثل الصوفي الحقيقي و بمجرد أن تطلع شمس (الإشراق الروحي) يغسل الصوفي خرقة، أي يطهر نفسه. على أن شجرة "الجسد" كما تسمى في بعض الأبيات، يمكن أن تعد شيئا مماثلا لعصا موسى (عليه الصلاة و السلام) التي ينبغي أن تلقى حسب الأمر الإلهي، ثم، بعد ملاحظة جوهرها الحقيقي، ينبغي أن ترفع ثانية من أجل المقاصد السامية و بمجرد أن يتعلم الإنسان أن يعامل هذا الجسد المعاملة الصحيحة وفاقا للشرع الإلهي، سيغدو أداة مفيدة - وهو وصف يستخدم بطريقة أخرى في النفس الشهبانية.

و ليس ثمة نهاية لصور الرومي التي يصور فيها ارتباط الجسم و النفس أو على نحو نادرا جدا، الجسم و الروح. و قد يرى الجسم قطعة معتمة من التراب تحمل في داخلها خاصيات النور على نحو يدخل فيه الباطن و الظاهر في صراع مستمر. الجسم هو

غبار المرأة الصافية لـ " الروح " وتوصف العلاقة بين العنصرين في صور واقعية جدا: الروح متوار في الجسم مثل الزبدة في اللبن الزبادي أو " الجسم حامل بالروح - زنجية حامل برومي " القلب ! و تتكرر هذه الصورة في المثنوي حيث يشبه الرومي الموت الجسدي بالآلام الوضع التي تطلق أخيراً المولود " الروح " وقد يشبه الجسد بكيس يخرج الروح رأسه منه (تنتهي صوره الأسد الذي يحطم قفصه إلى نمط التفكير نفسه، و تنتمي إلى ذلك طبعاً صوره طائر الروح الذي يطير بعيداً عن القفص).

إن يكسر كأسى هذه فلن أغص،

فلدي ذلك الساقى كأس أخرى تحت ذراعه.

الكأس هي الجسد الترابي، و الروح هي الخمرة الصافية،

وهو يعطيني كأساً أخرى، عندما تضعف هذه الكأس.

و مثلما أن الكاس الترابي عديمة القيمة و يمكن أن تكسر بسهولة و يستبدل بها إناء أكثر نفاسة، يكون الجسد أيضاً مثل بيت ينبغي أن يهدم ليكشف عن الكنز المخبوء تحت أنقاضه - تلك الكنوز التي تكون أكثر نفاسة من البناء كله. لكنه طالما أن الإنسان مرتبط بالبيت المزدان بالرسوم و الصور الملونة فلن يظفر بالكنز " الروح ".

و بتطبيق مصطلحاته المألوفة المستمدة من فصل الشتاء على كل ما هو مرتبط بعالم المادة، يرى الرومي سلوك الناس شبيهاً بسلوك جماعة من المسافرين يجلسون في نزل المسافرين اتقاءً للثلج، وأخيراً ستأتي الشمس لتذيب الثلج و تفتح الطريق لقافلة الأرواح التي ستكون قادرة عندئذ على الانطلاق بحرية.

و قد أفصح الرومي أيضاً من القول القرآني الذي يذهب إلى أن " الخلق " و الأمر " لله في الإشارة إلى الاختلاف بين الجسد و الروح الشكل و المحتوى: ذاك لأن الخلق مرتبط بالشكل، بينما الأمر معد للروح. و ليس النفس وحدها، بل الروح أيضاً يأتي مقابلاً للجسد، و إن كان ذلك بدرجة أدنى - على أن الروح الذي يمثل عادة بصورة الشمس، يمكن الإمساك به بوساطة الجسد الذي يعمل في صورة أسطرلاب و يظهر منازلها و حركاته و في صورة مجازية مختلفة تماماً و صف مولانا الأرواح بأنها محيط تصدر عنه الأجسام كالزبد. و تفضي هذه الصورة إلى فكرة " العقل الكلي " الذي يصدر عنه الخلق ليغدو رداءه الظاهري - و هي فكرة ربما تنتمي إلى مرحلة متأخرة من حياته لأن الأبيات

المتصلة بهذا الأمر موجودة كلها في الجزء

الثالث من المثنوي و الأجزاء اللاحقة من هذا العمل.

و مما هو ادخل في الطابع القرآني الحديثي تشبيه الروميّ الجسد بالناقة و الروح بالنبي صالح (عليه الصلاة و السلام) الذي أتت معجزته بناقة من الصخرة . الناقة وحدها يمكن أن يؤذيها الكفار و ليس الولي الذي يمثل الروح. و صورة الروح بوصفه صقرا أبيض محبوسا في أرض الغربان و الزاغ هي تماما الصورة التي كثيرا ما تستخدم للنفس: ينبغي أن تذيب شمس الحقيقة ثلج العالم المادي بحيث يستطيع الطائر أن يطير نحو أرض الوطن. و الصيف و الشتاء " حالان" للجسم، أي للعالم المادي الذي يتجاوزه أرباب الأرواح. و في استخدام رائع لصورة القشرة الفردية و من ثم الاختلافات بين حبات العنب ولا يبقى إلا خمرة الروح الصافية.

و يؤثر جلال الدين مقابلة الأعضاء الجسدية و الروحية للإنسان بعضها ببعض ذلك لأن الإنسان يمتلك خمس حواس ظاهرية و خمس حواس باطنية – هناك مثلا، المعدة التي تسحب الإنسان نحو مخزن التبغ أما " معدة القلب" فتمضي به نحو الريحان الحلو و في نهاية فإن كل من يأكل التبغ سيغدو حيوانا و سيكون ضحية " قربانا" أما من يطعم النور الإلهي فسيغدو حيوانا و سيكون ضحية " قربانا" أما من يطعم النور الإلهي فسيغدو قرأنا، متصلا بالحق (سبحانه). و عندما ياكل الجسم طعاما ماديا فإنه يشكل عائقا امام " اغتداء" النفس بالنور. تجلس النفس كالتاجر و يكون الجسد قاطع طريق يحاول أن يستلب بضاعة هذا التاجر. و تستخدم صور مشابهة في تصوير أذن الظاهر...

و هل الجسد إلا دار ضيافة يدخلها زوار مختلفون كالأفكار السارة و المخزنة مثلا؟- كل صباح يظهر ضيف جديد سيعود سريعا إلى العدم إن لم يستقبله الإنسان ببشر و محيا طلق مثل إبراهيم و على الإنسان ان يكون شديد الاهتمام بأولئك الضيوف الذين يفدون من الغيب إلى قلبه و يستوطنون هناك الحواس الظاهرة لها مهماتها في هذا العالم، لكنها مفيدة إلى حد معين فقط – و منذ أن يشرق عالم الروح كالشمس تتلاشى الكواكب أو تغدو مضحكة مثل الحصان الخشي الذي يركبه الطفل. و في مقدور الإنسان أن يجرب الاستغناء عن الحواس في النوم: بمجرد أن تأخذ الحواس في النوم، يكف العالم الخارجي عن أن يكون موجودا لدى الإنسان. و على النحو نفسه أيضا تكون الحواس خادعة – فالحس المعوج لا يمكن أن يدرك شيئا إلا بطريقة معوجة:

عين الأحوال لا يمكن أن ترى شيئاً مفرداً على نحو صحيح و يقينا فإن الحواس الخمس مرتبط كل منهما بالآخر ترابطاً جوهرياً و تعمل معا بطريقة غامضة. ولا بد للإنسان في أية حال من أن يدرك ضعفها في مقدورة أن يسقطها كالوراق للحظة و يكتشف عندئذ أنها تعتمد على العقل و العقل نفسه سجين الروح و المثل الأخير هو النفس التي تطلق يد العقل على نحو يستطل و يستطيع فيه أن يعمل من خلال وسيط الحواس. و في مقطع طويل يصف الروميّ الحواس بأنها خيل تأتمر بأمر الفارس: و تتمثل المشكلة في العثور على فارس النور الإلهي الذي يستطيع توجيه الخيل في الاتجاه في الاتجاه الصحيح و إلا فإنها لن تمضي إلا إلى المرح لترعى هناك و تهنأ بلذيذ المرعي و تنام. أما إذا قوى نور الروح نور الحواس الثانوي المشتق، فإن الوعد القرآني في " نور على نور " سيحقق. و قد يظل الفارس الروحي غير المرئي، لكن أفعال " خيل الحواس " ستظهر حضوره و مآثره.

و على ماء التجربة الصوفيّة الصافي، تكون الحواس على غرار تفكير البشر و مراجعاتهم العقلية، مثل ذرات القش الصغيرة التي ينبغي أن تزيلها يد العقل على نحو يغدو فيه الماء الصافي مرئياً: و إلا فسيغدو هذا الماء كرمها بسبب كثرة القش و في تشبيهه غريب يشبه أولئك الذين يتابعون الحواس بالمعتزلة، تلك الطائفة التي أنكرت إمكانية مشاهدة الحق في الآخرة - يتهمهم الروميّ هنا بأنهم يعولون تماماً على الإدراك الحسي، منكرين الشهود الروحي حتى في الجنة:

أهل الاعتزال مسخرون للحس،

و لظلالهم يظهرون أنفسهم سنيين.

و كل من خرج أسير الحس فهو معتزلي،

و لو قال: " إنني سني " و ذلك بسبب جهله.

و كل من خرج من قيد الحس فهو سني.

و أهل الرؤية هم عين العقل المبارك الخطو.

و لو رأى الحس الحيواني المليك لأبصر الثور

و الحمار الله...

و في حالات كثيرة فإن الأبيات التي تنال من الجسد يمكن أن تنطبق أيضاً على

النفس، الصفات الذميمة، أو النفس الشهوانية. والنفس الأمارة بالسوء (يوسف 35) هي المبدأ الذي طلب من الإنسان أن يقارعه بلا هوادة. و ليس الرّوميّ بأقلّ صلابة في عراكة مع النفس من أسلافه على طريق العرفان أولئك الذين رأوا هنا جذر كل شر.

فالنفس من هذا الطراز، و من هنا غدت جديرة بالقتل،

ومن ثم قال ذلك السني: " اقتلوا أنفسكم "

و يمكن عمل ذلك بإلقاء نار " هجر الشهوات " في أجمة النفس. ألم يسم النبي نفسه (عليه الصلاة و السلام) النفس العدو الأكبر خطرا للإنسان الذي يتوضع بين جنبه و الذي ينبغي أن يهزم في " الجهاد الأكبر "؟

و يتألف القرآن كله، كما يقول الرّوميّ، من أفضّاح لشرور النفس الشهوانية في تجلياتها المختلفة. و يطبق مولانا الحديث النبوي: " موتوا قبل أن تموتوا " على هذه الحرب على النفس الشهوانية التي ينبغي أن تقتل حتى يمكن للصفات العالية أن تحيا. و هذا " الجهاد الأكبر " ينبغي أن يشن يوما إثر يوم و لحظة إثر لحظة ذلك لأن " العدو القديم لن يغدو خالا أو عما حتى لو سلك سبيل المودعة و ادعي المسألة.

ينبغي أن تربي النفس بالصوم و الرياضيات المستمرة حتى تغدو حيوانا مطيعا – و من هنا التشبيه بالكلب المدرب، أو بالبقرة أو العجل السمين الذي ينبغي أن يذبح، أو بالحمار، أو بالذئب الضاري، أ بالأرنب الماكر و الصورة الشائعة جدا هي صورة الحصان الحرون الذي يمكن أخيراً أن يغدو طيعا و يحمل صاحبه على الطريق الروحي نحو الهدف النهائي. و ليس ثمة نهاية للتشبيهات الشعرية رغم أنها أحيانا أكثر فجاجة: النفس مثل فرعون غير مستعد للإصغاء إلى دعوة موسى النبي، بل يزعم أنه هو نفسه الله، و هي التنين الذي لا يمكن أن تحيله اعمى سوى القوة العجيبة لنظرة الشيخ الروحي. أو هي مثل امرأة عنيدة جدا و مزعجة بحيث يكون من الخير للرجل أن يعمل عكس نصيحتها – و كان هذا التشبيه في غاية السهولة لأن كلمة " نفس " مونثة في اللغة العربية. و بمساعدة العقل فقط وهو أبو الأتسان الروحي يمكن تهذيب النفس. التهذيب المنشود. و لعلها صورة مضحكة:

إذا قالت النفس مثل القطعة: ميو،

فسأضعها، مثل القطعة في هذا الكيس...

فالحیوان الحریص الدنیء ینبغی أن یوضع الکیس و ینیق جائعاً بعض الوقت أو حتی یغرق. ذاک لأن النفس لاتشبع مثل جهنم. ألم تكن مع الشیطان فی بدء تاریخ الإنسان؟ و قد سببت جهودهما المشتركة هبوط آدم، و من هنا فإن التسویة بین النفس و الشیطان تتكرر دائماً فی أعمال الرّومیّ و فی أعمال الصوفیة الاخرین.

و إذا ما هذبت النفس التهذیب الصحیح، فإنه علی الإنسان أن ینبغی أن ینبغی و یقضی لخدعها، لأن ما هو أكثر خطراً من أفعالها الصریحة التي تظهر فی الفجور و الكره و الشح إلخ...مكائدها الخفیة التي تحاول بها التغلب علی أهل الورع فی عباداتهم. حتی التباهی بالأعمال التعبدیة أو الشعور بالسعادة و الأمان فی الصیام الدائم و الصلاة ربما تكون إحساساً مبعثه غرور النفس، لأنه

للنفس تسبیح و مصحف بالیمین

و خنجر و سیف تحت الكم.

و عندما تتصرف النفس مثل الزاهد و تدعی أنها تأخذ الإنسان إلى حوض الماء لكي يتوضأ، فإنها یقیناً ستلقی به فی بئر مظلمة بمجرد أن یصیر غافلاً مخدوعاً بأعمال البر و التقوی التي یؤديها.

و ینبغی أن ینبغی النفس مقارعة طويلة و صعبة، لكنها أخيراً، و بلطف الله (سبحانه) ستجتاز مرحلة النفس الأمانة و النفس اللوامة.

(التي یمكن تشبیهاها ب " الضمیر " القیامة 2) و تصل إلى حالة النفس المطمئنة " . و عندما تكون قد غدت عاشقاً صادقاً لا تعود إذ ذاك " أمانة بالسوء " و ینبغی أن ینبغی عندئذ إلى الجهاد لضبطها و كبج جماحها. تسمع عندئذ نداء ربها و معشوقها: " إرجعی " فترجع، مثل الصقر المطیع إلى ید سیدها. و بعد أن تجرب النفس القوة المدهشة لشمس العشق تحول الكیمیاء الإلهیة النفس إلى كائن مسالم و حنون و تغذي بالصمت عائدة إلى الصمت الأزلی خلافاً للنفس " الناطقة " التي تتجه نحو الكلام. (و هذا علی الحقیقة، ربط غریب، لكن الجمع بین موضوعین غیر مجتمعین أساساً بطریقة عبقریة نموذجیة فی طریقة تفكیر الرّومیّ). و بعدئذ تكون النفس من الموادعة و المهادنة بحيث إن الشاعر قد یدعو مریدیه إلى أن لا یخدشوا وجهها الجمیل بالظفر السام " الفكر " لأنها مستغرقة تماماً فی الحق:

لكن هذه هي المنزلة النهائية للإنسان. و تتردد كثيرا المقاطع التي يويخ فيها الرّوميّ النفس في منازلها الأولى، و تتكرر على نحو مدهش غالبا صورة النفس بوصفها أما للإنسان و العقل بوصفه أبال له في شعر الرّوميّ. و الصراع المستمر بين الأخلاق الذميمة و العقل موضوع أساسي في المثنوي و هذه المعركة شبيهة بمعركة النبي مع أبي جهل و أصحابه (و تضاد الجهل " مع العقل " مقصود تماما هنا) و شهوات النفس أيضًا معادية للروح و ينبغي أن تعمي بإلقاء التراب في عينها.

و قد يسي الرّوميّ العقل " حاديا" و الإنسان " جملا" و من ثم فإن الأولياء هم " عقل العقل" يقودون ركب البشرية على الطريق المستقيم الذي لا نزاع فيه. و العقل مصنوع من نور و متصف بالصفات النورانية، خلافا للنفس التي هي جزء من الظلمة و العتمة. و العلاقة بينهما كالعلاقة بين الأسد و الكلب الأعمى. و العقل أيضًا هو المنحة التي أهدقت على الملائكة و التي تبقيهم في طاعة دائمة، أما النفس، كما رأينا، فشطر من ملكة الشيطان. ولا يكمل الرّوميّ من أن يؤكد بوساطة الصور المختلفة كم سيكون الأمر مروعا لو أن عقل الشخص عمل مثل الأنتى و وقع تحت تأثير النفس، أو لو أن النفس الشهوانية قدر لها أن تبقي العقل سجينًا. ولو انضم العقل إلى العقل لزداد في النور، أما النفس فإنها لو انضمت إلى نفس أخرى، لزدادت في الظلمة و غطت الطريق المستقيم. ولذلك فإنه لا مناص من أن يأمل المرء أن العقل سيصطاد النفس الشبيهة بالكلب و يقتلها.

و العقل في مقاطع كهذا، ليس ه أبدا التناول الفكري للعالم أو القوة العقلانية. و قد ربط الرّوميّ السعي العقلي بالصرف بالشيطان العقل، كما يفهم هنا، هو " ما يضاد الشهوة و الأعراض النفسانية " إنه شبيه بالشمس: عندما يختفي يبقي هناك الغباء الذي يغطي الدنيا كالليلة الظلماء. و في هذا الصدد فإن العقل هو محك الأنبياء و المؤمنين الذين يطلب منهم العمل وفق القرآن. وهو الشرط القبلي لكل عمل مشروع من الوجهة الدّينية، يعلم الإنسان كيف يتابع على نحو صحيح وواع المبادئ المقررة في التشريع القرآني. و هنا يكون الرّوميّ متفقا تماما مع الموقف الإسلامي التقليدي في مجال المباحث الإلهية. والشخص الذي يتخلى عن اللذائذ الحسية تاركا الجسد و النفس وراءه، مثل ذلك الذي يدع حماره و يلحق بالمسيح هذا النموذج للحكمة و الإدراك. و لعله لا يعود ينصت إلى أنات حماره المهجور! و كثيرا ما حاول مولانا أن يصف علاقة هذه الملكة الإيجابية بجسم الإنسان و ملكاته الأخرى. و في أحيان كثيرة يعد العقل و النفس، كما في أعمال الشاعر سنائي، أبا هذه الدنيا و أمها. ينظر الرّوميّ إلى العقل

بوصفه القوة التي تجعل صور الجسم الميتة تفكر. و إذ يكون العقل مجتمعا مع الروح فإنه يعني فصل الربيع أما الهوى و الشهوة و النفس فهي علامات الخريف التي ستجرد حديقة الروح من جمالها كله و تعلن المظهر المادي الشتوي للحياة. و العقل من هذه الوجهة، مثل المرساة يساعد العقلاء في حياتهم بإبقائهم ثابتين و بخاصيته الشمسية يحرق الظلام بل يجلب ماء الحياة إلى ليل هذا العالم. و قد يشبه العقل أيضاً بطائر يحمل الإنسان إلى مستويات أرفع للوجود – وهو مختلف تماما عن طائر " التقليد" الذي يبقى الإنسان على هذه الأرض.

و الشخص الذي حبي هذا العقل، الذي يمكنه من أن يميز بين الحسن و القبيح في مقدوره أن يستمد الأمثلة من حياة الآخرين: فهو يفهم أن الموت أمامه، و لذلك يعمل بتدبر و حصافة مطيعا الكلمة الإلهية. العقل كالمفتاح الذي يفتح الباب، أو كالأجنحة التي تحمل الإنسان إلى الأعلى وهو يحمل آثاره من شذا الورد ابتغاء أن يقود الإنسان إلى روضة الورد الأزلية. و أخيراً فإن عقل " الأبدال "، الأولياء ذوي المنزلة العالية، يكون من الثقابة و الحدة بحيث يستطيع أن يمضي بهم إلى ظل السدرة في الجنة بعيدا عن هذه الجيفة " الدنيا".

بل يشبه الروميّ الملك جبريل بالتجسيد الأسمى للعقل، الذي ينتهي في أية حال عند هذه السدرة لأنه هنا أمام المقام الخفي للحق تمتد غايتها.

العقل المرتبط بالإيمان هو على الحقيقة " حارس و حاكم لمدينة القلب ". إذ يجلس كالقط منتظرا أن يقتل الفئران التي تحاول أن تدخل هذه المدينة لتسرق الإيمان و الحب منها، و مجرد زئيرة يفزع المعتدين و يطردهم.

و يشير الروميّ إلى فكرة أن هناك درجات مختلفة للعقل: إحداها " مثل قرص الشمس " و غيرها مثل " الزهرة أو الشهاب. و وراء كل التجليات الفردية للعقل الجزئي يتوارى العقل الكلي. و هذه هي القوة الخفية التي بها يستطيع " العقل الجزئي " أن يبدع آثارا خالدة و يوجد حدائق لا تدبل. و قد أنشأ الروميّ مناظرة مثيرة بين آدم و إبليس في واحد من أغزاله حيث أعد آدم لأن يقول:

....و لكن شخصا كان في يده مصباح العقل

كيف يترك النور و كيف يمضي إلى الدخان؟

قال (إبليس): " أنا بلحظة أحطم ذلك المصباح "،

قال (آدم): "لا تستطيع الريح أن تختطف مصباح الصدق..."

فألف حمد لله أن العقل الكلي عاد بعد طول

فراق بالطالع السعيد!

العقل الكلي هو رأس نبع الحياة الروحية وهو مثل مدينة محاطة بالنفس الكلية و تأتي العقول الجزئية ثم تمضي كالقوافل. و تبدو هذه الصورة تقنية جدا تقريبا في جملة الصور المجازية عند الرّوميّ لكنه يتحدث في أبيات آخر أيضاً عن العقل الكلي بوصفه البلاط الملكي الذي ترفع فيه أعلام القلب و بوصفه "عيدكاه" (المكان الواسع الذي يقيم المسلمون فيه احتفالاتهم في الأعياد و المناسبات) حيث تقرع الطبول. و يمدح الرّوميّ العقل الكلي كما تجلى في المعشوق الكامل، شمس و يتردد المفهوم في أغزال كثيرة و احيانا بوصفه نوعا من التخلص (الاسم المستعار) في البيت الأخير كما في المثال الآتي:

الزم الصمت لعل العقل الكلي

يفتح لنا طريقا و معبرا من العقل الجزئي.

و العقل الجزئي يمكن أن يضل، أما العقل الكلي فمأمون مصون من كل نقص و عيب. و يكرس عدد من المقاطع في المثنوي لبيان هذا العقل الكلي، وهو مفهوم غريب على الإسلام الأول، لكنه دخل أخيراً بتأثير تاملات الأفلاطونية الحديثة. و رغم ذلك لم ينشئ الرّوميّ نظاما متماسكا، كمعاصرة الأسن منه ابن عربي، لوضع الفيوضات و الصوادر من العقل الكلي في ترتيب و ترابط منطقي. و يستحيل تقريبا استخلاص صورة واضحة لأفكاره حول العقل الكلي من الملاحظات المبعثرة في شعره، رغم وفرتها النسبية. و مهما يكن من شيء فإن شيئا واحدا ثابت: في تصور الرّوميّ حتى العقل الكلي خاضع للعشق وهو "محتاج إلى سكر العشق الشافي" و عندما يظهر المعشوق يرقص مصفقا بيديه.

و رغم أن العقل الكلي يقهر كل شيء محدث حتى إن "أفلاطون سيكون مجرد حيوان أمامه و رغم أن السماوات ليست سوى مظلة منها" أن تغدو ثملة و أن تطلع وجهها بدلا من إخفاء أسرارها.

العقل الكلي ثابت و غير متغير، وهو في الوقت نفسه "حاكم و حاتم" ولا تلوته

الحدّات الخارجيّة، و من ثم يشبهه بالقمر المضيء إنه هذه القوة التي تنطبق عليها عبارة "ما زاغ البصر" و يفضي هذا إلى تطابق العقل الكلي مع النبي (عليه الصلاة و السلام) في لحظة العروج و الرؤية الأسمى: "و هذا أحد البيانات النظرية الفذة في شعر مولانا.

و كثيرا ما يقابل مولانا هذا العقل الكلي بالعقل الجزئي – الذي يكون مشغولا بكل ضروب المتابعات و الدراسات العلمية لكنه غير قادر على تلقي الإلهام إنه "العقل المدبر" و ما يفيد التدبير وسط النار؟

العقل عقلان أولهما مكتسب

تتعلمه كما يتعلم الصبي في المكتب،

من الكتاب و الأستاذ و الفكر و الذكر

و من المعاني و من العلوم الجيدة البكر

فيتفوق عقلك على عقول الأقران

لكنك تصير بحفظ ذلك مثقلا

العقل الثاني هبة من الله (تعالى)

و منبع ذلك العقل في وسط الروح...

و العقل المكتسب مقارنة بذلك العقل الملهم من جناب الحق مثل الماء المندفَع من الشوارع إلى البيت ولا ينبغي للإنسان أن يعتمد كثيرا على هذا العقل الجزئي الذي يمكن أن يقود الإنسان إلى طريق مسدود – و قد حدث ذلك حتى للملكين هاروت و ماروت اللذين اعتمدوا اعتمادا تاما على عقليهما الملكي. و على الإنسان من ثم أن يتخذ العقل الكلي وزيرا له لأن ذلك العقل لا يخطئ نوره يشيء الأفاق في حين أن العقل الجزئي للبشر "يسود الكتب" أي يغوي الإنسان بالأعمال العقلية غير المفيدة و حتى الخطيرة.

و في بعض الأبيات يتحدث مولانا عن النفس الكلية التي ترى في أية حال أمام "الفارس الملكي لأمر قل" (شهبسوار أمر قل – بالفارسية) أي أمام النبي عاجزة مثل طفل يعلك كمه...

و يصف الرّوميّ في قالب الشعر طريق الإنسان في هذه الدنيا:

من ميل الرجل و المرأة على الدم و تحول إلى مني،
و عندئذ من تينك القطرتين انتصبت خيمة في الهواء.
و بعدئذ جاء الجيش " الإنسان " من عالم الروح،
العقل صار وزيره و مضى القلب و صار ملكا.
و بعد بعض الوقت تذكر القلب مدينة الروح،
عاد الجيش كله، و مضى إلى عالم البقاء.

العقل يقينا ضروري ضرورة الوزير لإدارة المملكة، و نموذجي أن الرّوميّ كثيرا ما استخدم صورا من محيط الشرع ليشير إلى الواجبات الطبيعية للعقل: فهو المفتي أو الشحنة الذي يحافظ على القلب نظيفا، أو حارس المدينة – و لكن عندما يظهر السلطان نفسه، ماذا ينبغي على الشرطي أن يفعل؟ و عندما يضاء ليل الحواس بالشمس المشرقة ماذا على الحارس أن يفعل؟

العقل ليس سوى ظل و سيختفي عندما يظهر الحق نفسه (سبحانه) كالشمس، أو سيتلاشى مثل شمعة أمام الشمس. و أن تأتي بالعقل هدية أمام الحق مثل أن تأتي بشيء أدنى من التراب. ثم.

إذا وصلت إلى بابه فطلق العقل، فإنه في هذه الساعة

يكون العقل ضررا لك و قاطع طريق. إذا وصلت

إليه، فسلم نفسك إليه...

العقل سيكون مشوشا تماما و مذهولا (يعض إصبغه من الدهول " كما يقول الشاعر الفارسي) عندما يرى هذا السكر الروحي المدهش الذي يحظر الوصول إليه إلا على العاشق الصادق.

يصور الرّوميّ العقل في صورة القوة التربوية المفيدة في الحياة. رغم ابتذالها النسبي،

و هي قوة ضرورية حتما لدحر إغراءات النفس الدنيئة، و عظيمة القيمة بقدر ما هي مرتبطة بالمصدر، بالعقلي الكلي، مبدأ الحركة و النمو. لكن النفس أسي من العقل عندما يحيمها العشق و الشوق:

ليس كالعقل الذي يكتشف ولا كالنفس المملوءة بالعداوة، ولا كروح حيوان الأرض – تمضي أنت إلى نفس النفس!

تمضي النفس إلى " الوطن " كالماء في القناة على أن صورة طائر النفس استخدمت أيضاً مئات المرات في أشعار الرومي. لكنه مثلما أن العقل الجزئي يعيش باتصاله بالعقل الكلي، تحتاج النفس أيضاً إلى ارتباط دائم " بنفس النفس " المبدأ الأعمق للحياة الروحية: يتساءل الرومي كيف تكون هذه القطعة من اللحم، الإنسان قدرة على شق الجبال بمساعدة الجسم و النفس؟ اما عبي الحقيقة فإن نور نفس فرهاد حفار الجبل يمكن أن يشق الصخور فقط، أما نور نفس النفس فيشق القمر، كما يخبر القرآن عن النبي (عليه الصلاة و السلام) الذي يمثل بوصفه أسي تجل للإنسان، التجسيد لمبدأ النفس الذي يحرك العالم. لأن " نفس النفس مظهر الله " (تعالى).

و قد وصف الرومي في صور شعرية السيدة نفس (خاتون جان – بالفارسية) التي هي سيدة بيت الجسم الصحيحة:

عندما تذهب النفس، هيء لي مكانا تحت التراب،

فالتراب يكون في المنزل، عندما تذهب السيدة.

و مثلما يحس مولانا أن قدرا محددنا من العقل مخفي حتى في المخلوقات الدنيا، كما هي الحال في الجمادات يعرف أن النفس تجلي نفسها على نحو مختلف في الطبقات المختلفة للوجود: نفس الإنسان أعلى من نفس الحيوان و نفس الملاك أيضاً أعلى من نفس الإنسان، و لكن أعلى من نفس الملاك نفس أولئك الذين تطهر قلوبهم: و هذا مبعث أن آدم (عليه الصلاة و السلام) كان موضوع سجود الملائكة. و رغم ذلك فإن هذه النفس حية فقط طالما أنها مرتبطة بالنور الإلهي:

ولو كانت النفس حية دون هذا الشعاع

لما قال الحق عن الكافرين " إنهم ميتون ".

إنها مثل شمعة تحترق ب " الشعلة الربانية" أو بتعبير آخر مثل النافذة التي يمكن أن تفتح نحو الحق بحيث يمكن "رسالة الله" أي الإلهام، أن تأتي من خلال النافذة. وبيت ليس له مثل هذه النافذة مثل جهنم، والمعني الحقيقي للدين، المضمون الواحد للتعليم النبوي والعرفاني، هو أن على الإنسان أن يفتح نافذة النفس هذه. و إذ ذاك فقط يكون الإنسان قادرا على أن يشترك في الحركة الكونية العظيمة. و النفس البشرية الفردية لايمكن أن تفهم النافذة و مشاركة النفس الربانية فقط ستحس بأن المؤمنين رغم انفصالهم بعوائق الوجود الجسدي متحدون في النفس، و يهتزون في إيقاع واحد. ولا اختلاف باق بين أنفس الأولياء، كما يصف الرّوميّ على نحو رائع العشاق الذين هم نفس واحده " و يموت كل منهم في عشق الآخر "

و في مقطع طويل من الكتاب الأخير من المثنوي، و في وقت يتراءى أن الرّوميّ كان فيه أكثر اهتماما بالمنافسات النظرية، حاول مولانا أن يصور الأجزاء المختلفة للإنسان و أن يعطي حدودها، لكن الخطوط ليست دائما مرسومة على نحو واضح. أحيانا يسمى المبدأ المحي "نفسا" و أحيانا يسميه "روحا": و هكذا يكتب في الجزء الأخير من المثنوي بإفاضة عن " الروح" التي تكون أثناء نوم الإنسان مختفية و مرفوعة، لأنها " من أمر ربي " و:

جاء النوم من أجل أن يأخذ عقلك،

كيف ينام المجنون؟ ماذا يعرف المجنون عن الليل؟

أما في " فيه ما فيه " فيقول العكس تماما:

النفس شيء و الروح شيء آخر. ألا ترى أن النفس في المنام تسافر خارجا و الروح في الجسد؟ أما تلك النفس فتطوف و تتغير...

و هذا مبعث الصعوبة في تطوير نظام " سيكولوجي" صحيح من بيانات الرّوميّ المتناقضة غالبا. فهو أحيانا يسمى النفس المبدأ المحرك و في أحيان أخرى " الروح" الذي تكون الأعضاء مطيعة له مثلما تكون الأرض مطيعة للسماء. و لاشك في أن الروح أعلى من " المؤنث و المذكر" و هو غير مقيد بحدود خارجية، وهو قادر على تلقي الوحي الإلهي و لذلك فهو أكثر خفاء من العقل. إن طبقات جسم الإنسان واحده إثر الأخرى، و النفس الشهوانية و العقل، ينبغي أن تنحي حتى تزال كل الحجب التي تستر ذلك العضو

القادر على تلقي الوحي الإلهي.

و لكن أسمى من هذه الأجزاء جميعا القلب، كرسى العشق. و ثمة أبيات عديدة حول القلب، الذي يوصف على نحو أكثر شعيرية و تمدح صفاته، و يحكي عن أحزانه في أبيات مؤثرة. ذلك لأن " اهل القلب " هم العشاق و السالكون الصادقون، بعيدا عن الجسد الذي يجر الإنسان إلى مستنقع الماء و الطين.

و كثيرا ما يتخيل القلب طفلا يطلب حليب العشق، فهو مولود من الجسد، لكنه ملك الجسد " مثلما يلد من المرأة الرجل ".

و من " ماء حوض القلب " يشرب الجسد كله و يتطهر، رغم أنه بين " بحر الجسد و بحر القلب " يقام برزخ لا يتجاوزانه و لكن بمجرد أن يدفع الإنسان الصدقات من جسده فإن الحق سينمي حديقة رائعة في قلبه.

و ينبغي أت يظل القلب في حركة متواصلة على مدي سنوات كثيرة ذلك لأنه مثل الماء الذي سيغدو منتنا عندما يركد لكنه أيضًا ملتهب مثل جهنم، بل أكثر من ذلك: تستطيع حرارته أن تحرق جهنم ولا تتفادى ماء البحر. ولا يكف الزومي في أغانيه عن مخاطبة هذا القلب الذي لا يهدأ ولا يستقر في مكان يتشوق ويعشق، و الذي يهجر الجسم و يلحق بالمعشوق أينما ذهب:

صحت: أين يمضي قلبي الثمل؟

قال الملك: صه، يمضي إلى جنابي!

و إذ يكون تائها في " بحر العشق " فإنه يضيء الأعين و هكذا فإن " نور العين من نور القلوب ".

و هذا القلب هو، في الوقت نفسه، عرش الله الذي نزل بشأنه التعبير القرآني " الرحمن على العرش استوى " . وهو " منظر الحق " و كل من لديه قلب صادق لديه مرآة تعكس الجهات الست للعالم بحيث إن الحق (سبحانه) يرى هذا العالم في قلب الإنسان وصوره المرأة شائعة: و ينبغي أن تصقل بالتقوي و الأعمال الصالحة و العشق حتى يستطيع الإنسان أن يرى فيها " علوم الأنبياء دون كتاب و دون معلم و أستاذ " و مثل هذا الصقل المستمر يجعل القلب يشبه " المرأة الصينية " بحيث يكون قادرا على

تلقي الوحي، نور الحق. و بسبب ارتباطه بالنور الإلهي الذي يشع في المرآة الصافية، يمكن تشبيه هذا القلب بـ "مشكاة الحق" وهو حي فقط بفضل النور الإلهي و شفاف بسبب أشعته، كما يقول الروميّ مستفيدا من آية النور

على أن التشبيه الأكثر شيوعا هو تشبيه القلب و البيت، الذي عرفه الصوفيّة منذ أواخر القرن الرابع الهجري على الأقل عندما كتب أبو الحسين النوري قصصه الرمزية. فالبيت ينتظر أن يسكنه "ضيف الروح المحبوب" المعشوق الإلهي كما وعد الحق:

لا يسعني أرضي ولا سمائي و يسعني قلب عبدي المؤمن.

وسواء أنظف القلب بحيث لا يبقى فيه صنم عندما يشاء الزائر الإلهي الدخول، أم خرب تخريبا تاما تحت ضربا المحن بحيث يظهر الكنز على نحو مفاجيء - ولن يحدث هذا اختلافا في النتيجة. لأن الحق وعد:

أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

وصورته - صورته المعشوق - تستقر في القلب الشبيه بالصدفة مثل اللؤلؤة و هكذا فإن العاشق نفسه ليس له مكان فيه، الاسم فقط يظل منه ولا شيء آخر. لأن اثنتين من ال "أنا" لا يمكن أن يستوعبا في منزله الضيق.

و القلب أيضًا بستان رائع و هذه أيضًا صورة قديمة من أيام النوري على الأقل: قد يكون ظاهريا صحراء لكنه يحتوي على الأزاهير و الرياض، التي تروي بغيث الرحمة و تنمي بنسيم الرسائل الإلهية.

و تمد صورته البيت إلى صورة بناء مقدس: القلب هو المسجد الذي يتعبد فيه الجسم ولا عدو يمكن أن يدخل هذا الحرم ليلوئه، إنه المسجد الأقصى المسجد المعروف في القدس أو هو الكعبة نفسها. و على غرار النفس، يفتح نافذة نحو الغيب و هكذا يستطيع العاشق أن يصغى إلى الكلمات التي يتكلمها المعشوق غير المرئي.

هناك دائما صور جديدة مفعمة بالشعر و أحيانا غريبة:

القلب قارورة زجاجية يقيم فيها المعشوق الإلهي مثل الجنى، ومن ثم يغدو الإنسان

ساحرا، يدعو هذا الجني برقي سحرية. أو: عشقه يضع قلبي المتألم على كفه و يشمه،

و عندما لا يكون هذا القلب طيبا، كيف له أن يكون باقة ورد له؟

و عندما يحترق القلب جيدا بشعل العشق عندما يحمص مثل الكباب، كما يقول الشاعر، ستصدر عنه روائح مختلفة يعرف بها المعشوق طبيعته الصحيحة. و في غزل مخصص لأعاجيب القلب، يمدح الروميّ هذا القلب الضئيل الحجم، الذي هو من القوة بحيث يضغط السماوات كالسماط و يعلق مصباح الأزل على نفسه كما لو كان شمعة غاية في الصغر. أليس القلب مثل سليمان بين يديه خاتمه المكتنف بالأسرار، الذي خلق تحت سلطانه كل شيء؟ وهو يقود الإنسان نحو البقاء، الحياة الأزلية في الله، في حين أن الجسم يمضي باتجاه الفناء، ثم إن كل شيء جميل ليس، على الحقيقة، سوى انعكاس للقلب لأنه " من خد القلب يظهر حسن الحق " (از رخ دل، حسن خدا رونمود - بالفارسية).

و هكذا فإن " علم الإنسان " عند الروميّ - إن أمكن تسميته بهذا الاسم العلمي - هو وصف لمرتبة الإنسان العالية، تلك المرتبة التي يميل هو إلى نسيانها، التي ابتغاء أن يكتشفها من جديد يطلب منه أن يصل إلى عالم القلب المدهش، الذي يكشف له الحق في جماله و عشقه.

” وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ”

النبوة في آثار مولانا:

الإنسان ذروة الكائنات المخلوقة، لكنه من بين الناس يشكل الأنبياء على الجملة و نبي الإسلام على جهة الخصوص، أعلى نقطة ممكنة في التطور الروحي، مما يعني أنهم يتمتعون بأقصى درجة من القرب من الخالق (سبحانه).

و عشق النبي محمد، المسمى بالاسمين التشريفيين ” أحمد ” و ” مصطفى ” أحد الملامح البارزة للحياة الإسلامية على الجملة و التفكير الصوفيّ على نحو خاص. و كثيرا ما يلاحظ المرء العلاقة القوية للصوفية، و من ثم لجلال الدّين، بني الإسلام (عليه الصلاة و السلام) الذي ” يتعلق به تعلق أبي بكر بالمصطفى ” عندما أمضيا ليلة في الغار في طريقهما من مكة إلى المدينة. فأمتن علاقة ممكنة لحبيب واثق و جدير.

بالثقة بقائد المؤمنين تكون نموذجا لعلاقة الصوفيّ بالنبي.

لو عادت الصباح كنت خفاشا،

ولو أنكرت أحمد لكنت يهوديا.

و يحض الرّوميّ الإنسان على أن يتأمل ما حوله: أليست آثار النبي حية بعد مضي ست مائة و خمسين سنة؟ عليه أن يغدو خادما ل ” لولاك ” و أن يأخذ لقمة من ” لولاك ” أي إن عليه أن يقبل الحديث الذي وفقا له خاطب الحق (سبحانه) محمدا (عليه الصلاة و السلام) قائلا:

”لولاك لما خلقت الأفلاك.”

هذا القول الرباني هو، على الحقيقة، المنبع الصحيح للخلق، و للحركة، و للعشق،

ذاك لن محمدا المصطفى هو غاية الوجود و معناه. و في الأثر أنه (عليه الصلاة و السلام) قال:

كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين -

ورغم ذلك قال بأسى:

يا ليت رب محمد لم يخلق محمدا!

لأنه:

” قياسا إلى ذلك الوصال المطلق ” الذي تمتع به مع الحق،

ليس عمل النبوة هذا كله سوى ” مشقة و عذاب و ألم ”

و المستقين أن ” كل نبي وكل ولي ” له طريق خاص في تعليم الخلق، أما في الله فإنهم متحدون وهم مجرد و سطاء يتوسطون بين الإنسان و الحق، الذي هو المشترى. و مكافأتهم عندئذ رؤية المعشوق. و محمد (عليه الصلاة و السلام) خاتم النبيين وهو ينفذ ما علمه أسلافه من الأنبياء.

و يرى الرّوميّ النبي معينا و قائدا، و عندما يقص حكاية مرضعة النبي ” حليلة ” التي كانت حزينة عندما افتقدته، يقتبس قول الرجل العجوز الذي حاول أن يعزيها:

لا تغتني: فلن يضيع منك،

بل إن العالم كله سيضيع فيه.

ولا جدالك في أن ذلك كان شعور كل مسلم صالح في القرن السابع الهجري (31م).

و قد اعتمد الرّوميّ كثيرا على الأحاديث النبوية في آثاره يوردها على نحو صريح أو يومي إليها مئات المرات. و تتخلل ذكريات من سيرة محمد (عليه الصلاة و السلام) لغته الشعرية و يطفح مثنوية بالقصص التي تدور حول حياته: كيف جاء الكفار لزيارته، و كيف تحدث إلى زوجه الشابة المحبوبة السيدة ” عائشة ” و كيف جاءهم و أساء الأدب تماما بعد أن أكل ” بسبع معد ” مما دعا النبي إلى أن ينظف الحجرة التي بات فيها

الضيف غير المدعو و حكايات أخر كثيرة. محمد (عليه الصلاة و السلام) مثال الرأفة و الحكمة و يستشهد كثيرا بحكايات تتصل بشخصيته في " فيه ما فيه " حيث تؤول، كما هي الحال في المثنوي، بمعنى صوفي.

و تغدو هجرة محمد من مكة إلى المدينة رمزا للرحلة الروحية:

ألم يمض المصطفى في رحلة نحو يثرب،

إذ ظفر بالسلطنة وغدا حاكم مائة دولة....؟

و على النحو نفسه، في مقدور الإنسان أن يجد مملكته الروحية فقط بترك البلد الذي ولد فيه، أي عالم المادة و يطوف في الطرق الصعبة كما تعلم من شيوخ الطريق ليظفر بمملكة الروح و أخيرًا يسخر الدنيا. و بعد أن عاد إلى مكة، حطم النبي الأصنام و اتباعا لمثاله فإن الطالب الذي أرسى دعائم مملكته الروحية سيعلم حكم الحق في كل مكان، سيحول عالم المادة إلى ملكوت الله. على أن موضوع الرحلة، المحبب جدا إلى الصوفيّة في كل الأديان، كثيرا ما استخدمه الروميّ في سياقات مختلفة، أما هذا الأرتباط بهجرة النبي (عليه الصلاة و السلام) فيبدو مرحيا على نحو خاص.

و الألام التي واجهها محمد (عليه الصلاة و السلام) يرمز إليها عادة في صورة أبي لهب الذي هو، عند الروميّ، الكائن البشري الوحيد المحروم من لهب العشق الإلهي.

و المجموعة الكاملة من القصص التي رويت حول النبي على امتداد قرون تردّد أصداؤها في شعر الروميّ. وهو مولى جدا بقصة الجذع الحنان: فقد استخدم محمد (عليه الصلاة و السلام) هذا الجذع مدة في الاتكاء عليه أثناء وعظة، و عندما أنشئ له منبر مناسب ترك الجذع - فبدأ الجذع المتروك بالأنين. فهل الإنسان أدنى من جذع النخل بحيث لا يتحسر عندما يفصل عن معشوقه؟ فالجذع الذي يئن و الحجارة التي تتكلم هي جميعا منحت الحياة. العوام وحدهم يعدون هذه الأشياء ميتة و دون شعور أما أمام الله (و يمكن أن نضيف: أمام أولئك الذين يعيشون في الله) فإنها " عالمة و مطيعة ".

و ثمة معجزات أخر تفيد في إيضاح المنزلة العالية للنبي (عليه الصلاة و السلام) فالمنديل الذي استخدمه في مسح وجهه و يديه لم يحترق بنار التنور، لأن النور المحمدي الذي يشهد بأن جهنم تخاطب المؤمن الصادق بهذه الكلمات: " نورك يطفى لهي ". النور

الإلهي المتجلي بالنبى و المؤمنين غير محدث أما نار جهنم فحدثه و هي من ثم في مرتبة أدنى و مرتبطة بالزوال.

و يتفق جلال الدين مع شعراء فارس في شيراز الذين عرفوا من خلال حديث آخر، أن الوردة مخلوقة من " عرق لطف المصطفى ". و لأن جسد النبي كله كان طاهرا من أية نجاسة و قلبه قد أخرجته الملائكة و غسلته فقد كان أرجا و جميلا و ناقلا للنور الإلهي و ليس له ظل. و لأنه روض غرائزه الدنيا ترويضها تاما، ففي مقدوره أن يعلن أن شيطانه صار مسلما و طاوعه في كل أمر: و هنا أيضًا هو النموذج للصوفي الذي عليه أن يهذب غرائزه الدنيا ليجعلها في خدمة الحق حيث ستثبت أنها مفيدة (مثلما أن اللص السابق سيغدو رئيسا ممتازا للشرط لأنه يعرف كل حيل الحرفة...).

على أن إشارات القرآن إلى مشاهدات النبي (عليه الصلاة والسلام) ليلة عرج به كانت دائما موضوعا رئيسا للشعراء و الكتاب الصوفيّة، الذين تعرفوا في سورة " النجم"- السورة 35- الوصف الكامل لمقام النبي: كانت المسافة قاب قوسين أو أدنى بين النبي و ما لا يوصف بالأفق الأعلى، لكن بصر محمد (عليه الصلاة والسلام) ما زاغ في حضرة الحق، الشمس الإلهية المشعة. و هذه على نحو دقيق حال من بلغ درجة الحياة الكاملة بالحق (سبحانه) ولا يرى سواه، غير منشغل بصور و أشياء خارجية عداه. و يضمن الرّوميّ أيضًا إشارات إلى السورة) "عبس" التي فيها انتقد الموقف غير الودي للنبي (عليه الصلاة والسلام) إزاء ضيف أعمي. و غني عن التعليق أن الإشارات إلى مهمة محمد (عليه الصلاة والسلام) بوصفه خاتم الأنبياء تتردد كثيرا:

الأختام التي تركها الأنبياء (السابقون)

فتحت بدين أحمد.

و الأقفال التي بقيت مقفلة

بكف " إنا فتحنا" فتحت وهو شفيع في هذه الدنيا و في تلك الآخرة:

في هذه الدنيا للهداية إلى الدين الحق و في الآخرة

(للدخول) إلى الجنة....

و قد جاء محمد (رحمة للعالمين):

يا رحمة للعالمين ، أعط من بحر اليقين ،

جوهرًا لأهل الأرض ، وراحة لأسماك البحر .

وهنا فإن ربط " الرحمة " ب " غيم المطر " ، الشائع كثيرا في الشعر الإسلامي مقصود على الأقل: فالنبي، إذ يستمد قوته من البحر الإلهي مثلما تتغذي الغيمة من البحر، يحول قطرات مطر الحكمة و الرحمة و اليقين إلى لآلئ. و فيه يكون فعل الحق بوساطة آلة الإنسان دون أسباب ثانوية أكثر جلاء ووضوحا: هكذا يذكر القرآن معجزة معركة بدر في السنة الثانية للهجرة 426م: " و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمي " و لأن محمدا (عليه الصلاة و السلام) عاشق في الحق موضوع السهم الذي يجيء من عالم الغيب دون قوس يشير كثيرا إلى فعل النبي أو أولئك الذين بلغوا المنزلة الخيرة من الولاية.

و إحدى الحوادث الخارقة للطبيعة المتعلقة بالنبي (عليه الصلاة و السلام) هي حادثة انشقاق القمر. و هذه المعجزة التي تفسر من ملاحظة سريعة في بدء السورة 45، عدت دائما إحدى أسى مآثره:

يشق المصطفى القمر في منتصف الليل،

فيأخذ أبو لهب في الهذيان بسبب ما ألم به من غيظ.

و هذا المسيح يحيي الموتى، أما ذلك اليهودي،

فينتف شاربه من الغضب.

و توضع معجزة محمد جنبا إلى جنب مع معجزة المسيح، لأن كلتا المعجزتين أثرت في الكافرين تأثيرا سلبيا، مثيرة غضبهم. و انشقاق القمر بإصبع النبي أسى سعادة يمكن أن يظفر بها القمر. فلماذا إذا ينبغي أن يظل الإنسان كالغيوم مخفيا جماله؟ و لكن ليس القمر وحده، بل السماء و الأرض انفطرتا من السعادة عندما ظهر محمد على الأرض:

تنشق السماء من فرحتها،

و تغدو الأرض كالسوسن بسبب اعتاقها.

هو " أقمر من الأقمار " و لذلك يسمي أصحابه " نجوموا "، النجوم التي تحيط به إذ هو هادي الطريق وهو غير عابئ بالأعداد الشبيهين بالكلاب الذين يهرونه من دون أن يعوقوا سفره المبارك.

و لذلك فإن العارف الذي اتصل بنور محمد يمكن أن يزعم:

أشق القمر بنور المصطفى!

وقد تطور مفهوم " النور المحمدي " في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وهو يشكل موضوعا لكثير من الرسائل العلمية للصوفية و الحكماء الإلهيين: إنه نور من نور الحق متقدم على كل الأنوار المحدثه وهو يتخلل الخلق كله، ولا يدع مجال لأي ظلمة:

ارتدى الكفر ثياب الحداد السود، إذ وصل نور محمد،

و قرع طبل البقاء، إذ وصل الملك المخلد.

و إلى هذا النور تشير سورة " الضحى " في قوله سبحانه " و الضحى "، كما ذهب إلى ذلك دائما الصوفيّة الأوائل: تفسير السنائي الشعري لهذه السورة في قصيدة طويلة في مدح النبي محمد (عليه الصلاة و السلام) هو التعبير الأكثر بلاغة عن هذا الإحساس. و قد تبني الرومي هذه الفكرة أيضًا. و في صور مدهشة يثني على هذا النور، الذي يضيء الطريق للمسافرين و الذي يشمل شعاعه للألاء كل شيء. و يوجد هذا النور في آلاف التفرعات في كل أنحاء الدنيا، و

لو أن محمدا مزق الحجاب عن فرع واحد،

لمزق ألف راهب و قسيس الزنار.

يشمل جماله العالم و نوره مضاد للسوداء و للشهوة إلى المرأة و الثروة يجعل النفس لألاءة و يجلو كل ضروب الظلام و يوحد كل الظلال ذوات الأطوال المختلفة، و كل الألوان ذوات الدرجات المتباينة، و هكذا إلى أن تغدو الظلال جميعا رهنا في يد تلك الشمس، أي مستغرقة فيها.

نور محمد هو المصدر لكل عشق: عشق الصوفي واشتياقه إلى الحق يصدران عن النور الأزلي لمحمد الذي هو حقيقة كل نبوة و ولاية وجوهرهما...". و من هنا كثيرا ما يوصف النبي بأنه التجسيد الحقيقي للعشق و يطلب من العاشق أن يمسك ب " رداء أحمد" و ان يسمع أذن صلاة العشق من قلب بلال مؤذن النبي الحبشي المخلص. العشق، كما يقول الرّوميّ شبيه ب " مجئ المصطفى وسط الكفار" و قد تجلى العشق الإلهي على أحسن صورة في تجربة الإسراء، الرحلة الليلية، العروج إلى السماء، الذي يشير إليه القرآن: " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ". و قد فسرت هذه الرحلة الليلية على الأقل منذ أيام بايزيد البسطامي بأنها النموذج الأصلي لطيران الصوفيّ إلى الحضرة الإلهية المباشرة و من ثم بأنها رمز لأسمى تجربة روحية. فالنبي الذي " كرس يومه للعمل و الكسب و ليلة للعشق " (الإلهي) لأن " قلبه كان يقظا حتى لو نامت عيناه " كما جاء في الحديث، صعد به على " البراق " الذي أضفى اسمه بين جمهرة أهل العرفان و خاصة الرّوميّ مراد فال " العشق ". براق أحمد نصيب أولئك العشاق الحقيقيين الذين لم يقيموا وزنا لآلاف الخيول العربية التي قد تكون لدى الآخرين.

و فيما يتصل بعروج النبي صاغ الرّوميّ واحدة من أجمل صورته: في الحديث أن جبريل دليل الرحلة السماوية ظل خارج الحضرة افلهية التي أذن للنبي (عليه الصلاة و السلام) بأن يصل إليها، لأنه حتى ملك الوحي لم يجرؤ على الطيران أبعد من ذلك خشية أن يحترق جناحاه: وهكذا يضحى جبريل الرمز للعقل الذي ليس في طوقه أن يتجاوز نقطة محددة. و حيث يبدأ الحديث الحميم عن العشق و معرفة العاشق، يغدو العقل غير مقبول، حتى لو ظهر في مظهر الملائكة. و مهما يكن فإن النبي (عليه الصلاة والسلام) استمتع ب " وقت مع الله ". و في هذا التفسير للمعراج، الصعود، لخص الرّوميّ موقفه الكامل إزاء العقل الاستدلالي الذي، رغم أنه نافع و ضروري مثل جبريل أن يصل الطالب إلى خلوة الوصال حيث يظهر سر العشق الذي لا ينطق به ووفقا للتقليد الإسلامي، يبشر بالنبي (عليه الصلاة و السلام) في الأناجيل بوصفه أحمد، الشفيع و اسمه، أحمد، هو اسم الأنبياء جميعا. و يعرف الرّوميّ الحديث القدسي الذي قال فيه الحق: " أنا أحمد دون ميم " أي " أحد " وهو حديث ربما يكون وضع في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ذلك أنه يرد مرات عديدة في أعمال العطار، لكنه لا يوجد في شعر السنائي، و ليس نادرا أن يشير جلال الدّين إلى المجانسة بين أحد و أحمد:

نسج ال " أحد " الريش حول وجهه خشية الحسد،

فهمت نفس " أحمد " من الاشتياق إليه: " و اشوقنا "

وفي كتاب " فيه ما فيه " يذكر مولانا اسم معين الدين برفانه الذي غدا، بسبب حرف الميم " معين الدين " أي مساعدا للدين بدلا من " عين الدين " أي ذات الدين: و يؤكد ذلك عند مولانا أن الزيادة على الكمال نقصان. و تلك هي الحال في ارتباط أحمد و أحد:

الأحد كمال. و أحمد الآن ليس في مقام الكمال، و عندما

تزول تلك الميم يغدو كمالا كاملا. يعني أن الحق محيط

بكل شيء، و أي شيء زدت عليه يكون نقصانا.

و مهما يكن، فإن الرومي لا يشير في هذا السياق إلى القيمة العددية للميم الأربعين، فيما يتصل بالدرجات الأربعين للصدور عن الحق التي تفصل بين الإنسان و الحق إذ يترك هذا إلى منظري الصوفيّة المتأخرين ". و في بيت مثير يتحدث مولانا عن شمس تبريز " مؤنس أحمد " الذي هو يقينا " إحدى الكبر " أي أحد أهم الأشياء . أيتضمن هذا البيت إشارة لطيفة إلى النقاش الأول للصوفين الذي دار، كما تذكر الحكاية، حول ما إذا كان محمد أعظم من أبي يزيد البسطامي؟ أما محمد (عليه الصلاة و السلام) فقد سمي نفسه " عبد الله " و أما بايزيد فقد هتف: " سبحاني، ما أعظم شي ". و قد حل الإشكال، طبعاً، في مصلحة النبي: أما مولى تبريز، الشهير بعشقه الحارق للنبي، فيغدو عند جلال الدين المفسر الحقيقي ل " الخمرة الروحانية المحمدية "

إذا توضع العبير من الدن الأحمدية،

جاشت أعين الكافرين و أنفسهم كخمرته.

و إذا أردت الرائحة و اللون التامين من الخمرة الأحمدية،

فانزل أيها الحادي، لحظة في تبريز!

و لكن مرة أخرى، يغير الشاعر عقله: لم يكن محمد على الحقيقة خمرة ولا ساقيا:

كان الكأس المملوءة بالخمير، و كان الحق ساقى الأبرار

وهو تمييز دقيق لوظيفة النبي، الذي لا ينقل أي شراب مسكر منه هو، بل يأتي فقط بما وضعه الله فيه، إذ هو مجرد أداة للفعل الإلهي، و عاد طاهر للخمرة الإلهية. سمي أميا ليظهر أن حكمته ليست نتاج جهد عقلي و تعليم مكتوب، بل هي وحي إلهي صرف.

كان أميا، لكن مئات الآلاف من الكتب المملوءة

بالشعر كانت عارا أمام حرفه الأمي.

و في شرح متأخر أكثر علمية و مكتوب نثرا، وقف الرومي مرة أخرى عند " أمية " النبي حيث ينتهي تقريبا إلى مساواة النبي و العقل الكلي، و هي فكرة أشير إليها في المثنوي أيضاً:

المصطفي (عليه الصلاة و السلام) الذي يدعونه أميا، لا يقولون له ذلك من وجهة أن كتابته و علمه و حكمته كانت فطرية، غير مكتسبة: أيمن أن يكون من ينقش الأحرف على وجه القمر عاجزا عن الكتابة؟- و أي شيء في العالم لا يعرفه، ذلك أن الجميع منه يتعلمون و أي شيء، باللعجب، للعقل الجزئي ليس للعقل الكلي؟... و أولئك الذين يخترعون من عندهم شيئا جديدا، هم عقل كلي: العقل الجزئي قابل للتعليم، محتاج إلى التعليم. أما العقل الكلي فمعلم غير محتاج،... الأنبياء و الأولياء هم الذين ربطوا العقل الجزئي بالعقل الكلي و صاروا عندهم شيئا واحدا...

و في الجملة فإن أشعار الرومي تعكس كثيرا الإيمان العميق بالنبي الذي هو " مغيث الكونين " و الذي يجعل المؤمنين " نفسا واحده " كالأم الحنون. وهو " ميزان الله " على الأرض يوزن به الخفيف و الثقيل و يحكم عليهما، وهو مثل سفينة نوح ينجي كل من يتعلق به (القول نفسه ينطبق كذلك على أصحابه). القرآن في يده مثل عصا موسى، التي أعطيت صفات منح الحياة فيما يتصل بالمؤمنين، لكنها تتحول إلى تنين إزاء الكافرين الذين تلتهمهم. و هكذا فإن النبي، ذلك الجوهر الفد، يمكن حقا أن يدعى " الكيمياء من أجل الإنسان " فالناس كالتحاس الرديء، لكن نوره يحولهم إلى ذهب. و بمجرد أن يتذوقوا من ماء الكوثر، عين الماء في التي أعطيت الجنة لمحمد يتحولون و يكتسبون خصائصه: و مثل هؤلاء الناس ينبغي أن يختاروا أصحابا، لأن لديهم تفاحة من شجرة أحمد. وكل من يمسك بطرف من رداء المصطفى سينجو من قعر جهنم و يؤتي به إلى الجنة.

ولم يكف الرّومي عن التعبير عن حبه و إيمانه بالنبي الذي أحاطه بعدد من الأسماء
و الألقاب الرائعة. و في غزل عربي صغير ذي إيقاع راقص تقريبا، يمدحه:

هذا حبيبي، هذا طبيبي

هذا أديبي، هذا دواي....

و هي كلمات استخدمها الشعراء الصوفيّة عادة في معشوقهم، و الحقيقة أن النبي
اتخذ في القرون اللاحقة شيئا فشيئا صفة المعشوق الصوفيّ.

و يمك أن نلخص موقف جلال الدّين من النبي (عليه الصلاة و السلام) ببيت من
أكثر غزاله روعة حيث يصف رحلة النفس إلى موطنها الأول:

الحظ الشاب حبيينا، و بذل المهج عملنا،

و أمير ركبتنا فخر الدنيا، المصطفي!

ولا أحد أبدا ممن استمع إلى الطّقس المولوي يمكن أن ينسي الجمال الأخاذ للمقطع
الافتتاحي " النعت الشريف " الأغنية التي موضوعها تبجيل النبي، التي عبر فيها جلال
الدّين عن عشقه واحترامه لمحمد (عليه الصلاة و السلام): ينشأ الرقص الصوفيّ كله
من هذه الترنيمة التي تتغني بما لقائد المؤمنين و حبيهم من جلال و جمال:

” لتركبن طبقا عن طبق ”

(الإنشقاق 19)

السلم الروحي:

رأى الرّوميّ الحياة حركة صاعدة دائما. على أن تطور الخلق كله من ادنى مجاليه إلى أعلاها و تقدم الحياة الفردية كليهما يمكن تأملهما وفق هذا التصور. و مثل هذه الحركة يمكن أن تعبر عنها صورته الرحلة التي يأتي ذكرها كثيرا على الحقيقة في شعره على غرار ما تذكر في أشعار الصوفيّة الآخرين، لكن رمزه المحبب، المتناغم مع الصورة المجازية عند السنائيّ أيضًا هو رمز السلم ” نردبان ” الذي سيقود العاشق أخيرًا إلى السطح حيث يكون المعشوق منتظرا.

و قد وضع الحق سلالم مختلفة في الدنيا، معدة لأن يصعد عليها أناس مختلفون، و قد تستخدم الحواس الدنيوية أيضًا سلما، ينتهي في أية حال في هذه الدنيا، أما ” حس الدين ” فيقود إلى السماء. أما أن يسمي المرشد الروحي نفسه سلما فليس مثيرا للعجب كثيرا، لأنه يرشد المرید على نحو تدريجي و في مراحل منظمة إلى حقائق أسى حتى تفتح أبواب لطف الحق و في العشق لا يبقى السلم مطلوبًا. لكنه حتى الموت – سواء أكان موت الجسد أم موت الروح في الفناء – يقود من وجهة أنه سلم، إلى سطح المعشوق و السماع أيضًا سلم إلى السماء.

ويرى الرّوميّ درجات و سلالم في كل مكان: الأفرع و الأغصان التي تظهر في الربيع من الأعماق مثل السلم الذي وضعه أولئك الذين يعرجون إلى السماء في الحديقة، كما لو أن البراعم و الأوراق كانت أرواحا وصلت إلى الجنة. تاركة التراب المظلم أي الجسد. وورود الحبيب تقول للعشاق في الحديقة إن السلم الذي يقود إلى المعشوق هو أن يضحى الإنسان بنفسه في ميدان البلاء و الأفرع التي تجتذب الماء من الجذور هي صور للمعشوق الذي يجتذب النفس دون سلم ظاهري.

و على الإنسان أن يحول نفسه إلى سلم عندما يرى أن كل أبواب الراحة و السلام قد أغلقت أمامه – و بعدئذ سيجد معشوقه على السطح مشعا كالقمر.... ورغم أن صورة رحلة النزول في قلب الإنسان مستخدمة أحيانا في اعماله، تظل هذه الصورة المجازية للسلالم و الدرج دون حدود تقريبا في شعر الرّوميّ.

و الدرجة الأولى في هذا السلم الذي يوصل الإنسان إلى الحق تكون أساسية: " بداية المنارة من قرميدة واحدة " ولو أغفل الإنسان قرميدة واحدة في الأساس لانهار البناء كله حالا. و هذه الدرجة الاولى هي الالتزام الصارم بالواجبات الدّينية كما علمها القرآن و شرحها الحديث النبوي. فالصيام و الصلاة و الزكاة و الحج لا يمكن الاستغناء عنها، لأنّها التعبير عن الإيمان الحقيقي:

هذه الصلاة و هذا الصيام و الحج و الجهاد

برهان على الاعتقاد

و هذه الزكاة و الصدقة و عدم الحسد

برهان على سرك.

و فضلا عن الصلاة التي ستناقش على حدة، فإن صيام رمضان هو الذي يركز عليه اهتمام الرّوميّ الكبير.

رغم أن الإيمان مبني على خمسة أركان

لكن، و الله إن الصيام أعظم هذه الاركان.

لكنه (الحق) قد أخفى في هذه الخمسة جميعا قدر الصيام،

مثلما تخفي ليلة القدر المباركة في الصيام.

فعلى " قاف الصيام " حتى العصفور يغدو عنقاء و يتحول الحجر إلى ياقوت مدهش أثناء الصوم، و هذا العمل الدّيني جواد سريع ينطلق بتوتب نحو معين الحياة كما يقول مولانا في غزل طويل مقفي بكلمة " صيام ". وأولئك الذين يصومون يشربون خمرة الروح، أو، بتعبير مختلف، أولئك الذين كسروا زجاجة (الدنيا) ب " حجر الصوم و

الجهاد" سيسقون " شرابا طهورا " من كأس عيد الفطر . و يعني الصيام على الحقيقة
تضحية الإنسان بنفسه و هكذا فإن العيدين هما أساسا عيد واحد عظيم للتضحية،
ذاك لأن شهر رمضان مثل ضيف مكرم ينبغي أن يذبح له ذبح عظيم. و في طباق جميل
يقول الشاعر:

اذبح بالصيام ثور حرصك السمين،

لكي تظفر ببركة هلال العيد النحيف!

الصيام، كما يقول الرومي بتعبير حربي هو " المنجنيق " الذي يدمر قلعة " الكفر و
الظلمة " و الاستبداد.

أبيات مفردة لا حصر لها و أغزال كاملة تؤكد أهمية الصيام الذي أخذ الرومي
نفسه به على نحو صارم، حتى إنه تجاوز في ذلك الحد المطلوب. و تفسير أبيات آخر
الصيام و الاحتفال بالعيد على نحو مختلف:

طالما أن الشاعر مع معشوقه، القمر، يظل يستمتع بالعيد كل يوم، نهارا و ليلا. و
عندما يعنفه المعشوق، يشعر بأنه:

بعد نصب الصيام سيأتي يوم العيد!

و على الحقيقة لا ينبغي للإنسان أن يفطر غب الصوم إلا على " سكر شفقي "
الحبيب – و لكن ماذا يفعل المرء عندما لا تكون هذه الحلوي في متناوله؟- و العيدان في
نهاية رمضان و في نهاية الحج إلى مكة، كافيان للمؤمن العادي، أما من يعرف المعشوق
فلديه مئتا عيد في كل لحظة. و يشكو الرومي مخاطبا الحبيب في صورة مجازية خلافة:

أنت مثل عرفة و العيد، و أنا غرة ذي الحجة،

لن أستطيع أن أصل إليك و ليس في وسعي أن أفصل

نفسي عنك.

وقد وصف الرومي أحيانا الحج الطريق الطويل المضني لأن الحاج يصير متعودا من
أجل الحج في الرمل و القفار

على الحليب النوق، و يرى غارات البدو.

و هو يرى حتى السماء تطوف حول الكعبة بخرقتها الصوفيّة الزرقاء الداكنة و يعرف عن سفر أولئك الذين يعودون تاركين قلوبهم في مكة بأجساد منهكة لكن التعب كله لا معني له طالما أن القلب غير حاضر أثناء الحج. و هكذا يدعو مولانا الحجاج إلى أن يتحدثوا عن تجاربهم و ما رأوه في مكة:

أيها القوم الذين ذهبتم إلى الحج أين أنتم؟ أين أنتم؟

المعشوق في هذا المكان نفسه فتعال، تعال.

معشوقك جارك، الحائط على الحائط.

هائما في البادية، ماذا تطلب؟

و عندما تنظر، دون صور، صورته معشوقك هذا

تغدو أنت السيد و المنزل و الكعبة...

ورغم أن الحج فريضة، فإن قيمته الروحية أسمى من قيمته الظاهرية، و تقبيل الحجر الأسود في الكعبة ليس سوى رمز:

يقبل الحاج الحجر الأسود من أعماق قلبه،

لأنه يجد طعم شفة معشوقة الياقوتية فيه.

إنه إشارة لا أكثر. ولذلك يضيف الرّوميّ - على غرار جمهرة الصوفيّة - طابعا روحيا على الحج يرى الجمل " الجسد " يطوف حول الكعبة " القلب " و يصف الطريق الطويل نحو كعبة الوصال الذي هلك عليه الآلاف بسبب الاشتياق. ولا يحتاج الإنسان إلى شمعة ليرى هذه الكعبة الروحية في الليل - فأساسها كله نور يشع على العالم كله.

و " كعبة النفس " و " قبلة خد الحبيب " تعبيران مشتركان لديه.

و في قطعة مشهورة في نهاية المثنوي يحصى قبلة (جهة الصلاة) كل انوان الناس الذين لا يرون اتجاه رغائبهم و آمالهم في مكة البتة بل:

كعبة جبريل و الأرواح السدرة،

و قبلة عبد البطن السفرة.

قبلة العارف نور الوصال،

و قبلة العقل المفلسف الخيال.

قبلة الزاهد هي الله البر،

و قبلة الطماع كيس الذهب،

قبلة أصحاب المعنى الصبر وطول المعاناة،

و قبلة عباد الصورة صورة الحجر.

قبلة أصحاب الباطن ذو المنن،

و قبلة عباد الظاهر وجه المرأة.

أما العيد الأكبر، عيد الأضحى، فيقدم للعاشق فرصة رائعة للتضحية بنفسه من أجل المعشوق. و من هذه الجهة كثيرا ما يعد الرّوميّ شمس الدّين عيد الأضحى، فيقدم للعاشق فرصة رائعة للتضحية بنفسه من أجل المعشوق. و من هذه الوجهة كثيرا ما يعد الرّوميّ شمس الدّين عيد الأضحى نفسه، و يعد نفسه الخروف الذي يضحى به في هذه المناسبة.

قال مبتسما: " اذهب وضح

في عيدي، يا من صرت قرباني.

قلت: " قربان لمن أنا؟ " - فقال الحبيب:

" لي، لي، لي أنا!.

يصير الضحية في العيد محترقا كالعود بنار العشق لتصدر عنه الرائحة الطيبة – تلك هي حال العاشق. يذبح " بسيف باسم الله أو ب " خنجر الله أكبر " الذي سيجد أي إنسان أينما ذهب. و العاشق النحيل و الهزيل عادة، ربما في لحظة ضعف يطلب من حبيبه أمانة من أمارات " الرحمة " ذاك لأن الشريعة لا تجيز ذبح الحيوان الضعيف، لكنه يؤثر عندئذ أن يظهر نفسه جميلا و ممتلئ الجسم لأن " قصاب العاشقين " يفضل أن يذبح الحيوانات الحسنة الرواء.

و يطبق الرومي فكرة الحيوان الضحية أيضًا على الأحداث الطبيعية:

ذبحوا الثور الأسود " الليل " قربانا للسحر،

و لذلك يقول المؤذن بعد ذلك: " الله أكبر ".

و يشبه أذان الفجر بصيغة " الله أكبر " كما تنطق عند ذبح الحيوان. أو في مكان آخر قد يضحى الشاعر بكل حيوانات بروج الفلك من أجل القمر، معشوقه، في عيده الأكبر.

و عندما رأى الرومي في الحجر الأسود في الكعبة رمزا لشفة معشوقه، في عيده الأكبر.

و عندما رأى الرومي في الحجر الأسود في الكعبة رمزا لشفة معشوقه، فسر " الزكاة " على نحو مماثل و كثيرا ما يطلب من معشوقه أن يدفع زكاة الياقوت، أي أن يعطيه قبلة من شفتيه الحمراوين مثل الياقوت. و هذه الصورة ليست نادرة في الشعر الغنائي الفارسي في الجملة. و جدير بالذكر أن مولانا يشير مرات عديدة إلى " شب برات " (بالفارسية) أي ليلة النصف من شعبان التي تغفر فيها الذنوب و تقدر فيها المصائر – و تعد هذه الليلة حتى اليوم في تركيا مباركة جدا.

رغم أن لكل حديد قيمة ولا يخلو من فائدة، يعرف العقل مبلغ ما يلزم من الغصص و المجاهدات و الأوقات لتحويل قطعة من " الحديد إلى مرآة للكائنات ".

و الطريق نحو الحق الذي يبدأ بأداء المفروضات يستلزم هذا الصراع الدائم، صقل الإنسان قلبه، كما يقول مولانا من خلال صورة مألوفة عند الصوفيّة جميعا. و يعرف أن كل ضروب الأخطار تقع في كمين للمؤمن الذي يحاول أن يصعد السلم المؤدي إلى

الأيمان التام و إلى الحق.

و على هذا الطريق، لاغني عن صادق الرفيع:

كلما عظم الطريق احتيج أكثر إلى الرفيق، ولأن

طريق البادية و الحج عظيم و صعب لا بد من القافلة الكبيرة و الرفاق الكثيرين و أمير الحاج. (و ما أصعب الاقتراب) من حضرة الحق... بسبب كثرة الحجب، و القفار و الجبال و قطاع الطريق....

و لذلك على الإنسان أن يكون حذرا من أن يختلط في أثناء رحلته بأولئك الذين لا يفهمون الحقائق العليا في الحياة. و ما أكثر المسافرين هناك إلى الشام و العراق ممن لا يرون شيئا سوى الكفر و النفاق، و ما أكثر من مضوا إلى الهند و هراة من دون أن يروا سوى التجارات، أو لم يجدوا في تركستان و الصين أي بضاعة غير المكر و الحقد! لم يظفروا إلا باللون و الرائحة، أيما كانوا، لكنهم لا يعون الحقائق الكافية وراء الأشكال.

و مثل هؤلاء السطحيين يمكن بسهولة أن يغدو " أضحوكة لإبليس " الذي يغويهم شيئا فشيئا بشؤون الدنيا، أو يقودهم إلى طرق مسدودة مملوءة بالحجارة و شديدة الانزلاق.

و من الخطر متابعة مثل هؤلاء الناس، لأنهم كالأطفال الذين لا يرون القمر في السماء بل معكوسا في الماء و لذلك يضيعون طريق القافلة بافتقارهم إلى البصيرة: عندما يصير الحمقى قادة، فإن العقلاء بسبب الخوف يغطون رؤوسهم ببسطنهم. هؤلاء الحمقى عمي أو في أحسن الأحوال عور، و رغم أن الثور لا يؤخذ عندما لا ينظر إلا إلى إصطبله، يظل الأنسان مختلفا، ينتظر منه أن ينظر بعيني المعشوق الإلهي. يجعل القدر مثل هذا الشخص أعمى و يجعله أخيرا يسقط في بئر فيهلك. لأن الأعمى قابل لأن يسقط مرة إثر مرة و لو وقع في " الحدث" لما استطاع أن يستبين أن الرائحة الكريهة تصدر منه هو أو من المادة القذرة (مثلا يعد رائحة المسك التي قد يرشها أحد الناس عليه رائحته هو، من دون أن يدرك أنها هدية أحد الأصدقاء). هكذا هم الناس الذين يحركهم هواهم الذين يرفضون أن ينظروا بنور الله. الرائحة السيئة لنجاسة ظاهريهم تنتشر إلى مسافة بضعة أمتار فقط، أما رائحة نجاسة باطنهم فتتخلل العالم من الري إلى الشام، و تجعل حتى الحوريات ورضوان خازن الجنة، يشعرون بالسقام.

عماهم يخفي عليهم حقيقة أن كل شيء في هذا العالم المحدث حي و يشير إلى غاية أسى - يعدون أجزاء العالم ميتة، في حين أن النبي و الولي يتعاملان مع هذه الأشياء على أنها حية.

الشخص الوضع و الحقير من هذا القبيل ينقلب أسود كالعملة الزائفة عندما يوضع له المحك ورغم أنه يرتدي " جلد أسد " يكتشف سريعا أنه ذئب بكل طمعه. لا يستطيع أن يكتشف العظمة الحقيقية للأشياء: عندما يرى جبلا يغدو متأثرا فيضحى تفكيره مثل فأر صغير.

أمام ذئب ضخم بدلا من خشية الله يرتجف بمجرد أن يرى الغيم و البرق و الرعد، غبي كالحمار.

و لأن مصير الكافرين المضي إلى قعر جهنم " سجين " يستمتعون حقا ب " سجن " هذه الدنيا، أما الأنبياء و المؤمنون المقرر لهم الوصول إلى أعلى منازل الجنة " عليين " فيمضون دائما إلى مراتب أرفع (عليه).

ولا يستغني الرومي عن معجمه التخيلي في وصف مثل هذا الشخص الذي " أكل مخ الحمار " رغم أنه هرم و عاجز في الظاهر، يكون مثل الثمرة غير الناضجة بين الأوراق الصفرة، أو كالقدر التي غدت سوداء و بشعة في النار بينما اللحم الذي يطبخ فيها ما يزال نيئا - هكذا هي حال الشخص الذي لم ينضج بالأم الحياة و بنار العشق، بل ظل متعلقا بالتراب.

و لذلك ينصح مولانا قراءة بأن يفروا من الحمقى كما فر منهم عيسى المسيح، لأن هؤلاء الناس يسرقون دين الإنسان مثلما تسرق الغيمة شيئا فشيئا نور الشمس. و على الإنسان يقينا ألا يغر بالسلوك الودي للجهلة، الذين لا يعتمد عليهم كالخنثى يتظاهر حيناً بأنه رجل، و حيناً آخر بأنه امرأة. و مثل هؤلاء الناس و طبعا أيضاً أولئك الذين يكونون أعداء صرحاء لدين الإنسان على قدر كبير من الخطر إلى درجة شرب دم الإنسان حتى عندما يكونون أقاربه. ألم يحطم إبراهيم أصنام والده و يتخل عنه بسبب كفره؟ - إنه المثال للمؤمن الحق بسبب أفعاله التي واجه بها أولئك الذين لا يشركونه إيمانه و عشقه.

و الحق أن مثل هؤلاء الناس و لنستخدم هنا التعبير القرآني، " كالأنعام بل هم

أضل أولئك هم الغافلون " و كما يستنتج الرومي:

مشروع ذبح الحيوانات لمصلحة الإنسان أو لدفع أذاها عن الإنسان. و ينطبق المبدأ نفسه على الكفار و أولئك الذين يتعدون حدود الله. و مثل هؤلاء الأشخاص حيوانات فعلا، لأنهم باستسلامهم لطباعهم الهيمية و الشهوانية و الأنانية يجعلون أنفسهم في معاداة للعقل الروحاني " العقل الكلي " الذي هو تاج رأس الإنسانية.

و بين خلال السوء التي على الإنسان و خاصة من سيكون صوفيا، أن يجتنها أكثر من غيرها يعد الزومي الحرص والجشع أسوأ هذه خلال – الحرص تنين وهو النقيض التام للفقير الروحي. ورائحة الحرص و الجشع تظهر مثل رائحة البصل أثناء الكلام:

لو أكلت (البصل و الثوم) ثم أقسمت قائلا: متى أكلت؟

لقد امتنعت عن أكل البصل و الثوم،

فإنه في تلك اللحظة ينم قسمك عليك

و يفوح على أدمغة جلسائك.

و هذه الصفات الوضيعة و الذميمة كثيرا ما أخذت شكل حكايات تمثيلية في المثنوي: يحتاج المرء فقط إلى أن يتأمل القصة الطويلة عن الطيور الأربعة التي ينبغي أن تذبح أو الحكاية العجيبة عن الأشخاص الثلاثة الذين يمثل أحدهم وهو البعيد رمى البصر و الأعلى في الوقت نفسه، صفة الحرص وهو يرى عيوب الخلق ولا يرى نقائصه هو، و يمثل الآخر الحاد السمع و الأطرش الأمل وهو لا يفكر في موته هو، رغم أنه يسمع التفجع على الآخرين صباح مساء بينما يمثل العاري ذو الرداء الطويل رجل الدنيا الذي يفكر بشؤونه الخاصة.

و غني عن الذكر أن الشهوة الحسية و الغلظة تنتهي إلى أكثر الصفات خطرا في الإنسان و هي القذارة بحيث يمكن تسميتها " حيض الرجال ".

و لكن ليس الحمقى و الجهلة و الشهوانيون و الجشعون و مفتقدو الإيمان الذين بسبب حرصهم " يسفكون دم البعوضة وسط الهواء " هم وحدهم أعداء الإنسان على الطريق الموصل إلى الكمال، فأكثر خطرا من هؤلاء ذوو العقل الفائق و خاصة

وقد درس جلال الدين نفسه كل علوم زمانه ولم يكن مضادا للمذهب العقلي تمام، على غرار ما يمكن أن يستخلص المرء من بعض أشعاره. ويمكن القول في الحد الأدنى، ليس جلال الدين مضادا للمذهب العقلي مثل أستاذه الروحي سنائي، الذي نظمه في وقت أضحى فيه علماء الشرع المتماسكون متشككين شيئا فشيئا بالتمحيصات العقلية وخاصة الفلسفية منها يعكس الذهنية الشرعية الدقيقة التي ميزت الطرف الشرقي لعالم الإسلام، في أواخر العصور الوسطى. ويعرف الرومي ولا ينكر، أن ثمة اتفاقا على أن العالم رحمة للعالمين.

رأينا أن العقل يستحسن بوصفه القوة التي تمكن الإنسان من أن يؤدي واجباته الدينية و يفهم الشرع. و من وجهة منطقية يثني الرومي على العقل طالما أنه يخدم الدين. ولكنه خائف وهو في ذلك متفق مع الصوفيّة الأوائل و مع جمهرة علماء الشرع أيضًا من أن النشاط العقلي المسرف دون خلفية دينية خطير على التقدم الروحي للإنسان. و الأذكياء الذين يشقون الشعر يغدون مضحكين و يوصف الذكاء (زيركي - بالفارسية) مرة بأنه صفة الشيطان في مقابل عشق الإنسان و ينبغي أن يضحى به أمام النبي. و تكريس الإنسان نفسه لعلوم الظاهر ليس سوى بناء إصطبل يمكن أن تبقي فيه الحيوانات مدة يومين، و نسج الثياب المطرزة بالذهب أو الغوص على اللؤلؤ في قاع البحر، أو شغل النفس بتعقيدات الهندسية أو الفلك أو الطب أو الفلسفة، - هذا كله - يعني أن تظل مشدودا بهذا العالم الفاني، العلم الصحيح الوحيد، الحكمة التي هي محيط دون حدود، هو العلم الذي يوصل إلى الله و ذلك معلوم فقط عند من يمتلك قلبا طاهرا. و في لحظة الموت، كل علوم الظاهر و فنونه ستكون عديمة الفائدة لا يطلب إلا "علم الفقر" الفقر الروحي.

حكمة هذه الدنيا جيدة فقط من أجل زيادة الفكر و الأخيلة الزائفة أما حكمة الدين فتطير فوق الفلك. و طالما أن العلم الديني يبقي عند السطح ولا ينشغل إلا بسمائل الفقه و البحوث و الجدالات الكلامية فهو ليس سطحيًا فقط بل خطيرا (يمكن أن نتذكر هنا حكم الغزالي على زملائه المتكلمين!): الشخص الذي ينغمس في تأويل علمي زائف لكلام الله معتمدا على عقله وحده دون إيمان شبيه بالذباب، خياله مثل "بول الحمار" و تصوراته مثل العلف...

وفي سبيل إبطال دعاوي هؤلاء المحققين، يورد الرومي الحديث: أكثر أهل الجنة

و يعني " الأبله " هنا " غير المثقل بالعلوم الدّينية الظاهرية " لكنه غير " جاهل الواجبات الدّينية " أو، إذا تابعنا تفسير سلطان ولد الجملة نفسها، فإنه يعني أن كمال العقل البشري يبلغ عندما يكشف الحق ذاته للإنسان، و هكذا فإن من يتلقى هذا الفيض يتحرر من قدراته العقلية، واقعا تحت سيطرة هذا النور المدهش. و مثلما لا يندهش الصغير ذو السنوات الخمس عن رؤية معشوق جميل و ينسى كبير السن كل شيء وهو يتأمل جمال حبيبه، تكون حال " البله " حال العقول الأكثر نضجا.

و يؤمن الرّوميّ و يتابعه ابنه، بالمعرفة المباشرة، ب " العلم اللدني " و ليس بالعلوم التقليدية " النقلية ": العلم النقلى الذي

يخبر فقط عن الأشياء المسموعة يشبهه، إذا ما جيء به إلى حضرة صاحب الوحي الإلهي التيمم مع وجود الماء الجاري، أي ليس غير ضروري فحسب بل محظور شرعا. فلم يستخدم التراب الجاف عندما يكون ماء الحياة. المظهر في المرشد الروحي في المتناول؟

أكثر من ذلك: عندما يقول الإنسان: لا علم لنا " مثل الملائكة (البقرة03) فإن كلمة الله: " و علمناه " ستنقذه، و عندما لا يعرف الألقباء في هذه المدرسة، سيملاً بالنور الإلهي مثل محمد، النبي " الأمي ".

الأهداف الرئيسية للرومي في حملاته هي الفلاسفة، فإن (فيلسوفك - بالفارسية) أي " الفيلسوف الصغير " أو " المتفلسف " كما يسميه أحيانا لا يرى إلا الصور الخارجية على الجدار ولا يدرك، بل يؤمن إيمانا ضئيلا، أن النخلة كلمت محمدا (عليه الصلاة و السلام) لأنه يعتمد على حواسه و من ثم لا يسمع الصوت الروحي الباطني لكل شيء مخلوق. وهو ينكر الشياطين و رغم ذلك يقع فريسة للشياطين في تلك اللحظة. ألم يقل الحق: " و نحن أقرب إليه من حبل الوريد " (سورة ق 61)؟ فلم ينبغي إذا أن يلقي الإنسان شبكة تصوراته و أفكاره بعيدا جدا؟ - و ذلك تماما ما يحاول الفيلسوف أن يقوم به، لأنه لا يتعرف الكثر الذي هو قريب جدا من اليد.

صار الفيلسوف أعمي، صار النور بعيدا عنه ،

لا يزهر منه سنبل الدّين، لأنك لا تزرعه، أيها الصنم!

و هذا الحكم المضاد للفعالية العقلية المفرطة على قدر كبير من الأهمية خاصة عندما يدخل الإنسان في طريقه إلى الحق، الطريقة ”، أي التصوّف الذي يتفرع عن الطريق الرئيس الكبير ” الشريعة“ و لكن هنا تكمن أخطار آخر للمريد الساذج: ادعاء التصوّف يخدعون السالكين الأبرياء و يزيلون ثقتهم بحركة التصوّف يخدعون السالكين الأبرياء ويزيلون بحركة التصوّف في الجملة.

و مثل هؤلاء الناس، كما يصفهم الرّوميّ في أبياته الهجائية (متابعا أيضاً ملاحظات السنائيّ غير الودية بشأن مدعي الصوفيّة) يدعون مراتب روحية عالية، يخلقون رؤسهم ورقابهم فتغدو كالقرع، و يشوشون الزائر الفقير بحديث طنان عن العرفان و الفقر حيث يتخيل أن صاحبه ينبغي أن يكون جنيا حقيقيا أو شخصا آخر من الشيوخ الكبار في الطريق. و مهما يكن فإن مثل هؤلاء الناس على الحقيقة يظهرون

ثلاث صفات ليست من التصوّف الحقيقي: يثرثرون كثيرا كالجرس، و يأكل الواحد منهم أكثر من عشرين شخصا، و ينامون كأصحاب الكهف. و تستخدم كلمة صوفي غالبا بمعنى تحقيري و يكاد ذلك يكون قاعدة في الأدب الفارسي. و إذ يكون هذا الصوفي مرتديا خرقة الزرقاء الداكنة يشبه السماء: كلاهما، كما يمكن أن نحدهس، غير جدير بالثقة. و تصور قصص المثنوي بعض مدعي الولاية هؤلاء على نحو سلبي نسبيا. أما الصوفيّ الحق فهو ذلك الذي ينشد الصفاء و ليس من يرتدي رداء صوفيا أو قباء مرقعا ثم ينغمس في اللواط – الشيخ الذي ” يخيّط خرق الدراويش ” غير مناسب للعاشقين.

و لكن كيف سيحدد جلال الدّين التصوّف في خير نماذجه؟

ما التصوّف؟ - قال: وجدان الفرح،

في الفؤاد عند إتيان الترح

لا يتعلم من الكرايس بل من التجربة: فنوح رغم أنه أمضى تسع مائة سنة يفكر في الله عاش فقط على ذكر ربه، دون أن يقرأ ” رسالة القشيري ” أ ” قوت القلوب ” لأبي طالب مكي و هما الأثران الرئيسان في التصوّف المعتدل! ذلك لأن الصابئة و أهل الكتاب وحدهم يعلمون بالكتب – يتمتع الصوفيّ بالعلم اللدني.

جاء الصوفيّة من الشمال و اليمين

بابا بابا حيا حيا: أين الخمرة؟

باب الصوفي قلبه، و حيه نفسه،

أما خمرة العارفين فمن دن الحق.

نشأ جلال الدين نفسه في محيط مشبع تماما بالتصوّف، إذ خضع لتدريب منهجي تحت توجيه برهان الدين محقق الذي فرض عليه أن يدرس درسا مركزا مؤلفات والده في مباحث التصوّف. و لذلك سيتوقع المرء أن شعره ينبغي أن يحمل النكهة المميزة لهذه التربية الصوفيّة، ممتلئا بالمصطلحات الفنية و التعاليم الواقعية، لكن ليس الأمر كذلك في أية حال. و على الحقيقة فإن بعض خصومه في قُونية انتقدوا المثنوي من وجهة النظر هذه:

ليس فيه ذكر للتحقيقات و الأسرار العالية،

لكي يحث الأولياء خطأ جيادهم نحوه.

(خال) من مقامات التبتل و الفناء،

درجة درجة حتى ملاقة الحق (سبحانه)،

(و ليس فيه) شرح و تحديد لكل مقام و منزلة

لكي يطير إليه صاحب القلب بجناح منه.

ولا شك في أن مولانا يشير إلى هذه الحالات فيقول:

لو اغتسلت بماء الرياضة و المجاهدة

لا استطعت أن تصفي كل كدورات القلب.

و كثيرا ما يحدث - علانية أو إيماء - عن المجاهدة المطلوبة لصقل قلب الإنسان: ألا يشهد القرآن: " و أن ليس للإنسان إلا ما سعى " (النجم93)؛ و رغم ذلك، فإن تجربة العشق من خلال لقائه شمس الدين كانت غالبة جدا لدرجة أن المراحل الأولى من الطريق قلما تذكر قياسا إلى غيرها في شعره:

عندما ترى الماء الجاري دع التيمم،

و عندما يأتي عيد الوصال دع الرياضة.

ثمة إشارات قليلة إلى الرياضات الصوفيّة في الصور المجازية لدى مولانا:

أي إلى مقام التأمل لدي الصوفيّ في خلوته:

لأن مدرسة الصوفيّ هي ركبته،

كانت الركبتان ماهرتين في حل المشكلات.

و كثيرا ما أكد قوة المرشد الصوفيّ (انظر تحت) الذي يكون حضوره ضروريا جدا لتوجيه المريد الجديد. و إلى التعاريف العديدة للتصوّف المبكر فيما يتصل بالحالات المتغيرة (الحال، الأحوال) و المنازل الثابتة (المقامات) التي من خلالها يختار الصوفيّ طريقة، يضيف الرّوميّ بيتا رائعا:

الحال مثل الجلوة من تلك العروس الحسنة،

و المقام هو الخلوة بالعروس.

وهو البيت الذي يبسط بعدئذ ليشرح الدرجات المختلفة القائمة بين الصوفيّة ذوي المراتب العالية.

على أن بداية الطريق الصوفيّ هي التوبة:

مركب التوبة مركب عجيب،

ينطلق في لحظة واحدة من الحضيض إلى الفلك.

و قد وصف الرّوميّ التوبة النصوح في قصة قاسية نسبيا. و التعبير المأخوذ من القرآن حيث يعني " الندامة الراسخة " يطبق هنا على الحمامي " نصوح " الذي وضع قناع امرأة و عمل في حمام النساء و أخيرا تاب من أفعاله غير الخلقية في لحظة الخطر المميت. لكن هذه ليست توبة صوفي حقيقي مشابهة للتوبة التي جعلت وليا و اعدا مثل إبراهيم بن أدهم يتخلي عن مملكته توبة نصوح هي المهمة

البسيطة لكل مذنب.

و عند مولانا، كما هي الحال عند كل مسلم مؤمن، ليست التوبة عملا يحدث مرة واحدة: هو يعرف أن باب التوبة، الموجود في "المغرب" مفتوح حتى يوم الحساب عندما ستطلع الشمس في المغرب.

ولا ينبغي أن ييأس الإنسان من العثور على هذا الباب، الذي هو عند شاعرنا أحد أبواب الجنة الثمانية. ألا يحمل ضريح الرّوميّ هذه الكتابة:

ارجع، ارجع، حتى لو عدت عن توبتك ألف مرة ارجع.

وفي موقفه من الدنيا يقترب الرّوميّ من صوفية الأجيال الأولى، طالما يعتقد أن "الدنيا" يقترب الرّوميّ من صوفية الأجيال الأولى، طالما يعتقد أن "الدنيا" تصرف الإنسان عن هدفه النبيل و هي عند أرباب البصائر مرآة لأعمال الحق (سبحانه). و قد استخدم أحيانا لغة قوية جدا في وصف الدنيا الدنية، كلمات تذكر القارئ بالأصوات المتناثرة في مواعظ الحسن البصري (ت110هـ 827م) و الزهاد الآخرين في القرنين الثاني و الثالث الهجريين (8و9م) تلك الأصوات التي ردد أصداءها معظم مؤلفي التصوّف الكبار في أواخر العصور الوسطى أيضاً. و هكذا فإن الدنيا عجوز شمطاء مقوسة الظهر نتنة تزين نفسها لتجتذب دائما عشاقا جددا ينسون بعد أن تغلّبهم شهواتهم قبحها المنفر لحظة -

لا تنظر إلى خلخالها بل انظر إلى ساقها السوداء،

فلعبة الليل تبدو جميلة و لكن من وراء الستارة.

بعد وقت قصير، ستقتل هذه المرأة الدرداء العجوز عشاقها كما قتلت الملايين قبلهم. و هذه الصورة التي تتردد كثيرا في النصوص الصوفيّة المبكرة شائعة أيضاً في أدب أوروبا في العصور الوسطى.

و مهما يكن، فمن ينتظر من الرّوميّ أن يشبه الدنيا بخزير هو صيد المبتدئين، أما المؤمن الحق فسيصطاد الغزال "النفس"؟ وهو في مثل هذه الحالات يعتمد على الحديث: "الدنيا جيفة و طلابها كلاب" إنها مزيلة - و من هنا التركيبات العديدة للنزاع و الغربان ممتلات المادة المظلمة و الغرائز المنحطة التي تسكن الدنيا.

و ماذا ينبغي أن يفعل الزاهد هنا؟ - البكاء هو المطلوب: البكاء إحدي الدرجات نحو إشراق الروح. حتى إن زهاد القرن الثاني الهجري (8م) كانوا يعرفون ب " البكائين " و إذا أخذنا بما يقول الروميّ فإن " ماء العينين يعدل بدم الشهداء ". و الجهد الكامل في الدرجات الأولى للمسلم الروحي ينبغي أن يركز على حرب الإنسان مع نفسه، النفس الدنية أو الغرائز الهيمية، على هذا " الجهاد الأكبر الحقيقي " .

واحد من خير الوسائل لتهديب النفس ربما تكون الصيام، أو حتى الجوع، و النوم القليل و تبعا للحكمة الصوفيّة القديمة: قلة الطعام و قلة المنام و قلة الكلام – و الوسيلة الأخيرة " قلة الكلام " نادرا ما يذكرها الروميّ، إلا إذا تأملنا الأبيات العديدة التي ينصح فيها نفسه بالصمت. و توضح قصص سيهسالار عن صوم شيخه مددا طويلة على نحو غير مألوف، تقديره الشعري للجوع. عرف مولانا جيدا " كيمياء الجوع " التي اخذ الزهاد الأوائل أنفسهم بها و حضوا عليها. ولا ينبغي أن يأكل الإنسان حتى الكظة و الامتلاء، و إلا فسيغدو حمار الشيطان، أداة للمغوي الذي يستطيع ببسر أن يجر الإنسان إلى أقبح الذنوب.

لا يشدو الناي إلا عندما يكون فارغا...

ولا داعي لأن يأكل الإنسان كثيرا. ليس الجسد سوى لقمة للقبر و لذلك ينبغي أن يكون نحيفا. و في الأزمنة الأولى استنبط الصوفيّة روايات وفقا لها:

الجوع طعام الله يحيي به أبدان الصديقين،

و:

الجوع كنز محفوظ عند الحق يعطيه لخاصة أوليائه.

يرعى الحيوان التبن و الشعير، و في النتيجة سيدبح في يوم من الأيام، أما التقى فيعيش على نور الحق متبعا مثال النبي الذي قال: إني أبيت يطعمني ربي و يسقيني.

لأن الأمر، مثلما يؤكد مولانا:

قوت جبريل ليس من المطبخ،

بل من النظر إلى خلاق الوجود.

و هكذا اعلم أن قوت أبدال الحق

من الحق أيضاً، وليس من الطعام و الطبق.

طعام العارف الحق هو التسبيح الدائم لله (سبحانه) و عندئذ يشاهد:

أننا نأكل لذيذا، و ننام هنيئا،

في ظل اللطف الدائم.

طعام ليس من طريق الحلق و المعدة،

ونوم ليس من تأثير الليالي.

لأن العاشق الذي فقد العقل لا ينام – و في نشوته الروحية ” ينام عند الحق ” و يعني ذلك أنه لا ينام، مثل الحق (سبحانه)

و إذا كان على الإنسان أن يأكل لا محالة فإن عليه أن يكون منتبها إلى أن يتناول فقط ذلك الطعام الطاهر من الوجهة الشرعية.

حتى إن عليه أن لا يمس ” لقمة الظالمين و أكالي السحت ” كما يوضح الرّوميّ الوفي جدا للتقليد الصوفيّ في قصة في ” فيه ما فيه ”.

حتى إن عليه أن لا يمس ” لقمة الظالمين و أكالي السحت ” كما يوضح الرّوميّ الوفي جدا للتقليد الصوفيّ في قصة في ” فيه ما فيه ” على أن إحدى المنازل الأساسية في سلم العرفان منزلة ” التوكل ” أي الثقة بالله (سبحانه). و يعتمد الرّوميّ في هذا الشأن على كلام النبي (عليه الصلاة و السلام):

اعقل و توكل!

وهو لا يؤمن بأن يجلس الإنسان دون عمل تحت ذريعة التوكل، فثقتة بالله إيجابية و تعني الاستسلام القلبي لإرادة الحق و العمل وفق مشيئته. و كلما صعد الإنسان على السلم الروحي أكثر أدرك السر في أفعال الحق و سيفني نفسه حتى يغدو فعله فعل الحق (سبحانه). و حين يفهم التوكل مثل هذا الفهم يكون حالا لأسمى مقام روعي و

ليس حالا للمبتدئين الذين يمكن أن يفسروه بالطريقة الخاطئة.

و إحدى الصفات الأساسية و الأصيلة للعارف هي الصبر: فهو " سلم نحو مراتب أعلى " أو الصراط الذي يوصل إلى الجنة، و الكيمياء التي لا تخطئ. و الحق نفسه (سبحانه) أشار إلى أهمية الصبر مرات عديدة في القرآن و كان الصوفيّة مولعين جدا بالإشارة إلى هذه المنزلة بالتعبير " آخر و العصر " أي الكلمة الأخيرة من سورة العصر التي هي " الصبر " .

و في وصف الصبر وجد الشاعر دائما صوراً جديدة لأن " الصبر مفتاح الفرج " مثلما يكرر الرّوميّ هذا المثل العربي القديم مرات و مرات.

الإنسان مثل يوسف في جب هذه الدنيا، ينتظر حبلاً يخرجه، الصبر ترس حديدي كتب عليه الحق هذه الكلمات " جاء الظفر " لأن " الصبر يمضي نحو الذكور و الشكوى تمضي نحو الإناث " .

عندما لا تسأل يغدو كشفك من كل الطيور.

على أن عدم غناء بكاء الجازع و صراخه يوضح في صورة مجازية مضحكة من خلال قصة الرجل الذي أراد أن ترسم له بالوشم (الدق) صورته أسد دون رأس، ثم دون ذنب، ثم دون بطن....

و تكشف أهمية الصبر على نحو واضح في قصائد الرّوميّ التي نظمها في الربيع عندما يصف كيف أن الطيور و الأشجار، بعد صب و انتظار في أيام الشتاء القاسية، تكافأ بالألوان الجميلة و العطور الشذية. و القلب في المشهد الطبيعي الشتائي لعالم المادة ينبغي أن ينظر ربيع النفس، أو ربيع الجنة المهبج الأزلي، كما سيغدو معانيا في يوم القيامة.

و ملازم الصبر – المرتبط بالجسد – هو الشكر – الذي ينمو داخل القلب – و قد قيم الرّوميّ هاتين الحالين في صورة خلافة:

يقول الصبر دائماً: " أعطي البشارة عن وصاله " .

يقول الشكر دائماً: " لدي مخزن كامل منه " .

يحيا الصبر صامتا بين الإنسان و الحق، أما الشكر فيفضح عن حال الوصال
عندما يكون الإنسان قد جرب المقدار الذي لا يحد من اللطف الإلهي و يملأ مخزنه به.

لون الوجه يخبر عن حال القلب، فكن رحيمًا بي و أشرب
قلبك محبتي.

فالوجه الأحمر فيه صوت الشكر و الوجه الأصفر فيه
صوت الصبر و النكر.

فالشكر ينبغي أن يكون " طوق كل رقبة " لأن:
شكر النعمة خير من النعمة.

و يشرح مولانا الذي تتضمن رسالته الأولى إلى السلطان عز الدين قطعة مؤثرة في
ضرورة الشكر، الأشكال المختلفة لهذه الفضيلة الأساسية:

الشكر صيد و قيد للنعم. و عندما تسمع صوت الشكر
تهيأ للمزيد. إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإذا
صبر على ذلك اختاره، فإذا شكر ذلك، اصطفاه...
الشكر ترياق فعال يحول القهر إلى لطف..

متلازمان آخران على الطريق الصوفي هما الخوف و الرجاء و يعدان الجناحين
الذين تستطيع بهما النفس البشرية أن تطير نحو الحق.

يعرف الرّوميّ مكر الله الذي يمكن أن يقهر الإنسان عندما يشعر بالأمان:
اعلم أن مقام الحوف هو المقام الذي تكون فيه آمنا،
واعلم أن مقام الامن هو المقام الذي تكون فيه مرتجفا.

و لكن رغم ما للخوف و الرجاء من اهمية بالغة، لا يشكلان عند الرّوميّ سوى مقامين تمهيديين يغرقان في الخمرة الروحية و قد يقربان الإنسان إلى الحق في جزء محدد من رحلته و لكن:

البحار دائما على خشبة الخوف و الرجاء،

و عندما تفني الخشبة و الرجل لا يبقى إلا الغرق.

لأنه في أوقيانوس الأحدية " في سر الخلاق " لا يبقى ثمة خوف ولا رجاء، ولا صبر ولا شكر. و يلقي الرّوميّ في واحد من أحاديثه ضوءا قويا على ضرورة العلاقة المتبادلة للخوف و الرجاء و ذلك بصورة الفلاح الذي يبذر الحبة و يأمل أن تنمو و لكنه يخشى ضعف المحصول، أما في شعره فإنه يثني مرة على الأمل بوصفه المحرك الحقيقي للحياة:

من ذا الذي زرع حبة الأمل في هذا التراب،

ولم يفض عليه ربيع كرمه بمائة حبة؟

و تبدو هذه كلمته الأخيرة عن الأمل.

و الرّوميّ، الذي جرب المراحل المختلفة للعشق و عبر في أشعاره عن السعادة واليأس يستخدم أحيانا اصطلاحات تقنية بشأن الحالين اللتين يكون الإنسان ممزقا بينهما عادة: " القبض " الانشداد الروحي، و " البسط " السرور الغالب. و يقول الرّوميّ إن هذين هما إصبع الرحمن اللتان يمسك بينهما الإنسان و تجليان نفسيهما في الحزن و السرور.

و في إقرار الرّوميّ بالانشداد التام لقطبي الحياة، أو التجلي الدائم لوحدة الحق تحت مظهرين متغارين في الظاهر، يرى أن الحاليتين كلتيهما ضروريتان كالتنفس: لا يمكن أن يكون سرور دون حزن سابق و العكس بالعكس. و المفهوم الذي تركز عليه النظريات الصوفيّة لدي الرّوميّ، بقدر ما نستطيع أن نكتشف لديه أيه نظريات ملموسة على الإطلاق، هو الفقر. و يحتل الحديث النبوي " الفقر فخري " منزلة أساسية في تفكيره. ألم يسمعه صدر الدّين القونوي " قهرمان الفقر المحمدي "؟ و هذا الفقر لا يعرب عنه في المظهر الخارجي للدرويش:

ابحث عن الفقر في نور الله لا تبحث عنه في الخرقه، فلو أن كل عار رجل حق،
لكان الثوم رجلاً أيضاً وكثيراً ما يجمع الفقر الحقيقي مع "نور ذي الجلال" وهي كأس
معجزة أو خمرة ملء الدرويش الذي فرغ نفسه من نفسه.

و الدنيا كلها ليست سوى تل تراب يخفي تحته كنز "الفقر". وهذا هو الكنز الذي
رآه الرّوميّ في أحلامه في صورة "منجم اليواقيت" أو في صورة "حسنة من نور خدها
يغدو العالم كله نورا"

و في أبيات رائعة يؤكد الرّوميّ أهمية هذا الفقر الصوفيّ الذي هو "طبيب قادر" على
شفاء مرض النفس و الذي يقصد إلى أن لا يمتلك شيئاً و إلى أن لا يمتلكه شيء.

تحلقت كل قلوب العاشقين حول الفقر،

الفقر مثل شيخ الشيوخ، و كل القلوب يريدوه.

وهو يجمع المراحل الصوفيّة المختلفة التي ليست سوى انعكاسات للقوة المحولة
للحبيب التي تظهر نفسها على مستويات الخلق جميعاً: صبر الصبر بك، وراى السكر
شكرك،

و افتخر الفقر، لأنه صار غنيا بك.

الفقر مربى الإنسان وهو يعلمه كيف يتصرف. وهو، أي الفقير المطلق، يقابل
بالرب الغني الأزلي و بعد أن يبلغ مرحلة الفقر التام يفني في الحق. و الفقر عند الرّوميّ
متاخم تقريبا للفناء، كما صور قبل في شعر السنائيّ و العطار، و من يفر من الفقر
و العدم يترك، على الحقيقة، السعادة الحقيقية. و في المرحلة الأخيرة من الفقر يمكن
تطبيق الحديث المرسل: "إذا تم الفقر فهو الله على العارف. و هذا القول، المعروف
بين الصوفيّة المتحدّثين بالفارسية ربما منذ أواخر القرن الخامس الهجري (11م) صار
فيما بعد شائعاً جداً في الأطراف الشرقية لعالم الإسلام. و من المثير أن نرى أن الرّوميّ
قد استفاد منه أيضاً.

يذكره حسام الدّين بأن "الصوفيّ ابن الوقت" أي لحظة الإلهام، ولا يتصور أن
يترك أي شيء أو أية فكرة لغده. و هذا القول الصوفيّ التقليدي الذي يجمع غالباً - كما
في الجملة الملحة لحسام الدّين - مع القول المأثور الآخر "الوقت سيف قاطع" يشير

إلى حقيقة أن الصوفي عليه أن يدع نفسه للإلهام و الإشراف الآتين. و لكن حتى هذه وفقا للرومي ليست سوى مرحلة تمهيدية: فرغم أن الصوفي قد يكون " ابن الوقت " لا يبقى لدي الصفي وهو من يصفي تماما وقت وحال.

و إذا يغرق في نور ذي الجلال لا يبقى " ابن أحد " وصلاته بالزمان و المكان تقطع حالما دخل الآن الأزلي. و هذه المرحلة الأخيرة هي التي تهتم لدى الرومي:

حرقت نار التقوى عالم ما سوى الله:

و برق من الله برق فأحرق التقوي.

و عندما يأتي الوصال، تكون الهدايا الصغيرة للعاشق كالصيام و الصلاة مجرد علامات ظاهرية. و هي مثل سلالم ذهبية و فضية توضع أمام العاشق – و لكن لا سلم يصل إلى سقف الفقر و اليقين.

و غاية العارف تسمى في الجملة " الفناء " وهو مفهوم أساسي في التصوف و يفسر على أنحاء مختلفة. و يومي الرومي مرة إلى القول الشهير للخرقاني ذلك الشيخ الخراساني من القرن الخامس الهجري (11م)، الذي يترك تأثيرا ظاهرا نسبيا في أعماله:

قال قائل: ليس في الدنيا درويش

الدرويش الحق، كما يفهم من الخرقاني و أتباعه، غير موجود، فقد جرب الفناء ولا يحيا إلا بالله و في الله. لأنه يعرف.

من أين نطلب الوجود؟ من ترك الوجود.

كل محدود معدوم إن جاز التعبير أما من لا حدود له " كل شيء هالك إلا وجهه " كما قال القرآن: . كل ما يراه الإنسان في عالم الظاهر لا شيء مقارنة بالحق، و ما الإيمان و الكفر إلا قشور ذات ألوان مختلفة. و أكثر من ذلك: العدم يغدو فانيا أمامه (سبحانه) و هي الحال التي يعجز القلم عن وصفها.

و لذلك فإن الفناء في " وجه الله " الشيء الوحيد الدائم، هو الحياة

الصحيحة، الحياة التي ترتفع من "لا" النفي (أي نفي الإنسان نفسه) إلى " إلا "

إثبات أن وجود الله وحده هو الباقي. فأن تقول " أنا " جائز فقط حين يتكلم الحق من خلال الإنسان ذاك لأنه وحده (سبحانه) كما قرر التصوّف التقليدي له الحق في أن يقول: أنا. وكانت تلك حال الحلاج، لكن مثل هذا الادعاء في الجملة إثم. ف "أنا" الإنسان ينبغي أن تمحي في حضرة الحق. و قد أوضح الرّوميّ هذه النقطة في حكاية لطيفة عن العاشق الذي بعد أن نضح في رحلة طويلة، قبله المعشوق، لأنه بعد أن تخلص من هويته أجاب سؤال المحبوب " من؟ " قائلا: "أنت!".

- جاء أحدهم فطرق باب صديق. فقال الصديق: " من أنت أيها المعتمد؟ "
- قال: "أنا" فقال له الصديق: " امض من هنا فليس الوقت مناسباً. و على هذا الخوان لا مكان للغر."
- و ماذا ينضح الغر إلا نار الهجر و الفراق؟- و أي شيء غيرها يخلصه من النفاق؟
- مضى ذلك المسكين و أمضى عاما في الأسفار، حتى احترق بشرق فراق الحبيب.
- نضح ذلك المحترق فعاد، و دار حول منزل الرفيق مرة أخرى.
- طرق الباب بقدر كبير من الخشية و الأدب، حتى لا تنبس شفتاه بلفظة ليس فيها أدب.

- صاح صديقة من الداخل: " من الباب؟ "

فأجاب: " بالباب أنت نفسك يا مستلب القلب."

- قال الصديق: " الآن، و قد جعلت نفسك أنا، أدخل يا أنا. إذ لا مكان في الدار لاثنين يقول كل منهما "أنا".

و العاشق في هذه القصة التي كثيرا ما يستشهد بها هو المثال لكل أولئك الباحثين الذين يبحثون عن جناب الحق، و لكن عندما يصل الحق في جلاله المهيب يغدو الباحث "لا"، لأنه

رغم أن ذلك الوصال بقاء في بقاء

لكن في البدء بقاء في فناء.

الفناء هو الأساس للبقاء " الحياة الدائمة في الله، كما يكرر الرومي غالبا متفقا في ذلك مع الشيوخ التقليديين.

على الدرويش الصادق أن يقطع رقبة الأنانية، الذاتية، ال " أنا " حتى يكون في مقدوره يوما من الأيام أن يعاين سر عمل الحق من خلاله مثل النبي، الذي خوطب في وقعة بدر: " و ما رميت إذ رميت " و طالما أن الذات ما تزال واعية، فإنها شبيهة بالغيمة التي تحجب القمر، أما نفي الذات فهو إزالة الغيم. و ما أروع بيت الرومي البسيط الذي يعبر عن الحال التي تتجاوز حتى الحب و الشوق و الوصل:

غرقت في العدم لدرجة أن معشوقى يظل يقول:

" تعال اجلس معي لحظة " و حتى ذلك ليس في وسعي.

و قد اخترع الصوفيّة كل انواع الصور من أجل الإشارة إلى سر هذا الفناء الذي لا يمكن وصفه: يشبه الإنسان الماء في كوز ضيق يرمي به في نهر كبير، صفة " الماء في الكوز " تغدو معدومة، لكن جوهر " الماء " يبقى على الدوام.

و في هذه الحال يكون الصوفيّ مثل الحديد الذي يرمي به في النار و هكذا يملأ بالحرارة لدرجة أنه يحس أنه هو النار، أو يمكن تشبيهه الفناء أيضًا باختفاء النجوم عند طلوع الشمس أو بحال الشمعة أمام الشمس: ضوء الشمعة يظل موجودا لكنه يغدو غير مرئي، لأنه مغمور بضوء الشمس الذي هو، على الحقيقة، أصله.

و بالإضافة إلى هذه الصور الشائعة التي كانت معروفة لدى كتاب الصوفيّة جميعا تقريبا استخدام الروميّ أيضًا رمزا نحويا ل " الفناء ": في الجملة: " مات زيد " زيد هو الفاعل و لكن ليس الفاعل الذي يفعل - ذلك تاما ما يحدث للصوفي في تجربة الفناء.

لا تستطيع الكلمات شرح هذا السر، الشيء الوحيد الممكن هو أن الإنسان بعد أن يعيش هذا الت الفناء المدهش للصفات البشرية - الذي هو في أية حال ليس وصلا ماديا - يمكن أن يغدو مترجما و ناقلا للحقيقة الإلهية لأن وجوده التام يغدو معبرا عن تلك الأسرار التي لا تحدها الحدود و الكلمات.

و قليلا ما حاول الرّوميّ ان يصف حال الوجد التي قد يجربها الصوفيّ في بعض الأوقات. و لدينا وصفة الغريب لكشف في "فيه ما فيه"، دون أن يكون قادرا تماما على حل اللغز المتواري وراءه. على أن التعبير الشعري الأكثر إشراقا عن الكشف الصوفيّ هو حقا قصة الدقوقي المدهشة: فالشموع السبع التي تظهر أمامه تحول إلى اناسي، ثم مرة أخرى إلى أشجار: ههنا سيجد عالم النفس المهتم بالتجربة الصوفيّة لا محالة مادة مثيرة جدا خليقة بدراسة مفصلة. و الظهور النادر للروايات التي تتناول الكشف الحقيقي في أعمال جلال الدّين مفاغجّي جدا ذلك لأن والده وصف في كتابه "المعارف" بعض الحالات الكشف و الجذب الروحي ذات القوة الخارقة.

و المؤكد أن الحال الحقيقية للجذب عصبية على الوصف. و قد تحدث صوفية العالم كله عن السكر، أو الوصل، أو الغرق ليرمزوا جزئيا على الأقل إلى التجربة التي خضعوا لها. ولو صدقنا التوثيق التاريخي للوقائع، لرأينا أن الرّوميّ نفسه جرب جذبات الوجد، أو كان قادرا على أن يتخطى الزمان و المكان أو يكون حاضرا في أمكنة متعددة في وقت واحد. و تفيض أشعاره الغنائية بأبيات في مدح الوصل العصبي على الوصف لخمرة العشق هذه، مع أوصاف لوصله مع المعشوق، رغم أن المسافة بينهما قد تكون بعيدة كالمسافة بين العراق و خراسان. و تصف أبيات عديدة الوعي الكوني للعاشق الذي يحس أنه ليس من الشمال ولا من الجنوب و ليس من الأرض ولا من السماء و ليس نصرانيا ولا يهوديا – أو أنه كل شيء و فوق كل شيء. على أن أحد أوصاف الجذب الوجداني المؤثرة حقا يوجد حتما في غزل ضمنه ر. ا. نيكلسون اختياره:

فوق فلك السحر بدا قمر،

نزل من الفلك و أخذ ينظر إلى.

و مثل البازي الذي يختطف الطائر أثناء الصيد،

اختطفني ذلك القمر و انطلق فوق الفلك.

و عندما نظرت إلى نفسي لم أر نفسي،

لأنه في ذلك القمر غدا جسسي من اللطف كالروح.

و عندما سافرت في الروح لم أر سوى القمر،

حتى انكشف سر التجلي الأزلي كله.

وهنا فإن الطيران المفاجئ للنفس في مخالاب الطائر القمري يقود الصوفي إلى رؤية الدنيا محيطا يظهر منه الزيد ليتوارى سريعا بدعوة الأعماق.. وهذا كله بفضل القوة المعجزة لشمس الدين.

قصيدة أخرى و فيها يستطيع القارئ تقريبا أن يحس السكر المتزايدة، تستخدم الصورة المجازية للبحر نفسها، و هي تصف الوصول البطيء لنداء العشق الذي يحمل العاشق بإيقاع متسارع بعدئذ نحو المحيط حتى يتبدد مركب جسده في موج "أست" الخطاب الإلهي للميثاق الأول الذي يعود إليه أخيرًا.

في كل نفس يصل صوت العشق من الشمال و اليمين.

و نحن نمضي إلى الفلك فمن لديه عزم على النزهة و التفرج؟

و قد كنا في الفلك، كنا أحياء للملك،

و إلى هناك يا مولاي، دعنا نعد، لأن ذلك بلدنا...

جاء موج "أست؟ فحطم سفينة الجسد،

و عندما تحطمت السفينة حان زمان الوصل و اللقاء.

زمان الوصل و اللقاء زمان الحشر و البقاء،

زمان اللطف و العطاء بحر الصفاء في الصفاء.

ظهر موج العطاء وصل هدير البحر،

طلع صبح السعادة، أي صبح؟ - لا، إنه نور الله...

هذه القصيدة تتحدث عن "الكبرياء" العظمة الإلهية "أو كما يقول عنها نيكلسون العظمة العليا". و هذا أحد تعبيرات الرّوميّ المحببة عندما يصف المكان الذي يريد أن يعود إليه. ولا نهاية للأبيات التي نومي إلى هذه الكبرياء - العاشق الحق الذي تخلي عن نفسه و كف عن الفخر بوجوده الفردي، ب "أنا" و "نحن" ثمل بخمرة "الكبرياء"

و بيت قلبه التنظيف من كل شيء خارجي سيضاء بنور الكبرياء. وأولئك الذين ينصرفون خطوتين عن منزل الشهوات يمكن أن يدخلوا " حرم الكبرياء " لأن هذا الحصن الإلهي " الكبرياء " مقدر فقط لأولئك الذين جربوا الفناء.

الكبرياء تأتي كالأمواج و هي حيناً شبيهة بطائر ال " هما " الذي ينقل ظلّه المملكة للإنسان ثم إنها قد توصف بأنها مآدبة تحطم فيها كل " الطبول " من الهيبة أو بأنها رئيس الشرط الذي يقطع عنق كل المشاحنات التي تظهر أن الناس ليسوا على قلب واحد. و الدنيا و الآخرة مثل حبة أمام الديك الذي شهدت عيناه الكبرياء...

و من الصعب بيان إلى أي مدي يعتمد الروميّ على الحديث القدسي الذي وفقا له يبين الحق:

الكبرياء ردائي و العظمة إزاري.

و في أشعاره الكبرياء هي مكان العظمة الإلهية عالم وراء الثمانية عشر ألف عالم أو مشرق الشمس الروحية: شمس تبريز يشرق من مشرق الكبرياء لينير العالم كله. و نحن أحياء من نور الكبرياء.

" منجنيق الكبرياء " يتلف كل شيء في الإنسان و هي من ثم مساوية تقريبا للعشق الإلهي، و إذ يتيم العاشق بهذه العظمة الإلهية لا يعرف شيئا عن الوجود و العدم عن الإيمان و الكفر. أما الشخص الذي لا يزال الكبر مستبدا به، فلن يصل يقينا إلى هذه الحالة.

و في حالات كثيرة حيث يتحدث شعراء صوفية آخرون عن البقاء في الله أو ذات الحق يؤثر مولانا كلمة " كبرياء "

نفس العاشق ينبغي أن تلونها الكبرياء ابتغاء تحمل الأذي الذي سينزل عليه، و الشاعر الذي وصل المرحلة الأخيرة للوصول ربما يتباهي بأن كلماته " ممزوجة بالكبرياء ". الكبرياء في نظره خير رمز للحق في عظمتها المشعة الغامرة و أفعاله المفعمة بالحركة و القوة هي على الحقيقة مفتاح لفهم الفكر الصوفيّ عند الروميّ و هي تذكر في مظاهرها العديدة الفخمة و بجرسها نفسه بالنغم المهيمن في rojam.c

و مما هو قوي الارتباط بفكر الرّوميّ حول الطريق الصوفيّ تلك الفكر التي تدور حول الأولياء و حول شيوخ التّصوّف و تشغل حيزا واسعا من شعره. و أحد أشهر الأغزال المنسوبة إليه – وربما لا يكون له – غزل: " مرد خدا مست بود بي شراب " أي " رجل الله ثمل دون شراب ". و هذا الغزل الذي يصف على نحو بليغ جدا حال الولي الصادق ترجم مرات عديدة إلى لغات الغرب، لأنه ينقل نظره مؤثرة جدا حول الولاية. و " رجل الله – هذا الذي كف عن أن يكون مرتبطا بالعناصر الأربعة، و الذي هو محيط لا حدود له ينتج لأئى من نفسه دون عون من أسباب و علل ثانوية – هو على الحقيقة موضوع رئيس في شعر الرّوميّ. و المؤكد أننا لن نجد يقينا دراسة مفصلة لصفات الولي في شعره، ذلك أن وصف الرّوميّ للولي أو الشيخ، أو المعشوق، أو المرشد، أو المسلم الصادق، أو أي اسم يدعو به المسلم المثالي مبعثر في كل أعماله، و في المقام الأول في المثنوي.

و بين الحين و الآخر يتحدث الرّوميّ عن الكرامات التي حدثت للأولياء. وهو لا يشك في أن أي إنسان تخلي تماما عن إرادته مستسلما لإرادة الحق قادر على تحقيق الكرامات لأن " كل شيء في الدنيا يطيع من يطيع الله. و يوضح مولانا هذا القول الصوفيّ القديم بعدد كبير من القصص: الخرقاني الذي يستطيع أن يركب الأسد و يستخدم الحية سوطا، نموذج للولي الذي قهر تماما نفسه الأمانة و لذلك سيطر على كل الحيوانات الدنيا في العالم فهي مضطرة إلى خدمته مثلما تعلمت نفسه أن تخدمه مثلما تعلمت نفسه أن تخدمه. قصة إبراهيم بن أهم، الذي استخرج على سبيل الكرامة إبرا ذهبية من البحر بعد أن أضع رفيقه في السفر إبرة، تنتهي إلى الكنز الكبير للقصص و الحكايات الموروثة عن مؤلفي الصوفيّة السابقين و هي تفيد في أيضًا وجهة نظر الرّوميّ حول الإبداعية غير المحدودة للحق (سبحانه) و عمل الولي بوصفه ضربا من الوسيط بين الحق و الخلق، و تفضي هذه القصص أحيانا إلى نتائج غير متوقعة.

يعرف مولانا: " الأولياء أطفال الحق " يقيمهم الحق بعيدين عنه مدة لاختبارهم، كما لو أنهم كانوا يتامي، لكنهم قريبون منه بوصفهم " أطفال الحق " و يعدد الرّوميّ أيضًا الأنواع المختلفة للأولياء: أولئك الذين يدعون دائما و " يفتقون و يرتقون ظروف البشر " بدعائهم، و أولئك الذين أغلقوا أفواههم و امتنعوا عن الدعاء جالسين في تسليم تام ورضا مطلق، متقبلين تقلبات المصير بوصفها علامات على الفيض الخاص من الحق.

و بدءا من أوائل القرن الرابع الهجري نظم مؤلفو الصوفيّة درجات الولاية و أنشئت سلسلة كاملة للمراتب تبلغ ذروتها في " القطب " الذي يدور حوله كل شيء:

يصف الرّوميّ هذا القطب في صورة أكثر تفصيلا، مشمها إياه بالعقل، و نسبة إليه يكون الناس العاديون مثل أعضاء الجسد التي يحركها و يشغلها العقل وهو الذي تدور حوله الأفلاك و مركز الكون المحدث ، و الإنسان الكامل. الطبقة الأخرى الوحيدة من الأولياء الذين يذكرون باسمهم الأَصْطِلَاحِي هي طبقة الأبدال، طبقة أولياء المنزلة العالية الأربعين، أو السبعة أحيانا، الذين كانوا معروفين تماما في الإسلام، على غرار ما يمكن أن نجد من إشارات عديدة إلى أسمائهم و فعاليتهم في بلدان الإسلام. و الأبدال هم أولئك الذين تطلع أنفاسهم الربيع و يشرح الرّوميّ اسم " البدل " من جهة كونه " مبدلا " أي إن خمرتهم أبدلت بفضل اللطف الإلهي و حولت إلى خل روي صرف.

أما أعلى اصطلاح يطلقه على العارف الكامل فهو " قلندر " ليس ثمة مخلوق محدث يمكن أن يصبح " قلندر " حقيقيا كما يزعم و من استخدامه لهذه الكلمة قد يفهم المرء أنه يعني بالقلندر المعشوق الحقيقي: و ذلك سيكون متفقا مع وصف شمس الدّين بالقلندر و مع وظيفته من وجهة أنه معشوق.

ينشأ تبدل الأبدال، و يراد من ذلك الأولياء جميعا، عن تحول باطني: بيت القلب الذي اختاره الحق منزلا له سبحانه، ينبغي أن يطهر قبل أن ينزله (سبحانه):

كنست منزل (القلب) من الخير و الشر

فصار منزل (قلبي) مملوءا بعشق الأحد.

و كل ما أراه فيه غير الله

ليس مني، بل هو صورة لضمير السائل.

فقط عندما ينظف الإنسان بيته تماما من نفسه و من كل الأشياء الأخر غير الله مستخدما مكنسة "لا"، يمكن أن ينزل الحق هناك، فقط عندما يطهر نفسه، متخليا عن كل الألبسة الخارجية و يغدو فقيرا و عاريا في حضرة الملك سيخلع عليه الرب الكريم رداء مهيا " من الأوصاف القدسية " رداء منسوجا من " أوصاف الملك " و سيغدو وطنه " فضل الله ". و بعدئذ، يتغير كل شيء: الكفر يتحول إلى إيمان و الشياطين تسلم (وفقا لقول النبي عليه الصلاة و السلام: أسلم شيطاني) ذاك لأن النور غير المحدود لا يدع مجالال " الغير ". الإنسان مرة أخرى يغدو " مظهر العزة و محبوب الحق " و مرة أخرى ستغدو قصة الخلق محققة: ستسجد الملائكة امامه.

و في هذه الحال يمكن تشبيه الشخص المطهر " بشجرة موسى " الشجيرة المشتعلة التي تجلي الحق من خلالها في صورة النار رغم أن النور الإلهي هو الذي تجلى على الحقيقة. يغدو الإنسان مثل المشكاة و المصباح الزجاجية الصافية كما وصفت في آية النور في القرآن (النور53): جسمه هو المشكاة و قلبه، وهو الزجاج المملوءة بالنور الأزلي يضيء الدنيا و السماوات و هكذا فإن كل الأنوار الضئيلة الأخرى تتلاشى و تتبدد كالنجوم عندما يظهر نور الصباح " الضحي " (س39). و إن نور المؤمن الصادق هذا هو الذي يطفى نار جهنم.

هذا التحول من جانب الإنسان إلى نور أحد الموضوعات المحببة عند الرّوميّ. و إذ يصل الولي إلى هذه الحال، يري بنور الله، أو حتى بالله نفسه (سبحانه) الذي هو مصدر كل نور.

هذا النور يجعل أولياء الله قادرين على أن يروا من خلال الأشياء و الموجودات، و أن يدركوا الفكر الباطنية عند الناس: الفراسة، أو المعرفة القلبية إحدى الملامح المميزة للمرشد الصوفيّ. إنه أسد و أفكار الآخرين كالغابة التي يستطيع أن يدخلها بسهولة. سيكون قادرا على أن يرى شمس البقاء قبل في الذرة و المحيط المترامي الأطراف في القطرة ويرى " الوجود في كل أشكال العدم "، و يكتشف في الحجر غير المصقول الصور المدهشة التي يراها الناس في المرآة المصقولة. و لذلك يستطيع أن يرى المبتدئ الطريق الذي يوصله على نحو أفضل نحو معرفة النفس و القرب من الحق مستحضرا الصور من حجر القلب.

مثل هؤلاء الناس المطهرين لا يحتاجون إلى دعوة خاصة و "خلوة" أو أوقات للتهذيب و التأمل الروحي: " قرص الشمس مختلاهم " ولا يغطيهم الظلام. ولا يبقي علل ثانوية ولا كفر في هذه الشمس الإلهية اللألاء. و قد فقد الأولياء صفاتهم الأرضية. و لأنهم فانون في الغنى السرمدى للحق يستطيعون أن يقدموا دون أمل الانتفاع و الكسب، لأن الولي مثل السماء ينثر نوره في كل مكان، و لكن أيضًا مثل الغيمة التي تأتي بمطر الرحمة للظالمين.

يعمل الأولياء دون علل ثانوية، لأنهم خلقوا أنفسهم بأخلاق الحق (سبحانه) مثلما استلزم القول الصوفيّ القديم، يعلمون بالله:

هكذا كان اجتهاد الشيوخ ليلا و نهارا،

حتى يحرروا الناس من العذاب و الفساد.

يتمون عمل الإنسان و يمضون،

بحيث لا يعلم ذلك إلا الحق ما أكرمه و اجوده!

و مثل الخضر إزاء البحار، و مثل إلياس في اليباس

يقدمون العون لأولئك الذين ضلوا الطريق.

أعمالهم تؤدي من غير حركة، حتى من دون علمهم، إنهم مثل أهل الكهف الذين جرحهم لطف الحق إلى حالهم المدهشة من السلام المطلق.

هم من الكمال بحيث يقدرون حتى على أن يعيدوا السهم إلى القوس ”.

و على قدر ما يكون رجال الحق آلات غير واعية لإرادة الحق الخارجية عن طاقة العقل البشري، يدرك الإنسان لماذا يقترفون أحياناً أعمالاً تبدو تخريباً صرفاً لكنها تقصد إلى تحسين شروط الإنسان: في حالات كهذه يكونون مثل الخضر، المثال الكامل لولي الحق، الذي وصفت أعماله الثلاثة التي بدت تخريباً في الظاهر في القرآن (تراجع سورة الكهف). ولا يمكن قياس سلوكهم بمعايير بشرية، ذلك أن ” طاعة العامة جناية الخاصة ” و ” صلة العامة حجاب الخاصة ” كما يقول الرومي متصرفاً بالقول المشهور لذي النون المصري.

الأولياء فوق قيود البشر. و هم دائماً شبان، مبتسمون، و حلون،

و المائة سنة و الساعة الواحدة عندهم متساوية لأنهم كسروا حلقة الزمان الحادث و يشاركون في الحاضر الإلهي الأزلي.

كيف يغتم من يقبل عينيه الروح؟ - حياتهم كلها تسبيح لله كحياة الروض الذي يحمد الحق و يسبحه دائماً - ب ” لغة من غير ألسنة“. كالأزهار ينتظرون في الغابة المظلمة لهذا العالم المعتم،

و كالأسد في الغيل يشتاقون لإظهار عظمة الحق، و كالديكة يرقبون الشمس في الليل ليخبروا الناس عن الصبح الصادق لكي يوجهوا دعائهم الصباحي إلى الله (سبحانه).

لكنهم مستورون عن أعين الناس العاديين. و الحق غيور ولا يأذن لأحد أن يري أحبته، مثلما يقول الحديث القدسي:

أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري.

فقط اولئك الذين لهم أعين يرون بها يعرفون أنه في الصباح تطوف الملائكة و الأرواح المقدسة بفراشهم و تتحدث معهم دون ألفاظ بشرية.

الولي من الطراز الأول هو عند الصوفيّ الشيخ الذي يكون ملتزما بمتابعته. و في كل الأوقات عدت الصحبة، أي مرافقة المرشد الروحي أو الأصدقاء الورعين و أهل الرفعة، ضرورة لسعادة الإنسان الروحية.

من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوّف.

و مثلما تطهر كلب أهل الكهف بالتزام المصاحبة الوفية لهؤلاء النفر من أهل الولاية حتى غدا هو نفسه إنسانا تقريبا، يستطيع الناس أن يستمدوا الغذاء الروحي من صحبة الأولياء، و أن يغدوا متطهرين بفضل طهارة الأولياء. يشعلون الشرارة الروحية فيه حتى تغدو نورا حقيقيا، لكن هذه الشرارة ستموت بصحبة الرماد و منطفئة، لتعود إلى التراب الذي خلقت منه. يطلب من الإنسان أن يستخدم غبار أقدام الرجال الحقيقيين، رجال الله كحلا لعينيه، و بذلك تشفيان من عى الدنيا و تغدوان قادرتين على استقبال النور الروحي. الإنسان محمي ذا تابع شخصا ذا ولاية و يطلب من المريد الجديد أن " يغدو خادما لناقاة جسم الولي لعله يصلح لصحبة روح صالح ". (كان صالح النبي الذي أتى بناقة من الصخرة).

و جدير بالملاحظة أن الأشعار التي تدور حول الدور الحاسم للقاء الصوفيّ، الشيخ أو المرشد موجودة حصرا تقريبا في المثنوي فالأشعار الغنائية الأولى المفعمة بالشوق و السكر دليل قوي على الأهمية الرئيسة لحركة العشق الحرة. و مولانا نفسه أعد من جهة مرشده برهان الدّين بكل ضروب الرياضات من أجل التجربة الأخيرة لقاء شمس الدّين – ولا شيء غير ذلك. و رغم ذلك يؤكد أهمية توجيه المرشد الصوفيّ في ارتقاء الإنسان في سنواته الأخيرة. و قد أسهم يقينا في هذا التغيير بالتأكيد واجباته المتزايدة عندما احتشد حوله عدد كبير من الناس و عندما تطورت جماعة أنصاره إلى وحدة متماسكة بقوة. و حقيقة أن حسام الدّين جلبي، القوة الملهمّة في المثنوي، كان مريده

(رغم أنه يشخصه في صورة ولي كامل) نقلت مركز ثقل الضرورة أو الأهمية في شعره المتأخر من العشق العاطفي إلى المحبة المهدبة للأخلاق. و من هنا الثناء المتكرر على الشيخ و تأكيد دوره في الكون المنظم للصوفي المترقي.

كل من يمضي في الطريق من دون دليل

يغدو له طريق اليومين مائة سنة.

ليس في وسع أحد أن يصل إلى الكعبة من دون دليل مناسب و ليس في وسع المبتدئ أن يتعلم فن أستاذه من دون أن يدره التدريب الجيد. و تؤكد هذه التشبيهات و المقارنات أن الجانب الفني من الطريق هو الذي كان أولاً في ذهن الروميّ وهو يتحدث عن الأستاذ الروحي. و الحكاية التي يرويها الأفلاكي عن درويش ضاع " ذكره" لأنه لم يلقنه على نحو صحيح من الشيخ توضح هذه المسألة جيداً. لكن الروميّ عرف أيضاً أن الدرجة الأخيرة تعتمد حصراً على اللطف و العشق.

و يستشهد المولوي طبعاً بالحديث النبوي " الشيخ... كالنبي في قومه، و الحديث " من لم يكن له شيخ فشيخة الشيطان ". و على المرء أن يجد " بير رشاد " أي الشيخ الذي يرشد إلى الصراط المستقيم ولا يعتمد على " بير كردون " رجل الفلك العجوز، أي المصير. و لذلك يجعل مولانا أحد أبطاله يصرخ:

لا أبحث من الآن فصاعداً عن طريق الأثير

بل أبحث عن الشيخ أبحث عن الشيخ، الشيخ الشيخ!

ورغم ذلك، حتى لدي أولئك الذين هم مطلعون على التبجيل الكبير للشيخ كما تطور على امتداد القرون يكون مفاجئاً أن يسمعو الروميّ يقول:

من الكافر؟ - هو الغافل عن الإيمان بالشيخ،

من الميت؟ - من لا علم له بروح الشيخ.

و هذا البيت يذكر يقيناً باعتقاد الشيعة ضرورة معرفة الإمام.

و ينصح المريد بالثقة بالشيخ الذي هو نبي زمانه، و بأن لا يطير إلا بجناحي المرشد

الروحي. و من ينازع شيخه أحقق حمقا مطبقا، و حتى " الشيخ المغفل " ليس أدنى منزلة من الحجر و الصنم: كلهم جعلهم الحق وسيلة لتعظيمه و تقديسه. ليس المریدون إلا الأنیة التي تحفظ النور الذي يشعه الشيخ و یغتدون بحليبه الروحي.

و لأن الشيخ يعمل من خلال النور الروحي للحق، يكون مثل مرآة موضوعه أمام المرید الجديد لتعليمه السلوك الصحيح و لإطلاعہ على الحقيقة الروحية، مثلما يضع الإنسان مرآة أمام ببغاء ليعلمه الكلام.

و صورہ المرآة عند المولي الفاني في المعشوق شائعة في التصوّف، و تعني أن حاله الروحية الكاملة تعكس النور الإلهي و هكذا تخبر البشر بعظمة ذلك النور. كما يقول الروميّ شعرا:

أنا مرآة أنا مرآة لست رجل مقالات -

صارت حالي مرئية، لو أن أذنك تغدو عينا.

مشاهدة النور الإلهي ذلك ما يمكن أن يظفر به المرید من شعاع الشيخ بهذه الكيفية يمكن أن يسمي الشيخ الإكسير العظيم و الكيمياء التي تحول المادة الخسيسة أي النفس، إلى ذهب، وظله يقتل النفس الأمانة لأولئك الذين يقتربون منه. و أولئك الذين بلغ فعل " و هذه المنزلة لا يبغون أطباء يعالجون المرض بالطعام و الأدوية، بل أطباء للنفس يشفون بوساطة فعل " ملهم من شعاع نور الجلال " و بقوة الحق، لأن أيديهم " تحت يد الله. و يلخص الروميّ فكره في موضوع الولاية في البيت:

يا من رأيت أولياء الحق منفصلين عن الحق،

كيف يكون ذلك، إن كان لديك ظن حسن بالأولياء؟

” يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ”

(الروم، 19)

قصة حبات الحمص:

الطريق الروحي للإنسان من غفلة الطفولة عبر مراحل التعلم و الاختمار و المعاناة نحو الغاية المتمثلة في أن يغدو ” رجل الله ” الحقيقي ليس سوى جزء من الحركة العظيمة التي يشترك فيها كل شيء مخلوق. ذلك لأن الموضوع الرئيس عند الرومي هو فكرة الموت و النشأة dreW dnu britS التفاعل الدائم للفناء و البقاء في الله. الخلق كله يخضع لقانون الحركة الجدلية (الديالكتيكية). ورغم ذلك، ليست هذه الحركة مجرد تعاون ضروري للقوي الإيجابية و السلبية، لتناوب النهار و الليل، و الصيف و الشتاء، و تجاذب الرجل و المرأة، يانغ و ين، إنها في الوقت نفسه حركة صاعدة لا تستمر طول حياة التجربة الحسية فقط، بل في الحياة الآخرة أيضاً: الموت يخرج من الحياة، و الحياة من الموت، كما يشهد القرآن مرارا.

و في العمق السحيق للذات الإلهية فقط تكون الحركة و السكون و العدم و الوجود، و النشأة و الفناء، شيئا واحدا.

هذا التوتر الدائم بين النفي و الإثبات، العدم و الحياة، رمزا إليه عدد من الصوفيّة، و منهم الرومي، في كلمات إقرار الإيمان أو الشهادة.

فصيغة ” لا إله إلا الله ” قدمت نفسها للشعراء و الصوفيّة بوصفها الرمز الأحسن، و على الحقيقة الإلهي، للتعبير عن رحلتهم الروحية. فإن ”لا“ تشير إلى نفي كل شيء ما خلا الله و يتضمن ذلك رغائب الإنسان و طموحاته، و نفسه، إنها كلمة نارية ” تحرق العالمين ” على الحقيقة و لذلك يدعو الشاعر الإنسان إلى أن يقتلع قلبه و يلقي ” صنارة القلب في بحر لا ”.

و كما قرر السنائي سابقا، فإن ”لا“ مكنسة (صورتها في الخط أو الكتابة تساعد في

هذه المقارنة):

نظف هذا البيت من نفسك شاهد ذلك الحسن الملوكي، اذهب و خذ مكنسة "لا"
لأن لا كافية لكنس البيت. و بنفي الإنسان صفاته الذميمة بإزالة كل شيء سوى الله،
أي كل غبار الدنيا، سيجد أخيراً المهاء الملوكي الذي يملأ بيت القلب

النظيف الذي يكون بعدئذ خليقاً باستقبال أسى الضيوف، أو عكس النور الإلهي
مثل المرأة الصقيلة.

وقد يتحدث الرومي أيضاً عن سيل "لا" الذي يبعد "الفرح و الترح و النفع و الضرر
و الخوف و الأمن و الروح و الجسد. لكن هذا الكنس و التنظيف ليس سوى المرحلة
التمهيدية:

من يعرف "إله"؟ - هو الذي نجا من "لا".

و من ذا الذي نجا من "لا" - قل لي؟ - هو العاشق الذي رأى البلاء.

العشق هو القوة التي تفني كل شيء في الدنيا. و يعبر عن هذا بلغة قوية نسبياً في
قصة ملكة سبأ.

من العشق بدت البساتين و القصور و المياه الجارية

أمام عينها كالموقد.

و العشق إبان الاستيلاء و التسلط

يجعل الأشياء الجميلة قبيحة أمام العين.

يظهر الزمرد في صورة الكراث

هذه غيره العشق و معني "لا".

و في اللحظة التي يأسر العشق الإلهي الإنسان لا يرى هذا الإنسان إلا الله كل شيء
ينفي، يفصل، يزال، لا يبقى إلا المعشوق "إلا الله" و عندئذ "سيقطع العاشق رأس
"لا" و يصل إلى "لا" أو سيسأل المعشوق أن يعده "لا" و أن يحوله إلى "إلا"، أي أن يراه

عدما و يأتي به إلى الوجود الحقيقي في الله و بالله (سبحانه). و يشرح شعراء متأخرون هذا التعبير بتفصيل أكثر: العاشق و قد صار "لا"، يغدو "إلا" عندما يضع المعشوق قامته النحيلة الهيفاء، التي تشبه حرف الألف أمامه...

و يمدح الروميّ شمس الدين بالقول:

كل من وجد عوناً من يدك،

غداً "إلا" (مؤكداً للحق) دون عقبة "لا".

لكنه في بيت آخر يجعل نفسه "ثملاً من النفي" لا من الإثبات "مما يظهر مرة أخرى عدم تماسكه في استخدام الصور، الذي يتغير وفقاً لمرحلته الروحية.

و ابتغاء التعبير عن هذه الحركة الصاعدة التي تقود من "لا" إلى "إلا" اخترع الروميّ دائماً صوراً جديدة. وإحدى القصص اليومية هي قصة حبات الحمص. و مثلما رأينا، كان مولعاً بالصور المجازية المستمدة من المطبخ. و هذه الخضرة البسيطة يمكن أن تستخدم رمزاً لما وجده مولانا أعمق حقيقية في الحياة. و يكتب القصة:

تمثيل فرار المؤمن الحق و عدم صبره على البلاء باضطراب حبات الحمص و غيرها من الأشياء و عدم استقرارها أثناء الغليان في القدر، و بانطلاقها إلى الأعلى بحثاً عن مخرج.

فإن حبات الحمص الموضوعية في القدر مع الماء المغلي و هي تحس بعدم الراحة في الحرارة تحاول أن تخرج من الماء. لكن الشاعر يخبرها بأنها نمت تحت مطر الرحمة الإلهية و مائها، و لذلك عليها أن تعاني بعض الوقت في نار القهر الإلهي. ألم يقل الحق سبحانه: "سبقت رحمتي غضبي"؟ (هذا الحديث القدسي المشهور الذي بمقتضاه يكون لرحمة الله السبق على غضبه، يفسر هنا على نحو جريء تماماً بمعنى مؤقت). و تشبه ربة البيت نفسها بإبراهيم و حبات الحمص بإسماعيل الذي كان عليه أن يستسلم لسكين التضحية لأن "المقصود الأزلي هو تسليمك". و هذا الطبخ و الأكل هو على الحقيقة الطريقة الوحيدة أمام حبة الحمص لتصل إلى مستوى أعلى من الكمال.

إذا صرت منفصلة عن بستان الماء و الطين،

تحولت إلى لقمة و دخلت في الأحياء.

تحولي إلى غذاء وقوت و فكر،

كنت عصارة فصيري أسدا في الغيل.

نبت من ء، صفاته و الله أول الأمر،

فعودي إلى صفاته حذاء رشيقة.

جئت من السحاب و الشمس و السماء،

ثم تحولت إلى صفات وصعدت إلى الفلك.

جئت في صورة مطر و حرارة،

و تمضين في الصفات المستحبة.

كنت جزءا من الشمس و السحاب و الأنجم،

فصرت نفسا و فعلا وقولا و فكرا.

هكذا تعزى خضار الطبخ في معاناتها، لأن عليها أن تتعلم أن الألم

و الأسى لا غنى عنهما البتة للترقي جميعا، لكن ليس هناك من اخترع مثلا أكثر تأثيرا من الرومي: الحمالون في الشوارع – و أي زائر للشرق الأوسط لا يتذكر صياحهم؟ - يقاتل كل منهم الآخر حول من يظفر بأثقل الأحمال لأنهم يعرفون أنه كلما ثقل الحمل ارتفع الأجر الذي يظفر به الحمل من الآخر. على الإنسان أن يعمل بطريقتهم، لأن عليه أن يعرف أن المكافأة الروحية ستكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعناء و البلاء الذي يتحمله صابرا غير راغب. و قد أوردت الأحاديث النبوية لإثبات أن الأنبياء هم الأكثر ابتلاء بين الناس فالأولياء فالصلحاء وهلم جرا، لأن " البلاء للولي كالنار للذهب " أداة للتنقية و التخليص.

إذا قطعت الفكرة الحزينة أسباب السرور،

فإنها تصنع أسبابا للسرور.

تنظف منزل (القلب) سريعا من الأغيار،

لكي يدخل سرور جديد من أصل الخير.

تسقط الأوراق الصفرة من غصن القلب،

لكي تنبت أوراق خضر على الدوام.

تقلع جذور السرور القديم،

لكي تتبخر لذة جديدة مما وراء (الحس).

يقلع الحزن الجذر المعوج المتعفن،

لكي يبرز وجه ذلك الجذر المغطي.

يقينا سيصرخ الإنسان للحظة في غمة، ولكن ألا يأتي بكاء الغيمة بنباتات خضراء جديدة إلى المروج والحقول؟ - ألا تصبح الشمعة التي تبكي في ذوبانها أكثر ألقا؟ ألم يقل " الحق " ابكوا كثيرا! لكي تمتلئ حديقة القلب الجافة بالفاكهة؟ و طالما أن الطفل لا يبكي لن يتدفق لبن أمه لتغذيته. و الدموع المسفوحة في الغم و البلاء نفيسة مثل دم الشهداء.

و الاغتمام في سبيل الله مثل الحديقة التي سينمو فيها أخيرا سكر السعادة شرط أن يغلف الإنسان الغم بغلالة العشق و يعد هذا الغم صديقا جيدا و موثوقا. لأنه من خلال الغم و الألم فقط يتوجه الإنسان إلى الحق، الذي يميل إلى أن ينسأه في يوم السعادة.

و بالبلاء و العناء يستطيع الإنسان أن ينضح عندما يرى أن أحبته جميعا يغادرونه و يترك وحيدا أمام الحق. كيف يتحول عصير التفاح إلى خمرة لذيدة ما لم يخمر لبعض الوقت؟ ينبغي أن يخضع الجلد الخام لعملية الدباغة القاسية قبل أن يصير " أديما طايفيا جيدا " و الحجر العادي الدباغة القاسية قبل أن يصير " أديما طايفيا جيدا ". و الحجر العادي يتحول أثناء مراحل طويلة من المعاناة إلى ياقوت، و الصدفة

تضحك عندما تكسر....

التكسر شرط قبلي لحياة جديدة: ينبغي أن تكسر قشرة الجوزة في سبيل الحصول على اللب، لأن " اللب و الزيت الغالي يناديان بصمت من أجل الخلاص ". و منذ أن يكسر إناء الوجود البشري يمكن لموجة الرحمة أن تشمل كل شيء. و قد اعتمد الصوفية و منهم الرومي على وعد الحق سبحانه: " أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي ". و لذلك يحدث مستمعيه بتنوعيات جديدة دائما عن ضرورة الانكسار: حيثما يوجد مكان خرب فثمة أمل بالكنز:

فلم لا تطلب كنز الحق في القلب الخرب؟

فينبغي أن يهدم البيت لعل المرء يظفر بالكنز المخفي تحته، ذلك الكنز الذي يفوق بيوتا كثيرة كثيرة، تسقط الشجرة أوراقها في الخريف ممارسة بهذا الصنيع الفقر الروحي (بي بركي - بالفارسية) و بهذه الطريقة فقط يمكن أن تفتح أزهار جديدة و أكثر جمالا. و بالطريقة نفسها ينبغي أن يحرق الحقل لكي يمكن أن تزرع البذرة التي تتحول إلى حبة، ستطحن بالمطحنة و يصنع منها الخبز، الذي ستطحنه أسنانا الإنسان، حتى يصير متحدا بالإنسان و يغدو نفسا. ألا يقطع الخياط الحرير النفيس أجزاء من أجل أن يعد رداء رائعا؟

الهدم المؤقت يتضمن تطورا أسمي: يهدم الإنسان صفاته السيئة في سبيل أن يخلق نفسه بالصفات الإلهية، أو يتخلى عن إرادته ليصبح مزدانا بالمشاركة في الإرادة الإلهية و كلما استسلم أكثر لإرادة الحق كانت المكافأة أكبر و كلما نال أكثر.

و الحديث النبوي: " موتوا قبل أن تموتوا " هو النقطة الرئيسة في عرفان الرومي:

كل من قطعت (أبها المعشوق) عنقه، صار طويل العنق،

كل من أحرقت ببيدره. صار ببيدره كبيرا.

تضيء الشمعة أكثر عندما تقطع فتيلتها، و هكذا فإن الموت على المستوى الروحي ثم البعث في الروح يأتي بالإنسان نهائيا إلى حضرة الحق دون آلام البعث العام أو مخاوفه. يطلب من الإنسان أن يصبح شتاء لعله يرى مجيء الربيع. و من العدم الواضح يظهر الخلق: فالعدم هو الشرط للخلق الجديد للحق. لأن الله يخرج الحياة من الموت،

والموت الروحي مثل الجسر الذي تمر عليه قافلة الأرواح، وهو هدف السالك: جسر نحو منازل أعلى.

لأنه لاشيء يمكن أن يعود إلى حاله السابقة، لامرأة يمكن أن تصبح حديدا مرة أخرى، ولا خبز يمكن أن يصبح حبا. الحركة التي يسببها الموت بالعشق تستلزم البعث على مستوى أعلى. وفي أشعار الرومى الغنائية نجد أوصافا رائعة الحال الإنسان الذي بعد أن يغادر هذه الدنيا سيعيش وصلا حقيقيا و لقاء متصلا مع المعشوق.

و من هنا لم يخشى الإنسان الموت؟ - فإن كان شريرا فإن شره سينهي بأسرع ما يمكن و إن كان خيرا فسيصل إلى " البيت " حالا. الموت مثل التحرر من سجن الجسد التخلص من البئر المظلمة لهذه الدنيا إلى حديقة جميلة، تحطيم أغلال العالم المادي. النور الحسي يخفت و نور الروح وحده يسطع و يقوده إلى الأمام. الكائن البشري، الذي كان مثل الشحاذ في سجن الغم، يصل الآن إلى قصره الملكي. يعود الصقر إلى صقاره، و العندليب إلى روضة الورد و لذلك يموت المؤمن الحق مبتسما كالورد. وهو يعرف: " كنت قصبا، و الآن صرت سكرا..."

يحلم الرومى باللحظة التي سيكسب فيها المعشوق الموت في كأسه لكي يقدر أن يقبل الكأس و يموت سكرا، و يخاطب أحبته و مريديه بتكرار حماسي: " موتوا، موتوا " و في واحد من أغزاله الأخيرة التي نظمها قبل وفاته بأمد قصير، يعزيهم بالبيت:

أية بذرة بذرت في الأرض ولم تنبت؟

فلم هذا الشك ببذرة الإنسان؟

و في سلاسل طويلة من التشبيهات يحدثهم عن الحركة الصاعدة دائما التي تقع وراء الحياة و تتجاوز الموت: ألم ير. الإسكندر ماء الحياة في أظلم الأودية؟ الحياة سفر، وركب الأرواح ينتقل من منزلة إلى منزلة أخرى و ينبغي أن يتغلب على المخاطر و المخاوف، عليه أن يتسلق التلال الشاهقة و أن يعبر الأودية المظلمة لكي يصل إلى كعبة المعشوق. و كل ما يبدو ضائعا في الطريق، سيوجد عند بلوغ الهدف. وهو سفر نحو اللامكان، سفر إلى " ولاية المعاني " دون راحة، سفر تزال به الحجب التي لاتزال تغطي القلب، ملتقي الإنسان و الحق.

يرى الرّوميّ، موافقا في ذلك المصطلح الصوفيّ، و الحياة الروحية كلها طريقا، أو سلما، و ينطبق الشيء نفسه على الحياة في جملتها.

لا راحة عند أية منزلة من المنازل:

صراخنا كالجرس في القافلة،

أو كالرعد عند مرور السحاب.

فيا أيها المسافر لا تربط قلبك بأية منزلة،

حتى لا تغدو متعبا وقت الاجتذاب!

نداء الرحيل، " لنبدأ السفر " كثيرا ما يسمع في أشعاره كثيرون يدعون إلى ترك الوطن و الأسرة و إلى الانطلاق في السفر الروحي. السفر وحده يأتي بكل شيء إلى كمال، الهلال ينمو شيئا فشيئا حتى يغدو كائنا جليلا في أثناء سفره و الشمس تبدو أكثر ألقا في الصباح بعد سفرها في الليل. و حبات المطر تتحول إلى لالئ عندما تدخل المحيط، و هجرة النبي تشير إلى أهمية أن يترك الإنسان وطنه و يكسب مملكة جديدة على مستوى أعلى قبل العودة إلى الوطن مرة اخرى. منضجا بالهجر يعود المسافر إلى الوطن، و العاشق الذي أحرق نفسه بنار المحنة، يعود فلا يرى سوى حبيبة المنتظر، و ليس نفسه، و هكذا يستقبل بحب في البيت. و هكذا فإن كل لحظة في حياة الإنسان خطوه في الرحلة الصاعدة التي تبلغ ذروتها في الموت - الروحي أو الجسدي - ثم البعث. و كلما تقدم الإنسان على هذا الطريق ازداد اشتياقه إلى الاقتراب من مقام السر، و سما طموحه إلى الصعود إلى قمة جبل قاف.

ولا يصدق هذا فقط على تطور الباحث الفرد في مسيرة حياته، بل على الطبيعة في الجملة. و يبدو أن الرّوميّ غدا أكثر اهتماما من الوجهة النظرية في منتصف الستينيات من القرن السابع الهجري (13م).

بمشكلة التطور الصاعد المطرد لكل شيء مخلوق ذلك التطور الذي يبدأ بأدني المنازل و ينتهي أخيرا في " السير في الله ". و في تلك السنوات حاول أن يعبر عن هذه الفكرة التي فصلت عند السنائيّ و العطارّ بأشعار مشربة بطابع فلسفي. و قد وصف السنائيّ طريق النفس أثناء عبور المنازل المختلفة في مثنوية التعليمي الصغير: " سير

العباد إلى المعاد". على أن الإحساس بأن نفسا كلية واحدة تتخلل كل شيء محدث ثم تصعد شيئا فشيئا، بعد أن تكون قد أصبحت منفية في الدرجات الدنيا من الخلق، معروف عند العطار أيضًا. و كل من سلفي الرومي هذين تحدث أكثر من مرة عن التطور الصاعد البطيء للعالم: آلاف الأزهار ينبغي أن تفي حتى يمكن أن تظهر ورده واحدة و ملايين النفوس البشرية ينبغي أن تولد ثم تموت حتى يمكن في يوم من الأيام أن يظهر التجلي الأسمى للإنسانية، النبي. يتألف الخلق كله من سلسلة صاعدة من الوجودات التي تبلغ ذروتها في جنس الإنسان ثم الإنسان أيضًا يجد تعبيره الأسمى في الإنسان الكامل، كما يسميه الصوفيّة الذين جاؤوا بعد، في النبي، أو في الولي الذي بلغ مرحلة الحياة الأزلية في الله.

أدرك العطار هذه الحركة الصاعدة أيضًا تحت رمز غزال المسك الذي يأكل العشب و يحوله إلى مسك نفيس: الوجودات الدنيا " ينبغي أن تؤكل ". و يتابعه الرومي في وصف هذه الحركة، جزئيا، في صورة الأكل و المأكول. و على الحقيقة يضع عنوانا لفصل في المثنوي هكذا:

كل ما سوى الله أكل و مأكول.

الطير تأكل الدود و هي نفسها تأكلها القوط. و يرجعنا هذا إلى مثال حبات الحمص. و يرى الرومي الحقيقة نفسها أيضًا في مصير الحبة من القمح أو الذرة التي تطحن و تخبز و تمضغ و هكذا تحول إلى طاقة و نطفة ستصبح إمكانيات روحية. و في جناس لطيف يتحدث عن نقطة " المني " التي عليها أن تتخلى عن ذاتها " مني " (بالفارسية) ابتغاء أن تصبح قدا كالسرو و خذا فتانا. و على النحو نفسه، ينبغي أن تذبح الحيوانات لتفيد الإنسان في غذائه و لتضحي جزءا من وجوده الأعلى:

اكسر الجسم الذي هو مثل البطيخة لكي لا يزعج عند الأكل، و لكي تظهر قيمة الحز.

و يتضمن المثنوي، خاصة في الأجزاء من 3 إلى 6، تفصيلات كثيرة لهذا الموضوع، و في الديوان يمكن اكتشاف بعض الإشارات أيضًا و قد تتبعها بعدئذ سلطان ولد في شعره. و هكذا ينشد الرومي في إيقاعات ناعمة مطردة:

كنت في مقام التراب فسافر سفرا خفيا:

و عندما وصلت إلى حال الإنسان، احذر من أن تثبت نفسك هنا.

أنت تواصل السفر و تصعد إلى السماء،

و تتحرك جزءا جزءا، حتى يحركك الله.

و هذه تماما الفكرة نفسها التي عبر عنها في المثنوي في وقت غير طويل قبل أن يخترع
الرّوميّ قصة حبات الحمص و تحديدا الأبيات الشهيرة:

مت من الجمادية وصرت ناميا،

و من النماء مت و تحولت إلى الحيوانية.

ثم مت من الحيوانية و صرت آدميا،

و من ثم أي شيء أخاف؟ - و متى نقصت من الموت؟

و مرة أخرى أموت من البشرية،

حتى آخذ من الملائكة أجنحتها و قوادمها،

و حتى من الملائكية على أن أمضي،

لأن " كل شيء هالك إلا وجهه " .

و مرة أخرى أموت من الملائكية،

فأغدو على حال لا يحيط بها الوهم.

أغدو عدما بعد ذلك، و العدم مثل الأرغنون

يقول لي: " إنا إليه راجعون " .

هذه الأبيات ترجمها أولا إلى الألمانية فريدريك روكرت hciirdeirF trekciiR، لكنه
أغفل البيت الأخير الحاسم الذي يتحدث عن العودة إلى العدم، العدم الإيجابي، مقام
غيب العماء أو مقام غيب الغيوب xueD sutidnocsba. و بعد مضي وقت ليس بالمديد

على نظم الأبيات المستشهد بها تواء، تابع الرّوميّ هذا الموضوع نفسه، و لكن في صور مجازية مختلفة و أكثر إسهاباً:

- جاء أولاً إلى إقليم الجماد،

و من الجمادية انتقل إلى النباتية،

- عاش سنين عديدة في النباتية،

وهو لا يذكر شيئاً عن الجمادية بسبب التعارض بين الحالين.

- وعندما انتقل من النباتية إلى الحيوانية

لم يكن يذكر شيئاً عن الحال النباتية

- إلا هذا الميل الذي يجده نحو النبات

خاصة وقت الربيع و انتشار الرياحين.

- مثل ميل الأطفال إلى الأمهات،

إذ لا يعرف الطفل أن سر ميلة هو الرضاع

- و مثل الميل المفرد لدى كل مرید جديد

نحو ذلك الشيخ المجيد الفتي الإقبال.

و العقل الجزئي لهذا المرید مستمد من ذلك العقل الكلي:

فحركة هذا الظل من حركة ذلك الغصن من أغصان الورد.

و رغم ذلك تأخذ القصة بعدئذ اتجاهها مختلفاً فتشرع العالم بوصفه حلماً يستيقظ

الإنسان منه في فجر الأبدية:

- هكذا انتقل من إقليم إلى إقليم،

حتى صار الآن عاقلا و حكيمًا وقويا.

- وعن عقله (البشري) هذا هناك أيضًا تحول
- حتى يتحرر من هذا العقل المفعم بالحرص و الطلب، ويرى مئات الآلاق من العقول العجيبة المدهشة.
- ورغم أنه صار نائما و ناسيا الماضي، فكيف يتكونه على تلك الحال من النسيان لنفسه؟
- و مرة أخرى يجرونه من نومه إلى حال اليقظة، حيث يسخر من حاله التي هو عليها،
- قائلا: أي غم ذلك الذي تجرعته في نومي؟ - كيف نسيت الأحوال الصحيحة؟

و يومئ هذا البيت الأخير إلى حديث نبوي آخر يقول فيه النبي محمد (عليه الصلاة و السلام): " الناس نيام فإذا ماتوا انتموا. و قد رأي رينولد إلين نيكلسن هنا، و هو يدرس أبيات الرّوميّ "مت من الجمادية" على نحو مفصل في شرحه على المثنوي، تعليما صرفا من تعاليم الأفلاطونية المحدثة: النفس الكلية التي تعمل في عوالم الوجود المختلفة

وهو تعليم أدخله في الإسلام الفارابي ثم ارتبط في الوقت نفسه بفكر ابن سينا حول العشق بوصفه القوة التي تعمل على نحو مغناطيسي و بها تدفع الحياة باتجاه صاعد.

هذا التفسير ممكن، لكن تفسيرات آخر لهذه الأبيات قدمها تقريبا كل من درس الرّوميّ. و في عالم الإسلام يبدو أن مولانا شبلي نعماني، العالم المسلم الهندي العظيم كان أول من أكد أهمية فكرة " التطور " في معنى " الارتقاء " في هذه الأبيات التي يناقشها في نهاية سيرة حياة الرّوميّ التي كتبها بالأوردية، و تبدو هذه الأبيات تثبت لدى المسلم الصحيح الاعتقاد ذي العق الحديث أن نظرية دارون في الارتقاء كانت معروفة عند المسلمين منذ أوائل القرن السابع الهجري (13م): برهان آخر على سبق المفكرين

المسلمين مفكري أوروبا، الذين لم يكتشفوا هذه النظرية إلا في آخره.

و في سنة 1913م، و عندما كان فريدريك روزن nesoR hcirdeirF يكتب مقدمته للترجمة الشعرية إلى الألمانية للجزئين الأول و الثاني من المثنوي التي قام بها و الده علق قائلاً:

يبدو أننا نسمع هنا دارون أو هيجل لكن الحقيقة أن أرسطو هو الذي سبق إلى نظريات التطور.

وقد تبني كلمات شبلي حول "تطور الأنواع" عدد كبير من العلماء الباكستانيين و الهنود: أرجع خليفة عبد الحكيم في كتيبه المسي imuR fo scisyhpatM ehT نظرية الارتقاء إلى إخوان الصفاء مما " جعلهم أسلاف دارون و سينسر ". وهو مثل محمد إقبال يعد الفيلسوف ابن مسكويه الأب الحقيقي لنظريات الارتقاء. و عند خليفة عبد الحكيم أن الحياة

نتاج إرادة دائماً رغبات و آمالا جديدة ينبغي أن تحقق.

الحياة مجاهدة في الطريق إلى المعشوق الأول، إلى الجمال الأزلي.

و هذا صحيح يقينا، لكن العالم الباكستاني يهمل البيت الأخير المهم، العودة إلى العدم، التي هي أسى من الجمال و الجلال. و عن عبد الحكيم أن فكرة البقاء المتصاعد " أصيلة مطلقاً" لدى الرّوميّ.

و أجرؤ على التشكك في هذا الحكم ذاك أنها فكرة صوفية جيدة، ذكرها السنائيّ و العطار و الفصل الذي كتبه الغزالي عن " الاشتياق و العشق " في " إحياء علوم الدّين " يشير إلى الغرض نفسه. و يبدو أكثر إثارة أن هذه الفكرة نفسها جيء بها مرة أخرى إلى الحياة في وقت واحد تقريبا في الشرق و الغرب - جاء بها محمد إقبال بوصفه مفكرا مسلما اعتمد على الرّوميّ و الفيلسوف الألماني رودولف بانويتز floduR ztiwnnaP مريد نيتشه و منتقده.

و قد ناقش الكاتب و الدبلوماسي الباكستاني أفضل إقبال المشكلة التي تعرضها أبيات " مت من الجمادية " أيضاً. و يقتبس من عبد الحكيم المقطع الآتي الذي يتضمن تناولاً مفيداً للمسألة:

أن يكون الصوفيّ أوضح الطريق للعلماء و الفلاسفة واحدة من أندر الظواهر في تاريخ الفكر. لكن الصوفيّ لا يبدأ بالمذهب الطبيعي msilarutan ولا ينتهي به. و مادته التي ينطلق منها ليست مادة المادي أو الداروني. كانت منذ البدء الشكل الخارجي للروح فقط، و تتألف من عناصر الوجود الأولية sdanom ehT عند لیبنتراً أكثر من ذرات ديموقريطس. ثم أيضاً ينتهي دارون بالإنسان ولا يتوقف الروميّ هناك. ولا يتفق الصوفيّ و العالم حول القوى التي تقود إلى هذا الارتقاء. و يتكون تعليم دارون من الصراع على البقاء و التنوع الاتفاقي، و الانتخاب الطبيعي. أما عند الروميّ فليس ثمة ارتقاء بفعل التنوع الاتفاقي. التطور في نظره يكمن في خلق حاجة متزايدة دائماً إلى التوسع و بالتمثل في كائن حي أعلى.

و مهما يكن فإن تفسير أفضل إقبال ينكر الارتقاء ذا الهدف المحدد: ينبغي أن يعطي الارتقاء الإنسان الإمكانية الحرة لاختيار اتجاه للتطوره. و هذه الفكرة في الأحوال جميعاً مضادة للرومي فقد كان التطور في اتجاه منظم إلهيا و من ثم هادف مع منزلته الأخيرة في قرار العشق الإلهي، أمراً حتمياً.

و قد اهتم خليفة عبد الحكيم بالأبيات نفسها مرة أخرى في كتيب بالأوردية (كتبه سنة 5591م) لكنه هنا يؤكد التفسير القائم على وحدة الوجود الممكن لأبيات الروميّ " من الجماد إلى الملك " ووجود الإنسان ليس سوى وجود الحق. و بعد أن ينفصل الإنسان عن الحق عليه أن يمر بمراتب الوجود جميعاً حتى يصل مرة أخرى إلى المصدر الأوحد و الحقيقة الوحيدة، الله.

كان هذا سابقاً التفسير المقبول في الجملة لهذه الأبيات. و قد أعد محمد إقبال في رسالته الجامعية بعض الإيضاحات المتصلة بهذا التفسير: يتطور الفكرة من مثل النوم، أي من الكتاب الرابع من المثنوي، و ما بعد. ويرى كل شيء ما عدا الله حلماً صرفاً ظلاً، خيالاً، ترجع منه النفس إلى الحقيقي الأوحد. و في عمله الذي ألفه بعد في أية حال - و سأخمن أن هذا حدث بتأثير شبلي - عد الفيلسوف الشاعر نفسه هذه الأبيات تعبيراً قوياً عن كدح الإنسان الدائم نحو الكمال و هكذا يمكنه أن يدخلها في بنيه مفهومه للعالم ذي الفعالية المتغيرة باستمرار.

أما العالم التركي عبد الباقي كلبيناري ilraniploG.A فيرى في أبياتنا إشارة إلى تجدد الخلق كل لحظة و يؤكد أعمال " الأكل و المأكول " المستمرة الصراع من أجل البقاء بوصفه عنصراً لا غنى عنه لتطور المراتب العليا للحياة.

هذه التفسيرات جميعا ممكنة وربما تقصد إليها الاستخدامات المتنوعة لكلمات متشابهة جدا، لكن يبدو أنها تهمل جانبيين أو مظهرين لقصة حبات الحمص التي تقف هنا مثلا لمركب الفكر كله. يعتقد الرومي نفسه على نحو واضح أن هذه الحركة الصاعدة شيء يعلمه القرآن: يستطيع السيد أو المالك أن يحول جوادا من الإسطبل إلى حظيرته الخاصة، وهناك يهتم به أكثر، إن وجده جديرا بذلك وهكذا تكون المعجزة الحقيقية أن الحق يأتي بالإنسان من مرتبة دنيا إلى مرتبة أسى، مثلما سوى كائنا بشريا فتانا من نطفة من مني مهيمن. كان الرومي مطلعا يقينا على أشعار السنائي و العطار حول سفر النفس وربما عرف التعاليم الفلسفية المتصلة بهذا الشأن أيضا. لكن اهتمامه الأول يكمن في التفسير الروحي لفعل التطور هذا كما يمكن أن يراه يوميا في الأكل و النمو لدى الأشخاص المحيطين به. و قصة حبات الحمص البائسة ينبغي أن تقرأ في هذا السياق، كلما أدخل الشاعر على نحو مفاجئ أبيات الحلاج " اقتلوني يائقاتي..." الكلمات التي استخدمها دائما وهو يتحدث عن الموت الروحي و البعث الروحي. و ما يحدث الانجذاب و الحركة الصاعدة في الخلق ليس قوة مغناطيسية باردة لا روح فيها، بل إن الرحمة المطابقة لعشق الحق المبدع هي التي تجعل القوى الدنيا قادرة على أن تنمو إلى مستويات أعلى، شرط أن تلتزم بقانون العشق الذي هو أن تضحي بذواتها الحقيرة من أجل شيء أسى، أعني أخيرا، من أجل المعشوق.

- اعلم أن دوران الأفلاك من موج العشق،

ولولا العشق لتجمد العالم.

- و متى امحى الجماد في النبات؟

و متى صار النبات فداء للروح؟

- العشق يحول الخبز الميت إلى روح،

و يجعل الروح، التي كانت فانية. خالدة.

هذا العشق الصامت و غير الواعي عند مستويات الوجود لدى العاشق يصبح مرثيا في الإنسان، الذي يستطيع من خلال تنفيذه في تضحية طوعية أن يجرب ما سماه غوته ehteog، في تفسيره حكاية " الفراشة و الشمعة " للحلاج الموت و الانبعاث britS
...edrew dnu

obeikandi.com

أين مزار شمس ؟

كثيرون من كتاب التذاكر المعاصرين لمولانا ، و عدد من الباحثين الإيرانيين و الأتراك متفقون على القول بأن محمدا ملك داد ، شمسًا التبريزي سافر إلى قونية مرتين : المرة الأولى في السادس و العشرين من جمادي الثانية 642هـ حيث أقام سنة عشر شهرا في واحدة من حجرات منزل جلال الدين البلخي ، أو صلاح الدين زركوب و عندما انزعج من سخريات جماعة من سيئي النوايا ، ولم يستطيع التحمل و المقاومة ترك الروم الشرقية في الحادي و العشرين من شوال عام 642هـ فما كان من جلال الدين إلا أن أرسل ابنه الأكبر سلطان ولد مع جماعة من محبيه إلى مراده شمس التبريزي في دمشق و كلفه أن يدعو إلى العودة إلى قونية . أما شمس الذي كان يحترق في أتون هجران حبيبه العارف ، ابن سلطان العلماء ، فإنه بعد قراءة رسائل مولانا الأربع المنظومة عاد إلى قونية مرة أخرى عام 644 هـ . و قد أتى عود شمس إلى قونية على هدوء الروم الشرقية مرة أخرى . و أزعج سيل اتهامات المتعصبين و افتراءاتهم خاطر الشيخ الكبير ، المتخطي لعتبة الستين ببضع سنين أيما إزعاج و بعث في نفسه الحزن و بلغ من ضغط المخالفة و المبرزة المصحوبة بالتشنيع و جرح اللسان أن قال شمس لسلطان ولد ابن مولانا : لا طاقة لي بعد الآن على الإقامة في هذه المدينة ، ولا بد من أن أذهب إلى مكان لا يستطيع أحد في المستقبل أن يكشف محل إقامتي فيه . صار شمس إثر وفاة زوجة الشابة الجميلة " كيمياء خاتون " شديد الحساسية و سريع التأثر و غاضبا ، و من ناحية أخرى كان يرى علاء الدين ابن مولانا الأصغر متصلا دائما بجماعة المخالفين له، عنادا منه و عداوة و ليس له حتى بين مريدي جلال الدين قيمة و اعتبار لائق بمقامة المعنوي . فاضطر إلى أن يعقد العزم على أن يترك مولانا و مدينة قونية المضطربة نهائيا. و لهذا السبب تواري عن الأنظار في سنة 654هـ و اعتقد بعضهم مثلما بينت قبل أن المخالفين له أجهزوا عليه قتيلًا . و قد كتب سبسالار- الذي في كتابه المسى "رسالة" لقب شمسًا ب " تاج المحجوبين " و عرفة للناس بتعبير " من مستوري

حرم القدس " و كان يظن أنه من المقربين لجلال الدين الرومي و أبنائه - في شأن هذا الرجل الغامض و كيفية نهاية حياته بغموض على هذا النحو :

" حتى زمان حضرة خداوندكار - أي مولانا - لم يكن لأحد أبدت اطلاع على حاله ثم بعد وفاة مولانا لن يقف أحد البتة على حقائق أسراره "

و الأفاكي مؤلف كتاب " مناقب العارفين " مثل سيمسالار غير مطلع على كيفية اختفائه و محل اختفائه و حياته و موته و يعتقد أنه محاط بغلالة الأسرار . أما حزن مولانا و اضطرابه لفراق شمس فقد بلغ أن كان ليلا و نهارا في حال من البكاء و الآنين أو منشغلا في مجالس السماع بالرقص و التصفيق .

ولأن مراده ترك الروم الشرقية مرة ثانية منزعجا و غاضبا و يمم شطر دمشق استدعي ذلك أن يسافر جلال الدين البلخي في طلبه مرة أخرى و يري مباشرة مدارس تلك البلاد و يسأل و الأساتذة و الطلبة في دور العلم هناك عن مراده؛ و لكنه كلما زاد في البحث ازداد ابتعاده عن ينشده .

و تظهر هذه الأسفار أن مولانا إما أنه ليسؤلديه علم يقيني بقتل شمس في قونية و لم يخبره ابنه الأكبر و مريدوه بشيء في هذا الشأن وإما أنه كان يظن أن محبوبه - كما حدث له في المرة الأولى - قد ذهب إلى دمشق .

مقام شمس :

في وسط قونية في موضع غير بعيد كثيرا عن تربة مولانا أنشئ بناء على طراز فترة سلاجقة تركية ، و له مئذنة أصغر و أقصر من المآذن القديمة و الحديثة المبنية في قونية . وقد أحاطت بالبناء أشجار خضر معمرة . و في البوابة في مدخل هذا البناء بني محل لخلع الأحذية فضاء البناء أخذ صورة قاعة بعشرين مترا لكل من الطول و العرض شبيهة بفضاءات المساجد الأخر عند المسلمين مع محراب جديد واحد و ينتصب قرب المحراب أيضا منبر خشبي مرتفع نسبيا .

و في الطرف الغربي للقاعة وسط سجادة فاخرة ببعد تقريبي 3×4 م يجثم صندوق خشبي كبير على طراز صناديق قبور المرحلة السلجوقية غطي وجهه بقماش مزين بأيات قرآنية . و فوق رأس هذا الصندوق المحلي المحاذي لرأس الجسد وضعت عمامة بيضاء كبيرة من طراز غمائم أقطاب الطريقة المولوية و شيوخها . و يسمّى هذا المحل " مقام شمس " و خلافا لضريح مولانا جلال الدين الذي يذهب عدد كبير من الزائرين الآتين من كل أنحاء تركية و السائحين لزيارته على امتداد العام، و في كل ساعات النهار من التاسعة صباحا حتى الخامسة بعد الظهر يرى عدد قليل من الزائرين في مقام شمس

هذا . و لهذا السبب يسيطر صمت عميق وروحاني و سكينه قدسية و عرفانية على الفضاء الداخلي ل " مقام شمس " و في القرون الخالية ، عندما كان مريدو مولانا و الدارويش الدوارون (اتباع الطريقة المولوية) يذهبون إلى قونية كانوا يرون أنفسهم مكلفين بأن يزوروا مقام شمس قبل أن يذهبوا قونية كانوا يرون أنفسهم مكلفين بأن يزوروا مقام شمس قبل أن يذهبوا إلى ضريح مولانا ، و الآن أيضًا يعمل خاصة مريدي مولانا و دراويش المولوية على نفس ترتيب الماضي و آدابه ورسومه .

سر لم يكشف :

لا أحد من الباحثين و المؤلفين الذين كتبوا في شأن سيرة حياة مولانا كتابا أو مقالا في تناوله أن يجيب عن هذا السؤال : في اللقاء الثاني بين شمس التبريزي و مولانا الذي حصل برجوع شمس من دمشق بصحبة سلطان ولد و تديره ، هل الذي حدث فعلا هو أن شمسًا التبريزي بسبب الاستياء أو الخوف من غضب المخالفين المتعصبين وحقدهم ، ترك قونية مرة أخرى على نحو خفي غير معلوم من قبل ، أو أن أولئك الخصوم قتلوه و ألقوا جسده في بئر في إحدى الليالي على أثر مكيدة خطط لها من قبل ؟

ظلت حقيقة الأمر على امتداد القرون الماضية سرا مكتوما غير قابل للإفشاء ، وفي شأن الاختفاء المفاجئ لشمس كتب كل كاتب اهتم بالموضوع أمرا استمده من تخمينه وظنه . و في هذا الشأن يحسن أن يوضح الأمر بشيء من التفصيل :

واضح أن شمسًا التبريزي جاء إلى قونية في السادس من ربيع الأول و نزل في خان قوافل بائعي السكر . و في اليوم التالي ، و عند حلول وقت صلاة المغرب تقريبا ، و عندما كان مولانا ذاهبا إلى منزله راكبا بغلا ، و عدد من تلاميذه و مريديه يصحبونه و عدد آخر يمشون وراءه ، مرّ من أمام خان القوافل ، فما كان من شمس التبريزي ، الذي كان واقفا قريبا من محل مرور مولانا أمام مدخل الخان إلا أن يتقدم و يوقف مولانا و في الوقت نفسه يعرض عليه أسئلته العرفانية . ثم بعد الأسئلة و الإجابات ينزل مولانا عن البغل و يعانق شمسًا ، و يأخذه معه إلى منزلة . و منذ ذلك اليوم ، أخذ مولانا و شمس يجلسان معه و يتحدثان على امتداد الأيام و الأسابيع و الأشهر في مختلى خاص بهما في حجرة صغيرة و يغلقان الباب أمام الأغيار . و عندما كان مريدو مولانا وتلاميذه يرون أن مولانا يترك التدريس و الوعظ و يمضي معظم أوقاته مع رجل طاعن في السن غير معروف مغمور كانوا يضطربون اضطرابا شديدا و حيثما كانوا يرون شمسًا كانوا يهددونه بالقتل و يشتمونه ثم بعد مدة من مقاومة شمس التبريزي هذه التهديدات و الإهانات يترك قونية في خفاء و من دون إطلاع مولانا على ذلك و بسبب غياب شمس

ينزعج مولانا انزعاجاً شديداً و تضطرب حاله و يرسل أشخاصاً من أجل البحث عن شمس، ثم بعد فترة يصل خبر يقول إن شمساً يقيم في الشام (دمشق) و ابتغاء إرجاعه يكتب مولانا رسائل و غزليات مفعمة بالتأثر و التحرق ، و تصور عم الهجران و الفراق و عندما لا يصله جواب يرسل ابنه سلطان ولد إلى دمشق فينجح في الظفر برضا شمس بالعودة معه، فيعود شمس إلى قونية و يسارع مولانا إلى استقباله بوجد و اشتياق و في تجديد لقائه ينشغل مولانا بالرقص و الدوران و يعد مجالس السماع و ينشد الغزليات المبتهجة، و هاهنا يظهر المخالفون لشمس الندم على ما كان منهم قبل من تصرفات و تهديدات و يعتذرون منه ؛ولكن شيئاً فشيئاً فتبدأ الفتنة من جديد و يهددون شمساً جهاراً و تكراراً بالقتل و هكذا . . . إلى أن يختفي شمس في إحدى الليالي ، ولا يفهم أحد ولا يعلم أيكون الرجل مثل المرة السابقة ترك قونية أم أنهم قتلوه و أخفوا جسده و منذ ذلك الوقت ذكرت روايات مختلفة في شأن هذه الغيبة المفاجئة .

في كتاب " تحت القبة الخضراء " يعرض صاحبه كيفية قتل شمس التبريزي و هو ما أثبتناه في الصفحات السابقة ، و يضيف أن مولانا الذي كان يسمع صياح شمس في الليلة التي كانوا يهجمون عليه فيها ، يخرج من الحجرة ، لكنه لا يرى إلا قطرات دم . و يعتقد المؤلف (محمد أوندر) أن المخالفين الذين كان منهم ابن مولانا الأصغر علاء الدين ، بعد قتلهم شمساً ألقوا جسده في بئر مهجورة قريبة جداً . في ذلك الوقت يذهب مولانا إلى حجرة ابنه الأكبر سلطان ولد ، و يطلب إليه أن يفتش عن شمس . و في ظن محمد أوندر ، أن سلطان ولد عندما يخرج من البيت يطلع مباشرة على جلية الأمر و يجد محل القبر وربما بمساعدة قاتلي شمس يسترون القبر في الليلة نفسها . ذلك لأنه يعلم أن مولانا لو اطلع على قتل شمس لتألم و حزن كثيراً .

و للسبب نفسه و بعد مدة يقول لأبيه إن شمساً غادر قونية و اختفي . وإن سلطان ولد ، و كذلك الأشخاص الذين اشتركوا في إزهاق روح شمس ظلوا حتى نهايات حياتهم يكتُمون هذا السر .

مولانا أيضاً ظل لسنين كثيرة ينمي في قلبه أمل عودة شمس و ينوح لفراق مطلوبه و معشوقه الهارب من الألم و الهجر في قالب غزليات " ديوان شمس تبريز " التي تفصح هيجاناً وحالاً ووجداً ، و يمضي وقته في الدوران و السماع و التصفيق و الرقص .

هل مزار شمس التبريزي في قونية ؟

الأستاذ محمد أوندر ، الذي تولى لست سنوات (1952-1957 م) رئاسة المتحف و المكتبة عند تربة مولانا ، أوضح كيفية اكتشاف مزار شمس عَرَضًا ، في كتاب عنوانه " تحت القبة الخضراء " على نحو مفصل . ومن جملة ما قال في هذا الشأن : إن الأستاذ العالي المقام المحيط خيرا بمولانا عبد الباقي كليينارلي ، بعد مشاهدته مدفن شمس ، استبد به الوجد و أيد الرأي الكاشف لمزار شمس .

و إذا كان الترك يعتبرون " المقام " محل دفن الأوتاد و الأولياء " فإنه لم يتحقق كشف جديد في ذلك المحل ، إلا إذا قلنا : إن المراد من " المقام " حال في السير و السلوك ، كان في زمان الشيخ فريد الدين العطار و جلال الدين البلخي محل اهتمام كبير لكثير من المشايخ . و كان يحصل لشمس في نقطة أو موضع مشهور بين الفينة و الأخرى حال مقام و كان لزاما أن يخبر حبيبه مولانا بالحادثة أو المقام الذي كان يطلع عليه في سيره و سلوكه . ولهذا السبب ربما سمي ذلك الموضع بعد اختفاء شمس " مقام شمس " .

1- لا أحد من كتاب التذاكر في عصر مولانا - أي شمس الدين الأفلاكي و سيمسالار - كتب في أثره رأيا في شأن قتل شمس حتى على نحو مهم . ذكروا فقط بأن طبقات الناس المختلفة في الروم الشرقية و علاء الدين ابن مولانا الأصغر ، كانوا معترضين على إقامة الشيخ الكبير الغامض التبريزي في قونية . و سلطان ولد أيضًا في كتابه " ولدنامه " أخبر بفكرة اختفاء شمس . وحتى بعد وفاة والده لم يغد مستعدا لأن يذكر في " مثنويه " شيئًا في شأن مقام شمس .

2- أخالف رأى الأستاذ محمد أوندر ، الذي كتب في كتابه " تحت القبة الخضراء " يقول : " إنه بعد قتل شمس بأيدي الأشخاص ، الذين كان منهم الابن الأصغر لمولانا أيضًا ، ألقوا جسده سريعًا في بئر معطلة قريبة من منزل مولانا ، ثم في اليوم التالي و بموافقة سلطان ولد ، غطوا فوهة البئر بالطين . و حصل اتفاق بين القاتلين وابن مولانا الأكبر على أن لا يذكر شيء عن هذه الواقعة لأي شخص ، و تواصلوا مؤكدين بأنه

لا ينبغي أن يعلم مولانا أيضًا بهذه الفاجعة ، لأنه يزعم من ذلك كثيرًا ، و ستضطرب حالته النفسية ” و أعد ذلك غير منطقي ، بعيدا عن الصحة . وإذا ما قبلنا فكرة أن جماعة من القشريين المتعصبين و حتى طلاب دار العلم الكبرى في الروم الشرقية ، تصوروا شمسًا ضيفًا يلفه الغموض و مبتدعا و ساحرا ماهرا و كافرا حتى إنهم أعدوا خطة قتله من قبل على نحو دقيق و عرفوا الأفراد المتطوعين المأمورين بإجراء هذه الفاجعة الدموية ، الذين كانوا يعدون الدقائق في ليلة الواقعة مترصدين لتنفيذ العمل (إذا ما وافقنا على ذلك كله) علينا أن نقبل فكرة أنهم بعد تنفيذ برنامج قتل شمس لم يبقوا متفقيين و أنهم انطلقوا فرحين مسرورين مشتاقين راقصين مسرعين إلى محافل قونية المختلفة و استبدَّ بهم الفرح و اضطربوا أيما اضطراب و بشروا بقتل شمس بمباهاة و مفاخرة وربما في اليوم التالي زينوا المدينة بالأضواء ووزعوا النقل و سكر النبات على الناس . ذلك لأن خبر قتل شمس لم يكن خبرا عاديا لكي يظل مخفيا في عاصمة سلاطين السلاجقة عن فئات الناس ، خاصة رجال البلاط وقادة الجيش . و الخطباء و الوعاظ من دون أن يهتموا بكلام هذا و ذاك و بتوصية ابن مولانا الأكبر ، كانوا من فوق المنابر يخبرون الأهالي جميعًا بأن الشيطان الذي لا يذكر على اللسان و الساحر المجهول في النهاية تضرح بدمه . و جلال الدين البلخي أيضًا كان مُطلعًا على هذه الواقعة من طريق أصحابه أو خاصة أهله .

3- الأستاذ محمد أوندر المحيط خبرا بمولانا الذي هو شخصية كبيرة صاحبة نظر عند الأتراك – مع كل علمه و فضله – ليس له اطلاع دقيق على عالم التصوف النظري و العملي للسالكين المولويين خاصة ، سواء أكان ذلك في زمان شمس التبريزي أم بعد وفاة مولانا .

و أعتقد أنه إذا كان الأستاذ محمد أوندر قد طالع من وجهة عرفانية أجزاء المثنوي الستة ، أي دائرة معارف التصوف و العرفان و الديوان الكبير ، أي دائرة معارف العشق، و ” مقالات شمس ” فإنه يصنف عندئذ مع الأستاذ بديع الزمان فروزانفر و الأستاذ جلال الدين همائي و العلامة محمد تقي جعفري ، الذين يقرون يقينا القدرات الخارقة للعادة لمولانا في فضاءات الروح و الإشراق و العالم الباطني، مولانا الذي يتمتع برؤية غير عادية لماهية الوجود و عالم الغيب و يعتقد بضرب من الوحدة الكلية الكونية، مولانا الصوفي المخلص الذي كان ينظم مباشرة ما كان يحس به في عالم إلهاماته و كان يؤمن بالدعاءين : صلاة الإشراق و دعاء العشاق . و في هذا الشأن قال :

فالهواء و التراب و الماء و النار من عباده،

و هذه تبدو ميتة لي ولك ، أما عند الحق فهي حية

وإن كل ذرات العالم في الخفاء ،

تقول لك نهارا و ليلاً :

نحن سميعون و بصيرون و مسرورون
لكننا معكم يا من لم يسمح لكم بالأسرار ، صامتون
فامضوا من الجماد إلى عالم الأرواح
لكي تسمعوا ضجيج أجزاء العالم

فلا ينبغي أن يكون مولانا غير ذي علم بهذه الواقعة الدموية التي وقعت بقرب منزله، وهو الصوفي المخلص المؤمن المعتقد الذي يؤمن بأن الصوفية في حال المراقبة يحصلون على الإشراف على بواطن أحبائهم ، و عندما يبلغون درجة الكمال يقرؤون المكتوب في النفس من دون لفظ . و في هذا المعنى يقول :

فما الألفاظ حتى تفكر فيها

ما الألفاظ ؟ - إنها أشواك حائط الكرم

فلأضربن الحرف و الكلام و الصوت

حتى أتكلم معك من دون هذه الثلاثة

أيمكن أن يكون غير مطلع على هذا الذي حدث لشمس أي شمس ، حبيبه ؟ - ثم

يمتد عدم الاطلاع هذا لعشرات السنوات ؟

4- الأستاذ محمد أوندر يدرك تماما أنه في عصر مولانا كان السفر من قونية إلى دمشق بسبب البعد و صعوبة المسالك يمتد لأسابيع ولا يحصل بسهولة . و مع ذلك، يقبل مولانا المغني الممتلئ القلب ألما و حزنا أن يسافر إلى دمشق مرتين بمحبة ورضا خاطر ، متحملا و عثاء هذا السفر البعيد المتطاوّل المملوء بالمشقة . و السؤال هو : ألا يجب على أصحابه و مريديه و خلفاء مدرسته من وجهة أخلاقية ، أن يقولوا له: أي مولانا الحبيب في البيت و أنت تدور حول العالم ! شمس قتل وهو مدفون في قونية في موضع كذا . . . وأنت من دون طائل توطن نفسك على تحمل السفر ؟

5- ما جاء في كتب التذاكر و أقره الأستاذ بديع الزمان فروزانفر أيضاً و أثبتته في كتابه الرائع " رسالة في تحقيق أحوال مولانا " مبني على أنه عندما امتد السفر الثاني لجلال الدين البلخي إلى دمشق من أجل لقاء شمس ، لأشهر طلبت جماعة من الفضلاء و العلماء في قونية إلى السلطان السلجوقي أن يرسل عددا من ممثلي البلاط إلى دمشق لإرجاع مولانا إلى قونية . و قد وافق السلطان على ذلك و أرسل عددا من رجال البلاط إلى دمشق . و السؤال هو : هل السلطان السلجوقي أيضاً بعد انقضاء أشهر على اختفاء شمس لم يعلم بضرورة أن يُعلم الفقيه غير المنازع ورئيس دار العلم في قونية بحقائق قتل شمس ، بطريق ممثليه الذين أرسلوا و يُخبر مولانا بما حصل لمراده و يعلن مراسم تعازي البلاط و الناس المعزين في قونية من أجل التخفيف على مولانا ؟

6- مثلما ذكرت في الصفحات السابقة ، تعتمد أصول طريقة شمس و مولانا على أساس المباحث الروحية و معرفة النفس و الاطلاع على كثير من الأسرار و المكاشفة و الشهود و على أن يوصل السالك المتعجل إلى مقصده هو أنه لا يخشي الحادثات و النائبات ، لا يخشي الموت و القتل العشقي و العرفاني .

و في اعتقاد مولانا أن عاشقا صادقا مؤمنا مخلصا ، مثل شمس التبريزي ، عندما وصل إلى منزل العشق كان مثل قطرة سقطت في البحر ، أو مثل ذرة ترقص في الشمس المضيئة للعالم على الدوام ، أو مثل الجزء الذي يفني في الكل . و كثيرا ما كرر مولانا و شمس جهازا : نحن عاشقان مغرمان لأننا رأينا فيه (العشق) الحقيقة و نراها .

في الرحلة الثانية لمولانا الذي مضى إلى دمشق للبحث عن كتبه المعنوي ، الذي كان لديه رؤية للعالم خارقة للعادة ، أدرك من طريق سحر العشق و إكسير الشهود و بكل فراسته و درايته أن مراده ظفر بروضة ورد وصال " و إنا إليه راجعون " . و لهذا السبب استعاد هدوءه و أمر أصحابه بالاستعداد للرحيل إلى قونية ، و قال : قبل وفاة شمس كنت أرى نفسي في شخص شمس ، أما الآن فأشاهد شمسا في نفسي . و اعلموا الآن أنه في كل شعرة من شعر رأسي هناك شمس معلقة . ثم ألا يمكن أن نستخلص من الغزل الآتي الذي جاء في ديوان شمس ، أن شمسا أو عالم المعاني عند الرومي ترفع بنقاب التراب المظلم ؟ و إذا كان مصدقا بأنه قتل في قونية بأيدي المعاندين ، فهل أنشد هذه الأشعار في شأن ترجمان الحق :

عجبا ، ذلك المعشوق الجميل أين صار

عجبا ذلك السروي القد أين صار ؟

كان بيننا كالشمع ينثر النور

فأين صار و اعجبا ! من دوننا أين صار ؟

إن قلبي يهتز كالورق كل يوم (متسائلا :)

المعشوق في منتصف الليل ، وحيدا أين صار ؟

فأذهب إلى البستان وأسأل البستاني

عن ذلك الشبيه بغصن الورد الجميل : أين صار ؟

أهيم في الصحراء كالمجنون (متسائلا)

ذلك الغزال في هذه الصحراء أين صار ؟

ها قد صارت عيناى كمنهر جيحون من البكاء (متسائلين :)

ذلك الجوهر في هذا البحر ، أين صار ؟

وإني أسأل القمر و الزهرة في كل ليلة :

ذلك الذي وجهه كالقمر فوق هذا المرتفع أين صار ؟

فإذا كان لنا فكيف يكون مع الآخرين ؟
و إذا لم يكن هنا هناك أين صار ؟
و إذا كان قلبه وروحه متصلين بالله
حين غاب هذا الماء و هذا الطين أين صار ؟
فقل بصراحة : شمس الدين التبريزي
حين قال : " الشمس لا تخفي " أين صار ؟
أو هل في قونية في إحدى ليالي السماع إذ سحره تذكر شمس قال هكذا :
هذا الأجل أصم لا يسمع الآنين
ولولا ذلك لبكي دماء من دم الكبد
و جلاد الموت هذا لا قلب لديه البتة
ولو كان قلبه من حجر لبكي
وقد رحل شمس التبريزي ، فأين الإنسان
لكي يبكي على ذلك الذي هو فخر البشر ؟

و ذكر الأفلاكي في شرح السفر الثاني لمولانا في كتابه " مناقب العارفين " قوله : " مع
أن حضرة مولانا لم يظفر بشمس الدين من جهة الصورة و الظاهر في دمشق وجد من
جهة المعنى عظمته و أشياء أخر في نفسه وداخله " .
و هذه المقولة تقرؤها في أشعار سلطان ولد في " مثنوي ولدي " على هذا النحو : " في
بيان أنه مع مولانا - قدسنا الله بسرّه العزيز - لم يجد شمس الدين التبريزي - عظم
الله ذكره - في الصورة في دمشق ، وجده في المعنى في نفسه ، لأن تلك الحال التي كانت
لشمس الدين حصلت هي نفسها لحضرتة :

لم ير شمس تبريز في الشام
بل رآه في نفسه ظاهراً كالقمر
فقال : مع أننا في الجسد بعيدون عنه ،
من دون الجسد و الروح ، نحن كلانا نور واحد
فانظر إليه إن شئت أو أنظر إلى
فأنا عندما أكون أنا إياه ، لماذا أبحث عنه ؟
أنا عينه ، أتحدث عن نفسي
كنت ، يقينا أبحث عن نفسي
كالخمرة لا تجيش من أجل أحد
بل تسعى طالبة حسنهما و جمالها

و قال : شمس الدين الذي كنا نتحدث عنه

عاد إلينا ، فلماذا نحن نائمون ؟

وقد أبدل لباسه و جاء

لكي يظهر جماله و يتبخر

و قد ذكر الأستاذ الدكتور محمد على موحد في مقدمته لـ " مقالات شمس تبريزي "

في هذا الشأن قوله :

" إن مولانا ، تبعاً لمُشرب التصوف ، يرى الأولياء مظاهر لحقيقة واحدة تظهر

في أدوار مختلفة في قوالب متباينة حيناً في صورة نوح و حيناً في صورة إبراهيم و حيناً

في صورة موسى و عيسى و غيرهم عليهم السلام :

ذلكم المرتدي قباء أحمر ، الذي طلع السنة الماضية

طلع في هذه السنة مرتدياً خرقة زرقاء

ذلكم هو الحبيب عينه و إن تغير لباسه

فقد مزق ذلك الرداء و طلع مرة أخرى

فإذا صوبت الشمس للغروب فليس ذاك فناء لها

فقد طلع ذلك الذي هو قمر الأنوار من برج آخر

إن هدف الابن الأكبر لمولانا مما يقوله هو أن والده الكبير كان يحس بشمس في

وجوده . و يعني هذا أنه كان يشاهد معنى سلطان المعشوقين و حقيقته في نفسه .

إضافة إلى ذلك كان كلامه كلام شمس و كانت آراء شمس آراءه أضع مولانا "

أناه " و صار عين شمس ، فإذا أنشد شعراً رأى شمساً في كل كلماته و مصاريعه :

لأنني حيران و مدهش من لقائك صرت كخيال من خيالاتك

و إن فكري و تصوري من روحك فكأنني ألفاظك و عباراتك

نظم مولانا في المثنوي بحثاً كاملاً و مهما في شأن معجزة العشق و معرفة الإنسان

الكامل و كتب المرحوم الأستاذ جلال الدين همائي في تفسير أشعار مولانا في موضوع

معرفة الإنسان الكامل قوله : " كما أن معرفة طريق الحق و تمييزه من طرق الباطل أمر

عسير مشكل لا تحل عقدهته إلا بمدد النصرة و الهداية الإلهية تكون معرفة الإنسان

الكامل و تمييز أولياء الحق من المدعين أهل الباطل أيضاً من المراحل الصعبة و الخطرة

جداً في السير و السلوك أما مولانا فإنه من أجل النجاة من هذين الطريقتين

المملوءين بالأفات يقدم ضابطاً كلياً و مصباحاً هادياً على هذا النحو :

إن عمل الرجال نور و حرارة

و أما عمل الأخساء الدون فاحتيال و تواقح

إن شراب الحق ختامه المسك المصفي

وأما الخمر فختامها التنن و العذاب

و يجعل جلال الدين البلخي النكرة التبريزي " مفخر الآفاق " و الروح المصورة ، و " أصل الوجود و الإيجاد " و " شمس العالم " و يرواية ابنة سلطان ولد :
الخضر عنده شمس التبريزي ذلكم الذي إذا مازجته و خالطته
لم تشتت أحدا أيا كان بحبة شعير و مزقت حجب الظلام
ذلك الذي كان مستورا عن المستورين
الذي كان العقل لجملة الواصلين

و الاستاذ هُمائي في كتابه " مواوي نامه " ذكر و أعلن أن مولانا من المصطفين
الخاصين للحق تعالى ، و ينسب له مقاما مساويا تماما لمقام شمس التبريزي . و باعتراف
كثير من المشايخ و العارفين أن هذا العاشق و هذا المعشوق المخلصين المعتقدين قد
وصلا في السير و السلوك يقينا إلى مقام " حق اليقين " فكيف يمكن تصديق أن مولانا
مع أنه في هجران شمس كان يعيش في حال من هيجان العشق و السكر و الاستغراق
الدائم لم يكن قادرا على الاطلاع على قتل مراده في قونية ؟

و بناء على ذلك و مراعاة للأمور السابقة أقول جازما أنه : " لا مقام شمس " ولا مزار
شمس ، المجاور لضريح مولانا ، هو مدفن الشيخ التبريزي ، و إذا كان الأمر كذلك ، فلا
شك في أنه بعد وفاة مولانا ترك صلاح الدين زركوب أو حسام الدين جلبي أو شخص
آخر من أقطاب المولوية في القرون الماضية كتابه ، أو لوحا بقرب مدفن شمس ، لكي
يخلص الأجيال اللاحقة من الشك و التردد و الخيال و الظن الذي لا أساس له في هذا
الشأن .

و السؤال هو : أين إذا مزار ذلك الشخص الذي لم يكن يجد فضاء يتسع لنبوغه و
فراسته في ميدان العرفان إلا في قونية ؟
فمن الخير أن تبحثوا عن مزار العارف الذي تمتع بكل هذه الغرابة في الطبع في
البيت الآتي :

بعد الوفاة لا تبحث عن قبرنا في الأرض
إن مزارنا في صدور العارفين

obeikandi.com

المحتوى

5	مفتتح.....
31	الخلفية التاريخية
45	اللقاء الأول.....
57	اضطرابات و طوفان.....
67	العشق عند مولانا.....
91	رسائل شعرية
95	سماح مولانا.....
101	في مدرسة شمس الفكرية.....
107	ضجيج في الخانقاه
113	بين ديوان شمس و المثنوي.....
133	من قصص المثنوي
189	نحن عدم.....
195	عالم الغيب
201	العشق أساس الوجود.....
211	تجليات العشق.....
217	من شمس؟
221	الإنسان الكامل.....
225	بحر العشق الذي لا تبدوله ضفاف.....
231	منزلة شمس العلمية.....
237	تجارب شمس العرفانية
243	لماذا جاء شمس إلى قونية؟.....

- شمس في حومة قونية ص 247
- ابن عربي و شمس ص 253
- أنا و شمس ص 259
- شمس ذو قدرة روحية خارقة للعادة..... ص 263
- رجوع شمس..... ص 267
- معنى الكمال المطلق..... ص 273
- شمس المضى لقلبي..... ص 279
- آخر لقاء ص 287
- رُبَاعِيَّات جَلال الدّين الرّوميّ..... ص 291
- المباحث الإلهية عند جلال الدّين الرّوميّ..... ص 325
- أين مزار شمس ؟ ص ٤٤٥
- هل مزار شمس التبريزي في قونية ؟..... ص 449

obeikandi.com